الفهرس العام

للمجلد الرابع (سنة ١٣٥٢) من مجلة نور الاسلام

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٤٦	١	أبو حنيفة	أبا حنيفة
٢٢٧	٨	إجباهم	إجبارهم
٢٦٨	٣	إن محمد	إن محمدا
٦٧٤	١٦	وقال السبكى	وقال ابن السبكى
٢٧١	٢١	عزيقها	عذيقها
٢٧٢	٢١	أونهم	وأنهم
٥٢٣	٦	حاشيته	ماشيته
٦٧٩	٢٢	لمن يريد	من يريد

ووقع فى الملزمة الانجليزية من العدد السابع هذا الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	١١	الدَّين	الدِّين
٣	١٢	الدَّين	الدِّين
٣	١٣	ويُهدى	ويَهدى
٣	١٤	إلاَ	إلَّا
٣	١٤	جاءهمْ	جاءهمُ
٣	١٥	ربَّك	ربِّك
٣	١٥	أوْرثوا	أورثوا
٣	١٧	آمنث	آمنت
٣	١٧	بينكمْ	بينكمُ
٣	١٨	أعمالَنا	أعمالُنا
٣	١٨	أعمالَكم	أعمالُكم
٣	١٨	وبينكمْ	وبينكمُ
٤	١٥	الدَّين	الدِّين
٤	١٥	إلَا	إلَّا
٤	١٧	ومنْ	ومنِ
٤	١٨	اهتدُوا	اهتدَوا
٥	٣١	فطرةُ	فطرةَ
٥	٣٢	القيُّم	القيِّم
٧	٢٨	أفغيرُ	أفغيرَ
٨	٨	وفَى	وفِى

تصحيح

وقع خطأ فى شكل الآيات الواردة فى الملزمة الانكليزية نرجو تصحيحه

صفحة	سطر	خطـا	صـواب
٣	١١	الدَّين	الدِّين
٣	١٢	الدَّين	الدِّين
٣	١٣	ويُهدى	ويَهدى
٣	١٤	إلاَ	إلَّا
٣	١٤	جاءهمْ	جاءهمُ
٣	١٥	ربَّك	ربِّك
٣	١٥	أوْرثوا	أورثوا
٣	١٧	آمنث	آمنت
٣	١٧	بينكمْ	بينكمُ
٣	١٨	أعمالَنا	أعمالُنا
٣	١٨	أعمالَكم	أعمالُكم
٣	١٨	وبينكمْ	وبينكمُ
٤	١٥	الدَّين	الدِّين
٤	١٥	إلَا	إلَّا
٤	١٧	ومنْ	ومنِ
٤	١٨	اهتدُوا	اهتدَوا
٥	٣١	فطرةُ	فطرةَ
٥	٣٢	القيُّم	القيِّم
٧	٢٨	أفغيرُ	أفغيرَ
٨	٨	وفَى	وفِى

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

نُورُ الإِسْلَامِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٢	المجلد الرابع

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف } سابقا
ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى }

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	صـ
داخل القطر المصرى	٤٠
خارج القطر المصرى	٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب ... ... — داخل القطر	٢٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب ... ... — خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد من أمددته بتوفيقك فلم تزل يراعته ، ونثنى عليك ثناء من اشترى حكمتك بلهو الحديث فربحت تجارته ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى أوذى فى سبيلك فصبر ، وجاهد خصوم هدايتك فظفر ، وعلى آل بيته الذين اقتدوا بسنته ، فكانوا أعلام الفلاح ، وأصحابه الذين ساسوا العقول بالحجة البالغة ، فذهبت الأباطيل كرماد اشتدت به الرياح .

أما بعد : فقد قضت هذه المجلة سنتها الثالثة وهى سائرة على الخطة التى رسمتها لنفسها ، جادة فى العمل الذى ألقى على كاهلها ، غير مكترثة بالعقبات التى تعترض طريقها. أوضحت حقائق شرعية كانت غامضة ، وفصلت القول فى مواضيع اجتماعية كانت مجملة ، ونسقت مباحث أدبية كانت متفرقة ، وأزاحت عن ساحة الدين شبها كانت قائمة ، وكشفت عن سرائر فرق تكيد للاسلام ، فظهر على وجوه هذه الفرق غَبَرَة ترهقها قَتَرة . ومما كسا المجلة وقارا ، وجعل غيثها النافع مدرارا ، هذه الدروس التى تلقيها على قرائها فى تفسير القرآن العزيز ، وشرح الحديث الشريف ، وتحقيق البحث فى أصول الدين ، وتحرير أحكام عملية إجابة للسائلين .

وعمدت المجلة الى آراء الغرب ، فنقلت الى العربية ما آنست فيه رشدا ، ثم نظرت الى مبتكراته ، فوصفت لقرائها ما يجديهم الاطلاع عليه نفعا . ومن المعروف أن مكتب الترجمة بإدارة المجلة ، يتألف من أساتيذ ينقلون الى العربية ما ينشر فى المجلات أو المؤلفات فى اللغات الثلاث : الانكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ؛ فمن الميسور لقراء المجلة أن يطلعوا على الحركتين العلميتين : الشرقية ، والغربية ، فى صفحات مجتمعة .

ورأت المجلة ، أن الاسلام دين العالم أجمع ، فيجب أن تستضىء بهدايته الشعوب غير العربية كما تستضىء بها الشعوب العربية ، وليس فى استطاعتها أن تخاطب كل شعب بلسانه الخاص ، فأخرجت بعض صحفها فى اللسان الانكليزى ، إذ كان أوسع اللغات انتشارا بين الشعوب التى لا تتكلم العربية ، لتبث بوسيلته الدعوة الى الحق ، بين من يفقهون هذا اللسان ، فى الهند والصين وأمريكا وجنوب أفريقية ، وغيرها من البلاد .

ولما رأت رياسة الأزهر الجليلة ما آتته هذه الصحف المحررة باللسان الانجليزى من الفائدة العظيمة فى إيقاظ طوائف كثيرة لحقائق الدين وواجباته ، شرعت تفكر فى إصدار مجلة إسلامية مستقلة تحرر باللسان الانجليزى ، والصحف التى كانت قد خصصت فى مجلة نور الاسلام للسان الانجليزى تضاف الى ما يحرر باللغة العربية .

وكان لما تكتبه المجلة أثر حسن فى مصر وغيرها من الأقطار المجاورة أو النائية . ويشهد بعظم هذا الأثر ، كثرةُ الرسائل التى ترد فى الثناء على خطتها ، ونماء عدد المقبلين على قراءتها واقتنائها . ومما أكد ثقتنا بنجاح سعيها ، وزاد أقلام محرريها نشاطا على نشاطها ، هـذه الصلات التى انعقدت بينها وبين جماعات من المسلمين فى أقطار شاسعة . ومن فوائد هـذه الصلات أن تنتشر الثقافة الاسلامية الوضاءة فى العالم الاسلامى ، تلك الثقافة التى مطلعها الكتاب والسنة وسيرة السلف ، وهى التى ترافق العقول ما سارت فى طريق العلم والاصلاح ، وتحميها من موبقة تحريف نصوص الشارع عن مواضعها ، لتوافق أهواء غالبة ، أو آراء لم تقم على صحتها أدلة بينة .

ولا نزال نذكر أن لحضرات مراسلى المجلة وقرائها فضلا فى نجاحها وانتظامها ، واتساع مدى دعوتها ، فنقابل مؤازرتهم ونبل هممهم بجزيل الشكر ، ونرجو من الله تعالى نعمة التوفيق والتأييد .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفنيد مذهب القاديانية

كتبنا فى الجزء السابع من المجلد الثالث من « نور الاسلام » مقالا فى نشأة النحلة القاديانية ، وأوردنا فيه شيئا من نزعات هذه النحلة الفاسدة ، وأرينا القراء أنها نحلة مارقة من الدين ، عاملة على تقويض أركانه تحت ستار اسم الدعوة إليه . كتبنا ذلك المقال لنفتح أعين جماعات المسلمين على جانب مما يبيته غلام أحمد وأتباعه من شر ، حتى لا يغتر أحد بما يزخرفونه من قول ، أو بما يخلعونه على أنفسهم من ألقاب زائفة . وقد عنيت بنشر هذا المقال صحف متعددة ، وكان له — بتوفيق الله تعالى — أثر فى إيقاظ من كانوا عن هذه النحلة فى غفلة ، حتى تبرأ منها فريق كانوا يحسبونها على شىء من الرشد ، ونبذوها نبذ النواة . أما من جعل الله صدورهم ضيقة حرجة ، فقد استغاثوا داعيتهم بفلسطين لعلهم يجدون عنده من قوة الجدل ما يذود عن ترهاتهم ، ويسترفضائحهم ، فكتب مقالا شغل به صفحات كثيرة من أوراق يصدرونها لترويج مزاعمهم فى البلاد العربية ، ولم يزد فى هذا المقال على أن اعترف ببعض ما عزوناه الى نحلتهم من زيغ وإلحاد ، وذهب ببعضه مذهب التأويل المنبوذ على البداهة ، وقابل بعضه بالإنكار ، على الرغم من أنه وارد فى كتب كبيرهم الذى علمهم اشتراء الدنيا بالآخرة ، أوفى كتب بعض زعمائهم الذين يرونهم بمقربة من النبوة . وخيلت له نفسه أنه يعرف من بلاغة اللسان العربى ما يقوى به على الخوض فى تفسير القرآن الكريم وشرح

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتخبط فى مباحث لا يدرى كيف يردها ولا كيف يصدُر عنها .

وها نحن أولاء نرفع الستار عن جانب آخر من تزوير غلام أحمد ، ونأتى الى مقال داعيتهم ، فنعرض على حضرات القراء قطعًا من زوره وقلة درايته ، ليزدادوا علما بأن القاديانية نحلة ملفقة من مزاعم لا تتصل بعقول هيأها الله تعالى للهداية ، ولا تروج فى نفوس أخذت من التعليم أو التهذيب ما فيه كفاية .

ابتدأ داعية القاديانية بمقدمة ساق فيها آيات نزلت فى حق أنبياء الله الأكرمين ومن يجحد نبوتهم من المبطلين ، محاولا تطبيقها على حال غلام أحمد ومن يحذّرون الناس من ضلاله المبين ، ولا نعيأ بهذا التمثيل الفاسد ، فان ما كتبناه فى نشأة نحلتهم ، وما ضربناه من الأمثال على بهتان رئيسهم ، يردّ تلك المقدمة على عقبها خاسئة ، ويحقق للقراء أن موقفنا فى وجه غلام أحمد وأتباعه إنما هو موقف حزب الله فى وجه مسيلمة وسجاح وأمثالهما ممن يفترون على الله الكذب ، ويدعون أنه يوحى إليهم ، ولم يوح إليهم بشىء .

خيبة مدعى النبوة كذبا :

قلنا فى مقالنا السابق : إن مدعى النبوة قد يذهب فينقطع أثره ، وقد يبقى لدعوته بين طائفة من الجاهلين أثر ، فاندفع داعية القاديانية يعدّ هذا مخالفا للنصوص القرآنية ويزعم أن كل من يدعى النبوة لا يمهله الله تعالى سنين دون أن يبيده ، ولا تروج دعوته ولو عند طائفة لا يكادون يفقهون حديثا ، وأخذ يسرد آيات من القرآن يضعها فى غير مواضعها ، ويضيف إليها من المعانى ما لا يصح أن يستنبط منها ، فأورد قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) وقوله تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ) وقوله تعالى :

(قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) وقوله تعالى: (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) وقوله تعالى: (لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) وقوله تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ).

أورد داعية القاديانية هذه الآيات، وبنى عليها أن غلام أحمد ادعى النبوة وبقى نحو ثلاثين سنة، ولم يأخذ الله منه باليمين، ولم يقطع منه الوتين، وأفلح فى دعوته، فدعواه الوحى والنبوة إذن صادقة.

والواقع أن هذا الداعية لا يفهم لآيات الله معنى، ولا يعرف لسنن الله فى الخليقة حكمة. يدلنا القرآن والمشاهدة على أن الله تعالى قد يملى لبعض المبطلين فيمدّهم فى أعمارهم، أو يكثر أموالهم وأولادهم، أو يجعل لهم من صنف الجاهلين شيعة، ثم يأخذهم بعد هذا أخذ عزيز مقتدر، قال الله تعالى: (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) وقال تعالى: (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ).

ومما يدل على أن بعض المضلين قد يجد فى الناس من يتبعون خطواته، ويهيمون فى واد من ضلالاته، فتحق عليهم كلمة العذاب التى حقت على من قبلهم، قوله تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) وقوله تعالى: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) فبقاء بعض المضلين أمدا يعيثون فيه مفسدين، ويأخذون فيه بأعنة بعض الغافلين أو المغفلين، لا ينقض سنة من السنن

الكونية ، ولا يخالف نصا من النصوص الشرعية ، وقد وافق داعية القاديانية على أن مدعى الإلهية قد ينتشر مذهبه فى طائفة من الناس ، ويترك من بعده أتباعا ؛ وجعل طائفة البهائية من هذا القبيل ؛ ويحصر سرعة الإهلاك وعدم انتشار الدعوة فيمن يدعى الوحى والنبوة ؛ وقال فى الفرق بين مدعى النبوة ومدعى الإلهية : إن نشر دعوة مدعى النبوة آية من آيات الله ، ولا يعطى مفتر هـذه الآية لئلا يلتبس أمر النبى بالمتنبى ، أما مدعى الإلهية فانه يدعى أمرا مستحيلا ، فليس هناك موضع التباس .

وكلامه هذا يقتضى أن الله تعالى يهلك المفترى إذا كانت دعواه محتملة للصدق ، لئلا يلتبس على الناس أمره ، أما إذا قامت الأدلة الكافية على بطلان دعواه ، فانه يجوز إمهاله وانتشار دعواه فى طائفة من الناس .

وإذا كان داعية القاديانية يعترف بأن المضلل الذى تقوم الأدلة على افترائه قد تتأخر عقوبته إذ لا يلتبس المبطل بالحق ، قلنا له : إن الأدلة القائمة على انقطاع النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم قاطعة ، فقد تظافر على ذلك الكتاب والسنة المتواترة والإجماع ، فيجوز أن يكون تأخير إهلاك غلام أحمد ، وترك أباطيله تنتشر بين طائفة من الناس ، من ناحية أن الأدلة القائمة على بطلان دعواه الوحى والنبوة قاطعة ، وليس بينها وبين إزهاق روح تلك النحلة المارقة إلا أن يتناولها أهل العلم بالبيان ، ويطاردوا بها دعاة القاديانية فى كل زمان ومكان .

فإن قال داعية القاديانية : لو كانت الأدلة على انقطاع النبوة قاطعة لم يخالف فيها غلام أحمد ومن انحدروا فى ضلالته ، قلنا : إنكم سلمتم أن الأدلة القائمة على افتراء رئيس البهائية قاطعة ؛ وقد عمى طائفة البهائية عن هذه الأدلة ، وليسوا بأوفر فى الغباوة منكم نصيبا ، ولا أحط منكم فى الجهالة دركا ، ولا أشد منكم فى اشتراء الدنيا بالدين تهالكا .

فدعوى النبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم معلومة البطلان من الدين بالضرورة ، فمن ادعاها لا يشتبه حاله بحال المحق البتة ، فمن الجائز إذن أن يمهله الله تعالى كما يمهل مدعى الإلهية ، ثم يُسحته بعذاب فى الدنيا أو الآخرة .

ولنعد الى بيان تخبطه فى الآيات التى ساقها على أن مدعى النبوة يعجل الله بعقوبته ، ويمنع من انتشار دعوته فنقول :

أما قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) وقوله تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ) فإنما يدلان على أن المفترى على الله تعالى لا يفلح ، وليس معنى عدم الفلاح بمقصور على إهلاكه بسرعة ، وخيبة دعوته بحيث لا تجد سامعا ولو من الطبقة التى هى أقرب الى الحيوان الأعجم منها الى الانسان ، بل يكفى فى تحقق عدم الفلاح فوزُ أنصار الحق عليه فى الدنيا ، والتحاقه بزمرة الأشقياء فى الأخرى .

ثم إن عدم الفلاح قد جعل فى الآية الثانية مما يترتب على التكذيب بآيات الله ، أفيبلغ الخلط فى الحديث بهذا الداعية أن يدعى أن كل من يكذّب بآيات الله يعجل الله بإهلاكه فى الدنيا .

وأما قوله تعالى : (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) وقوله تعالى : (لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ) فان هاتين الآيتين لا تدلان على أكثر من أن الذى يكذب على الله تعالى يصيبه جزاء كذبه فى الدنيا أو فى الآخرة ، ويجازى مع ذلك بالخيبة والحرمان من بلوغ المقصود والظهور على حماة الحق . وقد أجرى الله تعالى على لسان غلام أحمد ما دل على سخافة عقله ، وفساد سريرته ، وألقى به فى خُذلانٍ حال بينه وبين الفلاح فى الدنيا ، وما بعد الموت أشد وأبقى .

على أن الآية الثانية لم تقع خطابا لنبي ، وإنما هي من قول موسى عليه السلام خطابا لقوم فرعون ، وليس فيها ما يدل على أن الله تعالى يسرع بإهلاك مدعي النبوة كذبا ، ويصرف عنه حتى القلوب التي تقضي فيها الشياطين ليلها ونهارها ، وغاية ما تدل عليه أن المفترى على الله يخيب في دعوته ، ويصيبه جزاء فريته . وإن دعوة لا تروج إلا عند نفر لا يفرقون أو لا يريدون أن يفرقوا بين الليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، لدعوة خاسرة .

وأما قوله تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) فليس المراد منه تقرير أن الله يعجل بإهلاك كل من يدعي النبوة كذبا ويقطعه عن الحياة لأول ما يدعي النبوة ، حتى إذا ادعى أحد السخفاء النبوة ، وعبث بعقول طائفة من البله ، أو اشترى نفوس طائفة من البؤساء ، وعاش نحو ثلاثين سنة ، قلنا : هذا صادق في دعوى النبوة ؛ وإنما نزلت هذه الآية في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حفه الله تعالى بدلائل الصدق من كل جانب ، بحيث لا يجد ذو الفطرة السليمة أو العقل الراجح الى تكذيبه فيما يخبر به عن الله تعالى منفذا ، فلو كان هذا الذي استقامت سيرته ، وبهرت حكمته ، وثبتت معجزته ، قد تقوّل على الله تعالى بعض الأقاويل ، لكان الضرر من تقوّله على الله تعالى عظيما ، إذ ليس في أيدي الناس ما من شأنه أن يدل على أن ما بلّغه متقوّل على الله ، فكان من مقتضى الحكمة أن يأخذ الله منه باليمين ، ثم ليقطع منه الوتين ؛ أما من تقوم الأدلة الجلية على أنه كاذب ، كغلام أحمد ، فقد يملي له الله تعالى لحكم ، منها إظهار فضل العلماء الذين يجاهدون في إنقاذ الغافلين من مهالك دعوته الخاسرة .

هذا وقد ذكر الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى : (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) أن المعنى : منعناه عن ذلك (أي التقول) إما بإقامة الحجة بأن كنا نقيض له من يعارضه

فى التقول ، فيظهر للناس كذبه فيه ، فيكون ذلك إبطالا لدعواه وهدما لكلامه ، وإما بأن نسلب منه القوة على التكلم بذلك القول .

ونحن نعلم أن الله تعالى قد نصب الأدلة على كذب غلام أحمد ، وقيّض له بعد ذلك طائفة من العلماء ، فدفعوا باطله بالحجة ، ونادوا فى الناس بأنه مزمار من مزامير الشيطان ، حتى ازداد كذبه وضوحا ، ودعوته خيبة ، وسريرته افتضاحا .

وقد أجرى الله على لسان غلام أحمد آيات تدل على أن ما يدعيه زور وبهتان ؛ ومن هذه الآيات أنه كان قد رغب فى التزوج بفتاة من بنات بعض أقاربه ، وسبق الى ظنه أن والدها لا يحجم عن تزويجه إياها ، فزعم أن اقترانه بها قد تقرر بطريق الوحى ، ولكن أهل الفتاة امتنعوا من تزويجه إياها ، وعزموا أن يزوجوها برجل غيره ، فلما بلغه هذا العزم ، زعم أنه أوحى إليه مرة أخرى أن من يتزوجها غيره يموت فى مدة لا تتجاوز ثلاث سنين ، ثم تصير الفتاة زوجا له ، ولكن أهل الفتاة موقنون بأن غلام أحمد غير صادق فيما يزعم ، فزوجوا ابنتهم من رجل مسلم يدعى « ميرزا محمد سلطان » ودامت العشرة بين الزوجين ، واستمرا فى حياة ، وقد مات القاديانى فى ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٨ وبقى محمد سلطان يعيش مع زوجه عيشة راضية الى ما بعد سنة ١٩٢٠ .

ووقع غلام أحمد فى بهتان آخر ، إذ زعم فى تأليفه المسمى « إعجاز أحمد » أن من علامات صدقه سير القطار بين الحرمين الشريفين «فقال : شهدت السماء والأرض على صدقى ولكن أكثر الناس لم يقبلونى ، أنا الذى عطلت الإبل ، وصدق الخبر الغيبى « وإذا العشار عطلت » فى وقته ، وأيضا صدق الحديث (ليتركن القلاص فلا يسعى عليها أحد) حتى إن منشئ جرائد العرب والعجم كتبوا فى جرائدهم أن القطار الذى يجرى بين مكة والمدينة من علامات المسيح الموعود » .

يقول هذا وهو لم يدخل الحرمين الشريفين ولو لأداء فريضة الحج ، والإبل لم تعطل فى وقته ، والقطار لم يسر بين مكة والمدينة فى وقته ، بل الى هذا اليوم .

انقطاع النبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لنا أن نكتفي بسوق الشواهد على أن غلام أحمد بعيد من النبوة والصلاح بُعد الثرى من الثريا . ولنا أن نكتفي من هذه الشواهد ببعض أقوال صدرت منه ، فجاءت تضرب لسخافة الرأى وظلمة القلب أوضح مثال . ولسنا بعد هذا فى حاجة الى محاورة أتباعه فى أن النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم منقطعة أم باقية ، إذ على فرض بقائها لا يتصور ذو عقل أن يكون من مظاهرها رجل يقول ما لم يقع ، وما لا يقع . وكيف يحوز النبوة من لا يتعفف عن الكذب على المخلوقين ؟ !

وإذا خرجنا فى مجادلة القاديانية عن حديث نبوة رئيسهم المزيفة الى بحث انقطاع النبوة من أصلها ، فلأن هذه الطائفة لا تفتأ تشغل ألسنتها بدعوى أن النبوة لم تنقطع ، فحق علينا تذكير المسلمين بأن دعواهم هذه لا تلتقى مع حقيقة الدين الحنيف فى نفس واحدة .

أوردنا فى المقال السابق نبذة من أدلة انقطاع النبوة بعد الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ، ومن هذه الأدلة قوله تعالى : (وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) وقلنا : إن الخاتم بمعنى الآخر ؛ وهذا هو المعنى الذى يذكره علماء اللغة والتفسير لهذه الكلمة ، ففى لسان العرب : وختام القوم وخاتِمهم وخاتَمهم : آخرهم ، والخاتِم والخاتم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى التنزيل العزيز : (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ) أى آخرهم . وأما التفسير فلم نر مفسرا يذكر فى بيان «خاتم النبيين» معنى غير معنى الآخر ، ووردت الأحاديث مؤيدة لهذا المعنى ، وسقنا منها فى ذلك المقال جملة ، وهى لا تقصر عن درجة المتواتر .

ومن الأحاديث الصريحة فى هذا المعنى ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى)

فشقّ ذلك على الناس، فقال: (ولكن المبشرات) قالوا يا رسول الله: وما المبشرات؟ قال: (رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة [1]).

ومنها حديث عبد الله بن عمر وهو: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمودع، فقال: (أنا محمد النبي الأمي — ثلاثا — ولا نبي بعدي [2]) ومنها حديث أبي هريرة: (وأرسلت الى الخلق كافة وختم بي النبوة [3]) الى غير هذا من الأحاديث الصريحة الصحيحة المختلفة الأسانيد.

وبعد هذه الأحاديث إجماع الأمة على أن من ادعى النبوة بعد رسول الله فهو من الضالين المضلين، قال الامام ابن كثير في تفسيره: «قد أخبر الله تعالى في كتابه، ورسوله صلى الله عليه وسلم في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل» وذكر بعض من ادعوا النبوة كالأسود العنسي ومسيلمة ثم قال: «فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها» وقال الامام ابن عطية في تفسير آية (وخاتم النبيين): هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا متلقاة على العموم التام، مقتضية نصاً أن لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم. وقال ابن حزم: «فكيف يستجيز مسلم أن يُثبت بعده عليه السلام نبيا في الأرض حاشا ما استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآثار المسندة الثابتة في نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان» وقال أبو حيان في تفسيره (البحر): ومن ذهب الى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو الى أن الولي أفضل من النبي، فهو زنديق».

---

(١) رواه الترمذي. (٢) رواه الامام أحمد. (٣) رواه مسلم.

دفع شبهة يتشبث بها القاديانية :

أورد داعية القاديانية آيات من القرآن الكريم زاعما أنها تدل على عدم انقطاع النبوة ، منها ثلاث آيات وردت فى إرسال الله الرسل واصطفائه لهم ، وجاء التعبير فيها بصيغة المضارع ، وهى قوله تعالى: (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ) وقوله تعالى : (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) وقوله تعالى : (يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى) فقال فى الآية الأولى : إنها تقتضى استمرار الاصطفاء دائما ، وقال فى الآية الثانية : إنها تدل على أن الله دائما يجتبى من رسله من يشاء ، وقال فى الآية الثالثة : إنها صريحة فى بيانها .

كنا قد تعرضنا فى المقال السابق لهذا الوجه من تمويههم ، وقصرنا البحث على آية (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ) فقلنا : أما المضارع فى قوله : (الله يصطفى) فمحمول على الماضى ، واختيار صيغة المضارع للدلالة على أن اصطفاء الله للرسل كان يتجدد حينا فحينا ، فكتب داعية القاديانية منكرا استعمال المضارع فى الاستمرار للماضى فقط ، وهذا إنكار منه لمعنى قرره فحول علماء البلاغة ، كصاحب المفتاح ، والسيد الجرجانى ، والسعد التفتازانى ، ولم ينازعهم فيه أحد ممن ينظر فى العلم بشىء من العقل .

فالحق أن المضارع يستعمل للدلالة على تجدد الفعل فى الماضى ، ولا سيما الفعل المتصل بزمان الخطاب كاصطفاء الرسل وإتيانهم ، فان هذه الآيات قد نزلت والوحى الذى تتحقق به الرسالة لم يزل جاريا ، والأحكام التى تنتظم بها الشريعة ويكمل بها الدين ما زالت تنزل على حسب ما تقتضيه الحكمة ، وليس استعمال المضارع للدلالة على التجدد فى الماضى مختصا بحال اقترانه بلفظ « كان » بل المدار على وجود قرينة تومئ

الى أنه مستعمل فى هذا المعنى ، ولا فرق بين أن تكون القرينة لفظية أو معنوية ، متصلة باللفظ أو منفصلة عنه ؛ وقد صرح طائفة من أئمة البلاغة بأن المضارع يستعمل فى الماضى لقصد الدلالة على استمرار الفعل فيما مضى وقتا فوقتا . ومن الشواهد التى ساقوها على هذا قوله تعالى : (وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) فقالوا : إن المضارع يعنى قوله (يطيعكم) مستعمل فى الماضى للدلالة على استمرار الإطاعة فيما مضى وقتا فوقتا ، وكلمة « لو » أفادت انتفاء هذا الاستمرار التجددى الذى دل عليه المضارع .

فالبيانيون قرروا استعمال المضارع للدلالة على تجدد الفعل فى الماضى ولم يقصروه على موضع ، بل جعلوا مدار صحته قيام القرينة ؛ ولا نطيل فى الاستدلال على أن المضارع يستعمل لإفادة التجدد فى الماضى ، إذ يكفى فيه إجماعهم على أن المضارع يستعمل للفعل الماضى خاصة ، ومن ذا يستطيع أن ينكر أن المضارع فى قوله تعالى : (إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً) وقوله تعالى : (إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً) وقوله تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ) مستعمل فى فعل مضى لوجه من البلاغة ، وما على المعبر بالمضارع عن الفعل الماضى سوى أن يقيم الدليل على ما يريد من الصيغة . وقد قلنا فى المقال السابق : إن الأدلة التى تدعونا الى حمل الاصطفاء فى قوله تعالى : (ٱللَّهُ يصطفى) على ما كان يتجدد فى الماضى قوله تعالى : (وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ) والأحاديث الصريحة فى أن لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

واعترض داعية القاديانية جعل آية « وخاتم النبيين » مبينة لقوله تعالى: (الله يصطفى) فقال : كلنا يعرف أن قرينة الكلام ما يصاحبه ويدل على المراد به ، وأن آية (الله يصطفى) مكية ، وآية (وخاتم النبيين) مدنية .

وجواب هذا أن تأخير آية (وخاتم النبيين) لا يمنع من أن تعدّ بيانا للمراد من قوله تعالى : (الله يصطفى) أما على مذهب[1] من يجيز تأخير البيان عن وقت الخطاب فالأمر واضح ، إذ مقتضاه أن يدل المضارع حال الخطاب على أن اصطفاء الرسل شأن من شئون الخالق جل وعلا ، فيسقط به اعتقاد من ينكر بعثة الرسل أو ينكر أن يكون فى البشر رسول ، ويثبت أن الله تعالى قد بعث رسلا من البشر ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حين ادعى الرسالة لم يدع أمرا يخالف حكمة الخالق ، ويبقى صرف اصطفاء الرسل عن المستقبل الى أن تظهر الحاجة الى تعليم الناس أن لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأما على مذهب من يمنع تأخير البيان عن الخطاب ، فنعتمد أن يكون لدى من تلقوا آية (الله يصطفى) عند نزولها دليل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرفها عن المستقبل ، وجاءت آية (وخاتم النبيين) مؤيدة للحديث ، وورود الآية بعد الحديث لا يمنع من عدها فى جملة ما يبين الآية الأولى ، وما زال كبار الأئمة يسمون المتأخر بيانا لما سبقه بمدة ، كما جعلوا إعطاء سلب القتيل للقاتل فى الحرب مخصصا لقوله تعالى : (وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ) وهذه الآية نزلت فى غزوة بدر ، والحديث ورد بعد هذه الغزوة بزمن غير قليل .

وقال داعية القاديانية يحاول رد ما ذكرنا من أن المضارع فى آية (الله يصطفى) مصروف عن المستقبل : « إن الآية تبين اصطفاء الله رسلا من الجنسين : الملائكة والناس ، فإن كان يصطفى بمعنى اصطفى ، ويلزم منه أن لا يصطفى الله رسلا بعد نزول هذه الآية من الناس ، للزم أن لا يصطفى الله رسلا من الملائكة أيضا ، وإذا كان هذا صحيحا ، فهل للمشايخ أن يقولوا لنا من أنزل آية (الله يصطفى) الخ وغيرها من السور التى نزلت بعدها على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ أجبريل أم لا ؟ » !

(١) جمهور أهل العلم .

أليس فى هـذا الهذيان شاهد على أنا نخاطب من لا يفقه للكلام العربى معنى ، ولا يعرف للمنطق وجها ؟ ! فنحن إذا فهمنا الاصطفاء فى الآية على ما كان يقع فيما مضى فللأدلة القائمة على أن الله لا يبعث بعد محمد صلى الله عليه وسلم رسولا من البشر ، ولم نقل: إن الآية دليل على أن الله لا يبعث رسولا ، حتى يقال : إننا نفينا إرسال الله الملائكة فى أمر يدبره ، وغاية الأمر أن إرسال الملائكة بعد هـذا الخطاب يبقى مسكوتا عنه فيرجع فى إثباته أو نفيه الى الأدلة ، ولكن داعية القاديانية لا يفرق بين قولك : إن الآية لا تدل على بقاء الرسالة فى البشر ، وهو موضع حديثنا ، و بين قولك : إن الآية تدل على انقطاع إرسال الله رسلا من الملائكة أو البشر ، وهـذا ما لم نقله ، فداعية القاديانية اشتبه عليه إبطال استدلالهم بالآية على أن الله يصطفى رسلا بعد بعثة أفضل الخليقة ، بالاستدلال بها على نفى اصطفاء رسل من البشر أو الملائكة ، وليس هذا الاشتباه على أمثاله بغريب .

محمد الخضر حسين

الطرف والملح

قال حكيم :

وجاهل يدّعى فى العلم فلسفة قد راح يكفر بالرحمن تقليدا
وقال أعرف معقولا فقلت له عنّيت نفسك معقولا ومعقودا
فقال إن كلامى لست تفهمه فقلت لستُ سليمان بن داودا



سورة النور

١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة وجيزة فى جمال نسق الآيات القرآنية الكريمة :

أما وقد وصلنا من تفسير السورة الكريمة الى ماوصلنا اليه فى أجزاء السنة الماضية فإنه يجمل بنا أن ننظر نظرة إجمالية فى مجموع الآيات الكريمة التى مررنا بها، لنستجلى محاسنها جملة ، ونمتع النظر بمشاهدة أزاهيرها اللامعة ، ونتذوّق ما فيها من أطايب الثمار ونبهج الروح بطيب رياحينها العطرة . وفى النظر الى المحاسن جملة معنى يزيد على النظر الى كل منها على حدة .

ولعلنا بذلك نكبت أولئك الزعانف الذين ملكهم الغرور حتى غشى بصائرهم ، وبهرهم النور حتى عشى أبصارهم ، فلم يفقهوا سر الجمال فى ترتيب القرآن ، فلفظت أفواههم كلمات لا تصدر إلا عن غباء وعمه ، فكما قال الأولون منهم : « لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة » قال هؤلاء الآخرون : « لولا جعل كل نوع مما أنزل فى القرآن جملة ، فيكون القصص كله جملة واحدة ، والأحكام كل نوع منها جملة ، وما يتعلق بالإلهيات أو بالنبوات مثلا جملة ، وكذلك الأمثال والعظات وسائر ما فى القرآن » . يزعمون بذلك

أنه أيسر لهم فى الوصول الى ما يريدون والكشف عما يبتغون ؛ كأنهم نظروا الى القرآن الكريم نظرهم الى القواميس والمعاجم ، أو الى كتب التاريخ التى يقصد بها الى بيان الوقائع على ترتيب الأزمنة أو تفصيل الأمم ، أو الى كتب الفقه أو القانون ، أو ما ماثل ذلك مما تتعدد فيه الكتب تبعا لتفصيل الموضوعات . وما دروا أنه الكتاب الواحد الذى جمع الله فيه للبشر كل ما يقوم بتربيتهم فى دنياهم وفى دينهم : لم يفرط فيه من شىء ، ولا أخلّ بحسن الترتيب الذى يجب أن يراعى فى تربية النفوس ، وتغذية العقول ، ومراعاة ما تستعدّ الأرواح لارتشافه وتذوّقه والانتفاع به ، سواء أكان ذلك فى خاصة نفسها ، أم فى توجيهها الى بارئها ، أم فى تنظيم العلاقات بينها وبين من يتصل بها من طبقات الناس القريبين منها والبعيدين عنها ، أو ما يلابسها ويحيط بها من سائر أجزاء العالم وقواه ، فتنتفع بكل ذلك على الوجه الأكمل الأنسب بحياتيها الفانية والباقية .

كل ذلك يتبع فيه أنسب الوجوه باستعدادها للتغذية العقلية والهداية الإلهية ، والتربية الربانية ، فيكمل بذلك معنى الربوبية التى امتن الله بها على عباده فى فاتحة الكتاب المبين ، فى قوله جل شأنه : (اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . فكل العقلاء مطبقون على أن التربية الصحيحة يجب أن يساوق بعضها بعضا : فبينما يتعهد المربى من يربيه بالتغذية يجب أن يتبعها بالتنظيف مثلا ، ويقرن ذلك بترويض أعضائه ، موجها انتباهه الى ما يجمل به إدراكه ، موقظا له الى محاذرة ما يخشى ؛ وهكذا دواليك ، فلا يهمل شأنا من شئونه قد استعد لقبوله متغافلا فى شأن آخر قد أخذ منه حظه وكفايته .

هكذا ترى الترتيب العجيب والأسلوب الرائع ، والتنقل فى القرآن الكريم من نور الى نور ومن ثمرة الى ثمرة .

فلقد بدأت السورة الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها بتوجيه نظر المؤمنين اليها جملة ، والتنويه بعظمتها ، حتى تتفتح أذهانهم الى ما سيتلى عليهم ، فقال : (سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا

وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . فلما أن تفتحت عيونهم لما سيتلى عليهم ، لفيهم بالتنبيه الى ذلك المرض الخبيث الذى ابتلى به المجتمع فى الكثير من أدواره ، وتوافرت دواعيه من كل ناحية ، كما تراكمت خبائثه وتفاقم شره وعظم فحشه ؛ وما من أحد من العقلاء إلا وهو يكره أن يلحقه ، ويخشى أن يصيبه ، ويجزع إن وصم به ؛ وهو على كبر فحشه أسرع الفواحش فى انحدار النفوس إليه ، إذ تقع فيه وهى مسترسلة فى نعيمها ، لاهية فى استمتاعها ، متلذذة باستيفاء ما تصبو إليه بطبيعتها ؛ فكان جديراً بالتنبيه إليه أولاً ، إذ كان أشد الأمراض فحشا وأوسعها انتشارا ، فبيّن من أحكامه ما بيّن ، وأردف ذلك بتوجيه نظرهم ولفت عقولهم الى فضل الله عليهم ورحمته بهم ، وأنه واسع الرحمة والفضل والعلم ، فيجب أن يأخذوا ما فرضه عليهم أخذ قبول وانتفاع ، معترفين بالفضل شاكرين للنعم .

ثم أتى بعد ذلك بقصة تقوم برهانا على عظيم النفرة ، حتى من الظنة الكاذبة والتهمة الباطلة ، وما يترتب عليها من عظيم الخطر ، وما ينجم عنها من كبير الفتن ، فذكر تلك الفتنة التى ابتلى بها بعض ضعفاء الايمان ، فجرّت الى ما جرت ، حتى كشف الله القناع عن خبث نية من أثاروها ، وفضح شأنهم وأخزاهم ، ولكن بعد أن تحركت نفوس ، وزاغت عيون واهتاجت قلوب . كل ذلك والأمر وهمٌ خطر فى بال منافق فأسره الى ضعفاء الايمان ، فجال بينهم الشيطان ، حتى كان من فتنهم ما كان ، فكيف ترون فى خطر هذه الفاحشة التى ساءت سبيلا .

ولقد ضمنت القصة من التعليم والإرشاد الى ما ينبغى من الأخلاق فى مثل هذه الظروف الحرجة ما لو لم تسق هذه القصة لما ظهر لنا وجه مناسبة إيرادها على هذا الوجه المقبول . وهل هناك أدعى للعظة من الكلمة تجىء بمناسبتها وفى شرح حال واقعة ؟

وإنك إذا تأملت ما يسلكه أهل هـذا العصر ويتورطون فيه من اختلاق الحوادث الخيالية والروايات التمثيلية ، لما رأيت لهم وجها فى تبرير أكاذيبهم سوى قولهم : إنا نرى العظة من لسان الحال أكبر منها بلسان المقال ، فكيف بالوقائع الحاصلة وأثرها فى النفس هذا الأثر الكبير ؟ لا شك أنها تكون أعمق أثراً ، وأثبت فعلا ، وأدعى الى الامتثال والقبول والانتفاع .

بذلك ترى الحكمة فى إدماج الأحكام ، والإرشاد والتربية فى سوق القصة ، وأنه لا يفيد مجرد سرد الحكم أو العظة بدون أن تستند الى ما يدعو الى امتثالها ويشرح سر جمالها .

انظر الى قوله : (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) ، وقوله : (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) ، وقوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ) ، ثم قوله : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ) ، تجد لهذه الأحكام والعظات فى هذا السياق ما ليس لها إذا سردت سردا وقيلت قولا .

ثم تأمل فيما فصلت به من التنويه بعظم فضل الله عليهم ومنته فى إرشادهم ، تجد لذلك فى النفوس أبلغ الأثر . وانتقل مثلا الى قوله : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ) الآية ، فكم تجد فيها من تجلى الفضيلة والخلق الكريم فى أشد أوقات ثوران النفس وغضبها ، وكم ترى فيها من تربية ضبط النفس وحبسها على ما يرضاه الله ، واطراح نزواتها ونزغات الشيطان انتهازا لمثل تلك الفرص ، هل

فى الإمكان أن يمهد لمثل تلك التعليمات إلا بمثل تلك القصة ؟ وهل كنت تحس للحكم يلقى اليك مجرد أمر أو نهى مثل ما تحسه وقد وقع فى محله وجاء لمناسبته ؟

وبعد : فانظر الى مناسبة ما تلا هذه القصة من أحكام الاستئذان فى دخول البيوت ، والاستئناس لذلك والتسليم ، حتى لا يفاجأ الناس بما لا يحبون ، فتتربى فى نفوسهم كراهيتهم بعضهم لبعض ، وحتى لا ينفتح أمام الشيطان باب الفتن ، فيغرى بعضهم بالكلام فى بعض ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء . أفلا ترى أن هذا هو محله الذى لا يعدوه ، وأنه ترتيب من لا يعزب عن علمه شىء ؟

وكيف بك إذا انتقلت الى الآيات الآمرة بغض الأبصار مقترنة بنتيجته وثمرته المقصودة بالذات ، وهى حفظ الفروج ؛ ويذيل ذلك بتكميل الحكم بما يحوطه ويعتبر سياجا له ، وهو النهى عن إبداء الزينة المغرية التى تلفت الأنظار وتثير الشهوات وتخلق الشبهات ، مع دفع الحرج فيما لا ضرر فيه ولا حرج منه ، وهم البعولة والآباء والأبناء والنساء ومن فى حكمهن ؛ ويختم ذلك بالأمر بالتوبة الى الله مستحثا منهم إيمانهم الداعى الى المسارعة للتوبة ، وواعدا عليها بالفلاح المرجو .

إذا وصل التالى الى هنا تطلع بلا شك الى حكم عام وعلاج ناجع شامل يريح النفوس من عناء المخاطرة ، وتطمئن عنده العوامل المتحركة ؛ ذلك هو الأمر بالتزويج والترغيب فيه ، وتسهيل سبله ، وعدم الخشية من كلفه ومؤنه ؛ وهذا هو ما ذكره جل شأنه فى قوله : (وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) ثم يردفه بما يبعد عنه توهم أن ذلك قاعدة عامة محتومة ، فيقيد ذلك بمن يكون عنده وجد مّا ؛ فمن لم يجد بابا مفتوحا لذلك أصلا فليستعفف حتى يغنيه الله من فضله .

وإذ تعرض فى أمر الإنكاح الى إنكاح الصالحين من العباد والإماء ، فانه لم يترك هذا الحال يمر بدون أن يوفى الصلاح فى الأرقاء ما يستحقه ويليق به ، فعطف عليه بفتح باب الترغيب فى إطلاق الحرية وإزالة الرق بما يسهل عليهم ولا ينبغى أن يشحوا فيه ، وذلك هو كتابة الرقيق على مال متى ظن فيه الخير ورجا منه الأداء ، ثم زاد فى هذا الترغيب بالأمر بمساعدتهم ، وإيتائهم من مال الله .

وما أحسن التعبير عنه فى هذا المقام بمال الله ، حثاً على أن يجود به فى مرضاة الله ! وقد أضاف المال إليهم حين أمرهم بإمساكه والمحافظة عليه فى قوله فى سورة النساء : (وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ) فتأمل هذا التعبير العظيم .

وأما إرداف ذلك بقوله جل من قائل : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) فإنك تدرك الروعة فى حسنه والبراعة فى موقعه حين تتأمل فى قبح تلك العادة السوءى التى كان عليها سفهاء من الرجال . وما أبعدهم عن وصف الرجولة ! فقد كانوا يستغلون ضعف الفتيات وامتلاكهم لهن ، فيزجون بهن كرها الى أخش المواطن ، ابتغاء المال الذى حقه أن يكون اكتسابه من صنع الرجال ، لا أن يكونوا عالة فيه على النساء ، نعوذ بالله نعوذ بالله ! وهل هنالك ما هو أخش وأنذل وأحط نفسا من رجل يرضى لامرأة تتصل به أن تكون على هذه الحال ، فكيف بأمرها بذلك ، فكيف بإكراهها على ذلك وهى تريد التحصن ؟ !

قارن هذا بالأمر بإنكاح الصالحين من العباد والإماء ، ثم بالأمر بمكاتبة من يصلح منهم للخير ومساعدتهم على الوفاء ، تجد نفسك قد بهرك من الحسن ما ملك عليك جوانبك ، وتجد أن صورة أولئك القوم قد صارت أشنع ما يتصوره متصور ، وما زاد فى شناعتها لتنفر النفوس منها إلا مقابلتها للمثل الصالح المأمور به فى معاملة الموالى من إنكاح ومكاتبة ومساعدة .

إذا وصلت أيها القارىء المتدبر فى هذه السورة الكريمة الى هذا ، أفلا ترى حقا صحيحا أن يمتن الله علينا بقوله عز من قائل : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) أفلا ترى أن هذا مما يلفتك الى ما سبق من الأحكام ، ويدعوك الى التأمل فيها ، والاستمساك بها ، والاعتصام بعروتها ، والشكر على منتها ، وذلك بامتثال أحكامها وهو المقصود من الامتنان بها ؟

هذا البيان ، وهذا الارشاد ، وهذه التربية ، وهذه الهداية : أى عقل من عقول البشر يستطيع أن يصل اليها ، أو يبلغ شأواً منها ، مهما تقطعت الأعناق وزاغت الأبصار ؟ (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) . إنما هو نور من الله وهدى منه وحده ، وما كان لغيره أن يكون له شىء من مثل هذا النور ، فقد تخبطت عقول البشر وحارت أوهامهم ، وضلت السبل فلم يستطيعوا أن يهتدوا ، حتى جاءهم من الله نور وكتاب مبين .

أجل أجل : الله نور السموات والأرض ، حسا ومعنى ، دينا ودنيا ، فما من أحد بقادر على أن يبرز نورا صحيحا ، وإنما هى لمعات سراب إذا جئته لم تجده شيئا ، أو كظلام فى بحر لجى على ما سيأتى . أما هذا النور فمثله كأعظم ما يبهرك من النور ، تصور نور مصباح رق زجاجه ، وصفا زيته ، وجاد أصله وضبطت أشعته ، جاء فى وقت أحاط بك الظلام من كل ناحية ، وتلألأ هذا النور أمامك على ذلك الوجه ، كيف يكون ظهور ذلك النور .

هذا مثل النور الإلهى ، ولله المثل الأعلى ، فهو نور على نور . ولكن تجلى النور شىء واهتداء النفوس به شىء آخر ، فرب نور عشى أبصاراً وعميت عنه أبصار . فالاهتداء إنما يكون بمشيئة الله ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

هذه أمثال يضربها الله لعباده ليتفهموا بها ما ينتفعون به ، فتراهم يسارعون الى أبواب رحمته ، ويلجئون الى بيوت رضوانه ، تلك البيوت التى شرفها بذكر اسمه فيها ، فيسبحونه ، ويذكرونه ، ويقدسونه ، ويعبدونه ، فيمتثلون أمره ، ولا تلهيهم مصالحهم عن عبادته ، وهم فى كل ذلك عارفون بقدرته عليهم ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فكان عاقبة أمرهم أن تجاوز الله عن سيئاتهم ، وجزاهم بأحسن أعمالهم ، وزادهم فضلا عن أجرهم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

هذا نور الله ، وهذا شأن من اهتدى به . أما من زاغ عنه فأولئك الذين اتبعوا أهواءهم فتفرقت بهم السبل وظنوا أنهم على شيء ، ولكنهم كاذبون .

أولئك الذين ذكرهم الله بعد هذا ، والضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده فقال جل من قائل : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

ابراهيم الجبالى



قال نابغة بنى شيبان :

إنّ من يركب الفواحش سرًّا ... حين يخلو بسرِّه غيرُ خالى
كيف يخلو وعنده كاتباه ... شاهداه وربُّه ذو المحال !

العقيقة — سر الختان

فى الدين الاسلامى

سيدى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله .

تلقيت بيد الشكر بحثكم القيم الجليل فى بيان الفطرة وما خلقه الله فيها ، فقد وصلنا بما بينتموه فى حديث الفطرة الى أن دينه الحنيف مركز فى النفوس وفى الطبائع ، وأن طبيعة الطفل من ناحية علم النفس تأبى إلا أن تتقبله ، وهى معوّدة اليه بالطبع . ولقد تعلمون خطورة بحثى إذا عرفتم أننى أقوم به فى بلادٍ لا أثر لدين الله فيها ، وأن همّ علمائها موجّه الى إثبات منابع الأخلاق من ناحية الطبيعة . وسأكون فى الطرف الثانى من التناقض لآرائهم ، و بتعبير آخر : «سأكون أول من يقيم الدين فى مالطه» إن سمحت لى أن أخاطبك بهذا المثل العامى ، والله الموفق المعين ، اليه غايتنا ، وعليه توفيقنا .

ولقد يسرّك جداً أن آراءك هنا عرفت قيمتها ، ورجح وزنها ، وكانوا معجبين بك إذ وصلت الى ما لم يصلوا إليه إلا بالتجاريب والبحث المادى والعلمى — وفقك الله ووفقنى الى نصرة الدين .

هذا وأرجوا إذا سمح لكم وقتكم إمدادى بشىء عن المسائل الآتية :

(١) رأى الدين فى العقيقة التى تعمل بمناسبة ولادة الطفل .

(٢) رأيه فى الختان .

(٣) رأيه فى حادثة شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم الذى أعدّه ربه من صغره لتلقّى وحيه الجليل. وحسبكم منى أن أكون الى جانبكم كالمقاتل الشريف فى نصرة دين الله. والسلام عليكم ورحمة الله.

ابراهيم سلامه

مفتش بالمعارف وعضو بعثتها بفرنسا

الجواب

العقيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه.

أما العقيقة وهى ما يذبح سابع ولادة المولود مما يصح أن يكون ضحية، ففيها أسرار بديعة ومصالح كثيرة راجعة الى المصلحة المالية والمدنية والنفسية. وقد كانوا يفعلونها فى الجاهلية، فاستبقاها النبى صلى الله عليه وسلم، ورغب الناس فيها بعد إصلاح مقاصدهم، مع مخالفة أهل الجاهليه فى بعض المسائل كما ستعرفه.

فمن تلك المصالح — ولعله أقلها — التلطف بإشاعة نسب الولد، إذ لابد من إشاعته لئلا يقال فيه ما لا يحبه؛ وكثيرا ما يكون لذلك داع كبير فى القضايا كما هو معروف؛ ولا يحسن أن يدور فى الطرقات فينادى أنه ولد له ولد، فكانت العقيقة أفضل وسيلة لهذا الغرض. ومنها إنماء ملكة السخاء وعصيان داعية الشح الذى أحضرته النفوس. ومنها أن النصارى كان إذا ولد لهم ولد صبغوه بماء مخصوص يسمونه المعمودية ليكون نصرانيا حقا؛ وفى مشاكلة ذلك نزل قوله تعالى: (صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ

مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً) فاستحب أن يكون للمسلمين فعل بإزاء فعلهم ذلك ، يشعر بكون الولد حنيفيا تابعا لملة ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وأشهر الأفعال المختصة بهما المتوارثة فى ذريتهما — ما وقع له عليه السلام من همه بذبح ولده ، ثم نعمة الله عليه أن فداه بذبح عظيم . وأشهر شرائعهما الحج الذى فيه الحلق والذبح ، فيكون الذبح عن المولود تشبها بهما ، وتنويها بملتهما ، وإعلانا بأن الولد تابع لهما وعلى دينهما ، إذ فعل ما هو من أعمال هذه الملة الحنيفية . ومنها أن هذا الفعل فى بدء ولادته يخيل اليه أنه همّ ببذل ولده فى سبيل الله ثم فداه ، كما فعل ابراهيم عليه السلام ؛ وفى ذلك تحريك سلسلة الإحساس بالانقياد والخضوع . وقد حث على ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله : « مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه » .

وقد كان أهل الجاهلية يقدمون تلك الذبائح لأصنامهم ، فجاء الاسلام بتقديمها لله تعالى وذكر اسمه عليها بدل الأوثان . وكانوا يكرهون كسر عظامها ، فجاء الإسلام بإباحة ذلك ، مخالفة لهم ، وإبعادا المسلمين عن التطير والتشاؤم ، وتخليصا لهم من اتباع الأوهام والوساوس .

هذا وفى العقيقة أيضا شكر لتلك النعمة التى أنعم الله بها عليهم ؛ ولذلك استحب لهم أيضا أن يتصدقوا بشىء قليل من الفضة يوم السابع شكرا للنعمة . ويلتحق بما ذكرناه من التنويه بشأن الدين ، ما يفعل من الأذان فى أذن المولود ، فإن الأذان من شعائر الإسلام وأعلام الدين المحمدى . ومن المقاصد الشرعية أن يدخل ذكر الله فى تضاعيف الأعمال ، ليكون كل ذلك ألسنة تدعو الى الحق والى دين الله . ومن ذلك أنه يستحب أن يختار للمولود بعض الأسماء التى تشعر بذلك : كعبد الرحمن ، وعبد الله ، ومحمد ، وأحمد . وقد جاء الترغيب فى ذلك : ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحبّ أسمائكم الى الله عبد الله وعبد الرحمن » وفى مسند

أبى داود والنسائى أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سمّوا بأسماء الأنبياء » الحديث . فذلك كله تنويه بالدين ، وكأنه إقرار بأنه من أهله .

الختـــــان

الختان سنة من سنن الدين ، وهـو من الكلمات التى ابتلى الله بها خليله ابراهيم فأتمهن ؛ وكان عليه العرب قبل الاسلام اتباعا لأبيهم ابراهيم عليه السلام . وأما حكمته فهى المبالغة فى تنظيف البدن من الأدناس والأرجاس بقدر الإمكان . وللدين الاسلامى عناية كبرى بالنظافة والحث عليها . ومن ذلك طلبه قص الشارب ، وتنظيف الإبط ، وإزالة الأظفار ، وإيجاد الطهارة للصلاة . ولا شك أن إزالة القُلفة أضمن لذلك وأعون عليه . وفى نظافة الظاهر إشعار بالحث على نظافة الباطن ، وإشارة الى أن فى النفوس أشياء من مساوىء الأخلاق تجب إزالتها والتنزه عنها ؛ فكما تزيل شعث ظاهرك يجب أن تزيل شعث باطنك وإن كان خلقيا جبليا تعانى فى إزالته آلاما ومشاق ، وتحتاج فيه الى صبر ومجاهدة ، وهو موضع الابتلاء والاختبار ، فإنك لم تخلق كاملا ، ولـكن خلقت قابلا للـكمال مكلفا به مأمورا بتحصيله . وهـذا هو الفرق بينك وبين الملائـكة والحيوان الأعجم . وفى الختان أيضا من الفوائد ما يمكنك أن تقف عليه من حذاق الأطباء مما لا يحسن أن نفيض فيه .

هذا والختـان شريعة التوراة أيضا . وأما شق صدره الشريف فسنتكلم عنه فى عدد تال ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الفتاوى والأحكام

ورد على إدارة المجلة عدة أسئلة ، منها ما يرجع الى الاحوال الشخصية ، ومنها ما يرجع الى غيرها ، وقد كثرت هذه الأسئلة حتى ضاق نطاق المجلة عن ذكرها بنصها كالعادة وعن ذكر أسماء أصحابها . ولما كان الغرض الاجابة رأت المجلة الاقتصار على السؤال والجواب عنه .

الكفاءة

السؤال الأول :

ما هى الكفاءة المعتبرة فى النكاح ، وهل النسب منها ، وما دليل ذلك ؟

الجواب

الكفاءة معتبرة فى ابتداء النكاح للزومه أو لصحته من جانب الزوج . وتعتبر فى النسب ، وفى الحرية ، وفى الإسلام ، وفى الديانة ، وفى الحرفة ، وفى المال .

أما اعتبارها فهو رأى عامة العلماء . وقال الكرخى : ليست بشرط أصلا ، وهو قول مالك وسفيان الثورى والحسن البصرى . واحتجوا بما روى أن أباطيبة خطب الى بنى بياضة فأبوا أن يزوجوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنكحوا أبا طيبة إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » وروى أن بلالا رضى الله عنه خطب

الى قوم من الأنصار فأبوا أن يزوجوه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل لهم إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يأمركم أن تزوجونى » . أمرهم رسول الله صلى الله وسلم بالتزويج عند عدم الكفاءة ، ولو كانت معتبرة لما أمر ، لأن التزويج من غير كفء غير مأمور به . وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » وهذا نص . ولأن الكفاءة لو كانت معتبرة فى الشرع لكان أولى الأبواب للاعتبار بها باب الدماء ، لأنه يحتاط فيه ما لا يحتاط فى سائر الأبواب ، ومع هذا لم يعتبر ، حتى يقتل الشريف بالوضيع ، فها هنا أولى . والدليل عليه أنها لم تعتبر فى جانب المرأة ، فكذا فى جانب الزوج .

ولنا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يزوج النساء إلا الأولياء ، ولا يزوجن إلا من الأكفاء ولا مهر أقل من عشرة دراهم . ولأن مصالح النكاح تختل عند عدم الكفاءة ، والمرأة تستنكف عن زواج غير الكفء وتعير بذلك فتختل المصالح ، ولأن الزوجين يجرى بينهما مباسطات فى النكاح لا يبقى النكاح بدون تحملها عادة ، والتحمل من غير الكفء أمر صعب يثقل على الطباع السليمة .

فلا يجوز النكاح مع عدم الكفاءة ، فلزم اعتبارها ولا حجة للمخالفين فى الحديثين لأن الأمر بالتزويج يحتمل أنه كان ندبا لهم الى الأفضل ، وهو اختيار الدين ، وترك الكفاءة فيما سواه ، والاقتصار عليه ؛ وهذا لا يمنع جواز الامتناع . وعندنا الأفضل اعتبار الدين والاقتصار عليه . ويحتمل أنه كان أمر إيجاب ، أمرهم بالتزويج منها مع عدم الكفاءة ، تخصيصا لهم بذلك ، كما خص أبا طيبة بالتمكين من شرب دمه صلى الله عليه وسلم ، وخص خزيمة بقبول شهادته وحده . وأما الحديث الثالث فالمراد به أحكام الآخرة ، إذ لا يمكن حمله على أحكام الدنيا لظهور فضل العربى على غيره فى كثير من أحكام الدنيا ،

فيحمل على أحكام الآخرة، وبه نقول. والقياس على القصاص غير سديد، لأن القصاص شرع لمصلحة الحياة، واعتبار الكفاءة فيه يؤدى الى تفويت هذه المصلحة، لأن كل أحد يقصد قتل عدوه الذى لا يكافئه، فتفوت المصلحة المطلوبة من القصاص، وفى اعتبار الكفاءة فى باب النكاح تحقيق المصلحة المطلوبة من النكاح من الوجه الذى بيّنا، فبطل الاعتبار ؛ وكذا الاعتبار بجانب المرأة لا يصح أيضا ، لأن الرجل لا يستنكف عن المرأة الدنيئة ، كذا فى البدائع .

وفى فتح القدير ما خلاصته : أن الحديث أن لا يزوج النساء إلا الأولياء وإن كان فى سنده ضعف ، لكنه حجة بالتظافر والشواهد ، فمن ذلك ما روى محمد فى كتاب الآثار عن أبى حنيفة عن رجل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لأمنعنّ تزوج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء . ومن ذلك ما رواه الحاكم وصححه من حديث علىّ أنه عليه الصلاة والسلام قال له : «يا علىّ ! ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفئا» ، وما روى عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم «تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء» روى ذلك من حديث عائشة وأنس وعمر من طرق عديدة فوجب ارتفاعه الى الحجة بالحسن لحصول الظن بصحة المعنى وثبوته عنه صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا كفاية .

والكفاءة تعتبر فى النسب ، لأنه يقع به التفاخر ، فقريش بعضهم أكفاء لبعض ، والعرب ، بعضهم أكفاء لبعض ؛ ولا يعتبر التفاضل فيما بين قريش . وأما الموالى فمن كان له أبوان فى الإسلام فصاعدا فهو من الأكفاء لمن له آباء فيه . وتعتبر أيضا فى الدين أى الديانة عند أبى حنيفة وأبى يوسف ، لأنه من أعلى المفاخر ، والمرأة تعير بفسق الزوج فوق ماتعير بضعف نسبه . وتعتبر فى المال على الوجه المبين فى كتب الفقه . وتعتبر فى الصنائع كذلك ، والله أعلم .

القراءة للموتى بالأجرة

السؤال الثانى :

يقول السائل : إنه رأى فى تفسير روح المعانى أن قراءة القرآن للموتى بالأجرة لا ثواب فيها للميت ولا للقارئ ، ويستشكل هذا بأن الناس جميعا من علماء وغيرهم يفعلون هذا ، ويطلب إيضاح الموضوع .

الجواب

قال فى الهداية : ولا يجوز الاستئجار على الأذان والحج وكذا الإمامة وتعليم القرآن والفقه ، والأصل أن كل طاعة يختص بها المسلم لا يجوز الاستئجار عليها عندنا ، وعند الشافعية رحمهم الله يصح ، وبعض مشايخنا استحسنوا الاستئجار على تعليم القرآن الآن ، لظهور التوانى فى الأمور الدينية ، وفى الامتناع تضييع حفظ القرآن ، وعليه الفتوى .

وفى الدر المختار : ويفتى اليوم بصحتها لتعليم القرآن والفقه والإمامة والأذان . وفى ابن عابدين : وقد اتفقت كلمتهم جميعا على التصريح بأصل المذهب من عدم الجواز ثم استثنوا بعده ما علمته ، فهذا دليل على أن المفتى به ليس هو جواز الاستئجار على كل طاعة ، بل على ماذكروه فقط مما فيه ضرورة ظاهرة تبيح الخروج عن أصل المذهب .

ونقل عن صاحب تبيين المحارم ما نصه : قال تاج الشريعة فى شرح الهداية : إن القرآن بالأجرة لايستحق الثواب لا الميت ولا للقارىء . وقال العينى فى شرح الهداية : ويمنع القارىء للدنيا ، والآخذ والمعطى آثمان ، الى آخر ما أطال به رحمه الله ، ومنه يعلم جواب السؤال عند الحنفية ، وصاحب روح المعانى من الحنفية ، فهو يقرر حكم مذهبه .

حمل الجنازة فى السيارة وتغيير الدين

السؤال الثالث :

هل يجوز حمل الميت فى السيارة ؟ وهل من تأثر بالتنويم المغناطيسى فأمر أثناءه بتغيير دينه فلما أفاق غيّر دينه يخرج من الدين ؟

الجواب

الأصل فى حمل الجنازة أن يحملها أربعة من الرجال : يأخذون سرير الميت بقوائمه الأربع ويرفعونها، أخذا باليد لتوضع على العنق ، لأنه أرفق بالميت ، ولا توضع على العنق ابتداء كما تحمل الأمتعة ؛ والمراد بالعنق الكتف . ويكره حملها على الظهر والدابة ؛ وكذلك يكره حملها على سيارة أو عربة ، إلا أنه إذا كانت المسافة بعيدة جدا بحيث يشق على الحاملين أمر الحمل ، فانه يجوز حملها على السيارة أو على العربة للضرورة ، مع ملاحظة أن يكون الحمل على السيارة أو غيرها برفق ولين ، حملا لا يذهب بكرامة الميت ، دفعا للضرر عن الأحياء ؛ ولأن الضرورات تبيح المحظورات .

أما من غيّر دينه غير مكره وهو عاقل بالغ ، فقد استوجب جزاء ما أعدّته الشريعة للخارج من دينه ؛ وما دام المسئول عنه هو الائتمار بالأمر بعد الإفاقة ، فالحكم فيه ما تقدم .

احراق جثة الميت

السؤال الرابع :

هل يجوز إحراق جثة الميت بدلا عن دفنه ؟ وما واجب العلماء فيما إذا وقع مثل ذلك ؟

الجواب

لا يجوز تقريب النار من جثة الميت فضلا عن إحراقه بها، لأن هذا تعذيب ولا يعذب بالنار إلا رب النار. ولقد أمرنا بإكرام بنى آدم، وإكرامهم بعد موتهم هو تغسيلهم وتكفينهم، حسب أوامر الشريعة، والصلاة عليهم، ودفنهم.

وأما واجب العلماء عند رؤيتهم للإحراق، فهو ما يجب على كل مسلم رأى منكراً، فإن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على الوجه الذى أبانته الشريعة الغراء. على أن عادة إحراق الموتى عادةٌ وحشية تنكرها الشرائع السماوية قاطبة. وقد نص الفقهاء على أن دفن الميت فرض كفاية على سائر المسلمين، وغسله وتجهيزه كذلك. وورد: لا تتبع الجنازة بصوت ولا نار.

ومن هذا تعلم يقينا أنه لا يجوز إحراق جثة الميت بحال من الأحوال. وإحراقها على أى صفة كانت محرم ومنكر، وواجب العلماء النهى عن المنكر على الطريق والوجه المشروعين والأمر بالمعروف واجب على كل مسلم؛ والنهى عن المنكر، كذلك لا فرق بين كبير وصغير، ولا بين عظيم وحقير. وقد أبان الشارع طريقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

اللحوم المحفوظة فى العلب

واتخاذ السن من الذهب وحشوها

السؤال الخامس:

هل يجوز أكل اللحوم المحفوظة بالعلب الواردة من البلاد الأوربية؟ وهل يجوز اتخاذ السن من الذهب؟ وهل يجوز حشو السن؟ وهل يجوز إصلاح أعضاء البدن عند الأطباء؟

الجواب

اللحوم المحفوظة فى العلب هى من قبيل القديد من اللحم، وهو معروف، وكانت الصحابة تأكله، فمتى كان اللحم المحفوظ فى العلب لم ينتن ولم يفسد، جاز أكله. ومجيئه من أوربا أو من أمريكا لا يجعل أكله غير مباح، قال الله تعالى: (وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) والبحث فيما وراء ذلك لم يطالب الينا شرعا — غير أن من علم أن شيئا من ذلك غير مذكى التذكية الشرعية فلا يحل له أكله.

واتخاذ السن من الذهب جائز عند الإمام محمد من الحنفية، وعلى رأيه الفتوى. أما اتخاذ الأنف من الذهب فجائز عند الكل. ومن هذا يتبين أن حشو السن بالذهب أو بالفضة للانتفاع بالسن، جائز شرعا، كما أن علاج الفم أو الأنف أو الأذن بما لا يغير أصله جائز.

الحلف بالطلاق أو بالحرام

السؤال السادس:

ما قول السادة العلماء الأعلام فى رجل حلف بالطلاق أو بالحرام: فقال: علىّ الطلاق أو يلزمنى الطلاق مرة أو مرتين، أو قال: علىّ الحرام أو يلزمنى الحرام مرة أو مرتين على شىء من الأشياء، فوقعت عليه اليمين، فماذا يعمل؟ وما الحكم فى ذلك تفصيلا؟

الجواب

من الألفاظ المستعملة فى الطلاق: الطلاق يلزمنى، والحرام يلزمنى، وعلىّ الطلاق وعلىّ الحرام، فيقع بلا نية، للعرف، فهو صريح لا كناية، بدليل عدم اشتراط النية،

وإن كان الواقع فى لفظ الحرام ، البائن ، لأن الصريح قد يقع به البائن ، وإنما كان هذا صريحا لأنه صار فاشيا فى العرف ومستعملا فى الطلاق لا يعرف من صيغ الطلاق غيره . والصريح ما غلب فى العرف استعماله فى الطلاق بحيث لا يستعمل عرفا إلا فيه بأى لغة كانت .

وقد أفتى المتأخرون فى «أنت علىّ حرام» بأنه طلاق بائن لا يحتاج الى نية ، للعرف ، خلافا لما ذهب اليه المتقدمون من توقفه على النية ، وإنما كان قولهم : علىّ الطلاق أو علىّ الحرام لا أفعل كذا يمينا ، للتعارف ، ولأن هذا القول من القائل بمنزلة قوله : إن فعلت كذا فأنت طالق ، فهو تعليق فى المعنى على فعل المحلوف عليه بغلبة العرف ، وإن لم يكن فيه أداة تعليق صريحا . هذا حاصل ما فى الدر ورد المحتار .

وقد رأى غيرهم من مشايخ المذهب عدم وقوع الطلاق فى حلف الشخص بقوله : علىّ الطلاق لأفعلن كذا ، ففى كتاب «رى الصادى فى فتاوى العمادى» ما نصه : إذا قال علىّ الطلاق ، لا يقع عليه الطلاق عند الجمهور ولو نوى به الطلاق ، لأن العبرة للألفاظ لا للمعانى ، كما فى فصول العمادى ، فهذا اللفظ يفيد أن الطلاق فى الذمة لا غير ، والذى فى الذمة لا يلزم وجوده فى الخارج ، كما فى البزازية واختار ابن الهمام تبعا لابن سلام أنه يقع ، اعتبارا لعرف العوام ، والفتوى على الأول ، كما فى الخلاصة وقاضيخان والتتارخانيه . على أن هـذا الخلاف كالخلاف فى قوله : الطلاق علىّ واجب أو ثابت أو لازم ، فعلى قول الإمام لا يقع عليه الطلاق بذلك ، خلافا لهما . والأصح القول بأخذ الإمام ، والعرف إنما يكون حجة إذا لم يخالف نص الفقهاء ، والله أعلم .

هذا وقـد أفتى شيخنا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير العلامة الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الأسبق بعدم وقوع الطلاق بقول الشخص علىّ الطلاق . وأفتى به حضرة صاحب الفضيلة العلامة المدقق الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية حالا .

ومن أحكام الطلاق أن الطلاق الصريح يلحق الصريح ويلحق البائن ، فمن قال لامرأته : أنت طالق ثم قال أنت طالق أو طلقها على مال ، وقع الثانى كالأول ، سواء كان الواقع به رجعيا أو بائنا ؛ ومن قال لزوجته : أنت بائن أو خالعها على مال ثم قال أنت طالق أو هذه طالق ، وقع الثانى أيضا ؛ وهذا كله بشرط أن تكون الزوجة فى العدة . ومن أحكامه أيضا أن البائن يلحق الصريح ولا يلحق البائن البائن إذا أمكن جعله إخبارا عن الأول ، كأنت بائن أو أبنتك بتطليقة ، فلا يقع ، لأنه إخبار . أما إذا لم يمكن جعله إخبارا ، كما لو قال للمبانة منه : أبنتك بأخرى أو أنت طالق بائن ، فانه فى هذه الحالة يلحق ويجعل إنشاء . ومن هذا قالوا : إن البائن إذا كان معلقا بشرط أو مضافا قبل إيجاد المنجز البائن ، كقوله : إن دخلت الدار فأنت بائن ثم أبانها ثم دخلت ، بانت بأخرى ، لأنه لا يصلح إخبارا ؛ ومثله المضاف ، كما إذا قال لها : أنت بائن غدا ثم أبانها ثم جاء الغد ، يقع أخرى . هـذا ما يراه الحنفية . ومنه يعلم جواب السؤال — غير أنه تتميما للفائدة نقول : إن الحكومة المصرية قد سنت قانونا فى سنة ١٩٢٩ جرت فيه على أن كنايات الطلاق جميعها ، وهي ما تحتمل الطلاق وغيره لا يقع بها الطلاق إلا بالنية ، وأن كل طلاق يقع رجعيا إلا الطلاق المكمل للثلاث ، والطلاق قبل الدخول ، والطلاق على مال ، والفرقة بالعيب ، والتطليق للضرر ، الى آخره ؛ كما أن الطلاق المعلق لا يقع إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه لا غيره ، وأن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لا يقع إلا واحدة .

الفصل بالدعاء بين الترويحتين

السؤال السابع :

هل يجوز الفصل بين كل ترويحة وأخرى من صلاة التراويح بالدعاء الآتى : يا عالم السر منا ، لا تكشف الستر عنا ، وكن لنا حيث كنا ؟ وهل يجوز أن يقول

المسلم : كن لنا حيث كنا ، مع أنه قد يكون فى بعض الأحيان متلبسا بالمعاصى ؟

الجواب

استحب العلماء فى صلاة التراويح الانتظار بين كل ترويحة وأخرى ، وبين الخامسة والوتر بمقدار ترويحة ، والناس فى مدة الانتظار مخيرون بين التسبيح والقراءة والصلاة فرادى والسكوت . وكان أهل المدينة يصلون فى مدة الانتظار أربع ركعات فرادى ، وكان أهل مكة يطوفون بينهما سبعا . وبما أنك قد علمت أن الفصل بين الترويحتين يكون بأحد الأمور السابقة ، تعلم أن من يدعو بين كل ترويحة وأخرى بأى دعاء كان دون أن يحدث تشويشا بدعائه على المصلين الآخرين ، يكون قد أتى بالمستحب ، لافرق فى ذلك الدعاء بين صيغة وصيغة ، فمن دعا بصيغة كان يدعو بها الشيخ الدردير رضى الله عنه ، أو صيغة كان يدعو بها سيدى أحمد بن شرقاوى رحمه الله أو غيرهما ، كان آتيا بالمستحب ، ولو دعا بالمأثور فهو أفضل . وطلب العبد من الله أن يكون فى عونه ، وأن يكون له حيث كان ، دعاء جائز لا محل لإنكاره ، لأن الممكنات جميعها لاتنفك محتاجة الى الله تعالى فى جميع الأزمان والأمكنة ؛ والمسلم لايطلب معونة الله فى معصية الله حتى يعترض على من يدعو بمثل هذا الدعاء ، لأن القرائن قاطعة على أن المسلم الداعى لا يريد هذا ، سيما والمسئول عنه هو الدعاء بين الترويحتين ، فلا محل لهذا الاعتراض .

وصفوة القول أن دعاء الله ضرب من عبادته ، إذا قام به المسلم استحق عليه الثواب متى حسنت نيته وقصد بالدعاء التوجه الى الله تعالى دون رياء ولا سمعة . وينبغى أن يلاحظ أن يفهم الداعون بالدعاء المسئول عنه أن صيغته ليست واجبة ولا مطلوبة بخصوصها .

التقليد والتلفيق

السؤال الثامن :

هل يجوز التقليد والتلفيق من مذهب الأئمة الأربعة ولو لغير ضرورة قبل العمل أو بعده في المعاملات والعبادات ؟

الجواب

نقل الأسنوى في شرحه «منهاج الوصول» أن المقلّد إذا قلد مجتهدا في مسألة فليس له تقليد غيره فيها اتفاقا، ويجوز ذلك في حكم آخر على المختار، وأن من التزم مذهبا معينا يجوز له الأخذ بغير مذهبه فيما لم يعمل به ولا يجوز في غيره، وأن تقليد مذهب الغير جائز، بشرط ألا يكون موقعا في أمر يجتمع على إبطاله الإمام الذي كان على مذهبه والإمام الذي انتقل اليه ؛ فمن قلد الإمام مالكا مثلا في عدم النقض باللمس الخالى عن الشهوة فصلى، فلا بد أن يدلك بدنه ويمسح جميع رأسه، وإلا كانت صلاته باطلة عند الإمامين .

وفي التحرير : لا يرجع المقلد فيما قلد فيه اتفاقا، أما في غيره فيجوز، للقطع بأن الناس كانوا يستفتون مرة واحدا ومرة غيره غير ملتزمين مفتيا واحدا ؛ فمن التزم مذهبا معينا كمذهب الإمام الأعظم أو مذهب سيدنا الإمام الشافعى، فالصحيح أنه لا يلزمه الأخذ بمذهب إمامه في كل حادثة، لأن التزامه غير ملزم، لأنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل معين من الأمة فيقلده في دينه وفي كل ما يأتى ويذر دون غيره .

وفيه ما خلاصته : أنه ليس للعامى مذهب، لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال وإدراك، أو لمن قرأ كتابا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى

إمامه وأقواله ؛ أما من لم يتأهل لذلك فلا يكون حنفيا أو شافعيا بمجرد قوله : أنا حنفى أو شافعى ، كما لا يكون فقيها أو نحويا بمجرد قوله : أنا فقيه أو نحوى .

والخلاصة أنه إن عمل بحكم تقليد المجتهد ، لا يرجع عن ذلك الحكم ؛ أما فى غير ما عمل به فله تقليد غيره من المجتهدين ، لأن الدليل الشرعى يقتضى العمل بقول المجتهد فيما يحتاج إليه ، لقوله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) والسؤال إنما يتحقق عند طلب حكم لحادثة معينة ، وإذ ذاك إذا ثبت عنده قول المجتهد وجب عمله به . ثم نقل رحمه الله ما تقدم عن القرافى من الجواز ، بشرط ألا يترتب عليه ما يمنعه كلا الإمامين ، قال فى مسلم الثبوت وشرحه : إذا اختلف ولم يتجاوز أهل العصر عن قولين فى مسألة لم يجز إحداث قول ثالث عند الأكثر ؛ وجاز الإحداث عند طائفة مطلقا ؛ ومختار الأمير والرازى : إن رفع الثالث ما اتفقا عليه فممنوع إحداثه نحو مقاسمة الجد الصحيح للأخ ، كما عن أمير المؤمنين علىّ وزيد بن ثابت ، وحجبه أى حجب الجد الأخ عن الميراث ، كما عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعمر وابن الزبير وابن عباس ، فقد اتفق الكل على أن للجد ميراثا ، وإنما اختلفوا فى القدر ، فالحرمان وسلب الميراث عن الجد رأسا خلاف الاجماع فلم يجز إحداثه ، وإلا أى وإن لم يرفع ما اتفقا عليه فى المسئلة فلا يمنع من الإحداث للثالث .

قال مولانا الأستاذ فضيلة الشيخ محمد بخيت بعد بحث طويل أفاد فيه وأجاد كعادته حفظ الله — ما نصه : ومن هذا يعلم أن مسألة التلفيق مبنية على مسألة إحداث قول ثالث ، إذا انحصر خلاف المجتهدين فى عصر فى قولين ، ففى كل موضع يمتنع فيه إحداث القول الثالث : بأن يكون القول الثالث مخالفا للإجماع ، يمتنع فيه التلفيق أيضا إذا خالفت الصورة الملفقة إجماعا ؛ وأما إذا وافق بعضها قول مجتهد وخالفه بعض آخر وافق فيه مجتهد آخر كالصورة المذكورة ، فالتلفيق غير ممتنع ؛ ومن ذلك يعلم أن دعوى

الإجماع على منع التلفيق مطلقا دعوى لم يقم عليها دليل ، بل قام الدليل على بطلانها ، وأن ما قاله العلامة الأمير من أن المعتمد أنه لا يشترط عدم التلفيق ، وحينئذ يجوز مسح بعض الرأس على مذهب الشافعى ، وفعل الصلاة على مذهب المالكية ، وكذا الصورة المتقدمة ونحوها ، وهو سعة ودين الله يسر اه قول صحيح ، وهو الذى تقتضيه النصوص الشرعية أصولا وفروعا .

كما أنه يعلم أنه لو اغتسل غسلا واجبا وتوضأ وضوءا واجبا من ماء قليل يستعمل فى رفع حدث مقلدا لمذهب مالك وترك الدلك مقلدا لمذهب الشافعى ، يكون غسله أو وضوءه صحيحا مثل الصورتين المذكورتين فى السؤال ، ومثل غيرهما من الصور التى لا يضر فيها التلفيق بين مذهبين أو مذاهب متعددة ، متى لم يكن هذا التلفيق خارقا للإجماع ، وأما إذا كان التلفيق خارقا للإجماع : بأن كانت الحقيقة المركبة يقول ببطلانها جميع المجتهدين ولا يمكن لمجتهد آخر على فرض وجوده أن يقول بها كحرمان الجد من الميراث بالكلية ، فالتلفيق باطل بالإجماع ، كما أن إحداث قول بحرمان الجد بالكلية باطل بالإجماع .

والذى تطمئن إليه النفس ويرتاح له القلب ، هو ما نقله الأسنوى فى شرحه « منهاج الوصول » من أن المقلد لمذهب يجوز أن يقلد مذهب الغير بشرط ألا يكون موقعا فى أمر يجتمع على إبطاله الإمام الذى كان على مذهبه والإمام الذى انتقل إليه ، لأن الخروج بالمقلد عن هذا القيد يجعله يتتبع الرخص تتبعا من شأنه الذهاب وراء الشهوات .

طه حبيب

جلالة الملك **فؤاد الأول** ملك مصر

يفتتح الكليات الثلاث

بالجـــــامعة الأزهرية افتتاحا رسميا

لقد كان من نعم الله العظمى على هذا البلد الأمين، أن هيّأ له ملكا هو أعظم الملوك الذين يمجدهم التاريخ، وتنتفع بهم الأمم أعظم الانتفاع. جمع الله له بين متانة الدين، وأصالة الرأى، ورجاحة العقل، وسمو النفس، وعلو الهمة، وكمال الدراية، وبعد النظر. وكان من أثر ذلك أن نهض بالأمة المصرية فى جميع مناحى حياتها نهضة واسعة النطاق مباركة، ميمونة، مقرونة بكمال الحكمة.

ولقد رأى — حفظه الله — أنّ رقى الأمم ما لم يكن مدعّما على أساس الدين، ومحاطا بسياج الفضيلة، ومتمشيا مع مكارم الأخلاق، وتربية النفوس تربية صحيحة، لا يؤمن فيه الزلل، ولا يسلم من العوج.

فأجال — حفظه الله — نظره العالى فيما تحويه دور الثقافة بالديار المصرية، فرأى الجامعة الأزهرية هى: معقل الدين الحنيف، ومبعث التربية الشرعية، وأن نورها يشعّ على العالم الإسلامى جميعه، وأن جميع الأمم الإسلامية تعرف للأزهر هذه الميزة وتعترف بها، إذ ترسل أبناءها كل عام أفواجا، فيغترفون من منهله، ويتزودون من علمه، ويستضيئون بنوره؛ ثم يعودون الى قومهم يفيدونهم مما استفادوا، ويخلفهم غيرهم، وهكذا دواليك، فهم فى كل عام فى ازدياد.

رأى — حفظه الله — هذا كله فوجّه قسطا عظيما من عنايته الشريفة الى الأزهر ، ليزيده رقياً ، ويوسع ما فيه من دوائر العلوم ، حتى يقوم لمصر وللعالم الاسلامى بأعباء المهمة المرجوة منه خير قيام . فأمر حفظه الله بسن القوانين واللوائح ، وتعديل المناهج ، وتكثير العلوم التى تدرس به ، وتوسيع مقرراتها ، وتوزيع المواد العلمية بين طلابه ، ليتخصص كل فريق بما عهد إليه ليقوم به خير قيام ، حتى أسفرت تلك التطورات عن خير ما أنتج البحث وهدت إليه التجارب ، فصدر قانون الأزهر رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ بإعادة تنظيم الجامعة الأزهرية على هذا الوجه الحاضر ، وسار به العمل ابتداء من سنة ١٩٣١ الدراسية . فلما استقر نظامه ، وأخذ دورته التى تبرز التشريع فى أرقى صورة علمية ، أراد — حفظه الله — أن يرى بنفسه ما أثمرته الجهود الموفقة ، فأعلن إرادته الشريفة : أن يزور الكليات الثلاث للأزهر وأقسام التخصص الملحقة بها لافتتاحها رسميا .

وقد تحدّد يوم الثلاثاء ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥١ (٢٨ مارس سنة ١٩٣٣) لزيارة كلية أصول الدين وما يتبعها من أقسام التخصص : « شعبة التفسير والحديث » و «شعبة التوحيد والمنطق » و « شعبة الوعظ والإرشاد » .

وتقرر يوم الأربعاء ٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥١ (٢٩ مارس سنة ١٩٣٣) لزيارة كلية الشريعة ، ويتبعها من أقسام التخصص « شعبة الفقه على المذاهب وأصول الفقه » وزيارة كلية اللغة العربية ، ويتبعها من أقسام التخصص : « شعبة النحو والصرف » و « شعبة البلاغة والأدب » و « شعبة التاريخ والمنطق ، وعلم النفس » .

فلما حلّ موعد الزيارة الملكية فى اليوم الأول ، وكان قد شعر بها الأهلون من حى شبرا الذى به كلية أصول الدين ، احتشدوا فى جانبى الطريق ، مغتبطين مسرورين

لرؤية مليكهم المحبوب، ومبتهجين بما يرونه من مظاهر عطفه على الأزهر ورجال العلم والدين، إذ كان ذلك يمس منهم عاطفة حية حساسة.

ولقد كان فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وحضرات أصحاب الفضيلة كبار العلماء، وحضرات أصحاب المعالى والسعادة الوزراء، والعظماء من كبار الدولة، فى انتظار تشريف جلالته، حتى إذا أقبل الموكب الملكى، دوت الأرجاء بهتاف التحية والتهليل، ووصل — حفظه الله — فى الساعة الحادية عشرة صباحا، دار الكلية فعمد الى فصول الدراسة، فزار الفصل الأول من الكلية، وكان يدرس فيه الأستاذ الشيخ محمود أبو دقيقة، من علماء الأزهر «علم التوحيد» فى موضوع «حاجة الإنسان الى بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام» فاستمع — حفظه الله — من الدرس جملة صالحة كبيرة، وألقى بين يدى جلالته أحدُ الطلاب، كلمة قيمة تحية بالنيابة عن إخوانه.

وانتقل الى فصل ثان، كان يدرس فيه الأستاذ الشيخ سيد قناوى من علماء الأزهر فى علم التفسير، تفسير قوله تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، وبعده قصد الى فصل آخر، كان يدرس فيه «علم الفلسفة» وموضوعه «صلة الفلسفة بالدين»، وكان المدرس، الأستاذ الشيخ أمين الخولى. ثم قصد الى فصل لدرس التاريخ، وكان موضوعه «آثار محمد على باشا رأس الأسرة المالكة بمصر، وبيان ما كانت عليه مصر من الحالة الدينية والاجتماعية فى عهده، وشهادة مؤرخى الغرب بشأنه»، وكان المدرس فيه، حضرة الأستاذ محمد افندى حبيب، ثم فصل يدرس فيه علم النفس، كان الموضوع فيه «ملكة التقليد والمحاكاة فى الإنسان، وأثر ذلك فى التربية» وبيّن الأستاذ أن هذه النظرية قد دوّنها العرب فى مؤلفاتهم الاجتماعية، وليس الفضل فى التنبيه لها راجعا للغربيين كما يزعمه بعضهم، وكان المدرس حضرة الأستاذ مظهر افندى سعيد.

وجاء بعد ذلك دور قسم التخصص ، وكان فيه درس الحديث ، ويؤديه ، الأستاذ الشيخ محمد العزبى رزق ، وموضوعه « ما ورد فى فضل الامام العادل » وقد ألقى بين يدى جلالته طالب من الجاويين كلمة تحية وشكر . وبعد ذلك كان درس المنطق ، ويؤديه الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى ، وموضوعه « بيان فائدة علم المنطق واحتياج الانسان إليه فى تفكيره » ثم انتقل الى درس الوعظ والإرشاد ، وكان المدرس فيه الاستاذ الشيخ على محفوظ ، وموضوعه « هداية القرآن الى السعادة فى الحياتين الدنيوية والأخروية » .

وبعد أن استمع — حفظه الله — من كل مدرس مايلم معه بالموضوع الذى يؤديه ، ويتعرف طريق أدائه ، ومبلغ عنايته بدرسه ، وإقبال الطلاب على الاستماع والتفهم ، مع حسن الإصغاء والانتباه ، قصد الى حجرة المدرسين ، وقد خفوا لاستقباله ، فخاطبهم حفظه الله بما يفيد امتنانه منهم ، وتقديره لجهودهم ، ورضاه عن عملهم . وحثهم على مواصلة الجد والعمل فى ترقية العلم ونصرة الدين .

وبعد أن تعهد مكتبة الكلية ، تفضل — حفظه الله — بالتوقيع بيده الكريمة ، على سجل الزيارة ، ثم قصد الى حجرة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان ، شيخ الكلية ، فألقى بين يدى جلالته كلمة شكر عن نفسه ، وأساتذة الكلية ، وموظفيها ، وطلبتها ، ثم توجّه الى سرادق قد أعدّ لاستقبال جلالته ، حيث كان المدعوون من عظماء الدولة محتشدين لاستقباله ، فألقى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بين يديه الخطبة التالية :

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر

بين يدى

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم

فى ختام زيارته لكلية أصول الدين

مولاى يا صاحب الجلالة

أحمد الله سبحانه وتعالى على نعمة وجودكم وجلوسكم على عرش مصر ، فقد جددتم مجدها ، وحققتم آمالها ، ونهضتم بها فى جميع شئونها ، وكان للجامع الأزهر من عناية جلالتكم حظ عظيم .

والعناية يا مولاى بالأزهر الشريف هى العناية بالدين الاسلامى وبالمسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا ، فهو قلب الاسلام النابض ، وعلمه الخفاق ، ومصباحه الوهاج ، الذى تعاقبت عليه الأجيال والقرون ، وهو يرسل أشعة الإيمان والتقى ومكارم الأخلاق الى مشارق الأرض ومغاربها ؛ وهو كعبة العلوم الدينية والعربية التى تقصدها الوفود الإسلامية من جميع القارات ، ليتفقهوا فى الدين ، ولغة القرآن الكريم ، ولينشروا ذلك فى قومهم إذا رجعوا اليهم .

ولقد كان من أجلّ مظاهر هذه العناية الملكية — بعد تلك المآثر والمكرمات التى لا تحصى — أن أشرتم بإعادة تنظيم الجامع الأزهر على وجه يحقق آمال المسلمين فيه ،

ويتناسب مع تاريخه المجيد ، ويعدّ خريجيه الى القيام بالواجب الملقى على عاتقهم فى هذا العصر على أحسن وجه ، ويجعلهم رجالا عاملين فى أسرة العلم الاسلامى والعالمى ، ذوى عقلية راجحة ، ملمين بما ينبغى أن يعلم من المعارف وشئون الحياة ، كى يستعينوا بما وصلت اليه العلوم والفنون فى تقدمها على كشف ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف : من حقائق مرتبطة بهذه العلوم ، تكلم عنها الإسلام قبل أن تعرف فى الناس بأكثر من ثلاثة عشر قرنا .

ولقد عوّد الله جلالتكم التوفيق فى جميع أعمالكم ، فأصدرتم القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ وافيا بهذه الأغراض السامية ، مع المحافظة على صبغة الأزهر الدينية والعربية .

وكان من أكبر مزاياه إنشاء كليات أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، وجعل أبوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم ؛ واستدراك ما كان فى القوانين السابقة من نقص فى مواد التعليم على اختلاف مراحله ، فقد جعل من مواد الدراسة فى الكليات : تاريخ التشريع الاسلامى ، ومقارنة المذاهب ، وفن الحديث دراية ، وآداب اللغة العربية وتاريخها ، وفقه اللغة ، وتاريخ الأمم الاسلامية ، وعلم النفس ، والفلسفة ، مع الرد على ما يكون منافيا للدين منها ، وغير ذلك من المواد التى لم تكن تدرس فى القسم العالى من الأزهر الشريف .

ولما كان التخصص فى العلوم هو الطريقة المنتجة التى جرى عليها علماء الإسلام فى أوائل العصور ، واليها يرجع الفضل فى تقدم العلوم وارتقائها قديما وحديثا ، نص هذا القانون على إنشاء أقسام للتخصص فى المواد التى تعنى بها الكليات ، للتبحر فيها ، وعلى منح المتخرجين منها شهادة العالمية مع لقب أستاذ ، وعلى جعلهم أهلا لشغل كراسى

الأستاذية فى الكليات ، كما نص على إنشاء أقسام للتخصص فى التدريس والقضاء الشرعى والوعظ والإرشاد ، يكون متخرجوها أهلا للتدريس فى مدارس الحكومة والمعاهد وتولى الوظائف الشرعية والدينية فى الدولة .

وتحقيقا لرغبتكم السامية قررت حكومة جلالتكم إنشاء مبان فخمة بجوار الأزهر للكليات ، وأقسام التخصص ، والمعهد الأزهرى ، ودار كبيرة للكتب ، وقاعات للمحاضرات ، ومساكن للطلبة ، ومستشفى لهم ، ومبان أخرى لمشيخة الأزهر ومجلسه الأعلى .

والى أن يتم بناء هذه الأماكن دبّرت أماكن مؤقتة للكليات ، بمساعدة وزارتى المعارف والأوقاف ، فكانت كلية أصول الدين فى هذا المكان ، وكليتا الشريعة واللغة العربية فى الدار التى كانت تشغلها من قبل مدرسة القضاء الشرعى .

وفى الوقت الذى توجهت فيه العناية الملكية الى مراحل التعليم النظامى ، توجهت فيه أيضا الى التعليم الدينى العام ، الذى يقصد منه التفقه فى علوم الدين واللغة ، ونشر المبادىء الفاضلة والأخلاق الكريمة بين الناس على اختلاف طبقاتهم ، فنص القانون على إنشاء أقسام لذلك بالقاهرة وغيرها من المدن .

وإذا كانت كليات الأزهر ستكون فى دور خاصة فى حيّه وبجواره ، فان نفس الجامع الأزهر سيكون معمورا بالدروس على اختلاف أنواعها ، مفتح الأبواب لقاصديها من المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، غير مقصور على إقامة الصلاة .

ولقد كان لصدور هذا القانون المبارك وانتشار أنبائه وقع حسن عظيم فى نفوس المسلمين فى عامة الأقطار ، جعلتهم يعتقدون أن جلالتكم حامى حمى الدين ، والمهتم بشئون المسلمين وقد ابتدأت البعثات تتوارد وتتابع : من الصين ، وبولونيا ، وألبانيا ،

والهند ، وغيرها ، للاغتراف من هـذا المنهل العذب . وأخذت الجامعات الـكبرى تتصل بالأزهر الشريف ، وكان آخرها عهدا جامعة غرناطة ، التى لبى الأزهر الشريف دعوتها الى الاحتفال بمرور القرن الرابع على تأسيسها .

ولقد أجزلتم النعمة بتفضلـكم بزيارة الـكليات لافتتاحها رسميا ، وكان من علامات اليمن أن تـكون هذه الزيارة المباركة بين عيدين كريمين : عيد ميلاد جلالتكم الميمون وعيد الأضحى المبارك .

وهذه يا مولاى كلية أصول الدين ، التى غايتها تخريج الوعاظ والمرشدين ، وتحقيق قوله تعالى : (وَلْتَـكُنْ مِنْـكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْـكَرِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

والوعظ والإرشاد يا مولاى إذا أدّيا على خير وجه ، كانا مصدر السعادة الدنيوية والأخروية ، وحلاّ المعقّد من مشاكل الحياة ، وقلّلا من الجرائم .

وقد اجتمع فى هذه الـكلية الى أساتذة التوحيد ، والتفسير ، والحديث ، أساتذة علم النفس ، والأخـلاق ، والفلسفة ، والتاريخ ، وسنن الله الـكونية ، يتعاونون على تزويد الطلاب بمـا يعدهم للقيام بواجب الوعظ والإرشاد على أتم وجه يليق بهذا العصر .

والأزهريون يا مولاى يعجزون عن أداء ما يجب من الشكر لجلالتكم ، تلقاء تلك الأيادى البيضاء المتتالية عليهم ، ويبتهلون الى الله سبحانه وتعـالى بقلوب مخلصة أن يحفظ جلالتكم للإسلام والمسلمين ، وأن يكلأ بعين رعايته حضرة صاحب السمو الملـكى ولى عهد الدولة المصرية : الأمير فاروق — إنه سميع مجيب .

افتتاح
كليتى الشريعة واللغة العربية

وعلى هذا النسق توجّه — حفظه الله — فى اليوم التالى (يوم الأربعاء ٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥١) الى دار كليتى الشريعة واللغة العربية ، حيث كان فى انتظار تشريفه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وعظماء الدولة : من الوزراء ، والعلماء ، والكبراء ، فوصل فى الساعة الحادية عشرة ، فتعالت الأصوات بهتاف التحية والدعاء بحفظ ذاته الكريمة ، فقصد الى فصول الدراسة ، فكان أول فصل زاره ، يدرس فيه الأستاذ الشيخ الحسينى سلطان «تاريخ التشريع الاسلامى» ثم فصل آخر ، يدرس فيه الأستاذ الشيخ محمد عرفه وكيل الكلية ، تفسير قوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) .

وألقى طالب فلسطينى ، بين يدى جلالته ، كلمة تحية وشكر ، ضمنها اعتراف الأمم الشرقية بما لجلالته من الفضل على العالم الإسلامى أجمع ، ثم فصل يدرس فيه الأستاذ الشيخ عبد السلام شرف درسا فى الفقه ، موضوعه : « الوقف فى الإسلام ، وحقيقته الشرعية ، وأدلة إثباته من الكتاب والسنة » وحيا جلالته طالب جاوى بكلمة قيمة ، ثم الى فصل يدرس فيه الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفى درس «أدب اللغة» ، فحيا جلالته بقصيدة عصماء من نظمه . وألقى بين يدى جلالته طالب قوقاسى كلمة تحية ، ثم كان درس الحديث الشريف ، وكان فيه الأستاذ الشيخ عبد الله موسى ، يلقى درسا فى الرواة ، ويتكلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

ثم قصد — حفظه الله — الى غرفة المدرسين ، فشكر لهم جهودهم ، وشجّعهم بكلماته القيمة . ثم تعهد المكتبة وقاعة المطالعة . ثم توجه الى غرفة شيخ الكلية فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مأمون الشناوى ، حيث وقّع على سجل الزيارة ، وألقى شيخ الكلية بين يديه خطبة شكر .

وبعد ذلك انتقل الى كلية اللغة العربية ، فزار الفصل الأول ، وكان يدرس فيه الأستاذ الشيخ سليمان نوار ، فى « وجوه الارتباط بين الجمل من باب الفصل والوصل » ثم الفصل الثانى ، وكان يدرس فيه الدكتور عبد الوهاب عزام تاريخ الإسلام ، وموضوعه « هرون الرشيد » وحياه طالب يوغوسلافى بكلمة شكر واعتراف بالجميل ، وبعده كان فصل يدرس فيه الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين علم النحو ، وموضوعه « المبتدأ والخبر » ممثلا بآية (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) . وألقى طالب هندى كلمة شكر ، ثم درس فى التربية العلمية ، وكان المدرس الأستاذ محمد المخزنجى ، وكان موضوعه « طريقة دالتون فى التربية والتعليم » ، وألقى طالب سورى كلمة تحية . ثم فصل يدرس فيه الأستاذ محمد مهدى علام ، علم قانون الصحة ، وكان يتكلم عن « القلب ومنزلتـه من الجوارح وأنه بمثابة الملك لها » .

وألقى طالب مصرى كلمة شكر وتحية .

ثم زار المكتبة ، وغرفة شيخ الكلية فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم حمروش فحياه فضيلته بكلمة ، وانتقل الى السرادق المعد لذلك ، فألقى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بين يدى جلالته الكلمة الآتية :

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر

بين يدى

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم

في ختام زيارته لكليتى الشريعة واللغة العربية

مولاى يا صاحب الجلالة :

لقد أرضيتم الله ورسوله، وأحييتم سنة الخلفاء الراشدين، إذ عنيتم منذ جلوسكم على عرش مصر بشئون الإسلام والمسلمين ، فدانت لكم القلوب ، وانطوت على الإخلاص والولاء ، ولهجت الألسنة بالثناء والدعاء .

وهذه أعمالكم العظيمة تسجل في كل آن أنك يا مولاى حامى الإسلام وملاذ الدين .

بالأمس تفضلتم بالافتتاح الرسمى لكلية أصول الدين ، واليوم تتفضلون بافتتاح كلية الشريعة الاسلامية ، وكلية اللغة العربية .

وكلية الشريعة هي التي أنشأتموها لتخريج علماء الفقه الاسلامى، والقضاة الشرعيين .

وللفقه الاسلامى تاريخه المجيد ، وآثاره العظيمة في الحياة الفردية والنظم الاجتماعية فهو غنى بالمبادئ التي تحقق السعادة للانسان : في شخصه ، وفى علاقته مع غيره . وقد

بنيت عليه المدنية الاسلامية فى أزهى عصورها ، كما عنى به الغربيون باعتباره مصدرا عظيما من مصادر التشريع فى العالم .

والقضاء الشرعى أساسه إقامة العدل بين الناس ، وتحرى الصواب ، قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) .

وقد جعل بين مواد الدراسة فى هذه الكلية أصول الفقه ، وتاريخ التشريع الاسلامى ، والمقارنة بين المذاهب ، وحكمة التشريع ، وآيات الأحكام وأحاديثها ، حتى يكون المتخرج منها ملماً بأدلة الأحكام الشرعية وسائر ما يتعلق بها .

ولما كان أساس العدل فى التقاضى متانة خلق القاضى ، وفطنته ، وإلمامه بالأحوال والمعلومات التى تساعده على إصابة الحق ، فقد وجهت هذه الكلية عنايتها الى تحقيق ذلك عمليا .

واللغة العربية يا مولاى هى لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ؛ وقد جعلتموها لغة البلاد الرسمية ، كما جعلتم الاسلام دين الدولة الرسمى .

وإذا كان لمصر وأزهرها المعمور تاريخ مجيد فى تخريج أئمة اللغة العربية ، وتأليف الموسوعات فيها ، فإنّ تفضلكم بتأسيس هذه الكلية كفيل بإعادة هذا المجد المؤثل ، وسيكون عملها أتم ، وفائدتها أعم ، حينما يتولى خريجوها تعليم العلوم الدينية والعربية فى المدارس ، فيبثون من مكارم الأخلاق والآداب ، ما يسمو بالجيل الناشىء الى درجة الكمال المطلوبة .

وكما كانت مصر ملاذاً للعربية وملجأ لأساطينها من بغداد وغيرها ، فهى فى عصركم الذهبى الزاهر مصدر النهضة الجديدة لهذه اللغة ، بما أنشأتموه من كليات وغيرها تعمل على ترقيتها ونشرها .

مولاى :

إن الأزهر الشريف السائر فى طريق الرقى والعمل لخير البلاد والعباد، والمتطلع الى المُثل العليا، ليتخذ الاخلاص لجلالتكم شعارا، والعمل على تحقيق رغباتكم السامية خطة ومنهاجا، ويلتف رجاله حول عرشكم المفدّى، ويقفون بين يدى الله تعالى صباح مساء، مبتهلين إليه جل شأنه أن يحفظ جلالتكم للاسلام والمسلمين، ويبقيكم ذخراً وملاذا، ويحفظ حضرة صاحب السمو الملكى ولى عهدكم المحبوب : الأمير فاروق .

كلمة عن

التعليم الاسلامى بمصر

لما فتح مصر عمرو بن العاص وبنى بها مسجده سنة ٢١ هجرية، اتخذه جماعة من الصحابة والتابعين مركزا علميا لنشر الدين القويم وتعاليمه النافعة .

وقد أخذت هذه الحركة العلمية تكبر وتتسع، وتنمو وتزدهر، حتى أمّه كثير من العلماء الأعلام، والأئمة المجتهدين، فأفادوا العالم الاسلامى بآرائهم وتآليفهم، وتركوا ثروة لا ينضب معينها .

وأشهر هؤلاء عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد

وقد كان للإمام محمد بن إدريس الشافعى بهذا الجامع زاوية يدرّس فيها مذهبه، ويدوّن آراءه، وعلى يديه تخرّج كثير من العلماء الفضلاء، الذين دوّنوا مذهبه ونشروا علمه : كالربيع بن سليمان، والمزنى، والبويطى، وغيرهم .

وظل التدريس فى الجامع العتيق عامر الحلقات مدّة طويلة ، واقتفى أثره فى ذلك جامع أحمد بن طولون .

ولما بنى الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ هجرية وكمل سنة ٣٦١ ه وصار مكانا للتدريس آلت اليه تلك الحركة العلمية الميمونة ، وازدهرت فيه وترعرعت حتى تخرّج فيه أئمة فضلاء ، وشيوخ أجلاء ، خدموا الإسلام والمسلمين بالتأليف تارة ، وبالتدريس أخرى ، حتى أصبح مفخرة العالم الإسلامى عامة ، ومصر خاصة .

ولقد عالجت هذه الجامعة الكبرى علوم الدين ، فيسرت سبلها ، وأكثرت كتبها ، واهتمت بشئون اللغة العربية ، فهذبت طرقها ، وأصلحت شأنها ، وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها ، مضطلعة بمهمتها ، حتى نبه ذكرها ، وذاع صيتها ، وأمّها الطلاب من كل فج ، ليغترفوا من منهلها ، ويستضيئوا بنورها ، وانحدر اليها العلماء من كل صوب ، ليساهموا فى النفع بها ، ونشر آثارها ، فازدهرت فيها أنواع العلوم والفنون ، وأمدت العالم الاسلامى بما هو فى حاجة اليه .

ولقد كان الأزهر الشريف منذ نشأته موضع عناية الخلفاء الفاطميين : يتعهدونه بالعناية والرعاية ، ويغدقون على من به من العلماء والطلبة العطايا والهبات ، ويذهبون اليه بأنفسهم للصلاة والوقوف على حاله ، مما كان له الأثر البالغ فى حفز همم الشيوخ والطلبة الى التفرغ للعلم .

نظام الازهر قديما

كان النظام المتبع الذى يسير عليه الأزهر منذ أصبح مدرسة جامعة نظاما سهلا ، يكاد يكون فطريا ، أساسه التقوى ، وقوامه احترام الدين وأهله .

وكان شيخ الجامع الأزهر هو المرجع الأعلى لمن فيه من أصغر طالب الى أكبر عالم، كلمته هى العليا، وإشارته حكم، لا يتخطاه واحد منهم، وقوله الفصل فى كل ما اختلف عليه، يوزع الأحباس والهبات، ويجيز العلماء والمدرسين، وكان إذا أشكل عليه أمر استشار فيه أكابر العلماء.

وكان يدخل الطالب الأزهر مختارا بلا قيد ولا شرط، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه، ويبقى فيه ما شاء أن يقيم، فاذا آنس من نفسه علما كافيا، وملكة يتمكن بها من إفادة غيره، استأذن أساتذته وجلس الى التدريس حيث يجد مكانا خاليا وعرض نفسه على الطلبة. فكانوا إذا لم يجدوا فيه الكفاية للإفادة انفضوا عنه، وإذا وجدوه على علم التفوا حوله واستمروا على تلقى العلم عنه، وحينئذ يجيزه شيخ الأزهر نهائيا.

ولما كان أساس التعليم فيه تعليما دينيا، ابتدأ على الطريقة التى كان السلف الصالح يدرسون عليها الدين وعلوم الدين، فكانت الدروس تعقد به حلقات حلقات، يتصدر كل حلقة أستاذها، وقد يجلس على كرسى ليتمكن من إسماع طلبته الكثيرين.

وكانت طريقة التعليم إذ ذاك هى الطريقة الإملائية: يملى الأستاذ على الطلبة ما يريد من المسائل العلمية.

وبعد أن كثر تأليف الكتب، وتيسرت وسائل النشر، عمدوا الى دراسة الكتب وتفهم أغراض المؤلفين ومقاصدهم. وكانت الكتب إذ ذاك بعضها من الموسوعات التى هى فى غنى عن الشرح والتعليق، وبعضها موجز يشتمل على خلاصات العلوم، وهذه قد يوضع لها أحيانا شروح، وقد يكون للشروح تعليقات تسمى بالحواشى والتقارير.

وكان عماد الدراسة إذ ذاك المناقشة والحوار بين الطلبة وأستاذهم، مما يثقف العقل وينمى ملكة الفهم.

وظلوا على ذلك مدة طويلة الى أن اقتضى الحال وضع قوانين خاصة للأزهر وطلبته وعلمائه، وللدراسة فيه .

ما كان يدرس فى الأزهر من العلوم والفنون قديما

فى سنة ١٢٨٢ هجرية، أرادت الحكومة المصرية أن تقف على العلوم التى تدرس فى الأزهر الشريف لتبعث بذلك الى لجنة معرض باريس، فأفادتها المشيخة بأنه يدرس فى الأزهر :

الفقه، الأصول، التفسير، الحديث رواية ودراية، التوحيد، النحو، الصرف المعانى، البيان، البديع، متن اللغة، الوضع، العروض والقافية، الحكمة الفلسفية، التصوف، المنطق، الحساب، الجبر والمقابلة، الفلك، الهيئة .

ثم قالت : « هذه هى العلوم المتداولة فى الأزهر، يقرؤها العلماء لطلبتهم بحسب مراتبهم، وما عداها كالهندسة والطبيعة والموسيقى والتاريخ وغيرها يقرءونها لمن لهم اقتدار على تناولها، إلا أن المشتغل بها قليل لعدم رغبة الطلبة فيها » .

وقد كان من العلماء من يعرف كثيرا من العلوم العقلية والطبية وغيرها زيادة على العلوم الدينية والعربية، وهؤلاء لا يحصون، نذكر منهم على سبيل المثال :

الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هجرية، فقد جاء فى سند إجازته ما ملخصه : أنه تلقى فى الأزهر العلوم الآتية، وله تآليف فى كثير منها، وهى : الحساب، والميقات، والجبر والمقابلة، والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها، وعلم الأسطرلاب، والزيج، والهندسة، والهيئة، وعلم الأرتماطيقى، وعلم المزاول، وعلم الأعمال الرصدية، وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن، وعلم استنباط المياه، وعلاج البواسير، وعلم التشريح، وعلاج لسع العقرب، وتاريخ العرب والعجم .

قوانين الأزهر

لم يكن للأزهر قانون يقيد الدراسة بنظام معين كما سبقت الإشارة إليه .

ولما كثر الطلاب وتقدمت الدراسة وتنوعت العلوم واتسع نطاق الأزهر ، مسّت الحاجة الى سن قوانين وأنظمة لضبط ذلك .

وأول قانون للأزهر وضع فى عهد المغفور له اسماعيل باشا والى مصر الأسبق سنة ١٢٨٨ هجرية (سنة ١٨٧٢م) وكان شيخ الأزهر وقتئذ الشيخ محمد العباسى المهدى .

وقد نظم هذا القانون طريقة نيل شهادة العالمية ، وبين مواد امتحانها ، وقسم الناجحين فيها الى ثلاث درجات (أولى — وثانية — وثالثة) على أن يصدر بذلك براءة بتوقيع ولى الأمر .

وما زال الأزهر محل رعاية الحكام وأولى الأمر فى مصر يتعهدونه بسن القوانين والأنظمة التى لها الشأن العظيم فى سير الدراسة به ، حتى صدر القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ فانتقل به الأزهر الى مرحلة أخرى من النظام ، إذ زيدت فيه مواد الدراسة ، وبيّن اختصاص شيخ الجامع الأزهر ، وأنشىء له مجلس تحت رياسة شيخه يسمى (مجلس الأزهر الأعلى) ووضع فيه نظام لهيئة كبار العلماء ، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخ ، ولكل معهد من المعاهد مجلس إدارة .

ولما كان هذا القانون لا يؤدى كل الغرض المطلوب منه ، فقد لحقه كثير من التعديل فى مواد الدراسة ونظام التعليم وأنواع الشهادات وغير ذلك مما رفع شأن التعليم فى الأزهر وجعل له منزلة سامية .

وقد تم كل هذا التعديل فى عهد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم (فؤاد الأول) حفظه الله .

واستمر الأزهر خاضعا لهذا القانون ، مع ما أدخل عليه من التعديل ، الى أن اقتضت إرادة جلالة مولانا الملك إعادة النظر فى قوانين الأزهر ليكون على نظام يكفل للطلاب أن ينالوا قسطا عظيما من الثقافة العامة ، بما لا يتعارض مع صبغة الأزهر الدينية والعربية ، ويؤهلهم للقيام على حفظ الشريعة الغراء أصولها وفروعها ، وعلى تعلم اللغة العربية ونشرها على وجه يفيد الأمة ، ويعدهم لتعليم هذه العلوم فى المعاهد الدينية ومدارس الحكومة وتولى الوظائف الشرعية فى الدولة ، فكان ما أراده جلالته ، ووضع القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ .

القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠

جعل هذا القانون التعليم فى الأزهر أربع مراحل :

١ — ابتدائى ومدته أربع سنوات ، ويدرس فيه من المواد ما يلى :

الفقه ، الأخلاق الدينية ، التجويد ، استذكار القرآن الكريم ، التوحيد ، السيرة النبوية ، المطالعة والمحفوظات ، الإنشاء ، النحو ، الصرف ، الإملاء ، الخط ، التاريخ ، الجغرافيا ، الحساب ، الهندسة العملية ، مبادئ العلوم ، تدبير الصحة ، الرسم .

٢ — ثانوى ومدته خمس سنوات . ويدرس فيه من المواد ما يلى :

الفقه ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، استذكار القرآن الكريم ، النحو ، الصرف ، البلاغة (البيان والبديع والمعانى) ، العروض والقافية ، المطالعة والمحفوظات ، الإنشاء ، أدب اللغة ، الرياضة (الحساب والهندسة والجبر) ، العلوم (الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى) ، المنطق ، التاريخ ، الجغرافيا ، الأخلاق ، التربية الوطنية .

٣ — عالٍ ومدته أربع سنوات ، وينقسم الى ثلاث كليات :

(ا) كلية اللغة العربية . ويدرس فيها من المواد ما يلى :

النحو ، الوضع ، الصرف ، المنطق ، علوم البلاغة ، الآداب العربية وتاريخها ، تاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الأمم الإسلامية ، التفسير ، الحديث ، الأصول ، الإنشاء ، فقه اللغة .

(ب) كلية الشريعة . ويدرس فيها من المواد ما يلى :

التفسير ، الحديث متنا ورجالا ومصطلحا ، أصول الفقه ، تاريخ التشريع الإسلامى ، الفقه مع مقارنة المذاهب فى المسائل الكلية وحكمة التشريع ، أدب اللغة العربية ، علوم البلاغة ، المنطق .

(ج) كلية أصول الدين . ويدرس فيها من المواد ما يلى :

التوحيد مع إيراد الحجج ودفع الشبه خصوصا الذائع فى العصر منها ، المنطق والمناظرة ، الفلسفة مع الرد على ما يكون منافيا للدين منها ، الأخلاق ، التفسير ، الحديث ، آداب اللغة العربية وتاريخها ، تاريخ الإسلام ، علم النفس ، علوم البلاغة .

٤ — التخصص وهو على نوعين : تخصص فى المهنة ، وتخصص فى المادة. والغرض من التخصص فى المهنة ، هو إعداد علماء يقومون بمهنة الوعظ والإرشاد ، أو الوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية ، والإفتاء والمحاماة ، أو التدريس فى المعاهد الدينية ومدارس الحكومة .

والغرض من التخصص فى المادة : إعداد علماء متفوقين فى العلوم الأساسية لكل كلية من الكليات الثلاث .

ويعين حاملو شهادة هذا القسم فى وظائف التدريس بالكليات وبأقسام التخصص.

وهناك علاوة على ذلك أقسام غير نظامية يسمح فيها بدخول الطلبة الذين لم تتوافر فيهم شروط القبول بالأقسام النظامية ، وكذلك أفراد الجمهور للتوسع فى دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية .

الشهادات

والشهادات التى تعطى للناجحين فى الامتحانات النهائية هى :

١ — الشهادة الابتدائية :

تمنح لمن أتموا دراسة القسم الابتدائى ، وتخول صاحبها الاندماج فى القسم الثانوى للقسم الأول .

٢ — الشهادة الثانوية للقسم الأول :

تمنح لمن أتموا دراسة السنوات الأولى والثانية والثالثة من القسم الثانوى ، وتخول صاحبها الاندماج فى القسم الثانوى للقسم الثانى .

٣ — الشهادة الثانوية للقسم الثانى :

تمنح لمن أتموا دراسة السنتين الرابعة والخامسة من القسم الثانوى وتخول صاحبها الاندماج فى الكليات .

٤ — الشهادة العالية :

تمنح لمن أتموا دراسة كلية من كليات القسم العالى . والحائزون لها يكونون أهلا للوظائف الكتابية بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية والأوقاف والتدريس فى المساجد ولوظائف الخطابة والإمامة والمأذونية .

٥ — شهادة العالمية :

تمنح لمن أتموا دراسة التخصص فى مهنة التدريس أو القضاء الشرعى أو الوعظ والإرشاد . والحائزون لها من قسم التخصص فى مهنة التدريس يكونون أهلا للتدريس فى المعاهد الدينية وفى مدارس الحكومة . والحائزون لها من قسم التخصص فى القضاء يكونون أهلا للوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والإفتاء والمحاماة أمام المحاكم الشرعية والمجالس الحسبية . والحائزون لها من قسم التخصص فى الوعظ والإرشاد يكونون أهلا لوظائف الوعظ والإرشاد .

٦ — شهادة العالمية مع لقب أستاذ :

تمنح لمن تخصص فى مادة من المواد . والحائزون لها يكونون أهلا للتدريس فى الكليات وفى أقسام التخصص .

مجلس الأزهر الأعلى

قضى القانون الجديد بتأليف هيئة تشريعية لها حق النظر فى اللوائح والقوانين التى تلزم لسير الدراسة والإدارة وغيرها فى الأزهر والمعاهد الدينية، وتسمى تلك الهيئة (مجلس الأزهر الأعلى) وهو يؤلف من :

(١) شيخ الجامع الأزهر .

(٢) وكيل الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، وله رياسة المجلس عند غياب شيخ الجامع الأزهر .

(٣) مفتى الديار المصرية .

(٤) مشايخ الكليات الثلاث .

(٥) وكيل وزارة الحقانية .

(٦) وكيل وزارة الأوقاف .

(٧) وكيل وزارة المعارف العمومية .

(٨) وكيل وزارة المالية .

(٩) اثنين من هيئة كبار العلماء ويعينان بأمر ملكى لمدة سنتين .

(١٠) اثنين ممن يكون فى وجودهم بالمجلس مصلحة للتعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية ، ويعينان بمرسوم لمدة سنتين .

المعاهد الدينية التابعة للأزهر

أطلق اسم الجامع الأزهر فى القانون على كليات التعليم العالى ، وعلى أقسام التخصص .

ويطلق اسم المعاهد الدينية على معاهد التعليم الدينى الإسلامى التى يكون التعليم فيها بقصد تفقه الطلاب فى دينهم وفى اللغة العربية وإعدادهم لدخول الجامع الأزهر .

والتعليم فى هذه المعاهد : ابتدائى . أو ابتدائى وثانوى .

والمعاهد الدينية الآن هى :

١ — المعهد الأزهرى بالقاهرة ... ... ابتدائى وثانوى

٢ — معهد الاسكندرية ... ... »

٣ — « طنطا ... ... »

٤ — « الزقازيق ... ... »

٥ — معهد أسيوط ... ... ابتدائى وثانوى
٦ — « دسوق ... ... ابتدائى
٧ — « دمياط ... ... «

أجناس طلبة الأزهر والمعاهد الدينية

تتكون طلبة الأزهر والمعاهد الدينية من المصريين والغرباء الذين يفدون اليه لطلب العلم بعد ما ذاع صيته واشتهر أمره فى جميع الأقطار الاسلامية .

ففيه من بلاد طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والحبشة والصومال وبرنو وجنوب إفريقية والشام والعراق والحجاز ونجد واليمن وجاوة والهند والصين وروسيا والقوقاز والأناضول والكردستان والأفغان وتركيا وألبانيا ويوغوسلافيا وبولونيا وبلغاريا وأمريكا .

دور الكتب الأزهرية

كانت أروقة الجامع الأزهر غاصة بالكتب العقلية والنقلية المخطوطة والمطبوعة الكثيرة الوجود والنادرة المثال .

ثم رئى فى سنة ١٣١٤ هجرية (١٨٩٧ م) إنشاء دار كتب عامة تسمى (دار الكتب الأزهرية) وأعد لها مدرستا الاقبغاوية والطبرسية ، وجمع فيها كثير مما تفرق فى الأروقة من الكتب ومن هبات المحسنين ، ومما اشترى من بعض الوقفيات المحبوسة على شراء الكتب .

وفى هذه الدار الآن ما يزيد على ستين ألف مجلد يبلغ عدد المخطوط منها نحو خمسة عشر ألفا ، وفيها كثير من أمهات الكتب ونادرها .

وليس الانتفاع بهذه الدار مقصورا على الأزهريين ، بل إن كثيرا من أهل العلم والأدب يختلفون إليها وينتفعون بما جمعت من الكتب العلمية فى مختلف الفنون .

وتحقيقا للرغبة الملكية السامية فى ترقية هذه الدار وتنظيمها ، انتدبت رياسة الأزهر بعض الموظفين الإخصائيين فى نظام دور الكتب لتنظيمها على أحدث طراز ، وقد جعل لكل كلية من الكليات الثلاث مكتبة أودع فيها الكتب اللازمة للكلية ؛ ولها موظف خاص يقوم على شئونها ، ولايزال فى بعض أروقة الأزهر بعض خزانات خاصة تحتوى كتبا خاصة لسكان هذه الأروقة .



قال بعض رواة الأدب :

وقف علينا أعرابى ونحن برملة اللِّوَى فقال : رحم الله امرأ لم تَمْجُجْ أذناه كلامى ، وقدَّمَ مَعَاذَةً من سُوء مَقامى ، فانّ البلاد مُجْدِبَة ، والحال مُسْغِبَة ، والحياء زاجرٌ يمنع من كلامكم ، والفقْر عاذرٌ يدعو الى إخباركم ، والدعاء أحَدُ الصَّدقتين ، فرحم اللهُ امرأ أمر بمَيْرٍ ، أو دعا بخير ؛ فقلت : ممن أنت يرحمك الله ؟ فقال : اللهم غَفْراً ، سُوءُ الاكتساب ، يمنع من الانتساب .

الاسلام فى السودان[1]

رأينا فى الجزءين الأخيرين من هـذه المجلة درجة انتشار الإسلام فى الأقطار المختلفة من البلاد السودانية ، وبيّنا أن الأسباب الاجتماعية كانت أول وأهم العوامل فى اتساع نطاق نفوذه وأكبر مساعد فى انتشار تعاليمه[2] . كما اتضح لنا كيف مهدت الغزوات والفتوحات الإسلامية السبل لاختلاط المسلمين بأهالى تلك الأقاليم الوثنيين وسهّلت على هؤلاء تعرف حضارةٍ ومدنية جديدة توافق طرق معيشتهم ، وديانة سهلة واضحة تسيغها فطرتهم . كما ظهر لنا أيضا أن الدعاية الدينية للاسـلام فى هـذه البلاد لم تكن فى أى وقت من الأوقات منظمة أو كافية حتى يرجى منها فائدة كبيرة .

على أنه وإن تبادر الى ذهننا مما سبق ذكره أن دخول السودانيين فى الإسلام كان لمجرد رغبة منهم فى تحسين حالتهم الاجتماعية والمعيشية وطمعا فى إزالة الفوارق السياسية الدنيوية ، فما يجدر بنا ذكره فى هذا المقام أن زنوج أفريقية الوثنيين رأوا فى قواعد الديانة الاسلامية وتعاليمها أهم أسباب تقدم المسلمين وتفوقهم عليهم فى مناحى

---

(١) مترجمة من الالمـانية نقلا عن مقال للاستاذ « ديدريش ويسترمان » فى مجلة « العالم الاسلامى » الألمـانية . (٢) هذا رأى صاحب المقال فى سبب انتشار الاسلام فى زنوج أفريقيا . وقد يكون هذا الرأى مقبولا حين يجهل الكلام فى اسلام فئة من الناس خيم عليهم الجهل والتأخر المدنى وانحطاط المدارك أزمنة متطاولة . أما إذا رجعنا الى أسباب انتشار الاسلام انتشارا عالميا بين أمم متنوعة أخذت قسطا عظيما من الرقى الفكرى والعلوم الكونية فان السبب حينئذ يرجع الى ما جاء به الاسلام من عقيدة صحيحة الفهم سائغة عند الفكر متينة البراهين ساطعة الحجج لا يزيدها التعمق فى البحث إلا قوة ولا تزداد مع اتساع العلم والاستكشاف إلا جلاء ونورا . يعرف ذلك من درس بإمعان العقيدة الاسلامية وردها الى براهينها القوية المتينة وكان نظره لتلمس الحق فى ذاته لا يدفعه تعصب ممقوت ولا يبغى بالصواب بديلا .

الحياة المختلفة ، فيبدأ يتضح لهم قوة إله المسلمين وقدرته ، وليس أيسر على الوثنى من تغيير عبادته ، فكثيرا ما بدّلت قبائل منهم آلهتهم بمجرد ظهور إله أقوى فى القبائل المتاخمة ، وهكذا تركوا معبوداتهم القديمة ودخلوا فى دين الله ، حيث يرجون الخير والنفع الكبير فى الدنيا والآخرة ، خصوصا وأنهم كانوا لا تربطهم بآلهتهم روابط قوية ، فكثيرا ما هجروها أو حطموها لسخطهم عليها إذا لم تستطع نفعهم وعجزت عن قضاء حوائجهم أو قصرت فى درء الشر عنهم .

هذا علاوة على ارتباطها الوثيق بمحل إقامتها ، فلا يستطيع أحدهم القيام بشعائره الدينية أو تقديم القربان والضحايا لها إلا فى مكان نصبها ، وكثيرا ما كانت تضطرهم حاجتهم المعاشية للهجرة عن مواطنهم شهورا وأعواما طويلة ، خصوصا بعد الاحتلال الأجنبى الذى أخرجهم عن عزلتهم وفتح أمامهم طرقا مختلفة جديدة للسعى وراء الرزق ، فكان ذلك سببا فى نسيانها وإغفال أمرها واحتقار شأنها .

ولا يمكن للزنجى أن يعيش طويلا بلا ديانة ، فحياته الروحية دائمة التعطش الى التعبد ، إلا إذا استثنينا بعض الأحوال التى يموت فيها هذا الإحساس الغريزى باحتكاكه فى المعاملة بالأوربيين اللادينيين . لذلك فاننا نجده يسعى حثيثا للانضمام الى الدين الأكثر شيوعا بين الأهالى والمساوق لفطرته ، وهو الاسلام . هذا إن هو لم يقتصر على التلهى بالقيام ببعض الشعوذة الدينية ، وهذا فى النادر جدا فى مثل هذه الظروف .

فدخول الافريقى فى الدين الاسلامى ليس هو لمجرد رغبة فى تحسين حالته الاجتماعية والمعاشية ، أو رهبة من قيود الرق والاستعباد فحسب كما قد يتطرق الى ذهن القارىء لأول وهلة ، بل إنه إنما يفعل ذلك لأنه شديد الرغبة فى الوصول الى كشف حقيقة العالم ونظمه الخفية والوقوف على سر الحياة والموت ، متطلع دائما الى الاعتراف

بوحدانية الإله الحى الذى لا يموت القادر على كل شىء ، فهو متدين بطبيعته وكثير الاهتمام بالمسائل الدينيـة بفطرته ، فوجـد فى الدين الإسـلامى ما يطفىء به ظمأه ويشفى به غلته ، فجاءت هذه الديانة محققة لآماله التى ينشدها ، ووافية بأغراضه التى يصبو إليها .

رأى الافريقى فى الديانة الاسلامية بساطة فى أماكن إقامة الصلوات ، وسهولة ويسرا فى أداء الشعائر الدينية ، هذا علاوة على ملاءمتها لـكل فرد فى كل مكان وزمان ، فـكان ذلك كله سببا فى تعلقه بها دون سواها ، وتمسكه بفروضها واتباع تعاليمها ، فبرزت الى ناظره محاسنها ، كما وجد أن الانسان إنما يتعبد ويتقرب بها الى إله تنزه عن الأغراض والوسائط الدنيوية ، وقد تمـكن بها من تفسير كثير مما شمله الغموض وحامت حوله الشبهات من مسائل الحياة الدنيوية وحياة الآخرة ، كل هذه الأمور أقرب الى ذهنه وأنسب لفطرته من المذاهب المسيحية الملتوية التى تفرق بين الدنيا والدين .

أما من جهة أثر الاسلام فى تلك البلاد النـائية المنعزلة عن العالم المتمدين ، فما لا شك فيه أن الاسلام كان سببا فى تحسين كثير من أمور الحياة من وجوه ونواح متعددة ، على أننا لا يمكننا فى كثير من الأحوال أن نعزو التقدم — خصوصا فى الميدان السياسى — الى دخول الاسلام فحسب ، بل إن تيار التطور العالمى الذى اجترف جميع أنحاء المعمورة فى هذا الحين كانت قد وصلت موجاته أيضا الى تلك البقاع ، وأصبح من المتعذر على الباحث كثيرا معرفة أسباب التطور الحقيقية : أهى نتيجة دخول الدين الجديد ، أم أن هذا التقدم والعمران كان نتيجة لا بد واقعة لتيار التطور العالمى ؛ ولـكن على كل حال فان ظهور هـذا التقدم فى الوقت الذى دخل فيه الاسلام مما يحملنا على الاعتقاد أن تلك البلاد مدينة من هذه الناحية العمرانية للاسلام بكثير من الإصلاحات والتقدم الفكرى ولو من طريق غير بعيد .

لم تكن البلاد السودانية تعرف النظم السياسية والاجتماعية فى تكوين الأمم قبل دخول الاسلام ، فاهتم الفاتحون المسلمون بتنظيمها من هـذه الناحية ، فنشأت على أيديهم بلاد مستقرة الحكم ، ذات سلطة مركزية ، وإدارة منظمة ، وحدود سياسية وشعب يشعر بالرابطة الوطنية ، ونظمت جباية الضرائب والخراج ، ووضعت قواعد عادلة للأحكام ، فاستتب الأمن ، وزاد الرخاء ، وأمن الضعيف غائلة القوى .

زاد من ثمرة الإصلاح الذى دخل على يد الفاتحين من المسلمين انتشار اللغة العربية بين الأهالى الوطنيين ، حيث كانوا قبل الفتح الإسلامى لا تربطهم رابطة تفاهم ، فجمعت اللغة شمل الكثير منهم ، فقربت العلائق ، ووطدت عرى الإخاء والتفاهم ، وعاونت على تذليل كثير من الصعوبات التى كانت تقوم فى وجه الكثير من المصلحين بينهم ، فبدأت تقوى هناك روح الحياة التعاونية المشتركة بزوال التعصب بين الأجناس واللغات المختلفة .

تظهر ثمرة الإصلاح والتقدم للناظر جليا عند مقارنة الأقاليم التى انتشر فيها الاسلام بالبقاع الوثنية من الوجهة الاجتماعية والعلمية ، فاننا نجد أن انضمامهم الى ديانة عالمية تربطهم من نواح حيوية متعددة بالأقطار الاسلامية المتمدينة ، مثل شمال أفريقية ومصر وسوريا وبلاد العرب ، مما ساعد على اتساع نطاق تفكيرهم وازدياد الروابط التجارية والعلمية بينهم ، بينما تنزوى القبائل الباقية على الوثنية فى زوايا النسيان والعزلة التامة ، حتى تكاد لا تخرج معاملاتهم وتجارتهم عن طرق التبادل المعروفة فى عصور الإنسان الأولية .

يتبع

تصحيح

ورد فى مقال كتاب جديد عن الاسلام للمستشرق الأستاذ كامبفماير المنشور بالعدد العاشر من السنة الثالثة بالمجلة بعض عبارات مخالفة للحقيقة وتوهم معنى غير صحيح ، ولم يتسع ذلك الجزء للتعليق عليها ، ونشير هنا الى تصحيح وإيضاح ما ورد بها .

فمن ذلك قوله : « وقد ناقش أعضاء مجلس النواب فى تعديلات بعض جزئيات الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بالأوقاف » .

والواقع أنه لم تجر مناقشات بمجلس النواب بتعديل شىء من جزئيات الشريعة الاسلامية لا فى الأوقاف ولا فى غيرها ، وغاية الأمر أنه حصلت مناقشة فى الصحف اليومية بين بعض الكتاب المفكرين فى أمر الأوقاف ، وهل هى حكم دينى أو نظام اجتماعى ، وبعد قيام الحجة على أنه من الدين انتهت المناقشة .

وكذلك قوله : « قررت الحكومة البعض الآخر (بعض التعديلات) بطريق التشريع كقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ الخاص بإعادة تنظيم الأحكام بالمحاكم الشرعية » . وتخصيص ولى الأمر القضاء ببعض الحالات ليس فيه افتيات على الدين ولا خروج على أحكام الشريعة .

وأما رفع سن الزواج الى ١٦ سنة بالنسبة للزوجة و ١٨ بالنسبة للزوج ، فلم يكن حكما ببطلان هذه العقود إذا حصلت ، وإنما هو محاولة منع الناس عن التعجل بالزواج قبل كمال استعداد الأولاد له ، فأخرجت القضايا المتفرعة على الزواج المتعجل عن اختصاص المحاكم الشرعية ليمتنع الناس عن إجراء هذه العقود .

وورد فى مقال « كيف انتشر الاسلام » المنشور فى العدد نفسه من كتاب العقيدة والشريعة فى الاسلام لمؤلفه جولد تزيهر :

« لايسع أحداً أن ينكر أن أول الأوامر التى فرضت على المسلمين الفاتحين إزاء الأمم المغلوبة والتى كانت تدين بديانات أخرى لم تكن مصبوغة بصبغة التسامح فى العهد الأول لانتشار الشريعة الاسلامية » .

والحقيقة أن التسامح مع أهل الديانات الأخرى من أهل الكتاب موجود فى الشريعة الاسلامية وفى العهد الأول لانتشار الاسلام : عهد نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ) وقوله تعالى : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى : (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) وقال عليه الصلاة والسلام فى أهل الكتاب من يهود ونصارى « لهم مالنا وعليهم ما علينا » .

وجاء خطأً فى صفحة ٧٢٧ سطر ٥ من العدد العاشر أيضا :

عمرو بن العاص . والصواب عمر بن الخطاب .

His Majesty then went over to the professor's room and graciously thanked them for their efforts and favoured them with words of encouragement.

He then inspected the College library and the reading room and moved on to the Dean's room where he graciously signed the distinguished visitors' book and listened to a speech of thanks given by the Dean of the College His Eminence Sheikh Mohammed Mamoun Al-Shinnawy on behalf of the faculty, staff and students.

His Majesty then went over to the College of Arabic Language and was shown round the classes.

In the first class, His Majesty attended a lecture given by Professor Sheikh Soliman Nowar on "The connection between sentences and points of union and separation".

In the next class, Professor Doctor Abdul-Wahab Azzam was lecturing on the History of Islam, his subject being "Haroun Al-Rasheid".

A Jugoslav student gave a speech of thanks.

Next came a class of Grammar where Professor Sheikh Mohammed Mohyel-Din was lecturing on the "Mobtada and Khabar" giving for example the verse:

(Holy Koran, verse 35, Chap. XXIV) . (اللّهُ نُورُ السَّمـٰوَاتِ وَالأَرْضِ)

An Indian student gave a speech of thanks.

His Majesty then attended a class of pedagogy where Professor Mohammed Al-Makhzangy was lecturing on "Dalton's system of education".

A Syrian student gave a speech of thanks.

In the next class, Professor Mohammed Mahdi Allam was lecturing on hygiene, the subject being "The heart and its function in relation to the other parts of the body". The Professor aptly remarked that it occupies the same position in relation to them as that of the king.

An Egyptian student gave a speech of thanks.

His Majesty then inspected the College library and reading room. In the Dean's room, His Eminence Sheikh Ibrahim Hamroush gave a speech of thanks on behalf of the faculty, staff and students.

His Majesty then went over to the marquee especially erected for his reception where His Eminence the Grand Sheikh, Rector of Al-Azhar University delivered a speech and the Royal visit was concluded.

INAUGURATION OF THE COLLEGES OF MOHAMMEDAN LAW AND ARABIC LANGUAGE.

Next day (Wednesday the 3rd. of Zul-Hidja, 1351 A.H., 29th. March, 1933), His Majesty drove to the Colleges of Mohammedan Law and Arabic Language where His Eminence the Grand Sheikh, Rector of Al-Azhar University, Their excellencies the Cabinet Ministers, their Honour the Grand Ulema and the chief dignitaries of the State were waiting for his reception.

At 11 a. m., His Majesty arrived and his arrival evoked loud cheers from the crowds lining the road and was hailed with applause from all those present.

His Majesty was directly shown round the class rooms. In the first class Professor Sheikh Al-Husaini Sultan was lecturing on the History of Islamic jurisprudence. After attending a part of the lecture, His Majesty moved on to the next class where Professor Sheikh Mahmoud Arafa sub-dean of the College, was lecturing on the interpretation of the Koranic verse:

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

(Holy Koran, Verse 58, Chap. IV.)

A student from Palestine gave a short speech of greeting and alluded in course thereof to the gratitude of Eastern countries for His Majesty's favours on the Moslem world.

In the next class, Professor Sheikh Abdul-Salam Sharaf was lecturing on Mohammedan Law, the subject being "Wakf in Islam, its place in the Law and confirmation from the Koran and the Sunnah (usage)."

A Javanese student gave a speech on behalf of his colleagues.

His Majesty then attended a lecture on literature given by Professor Sheikh Abdullah Afifi who greeted His Majesty with a masterly poem of his own composition.

A Circassian student gave a speech of thanks.

In the next class, His Majesty attended a lecture on Tradition given by Professor Sheikh Abdullah Moussa, the subject being "Traditionists and Abdullah Ibn Amrou Ibn Al-Ass."

and Defender of the Faith. Missions from China, Poland, Albania, India etc. began to arrive in succession to Al-Azhar in quest of knowledge; and great universities began to get in touch with it, the last being the University of Granada whose invitation to the ceremony of the fourth centenary of its foundation, was accepted by Al-Azhar.

Your Majesty have greatly augmented your favours by graciously deigning to visit the Colleges for the official inauguration. It is an auspicious sign that this Royal visit should take place in the interval between two great festivals, Your Majesty's Birthday and that of Eid-ul-Adha.

And this, Your Majesty, is the College of Principles of Religion whose object is the training of preachers and spiritual teachers and to fulfil the Lord's words:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . (Holy Koran, Verse 104, Chap. III.)

For if preaching and spiritual edification are properly conducted, they would prove the right source of salvation in this world and the hereafter and would help to solve the knotty problems of life and reduce crime to a minimum.

In this College, professors of Divinity exegesis and Tradition have joined with those of psychology, philosophy, history and natural sciences and they co-operate together to train and fit the students to discharge the duty of preaching and spiritual edification in the best manner suited to the needs of present time.

The Azharites fail indeed to express the thanks due to Your Majesty in return of those successive favours showered on them and they pray the Almighty Allah with loyal and faithful hearts that He may long spare Your Majesty for Islam and the Moslems and bless His Royal Highness Prince Farouk. Amen.

The subjects of study in the Colleges were augmented by: History of Islamic Jurisprudence, Comparative study of rites, Scientific study of Tradition, Arabic Literature and History, Philology, History of Moslem Countries, Psychology, Philosophy and the refutation of anti-religious conceptions and other subjects which were not given in the Higher Section of Al-Azhar.

Seeing that specialisation in sciences is the only productive system which the Ulema of Islam adopted at the begining of the Islamic era, and as the development and progress of sciences in olden and modern times is directly due to specialisation, this Law has provided for the establishment of specialisation sections in the more important subjects studied at the Colleges for further extensive study. It has also decreed that graduates of these sections should be granted the Alimieh Certificate with the title of Ostaz (Master) and that they should be eligible for nomination to the professorship of the Colleges.

This Law has also provided for the establishment of specialisation sections in teaching, Mohammedan Law, preaching and spiritual edification, the graduates of these sections to be eligible for nomination to the teaching posts in Government schools and Religious Institutes and to the states sharie and religious posts.

In fulfilment of your wishes, Your Majesty's Government has decreed the construction of large buildings in the vicinity of Al-Azhar to house the Colleges, the Specialisation Sections, the Al-Azhar Institute, as well as a large library, lecture rooms, students' hostels, infirmary and other buildings for the Rectory of Al-Azhar and its Supreme Council.

Pending the construction of these buildings, temporary places have been arranged through the help of both Ministries of Education and Wakfs (Pious Foundations). The College of Principles of Religion is housed in this building and the Colleges of Mohammedan Law and Arabic Language are given the building occupied before by the School of "Al-Qada Al-Sharie."

Your Royal attention was not confined to the stages of regular education, but was also directed to public religious instruction which provides a more extensive study of Religion and the Arabic Language and aims at the dissemination of high morals and noble ideals among all classes of the people. The Law has provided for the establishment of public sections for this purpose at Cairo and other towns.

But though the Colleges of Al-Azhar will be housed.in separate buildings in the Al-Azhar quarter and adjacent to it, Al-Azhar itself will continue to provide various studies and will be open to all Moslems of all nationalities. It will not be confined to the performance of prayers.

The promulgation of this Law and the publication of news regarding it, have made a most favourable impression on the minds of the Moslems of all countries who rightly acclaimed Your Majesty the Patron of Learning

ADDRESS OF HIS EMINENCE THE GRAND SHEIKH MOHAMMAD AL-AHMADI AL-ZAWAHRY, RECTOR OF AL-AZHAR UNIVERSITY

TO

HIS MAJESTY THE KING.

Your Majesty,

Praise be to Almighty Allah for the blessing of Your Majesty's accession to the throne of Egypt. Your Majesty have regenerated its glory, realised its aspirations and contributed to the development of all its activities. The Al-Azhar University has equally engaged Your Majesty's attention and has been the favoured recepient of a good deal of Your Royal interest.

This interest, Your Majesty, is nothing short than the interest in Islam and Moslems wherever they may be, for Al-Azhar is the throbbing heart of Islam, its radiant light-beacon which has, for successive centuries and generations, shed the light of faith, piety and high morals on the furthermost corner of the earth. It is the Kaaba of religious and Arabic sciences to which Islamic missions from all the continents repair to acquaint themselves with Religion and the language of the Holy Koran, spreading this knowledge among their people on their return home.

Over and above those countless favours, the greatest manifestation of this Royal interest was Your Majesty's directions for the reorganisation of Al-Azhar in such a manner as to fulfil the expectations of the Moslems and be compatible with its glorious history and traditions. Also to fit its graduates for the right discharge of their duty and to render them active members in the Islamic and universal fraternity of learning, and thoroughly acquainted with the trend and exigencies of life so that they may be able, through the progress of arts and science, to bring to light those facts of which the Holy Koran and Tradition have spoken over thirteen centuries ago, long before men had an inkling of them.

Providence has always pleased to crown Your Majesty's efforts with success, for thus have Your Majesty promulgated the Law No. 49 of 1930, which fully realised those great ends and at the same time, maintained the religious and Arabic character of Al-Azhar.

Among the great advantages of this Law, are the establishment of the Colleges of Principles of Religion, Mohammedan Law and Arabic Language, the free admission to all Moslems of all nationalities and the amendment of deficiencies detected in the preceeding laws in the subjects fo study in its different stages.

In the second class, His Majesty attended a lecture on Exegesis given by Professor Sheikh Sayyed Qinawy, the subject being the interpretation of the Koranic verse:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (Holy Koran, verse 104 Chap. III).

His Majesty then moved on to the third class where Professor Sheikh Amin Al-Khouly was lecturing on philosophy and its relation to religion.

In the next class, His Majesty attended a history lecture given by Professor Mohammad Habib, the subject being "The works of Mohammad Aly, the head of the reigning dynasty of Egypt, and the religious and social state of the country in his time" quoting the opinions of Western historians of him.

Next, His Majesty attended a class of psychology where Professor Mazhar Said was lecturing on "The instinct of imitation in man and its effect on upbringing". The Professor pointed out that this theory was expounded by the Arabs in their works on sociology and that the credit of its exposition is not at all due to the Westerners as claimed by some of them.

The Specialisation Sections came next and His Majesty attended a lecture on Tradition given by Professor Sheikh Mohammad Al-Ezaby Rizq, the subject being "The merits of the just Khalif (ruler)". A Javanese student gave a short speech of thanks and greetings on behalf of his colleagues.

In the next class, His Majesty attended a lecture on logic given by Professor Sheikh Ibrahim Al-Jibbaly, the subject being "The use of logic and the need of man to it in thought process."

His Majesty then attended the class of preaching and spiritual edification where Professor Sheikh Ali Mahfouz was lecturing on "Guidance of the Koran to salvation in this life and the next."

After having thus attended the different classes of the College, His Majesty went over to the professors' room where He was received by the faculty. His Majesty graciously expressed his appreciation of the efforts and favoured them with words of encouragement.

His Majesty then inspected the College library and graciously signed the distinguished visitors' book. In the Dean's room, he listened to a speech of thanks given by His Eminence Sheikh Abdul-Majied Al-Labban Dean of the College on behalf of the faculty, staff and students.

His Majesty then went over to the marquee especially erected for his reception where a distinguished company of guests were waiting to receive him. There, His Eminence the Grand Sheikh Rector of Al-Azhar University, delivered the following address:

With this object in view, His Majesty has graciously ordered the enactment of new laws and the modification of the curricula. New subjects were added and the scope of study extended further afield. The students of the Higher sections were assigned certain subjects to specialise therein. These developments, ultimately resulted in the adoption of the best possible régime to which investigation and experience have lead, and Law No. 49 of 1930 ralating to the reorganisation of Al-Azhar was promulgated and put in force at the begining of 1931.

When this new régime was put to practice which revealed the legislation in its best practical form, His Majesty announced his royal wish to visit the three Colleges and the Specialisation Sections affiliated thereto, in order to see for himself the fruits of those successful efforts.

Tuesday the 2nd of Zul-Hidja, 1531 A.H. (28th of March 1933), was consequently fixed for the inaugural visit to the College of Principles of Religion and the Specialisation Sections affiliated thereto viz : Section of Exegesis and Tradition, Section of Monotheistic Divinity and Logic and Section of Preaching and Spiritual Edification.

Wednesday the 3rd of Zul-Hidja, 1351 A.H. (29th of March, 1933), was fixed for the inaugural visit to the College of Mohammedan Law and the Specialisation Section of Mohammedan Law in accordance with the recognised rites and the principles of Mohammedan Law. The same day was also fixed for the inaugural visit to the College of Arabic Language and the Specialisation Sections affiliated thereto viz: Section of Grammar (Nahw) and Morphology (Sarf), Section of Rhetoric and Literature and Section of History, Logic and Psychology.

When the set time for the Royal visit arrived, the inhabitants of Shoubra quarter in which the College of Principles of Religion is situated, crowded on both sides of the road and were elated at the prospect of seeing their King whose patronage of Al-Azhar and favours to men of learning and religion have touched a vital chord in their hearts.

His Eminence the Grand Sheikh, Rector of Al-Azhar University, Their Honour the Grand Ulema, Their excellencies the Cabinet Ministers and the Chief dignitaries of the State were all waiting to receive His Majesty at the College entrance.

As the Royal procession came along, the place echoed with applause and ovation. His Majesty arrived at 11 a.m. and was directly shown round the College class rooms. The first class His Majesty attented, was a lecture on Divinity given by the Professor Sheikh Mahmoud Abou Daqiqa, the subject being "The need of man to the mission of Prophets". His Majesty listened to a good part of the lecture and a student gave a short speech of greetings on behalf of his colleagues.

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

OFFICIAL INAUGURATION

OF THE

THREE COLLEGES OF AL-AZHAR UNIVERSITY

BY

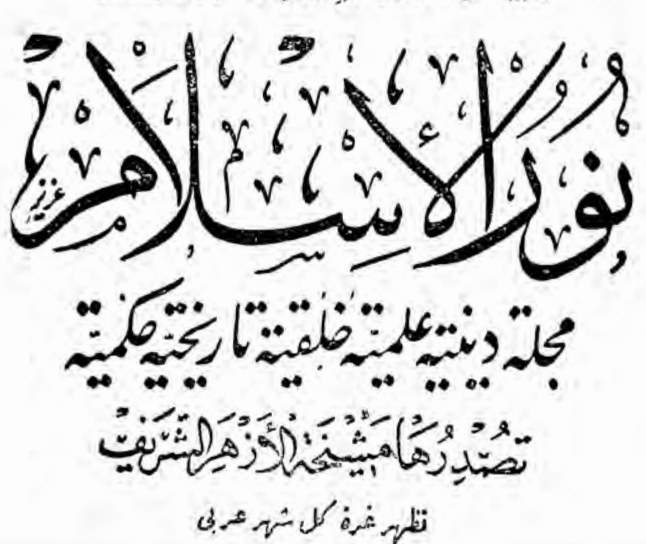
HIS MAJESTY FOUAD I, KING OF EGYPT.

It is a great blessing to this country that Providence has favoured it with a benevolent king who rightly merits the commendation of history and the gratitude of present and future generations. Added to his devoutness and religious fervour, His Majesty has been endowed with great intellect, foresight and zeal, all of which combined to give rise to a great revival which embraced all the activities of the Egyptian people.

Seeing that the progress of nations, unless it is firmly established on a sound basis of religion and safeguarded with morality and thorough education, will be liable to serious errors and set-backs, His Majesty has turned his attentions to the educational institutions of Egypt. He has found in Al-Azhar University the stronghold of the Faith and the fountain-head of true religious education which sheds its light all over the Moslem world, a prevelige which Moslem nations accede only to Al-Azhar and is amply testified to by sending their sons in ever increasing numbers to pursue their studies at that University.

In view of all these considerations, His Majesty has given Al-Azhar a great share of his attention in order to effect its further advancement and enlarge the scope of subjects studied in it, so that it may satisfactorily accomplish the great mission expected from it to the interest of Egypt and the Moslem world.

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *



الجزء الثانى	صفر سنة ١٣٥٢	المجلد الرابع

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف } سابقا
ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى }

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	صـ
داخل القطر المصرى	٤٠
خارج القطر المصرى	٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب ... ... — داخل القطر	٢٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب ... ... — خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسول صلى الله عليه وسلم - والتسامح

التسامح معنى فى النفس يرجع الى طائفة من الأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة ، أو هو مظهرها وأثر من أعظم آثارها ، وثمرة جليلة من أعز ثمارها ، منها الحلم ، والصبر والاحتمال ، وسعة الصدر ، والعفو عند المقدرة ، والتواضع ؛ ومنها السخاء ، والجود ، والعفة ، وضبط النفس . وهذه الصفات على تقارب معنى بعضها من بعض ، قد فرق بينها علماء الأخلاق فروقا ليس المقام متسعا لشرحها ، على أن معانيها فى الجملة غير خفية .

والتسامح على اتصاله بهذه المجموعة العظيمة من الأخلاق الكريمة ، من أعظم الصفات الحميدة أثرا ، وأجزلها فائدة ، وأعودها بالخير على المجموع . يؤلف القلوب المتنافرة ، ويقرب النفوس المتباعدة ، ويهدى الأرواح الجامحة ؛ فرب كلمة طيبة فضت مشاكل وحلت عقدا متعاصية الحل ؛ ورب تسامح فى أمر قليل ، حفظ من الوقوع فى خطر كبير وخطب جليل .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم فى الذروة العليا فى هذا الخلق الكريم ، سواء فى معاملته الفردية أو فى مواقفه الخطيرة الاجتماعية ، ما لم تكن الحكمة السديدة فى المعاملة الشديدة ، بل قد تجلى ذلك فيما أوحى الله به إليه من أحكام التشريع الذى جاء به رحمة للناس أجمعين . فما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ؛ وما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله فيغضب لله أن تنتهك

حرمته ؛ وما عالج أمرا من الأمور الحيوية بشيء من الشدة إلا إذا تعينت واستحكم العناد والإباء فى نفوس من يعاندونه ويأبون قبول المصلحة لأنفسهم ، أمثال أولئك الأغبياء الذين قالوا فيما قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) بدل أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه الصراط المستقيم .

وإنّ استقصاء مظاهر التسامح منه صلى الله عليه وسلم لا يكاد يتيسر لى فى هذه العجالة ، إلا أن هذا لا يمنع من الإلمام بما يحضرنى الآن من روائع الشواهد التى تعتبر المثل الأعلى فى هذا الباب ، بل يصح أن تكون مضرب الأمثال .

فمن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم فى أول أمره حين اشتد أذى قريش له ، عرض نفسه على القبائل ليحميه أحد منهم ، فكان بعضهم يردّ ردًّا جميلا ، وبعضهم يغلظ فى الرد ؛ ووصل الأمر بسفهاء بعض القبائل أن أتبعوا الرد بإغراء صبيانهم به عليه الصلاة والسلام فأدموا قدمه الشريف برمية حجر ، فما زاد صلى الله عليه وسلم على قوله : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » أو « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » وروى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد حين كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم ، وأدميت وجنته بدخول حلقة المغفر فيها .

فانظر الى وقت اشتد فيه البأس وحمى وطيس الحرب ، والنفس عادةً تستجمع أقوى ما عندها من غضب لتستعين به على حفز قواها لمناهضة خصمها ، ويزيد فى ذلك ما تتحرك به القوة الغضبية حين وصول الأذى ، انظر مع هذا كله تطيب نفسه ، فبدل أن يسكت عنهم أو يدعو عليهم ، يدعو لهم بالمغفرة أو بالهداية على اختلاف الروايتين . والدعاء لهم إنما يصدر عن وفور الشفقة ، ويسند تلك الشفقة بأنهم قومه ؛ والالتفات الى هذا إنما يكون عادة من الوسيط بين المتخاصمين لا من أحدهما بالنسبة الى الآخر ، ثم يعتذر عن فظيع عملهم ومقابلتهم دعوته الى سعادتهم بمهاجمته ومقاتلته ، يعتذر عنهم بأنهم لا يعلمون ، والجاهل ينبغى أن يقبل منه العذر .

وانظر الى ما روى فى صلح الحديبية حين قدم صلى الله عليه وسلم مكة للنسك لا للحرب ، والكعبة بيت الله الحرام لا يصد عنه ناسك ، وقد ظهرت أمارات قدومهم للنسك لا للحرب ، فأبوا عليه وصدوه عن بيت الله ، فلما اقتنعوا بنيته تمادوا فى إبائهم وقالوا : « وليكن نسككم فى عام قابل » واتخذت هذه الواقعة فرصة مناسبة لعقد صلح بينه وبين المشركين على شروط اشتط فيها المشركون حتى قالوا : « من ذهب منا اليكم فعليكم أن تردوه لنا ومن جاء الينا منكم فليس علينا رده » فتذمر المسلمون لهذا الشرط ، فرضاهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن من ذهب منا اليهم فلا رده الله ، ثقة بأنه لا يذهب اليهم أحد من المسلمين مرتدا ، ومن جاء منهم الينا ورددناه فسيجعل الله له فرجا . وقد كان هذا التسامح فى الشروط من أيمن التصرفات وأعودها بالخير على المجتمع ، فقد وضعت الحرب بين الفريقين أوزارها ، وأمن الناس على أنفسهم فانتقلوا بالمتاجر وغيرها ، وأدى ذلك الى الاختلاط ، فسماع الهدى منه صلى الله عليه وسلم ، فانشراح صدور للاسلام ، وهداية كثير من الناس .

ولما ردّ صلى الله عليه وسلم بعض المسلمين إليهم مراعاة للشروط التى بينه وبينهم صمد أولئك المسلمون الذين رُدّوا لعناد قريش وإلحاق الأذى بهم ، غير مستندين الى قوة إخوانهم المسلمين ، بل مستقلين فى ذلك بأنفسهم ، حتى فرج الله عن المسلمين ، ونقضت قريش شروطها ، فكان المسلمون بذلك فى حل من تلك الشروط ، وجاء الفتح الذى به دخل الناس فى دين الله أفواجا .

ومما وقع فى هذه القصة أيضا : تسامحه عليه السلام بحذف كلمة (رسول الله) حين تصلبوا وقالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولكن قل : محمد بن عبد الله . فأبى كاتبه عليه السلام أن يمحوها ، فمحاها صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وأجابهم الى طلبهم ، ثقة بأن الله ناصره فى النهاية ، وقد كان .

وانظر اليه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وقد دخلها وهى موطنه الذى أخرج منه قسرا فدخلها ظافرا ، ولا تزال تلك الرءوس التى كانت تعمل على أذاه شامخة بعزها الى هذا اليوم الذى قهرها الله فيه ، فزاغت منهم الأبصار وظنوا أنه يوم هلاكهم ، ولا شىء أدعى لليأس ، من غلبة من كان مظلوما بالأمس ، فجمعهم وقال : ما تقولون[1] أنى فاعل بكم ؟ فقالوا استعطافا لرحمته : « أخ كريم وابن أخ كريم » فقال عليه الصلاة والسلام : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وقد كان أبو سفيان من أشد رءوس قريش عنادا وتعنتا ، وهو الذى ألب عليه الأحزاب فغزوا المدينة ، وهو الذى استنفر عليه قريشا يوم بدر ويوم أحد ، وهو الذى كان منه من العناد ما كان ، فأبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يستنزله عن عناده وكبريائه بأعظم تسامح : فبدأ بأن نوه بشأنه ، فنادى مناديه فيما نادى بقوله : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ففتح ذلك باب الرجاء فى نفس أبى سفيان . ولما جىء به اليه وهو رأس تلك الحوادث ، لم يزد على أن قال له : « ألم يأن لك أن تشهد ألا إله إلا الله » ؛ فاستل بهذا ما بقى فى نفسه من غطرسة وعناد ، وأسلم طائعا غير مجروح العزة ولا فاقد الشمم ، وكان فى إسلامه وهو من عظماء قريش عزة المسلمين .

ولقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما فى بعض الغزوات ، فانسل اليه رجل من المشركين خلسة ، واخترط سيفه وكان معلقا بشجرة ، واستيقظ صلى الله عليه وسلم فرأى الرجل والسيف مصلت فى يده ، فقال له الرجل : من يمنعك منى الآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « الله » فوقع السيف من يد الرجل ، فأخذه صلى الله عليه وسلم وشهره عليه وقال : من يمنعك منى ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ يا محمد . فعفا عنه صلى الله عليه وسلم ، فأسلم الرجل .

ومن ذلك ما يروى أن رجلا جبذه عليه السلام من ردائه وقال : أعطنى يا محمد من مال الله فانك لا تعطينى من مالك ولا من مال أبيك . وكانت الجبذة شديدة حتى أثر

(١) أى ما تظنون .

طرف الرداء فى عنقه صلى الله عليه وسلم ، فسكت صلى الله عليه وسلم ثم قال : المال مال الله وأنا عبده . ثم قال : « ويقاد منك يا أعرابى » فقال : لا ، قال ولم ؟ قال : لأنك لا تجزى بالسيئة السيئة . فضحك صلى الله عليه وسلم وأمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر .

وجاءه رجل يتقاضاه دينا قبل أجله بثلاث ، فأغلظ فى القول حتى قال له : أعطنى دينى إنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل . فانتهره عمر وأغلظ له فى القول ، فكفّه عنه صلى الله عليه وسلم وقال له : « دعه يا عمر أنا وهو كنا الى غير هذا أحوج منك : تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن الأداء » وقضاه دينه ، وزاده عشرين صاعا دفعا لترويع عمر إياه ، مع أنه لم يكن حل أجله . فانظر الى هذا الاحتمال مع أن الطلب بغير وجه حق ، والى تعليمه عمر ما ينبغى أن يصنعه الرجل الذى يحضر خطابا بين اثنين .

ولقد أسلم الرجل وقال: لقد رأيت فيه كل علائم النبوة إلا هاتين العلامتين: يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما ، فعلمت ماعلمت لأتبينهما . ومثل ذلك ماروى أن رجلا استعطاه صلى الله عليه وسلم فأعطاه ، ثم سأله : أحسنتُ إليك يا أعرابى؟ فقال: لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : كفوا عنه ، وأعطاه حتى رضى ، وقال : أحسنتُ إليك يا أعرابى ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيرا . فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت منه فاتبعها الناس ليردوها عليه فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها خلّوا بينى وبين ناقتى فانى أرفق بها وأعلم ، فتوجه إليها وأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال وقتلتموه ، دخل النار .

فانظر كيف يردف الخلق الحسن بشرح الثمرة المترتبة . واقرأ إن شئت قوله تعالى : (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) .

وبعد : فهل هذا مستغرب على من يقول الله له : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ويقول الله فى وصفه مخاطبا المؤمنين : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

معاملته للمنافقين :

ولقد كان للمنافقين معه عليه السلام حوادث يضيق لها صدر الحليم، وهم مستظلون بظله ومحتمون بحمايته ، ومخالطون للمسلمين ، يعلمون دخائلهم ، ويفشون أسرارهم ، ويصحبونهم فى غزواتهم لينهزموا فى وسط المعركة فينهزم المسلمون ، أو لينصرفوا فى أثناء الطريق لينصرف معهم ضعفاء القلوب . وكان صلى الله عليه وسلم عالما بهم يطلعه الله على دخائل قلوبهم وذات صدورهم ، ويشير عليه بعض الصحابة بقتلهم ، وهو قادر على إبادتهم ، ومع ذلك ينهاهم عنهم ويقول : لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .

فانظر كيف يتحمل أذاهم مع هذه الصفات حتى لا يلعب الشيطان شيطان الإنس وشيطان الجن بعقول من يشاور نفسه فى الإسلام ويقول له مالك ولرجل يقتل أتباعه . وحسبك فى تمثل جرمهم ما حكاه عز وجل عنهم فى قوله تعالى : (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) وقوله : (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) وابتكارهم لقصة الإفك ، وقد بيّنا فى مجلة نور الاسلام ما فيها من الفظاعة من جانبهم ، وحسن الاحتمال من جانبه صلى الله عليه وسلم .

تسامحه مع ضعفاء المؤمنين :

ويلتحق بذلك تسامحه مع حاطب بن أبى بلتعة حين عزم صلى الله عليه وسلم على فتح مكة، وكان من كمال التدبير ألّا يعلم القوم، لكيلا يستعدّوا فتتسع دائرة الحرب وتراق دماء كثيرة، فعنّ لرجل من المسلمين أن يخطر القوم، فكتب لهم يعلمهم، وأعطى الكتاب لامرأة وضعته فى شعرها، فأعلمه الحق جل جلاله، فأرسل اليها من الصحابة من أدركها وانتزع الكتاب منها، فلما سأل حاطبا فى ذلك اعتذر بأن له لديهم مصالح خشى عليها منهم، فأراد أن يتخذ عندهم يداً ليحفظوه فى مصالحه، وهو مع ذلك عالم أن الله ناصره عليهم، فقبل صلى الله عليه وسلم منه ذلك وعفا عنه. فكم فى هذا من تسامح فيما يعدّ اليوم خيانة كبرى يجازى عليها بالقتل.

التسامح فى الشريعة الغراء :

لقد استفاضت الدعوة الى التسامح فى الشريعة الغراء حتى سميت بحق الشريعة السمحة. اقرأ إن شئت قوله تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

فاذا انتقلت بنظرك الى سماحة الاسلام فى معاملة غير المسلمين، وجدت العجب العجاب. وعسى أن تطالع ما نشرته «مجلة نور الاسلام» بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين فى هذا الموضوع، فقد شرح من أحكام الفقه الاسلامى، وساق من أدلة الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح ما ينشرح له صدور قوم مؤمنين، ويتجلى به شىء من سر قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).

صلى الله عليه وسلم صلاة تليق بمقامه الكريم، وننتفع ببركتها فى يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ابراهيم الجبالى



سورة النور

١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

بيّنا فيما سبق كيف أردف المولى جل وعلا تلك الآيات البينة والتعاليم الحكيمة والإرشادات المنيرة للطريق السوى، الهادية الى سبيل السعادة، المنظمة لأحكام المعيشة البيتية، أردفها بما يرغب فى الاهتداء بها والامتثال لأمرها والتحقق بالعمل، فبيّن أنها آيات مبينة ، وأنها موعظة نافعة لمن عمل بها واتقى ربه فى الأخذ بسببها ، وأن نورها وهداها لا يصدر إلا من العليم الحكيم . ثم ضرب مثلا لنوره بتصوير أعظم ما يخطر بالبال وتراه العيون من النور ، شارحا أثر الاهتداء بذلك النور والمقصود الأعظم منه

وهو شكر المنعم ، والقيام بحق العبودية له ، وإفراغ الجهد فى طاعته ، ونوّه بالأماكن المخصصة لعبادته ، ورتب على ذلك الجزاء الذى أعدّ لهم ، والفضل الذى يمنحهم زيادة عن توفيتهم أجورهم .

وكان جديراً بل منتظرا بعد ما عرف من حال المهتدين ما عرف ، أن يشرح حال من ضلوا السبيل ولم ينفعهم هـدى الله الذى جاءهم ، فبيّن سبحانه وتعالى حال أولئك الضالين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فضرب لهم مثلين : (أحدهما) حال من عقد قلبه على الضلال واطمأن الى الكفر وبنى آماله على غير أساس جازما بأن له العقبى والفوز ، وأولئك هم الذين ظنوا أنهم على شىء وما هم على شىء . و (الثانى) حال من ملكت الحيرة قلوبهم وتاهوا فى بيداء الضلالة يتلمسون الهدى وهو بين أيديهم يناديهم ويضىء لهم وهم عنه عمون ، كالضالين الذين لا يعتقدون دينا أو يتخيلون أمرا يدينون به وهم فى شك منه ، ككفار قريش الذين كانوا يسألون اليهود أيهما خير ديننا أم دين محمد ؟ فقال فى الأولين « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » وقال فى الآخرين : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض » .

وأيضا فانه لما بيّن حال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بأنهم فى الدنيا على نور الله وهدايته وفى الآخرة يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، بيّن حال الكافرين كذلك فى الدنيا والآخرة ، فبيّن حالهم فى الآخرة بأنهم يردون على أمل كاذب فى عمل خاطئ كمتتبع السراب وقد اشتد به الظمأ ، فلا يجدون مما أمّلوا شيئا ، بل يجدون الجزاء الذى أعد لهم على ما اقترفوا وضلوا ، فيجدون الله يحاسبهم حسابا عسيرا ، ويستوفون جزاءهم جزاء نكرا ، وبيّن حالهم فى الدنيا بأنهم يسيرون فى ضلالة ويتيهون فى ظلمات متراكمة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وأنّى لمن كانت هذه حاله أن يصل الى غاية صحيحة :

وقدّم هنا ما يتعلق بأحوال الآخرة ، لأن صدمتها لهم أشد ، وحسرتهم على ما قدموا من عمل يلتفتون اليه أقوى . وقدّم فى الأول حال الدنيا ، ليكون الترتيب حسب ترتيب الوقوع ، وهو ظاهر . وأيضا فلتربية الرجاء ليزداد الإقبال على اتباع الهدى .

وقد يقال أيضا إن أعمال الكفار منها ما هو موضع لأمل الخير فيرجون بها الثواب ، فإذا ما وردوا عليها يوم القيامة وجدوا أنفسهم قد ضيعوها وخابت آمالهم عندها ، إذ لم تبن على أساس الإيمان الصحيح ، وكل ما بنى على غير أساس فالى الانهيار يصير ، ومنها ما هو أذًى وشرٌّ فى ذاته ، فإذا انضم الى ظلمة الكفر كان كالظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض . والآية قابلة لهذه المعانى كلها

والسراب : ما يتراءى فى الفلوات وقت الضحوة كأنه ماء وليس بماء . يرى ذلك من يسافر فى الصحراء ، فمن الناس من يعلله بأنه بخار رقيق يتصاعد من قعور القيعان فإذا وقع عليه شعاع الشمس تراءى كالماء ؛ ومنهم من يقول : بل هو هواء رقيق يظهر عند وقوع الشعاع عليه بهذا المظهر ، وليس المقام مقام تعليله .

والقيعة : الأرض المنبسطة المستوية . أو هى جمع قاع كجيرة جمع جار . والقاع : هو الأرض المنبسطة المستوية . ويحسبه بمعنى يظنه . وفرق بعضهم بين الحسبان والظن بأن الحسبان هو أن يخطر المعنى بالبال فيعلق بالنفس ، وهو قابل للزوال بالتشكيك ونحوه . والظن أن يرد المعنيان على النفس ويرجح أحدهما على صاحبه رجحانا لا يصل لليقين . فكأن الظان قد خطر له المعنيان وركن الى أحدهما ، والحاسب لم يخطر له إلا معنى واحد . والظمأ : شدة العطش . وكأنه خص التشبيه بالظمئان مع أن السراب يتراءى كالماء للظمئان وغيره ، لأن الظمأ يدفع بالمرء الى تلمس الماء ، فاذا ما وقع بصره على السراب خطر بباله ما هو بحاجة إليه ، ودفعه الحرص على هذا الحسبان وهو

لا يشعر . ثم فيه نكتة أخرى وهى الجمع بين ضلال الحسبان وخيبة الرجاء مع اشتداد الحاجة ، وذلك حال الكافر إذ يرد على ربه معتدا بعمله مؤملا فيه حسن المثوبة ، إذ كان يراه من عمل البر ، كصلة الرحم ، أو مساعدة الضعيف ، أو الصدقة على الفقير ، فاذا ما جاءه لم يجده شيئاً يعول عليه ، بل وجد الحساب أمامه بالمرصاد ، فيستوفى جزاء ما فرط فى أمر الايمان ، وهو أساس كل طاعة وعماد كل بر ، وحينئذ تشتد به الحسرة على ضياع ما أمّل ، ومصادفة العقاب الذى لم يكن له على بال .

وأما ما عملوا من سوء فإنه يراه وقد عظم جرمه وترا كم إثمه ، فازداد بالكفر جرما وإثما ، وحاق به من سوء عمله ما لم يكن مقدرا له ، فضاقت نفسه ، واشتدت حيرته ، وانسدت مسالك الأمل فى وجهه ، فاذا رجع الى ما عمل وجده سوءا ؛ وإذا رجع الى ما اعتقد وجده ضلالا وظلاما ؛ وإذا رجع الى نفسه وجدها نفس سوء شريرة ، فكأنه قد قذف به فى بحر لجى تلاطمت أمواجه ، وترا كمت غيومه ، وأظلم ليله ، فلا شمس ولا قمر ، ولا كواكب ولا نجوم ، فاذا حاول أن يرى يده فلا سبيل له الى رؤيتها ، فلا يقرب من أن يراها فضلا عن أن يراها ، ذلك لأنه فقد نور ربه . فمن يعوضه من نوره ؟ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

والخلاصة أن التشبيهين فى الآية الكريمة يحتملان جملة معان لا تعارض بينها ، فيصح استفادتها جميعا منهما . الأول : أن التشبيه بالسراب لبيان خيبة أملهم فى الآخرة وضياع ما كانوا يرجون منه المنفعة فى وقت هم أشد مايكونون فيه احتياجا الى تحقق أملهم . والتشبيه بالظلمات لبيان حالهم فى الدنيا ، وأنهم يتخبطون فيما يعتقدون مالهم به من سلطان ولا عليه برهان .

والمعنى الثانى : أن التشبيه بالسراب راجع الى الأعمال التى كانوا يرجون منها الخير كالبر وصلة الرحم ومساعدة البائسين ، فاذا جاءوها يجنون ثمارها وجدوها باطلة

من أساسها متهدمة فى قاعها . والتشبيه بالظلمات راجع الى سيئات أعمالهم التى زادها كفرهم سوءا على سوء . والثالث : أن التشبيه بالسراب راجع الى الفئة المعتقدة جزما بحقية ماهم عليه . والتشبيه بالظلمات راجع الى أولئك الحيارى الذين ضلوا سواء السبيل .

واللُّجىُّ : منسوب للّجة ، وهى معظم الماء الغمر البعيد القعر . وكأن نسبته للجة لكثرة اللجج فيه ، أو لأنه هو فى البحار كاللجة وسط البحر . وغشيان الموج له بعضه فوق بعض مما يزيد هوْله ، فإذا تراكم السحاب حتى حجب ضوء الكواكب فكم يكون استحكام الظلام فى وجهه والحيرة فى نفسه ؛ فاللجة لها أثرها فى زوغان النفوس وشرود العقول . وتراكم الأمواج بعضها فوق بعض مما يزيدها هولا ، فاذا حجب الضوء وتراكمت السحب ، حارت النفس فى أمرها فلا تدرى ماذا تصنع ولا كيف تنجو ولا أين تتّجه . والمرء إذا ضل المسالك ووقف ذهنه عن الحركة ، فقد ملكه اليأس من كل جانب . ومنشأ ذلك كله عليهم أن حرموا من نور الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور .

الطُرَف والمُلَح

قيل لأعرابى : ما تقول فى المراء ؟ قال : ما عسى أن أقول فى شىء يفسد الصداقة القديمة ، ويحُل العقدة الوثيقة ؛ أقلّ ما فيه أن يكون دُربة للمغالبة ، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة .



بسم الله الرحمن الرحيم

روى مسلم عن حنظلة الأسيدى قال : (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا فذكر النار ، قال : ثم جئت الى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة ، قال : فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : وأنا قد فعلت مثل ما تذكر ، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله نافق حنظلة ، فقال : مه ، فحدثته بالحديث ، فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل ، فقال : يا حنظلة ساعة وساعة ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم فى الطرق) وفى رواية : (قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنه رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة — ثلاث مرات) .

شرح المفردات :

نافق : يريد بها تغير عما عهد نفسه عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . دفعه الحذر الشديد والاحتياط لنفسه أن يتهمها فى القليل حتى يطمئن على السلامة .

وقوله : «مه» إما بمعنى الاستفهام فهى ما لحقها هاء السكت ، وإما بمعنى الأمر بالكف والزجر عما فرط منه تهويلا لهذه التهمة الشنيعة التى اتهم بها نفسه . وقوله « عافسنا » بمعنى مارسنا وعالجنا أشغالنا وحظوظنا كما صرح به قوله فى الرواية الأخرى « فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة » . والضيعات : جمع ضيعة وهى ما فيه معاش الرجل من مال وحرفة ، كأنه إذا ترك تعهده ضاع . وتطلق على الأرض المغلة والعقار .

لقد كلف الله العباد ما يطيقون رحمة منه وفضلا ، ورفع عنهم الإصر والعنت ؛ وجاءت الشريعة سمحة سهلة ؛ وجاء الإرشاد الى اتباع الرفق فى كل شىء ؛ وورد : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبتّ[1] لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه ، وقليل يبقى خير من كثير منقطع . وجاء قوله صلى الله عليه وسلم لمن كان يصوم النهار دائما ويقوم الليل : «قم ونم وصم وأفطر فإن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا» . لم يكن كل هذا ولا شىء منه للترغيب عن العبادة والتزهيد فيها ، كيف والعبادة هى طريق السعادة ، وهى أهم ما ينبغى للعاقل أن يصرف وقته فيه ، وإنما ذلك كله للمحافظة على العبادة ، وحذرا من أن تسأمها النفس فتنقطع عنها بتاتا ، كما قيل : « أخاف عليكم إن حملتكم عليه جملة تركتموه جملة » . فكانت الحكمة المأمور بمراعاتها فى الدعوة الى الله هى فى التوسط وعدم الإفراط ، حتى تكون النفس دائمة الإقبال على ربها ، محببا إليها السعى لمرضاته والزلفى إليه .

ولقد تضمّن هذا الحديث الشريف أمورا ذات بال ، فقد صور لنا ما كان الصحابة رضى الله عنهم يجدونه من أنفسهم حين كانوا يجتمعون به صلى الله عليه وسلم ليعظهم ، فكان الأمر يبلغ بهم الى درجة أنهم كأنهم يرون ما يوعظون به رأى العين ؛ وهذا شأن كمال الاستحضار وإقبال النفس على التفهم والاتعاظ ، مع ما يحيط بذلك من سطوع

(١) المنبت : هو الذى انقطع فى سفره وعطبت راحلته لتحميلها فوق طاقتها .

نور النبوة على قلوبهم وتجلى القوة الروحانية فى التأثير فى نفوسهم ، ومن أجدر بذلك منه صلى الله عليه وسلم ومنهم رضى الله عنهم . ووصف لنا حالهم البشرية على صورتها الحقيقية التى لا مراء فيها ولا مواربة ، يصورون لنا ما هم عليه مما تتسع دائرته لطوائف المكلفين وعامتهم ، لا أنهم مستغرقون فى الشهوات ، ولا فانون فى الذكر والفكر كل أوقاتهم ، بل يمارسون معايشهم ، ويلاعبون أطفالهم ، ويؤانسون أسرهم ، مما يقوم عليه نظام الحياة المعتادة التى لا إرهاق فيها ولا إعنات ؛ ويصورون لنا مزيد حذرهم ورهبهم من ربهم ، وشدة يقظتهم فى مراقبة نفوسهم ، حتى إذا لحقهم شك فى استقامتهم على الطريقة المثلى فزعوا اليه عليه الصلاة والسلام يستفتونه فيما هم فيه ، متهيئين لقبول ما يفتيهم به إن سهلا وإن صعبا . وهذا هو معنى الاستسلام التام وهو قول المؤمن : أسلمت وجهى لله رب العالمين .

ويبين لنا مايتجلى فى الشريعة الغراء من رأفة وسماحة ، وأن من لم يطق درجةً من نوافل العبادة فلا عليه أن يقف عند ما يطيق ، ما لم يكن تفريطا فى واجب ، أو انغماسا فى إثم . وقد ورد « اتق المحارم تكن أعبد الناس » . وكذلك جاء فى الحديث ما يرجو لمن يداوم الذكر والفكر وحضور القلب ، كما يكون حالهم وهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد رتب عليه فى الحديث الشريف ما يشوق إليه ويحفز الهمم للسير نحوه ، وهو صفاء روحه وطهارة قلبه ، واتصاله بمن أنعم الله عليهم من عباد الله المقربين ، حتى تتم المناسبة بينه وبين الملائكة ، فتصافحه الملائكة ، وتسلم عليه فى طرقه وفى فرشه .

ومعنى ذلك أن الكدورة البشرية والظلمات المادية ترق حجبها عن نفسه ، فتصفو وتغلب روحانيتها على ماديتها ، فيكون فيها الاقتدار على مشارفة هذه المنزلة البعيدة عن العامة : منزلة الروحانية الصافية ، والملكية الطاهرة ؛ فان الانسان فيه الشبه من العالمين المحيطين به ، ففيه شبه بالملائكة فى نفسه الطاهرة وروحه الخيرة ، وفيه شبه من

الشياطين ومن البهائم بما ركب فيه من استعداد للشرور والآثام، وانغماس فى الرذائل والشهوات، فأى الأمرين غلب عليه انجذب نحوه وتجلى فيه .

واستوضح ذلك إن شئت بمشاهدة تلك الفئات التى غلبت عليها شقوتها حتى التحقت بالشياطين فلا يهدأ لها روع ولا تطمئن لها نفس حتى يكون منها إفساد بنميمة أو فتن أو تدبير مكايد، حتى يصبح المرء منهم ولا لذة له إلا بأن يؤذى مخلوقا، أفليس هذا من جند الشيطان الذى أخلص له الطاعة وتم بينه وبينه التفاهم والتخاطب ؟ وكذلك أولئك الذين انغمسوا فى المآكل والمشارب، حتى يصبح أحدهم ولا هم له إلا أن يأكل ويملأ فراغ بطنه، ولا ترجو منه أكثر من أن تستخدم جسمه فى الشاق من الأعمال كما تستخدم البهائم سواء بسواء. أليس هذا قد التحق بعالم البهائم واندرج فى صفوفها حتى كأنها صافحته وصافحها وسالمته وسالمها ؟ ولم لا تقول قد يلتحق بعض الأناسى بالسباع فيتخلق بخلقها ويتربى معها فتأنس به ويأنس بها ويكون معها فى مستوى واحد. فإذا كنا نشاهد هذا فيما بين الانسان وبين البهائم، وفيما بين الانسان وبين السباع، وفيما بين الإنسان وبين الشياطين، وكل ذلك من غلبة إحدى طبائع الإنسان عليه، حتى غمطت باقى طبائعه، فما لنا لا ندركه فيما تتغلب عليه طبيعة الخير والنفس الملكية العالية، فيلتحق بمصاف الملائكة، فتصافحه الملائكة ويصافحها، وتأنس به ويأنس بها .

وبعد: فانظر الى هذه الروعة فى التعليم والإرشاد، وما تجلى فيها من باهر الحكمة وعظيم السداد، فقد جاء حنظلة وهو منزعج على نفسه خائف مما أحسه من تغيرها عما كانت عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخوفه أن يكون ذلك من صفات النفاق التى حكاها عز وجل عن المنافقين فى قوله تعالى: (وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) والمنتظر فى الجواب حينئذ إنما هو

أن يطمئنه بأن لا بأس عليه فى النسيان والاشتغال بما لا غنى له عنه من معاش ونحوه . ولكنه عليه السلام لم يقتصر له على ذلك ، بل شرح له الفوائد التى تترتب على دوام الذكر والفكر وشغل أعظم قسط من الوقت بالعبادة ، فبيّن له أن من داوم على ذلك وصل من درجة القدسية وعلو الروح وصفاء النفس منزلة تدنيه من الملائكة وتناسب بينه وبينهم وتجعلهم يصافحونه فى الطرقات — غير أن هذا على عظم فضله ليس مكلفا به ، وإنما هو باب من الفضل مفتوح ، ومنهل سائغ لمن يرده فيغترف منه ما يقدر عليه . أما الذى لا يسع العبد أن يركن اليه ، فهو النسيان جملة ، والإعراض الكلى وانصراف نفس المؤمن عن ربه بتاتا ، فهذا قوله : « ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » ويكرر ذلك ثلاثا لتثبيته فى نفسه وتنمية غرسه .

فهذا هو نور النبوة يتجلى على نفوس الصحابة رضى الله عنهم كلما استعدت لإشراقه عليها ، فتكمل تربيتهم ، ويصلون بالتدريج الى ما أعدلهم .

نسأل الله تعالى أن يمدنا بالتوفيق ، ويهدينا الى خير طريق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

الطُرف والمُلح

قال الشاعر :

وإنى لأُعطى كلَّ أمر بقسطه إذا الخطبُ عن حَزْم الرَّوِيَّة أجْهضَا

فأستعتِب الأحبابَ والحدّ ضارعٌ وأستعتب الأعداء والسيف مُنْتَضَى

شق صـــــدره

صلى الله عليه وسلم

جاء فى كتب السنة ورواه جميع أرباب السير وأخرجه مسلم فى صحيحه : أن حليمة السعدية التى أرضعت النبى صلى الله عليه وسلم قالت : بينما هو وأخوه — أى من الرضاع — يوماً خلف البيوت يرعيان بَهْمًا [1] لنا ، إذ جاء أخوه يشتد — أى يسرع فى مشيه — فقال لى ولأبيه : أدركا أخى القرشى قد جاء رجلان فأضجعاه وشقا بطنه ، فخرجنا فانتهينا إليه وهو قائم منتقع لونه [2] قالت حليمة : فاعتنقه أبوه واعتنقته ، وقلنا : أى بُنَىّ ما لك ؟ قال : أتانى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى ثم شقا بطنى (أى ما بين مفرق صدره الى منتهى عانته كما فى بعض الروايات) . وفى رواية : فأقبلا يبتدران فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فوجداه فأخذاه فطرحاه . وفى رواية : فأخذانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء وقيل هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله [3] . قال : ثم غسلا قلبى حتى أنقياه وملآه حكمة وإيمانا ، ثم قالا : إنك لو تدرى ما يراد بك من الخير لقرت عيناك .

وأما رواية مسلم فى صحيحه ، فعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه

---

(١) البهم : صغار الغنم . (٢) بنون وقاف مفتوحة كما صرح به صاحب القاموس واقتصر عليه الشامى فى سيرته . أومكسورة كما يفيده المصباح . أى متغير كلون النقع أى الغبار من فزع أو حزن . ومثله مبتقع بالموحدة ، ومتقع بالميم وهو أجود . (٣) المراد بكونها حظ الشيطان منه أنها مطمعه لان مثلها من البشر هو محل وسوسته .

فاستخرجه ثم استخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب ثم أعاده الى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه — يعنى ظئره — فقالوا : إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون .

وروى أبو نعيم فى الدلائل وعبد الله بن الامام أحمد فى زوائد مسند أبيه : أن أحدهما قال لصاحبه : أخرج الغل والحسد منه ، فأخرج شبه العلقة فنبذ به ثم قال : أدخل الرأفة والرحمة قلبه ، فأدخل شيئاً كهيئة الفضة ، ثم نقر إبهامى ، ثم قال : اُغد ، فرجعت بما لم أغد به : من رحمتى للصغير ، ورأفتى بالكبير . وقد بلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم أن كسروا رَبَاعِيَتَهُ يوم أحد فلم يدع عليهم بل كان يقول : اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون . وجاءه ملك الجبال وقد أدموا قدميه يريد أن يطبق عليهم الأخشبين [1] فلم يرض صلى الله عليه وسلم بذلك بعد ما فعلوا به الأفاعيل ، الى غير ذلك مما هو معروف . وهذا مما لا يكاد يدخل تحت سلطان البشرية بعد ذلك الإيذاء الشديد .

أما استبعاد ذلك فإنما هو من بنات الوهم والوقوف مع المعروف من العادات ، وليس ذلك إلا من قياس الملائكة على الحدادين كما يقولون . على أن الطب قد أتى الآن بالأعاجيب ، وهو فى تقدم باهر ورقى مُطّرد . وقد قالت الملائكة لامرأة ابراهيم عليه السلام عند ما قالت إن هذا لشىء عجيب وقوفا مع العادة : (أتعجبين من أمر الله) . على أنها سنة الله فى الأنبياء : يخرق لهم العادة تمهيدا لما يراد منهم ، وتنبيها على أن لهم شأنا غير شأن الكافة ، كما حصل لسيدنا عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، وهو المسمى بالإرهاصات فى عرف العلماء . على أنك إذا حللت نفسية من ينكر أمثال هذه الخوارق وجدت منبع هذا الإنكار وسرّ ذلك الاستبعاد هو الشك فى قدرة الله تعالى وحصر مقدوراته فيما علمنا من النواميس التى ما عرفناها إلا بالحس والمشاهدة ؛ ومن يعتقد أن

(١) هما جبلا مكة وضواحيها .

كل شيء راجع الى ما علم ومنحصر فيما شاهد، فما أعظم جهله وأقل علمه! وهو بعد ذلك غير مؤمن بقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ولا بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ولا بقوله: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) الى غير ذلك، بل هو جاهل بقدر نفسه وقدر العلم الذى لا نهاية له، فرحم الله امرءاً عرف قدره، فلم يتعدَّ طوره.

أما حكمة خلقه صلى الله عليه وسلم بهذه العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان من الانسان، فهي أنه بشر فى تكوينه، وإنسان فى خلقته وطبيعته، وإن كان التفاوت بين أفراد الانسان على مراتب لا يحصيها العد، ولا يأتى عليها البيان، وليس هنالك نوع من الأنواع تتفاوت أفراده كما تتفاوت أفراد نوع الانسان، والكامل من كمله الله تعالى، فأراد الله أن يجعل نبيه صلى الله عليه وسلم أكمل نوع الانسان، حتى يتم ما أريد منه من الغايات السامية، فأرسل اليه ملائكته ليطهروه من نقائص البشرية، وقابلية الشر، والانقياد للشهوات الدنيئة، والأهواء المضلة. وأيضا لو خلق سليما من العلقة السوداء لم يقع الاطلاع على ذلك، وهو أيضا أدل على مزيد العناية، فكان فى ذلك إظهار لكماله الرفيع، وإعلان لعناية الله الخاصة به صلى الله عليه وسلم.

ولنرجع الى الموضوع فنقول:

الخلاصة أن الله يريد أن يطهره من عوارض البشرية، وظلمات الأنانية، وسلطان الشهوات، وجميع الآفات، حتى يخلص من رعونات النفوس التى توقع صاحبها فى الإفراط أو التفريط، ليكون مستعدا للتحلى بمكارم الأخلاق ومراقبة الواحد الخلاق فى كل ما يأتى ويذر. وقد كان صلى الله عليه وسلم معروفا بمكارم الأخلاق، حتى كان يسمى عندهم قبل النبوة بالأمين. وكان يكره ما كانوا عليه من عادات وعبادات، وما كان يلهو به الشباب، كما هو معروف من سيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وقد كان يخلو بغار حراء قبل النبوة ، اعتزالا لهم ، وبغضا لما كانوا عليه من عبادة الأوثان وعدم توحيد الواحد الديان ، فان نفسه الشريفة لا تطيق ذلك ولا تصبر عليه (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) ويحسن بنا فى هذا المقام أن نذكر شيئا من شمائل هذا الرسول الأعظم الذى طهر الله قلبه وهو طفل من حظ الشيطان تتميما للفائدة فنقول :

من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من مصادرها الصحيحة دراسة مدققة ، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة كاملة ، لايقتحم صدره أدنى ريب فى أنه واسطة عقد الكمال ، ويتبين حكمة العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى فى اختياره عليه الصلاة والسلام على السابقين واللاحقين ، ووضعه بالمحل الأعلى سيداً للخاق أجمعين ، ويعلم علما تسوق إليه البراهين الناصعة ، وتنطق به الأدلة القاطعة ، أن من أراد استقصاء ما أفرغ الله عليه من الكمالات فى أى نحو من أنحاء حياته ، فإنما يحاول جمع ما فى البحار من درر ، أو حصر ما فى الفضاء السماوى الذى لا يعلم مداه إلا الله من شموس وكواكب .

فانّ فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

فأوسع الناس علما ، وأفصحهم بيانا ، وأبلغهم قلما ، إذا تكلم عن هذه النفس العلية القدسية فى أى نوع من أنواع كمالها ، فإنه واقف دون الغاية ومنبتّ قبل الأمد .

ولكن تأخذ الأحكام منه على قدر القرائح والفهوم

ينطق المتواتر من سيرته أنه المثل الأعلى ناشئا وشابا وكهلا ، عزبا ومتزوجا ، مفردا للأزواج أو معدّدا لهن . قال النضر بن الحارث لكفار قريش : « إن محمدا كان فيكم رصينا أمينا صادقا وهو شاب حتى إذا ظهر به الشيب قلتم إنه كاذب وساحر » ! وهذا يشبه ما جاء فى الحديث الصحيح أن هرقل سأل أبا سفيان : هل كان يكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يكذب

على الله . وقد كان يلقب قبل النبوة بالأمين لعظم منزلته عندهم ، وقد حكموه فى أمرهم عند ما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود عند ما بنت قريش الكعبة قبل النبوة ، فكانوا بحكمه راضين مغتبطين .

وأما حاله بعد النبوة فيكفينا فيه قول عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلقه فقالت : كان خلقه القرآن « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون » الى آخره [1] وقول أنس رضى الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وأنا غلام صغير لا أكون على ما يشتهى صاحبى فما قال لى أف قط ، ولا لشىء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشىء تركته لم تركته ؟ وكان إذا أرسلنى الى الحاجة فأبطأت ولم تقض فيريد أهل البيت أن يعنفونى فيقول عليه الصلاة والسلام : دعوه لو قدر لكان .

فصل

كان صلى الله عليه وسلم أقوم الخلق بعبادة ربه ، قالت إحدى أمهات المؤمنين : كان صلى الله عليه وسلم يحدثنا فإذا نودى للصلاة قام كأنه لم يعرفنا ، وكان يضطجع معهن حتى إذا انتصف الليل أو كاد قام الى ربه فصلى فأطال القيام والركوع والسجود حتى تورّمت قدماه ، فكان يقال له فى ذلك فيقول : أفلا أكون عبدا شكورا ! وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك ، فرجعت فسمعته يقول فى سجوده : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقابك ،

---

(١) وقول السيدة خديجة : والله لايخزيك الله أبدا إنك لتحمل الكل وتصل الرحم وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق الخ .

وأعوذ بك منك [1] لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته قال يا عائشة أو يا حميراء : أظننت أن النبي قد خاس بك؟ قلت : لا والله يا رسول الله ولكن ظننت أنك قبضت لطول سجودك . (يقال خاس به إذا غدره ولم يوفه حقه) . وقد بلغ من رفقه أنه كان يتلطف إذا قام من نومه حتى لا يزعج أهله ، ويتوضأ بنفسه لا يوقظها ، ولا الخادم لتسكب عليه وضوءه .

فصل

كان أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس . حمل اليه صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها يقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها . قال : وجاءه رجل فقال : ما عندى شيء ولكن ابتع على فاذا جانا شيء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف البشر فى وجهه .

كان أبغض الأخلاق إليه الكذب ، كان إذا رأى على أحد من أهل بيته كذبة لم يزل معرضا عنه حتى يحدث توبة ، كان يجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف ، ويصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يحقد على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه . كان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدى ، كان يقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . كان لا يشبع صلى الله عليه وسلم من خبز قط ولا لحم إلا على ضفف . قال مالك سألت رجلا من أهل البادية : ما الضفف ؟ قال : أن يتناول مع الناس .

---

(١) ألجأ اليك وأعتصم بك من البلاء الذى تصيب به من تشاء من عبادك ، ونظيره قوله تعالى . (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) .

كان إذا دخل بيته قال : هل عندكم طعام ؟ فان قيل لا ، قال : إنى صائم ، وإن لم يكن عندهم إلا الخل ، قال : نِعم الأدم الخل . كان يميل الإناء للهرة فتشرب منه .

تتمة

من عجيب أمره صلى الله عليه وسلم أنه أخذ القلوب الى الله تعالى ، وملأ النفوس رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه ، ومع ذلك رغب فى العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التى ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة ، كما قال للذين خدموا إخوانهم فى السفر فى يوم شديد الحر : إنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يجعل ذلك للصائمين المتعبدين فى ذلك اليوم . وقد ورد موقوفا أو مرفوعا : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » وقال تعالى : (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) . وقال : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » ولكنه بحكمته البالغة حوّل كل شىء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شىء عند المسلمين طاعة وعبادة بهذا الطريق ، بل أصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا بذلك بين مصلحة الدنيا والآخرة على أتم الوجوه ، وفى الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ودنايا الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ؛ فصار كل إنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعةً له ، إن لم يكن ذلك فى الدنيا كان فى الآخرة . ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه العجالة .

ولنقتصر من ذلك البحر على هذه الدرر التى يطيب بها الحديث وتتعطر بها المجالس :

محمد ما أحلى شمائله وما ألذ حديثا فيه ذكر محمد

محمد كل الحسن من بعض حسنه وما حسن كل الحسن غير محمد

يوسف الدجوى

الفتاوى والأحكام

ورد على إدارة المجلة الأسئلة الآتية :

تخصيص بعض الورثة بشيء من الميراث

السؤال الأول :

هل يجوز المورث تخصيص بعض الورثة بشيء من الميراث ؟ وإذا قلتم بالجواز فكيف يتفق هذا مع الحكمة فى التوريث ؟ وإذا قلتم بعدمه فكيف التوفيق بين هذا وحرية الملك المكفولة مع هذا ؟

الجواب

روى مسلم رضى الله عنه فى كتاب الهبات عن النعمان بن بشير أنه قال : إن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى نحلت ابنى هذا غلاما (عبدا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ فقال : لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فارجعه ، وفى رواية : فاردده ، وفى رواية : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ قال : لا ، قال : اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم . قال : فرجع أبى فردّ تلك الصدقة ، وفى رواية : قال : فلا تشهدنى إذن فانى لا أشهد على جور ، وفى رواية : لا تشهدنى على جور ، وفى رواية : قال : فأشهد على هذا غيرى ، وفى رواية قال : فإنى لا أشهد ، وفى رواية : قال : فليس يصح هذا وإنى لا أشهد إلا على حق .

قال النووى رحمه الله تعليقا على هذا : وفى هذا الحديث أنه ينبغى أن يسوى بين أولاده فى الهبة ، ويهب لكل واحد منهم مثل الآخر ولا يفضل ، ويسوى بين

الذكر والأنثى ، وقال بعض أصحابنا : يكون للذكر مثل حظ الأنثيين . والصحيح المشهور أنه يسوى بينهما لظاهر الحديث .

وفى الدر المختار من كتاب الهبة ما نصه : وفى الخانية : لا بأس بتفضيل بعض الأولاد فى المحبة لأنها عمل القلب ، وكذا فى العطايا إن لم يقصد به الإضرار . وفيه أيضا : ولو وهب فى صحته كل المال للولد جاز وأثم .

من هذا يتبين أن هبة الوالد لولده كل ماله ، أو تمييزه أحد أولاده عن بقيتهم ، تصرف مكروه شرعا ، ولكنه مع ذلك نافذ لازم ، متى كان المتصرف صحيحا غير محجور عليه ، وكان التصرف منجزا . أما إذا كان التصرف مضافا الى ما بعد الموت فانه يعتبر وصية ، فإن كان لأجنبى ، نفذ من ثلث المال بعد الدين والتجهيز ، أجاز الورثة أم لم يجيزوا ، وتوقف على إجازتهم فيما زاد على الثلث ، فإن أجازوا نفذ وإلا لم ينفذ . وإن كان التصرف المضاف الى ما بعد الموت للوارث فانه يعتبر وصية ولا وصية لوارث إلا بإجازة بقية الورثة بعد موت المورث . ومثل ذلك التصرف المنجز فى مرض الموت للوارث ، فانه يعتبر وصية أيضا لا تنفذ إلا بإجازة الورثة — غير أن الوقف فى مرض الموت على بعض الورثة فيه تفصيل : هو أنه إن أجاز الورثة التصرف ، نفذ ، وإن لم يجيزوا يقسم الريع بين الورثة جميعهم قسمة الميراث ، ولا يعمل بشرط الواقف إلا بعد انقراض الورثة جميعا ، فإن انقرضوا اتبع شرط الواقف .

وصفوة القول أن تصرف المالك فى ملكه نافذ من كل ماله متى كان صحيحا غير محجور عليه ، ليس لأحد حق الاعتراض عليه . ونفاذ التصرف لا يمنع من أن يكون المتصرف ظالما يستوجب بهذا الظلم الإثم إن قصد بإعطاء أحدهم الإضرار بالباقين ؛ أما إذا أعطى أحدهم جزءا من ماله لسبب يقتضيه ، كما لو كان ذا أولاد كثيرة ، أو كان فى حاجة الى معونة لسبب آخر كطلب العلم ، أو كان قصده أن يشجعه على العمل بجد واجتهاد ، فان هذا لا إثم فيه ولا حرج ، وإن كان الأفضل أن يسوى فى العطاء ، حتى قال بعضهم بتسوية البنت والغلام فى العطاء ، لأن هذا شيء غير الميراث

وقد علمت مما سبق أن تصرفات المريض والتصرفات المضافة الى ما بعد الموت بالنسبة لبعض الورثة، تعتبر وصية، وعلمت حكمها. وزيادة فى الإيضاح نقول: إن حق الورثة لا يتعلق بمال المورث إلا إذا كان مريضا مرض الموت، وهو الذى يكون منه الموت، فلا محل للقول بأن تصرف الرجل الصحيح الخالى من الحجر لسفه أو دين ينافى حكمة التوريث، لأن التوريث بعد الموت والتصرف قبله فى وقت لم يكن لأحد من الذين سيرثون عند الموت حق فى مال المتصرف.

وبهذا الإيضاح يتبين أن حرمة الملك مكفولة، والحكمة فى التوريث محققة لا تنافى صحة التصرف الصادر من الصحيح الذى يملكه. والله أعلم.

الضيافة ونحوها فى المآتم

السؤال الثانى:

هل لما يتخذه الناس من الضيافة فى المآتم وتكليف أنفسهم ما لا يطيقونه مدة ثلاثة أيام أو أكثر أصل؟ وهل ما يتخذه الناس عند موت عظيم من عظمائهم من ذبح بقرة أو ثور أو شاة عند عتبة البيت حين خروج النعش أصل؟

الجواب

اجتماع الناس فى المآتم على الوجه المعروف الآن من تهيئة الطعام والشراب للمعزّين، وإيقاد الأنوار والجلوس أياما معينة تعدّ فيها المآدب، ليس من هديه صلى الله عليه وسلم، ولا هدى أصحابه، ولا ورد عن أحد من الصحابة ولا من التابعين، ولا حبذه إمام من الأئمة الأربعة فيما نعلم، بل هو بدعة حادثة. قال فى فتح القدير: وتستحب التعزية، الى أن قال: ويكره اتخاذ الضيافة من الطعام من أهل الميت لأنه شرع فى السرور لا فى الشرور، وهى بدعة مستقبحة. روى الامام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن جرير بن عبد الله، قال: كنا نعد الاجتماع الى أهل الميت وصنعتهم

الطعام ، من النياحة . ويستحب لجيران أهل الميت والأقرباء الأباعد تهيئة طعام لهم يكفيهم يومهم وليلتهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم ما يشغلهم » حسنه الترمذى وصححه الحاكم ، ولأنه بر ومعروف ؛ ويلح عليهم فى الأكل ، لأن الحزن يمنعهم من ذلك فيضعفون .

وفى زاد المعاد ما نصه : وكان من هديه صلى الله عليه وسلم تعزية أهل الميت ، ولم يكن من هديه أن يجتمع للعزاء ، لا عند قبره ولا غيره ، وكل هذا بدعة حادثة مكروهة ؛ وكان من هديه السكون والرضا لقضاء الله والحمد له والاسترجاع ؛ وكان من هديه أن أهل الميت لا يتكلفون الطعام للناس ، بل أمر أن يصنع الناس لهم طعاما يرسلونه اليهم ؛ وهذا من أعظم مكارم الأخلاق .

أما ذبح الذبائح عند خروج الجنازة على عتبة البيت ، فهو من عمل الجاهلية وليس من الدين فى شىء .

ومن هذا جميعه يتبين أن ما يعمل الآن فى المآتم مما ورد فى السؤال ، مخالف لما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومخالف لما كان عليه السلف الصالح . وهو فى ذاته بدعة قد تقترن بما هو منكر كما هو مشاهد والله أعلم .

قراءة سورة الكهف يوم الجمعة

السؤال الثالث :

ما حكم قراءة سورة الكهف يوم الجمعة فى المساجد ؟

الجواب

سورة الكهف من القرآن ، وتلاوة القرآن عبادة فى أى وقت وفى الأمكنة الطاهرة . وسماع القرآن عبادة كذلك ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون القراءة سرا

أوجهرا فى المسجد أو خارج المسجد ، فقراءتها يوم الجمعة قبل الصلاة على الوضع المعروف الآن وإن لم تكن معروفة فى زمنه صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن أصحابه ، إلا أن هذا لا يجعل قراءتها على الوجه والوضع المعروفين الآن ممنوعة ، بل قراءة القرآن كما تقدم عبادة مندوب اليها ؛ وكل ما ينبغى أنه لا يصح لقارئ أن يقرأ فى مكان يشوش عليه الناس فيه ؛ كذلك لا ينبغى أن يرفع صوته إذا كان رفع صوته يحدث تشويشا على المصلين فعلا .

على أن الواقع أن قراءة سورة الكهف فى المساجد تكون قبل دخول وقت الصلاة ، ويسكت القارئ عند شروع المؤذن فى الأذان الأول ، ولم يترتب على هذا تشويش ، أما إذا ترتب على القراءة تشويش ، فان القراءة والحالة هذه تكون غير جائزة . والله أعلم . وتخصيص سورة الكهف بالقراءة يوم الجمعة ، لما ورد فى ذلك من الآثار .

حكم اقامة الموالد

السؤال الرابع :

ما حكم إقامة الموالد ؟

الجواب

إقامة الموالد ليست سنة عن رسول الله ولا عن أصحابه ، فهى بدعة حسنة إذا اقتصر فيها على توزيع الصدقات على الفقراء ، واقتصر فيها على تعظيم وإجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقيام بشكر الله على ما أنعم به علينا من نعمه الجزيلة التى أجزلها ، وأعظمها إرسال خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام . ومتى كانت إقامة المولد

مقصورة على قراءة القرآن ورواية الأخبار الصحيحة الواردة فى مبدأ أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وما وقع فى مولده من الآيات ، وما وقع منه صلى الله عليه وسلم من المعجزات ، كان ذلك خيرا كله ، لا يستطيع أحد إنكاره ، بل لا يستطيع أحد إنكار أن هذا العمل مثاب عليه .

إذ من الذى ينكر ما فى هذا العمل من الفوائد الجليلة التى من أهمها معرفة شيء من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن الإرهاصات التى ظهرت بين يدى بعثته ، والمعجزات التى ظهرت على يديه ، ومعرفة ما لاقاه فى سبيل الدعوة الى الاسلام من شدة ، وما قام به من جهاد ؟ من الذى ينكر أن ذكر مناقبه وطلب التأسى به فيها أعظم درس خلقى للأمة ، وهى أشد ما تكون حاجة الى التأسى بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

أما إقامة الموالد على الوجه الذى لا يتفق وتعاليم الدين ، كأنواع الملاهى التى تكون غالبا مصحوبة بما ينكره الدين ولا يرضى عنه رسول رب العالمين ، فهو أمر مذموم لا يقره شرع ، ولا يطلب الى أحد عمله . ومن ذلك لا يكون ثمة مانع شرعا من إقامة الاحتفالات العامة التى تكون لذكرى موالد بعض الأولياء ، متى كانت على الوجه الذى وصفنا أولاً . والله أعلم .

حكم الصلاة قبل الجمعة والامام يخطب

السؤال الخامس :

ما حكم الصلاة قبل الجمعة والامام يخطب ؟

الجواب

قال فى الهداية : وإذا خرج الامام يوم الجمعة ترك الناس الصلاة والكلام حتى يفرغ من خطبته . قال رضى الله عنه : وهذا عند أبى حنيفة رحمه الله . وقالا (محمد وأبو يوسف) :

لا بأس بالكلام إذا خرج الامام قبل أن يخطب ، وإذا نزل قبل أن يكبر ، لأن الكراهة للإخلال بفرض الاستماع ولا استماع هنا ، بخلاف الصلاة لأنها قد تمتد قال فى فتح القدير : أخرج ابن أبى شيبة فى مصنفه عن على وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم : كانوا يكرهون الصلاة والكلام بعد خروج الامام . وأخرج ابن أبى شيبة عن عروة قال : إذا قعد الامام على المنبر فلا صلاة . وعن الزهرى قال فى الرجل يجىء يوم الجمعة والامام يخطب : يجلس ولا يصلى .

وأخرج الستة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والامام يخطب : أنصت ، فقد لغوت » . وهذا يفيد بطريق الدلالة منع الصلاة وتحية المسجد ، لأن المنع من الأمر بالمعروف وهو أعلى من السنة وتحية المسجد منع منهما بالأولى .

ومن هذا يعلم أن الصلاة حين يخرج الإمام من الحجرة — إن كان له حجرة — أو حين قيامه للصعود ، غير جائزة ومكروهة ، إلا إذا كانت الصلاة قضاء لفائتة لم يسقط الترتيب بينها وبين الصلاة الوقتية ، فانها لا تكره ، بل يجب فعلها لضرورة صحة الجمعة . أما إذا كان الترتيب قد سقط بينها وبين الوقتية فانها تكره . ولو خرج الامام والمصلى فى صلاة السنة أو بعد قيامه لثالثة النفل ، قال فى الفتح : ولو خرج وهو فيها ، يقطع على ركعتين . وقال فى شرح الدر : يتم فى الأصح . وفى ابن عابدين ترجيح ما فى الفتح حيث قال : وقدمنا فى باب إدراك الفريضة ترجيح ما فى الفتح أيضا ، وأن هذا كله حيث لم يقم الى الثالثة ، وإلا فإن قيدها بسجدة أتمّ ، وإلا يكن قيدها بسجدة ، فقيل : يتم ، وقيل : يقعد ويسلم . قال فى الخانية : وهذا أشبه . لكن رجح فى شرح المنية الأول .

هـذا وقد نص الحنفية على أن كل ما يحرم فى الصلاة يحرم فى الخطبة ، فيحرم الأكل والشرب والكلام وإن كان أمرا بمعروف أو تسبيحا . ويكره تشميت العاطس

ورد السلام، خلافاً لأبي يوسف في رد السلام. والصواب أنه يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم عند سماع اسمه الشريف في نفسه. ويستثنى من تحريم الكلام تحذير من خيف هلاكه، لأن هذا حق الآدمي وهو محتاج إليه.

من هذا يتبين حكم الصلاة قبل الجمعة والامام يخطب عند الحنفية، وهو أن هذه الصلاة غير جائزة على الوجه المشروح قبل.

مكتبة الاسكندرية

السؤال السادس:

هل ما يدعيه بعض الغربيين من أن مكتبة الاسكندرية المشهورة أحرقت بأمر الخليفة عمر بن الخطاب صحيح؟

الجواب

لا صحة مطلقا لما قاله بعض المؤرخين المتعصبين من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. والحقيقة أن المكتبة التي بدأت في عهد بطليموس أحرقت قبل الميلاد على أثر إحراق قيصر أسطوله. ويقول المؤرخ الروماني «بلوتارك»: بينما كان الأعداء يستولون على أسطوله اضطر أن يردهم بالنار، واندلع لهيبها من الحياض وأتلف المكتبة. وقد تجددت مكتبة بالاسكندرية بعد هذه المكتبة، وهذه الثانية خربت في أواخر القرن الرابع حيث قام بعض المسيحيين يخربون المعاهد الوثنية، ومنها جامعة الاسكندرية حيث كانت الكتب، وتم إعدامها عن آخرها سنة ٢٩١ ميلادية. ولا يعقل أن العرب الذين كانوا يعتقون الأسير إذا علّم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة يحاربون العلم.

الولى

السؤال السابع :

جاءنا من السيد محمد جاد مأذون الشرع بناحية كفر البرى أسئلة — منها : أن رجلا يعتقد الناسُ أنه ولى من أولياء الله تعالى ، وأننا لا نراه يؤدى الصلوات الخمس المفروضة مع أنه لا يتغيب عن ناظرنا ، ولكنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأمر الناس بأداء الصلاة فى أوقاتها ، وإذا اعترض أحد عليه سرا أو جهرا يحصل له حادث يؤلمه ، وأن قواه الجسمية والعقلية سليمة ، فما حكمكم فى هذا الرجل واعتقاد الناس فيه وما يجب عليهم بخصوصه ؟

الجواب

الولى هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، المعرض عن الانهماك فى الشهوات واللذات . وقد يكرمه الله بإظهار أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا إن وافق الغرض . من هذا يتبين أنّ من لم يأتمر بأوامر الله ومن لم يجتنب نواهيه ، لا يكون ولياً ، ولا يصح الاعتقاد بأنه ولى . أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فمطلوب من كل مسلم . أما ما يُتوهم من أن الضرر الذى يحصل لبعض الناس إذا اعترضوا على من لا يأتمر بالأوامر ناشىء عن اعتراضهم عليه ، فلا أصل له ، بل هو وهم . والواجب على كل مسلم الحض على إقامة الأوامر واجتناب النواهى متى استطاع الى ذلك سبيلا ، خصوصا ما كان منها معلوما من الدين بالضرورة كالصلاة والصوم .

نقل رفات الميت

السؤال الثامن :

وورد منه أيضا سؤال يتضمن : هل يجوز نقل رفات الأموات من مقبرة يتبرك بها لدفن غيرهم فيها ؟

الجواب

لا يجوز إخراج رفات الميت من قبر دفن فيه بعد إهالة التراب عليه إلا لحق آدمى كما إذا دفن فى أرض مغصوبة وأبى صاحب الأرض إبقاءه ، أو دفن فى أرض أخذت بعد دفنه بالشفعة لآخر . أما فى غير هذه الأحوال فلا يجوز نقل رفات الميت ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح نقل ميت من مقبرة لدفن ميت آخر فيها ، والميت أمره مفوض لربه فى أى مكان دفن .

هل المعاصى تمنع من دخول الجنة ؟

السؤال التاسع :

وورد أيضا سؤال من حضرة عمر عبده خلاصته أنه سمع حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتضمن أن من مات غير مشرك دخل الجنة وإن زنى وإن سرق . ثم سأل : هل يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب السارق والزانى وشارب الخمر ؟

الجواب

يظهر أن السائل قد سمع حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قال أبو ذر : قلت

وإن زنى وإن سرق ؟ الحديث . ولا يخفى أن الكبائر والمعاصي التي يرتكبها الشخص معتقدا حرمتها لا تسلب اسم الإيمان عنه ، ولا تحبط طاعته ، ولا توجب خلوده في النار بل عاقبته أن يدخل الجنة ، لأن من اعتقد بوجود الله وآمن بوحدانيته مخلصا في ذلك فما ارتكبه من الذنوب والآثام إن كان في حقوق الله تعالى وتاب ، فالأصل قبول توبته، لأن الله هو التواب الرحيم . ومن مات مصراً على الذنب من غير توبة فهو في مشيئة الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ، وفي كلتا الحالتين فهو من أهل الجنة ؛ وإن كان ما ارتكبه متعلقا بحقوق العباد ، فإذا ردها إليهم أو أبرأوه منها وعفوا عنه ، فالأمر ظاهر ، وإذا لم يردها ولم يبرأوه منها ، فالله تعالى كفيل بأن يرضى صاحب الحق عن حقه ، ويدخل المسلم الجنة بعد تطهيره من الذنوب .

فالحديث يدل على أن من مات على التوحيد وارتكب ذنوبا لا يخلد في النار ، وهذا لا ينافي أن يجازى ويحاسب على ما اقترف من ذنب وجنى من جناية .

وفي هذا الحديث رد على المبتدعة الذين يدعون أن من مات من مرتكبي الكبائر من غير توبة يخلد في النار . وإنما كرر أبو ذر استعلاءه بقوله : وإن زنى وإن سرق ، استعظاما لشأن دخول الجنة مع ارتكاب الكبائر . ولقد كرر صلى الله عليه وسلم الرد على أبي ذر إنكارا منه استعظام ذلك وتحجير أبي ذر رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء .

وصفوة القول أنه عليه الصلاة والسلام أفاد أن الكبائر لا توجب على صاحبها الخلود في النار ، وأن المؤمن الذي يقول لا إله إلا الله مخلصا ثم يموت على ذلك يدخل الجنة ولو كان مرتكبا لبعض المعاصي ، لأن عفو الله قد يتداركه فيدخل الجنة دون عقاب أو بعد عقاب يطهر به من الذنوب ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

تفنيد مذهب القاديانية (1)

دفع شبه يتشبث بها القاديانية

— ٢ —

وأورد داعية القاديانية مستدلا على ما يزعم من عدم انقطاع النبوة قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فقال: « وعد الله فى هذه الآية بجعل الإمامة فى ذرية ابراهيم ما عدا الظالمين منها، فهل يظن المشايخ أن ذرية ابراهيم كلها صارت فى زمرة الظالمين لاسيما الأمة المحمدية، فحرمت من الإمامة الموعود بها أى من النعمة الاجتماعية، ولا يظنن أحد من المشايخ (لأن غيرهم لايتطرق اليه هذا الظن) أن المراد من الإمامة فى الآية الإمامة بالصلاة أو غيرها دون النبوة، لأن هذه الإمامة إمامة إبراهيمية وهى النبوة دون شك كما كان هو إماما بها عليه السلام، فالنبوة باقية فى ذرية ابراهيم سوى الظالمين ».

هـذا ما يقوله الداعية فى الاستدلال بهذه الآية على عدم انقطاع النبوة، ونحن لا نمانع من أن يكون المراد من الإمامة النبوة، ولـكننا نفهم الآية على معنى أن ابراهيم عليه السلام قد طلب من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة، أى أنبياء، إذ قال: (ومن ذريتى) ولم يقل: (وذريتى) فأجابه الله تعالى بقوله: (لا ينال عهدى الظالمين) وفى هذا عدة له بأنه سيجعل من ذريته غير الظالمين أنبياء، فإنه نفى أن ينال العهد الذى هو الإمامة الظالمين، ولو قال فى الجواب: « نعم » لأفاد أنه سيجعل من ذرية ابراهيم عليه السـلام أنبياء، من غير دلالة على أنهم سيكونون من المؤمنين، ولو قال فى الجواب:

(1) تابع لمـا نشر فى الجزء الاول من هذه السنة.

«ينال عهدى المؤمنين» مثلا — لم يكن فيه نص على أن الظالمين ليسوا بأهل للامامة ، فقوله تعالى : (لا ينال عهدى الظالمين) نص على أن الظالمين ليسوا بأهل للإمامة ، ويؤخذ منه على طريق دلالة المفهوم أن النبوة تنال المؤمنين من ذريته ، وقد قامت الأدلة القاطعة على أن من لم يكونوا ظالمين قد يرفعهم الله تعالى الى مقام النبوة ، كما رفع اليه إسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام ، وقد يبقى فى منزلة دونها كثير من الصالحين الذين طهرهم الله تعالى من الظلم ولم يدّعوا النبوة فى حال ، فقول داعية القاديانية : « فهل يظن المشايخ أن ذرية ابراهيم كلها صارت ظالمة الخ) ضرب فى غير مفصل ، ورمى للكلام فى غير مرمى ، فان المشايخ يقولون : إن الآية واردة للدلالة على أن النبوة تجعل فى غير الظالمين ، ويقولون مع هذا : الله أعلم أين يجعلها ، ومتى يجعلها ، وليس فى الآية دليل على بقاء النبوة فى سائر العصور ، حتى فى العصر الذى يستغنى فيه عن النبوة والرسالة بالكتاب الذى أودع الله تعالى فيه جلائل الهداية ودقائقها ، وتكفل بحفظه وحمايته من أن يدخله تحريف ، قال تعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) وقال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ومن نفى عن أمة النبوة لعدم حاجتها إليها ، ولقيام الأدلة على انقطاعها ، لم يلزمه الحكم عليها بأنها كلها صارت ظالمة ، ومن ألزمه هذا الحكم فقد خرج عن أدب البحث ، ومشى فى غير طريق .

وأورد داعية القاديانية فى الاستدلال على بقاء النبوة قوله تعالى : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) فقال : « هذا الدعاء يبشرنا بأن الله يجعل المؤمنين فى مقام الذين أنعم عليهم سابقا ، ويعطيهم كل نعمة أعطاها للأولين ، ويتمها عليهم ، والنعمة نعمتان : دينية ونهايتها النبوة ، ودنيوية ونهايتها الحكومة والسلطة » .

غاب هذا الداعية عن الصواب ، وانطلق يتحدث فى غير علم ، ومن ذا الذى يعرف شيئا من العربية الصحيحة أو المعتلة ، ويقرأ قوله تعالى : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) ويفهم منها أن المناجى لله بهذه السورة يطلب أن يكون هو أو غيره من المؤمنين فى مقام النبوة ، والآية لا تدل على أكثر من أن المؤمن يدعو الله تعالى فى جملة المؤمنين بأن يهديه طريق من أنعم عليهم . ومن استقام على واجبات الدين وسننه جهد استطاعته ، فقد اهتدى طريق المنعم عليهم ، ولا يلزم من اهتدائه لطريق المنعم عليهم من النبيين أن يرزق ما رزقوه من نعمة النبوة التى لا ينالها الناس بكثرة أعمالهم الصالحة ، إذ النبوة مقام يختص به الله من يشاء من عباده .

وما قاله هـذا الداعية فى هذه الآية أصله لـكبيرهم الذى علّمهم اللعب واللغو فى تفسير القرآن الحكيم ، إذ قال فى خطبته الالهامية : « وأنا المنعم عليه الذى أشير اليه فى الفاتحـة عند ظهور الحزبين المذكورين » يعنى المغضوب عليهم والضالين ، وقال : « إن سورة الفاتحة لتؤذن إيذانا بأن بعض الأفراد من هذه الأمة سيظهرون بمظهر الأنبياء من كل الوجوه » .

ومن نـكد الدنيا أن نشتغل بحكاية أمثال هذا اللغو ، و ننفق وقتا فى التنبيه على أنه هذيان فى هذيان .

وأورد داعية القاديانية فى الاستدلال على بقاء النبوة قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقاً) فقال : « وهذه الآية تصرح جليا أن الأمة المحمدية تنال هذه الدرجات الأربع » .

والصواب فى فهم الآية أن قوله تعالى (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) هو بيان لقوله (الذين أنعم الله عليهم) والأصل فى كلمة « مع » المصاحبة ، والمصاحبة لا تستلزم المساواة فى الرتبة ، بل يكفى فيها الاشتراك فى دار النعيم مع تمكن كل واحد من رؤية الآخر وملاقاته متى شاء .

فالآية وردت لبيان ما يجازى به المطيع لله ورسوله وهو مرافقة الأنبياء ومن ذكر بعدهم ، وتأويلها على معنى أن من المطيعين أنبياء ، ومنهم صديقين ، ومنهم شهداء ، تأويل للآية على معنى لا يتقبله إلا نفوس تلوثت باعتقاد أن غلام أحمد وأذنابه أنبياء صادقون .

وأما ما ذكره الداعية من أن قوله تعالى : (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) بيان لقوله تعالى (ومن يطع الله والرسول) فحمل للآية على وجه تتجافى عنه قوانين البلاغة ، ويكسبها تعقيدا يتبرأ منه كلام الفصحاء ، قبل أن يتبرأ منه كلام خالق الفصحاء . فعدُّ هذا الوجه فى أخطاء قائله أولى من حشره فى شبه هى أوهى من نسج العنكبوت .

دعوى غلام أحمد أنه أفضل من عيسى عليه السلام

نقلنا فى مقالنا السابق شواهد على غرور غلام أحمد واستحواذ الشيطان عليه ، حتى ادعى أنه خير من عيسى عليه السلام ، فردّ داعيتهم على هذا باعتراف أن غلام أحمد يفضل نفسه على عيسى عليه السلام ، وذهب الى أن هذا التفضيل صحيح ، بزعم أن غلام أحمد مسيح الأمة الاسلامية ، فيكون أفضل من مسيح الأمة الإسرائيلية . ولم يستطيعوا إنكار هذه الضلالة ، لأن غلام أحمد قالها فى مواضع من مؤلفاته بعبارات صريحة ، ففى مقال له نشر فى كتاب «تعاليم المسيح المنتظر» ما يأتى : « كما أن مؤسس الشريعة الاسلامية أعظم من مؤسس الشريعة الموسوية ، كذلك مسيح السلالة الاسلامية أعظم من مسيح السلالة الموسوية » .

فالقاديانيون يعتقدون أن غلام أحمد أفضل من عيسى عليه السلام ، أفلا يكفى هذا شاهدا على أن النحلة القاديانية شعبة من الشعب التى انسلخت من الاسلام ، والاسلام برىء منها ! وكيف يكون غلام أحمد الذى قامت البراهين على كذبه وسوء طويته ، أفضل من عيسى بن مريم الذى وصفه الله تعالى فى كتابه العزيز بالنبوة

والرسالة ، وأيّده بالآيات البينات : فما قاله غلام أحمد فى الاستدلال على أفضليته إلحاد وهذيان ، فان دعواه أنه مسيح السلالة الاسلامية باطلة على البداهة ، وكل ما يبنى عليها ضلال فى ضلال .

تكفير غلام أحمد لمن عصمهم الله من اتباعه :

ذكرنا فى مقالنا السابق أن غلام أحمد يعدّ المسلمين الذين ينبذون دعوته كفارا ، ويمثلهم باليهود ، فأراد الداعية القاديانى أن يرد علينا فى هـذا الموضع ، وأورد حديث (ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل) ، وحديث (إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة) ثم قال : « وأحمد المسيح الموعود لم يجعل مسلما كافرا ، ولم يمثل مؤمنا باليهود ، بل بين حقيقة قرآنية ونبأً نبويا » ثم قال : « وإننا نسأل المشايخ : هل كان قول أحمد فى غير محله ، وهل كان مجيئه فى غير حاجة ؟ » .

ونحن لم ننازع فى أن من المنتمين الى الاسلام طوائف زائغة عن السبيل ، حتى نحتاج الى أن نذكّر بهذه الأحاديث ، والذى نعدّه فى ضلالات غلام أحمد أنه يسمى المسلمين الذين لا يقبلون دعوته كفارا ، وينهى عن مصاهرتهم والصلاة خلفهم . ومن شواهد تكفيره لمن حفظهم الله تعالى من فتنته قوله فى كتاب « حقيقة الوحى » : الكفر على قسمين : (أحدهما) أن يجحد الرجل عن الاسلام أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . و (الثانى) أن يجحد المسيح الموعود (يعنى نفسه) ويكذبه مع سطوع الحجج على صدقه ، وإن أمعنت النظر وجدت كلا القسمين واحدا .

ومن تمويه داعيتهم قوله : « إن أحمد المسيح الموعود لم يجعل مسلما كافرا الخ » فان المسلم والمؤمن عند القاديانية من صدق بأن غلام أحمد نبى ، وغيره فى مذهبهم ليس

بمسلم ولا مؤمن ، فإذا وصف من لم يقبلوا دعوته بالكفر أو باليهودية ، لم يجعل مسلما كافرا فى نظرهم أو يهوديا .

أما قوله : « وإننا نسأل المشايخ هل كان قول أحمد الخ » فجوابه أن غلام أحمد يقول غير الحق ، وما كانت دعوته إلا فتنة ، وتفريقا بين المسلمين ، وصداً عن طرق الفلاح ومراقى العزة ، ولم يجيء على يديه ما فيه خير للدين ، بل وضع نحلة ملفقة من آراء باطلة وأقوال لاغية ، ثم أضاف اليها شيئا من مبادئ الاسلام ، وسماها فى الظاهر باسم الاسلام مكرا وتغريراً .

تزوير داعية القاديانية :

نقل هذا الداعية عبارات لبعض العلماء فى صورة الاستدلال بها على أن فى أهل العلم من يذهب الى بقاء باب النبوة مفتوحا ، ولسنا فى حاجة الى إطالة الكلام بذكر تلك العبارات وبيان ما فيها من جهالة أو تحريف ، ونقول والأدلة تناصرنا : إن كل عبارة تصرح بصحة بعث نبى بعد الرسول الأعظم غير عيسى عليه السلام فهى كفر صراح . ونسوق إليك مثلا من تزوير هذا الداعية فيما يعزوه الى أولئك العلماء :

نقل الداعية عبارة للشيخ عبد القادر الكردستانى يوهم بها أن الشيخ يجوّز أن يجيء نبى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مشرع ، فقال : « يقول الشيخ عبد القادر الكردستانى ما نصه : « إن معنى كونه خاتم النبيين هو أنه لا يبعث بعده نبى مشرع » .

أورد القاديانى هذه العبارة مقطوعة عن سابقها ولاحقها ، ليخدع بها قراء ورقاته . والحقيقة أن عبارة الشيخ عبد القادر وردت فى تعليقه على كتاب التهذيب وشرحه ، وأصل ما فى التهذيب والشرح : « وأنه لا يبعث نبى بعده ولكن رسول الله وخاتم النبيين ،

وإذا ثبت أنه خاتم الأنبياء ثبت أنه لا تنسخ شريعته» وكتب الشيخ عبد القادر معلقا على ذلك ما نصه . قوله : (وأنه لا يبعث نبي بعده) إشارة الى دفع ما يقال : إن عيسى حي بعد نبينا صلى الله عليه وسلم حيث رفع الى السماء ، وينزل الى الدنيا ، فلا يكون صلى الله عليه وسلم خاتما ، وحاصل الدفع أن معنى كونه خاتم النبيين هو أنه لا يبعث بعده نبي آخر بشريعة أخرى ، فإن عيسى عليه السلام إنما ينزل على شريعة نبينا ، ولا يسعه إلا اتباعه » .

هذه عبارة الشيخ الكردستاني ، وهي كما رأيتها خاصة بالحديث عن عيسى عليه السلام ، ولم يقلها ليدل على أن باب النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال مفتوحا ، وهذه العبارة تشبه عبارة النيسابوري إذ قال عند قوله تعالى (وخاتم النبيين) : ومجيء عيسى عليه السلام في آخر الزمان لا ينافي ذلك ، لأنه ممن نبيء قبله ، وهو يجيء على شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم مصليا الى قبلته ، وكأنه بعض أمته . وهذا مثل ينبئك أن داعية القاديانية ينسب الى علماء الاسلام ما لم يخطر لهم على بال .

اقتراح غلام أحمد على علماء الهند أن يتركوه عشر سنين :

ذكرنا في المقال السابق أن غلام أحمد اقترح على علماء الاسلام بالهند أن يتركوه عشر سنين لا يعارضونه ولا يفندون آراءه ، وقال لهم : إن كنت كاذبا فسيظهر كذبي ، وإن كنت صادقا نجوتم من العقوبة التي ينزلها الله على من يناوئني ، وقلنا : إن العلماء لم يكونوا من الغباوة بحيث تروج عليهم هذه المكيدة ، بل لم يكونوا من الجهل بواجبات الدين على حد أن يقبلوا هذا الاقتراح ، ويطلقوا لغلام أحمد الشكيمة غير مبالين بما يفسده من عقائد وأخلاق وآداب ، ولم يخجل داعية القاديانية أن يتعرض في مقاله لهذا الاقتراح ، وتبلغ به قلة الخجل أن يعدّ مثل هذا في طرق الدعوة الصحيحة ، ويقيسه بحكمة القرآن الكريم في قوله تعالى : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

والفرق بين الآية الكريمة واقتراح غلام أحمد كالفرق بين البياض الناصع والسواد الحالك ، وداعية القاديانية إما أنه لم يفهم معنى الآية ، وإما أنه يتخيل أن قراء مقاله قد وضعوا عقولهم بين أصابعه يعبث بها كيف يشاء .

وهل من المعقول أن يكون مثل غلام أحمد فى اقتراحه السخيف مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أمره الله تعالى بأن يدعو أهل الكتاب الى إخلاص العبادة لله تعالى وعدم اتخاذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإذا لم يقبلوا هذه الدعوة اعتز هو وأصحابه بإسلامهم ، وأعرض عن أولئك الجاهلين !

وإذا قص القرآن الكريم أن بعض المدافعين عن رسول عزم بعض قومه على قتله ، قال لهم فى دفاعه عنه : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) فان ذلك الرجل إنما قال هذه الكلمة فى حق داع الى الله بحق ، قد قامت البينات على صدقه ، ولم يكن بيد القوم دليل أو أمارة على كذبه البتة ، وليس هذا حال غلام أحمد مع علماء الاسلام ، فان دعاوى غلام أحمد مناقضة لأصول الاسلام ، فكذبه مقطوع به ، فاذا قال لأهل العلم دعونى ، ولا تتعرضوا لدعاياتى مقدار عشر سنين ، فانما يقول لهم : دعونى أبدل دينكم الحنيف ، وأهدم شريعتكم الغراء ، وأقيم العقبات فى سبيل عزتكم ، وكونوا على هذا البلاء صابرين ، ولهذه المهانة محتملين ، وبعقوبة الله غير مبالين .

ولا عجب لمن لم يذق للغيرة على الحق طعما أن يعرض ذلك الاقتراح على من علّمهم القرآنُ العزيز أدب النصح لله ولرسوله وللمؤمنين .

ادعاء غلام أحمد للنبوة :

بعث إلينا معتمد القاديانية فى بلد « نكس » بلاهور كتابا ينكر فيه أن غلام أحمد قد ادعى النبوة ، ويعدّ فرقة قاديان التى من زعمائها داعية فلسطين فئة ضالة ، ومما قال فى الكتاب : « حينما بحثتم عن عقائد فئة قديان الغالية الضالة عن جادة الحق والصواب بنيتم بحثكم على عبارات هذه الفرقة الغالية دون عبارات كتب حضرة المجدد وتصريحاته وجعلتم عقائد هذه الفئة مرايا عقائد حضرة المجدد افتراء عليه » ثم قال : « فعليك أن تأتى بكلمة من كتبه دالة على أن حضرة المجدد ادعى النبوة ، ولن تستطيع أبدا » .

ونحن نوافقه على أن فرقة قاديان فرقة ضالة ، بل هى خارجة فى ضلالها عن دائرة الاسلام ، ونقول له : إن حضرة مجددكم قد فضل نفسه على عيسى بن مريم عليه السلام وهل يصح لمجدد أن يفضل نفسه على رسول عظيم قبل أن يزعم أنه قد أوتى النبوة والرسالة ؛ وإذا كان غلام أحمد لا يدعى النبوة والرسالة ، فما معنى الآيات التى يتبجح بها ويزعم أن الله أيده بها ، والمجدد والمصلح غير النبى إنما يرجع الى كتاب الله وسنة رسول الله ، أو الى الأصول النظرية المعقولة ، فيستمد منها الأدلة على ما يقرره ويدعو اليه من عقائد أو أحكام أو آداب ، وإذا لم يمكنه إقناع الناس من هذه الناحية ، فعده مجددا مصلحا ، جهالةٌ ليس وراءها جهالة .

أليس مجددكم هو الذى يقول : « بعث الله تعالى فى هذه الأمة مسيحا أفضل من المسيح الأول فى جميع الكمالات ، والذى نفسى بيده لو كان عيسى بن مريم فى زمان أنا فيه لما استطاع عملا مما عملته ، ولم يكد يظهر المعجزة التى ظهرت[1] » .

أو ليس مجددكم هو الذى يدعى أنه أوحى اليه قوله : « إنا أرسلنا أحمد الى قومه فأعرضوا عنه وقالوا كذاب أشر[2] » :

(١) كتاب حقيقة الوحى . (٢) كتاب أربعين .

بل وجد فى كلام غلام أحمد ما يدل على أنه يحدث نفسه بأنه رسول مشرع ، فقد عد من أقسام الكفر جحود المسيح الموعود (يعنى نفسه) وتكذيبه فيما جاء به ، وقال فى حاشية على كتاب « ترياق القلوب » : « وليتنبه أن تكفير المنكرين من خواص الأنبياء الذين جاءوا بشريعة جديدة وأحكام ناسخة ، وأما من سواهم من الملهمين والمحدثين فلا يكفر أحد بجحوده » فان كان غلام أحمد يكتب ما يكتب وهو عارف ما يكتب ، قلنا : إن حكمه بتكفير من يكذب به ، ثم قصره التكفير على من يكذب الأنبياء الذين جاءوا بشرائع جديدة ، يفيدان أن غلام أحمد يدعى أنه من الأنبياء الذين جاءوا بشرائع جديدة .

فدعوا أيها اللاهوريون ذكر النبوة الظلّية أو المجازيّة ، وتعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نثق بأن غلام أحمد قد ادعى النبوة والرسالة كذبا ، وأميطوا ما يزعم غلام أحمد أنه أوحى إليه إماطة الأذى عن الطريق ، وارجعوا الى كتاب الله وسنة رسول الله ، ولا تجحدوا ما نطق به القرآن من معجزات رسل الله الأكرمين ، واعترفوا بأن ما أوّلتموها به لا يحتمله اللفظ العربى ولا يسمح به سياق الآيات ، ولم يعرفه علماء الصحابة الذين تلقوا القرآن وبيانه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن فرقة القاديانية التى تصدق غلام أحمد فى دعوى النبوة لتعدكم فرقة خارجة عن نحلتهم ، والأمة الاسلامية التى تؤمن بما نزل على محمد وما حدّث به محمد صلى الله عليه وسلم تعدكم فرقة خارجة عن حدود دينهم ، وليس تأويلكم للمعجزات المذكورة فى القرآن إلا إنكارا لوقوعها ، وما تسميتكم لغلام أحمد بالمجدد المصلح إلا نصب أحبولة لاستدراج المستضعفين أو الغافلين الى نحلة ملفقة شوهاء .

محمد الخضر حسين

الاسلام فى بلاد الصين[1]

رأى مستشرق

لقد بقى الاسلام فى بلاد الصين لغزا زمنا طويلا لا يُعرف عنه شىء ، الى أن تنبأ « دابرى ده تيرسان » (Dabry de Thiersant) وفاسلييف (Vassiliev) بدخول بلاد الصين فى الاسلام عاجلا .

ولا يزال الاسلام فى الصين مجهولا عنه شىء كثير ، وإن الاحصائيات التى سنوردها فيما يلى إما ناقصة وإما تخرصية ، لأنها مأخوذة فى الغالب عن التحريات التى أجراها « برومبال » (Broomball) فى سنة ١٩١٠ أو عن تحريات بعثة « أولون » (Ollone) فى سنة ١٩١١ .

ولم يضف الى تلك التحريات سوى محاولة قام بها « ف . ه . رودس » (F. H. Rhodes) فى سنة ١٩١١ على أن كل تلك التحريات تبين لنا على الأقل أن الاسلام من العوامل الأساسية التى لها أثر كبير فى حياة جمهور عظيم من بلاد الصين فى الوقت الحاضر ، فقد كانت تمزقها الفوضى السياسية والاجتماعية منذ وفاة « يوان شى — ك . آى » (Yuan - che - K'ai) حيث أخذ ينضب معين الأخلاق والآداب القديمة التى دعا إليها كونفشيوس ، وصارت الأديرة الطاؤستية (Taoistes) قاعا صفصفا ، وأصاب الرهبانية البوذية الهزال والاضمحلال بسبب ما حدث لها من الضغط الناشئ من قيود الأوامر التى أصدرها أباطرة الصين الأخيرون ، وبسبب ما نالها من الهزيمة

---

(١) نقلا عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى .

على أيدى الثوار العلمانيين ، فلم يبق بعد ذلك وجها لوجه سوى فئتين ضعيفتين فى وسط تلك الكتلة الهائلة من بنى الانسان التى كانت تقدر بأكثر من حقيقتها منذ زمن قريب ، إلا أنها قد تبلغ الآن ثلثمائة مليون نفس (١) بالرغم مما أصابها بسبب المجاعة ، وهاتان الفئتان هما المسلمون والمسيحيون ، وهما على عداء صريح بينهما بالرغم عن أنهما يتجهان نحو فكرة وحدانية الإله . ويبلغ عدد المسلمين فى وسط تلك الكتلة ٦ ملايين ، وعدد المسيحيين مليونين أى بنسبة ثلاثة الى واحد . ويعتقد أهل مكة أن عدد مسلمى الصين يبلغ ثلاثين مليونا ، ولذلك احتفظ لهم بثلاثة كراسى من ٤٩ كرسيا فى « مؤتمر العالم الاسلامى » الذى عقد هنالك فى سنة ١٩٢٦

إن تقويمات الحكومة الصينية تطلق على المسلمين اسم « هوئى — هوئى » (Hoeï — Hoeï) وعلى الاسلام « تسنج — تشن — كياوه » (Ts'ing - tchen - kiao) ومعناه « الدين الخالص الحق » ويسمون العرب باسم « طاشى » (Ta - chi) .

ويروى فى القصص الصينية أن للصحابى سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) المتوفى بالعقيق فى سنة ٦٧٤ ضريحا بالقرب من مدينة « طورفان » من مدن التركستان الصينية ، ومسجدا فى مدينة « كانتون » .

ومن المؤكد أن هنالك بعثتين إسلاميتين سافرتا الى بلاد الصين ووصلتا فعلا إليها ، وهما : بعثة أرسلها سيدنا عثمان (رضى الله عنه) استقبلها أمبراطور الصين (تانج كاو — تسونج / (T'ang, Kao - Tsong) فى سنة ٦٥١ ميلادية ، وبعثة سيدنا « قتيبة » فى سنة ٧١٣ وسافرت بعدهما تسع عشرة بعثة فيما بين سنتى ٧١٦ و ٧٥٩ من الميلاد ، وقد نوه المسيو شافان بتلك البعثات فى كتابه عن الصين . هذا وقد توطد الاسلام فى بلاد الصين الآتية :

---

(١) يؤكد لنا بعض إخواننا من مسلمى الصين نزلاء مصر أن عدد سكان الصين الآن يبلغ ٤٠٠ مليون نفس منهم ٥٠ مليونا من المسلمين .

(ا) فى مقاطعة « كان — صو » Kan-sou منذ القرن الثامن الميلادى بواسطة جنود العرب المرتزقة التى كان جندها الامبراطور « سو — تسونج » Sou-Tsong عند قيام الثورة الكبرى .

(ب) على الساحل الجنوبى الشرقى فى « كانتون » Canton و « زايتون » Zayton و « يانغ — جيبو » Yang-Tcheou منذ القرن العاشر بواسطة البحارة الذين جاءوا من الخليج الفارسى ، وقد ذكروا كثيرا من الملاحظات الدقيقة عما شاهدوه فى بلاد الصين ، مثل الأشجار ذات الأوراق المصنوعة من الحرير والتى تزدان بها حديقة قصر الامبراطور « ابن السماء » وكان ذلك منذ عهد « يانغ — تى » (yang-ti) .

(ح) فى مقاطعة « يون — نان » (Yun-nàn) فى القرن الثامن بواسطة حاكم منغولى : مسلم غيور من بخارا .

هذا ومنذ القرن السابع عشر الميلادى أصبحت كتب الفقه والعبادات فى الاسلام تكتب باللغتين الصينية والعربية أو بالصينية فقط بعد أن كانت مكتوبة باللغة التركية الشرقية (بحروف الوجور) (Oïgour) ثم بالعربية . ويذكر « برومهال » من هذه الكتب عشرين مؤلفا . و « فسيبر » ستة وثلاثين ، والخط العربى الذى يكتبه مسلمو الصين بالفرشة بدل القلم(١) ذو شكل غريب جدا ، وأهم الحِرف التى يحترفها مسلمو الصين هى : الجندية وتجارة الصادرات ، والتجارة بالتجوال فى الطرق لبيع الحرير والقطن والشاى ، وفتح المطاعم والحمامات ، وكذلك العمل فى المصانع مثل مصانع الحديد الشهيرة فى « هان — يانغ » Han-yang ومصانع الغزل على الساحل الجنوبى الشرقى .

وتبدأ أسماء الأسر الاسلامية بالمقاطع التالية : « ما » « وكين » « وها » « وشا » وغيرها . وقد بقى المسلمون متمسكين بعاداتهم القديمة فى الجنوب الغربى

(١) يقول بعض إخواننا الصينيين المقيمين بمصر : إنهم يكتبون اللغة العربية بالقلم فى مقاطعة يونان .

لكنهم تطوروا فى الشمال الغربى بتأثير الأتراك « الويجور » الذين اعتنقوا الاسلام. وقد حاولت الحكومة العثمانية منذ عشرين عاما أن تنظم أحوال مسلمى الصين.

وفى سنة ١٩٠٨ طلبت ألمانيا من الحكومة الصينية بأن تجعل لها مركزا سياسيا خاصا بأن تكون هى « الدولة الحامية » للاسلام فى الصين.

ويحتفل مسلمو الصين بالأعياد الدينية مثل العيدين، وبالمولد النبوى، وبالمعراج وبليلة القدر، ويوم عاشوراء، وغيرها.

وإليك ما يمكن إثباته عن الاسلام فى التسع عشرة مقاطعة من مقاطعات الصين: مقاطعة «سن — كيانج» (Sin - Kiang): وهى من مقاطعات التركستان الصينية ويبلغ عدد المسلمين بها مليونا من مجموع عدد سكانها البالغين مليونا ومائتى ألف نسمة.

مقاطعة « كان — صو »: وبها من المسلمين ١٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة من ٣٫٨١٠٫٠٠٠ نفس وهو عدد ضئيل جدا.

مقاطعة « يون — نان »: يبلغ عدد المسلمين بها ٧٠٠٫٠٠٠[1] من مجموع سكانها البالغ ٨٬٠٥٣٬٠٠٠ نسمة، وسنفرد لكل من هذه المقاطعات الثلاث بحثا على حدة لأنها هى أهم المقاطعات التى انتشر فيها الاسلام بصفة جدية. وأما بقية المقاطعات فيكتفى بإبداء بعض المعلومات الموجزة عنها. وهى:

مقاطعة « تشى — لى » (Tche-li): بها من المسلمين ٥٠٠٫٠٠٠ نفس من مجموع سكانها البالغين ٢٢٫٩٧٠٫٠٠٠ نسمة أى بنسبة ٢٪ فى المائة. وفى « بكين » وهى العاصمة ٤٥٫٠٠٠ مسلم من ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة عدد سكانها. ويطلق عليهم اسم « خوجم » (Khodjem) وهم نزحوا اليها من بلاد « تزونجاريا » (Dzongarie) فى القرن الثامن

(١) وهو إحصاء مشكوك فى صحته حسب تأكيدات بعض إخواننا من مسلمى الصين فى مصر.

عشر من الميلاد ، ويوجد بهذه المقاطعة ستة وثلاثون مسجدا[1] منها واحد بالعاصمة ، ومنذ سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٢٤ كان خليفة آل عثمان يبعث الى الصين ببعض المندوبين بصفة شبيهة بالرسمية مثل « القاضى » وهو زائر منتدب من قبل شيخ الاسلام فى الاستانة ويوجد بمدينة « تيين — تسين » (T'ien-tsin) ٧٠،٠٠٠ مسلم من مجموع عدد سكانها البالغ ٧٥٠،٠٠٠ نسمة ، وبها عشرة مساجد .

وأما نهضة التربية الحديثة التى مركزها بمسجد « كتاتسو » (Kiatsow) فى بيكين فهى ترمى الى تحسين دراسة اللغة العربية والى نشر التعليم بين النساء .

وفى ولاية « شان — تونج » (Chan-tong) ٢٠٠،٠٠٠ مسلم من ٢٥،٨١٠،٠٠٠ مجموع أهاليها ، وبها ١٦ مسجدا ، منها ثمانية مساجد بمدينة « تسينان » (Tsinan) ويوجد بها كذلك مساجد خاصة بالسيدات .

مقاطعة شان — سى » (Chan-si) : بها ٢٥،٠٠٠ مسلم من ٩،٤٢٠،٠٠٠ نسمة .

مقاطعة « هو — نان » (Ho-Nan) : بها ٢٥٠،٠٠٠ مسلم من ٢٢،٣٧٥،٠٠٠ من السكان وبها ٣٠٠ مسجد ، وفى مدينة كايفونج (K'ai-fong) ١٧،٥٠٠ مسلم من ١٥٠،٠٠٠ من سكانها ، وبها خمسة عشر مسجدا منها ثمانية للنساء ، وبها كذلك مدارس ابتدائية مهمة ، ويوجد بعض المسلمين ممن اعتنقوا الاسلام من بين الجالية الاسرائيلية التى أقامت هناك منذ القرن الخامس عشر ، وتعد مدينة « هواى — شنج » (Houai-Ching) مركزاً لتعليم الدين الاسلامى .

مقاطعة « كيانج — سو » (Kiang-sou) : بها ٢٥٠،٠٠٠ مسلم من ١٥،٣٨٠،٠٠٠ من الأهالى ، وفى مدينة « نانكين » (Nan-kin) ٢٥،٠٠٠ مسلم من ٢٥٠،٠٠٠ من سكانها ، وبها سبعة وعشرون مسجدا . وكانت « يانج — تشو » (Yang-tcheou) مركزا

(١) يؤكد بعض الصينيين نزلاء مصر أن عدد المساجد فى الصين يبلغ ٣٠،٠٠٠ مسجد

صغيرا لتعليم الدين الاسلامى ، وذلك منذ القرن العاشر الميلادى ، ولا يزال يوجد بها مدرسة ثانوية إسلامية ، ويوجد بمدينة « شانغاى » (Chang-hai) بعض المسلمين ويؤلفون بينهم جمعية دينية اسمها « الجمعية العلمية الاسلامية الصينية » .

مقاطعة « غان — هوى » (hgan-houei) : بها ٤٠٫٠٠٠ مسلم من ١٤٫٠٧٥٫٠٠٠ من السكان .

مقاطعة « كيانج — سى » Kiang-si وعاصمتها « نان - تشانج » — Nan-tchang : بها ٢٫٥٠٠ مسلم من ١٦٫٢٥٥٫٠٠٠ من السكان .

مقاطعة « جيكيان » (Tchô-kiang) : بها ٧٫٥٠٠ مسلم من ١٣٫٩٥٠٫٠٠٠ من السكان ويرجع اعتناق أسرها الدين الاسلامى الى عهد قديم .

مقاطعة « فو — كين » (Fou-kien) : بها ١٠٫٠٠٠ مسلم من مجموع عدد سكانها البالغ ٨٫٥٦٠٫٠٠٠ نسمة . ويوجد بمدينة « تسنجون » مسجد عجيب يرجع عهده الى القرن الحادى عشر (سنة ١٠٠٩) وقد درس تاريخه المسيو فان برشم والمسيو ارنيير) .

مقاطعة « هوبى » (Hou-pei) : بها ١٠٫٠٠٠ مسلم من ٢١٫٢٦٠٫٠٠٠ من السكان .

مقاطعة « هو - نان » (Hou-nan) : بها ١٠٫٠٠٠ مسلم من ٢٠٫٥٨٠٫٠٠٠ من السكان وفيها تسعة عشر مسجدا ، منها اثنان بمدينة « تشانج شاه » (Tch'ang-cha) .

مقاطعة « شين - سى » (Chen-si) : إن عدد المسلمين بها قد تلاشى منذ سنة ١٨٦٠ ولم يبق منهم الآن أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة من ٦٫٧٢٥٫٠٠٠ من مجموع سكانها ، وهم موزعون على مدن سيغان (Si-ngan) و « غانجون » و « هنغان » (Hing-ngan) ويوجد بها جالية إسلامية منذ القرن التاسع ، وبها سبعة مساجد .

مقاطعة « سيجوان » (Seu-tchôuang) : بها ٢٠٠٫٠٠٠ مسلم من ٥٤٫٥٠٠٫٠٠٠ من مجموع سكانها ، ولاسيما بمدينة « جندو » (Tch'eng-tou) حيث يوجد بها ١١٫٥٠٠ مسلم

وأحد عشر مسجدا ، عشرة منها للشافعية ، وبها مصنع للنقش والحفر على الخشب ذائع الصيت . وفى مدينة « تا — تسيين — لو » (Ta-tsien-lou) ١٢،٥٠٠ مسلم ، وقد عم الاسلام كذلك مدينة « با — تانج » (Ba-tang) وبها بعض المولوية (المشايخ) (Mollas) الذين يدرسون باللغة الفارسية .

ولاية « كوانتونج » (Kouang-tong) : بها ٣٥،٠٠٠ مسلم من ٢٣،٧٠٠،٠٠٠ من السكان ، وبمدينة « كوانجو » (Kouang-tcheou) — أو كانتون) ٢٥،٠٠٠ مسلم من ٨٠٠،٠٠٠ من السكان ، وبها أربعة مساجد ، منها مسجد « سان سوفنير » (Saint-Souvenir) « أو الذكرى المقدسة » أو « شوق النبى » وقد أعيد بناؤه فى سنة ١٣٤٣ ميلادية ، وفيها (قبر سعد بن أبى وقاص) وقد دخل الاسلام فى مركز « ساما » (Sama) الصغير بجزيرة « هيغان » (Hainan) .

ولاية « كوانج — سى » (Kouang-si) : بها ١٥،٠٠٠ مسلم من ٥،٤٢٥،٠٠٠ من سكانها .

ولاية « كويجون » (Kouei-tchou) : بها ٢٠،٠٠٠ مسلم من مجموع عدد سكانها البالغ ٩،٢٦٦،٠٠٠ .

فيكون المجموع الكلى لعدد سكان الصين الأصلية هو ٣١٤،٨٥٠،٠٠٠ نسمة على الأكثر ؛ ويبلغ عدد المسلمين فيهم من ٦،١٢٥،٠٠٠ الى ٧،٠٦٦،٠٠٠ نفس . ويوجد نصفهم فى ولايات « سنكيان » (Sinkiang) و « كان — سو » (Kan-sou) « ويون — نان » (Yun-nan) وقد اجتُهِد فى وضع نظام رسمى (إدارى) لهم فى سنة ١٦٨٣ ثم فى سنة ١٨٥٨ .

ملحقات الصين الأخرى :

منشوريا : بها من المسلمين ٢٠٠،٠٠٠ من مجموع عدد سكانها البالغين ١٠،٧٤٠،٠٠٠ وفى مدينة « مكدن » ٦،٠٠٠ مسلم ، وبها أربعة مساجد .

« كونكور ـ تسايدان » (Kounkour-tsaidan) : وهى ولاية تقيم حكومتها بمدينة « سى — ننج » (Si-ning) فى ولاية « كانسو » ويبلغ عدد سكانها ١٥٠،٠٠٠ نسمة أصلهم من جنس أهالى التبت الموسومين باسم « طانجوتس » (Tangoutés) وهم خاضعون للنظام الاقطاعى المنغولى منذ سنة ١٥١٢ ويكوّنون ٢٩ « لواء » أو قبيلة ، ويقال إنهم من « الدادا » أو « التتار » (Daldas) أحفاد جنغيرخان (Tchinguiz-khan) وأصبحوا خاضعين للصين منذ سنة ١٦٩٧ وإن أغلبيتهم العظمى تدين بالبوذية ، ولكن يوجد منهم نحو ٣٠٠٠ مسلم يطلق عليهم اسم « سيشا » يعرفون زمام التجارة فى البلاد .

« التبت » هذه البلاد موضوعة تحت الرقابة الثنائية ، وهى الرقابة الصينية التى تستمد سلطتها من نائب الحاكم العام لولاية « صو — تش — وان » (Sseu-tch,ouan) ، والرقابة البريطانية ، ويقال إنه يوجد بها مليونان من السكان الذين معظمهم من البوذيين ومن بينهم بعض المسيحيين المتنكرين و ٣٠،٠٠٠ مسلم ، ويوجد ١٠،٠٠٠ مسلم فى ولاية « واى » (Weï) أصلهم من مهاجرى الهنود فى « لاسا » (Lassa) وفى بلاد « تسيامدو » (Tsiamdo) و (درايا) Draya و (سى — تشنج) Se - tching يوجد ١٤،٠٠٠ مسلم . وفى ولاية (غارى) Gartok-ngari يوجد ٦٠٠٠ مسلم ، وهم من المهاجرين السنيين الذين نزحوا من بلاد الكشمير أو من الاسماعليين الذين جاءوا من « بالتستان » Baltistan .

ويوجد كذلك بعض من أسلموا من أهل بلاد التبت الأصليين الذين يقطنون على الحدود الصينية فى جهة « صوتشوان » .

الادارة فى الصين :

إن إدارة الولايات الصينية قد عمها الإصلاح منذ سنة ١٩١٢ ، فقد ألغى نظام المديريات القديم ذات الدرجة الأولى والثانية « فو » و « تشو » Fou et tcheou واحتفظ

فى كل ولاية بدوائر رئيسية مقسمة الى مراكز . وحدث فى نفس الوقت تعديل فى عدد عظيم من الأسماء : نحو بكين التى كانت حاضرة « جو ينتن » أصبحت عاصمة (كننج — شاؤ) .

ولا تزال الخرائط الأوربية محتفظة بالأسماء السابقة لهذا التعديل .

الصحافة :

فى مدينة بيكين: يوجد بها صحيفة (مو — شنج باؤ) Mou-cheng pao أو «صوت محمد» وهى جريدة أسبوعية كان يصدرها « ر . هسى تان » R. hsi tan وأوقفت .

وصحيفة «يى — كوانج » Yi-kouang (نور الاسلام) وهى شهرية، وتصدر منذ سنة ١٩٢٧ .

وصحيفة « مو كوانج » (نور محمد) Mou kouang وهى نصف شهرية .

وفى مدينة «يون — نان — سن» توجد صحيفة «يون نان . شينج . شن . يوه ياؤ» ومعناه مجلة الدين الحق الخالص Yün nan ch,ing cheng yueh pao وهى صحيفة شهرية مصورة كانت تصدر منذ سنة ١٩١٦ وأوقفت .

الطرف والملح

قال بعض النساك :

قد أعيانى أن أنزل على رجل يعلم أنى لست آكل من رزقه شيئا .

في بلاد التركستان الصينية

(سين كيانج)

الموقع — المساحة — التعداد :

تقع بلاد التركستان الصينية فيما بين الدرجة ٣٥ والدرجة ٤٩ من خطوط العرض الشمالية ، وفيما بين الدرجة ٧٩ والدرجة ٩٦ من خطوط الطول الشرقية ، وتبلغ مساحة «السين كيانج » ومعناها البلاد الجديدة ١٫٤٢٦٫٠٠٠ كيلومترا مربعا ، وتشمل ما يأتي :

(ا) بحيرة محصورة عمقها ١٠٠٠ متر وهي بحيرة « تاعلي — موهو » ويبلغ مجراها ٢٠٠٠ كيلو متر ثم تضيع في المستنقعات التي وسط صحراء « تا كلا — ما كان » وهي صحراء تنتشر فيها واحات كثيرة .

(ب) سلسلة جبال تبدأ من « البامير » من جهة الشرق وتبلغ أعلى قمة فيها ٧٫٨٠٠ متر عند « كوين — لوين » في الجنوب ، وتبلغ قمة « خان تنجرى » في الشمال ٨٧٠ مترا ، وتلتف من الجهة الغربية بوادى « يبلى » ومن الجهة الشرقية بمنحدر « الطورفان » وتشرف من الجهة الشمالية الشرقية على صحراء منغوليا .

(ج) « هضبة جبال تزوتجاريا » : في الجهة الشمالية الغربية وهي تبلغ ١٫٥٠٠ متر ، ويوجد بها بعض البحيرات مثل « سايرام — نور » .

مجموع السكان :

يبلغ مجموع سكانها نحو ١٫٢٠٠٫٠٠٠ في سنة ١٩٠٢ [١] وقد كان أكثر من ذلك كثيرا فيما مضى .

المدن :

أولاً الست المدن الأصلية وهي : « خوتان » وبالصينية « هوتين » ويبلغ عدد

(١) يقول بعض اخواننا من مسلمي الصين المقيمين بمصر إن عدد السكان يبلغ الآن ٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمة .

سكانها ٢٦٫٠٠٠ نسمة و « يارقند » وبالصينية « شاجو » ويبلغ تعدادها ٦٠٫٠٠٠ نسمة و « كاشجار » أو « صوفر » وعدد سكانها ٧٠٫٠٠٠ نسمة و « اوج — طورفان » أو « ووشى » و « اكسوا » أو « وين — صو » و « يانغى — حصار » أو « ينغ — كى شا — ؤول » ثم مدن «طورفان» أو «طولوفان» و«كارشال» أو «كولاشاؤول» و «قومول» أو «هامى» و «أورومتسى» أو «تى — هوا» ويبلغ عدد سكانها ٥٠٫٠٠٠ نسمة منهم ١٢٫٠٠٠ من الأتراك ، وأما الحاضرة القديمة « البيشباليك » فكانت أقرب الى الجهة الشرقية ، و« كوجنج» و« كولجا» أو «يلى» ويبلغ تعدادها ١٠٫٠٠٠ نسمة ، وكانت تحتلها الروسيا من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٨١ ، وبها مسجد وثمانية وعشرون مدرسة ، وكانت سابقا معقلا للمسيحيين النسطوريين .

دخول الاسلام فى التركستان :

لقد مرت بلاد التركستان الصينية بعصر مدنية ورخاء فى عهد الملوك الطوخاريين الهنود الذين جاءوا من « كاراشار» و « كوجا » وكان آخرهم (هاريبوسيا الذى خضع للصين فى سنة ٦٤٨) والذين قدموا من «الكاماديشا » فيما بين سنة ٢٠٠ قبل الميلاد وسنة ٦٤٨ بعد الميلاد وكانوا خاضعين للصين . وقد عثر على آثارهم ودرستها بعثات « أوريل اشتين» و « فون ليكوك » و « بيوه» . وفى القرن الثامن من الميلاد خضعت كل بلاد التركستان للصين إلا أنها بقيت تتكلم اللغة اليورانية الشرقية أو «الطوخارية».

ومن سنة ٧٤٥ — سنة ٨٤٥ كانت دولة ترك ياغان الويغور من «أورخون» تنازع التيبتيين فى الاستيلاء على بلاد التركستان ، وقد اعتنق أولئك الأتراك مذهب المانوية اليورانية (الزندقة) فى سنة ٧٦٢ على يد رئيس هذا المذهب الذى كان يطلق عليه اسم موزاق ، وكان يقيم فى « كاراخوجا » بالقرب من طورفان . وقد حطم دولة الأتراك الهجوم الصينى فيما بين سنة ٨٤٠ الى سنة ٨٤٥ فتجزأت الى ثلاث حكومات :

(١) حكومة « الويجور الشرقية » فى « كانجيو » وقد أخضعت أسرة « هيا » الصينية هـذه الحـكومة وحماتهـا على اعتناق البوذية فى سـنة ١٠٢٨ ثم خضعت لأسرة « يوان » .

(٢) حكومة «الويجور الوسطى» ويطلق عليها اسم «طوقوز أوغوز» ، ومعناه الويجور ذو التسع القبائل . ومركزها فى « كاوجانج » بالقرب من «طورفان» ، وقد ضمها «جاغاتيو — كاشجار » و « أمراء المنغول من نسـل « جنغيزخان» الى ملـكهم ودخلت فى الاسـلام تحت حكمهم فى عهد « خضر » من سـنة ١٣٧١ الى سنة ١٤٠٤ ميلادية .

(٣) حكومة « الويجور الغربية » فى « كاشجار » وكانت تحت حكم «إيليك» « خانيد » (خانات) أو أمراء إيليك من سـنة ٨٩٠ — سـنة ١٢١٤ ميلادية . وهم من نسل « أفراسياب » ودخلوا فى الاسلام حوالى سنة ٩٥٠ وكانوا خاضعين هم والسابقون لحـكم «الجورخان الـكاراخيتاى» البوذيين من سنة ١١٢٠ الى سنة ١٢١٥ ، وقد خلفهم فى الحـكم بعد الفتح المنغولى فرع من أسرة «الجاغاتيين» من سنة ١٣١٥ — سـنة ١٦٧٨ اعتنق الاسلام حوالى سنة ١٣٧٠ وفرع آخر من الخوجا أسسه حضرة أپاك هداية الله سنة ١٦٧٨ ، وكانت كل هذه البلاد خاضعة للواراد (المنغول) البوذيين من أهالى تزنجاريا من سنة ١٦٥٠ الى سنة ١٧٥٨ حتى فتحها الصين فى سنة ١٧٥٨ ، فلجأ آخر أمراء « الخوجا » الى « خوقند » ومن خوقند هذه عاد يعقوب بك عند نشوب ثورة المسـلمين الـكبرى ضد الصين فى سنة ١٨٦٢ — سنة ١٨٧٨ ، وقد كان يعقوب بك ذا كفاية ومقدرة إدارية بارزة وكان تابعا لخـان (أمير) بخارا وملقب بلقب أتاليك غازى واعترف به الخليفة العثمانى (أمير المؤمنين) ولم تخضع البلاد إلا بعد وفاته فى سنة ١٨٧٧ .

الاسلام فى السودان[1]

رأينا فيما تقدم مقدار درجة انتشار الاسلام فى الأقطار السودانية ، كما أوضحنا العوامل التى ساعدت على تقدمه وتقوية كلمته وتحسين حالة أهله من الوجهة السياسية والاجتماعية والمادية ، وبينا أثر هذا الدين فيهم من نواح متعددة مثل تقوية الروابط القومية وتنشيط روح الحياة التعاونية وتقريب طرق التفاهم بين أجناسهم المختلفة .

دخل الاسلام فى مجاهل أواسط أفريقية حاملا لواء العلم ، فهو أول دين نزل به كتاب مقدس عرفته الأهالى ، فكان ذلك داعيا لتعلم القراءة والكتابة ، فبعد أن كانت مجهولة تماما أصبح عدد الملمين بها يتراوح بين ٢ ٪ و ٦ ٪ من السكان المسلمين ، كما أنشئت فى جهات متعددة مدارس أولية لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الأساسية ، وقد لا تخلو الآن قرية صغيرة من مدرس يلتف حوله صغار طلاب العلم لحفظ القرآن وتجويده وتلقين تعاليم الاسلام وقواعده ، وذلك كله بواسطة اللغة العربية .

وكذلك توجد الآن بعض المدارس العالية فى المراكز الرئيسية للتعمق فى الدراسات الاسلامية والفقه والشريعة ، ويتحمل الكثير من طلاب العلم مشقات السفر البعيد لتلقى علومهم العالية بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة ، فيكونون بذلك نواة لمجمع علمى تلتقى به الثقافة الإسلامية العربية بمدنية الأهالى القديمة ، وظهرت ثمراته القيمة فى كثير من الموضوعات الأدبية والدينية المفيدة .

---

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن مقال للاستاذ « ديدريش ويسترمان » فى مجلة « العالم الاسلامى » الالمانية .

ومن آثار الاسلام الخالدة محاربة المسكرات فى غرب أفريقية ، فان الحالة الصحية والاجتماعية التى وصل إليها سكان الجهات التى انتشر فيها هذا الدين تعد بحق مفخرة كبيرة للاسلام إذا قورنت بفساد الأخلاق الذى يسود الجهات الوثنية والفوضى التى تعم أركانها .

وللاسلام آثار ظاهرة ومفاخر أخرى عديدة من الناحية الخلقية ، فانه قضى على كثير من أعمال القسوة ضد الانسان والحيوان وأكل لحوم البشر وقتل الأطفال والكهول والمرضى ، بعد أن كانت هذه الرذائل متفشية مثل الوباء الخبيث بين الأهالى الوثنيين والعياذ بالله . أمر الاسلام بالمعروف والشفقة والمحبة بين عباد الله ، وحث على الصدقة والزكاة ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف ، فكل هذه الأمور وغيرها من فرائض دينية جعلت الأهالى من الوجهة الخلقية والاجتماعية فى مصاف غيرهم من البشر أخرجتهم من عالم الوحشية الى عالم الانسانية المتمدينة ، فبدءوا يشعرون بدخولهم فى الهيئة الاجتماعية ، وعرفوا قيمة الحياة وصلاحيتهم ، لها فأخذوا يطالبون بما لهم من حقوق ويخضعون لما عليهم من واجبات .

هذا من جهة آثار الاسلام الخالدة فى أخلاق الأهالى الوطنيين وعوائدهم . أما من جهة النظم الدينية الموضوعة فى الاسلام فهى على غاية من البساطة ، فالهيئة الاكليريكية غير معروفة ، بمعنى أنه لا تقام مراسيم خاصة لتعميد الأشخاص ، ولا تقوم الجهات بتعينهم لأداء الوظائف الدينية ، بل يتولى الإمام عادةً الرياسة الدينية فى الناحية ، ولا يشترط فى شغله لهذا المركز الدينى إلا إلمامه بشىء من العلوم الدينية والآداب ، وأن يكون مجيدا لحفظ القرآن ، وكلما نشأت ناحية جديدة يختار أهلها من بينهم مَن يصح أن يتولى هذه الزعامة الدينية ، أو يطالبون من أحد أئمة النواحى المتاخمة أن يعين لهم من يقوم بهذا المنصب إذا اختلفوا فيما بينهم فى التعيين .

فإذا خلا أحد هذه المراكز بوفاة صاحبه مثلا خلفه عادةً من كان أقرب الناس إليه . وكثيرا ما يتوارث أفراد الأسرة الواحدة العلم والتربية الدينية، وبذا يكونون أصلح من غيرهم لمنصب الإمامة . وتقتصر وظيفة الإمام على أن يؤم المصلين وأن يلقى الخطبة . وفى الجهات التى بها عدد كبير من الجوامع يتولى الزعامة الدينية إمام أكبر أو أقدم هذه الجوامع، وله منزلة ومكانة اجتماعية ممتازة ولو بصفة غير رسمية، وله حق الإمامة بالمصلين فى الأعياد حيث يأتم به الأئمة الآخرون كغيرهم من المصلين من أهل البلدة .

وكثيرا ما كان يجمع بعض الأئمة فى الماضى بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية فى المدن ، بل قد تتعدى ذلك حتى يشمل نفوذه دولة كاملة . ولا توجد هناك هيئة منظمة مركزية للأئمة، فكل واحد منهم مستقل عن الآخر استقلالا تاما . وكثيرا ما يجمع بعضهم حوله طلاب العلم الصغار ويلقنهم القرآن وبعض التعاليم الدينية الابتدائية ، كما يوجد فى كل ناحية تقريبا معلم يدرس الكتابة والقراءة وبعض العلوم الدينية الاسلامية ، ومن هذه الأعمال وغيرها يجمع موارده المادية ، ولا يقل نشاط بعض الأئمة فى هذا العمل عن المعلمين، وبذا يجمعون معظم ثرواتهم الضئيلة . وكثيرا ما يكتفى بعض المعلمين بالتجوال بين القرى والكفور، ويلقون بين حين وآخر بعض المحاضرات والأحاديث ، وينزلون ضيوفا على الرحب والسعة عند أغنياء تلك النواحى الذين يتشرفون بالمبالغة فى إكرامهم لمركزهم الدينى ولسعة اطلاعهم فى العلم .

وقد لا نكون مغالين إذا قلنا إن الأغلبية الساحقة من مسلمى السودان يتبعون طريقا من الطرق الاسلامية المختلفة ، وأكثر هذه الطرق شيوعا فى تلك الأقاليم الشاسعة هى القدرية والتيجانية والسنوسية [1] .

(١) ولم يخص حضرة الكاتب المستشرق بالذكر الطريقة المرغنية الشائعة فى شمال السودان [المجلة] .

أما القدرية فيرجع تاريخها الى سيدى عبد القادر بمدينة بغداد فى القرن الثانى عشر، وجاءت الى السودان من طريق بلاد المغرب (مراكش) الجنوبية أو عن طريق تونس. ويغلب على الظن أنها لم تنتشر فى السودان قبل القرن الخامس عشر، وأغلب أتباع القدرية موجودون فى غرب السودان حتى « سوكوتو » وهم الجانب الأعظم من المغاربة والسونارى والتواريج والفوليا، وكذلك غالبية سكان غرب « تومبكتو » ويتزايد عدد أتباع هذه الطريقة يوما بعد يوم فى « فوتاجالون » فى قبائل المالينكة وفى غيانا الفرنسية وما الى شرق ذلك حتى ساحل العاج والكنغو.

أما طريقة التيجانية فيرجع أصلها لمؤسسها سيدى أحمد التيجانى من الجزائر المتوفى سنة ١٨٠٠ وهى بذلك مثل الطريقة السنوسية تعتبر أحدث تاريخا من القدرية فى أفريقية. وانتشرت الطريقة التيجانية فى السودان على الأخص على يدى الحاج عمر، وقد كان أقطاب هذه الطريقة القدماء يقيمون سابقا فى منطقة نفوذه البائدة وابتدأت هذه الطريقة التيجانية تنتشر من هذه البقعة شرقا وجنوبا مجتذبة بعض القدريين الى زمرتها، كما حدث ذلك فى نيجيريا وبورنو وأدماوه مثلا، ونجد التيجانية أكثر شيوعا فى جميع المناطق الساحلية من نيجريا حتى ساحل الذهب.

وأما طريقة السنوسية فوطنها أواسط السودان وبعض جهاته الشرقية، وهذه الطريقة عبارة عن فرع لإحدى الطرق المنتشرة فى شمال إفريقية ومؤسسها هو العالم المحقق ابن على السنوسى المولود فى تلمسان سنة ١٧٩٢ وقد كانت واحة جغبوب فيما قبل المركز الرئيسى لأقطاب هذه الطريقة، ثم تحول هذا المركز الى جهات مختلفة فى الجنوب بناحية « بوركو »، وأما أتباع هذه الطريقة فنجدهم منتشرين علاوة عن وجودهم فى طرابلس وتونس والجزائر ومصر فى « تيبستى » و « بوركو » وكذلك بين قبائل « التيبو » فى الوادى وفى كانم. ويوجد أفراد قليلة منهم فى باجرمى وبورنو.

وأما الأغراض التى من أجلها تأسست تلك الطرق فهى التجديد والتعمق فى الحياة الدينية ونشر الدعوة ، وتسلك فى ذلك طرقا مختلفة باختلاف الزمان والمكان ، ومنها محاضرات الوعظ والإرشاد وتشييد المدارس ، والغزوات الحربية ، وتأسيس المستعمرات .

تأمر الطريقة السنوسية باتباع أوامر القرآن اتباعا دقيقا ، كما تحرم البدع المستحدثة . وتنهى عن مخالطة المسيحيين واليهود وشرب القهوة والتدخين . ولطريقة السنوسية مستعمرات عديدة فى المناطق الاسلامية والوثنية مؤسسة على أحدث النظم الزراعية والصناعية .

ويدفع الأعضاء فى مثل هذه المستعمرات اشتراكات منظمة ، وتجمع هذه الاشتراكات للصرف منها على صالح المجموع . ولقد أدوا خدمات جليلة فى إحياء كثير من التراث العقلى الاسلامى القديم ، ومما لا شك فيه أن هذه الطريقة كانت سببا مشجعا لكثير من قبائل الوثنيين فى شرق وأواسط السودان للدخول فى الاسلام ، وهى هيئة موحدة لها رئيس أعلى — وهو فى ذلك الوقت سيدى أحمد الشريف — ويتصل أعضاؤها بعضهم ببعض باتصال قومى متين ، كما يربطهم برئيسهم الأعلى روابط مركزية قوية ، ولها نظام ثابت . على أن نفوذ هذه الطائفة لم يصل يوما بعد الى الدرجة التى يخشاها المستعمر الأوروبى ، بل بالعكس فان الحكومة الفرنسية كثيرا ما أثنت على موقفهم المحايد ، خصوصا وأنهم لم يستعملوا القهر فى الدعوة الى طريقتهم أو الى الاسلام على العموم أو أى الطرق الاجبارية بل كانوا فى جميع الأحوال يتبعون الطرق السلمية .

وأما الطريقة القدرية فإنها نجحت الى حد بعيد فى رفع مستوى الثقافة العامة فى غرب السودان ، وذلك بفضل مجهودها فى التربية وأعمالها التهذيبية ، فإن أغلب المدارس الموجودة فى غرب السودان أو فى أواسطه هى من إنشاء أتباع القدرية ،

ولقد تخرج من هذه المدارس كثير من الأئمة ورجال الشريعة والدين وا نتشروا بعد ذلك بين المسلمين والوثنيين ، فا كتسبوا لطريقتهم وللدين الاسلامى على العموم أتباعا كثيرة . وهـذه الطريقة مثل سابقتها لم تلجأ فى الدعوة الى الطرق الحربية قط ، بل كانت تدعو دائما الى السلام .

وأما الطريقة التيجانية فكانت على نقيض ذلك على خط مستقيم ، فان ناشرها فى السودان وهو الحاج عمر هـو أحد الغزاة الفاتحين الذين تعودوا فى حياتهم العملية الالتجاء الى القهر والشدة ، وكذلك المدعو « ساموري » هـو أحد رجالها المبرزين . ولقد كان جميع رجال التيجانية ينزعون بفطرتهم الى استعمال الشدة للدعوة الى طريقتهم أو الى الدين الاسلامى ، ولو أن ذلك لم يعقهم عن الدعاية المسالمة أيضا لنشر تعاليم الدين الاسلامى ، فكان الواعظ والمعلم يبدءان عملهما بنشاط بعد أن يمهد الجندى لهما الطريق بالسلاح فى البلاد المغزوة .

ولقد أخذت الطرق الدينية فى بعض الجهات شكل الروابط الأخوية الاجتماعية : يلقى الانسان فيها من الأعضاء كل حفاوة وإكرام .

ويمتاز المسلم عن الوثنى وغيره فى هـذه النواحى باعتزازه بدينه وتقديره له حق قدره وتعلقه به الى أبعد حد ، فتجده واثقا منه كل الوثوق فى تفسير المسائل الدينية والدنيوية ، وهو بذلك قـد تخلص من ضيق ديانة أهله القديمة وعدم كفاءتها لتفسير أمور الحياة الدنيا والآخرة وقلة صلاحيتها للزمان والمكان ، وشهد بنفسه انخذالها أمام الديانة والثقافة الجديدة ، فأصبح بعـد حيرته فى مأمن من جهة حياته الأخرى ، فبدأ يشعر بأحقيته فى الحيـاة باتباعه دين الله وكتابه الشريف الذى زوده تحصينا لمواجهة تقلبات الحياة بالانصياع لأوامر الله والعمل بما جاء فى كلماته التى لا تبديل لها ، فزادته ثباتا ووثوقا بنفسه وجعلته بعيدا كل البعد من أن يؤثر فيه أى مؤثر خارجى ؟

نقض مطاعن

فى

القرآن الكريم

تأليف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ البارع الشيخ محمد عرفه وكيل كلية الشريعة الاسلامية . بحث به بحثا دقيقا ما افترى به الدكتور طه حسين على كتاب الله الحكيم ففند مطاعنه عليه ، وفضح ضلالاته فيه ، ووضع يده على منشأ جهله ، وفواحش تخريفه وهذيانه . كل ذلك فى بيان عذب وأسلوب متين .

والكتاب يجمع الى قوة الحجة وسطوع البرهان حسن البحث مع الإفاضة والإتقان . فلا جرم أن يتلقاه العلماء والباحثون بالقبول الحسن والثناء الجميل .

فجزى الله المؤلف بما نافح عن كتاب الله خير الجزاء ونفع به المسلمين [1] .

وقد ورد على فضيلة المؤلف تقديرا لفضله وإنصافا لمجهوده من حضرة صاحب المعالى وزير المعارف الكتاب التالى :

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عرفه وكيل كلية الشريعة .

إشارة الى خطاب فضيلتكم المؤرخ ٧ مايو سنة ١٩٣٣ الذى تفضلتم فيه باهداء وزارة المعارف ثلثمائة نسخة من كتابكم الذى وضعتموه فى نقض مطاعن الدكتور طه حسين فى القرآن الكريم — يسرنى أن أبلغ فضيلتكم أن هذه النسخ قد وردت وستقوم الوزارة بتوزيعها للانتفاع بما حواه هذا الكتاب القيم .

(١) يطلب هذا الكتاب من مكتبة الحلبى والمكتبة التجارية ومكتبة الخانجى .

وإنى أنتهز هذه الفرصة لأثنى على فضيلتكم أطيب الثناء، مقدرا الباعث الشريف الذى حدا بكم الى وضع هذا الكتاب، وشاكرا لفضيلتكم هذا الإهداء الكريم وما ينطوى عليه من الغيرة البالغة على الدين القويم.

وتفضلوا بقبول أخلص تحياتى وعظيم احترامى ؟ وزير المعارف
إمضاء

ونحن نثبت هنا للقراء فصلا من فصول هذا الكتاب كأنموذج لما أودعه من حكمة وبيان:

تفنيد الطعن الثالث

يقول هذا الطاعن :

إن القسم المكى يمتاز بتقطع الفكرة، واقتضاب المعانى، وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم. أما القسم المدنى فأفكاره منسجمة متسلسلة، ترمى أحيانا الى غايات اجتماعية وأخلاقية، وفيه هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ، وفيه التشريعات الاسلامية، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع والمعاملات. هكذا يقول الناقد.

(تنزيه القسم المكى عن تقطع الفكرة — واقتضاب المعانى)

إن الذى يقرأ القرآن ولا يتدبره، ولا يكلف نفسه الصبر لمعرفة أغراضه، هو الذى لا يستبين كثيرا منها، فيبدو له متقطع الفكرة، مقتضب المعانى، ولكن الذى يتدبره وينعم النظر فيه، ويقرؤه على سبيل الاعتبار، ويكون مع ذلك قد أوتى طبعا سليما ودربة على معرفة منطق العرب الذين يكتفون باللمحة والوحى السريع، يدرك كثيرا من أغراضه، ويبدو له قصده، فيرى الآيات الكثيرة فى غرض واحد كالحلقة المفرغة مرتبطة بعضها ببعض أتم ارتباط، حتى إن السورة الواحدة المكية الطويلة قد تكون فى غرض واحد يشملها ويعمها، وسأضرب لذلك مثلا :

هذه سورة الأنعام المكية ، مقدارها ١٦٥ آية قد انتظمها غرض واحد وهو إبطال الشرك [1] فتقرؤها جميعها ، فتجدها فى هذا الغرض ، وما سيق فيها فهو لهذه الغاية ، ولولا ضيق المقام لاستوعبتها جميعها ، وبينت كيف تتجه الى هـذا الغرض ، ولكننا نشير هنا إشارة موجزة :

بدأ الله تعالى هذه السورة بحمد نفسه أو استحقاقه الحمد ، وأنه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وأنه بعد أن أنعم بهذه النعم يعدل به الذين كفروا الأوثان والأنداد . وكل ما ذكر بعد يتجه نحو هذه الغاية — إبطال الشرك — فتجده يقول بعد ١٢ آية : (وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطْعَمُ ؟ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) ويقول بعد : (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون) ويقول بعد ٣٩ آية : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) .

ويقول بعد ٦٢ آية : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) .

ويقول بعـد ٧٠ آية : (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى : ائتنا . قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وما ذكر

(١) أى أن موضوعها الاهم المقصود بالذات إبطال الشرك بدحض أوهامه وخرافاته واثبات التوحيد ، ويليه اثبات الرسالة ودحض شبهاتهم عليها، مع المـام باثبات البعث أيضا، فجملة السورة فى أصول العقائد الثلاث . والوصايا التى فى آخرها هى الحجة الادبية على حقيتها .

قصة ابراهيم مع أبيه آزر إلا لأن فيها أدلة على إبطال الشرك (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هـذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجَّه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هـدان ولا أخاف مما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) .

ويقول بعـد ٩٣ آية : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) .

ويقول بعد ٩٩ آية : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرَقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) .

وحرم فى هذه السورة ما لم يذكر اسم الله عليه لأنه مما كان يذكر عليه أسماء آلهتهم فهو شرك ، وذكر من عادتهم فى الحرث والأنعام أنهم كانوا يجعلون بعضها لآلهتهم وهو شرك فأبطلها ، واستدل على بطلانها (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان

لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

ويقول بعد ١٤٧ : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) [1] .

ويقول بعد ١٥٠ آية : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) ويذكر فى مختتم السورة (قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم

(١) بين فى هذه الآية بطلان احتجاجهم على شركهم وتحريم ما حرموا من الحرث والانعام بمشيئة الله تعالى كما يحتج الى الآن بعض المبتدعة والمتصوفة . قالوا : لوشاء الله ألا نشرك لما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولو شاء ألا نحرم ماذكر لما حرمنا . فنحن إنما أشركنا وحرمنا بمشيئته . ومشيئته تستلزم رضاه . أو أنه هو الشارع لذلك . وقد رد الله تعالى عليهم جهلهم هذا بحجة تاريخية وحجة عقلية : أما الأولى فقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم) من أقوام الأنبياء رسلهم فيما بلغوهم عن الله تعالى من توحيد الالوهية وهو أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وتوحيد الربوبية وهو أن الشارع للدين هو رب العالمين فلا يحرم عليهم إلاربهم ، فليس لأحد أن يقول عليه إنه حرم شيئا بغير علم من وحيه كما قال فى أصول المحرمات من سورة الاعراف المكية : (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) أى كذب الذين من قبلهم رسلهم كما يكذبك هؤلاء يا محمد (حتى ذاقوا بأسنا) أى عذابنا ، فلو كان راضيا عن عملهم لما عذبهم .

وأما الحجة العقلية فقوله لرسوله : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) إثباتا لزعمكم هذا فان القول فى صفات الله وأفعاله وأصول دينه وتشريعه لايصح إلا بعلم يقينى يثبته وما عندكم شىء من علم بهذا (إن تتبعون إلا الظن) أى ما تتبعون فيه إلا الظن فى فهم المشيئة واستلزامها للرضا وأمر التشريع . وقد حكى عنهم ذلك فى سورة الاعراف بقوله : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لايأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون) ثم أسقطهم من مرتبة الظن الى ما دونها فقال : (وإن أنتم إلا تخرصون) الخرص الحزر والتخمين كتقدير الثمر فى شجره وما يبلغه بعد الجفاف فهو لايستند الى دليل وأطلق على الكذب لأنه لا يكاد يكون مطابقا للواقع . ثم قال لرسوله ملقنا له حجته البالغة بعد إبطال حجتهم الداحضة : (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) أى لو شاء أن يهديكم كلكم بمحض قدرته من غير أن يكون لكم إرادة ولا كسب ولا اختيار فى إيمان ولا عمل لهداكم بخلقه إياكم مهتدين بالفطرة . ويراجع تحقيق هذه المسألة فى الجزء الثامن من تفسير المنار .

حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين . قل أغيرَ الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

فأين تقطع الفكرة واقتضاب المعانى ؟ أليست متسلسلة منتظمة آخذاً بعضها بعضد بعض تنتظمها وحدة الغرض ، واتحاد الموضوع ! ولكن ذلك يدق إلا على ذى الفهم والحجى .

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

لو أن أصحابنا هؤلاء يسألوننا ما خفى عليهم من علم ، لما بخلنا عليهم به ، ولبذلنا لهم من فضل الله علينا ، ولحميناهم من أن يكونوا ضحكة الضاحكين ، وسخرية الساخرين .

الحكمة فى خلو القسم المكى من التشريعات الجزئية

وعنايته باثبات العقائد الأصلية والتشريعات الكلية

وأما خلو القسم المكى من التشريع التفصيلى ووجوده فى المدنى ، فهذا أمر طبيعى ، لأن الإسلام لم يكن قد تقرر فى مكة ، وكان المشركون ينازعون فى أصله ، وهو التوحيد والنبوة والمعاد الخ ، فحق أن يكون الحجاج فى ذلك ، وكذلك كان . ولما كان بالمدينة وآمن به المدنيون ، وصاروا جماعة يقدرون أن يقيموا أحكامهم كأمة منظمة ، أتى بالقوانين والشرائع .

وهل كان يريد الناقد أن يفرض على كفار مكة أحكام المواريث [1] والزواج ، والطلاق وهم ينازعون فى أصل العقيدة وفى أنه رسول ، ولا يدينون له ؟

(١) (إن قيل) اننا نوافقكم على أن الكفار لايخاطبون بفروع الشريعة وإنما نقول لماذا لم تشرع هذه الأحكام للمؤمنين أنفسهم (قلنا) إن بعضها لم يكن موافقا لمصلحة المؤمنين كالمواريث لأن أكثر أقاربهم كانوا مشركين وأما الاصل العام فيها كلها فهو أن فائدة التشريع رهينة بالقدرة على التنفيذ وإنما يكونان بالسلطان والدولة .

أفليس الواجب يقضى أن يثبت أصل الإيمان أولاً ثم يثبت بعد ذلك فروعه ؛ وعبارة الناقد تفيد أن القسم المكى خلا خلوا تاما من التشريع التفصيلى .

(إثبات القصص والتاريخ فى القسم المكى)

وأما القصص والتاريخ فليسا خاصين بالقسم المدنى كما يرى الناقد ، بل هما يوجدان كثيرا جدا فى القسم المكى . هذه سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والكهف ، ومريم ، وطه ، ويوسف ، والشعراء ، مكية ؛ وهى مفعمة بالقصص والتاريخ ؛ بل إنى لأزعم أن ما يوجد من ذلك فى المكى أكثر منه فى المدنى . وهنا ينبغى أن أنبه القارىء أن الله ذكر ذلك للعظة والاعتبار .

تنبيـــه

نشر بصفحة ٧٢ من الجزء الأول للمجلد الرابع تصحيح لبعض ما سبقت ترجمته فى الأجزاء الماضية ، ووقع فى هذا التصحيح الاستشهاد سهوا بقوله تعالى : (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) على تسامح الاسلام مع أهل الديانات الأخرى . والحقيقة أن هذه الآية جاءت فى مقام التهديد والوعيد لا للتسامح المستشهد بها عليه .

Students of Al-Azhar University and the Religious Institutes.

The Al-Azhar University and the Religious Institutes are attended not only by Egyptians but also by a great number of foreigners who repair to Al-Azhar in view of the great renown it has attained throughout the Moslem world. Included in the number of students of Al-Azhar are many who hail from Syria, Tripoli, Tunis, Algeria, Morocco, Iraq, Turkey, Asia Minor, Caucasia, Hedjaz, Nejd, Kurdistan, Yemen, India, Sudan, Abyssinia, Somaliland, South Africa, Afghanistan, Java, Borneo, China, Yougoslavia, Russia, Poland, Albania, Bulgaria and America.

Students' Lodgings at Al-Azhar.

Students are accommodated in hostels adjoining Al-Azhar called Riwaks. Caliph Al-Aziz Billah son of Caliph Al-Moezz-Lidin Ellah was the first to provide lodgings for the students of Al-Azhar. Princes and other highly placed and rich people followed his instancs and contributed to the establishment of those lodgings for students. The number of these hostels has now reached 29 riwaks.

Library of Al-Azhar University.

Al-Azhar University has, at one time, owned a great collection of books distributed among the different Riwaks.

In 1897 a public library, "The Library of Al-Azhar", was established to house this great collection. It now contains 60,000 volumes of which 15,000 are manuscripts. Many valuable and rare books are included in this number

The Library is not only frequented by students but also by men of learning who find it of great utility to consult the numerous volumes on different matters.

In fulfilment of His Majesty's wish to organise the Al-Azhar Library, the Rectory of Al-Azhar has delegated certain competent officials who are experienced in library organisation in order to organise it on modern and up-to-date lines.

Each of the three Colleges of A-Azhar University has its own private library which is in charge of a competent librarian.

Some Riwaks still retain their own libraries for the use of their inmates.

Supreme Council of Al-Azhar.

The Supreme Council of Al-Azhar is constituted of the following members :—

(*a*) The Rector of Al-Azhar University.

(*b*) The Vice-Rector of Al-Azhar and the Religious Institutes.

(*c*) The Grand Mufti of Egypt.

(*d*) Head Sheikhs (Deans) of Colleges of Al-Azhar.

(*e*) The Under-Secretary of State to the Ministry of Justice.

(*f*) The Under-Secretary of State to the Ministry of Wakfs.

(*g*) The Under-Secretary of State to the Ministry of Education.

(*h*) The Under-Secretary of State to the Ministry of Finance.

(*i*) Two members of the body of Grand Ulema nominated by Royal Decree for two years.

(*j*) Two members whose appointment is deemed beneficial to education at Al-Azhar and the Religious Institutes, nominated by Royal Decree for two years.

The Religious Institutions affiliated to Al-Azhar University.

The denomination "Al-Jami-El-Azhar" (University of Al-Azhar) is assigned by Law No. 49 to the Colleges of higher education and Sections of of Specialisation.

The "Religious Institutes" is the designation given to Islamic religious institutions where students are instructed in religion and Arabic Language with view to qualifying for admission to Al-Azhar University.

Education in those institutions is either primary only or both primary and secondary as shown below ;

(*a*)	The	Institution	of Al-Azhar at	Cairo	(Prim.	& Secondary)
(*b*)	»	»	of	Alexandria	»	»
(*c*)	»	»	»	Tanta	»	»
(*d*)	»	»	»	Zagazig	»	»
(*e*)	»	»	»	Asiut	»	»
(*f*)	»	»	»	Dessouk	(Primary)	
(*g*)	»	»	»	Damietta	»	

Certificates.

The certificates granted to successful candidates in the final examinations are :—

A. — The Primary Certificate. It is granted on the completion of the course of study in the Primary Section. Students are qualified thereby to enrol in the Secondary Section Part I.

B. — The Secondary Cartificate part I. It is granted on the completion of the course of study in the Primary Section. Students are qualified thereby to enrol in the Secondary Section Part II.

C. — The Secondary Cartificate Part II. It is granted on the completion of the fourth and fifth years of the course of study in the Secondary Section. Students are qualified thereby to enrol in one of the Colleges.

D. — The Higher Cartificate. It is granted on the completion of the course of study in one of the Colleges of the Higher Section. Candidates obtaining this certificate are eligible for appointment to the clerical posts in Al-Azhar University the Religious Institutes, Mohammedan Law Courts, Majlis Hasbis (Tutelage Courts), Ministry of Wakfs (Pious Foundations), or as teachers in mosques, preachers, imams and religious notaries (Maazouns) in charge of marriage and divorce certificates.

E. — Alimieh Certificate. It is granted on the completion of the specialisation courses in Teaching, Mohammedan Law and Theology. Candidates obtaining the Teaching Certificate are eligible for appointment as teachers in the Religious Institutes and Government Schools. Candidates obtaining the Mohammedan Law Certificate are eligible for appointment as judges, jurisconsults and lawyers in Mohammedan Law Courts and Majlis Hasbis. Candidates obtaining the Theological Certificate are eligible for appointment as preachers.

F. — Alimieh Certificate with title of Ostaz (Master). It is granted to those specialising in one of the subject matters. Candidates obtaining this certificate are eligible for appointment as teachers in the Colleges and Specialisation Sections.

Administration of Al-Azhar.

The Rector of Al-Azhar University is the chief general executant who enforces all laws and regulations pertaining to Al-Azhar and the Religious Institutes. General control of the administration of Al-Azhar is vested in the Supreme Council of Al-Azhar presided over by the Rector in whose absence the Vice-Rector presides.

(*b*) The Secondary Section of five years duration and comprising the following subjects of study: Mohammedan Law, Exegesis, Traditions of the Prophet, Monotheistic Divinity, Recitation of the Holy Koran, Grammar, Morphology, Rhetoric, Prosody and Rhyme, Reading and selections of prose and poetry, Composition, Arabic Literature, Mathematics (Arithmetic, Algebra and Geometry), Science (Physics, Chemistry and Natural History), Logic, History, Geography, Ethics and Civics.

(*c*) The Higher Section of four years duration is divided into three Colleges :—

(i) The College of Arabic Language comprising the following subjects of study :—

Grammar, Etymology, Morphology, Logic, Rhetoric, Arabic Literature and History, History of the Arabs before Islam, History of Moslem Countries, Exegesis, Traditions of the Prophet, Principles of Mohammedan Law, Composition and Philology.

(ii) The College of Mohammedan Law comprising the following subjects of study :—

Exegesis, Traditions of the Prophet inclusive of the study of Texts, authors and terminology (Matn, Rigal and Moustalah), Principles of Mohammedan Law, History of Islamic Jurisprudence, Mohammedan Law and the comparative study of rites in regard to fundamental questions and the raison d'être of the Law (Hikmet-el-Tashrie), Arabic Literature, Rhetoric and logic.

(iii) The College of Principles of Religion comprising the following subjects of study : —

Monotheistic Divinity and the elaboration of a polemical system in refutation of current doubts and heresies, Logic and Debate, Philosophy and the criticism of anti-religious conceptions, Ethics, Exegesis, Traditions of the Prophet, Arabic Literature and History, History of Islam, Psychology and Rhetoric.

(*d*) Specialisation Section.

Specialisation is of two kinds ; specialisation in the profession and specialisation in the subject matter. The object of the former is to train Ulema to be preachers and imams, judges and lawyers in Mohammedan Law Courts and teachers in Government schools and Religious institutions ; while the object of the latter is to train Ulema to be teachers in the Colleges and Specialisation Sections.

There are moreover, Irregular Sections to which students who did not satisfy the conditions of admission to the regular sections, as well as members of the public are admitted in order to pursue a more extensive study of Arabic and Religious subjects.

The subjects prescribed for the examination by that law were :—

The Mohammedan Law (Fikh), Principles of Mohammedan Law (Ossoul), Monotheistic Divinity (Tawhid), Traditions of the Prophet (Hadith), Exegesis (Tafsir), Grammar (Nahw), Morphology (Sarf), Rhetoric (Maani, Bayan and Badie) and Logic. Other sciences as Arithmetic, Algebra, Geometry and Astronomy continued however, to be studied at Al-Azhar.

Several laws and regulations were adopted until the promulgation of Law No. 10 of 1911.

This law is considered one of the most important laws of Al-Azhar in so far as it divided the study into stages, prescribed certain subjects and regulations to each stage and introduced new subjects into the curriculum. The competence of the Rector was specified and a council presided over by him was instituted to supervise the affairs of Al-Azhar.

A body of Grand Ulema was also created with a régime of its own, and a Sheikh was to be nominated for each of the four Rites recognised at Al-Azhar. The law provided also for an administrative council for each of the Religious Institutes.

Al-Azhar continued to be administered in accordance with that law which received fresh modifications in the reign of His Majesty King Fouad I, the most important of which being the institution of a Section of Specialisation.

His Majesty has later graciously ordered the revision of laws and regulations of Al-Azhar with a view to introducing a new régime which will provide the students with a greater share of general culture without being incompatible with the religious and Arabic character of Al-Azhar. Also to fit them for the maintenance of Mohammedan Law and its principles and the propagation of the Arabic Language for the benefit of the people.

The proposed régime also aimed at qualifying the students for the teaching posts in the Religious Institutes and Government Schools as well as for the State religious posts.

His Majesty's orders were duly carried into effect by the promulgation of the Law No. 49 of 1930.

Law No. 49 of 1930.

This law has classified education at Al-Azhar into four stages :—

(*a*) The primary Section of four years duration and comprising the following subjects of study : Mohammedan Law, Ethics, Psalmody, Recitation of the Holy Koran, Monotheistic Divinity, Life of the Prophet, Reading and Selections of prose and poetry, Composition, Grammar, Morphology, Dictation, Calligraphy, History, Geography, Arithmetic, Practical Geometry, Elements of Science, Hygiene and drawing.

As theology was the principal subject of study at Al-Azhar, it was started on exactly the same lines as were followed in the study of religion and religious sciences by the ulema of old. Lectures were given in circles, the professor was to occupy a middle place among his students and may sometimes take a high seat so that he may be audibly heard by his many hearers.

The system of education at the time was that of dictation, the professor having to dictate to the students whatever subject he may choose.

This system was followed for a time until the writing and compilation of books were widely undertaken and the means for publishing them were comparatively facilitated. The students then began the study of those books and the elucidation of their authors' intentions. Some of those books were compiled from detailed treatises which required no commentaries. Others were in the form of brief synopses comprising a summarised account of the subject treated. These latter ones necessarily required commentaries to which annotations were sometimes appended.

Discussions and arguments between students and professors formed the main method of education and contributed to the mental enlightment of the students.

This was continued for a long time until new laws and regulations were promulgated bringing this system more into conformity with the modern ideals of education, without in any way, affecting the characteriste stamp of the teachings and traditions of Al-Azhar.

Laws of Al-Azhar.

As already pointed out there was no specific law governing the study at Al-Azhar University. But as the number of students increased and the subjects of study became diversified, the need was felt for the promulgation of laws to regulate the study at Al-Azhar.

The first law of Al-Azhar was introduced by the Late Rector Sheikh Mohammad Al-Abassi Al-Mahdi and was promulgated by Khedivial Decree on the 23rd. of Zilkâde 1288 of the Hejira (3rd. of February 1872 A.D.) in the reign of the Khedive Ismail Pacha.

The most important feature of this law was the institution of the Alimieh Certificate to be granted to candidates passing the requisite examination before a committee of Ulema nominated by the Rector. The successful candidates being awarded first, second or third class according to their order of merit and the certificate issued by High edict duly signed by the Sovereign.

When Al-Azhar was built in the year 359 of the Hijra (970 A.D.), and was completed in the year 361 of the Hijra (972 A.D.), this religious movement passed to it where it grew into a veritable source of Islamic culture and learning. Many imams and ulema of the time pursued their studies at Al-Azhar and contributed to the cause of Islam and the Moslems by widely undertaking the writing of books and teaching so that Al-Azhar was truly rendered the pride of the Moslem World at large and Egypt in particular.

This great University has exhaustively treated the religious sciences and opened up its resources to all and sundry. Nor was the Arabic language neglected. Great attention was paid to the study and elucidation of its hidden treasures.

Al-Azhar continued throughout the centuries to accomplish its mission of education until it gained such wide-world fame that students and ulema from all quarters of the world repaired thereto in quest of knowledge in order to benefit thereby and share in the pride of spreading its culture throughout the world.

Since its foundation, Al-Azhar had unremittingly enjoyed the patronage and favour of the Fatimite Caliphs who gave generous endowments and donations to its ulema and students. They used to visit it in person, to join in the prayers and to acquaint themselves with its conditions, a fact which had a great effect to spur the ardour of ulema and students equally to devote themselves to learning to the exclusion of everything else.

Old System of Education.

The system which was followed by Al-Azhar since it had become a university was an almost natural and easy one. Piety and reverence for the Faith and men of religion constituted its basis. The Sheikh (Rector) of Al-Azhar was the highest authority to whom students and ulema appeal. His word was law and his decision final in whatever differences that may arise. The distribution of endowments and donations and the approval of ulema and teachers were entrusted to him ; and when confronted with an ambiguous question, he sought the advice of the great ulema.

The students were admitted to Al-Azhar voluntarily and unconditionally. Personal inclination and aptitude of the student himself constitued the basis of study. It was left to him to choose his own subject as well as his own professor and remain at Al-Azhar as long as he liked until he deems himself competent enough to lecture to others with effect. After having secured the permission of his professors, he lectures to a circle of students and colleagues and should he fail to impress them, they would cease to attend his lectures, but should they find his arguments to carry conviction, they would continue to attend his lectures and the Rector of Al-Azhar would then approve him as a teacher.

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

MOSLEM EDUCATION IN EGYPT.

When Amrou Ibn Al-Ass conquered Egypt and built his famous Mosque at Cairo in the year 21 of the Hijra, some of the Prophet's companions and disciples took it up as a religious centre for the propagation of the True Faith and its teachings.

Thus instituted, this religious movement began to flourish and gain renown that it attracted many distinguished men of learning and great imams with the result that the Moslem World was greatly benefited by the valuable and vast heritage of works which they left behind. Famous among these men, were Abdullah Ibn Amrou Ibn-Al-Ass, Abdullah Ibn Leheia and Al-Laith Ibn Saad.

Imam Mohammad Ibn Idris Al-Shafie took up a place in the Mosque where he taught his doctrine and many learned Ulema were tutored by him. They were instrumental in recording his opinions and spreading his teachings. His large following included such men as Al-Rabieh Ibn Solaiman, Al-Mouzany, Al-Boweity and many others.

Teaching continued in full swing for a long time in the old mosque of Amrou and Ahmed Ibn Tuloun's mosque followed later in the same steps.

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

نُورُ الإِسْلَامِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الثالث	ربيع الأول سنة ١٣٥٢	المجلد الرابع

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف (سابقا
ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى)

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

		قرش
داخل القطر المصرى		٤٠
خارج القطر المصرى		٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب	داخل القطر	٢٠
	خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الانصاف الادبى

لا أريد أن أبحث تحت هذا العنوان عن الإنصاف الذى يفسر بالعدل ، ويوصف به من ينتصب للحكم بين المتخاصمين ، فقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا الموضوع فى مقال « القضاء العادل فى الاسلام » . كما أنى لا أريد البحث عن الإنصاف الذى هو خلق يحمل صاحبه على أن يعطى الحقوق المادية من نفسه ، كأن يعرف الرجل أن هذا المال أو المتاع حق لفلان ، فيكفّ يده أو يرفعها عنه ، من تلقاء نفسه ، لا يخشى سطوة حاكم أو لومة لائم ، فالحديث عن الإنصاف الذى هو تبرئة الذمة من الحقوق المادية مقام غير هذا المقام ؛ وإنما الغرض البحث عن ضرب خاص من ضروب الإنصاف ، وهو أن يقول الرجل صوابا ، فتعترف بأنه محق ، أو يحرز خصلة حمد فتقرّبها ولا تنازع من يصفه بها ؛ ولا أجد مانعا من أن أسمى هذا النوع من الإنصاف « الإنصافَ الأدبى » ويقابله من الأخلاق المذمومة « العناد » وهو جحود الحق وردُّه مع العلم بأنه حق .

والإنصاف الأدبى من الخصال التى لا ترسخ إلا فى نفس نبتت فى بيئة صالحة ، وارتضعت من ثدى التربية الصحيحة لبنا خالصا ؛ والجماعة التى تفقد هذا الخلق تفقد جانبا عظيما من أسباب السعادة ، ويدخلها الوهن بعد الوهن ، حتى تتفرق أيدى سبأ . وعليك الإنصات وعلينا البيان :

بين الأخلاق روابط ، وكثيرا ما يكون بعضها وليد بعض ، كالعدل قد يكون وليد القناعة ، وكالشجاعة قد تكون وليدة عزة النفس ، وكالجبن قد يكون وليد الطمع ؛ وكذلك خلق العناد وعدم الإذعان للحق قد يكون وليد الحسد ، وقد ينشأ عن طبيعة الغلو فى حب الذات ؛ وللغلو فى حب الذات فرعان : حب الانفراد بالفخر ، وإيثار النفس على كل شىء حتى الحق ، فالحاسد أو الحريص على حب الانفراد بالفخر هو الذى يسمع الرجل يقول صوابا ، فيقول له : أخطأت ، أو يسمع الثناء عليه ببعض ما أحرز من خصال ، فيقول للمثنى عليه : كذبت ؛ وإيثار النفس على الحق هو الذى يحمل الرجل على التعصب لرأيه والدفاع عنه وهو يعلم أنه فى خطأ مبين .

فمن أراد أن يطبع ناشئا على خلق الإنصاف نقّب على عاتق الحسد والغلو فى حب الذات ، فإن وجد لهما فى نفس الناشئ أثراً ، راوضه بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يتهيأ الناشىء لأن يكون على هذا الخلق العظيم ، أعنى خلق الإنصاف .

وإذا كان منشأ الحسد فلة ملاحظة أن النعمة تصل الى صاحبها من علام الغيوب ، وهو لا يرسلها إلا لحكمة ، فان من وسائل علاج هذا الداء تلقين الناشئ أن النعم مادية أو أدبية إنما ينالها الناس بمشيئة العليم الحكيم ؛ وإذا كان منشأ الحرص على الانفراد بالفخر هو الغلو فى حب الذات ، كان على المربى تهذيب عاطفة حب الذات فى نفس الناشئ حتى تكون عاطفة معتدلة : تجلب له الخير ، وتأبى له أن ينال غيره بمكروه .

وإذا شُفى الناشىء من مرض الحسد ، وخلص من لوثة الغلو فى حب الذات ، لم يبق بينه وبين فضيلة الإنصاف إلا أن تعرض عليه شيئا من آثارها الطيبة ، وتُذكّره بما يدرك المتجردين منها أو المستخفين بها من خسار وهوان .

وقلة الإنصاف تبعد ما بين الأقارب أو الأصدقاء ؛ وكم من تجاف نشأ بين أخوين أو صديقين ، وإنما نشأ من جحود أحدهما بعض ما يتحلى به الآخر من فضل ،

أو من ردّه عليه رأيا أو رواية وهو يعلم أنه مصيب فيما رأى أو صادق فيما روى ، قال الحكيم العربى :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة　　بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

ومتى شعر الرجل من آخر بإنكار شىء من فضله ، أو بتعسفه فى معارضة رأيه ، رآه غير موضع للصحبة والمعاشرة ؛ وربما وقع فى ظنه أن الراحة فى عدم لقائه .

قلة الإنصاف تجرّ الى التقاطع ، والإنصاف يدعو الى الألفة ، ويؤكد صلة الصداقة ؛ فاذا كنت فى مجلس ، فقرر الرجل رأيا واضح الحجة ، فغلبك ما فى نفسك وحاولت أن تصوره للناس خطأ ، فقد ألقيت بينك وبينه عداوة ، فإن خضعت لحجته وأعربت له عن استحسان رأيه ، فقد مددت بينك وبينه سببا من أسباب الألفة ، إذ يشعر من إنصافك أنك لا تحمل له ضغنا ، ولا تكره له أن ينال حمدا ، فإن سبق هذا الإنصاف خصومة ، شعر بأنك خصم شريف ، فيسعى لأن تنقلب الخصومة سلما ، ويتبدل التقاطع ولاء .

وقلة الإنصاف تسقط احترامك من العيون ، فان من يراك تهاجم الآراء المؤيدة بالحجة ، قد يحمل هذا الهجوم على قصر نظرك وعجزك عن تمييز الباطل من الحق ، فان حمله على أنك تهاجمها كراهة أن تكسب صاحبها حمدا ، وقع فى نفسه أنك تتمنى لغيرك زوال النعمة ، أو أنك حريص على الانفراد بخصال الحمد ، فإن ذهب فى تأويل إبايتك لقبول الحق الى أنك تموّه على الناس حتى لا ينسبوا اليك نقيصة الخطأ ، علم ما لم يكن يعلم من إيثارك النفس على الحق ؛ ولا احترام لمن لا يدرك الآراء المؤيدة بالحجة ، أو من يتألم من أن يرى غيره فى نعمة ، أو من يعمل للانفراد بالحمد من طريق التعسف والعناد ، أو من يدافع عن نفسه نقص الخطأ بمحاولة قتل الحق .

فلة الإنصاف تسقط احترامك من القلوب ؛ والإنصاف يزيد احترامك في القلوب مكانة ، ذلك لأن إنصافك للرجال يدل على صفاء سريرتك ونقائها من أن تكون قد حملت شيئا من دنس الحسد ، أو حام بها الغلو في حب الذات .

نقرأ في كتب الأدب أن منذر بن سعيد البلوطي دخل مصر ، وحضر مجلس أبي جعفر النحاس وهو يملي أخبار الشعراء ، فأنشد أبو جعفر أبيات مجنون ليلى هكذا :

خليلي هل بالشام عين حزينة تُبَكِّي على نجد لعلي أعينها

قد اسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدنّيها من الأرض لينها

فأراد منذر أن ينبهه على أن قراءة «باتت وبات» من عجز البيت الثاني بالتاء المثناة خطأ ، فقال : يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ فقال أبو جعفر : كيف تقول أنت يا أندلسي ؟ قال منذر : « بانت وبان قرينها »

كيف يكون مقام أبي جعفر في نفسك لو قص عليك التاريخ أنه تلقى تصحيح منذر بن سعيد بالارتياح ، وقال له : أنا أخطأتُ وأنت أصبتَ . لا شك أنك تحمل له من الاحترام فوق ما كنت تحمل ، ولكن منذر بن سعيد يقول : إن ابن النحاس سكت وما زال يستثقلني ، ثم عاد بعد حين الى ما كنت أعرفه منه ، يعني من الإقبال والحفاوة .

وقلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علما ، فمن لم تنصفه من أهل العلم ، وجد في نفسه مثبطا عن أن يسرع الى إفادتك ، أو يفيض القول في مذاكرتك ، فيفوتك حظ من العلم لولا عدم إنصافك لازددت به قوة في الفهم وسعة في العلم ؛ وقد يكون من أثر جحودك لفضل الرجل أن تقل رغبتك في ملاقاته والتزود من آرائه أو رواياته ؛ وكم وصل الرجل بإنصافه الى علم وأدب جم ، قال أبو إسحاق الزجاج : لما قدم المبرد بغداد أتيته لأناظره ، وكنت أقرأ على أبي العباس ثعلب ، وأميل الى قول

الكوفيين ، فعزمت على إعنات المبرد ، فلما فاتحنى ألجمنى بالحجة ، وطالبنى بالعلة، وألزمنى إلزامات لم أهتد اليها ، فتبينت فضله ، واسترجحت عقله ، وجددت فى ملازمته .

فلو كان أبو اسحاق من أولئك الذين يجمح بهم التعصب للأشياع أو المذهب حتى ينبذوا الإنصاف ناحية ، لما اعترف بفضل المبرد وقد فاتحه بالمناظرة عازما على إعناته ، ولفاته العلم الذى غنمه بالجد فى ملازمته .

وقلة الإنصاف تُحدث فى العلم فسادا كبيرا ، ذلك لأن من لا يقدر الإنصاف قدره ، قد يرى بعض الآراء العلمية الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح هو لأن تكون قد صدرت منه ، فيقابلها بالرد والإنكار ؛ وقد تكون له براعة بيان ، فيصرفها فى تشويه وجه الحق وهو يعلم أنه حق ، فيظهر الجهل على العلم ولو فى فئة قليلة أو دائرة صغيرة .

قلة الإنصاف تخذل العلم ، وتطمس شيئا من معالمه ؛ والإنصاف يؤيد العلم ، ويجعل موارده صافية سائغة ؛ ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين عن الحقائق لقلّت مسائل الخلاف فى كل علم ، فيكون حفظ العلوم أيسر ، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر .

نقرأ فى تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام أن ابن الصباغ اعترض عليه فى أربع عشرة مسئلة ، فلم يدافع عن واحدة منها ، بل أقر بالخطأ فى جميعها .

ومن النواحى التى غفل فيها بعض الناس عن فضيلة الإنصاف ، فكانت منبت فساد غير قليل ، ناحية التعصب للمذهب تعصُّبَ من لا يسمع ولا يرى ؛ ولصاحب المذهب أو المقتدِى به أن يبسط القول فى تقرير أصوله وإيراد حججه ، وله أن يناقش أقوال مخالفيه وأدلتهم ، فيردها ، ويصفها بالخطأ إذا شاء ، ومن الإنصاف أن يناقشها استبانة للحق ، ولا يصفها بالخطأ إلا بعد أن تأذن له الحجة فى وصفها ؛ والعالم الذى

يطول نظره فى أقوال الأئمة ، يشهدهم كيف يرمون الى غرض واحد هو الحكم المطابق للحق ، فيمتلئ قلبه باحترامهم ، ويقف فى حدود الإنصاف عند درسه لمسألة من المسائل التى جرى فيها اختلافهم ، قال الامام الشافعى : الظرف فى الوقوف عند الحق كما وقف .

لا يصعب على النفوس التى فيها بقية من خير أن تنصف الرجل يبتكر رأيا ، أو ينهض لعمل ، فتعترف لرأيه بالإصابة ، أو لعمله بالإجادة ، والإنصاف الذى قد تجمح عنه نفسك كثيرا أو قليلا ، أن تقول قولا تظنه صوابا ، أو تعمل عملا تحسبه حسنا ، فينقده آخر بميزان العلم الصحيح ، ويريك أنك قد قلت خطأ ، أو عملت سيئا ، ففى مثل هذا المقام قد تجد فى نفسك كراهة للاعتراف بالخطأ فى القول أو الإساءة فى العمل ؛ فإن كنت على ذكر من فضيلة الإنصاف وما تؤتيه من ثمار طيبة ، لم تلبث أن تكظم هذه الكراهة ، ولا تجد فى نفسك حرجا من أن تقول للناس : إنى قد أخطأت فى قولى ، أو أسأت فى عملى . وتاريخ علماء الاسلام مملوء بقصص الذين رجعوا عن آرائهم بعد محاورات أو مناظرات ظهر لهم منها أن الحق فى جانب من دارت بينهم وبينه المحاورة أو المناظرة . ومما يروى فى هذا الصدد أن مناظرة جرت بين الامامين : مالك بن أنس ، وأبى يوسف صاحب الامام أبى حنيفة فى مقدار الصاع الذى تؤدى به زكاة الفطر ، فقال مالك : هو خمسة أرطال وثلث ، وكان أبو يوسف يذهب الى أنها ثمانية أرطال ، فاحتج عليه مالك بالصيعان الموجودة لذلك العهد عند أبناء المهاجرين والانصار بالمدينة ، فرجع الامام أبو يوسف الى ما قاله الامام مالك .

لا يصعب على الرجل أن ينصف قريبا أو صديقا ، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لا تربطه به قرابة أو صداقة ، ولا تبعده منه عداوة ؛ والإنصاف الذى قد يحتاج فيه الى مراوضة النفس كثيرا أو قليلا ، أن يبدى بعض أعدائه رأيا سديدا ، أو يناقشه فى رأى مناقشة صائبة ، فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف ، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد .

ومن الإنصاف الذى يدل على الرسوخ فى الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه فينسب اليه ما يعرفه له من فضل ، أُنشِد فى مجلس الامام على بن أبى طالب قول الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هـو استغنى ويبعده الفقر
كأن الثريا علقت بجبينه وفى خده الشِّعرى وفى الآخر البدر

فلما سمعها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : هذا طلحة بن عبيد الله ، وكان السيف ليلتئذ مجردا بينهما .

يسهل على الرجل أن ينصف من هو أكبر سنا منه ، أكثر مما يسهل عليه أن أن ينصف قرينه ، ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسد ، وحسد الانسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه فى السن . ويسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سنا منه ، إذ يسبق الى ظنه أن ظهور مزية لمن هـو أحدث عهدا منه ، قد تفضى الى أن يكون ذكره أرفع ؛ وفضل القرين على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم ؛ وشيوع الشيء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعا منه .

فينبغى للانسان أن يتيقظ للأحوال التى قد تتقوى فيها داعية العناد ، ويُعدّ للوقوف عند حدود الإنصاف ومقاومة تلك الداعية ما استطاع من قوة .

ويقص علينا التاريخ أن فى الأساتذة من يحرص على أن يرتقى تلاميذه فى العلم الى الذروة ، ولا يجـد فى نفسه حرجا من أن يظهر عليه أحدهم فى بحث أو محاورة . يذكرون أن العلامة أبا عبد الله الشريف التلمسانى كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه ، ويبرزه فى أحسن صـورة ؛ ويروى أن أبا عبد الله هـذا كان قد تجاذب

مع أستاذه أبى زيد بن الامام الـكلام فى مسألة ، وطال البحث اعتراضا وجوابا حتى ظهر أبو عبد الله على أستاذه أبى زيد ، فاعترف له الأستاذ بالإصابة ، وأنشد مُداعبا :

أعلّمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

ومَن نظر بروية الى أن فضل العلم من جهة أنه وسيلة الى إصلاح العمل وإسعاد البشر ، وكان مع هذا النظر ناصحا لأمته ، وقف عند حد الإنصاف ، ولم ينحرف عنه إجابة لداعى الحـد ، أو انسياقا مع حب العلو فى الأرض ولو بغير حق .

أخذ رجال بأدب الاسلام فرسخوا فى فضيلة الإنصاف على قدر صفاء سرائرهم واحترامهم لأصول الدين وأحكامه ؛ وقـد مثّل الصحابة رضى الله عنهم الإنصاف فى أكمل صورة ؛ بدا لعمر بن الخطاب مرة أن يضع للمهور حـدا ، فخطب قائلا : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال » فقامت امرأة من صف النساء ، فقالت : ما ذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت : لأن الله عز وجل يقول : (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً) فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » ولو كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أولئك الذين يألمون من أن ينسب إليهم نقص أكثر من ألمهم لتحريف آية عن موضعها ، أو استبدال خاطر بشرى بحكم إلاهى ، لما عدم وجها من أمثال تلك الوجوه التى يصورها المخادعون أو ضعفاء الايمان تعصبا لآرائهم المخالفة للقرآن .

اختلف ابن عباس وزيد بن حارثة رضى الله عنهما فى مسألة من باب الحيض ، فقرر ابن عباس حكما ، وخالفه زيد فرأى فيها رأيا آخر ، فقال له ابن عباس : سَل نُسيَّاتك : أمَّ سليمان وصويحباتها ، فذهب زيد فسألهن ، ثم جاء وهو يضحك فقال لابن عباس : القولُ ما قلتَ . وموضع العبرة من هذه القصة أن زيدا تمسك برأيه فى مخالفة ابن عباس

حتى استبان له أن الحق مع ابن عباس ، فلم يجد فى نفسه حرجا من أن يرجع اليه ضاحكا ، ويقول له : القول ما قلت .

ويروى أن الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه تكلم فى مسألة ، فقال له أحد الحاضرين : ليس الأمر كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكنه كذا وكذا ، فقال على : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى علم عليم . وعشاق الأخلاق الكريمة يُجلّون الامام عليًّا لهذا الإنصاف إجلالهم له عندما يفتى فيصيب الحق ، أو يعظ فينطق بالحكمة .

وقد اقتدى بالصحابة فى هذا الخلق الكريم من جاء بعدهم من كبار العلماء ، وهذا الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول : « ما ناظرت أحدا على الغلبة ، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه » .

والراسخون فى فضيلة الإنصاف لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده ، أو بمحضر جمع كبير لم يشعروا بالخلاف ، ولا بخطأ المخطئ أو إصابة المصيب . وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن رجال من علماء الاسلام بلغوا هذه الغاية من الإنصاف ، قال عبد الرحمن بن مهدى : ذاكرت القاضى عبيد الله بن الحسين فى حديث وهو يومئذ قاض ، فخالفنى فيه ، فدخلت عليه بعدُ وعنده الناس سماطين[1] ، فقال لى : ذلك الحديثُ كما قلت أنتَ ، وأرجعُ أنا صاغرا . فعبيد الله بن الحسين قد أحسن الى نفسه إذ أخذها بفضيلة الإنصاف ، وأحسن الى الناس إذ علّمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطأوا ، ولا يتلبثون فى الرجوع الى الحق ولو عظمت مناصبهم وعلت أقدارهم .

العناد قبيح ، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأى الذى تحاول رده على صاحبه ، فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح ؛ والإنصاف جميل ، ويكون جماله أوضح وأجلى حيث يكون فى حجة الرأى الصائب شىء من الخفاء ، وحيث يمكنك أن تتحيز لرأيك وتهيئ كثيرا من الأذهان لقبوله .

---

(١) سماط القوم صفهم ، يقال قام القوم حوله سماطين أى صفين .

وقد ينقل التاريخ شذرات من حوادث المنصفين لمن خالفهم فى أمر ، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة ، فتهتز فى نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ أو اعترف لخصمه بخصلة حمد ، وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه فى الرأى فأصاب ، وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة ؛ وسبب هذا الإكبار عظمةُ خصلة الإنصاف ، وعزةُ من يأخذ نفسه بها فى كل حال ؛ قال ابن وهب : سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شىء أقل من الإنصاف .

وإذا لم ينصفك الرجل ، فرد عليك الحق بالشمال واليمين ، أو جحد جانبا من فضلك وهو يراه رأى العين ، فلا تكن قلة إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد ، فترد عليه حقا ، أو تجحد له فضلا ؛ واحترس من أن تسرى لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت ، فيلج فى نفسك ، وينشط له لسانك أو قلمك وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم . كلا ، لا يحارب الرجل خصومه المبطلين بمثل الاعتصام بالفضيلة ، ولا سيما فضيلة كفضيلة الإنصاف تدل على نفس مطمئنة ونظر فى العواقب بعيد . ومن وجد فى خصمه فضائل ، حصر محاربته فى الأمر الذى هو منشأ الخصومة ، وترك تلك الفضائل قارة فى مكانها ، بادية لمن أراد أن يقتدى بها .

وإذا كان الإنصاف فضيلة ترتفع بها أقدار الرجال ، وتتسع بها دوائر العلوم ، وتصفو بها موارد الآداب ، ويشتد بها حبل الاتحاد ، وينتظم بها شأن الاجتماع ، كان من واجب أولياء الأطفال وأساتذة الأخلاق ودعاة الإصلاح أن يجعلوا له من تربيتهم وتعليمهم ودعوتهم نصيبا يكفى لأن نرى أنديتنا ومؤلفاتنا وصحفنا نقية من إنكار الحق ، بريئة من جحود الفضل .

محمد الخضر حسين



سورة النور

١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَارِ. يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ) .

لقد وصف لنا جل شأنه نور الله فى تلألئه وصفائه ، وكيف يشرق على قلوب المؤمنين فيقبلون على طاعته ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره، وكيف تغلق دونه قلوب طمس عليها فغرقت فى ظلمات متراكة ، وشملتها العماية حتى لا ترى شيئاً ما مهما كان منها قريبا ، فكان جديرا أن يردف ذلك بالثمرة المقصودة من تجلى النور على القلوب ، لتقارن بحال من حرم منه ، فتبتهج النفوس بالنعمة ، وتسارع الى التقاطها، وتحمد الله على التوفيق

بها ، وتزداد بها تمسكا . وساق ذلك على وجه يبرزه فى صورة المحسوس المرئى إيذانا بوضوحه أمام عين البصيرة كما تتضح المرئيات أمام العين الباصرة ، فقال جل شأنه: «ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض » . وأصل الرؤية الإبصار بالعين ، وتستعمل كثيرا فى العلم بالبصيرة وهو المراد هنا ، أى ألم تعلم . والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد ما يعمه ويعم أمته ؛ أو الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية . والاستفهام هنا للتقرير ، ويستعمل فى الإخبار بالشىء الذى بلغ من الوضوح حالة يستغنى عن الإخبار به ، بل يكفى تنبيه المخاطب اليه فيقرّبه من نفسه ، كقوله تعالى : (ألم يجدك يتيما فآوى) لأنه عليه السلام كان يعلم ذلك من نفسه . وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له الخ » فيه دلالة على وضوح ذلك الأمر الى حد أنه يرى ويعلم علما واضحا ، ودلالة على أن هذا الوضوح وهذا العلم أمر يجده كل ذى قلب أشرق عليه النور الالهى ، وانتفع بالمواهب التى أنعم الله بها عليه من عقل يميز وآيات بينة . والتسبيح : التنزيه عما لا يليق .

والمعنى أنها تعترف بتنزيهه وتقديسه ، وتشهد بذلك بلسان حالها وبما أودع فيها من آيات الإبداع الدالة على كمال منشئها وعظيم قدرته وواسع علمه وباهر حكمته ، فإنك إذا تأملت فى هذه الأنواع المتباينة وما أودع فى خلقة كل منها مما يحتاج اليه فى حياته وجدتها جميعها ناطقة بأفصح بيان بتنزيه مبدعها ، شاهدة بأصدق لسان بتمجيده وتقديسه .

انظر الى الحيوانات الصغيرة الضعيفة وما ركب فيها من قوى تعينها على تحصيل رزقها والدفاع عن أنفسها ، تجد العجب العجاب . انظر الى النحل وما ألهمت ، والى النمل وما منحت ، والى الوحوش وما أعطيت ، والى البهائم وما ركب فيها من قوى ، تجد ما لا يقف عند حد من دلائل القدرة وآثار الحكمة . انظر الى الانسان وكيف خلق ، وتأمل فى أى ناحية من نواحيه شئت ، وفى أى عضو من أعضائه أو أى جهاز من أجهزة بدنه ، وأطل البحث والتأمل ، فإنك كلما ازددت نظرا أو تأملا ازددت علما ويقينا بهذا المعنى . إنك إذا تأملت فى الجهاز التنفسى للحيوان ، أو الدورة الدموية وما تغذى به

الأعضاء آنا فآنا ، أو للعصب وما يوصل ، أو لأعصاب الحركة وكيف طاعتها ، أو الغدد المفرزة وثمراتها ، فإنك سيتجلى لك فى كل خطوة تخطوها نور تشهده يُنطق لسانك بالتسبيح والتمجيد ، فكل من فى السموات والأرض ، وكل ما فى السموات والأرض وما بينهما من الطير صافات فى الفضاء ناطقة بأجلى بيان ، شاهدة بتسبيح الملك الديان ، جل شأنه ولا إله غيره . أمر بيّن ، ولسان فصيح ، يجده كل من فتح عين بصيرته ونظر الى عجيب صنع الله .

فنى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

من هذا ترى الكلام قد انتقل بألطف أسلوب وأرق مسلك الى تقرير أدلة الربوبية ، ولفت النظر الى آيات العظمة الإلهية والحكمة الصمدانية ، وجعل ذلك نتيجة لازمة وثمرة مترتبة على ما سبق من تفصيل أحوال العالمين ، الى مستنير مبصر ، والى أعمى حائر فى بحر من الظلمات . وكأن سوق الأدلة على هذا الوجه ، ليفيد أنها مع كونها من الوضوح بهذه المثابة فقد عمى عنها فريق ، فهل عماهم عنها إلا لانطماس أبصارهم وبصائرهم ، ولا نغماسهم فى الظلمات فهم فيها يعمهون !

وترى بهذا أن التسبيح معناه الشهادة بلسان حالها بتنزيه مبدعها . وبعضهم يرى أن التسبيح لا يبعد أن يكون باللسان ، ويقول : لا يبعد أن يخلق الله لكل ما فى الأرض من حيوان وللطير ألسنة توحد صانعها وتسبح له بلغة تفهمها وإن لم نفهمها عنها . ولكن الآية فى غنى عن هذا ، كيف ولسان الحال أفصح من لسان المقال . ولفظ « من » وإن اختص بالعقلاء فباب التغليب واسع ، أى أننا أطلقناه على الجميع تغليبا للعقلاء على غيرهم ؛ أو أنه لما أسند اليهم ما شأنه أن يسند الى العقلاء ، عبّر عن الجميع بمن المختصة بالعقلاء . وعطف الطير على من فى السموات والأرض للتنصيص على عموم من يسكنها ، ولإفادة الشمول للجميع ، حتى من يكون بينهما ، فضلا عما فى الطير فى هذه الحالة وهي استقرارها

فى الفضاء صافة أجنحتها لا تحركها لتموج الهواء من تحتها ليقوى على حملها من الدلالة العظمى على عظيم قدرة الصانع ، فإنها تُنطق الألسنة بتمجيده وتنزيهه ، فان معنى صافات : باسطات أجنحتها لا تحركها .

وقوله تعالى : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » معناه أن كل فريق من هؤلاء قد علم الله صلاته وتسبيحه . وقوله : « والله عليم بما يفعلون » تقرير لذلك وتثبيت له ، أى قد علم الله من كل فريق ما وجهه اليه من الابتهال والاستعانة به والتوجه اليه والاعتماد عليه فى تحصيل ما يبتغى . فالصلاة معناها طلب المعونة منه والالجأ فى تحصيل المقاصد اليه ، وهو أمر يشعر به بفطرته كل من حاول تحصيل مقصد وهو فيه بين أن ينال وأن لا ينال ، فيصرف جهده فى إحرازه وهو بين الرجاء والخوف وبين الشك واليقين ، فتدفعه غريزته الى الالجأ الى من وهبه بقواه وأمده بمدده ، فكأنه يستنصره ويستمد منه مزيد القوة ، ويلجأ اليه فيما تعاصى عليه ، والله عليم بما يكون منه من هذا الالتجاء والاستعانة ، فقد علم صلاته كما علم تسبيحه ، فانه عليم بكل ما يفعلون .

ويجوز أن يكون المعنى : كل فريق من هؤلاء قد علم بما يكون منه من صلاة هى مختصة به وتسبيح صادر منه وإن لم يستطع شرحه والتعبير عنه ، فشعور النفس شىء والتعبير عنه وشرحه شىء آخر ؛ وعلى هذا التقرير يكون محصل معنى الآية الكريمة واتصالها بما قبلها هكذا : قد تبين لكم النور الإلهى وأثره فى نفوس من اهتدى به ، وظهر أن هناك نفوسا عميت عنه فلم تنتفع به مع عظيم تألقه وصفائه ، فكانوا فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وإن مما يقرر هذا ما ترون من آيات ناطقة بأوضح دلالة بتسبيح الخالق وهى منبثة فى كل ما فى السموات والأرض ، لا تحتاج إلا الى من يفتح عينيه ليبصرها ومع ذلك فقد عمى أولئك المخذولون عن رؤيتها ، ألم تنظر الى نفسك وما منحت من إحكام فى التركيب وإتقان فى الخلق ، ألم تر الى ما يحيط بك ويلابسك ويقع عليه نظرك وقد منح كل منها ما هو محتاج اليه فى حياته ، ألم تر الى تركيب الأعضاء ، ألم تر الى تنويع القوى ،

ألم تر ألم تر ، مما لا يكاد يحصى ؟ أليس هذا كله ناطقا بتسبيح الله وتمجيده ؟ ! أليس من وهب كل هذا وكونه عالما بما يصدر عنه ، قد علم الله من كل تمجيده وتعظيمه ، وقد عرف كل ما هو منوط به من تمجيد وتعظيم ، والله عليم بما يفعلون .

وقوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » معناه أنه وحده هو الواهب لكل القوى المنبثة فى هذه الكائنات ، فكل شىء منه ومستند الى هبته ومنحته ، وليس لممكن من الممكنات أثر بنفسه فى شىء من هذه الكائنات ، كيف وهو بذاته وصفاته هبة من الحق جل وعلا ، لا قدرة له على تكوين نفسه ولا تكوين شىء فيها ولا أن يهبها ما لم يهبها الله ، فهو المالك لكل شىء ، فله ملك السموات والأرض ، وهو المنتهى والمرجع ، فالكل مبتدأ منه وصائر اليه ، والصيرورة اليه إما بالبعث وهو ظاهر ، وإما على معنى أن ما يظهر على يد بعض المخلوقات من آثار تنسب إليها فهى فى الآخر مرجعها اليه ، أو لا قوة لها من ذاتها . ولا يخفى أن منزلة قوله ولله ملك السموات والأرض مما قبله منزلة النتيجة من الدليل ، ومنزلة الثمرة من الشجرة .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما » تقرير لدليل ثان من أدلة العظمة الإلهية والآثار الربانية ، وهو ما يجرى أمام أعيننا ، وننظر اليه وننتظر نفعه أو نستدفع ضره .

ومعنى يزجى : يسوق رويدا رويدا ، ومنه بضاعة مزجاة متداولة تساق على يد الكثير من الناس ليس من الطُّرف التى نتن بها . وإزجاء السحاب معناه سوق بعض قطعه الى بعض . والسحاب معروف ، وهو اسم جنس جمعى لسحابة كشجر وشجرة . والتأليف : الضم مع مراعاة الألفة والتناسب . والركام : المتراكب بعضه فوق بعض . والودق : المطر أو القطر ، وقيل : البرق . وخلاله : جمع خلل كجبل وجبال ، أى الشقوق التى تكون بين أجزائه . وقوله : وينزل من السماء ، أى من جهة العلو ، أو من السحاب ،

لأنه يسمى سماء أيضا لعلوه . وقوله « من جبال فيها من برد » إما أن تجعل من الأولى ابتدائية ويكون بدلا من قوله من السماء ، والمعنى : ينزل من السماء من الجبال التى فيها بعض برد ، وتكون من الثانية تبعيضية ؛ أو تكون من الأولى تبعيضية ومن الثانية زائدة أو تبعيضية ، ويكون قوله فيها من برد جملة من مبتدأ وخبر صفة لجبال ، أى ينزل من السماء بعض جبال فيها برد أو بعض برد . والمراد بالجبال على كل حال القطع العظيمة الكبيرة ، فعلى الأول ، المراد ما يتراءى للناظر من السحاب المتراكم المشبه للجبال المتراصة ، وعلى الثانى ، ما ينزل من كتل كبيرة فيها برد ، أو ما يتكون على الأرض من ثلج وبرد حتى يكون كالجبال .

هذا وإن منظر السحاب فى تراكمه ثم نزوله مطرا أو ثلجا أو بردا مما يوقظ النفوس الغافلة ويلفتها مهما تحجرت الى عظمة المهيمن على العالم .

وقوله تعالى : «فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء» فيه توجيه النظر الى ناحية أخرى من نواحى دلالة السحاب والظواهر الجوية على عظمة الصانع ، فبعد أن استرعى النظر الى تكوينه ونزوله ، وجّهه الى توزيعه وتصريفه حسب حكمته . وإن من عاشر الأقوام الذين ترتبط حياتهم بالأمطار ويعلقون على نزولها عليهم أو صرفها عنهم الآمال الكبار وهم الكثير فى الناس ، يفهم حق الفهم سرّ توجيه النظر الى توزيعه بعد ما وجهه الى تكوينه ؛ فرب منتظر له فاته وهو فى أشد الحاجة اليه ؛ ورب خائف منه صادفه وهو على أشد الوجل منه ؛ وربما جاء كلا منهما ما يؤمله ، وعلى كل حال لا يسع أحدا منهم إلا التوجه الى القادر القاهر ، إما بالشكر أو باستدفاع الضر ، فقد علم كل أن لا حيلة له فى جلبه ولا فى دفعه .

وقوله تعالى : «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» توجيه الى ناحية أخرى من نواحى الدلالة فى هذه الظاهرة الجوية القوية ، فإنك إذا تأملت فيه وجدته لم يخرج عن أنه ذرات بخارية تكونت بتراكمها بعضها الى بعض ، وأقوى عدة فيها هو الماء ، فمن أين

للماء أن يولد ذلك الشرر العظيم والضوء القوى الذى يكاد يخطف الأبصار ، وكيف والماء ضد النار يتولد الشيء من ضده . سيلجأ قائل الى التعليل بأن فى تلك السحب المتقطعة التى يدخل بعضها فى بعض تيارات كهربائية ، فإذا تجذب بعضها الى بعض وكان بعضها سالبا وبعضها موجبا عملت هذا العمل . ونقول : فليكن كل هذا صحيحا ، فمن ذا الذى أودع فيها كل ذلك ؟ وهل نقول : إن الدال على عظمة الخالق أمر لا يستند الى ناموس ثابت ؟ إنما نقول : إنه الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وقوله تعالى : « يقلب الله الليل والنهار » هو أخذ بالذهن من شهود أثر عظيم الى شهود أثر عظيم حتى يشهد عظمة الخالق بشهود عظمة المخلوق ، فيقول : سبحانك ما خلقت هذا عبثا . وكأن إتيانه عقبه ليرشد المتأمل الى أن أمر السحاب وإن أخذ منك ذلك المأخذ لأنه ليس مما يتكرر وقوعه ، فان بين يديك ما هو أعظم وإن كنت ذهلت عن التأمل فيه لكثرة تكرره ، وذلك هو تقليب الليل والنهار ، يعاقب كل منهما صاحبه ويأكل كل منهما من أخيه بالزيادة والنقصان ، وتتقلب الأحوال فيهما من حر وبرد وغيرهما ، هذه كلها أدلة على تمجيد الله ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . وكأن التعبير بالأبصار ، لأن ما سبق من الأدلة هو بمنزلة المحسوس الذى يدركه من له عينان ، وليس من الأمور العويصة التى تحتاج الى تأمل ودقة نظر ، وليزاوج قوله فى أول الدليل : ألم تر ، بدل ألم تعلم ، ولأن أكثر ما سيق هنا أمور بصرية . ويجوز أن يكون المراد بالأبصار البصائر ، ويكون بينها وبين الأبصار فى قوله يذهب بالأبصار جناس تام ، وكل من المعنيين صحيح ، ولكن الأول أدق وأبلغ . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ابراهيم الجبالى

ربيـــــع الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان لهذا الشهر المبارك ربيع الأول فى أدوار حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم حظ لم يشاركه فيه غيره من الشهور ، ففيه أشرق نور جبينه صلى الله عليه وسلم على هذا الوجود ، وفيه أشرق نور الوحى على نفسه الشريفة ، وفيه أشرق نور العزة والنصر عليه وعلى أمته بالهجرة ، وفيه تشرفت روحه الكريمة بالصعود الى الدرجات العلى وبمجاورة الرفيق الأعلى . وسنتكلم من بين هذه الأدوار على المقصد الأعلى وهو البعثة الشريفة :

لقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار من خيار » .

ولقد كان فى هذا الاختيار الحكمة البالغة ، فقد جاء هذا الشعبَ العربى ، أكمل الشعوب رجولة ، وأمتنها أخلاقا ، وأصدقها عزيمة ، وأقواها شكيمة ، جاء سليما من داء الترف الذى يأكل الأمم أكلا ، ويذيب أخلاقها ويحل عزائمها ويفل غربها ، جاء شعبا بدويا لم تعرف نفسه الخضوع لغير ما تعتقده الصواب ، ولم تتعود الخنوع لإحراز أى غرض من الأغراض ، قنعت نفسه من نعيم العيش بما يمسك الرمق ، ولم ترض من عزة النفس والإباء والشمم إلا بالمنزلة العليا ، وترنمت بذلك فى أشعارها ، واستفاض فى وصاياها

وتوارد ذكره فى مفاخرها، حتى تأصلت فيها الأخلاق المتينة والسجايا العالية، يشب عليها أبناؤهم ويلقنها الوليد فى المهد، وتبرز فى الحوادث الجسام، وتتجلى فى أوقات الخطر ولا تندس فى الساعة الرهيبة ساعة انفصال الحياة من الموت والموت من الحياة، فكأنهم ما جعلوا حياتهم إلا لحماية الذمار، وإكرام الجوار، والوفاء بالعهد، والصدق فى النجدة والاستماتة دون تنفيذ ما يريدون من هذه الفضائل. وما كان القتل والنهب وأمثالها مرهوبا من جانبهم رهبتهم من أن ينسب لأحدهم عار أو تلحقه مذمة، فكم من حروب دامت عشرات السنين وأفنت عشرات الألوف وليس لها من سبب سوى أنّ أحدهم خفرت ذمته فى شىء تافه لا يزيد عن قرى ضيف طارق وينصرف من غداته.

شعب صميم هذا شأنه وهذه سجاياه، هو الجدير بأن يعهد اليه بمهمة كبرى تغير وجه البسيطة، ويبطش بالبدو والحضر فى سبيل تنفيذ المهمة الملقاة على عاتقه والمعهود بها اليه. هذا الى رجاحة العقل، واستكمال الذكاء، ونضوج الفكر، وتدفق ينابيع الحكمة وإشراق نور الهداية من أفواه الكثير منهم، ومعرفة جمهرتهم قيمة ما يطرفهم به حكماؤهم، فيترنمون به، ويترسمون خطاه، ويشيدون بذكره، وينوهون بقدره.

كان الى جانب هذا كله بركان شر مستطير، يلتهم العالم كله، لم يسلم منه دولة حضرية ولا شعب بدوى. كان العالم يموج بأصناف المظالم ويرسف فى قيود من الشقاء بحكم ما تأصل فيه ورسخ عند جميع الطوائف من تقديس القوة وجعلها المهيمن الأعلى على جميع المصالح، فقد كانت القوة هى الدستور المحترم والقانون الأساسى لجميع الشعوب، ففى الدول المتحضرة تتجلى فيما يعده القائمون بالحكم من وسائل الإرهاب والإرهاق حتى يخضع الجميع الى فئة تملكت النواصى بما وضعت يدها عليه من وسائل العنف.

وفى الشعوب البادية تتجلى فيما يكون من شجاعة فرد أو بأس قبيلة، فلا يكون لمن يصادمه بد من أن يحفز قواه أمامه حتى تكون الغلبة لأحد الطرفين، فينسحب

المغلوب الى حيث يلتمس لنفسه مأمنا ومفرا يستكمل فيه قوته ليدفع عن نفسه تلك الغوائل . وهكذا كان الحكم للقوة ، ولا يعرفون من الحق إلا القوة . وإنها لخطة لا تصلح لطمأنينة ، ولا تقوم عليها حماية . انضم الى هذا كله عامل فساد أقوى وأدهى وأعم وأطم ، ولعله أثر من آثار ما سبق من سيادة سلطان القوة أو يمت إليه بسبب ، ذاك هو شيوع عبادة غير الله ، فان النفوس فى تغالبها وتجالدها دائمة تقدر قوة خصمها وتخشى أن يتطرق الضعف الى ناحيتها ، فكلما أحست من جانبها شيئا من الضعف لجأت بفطرتها الى استمداد القوة من مصدر القوة الذى تشعر به من بين جوانحها ، وإن عجزت عن إدراكه حق الإدراك وتقديره بما ينبغى له من التقدير ، التمسته فى مواقع إحساسها وما كان مماثلا له الحواس وأخذت تفتش عنه فى طيات عقولها ، وما كانت العقول لتقوى وحدها على اختراق سجف الظلمات التى أطبقت على العالم من كل النواحى إلا بضياء النبوة ، وأنى لهم وقد لعبت الأهواء بما مضى من نصوص الشرائع وضعف حملتها عن أن يجلوا للناس نورها بما يتمنع نفوسهم ويرد غوائلهم ، فلما أعيتهم الحيل أخذوا يتخيلون ثم يخالون ، فكل أمة قادتها نزعتها الى شرعة لها ومعبود صوره لها وهمها ، حسبته مصدر القوة فخصته بالعبادة ، فمنهم من عبد الكواكب ، ومنهم من عبد الحيوانات النافعة ، ومنهم من عبد الحيوانات الضارة ، ومنهم من عبد الأنهار والأشجار بل منهم من نحت بيده من الصخور تماثيل وعبدها وهى من صنع أيديهم ، كما أن منهم من عبد الملوك والعظماء . وهكذا أطبقت العماية من كل جانب وظهر الفساد فى البر والبحر .

جاء شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ لميلاد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فأشرق على العالم نور المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وولد لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، وكان ذلك عام الفيل وهو العام الذى حمى الله فيه بيته الكريم من أن يدمره المغيرون ويطمسه المعاندون ، فكان فى ذلك مظهر يدل على أن العناية الإلهية لم تتخل عن هذه البقعة المباركة التى هى من أثر خليله إبراهيم عليه السلام ، وأن هذا الشعب وإن تمادى

فى غيه فإنما هى رعونة طفولة له ، أو طيش شباب يعدله فيه ، وسيأتى له يوم يستكمل رشده ويبلغ أشده ، فيناط به أعظم وأخطر مهمة فى العالم تغير وجه البسيطة وينقذ فيه الناس من الظلمات الى النور .

ما زالت حاله هكذا : يشتد الشعور عنده بما فيه العالم من بؤس وشقاء ، ويقلب فكره فى كيفية الخلاص فلا يجد الى ذلك سبيلا ، ولا قوة لديه على هذا ، حتى ألجأه الأمر الى التماس الخلوة بالنفس والبعد عن ضوضاء هذا العالم لعله يستريح من شروره أو يجد قوة على تفريج كروبه ، فكان يذهب الى غار حراء وهو غار فى أحد جبال مكة بعيد عن ممر الطارقين ، فكان يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، حتى إذا نفد ما أعده من زاد عاد الى مكة ومكث فيها ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتزود لمثلها ، وحبب اليه الخلاء لما كان يجد فيه من الراحة بالخلو الى نفسه والبعد عن شرور العالم ومفاسده ، ثم لما كان يجد فيه من لذة إشراق النور الإلهى على نفسه رويدا ، ثم لأنه كان يعبد إلهه وإله أبيه إبراهيم : إلهه الذى لا شريك له فى ملكه ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فكان يجد لهذه العبادة من اللذة الروحية والتنفيس عن نفسه ما يغريه بالعودة والمواظبة ، وما زالت نفسه تصفو وتتقوى على تحمل ما أعدها لها اللطيف الخبير ، حتى كان شهر ربيع الأول من العام المتمم للأربعين من حياته الشريفة ، فبدأه الوحى ، وكان أول ما بدأ به الوحى الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، فكان فى هذا إيناس لنفسه عليه السلام ، وإشعار لها بما أعدت له ، حتى تتربى ثقته بنفسه ، بل باللطف الإلهى الذى يحفه ويشعر به ، وتقوى فى قلبه الطمأنينة ، فلا يهلع ولا يرتاع لمفاجأة الملك بدون استعداد للقياه ، فان الطبيعة البشرية خاضعة لمألوفها منقادة لما تعودته ، وما زالت الرؤى تتكرر ويصحبها مشاهدة الملك ليأنس به شيئا فشيئا حتى أكمل ستة أشهر ، وجاء رمضان فنزل عليه جبريل بأول سورة من القرآن : سورة اقرأ ، وبدأه وهو فى الغار ، فقال له اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، فضمه حتى بلغ منه الجهد ، ثم قال له :

اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، فضمه كذلك ، ثم قال له فى الثالثة : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم ، فرجع بها يرجف فؤاده .

ومعنى قول الملك له : اقرأ ، أى ليكن منك قراءة ، وقوله ما أنا بقارىء ، أى أنه أمى لا عهد له بالقراءة . والحكمة فى ضمه اليه حتى يبلغ منه الجهد ، أن يوجه كل انتباهه اليه ويسترعى كل مداركه حتى يتفرغ عن كل شيء من شأنه أن يصرفه ويتجه اليه خاصة ، وذلك شأن الانسان : أن يتوافر كل اتجاه له نحو ما كان له فيه من أثر ، والأمر هنا عظيم الخطر ، فلا غرو ألهم عليه السلام أن يستعد له بتفريغ القلب عن الشواغل ، ثم بالتطلع الى ما تعوده من صدق الرؤيا وماذا يردفه ، ثم برؤية الملك وما وراءه ، ثم بأمره بما لا عهد له به ، وتكرار ذلك الأمر ، ثم بضمه اليه ذلك الضم الذى أجهده ، وإن لكل واحد من هذا أثرا كبيرا فى استرعاء الانتباه وتقوية الاتجاه ، حتى لا يغيب عنه شيء مما يلقيه اليه .

وأما قوله : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، فيشير الى أن كونه لا عهد له فيما سبق بالقراءة ، لا تقطع عنه أن يقرأ بمعونة الله الذى خلق الخلق من عدم ، الذى خلق الخلق ولم يك شيئا ، الذى أوجد كل شيء خُلق ، فقدرته على أصل الإيجاد والخلق أعظم إذا قيست الى أن يجعل من ليس بقارئ قارئا . وقوله : خلق الانسان من علق ، تفصيل لخلق بعض الأنواع ، وهو أقربها الى المخاطب وأسهلها عليها استحضارا ، وأقربها اليه تأملا واستنتاجا ، ثم يقول بعد ذلك : اقرأ وربك الأكرم ، فيعيد الأمر بالقراءة مصحوبا بتوجيه نظره الى الفيوضات الربانية . والتعبير بلفظ ربك فيه ما فيه . واختيار صفة الأكرمية لتربيته الثقة المقنعة بأن ما طلب منه ليس بتعاص ميئوس منه ، فليس عليه أكثر من أن يتجه الى تلقى الفيض الإلهى والكرم الربانى ، فيقوم بما طلب منه حق القيام ، ثم أردف ذلك بقوله جل جلاله : الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ، ليدل تمام

الدلالة على أن الهداية للقراءة والكتابة إنما هى بتعليم الإله الذى يأمرك والرب الذى يتولاك ، فهو الذى علم بالقلم ، بل هو الذى منّ على الانسان بتعليم كل شئ بعد أن كان لا يعلم شيئا ، هو الذى أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، فكيف يتعاصى عليه أن تكون قارئا بعد أن لم تكن قارئا ، وكيف يتعاصى عليه أن يهبك علم ما لم تعلم . ثم تركه المدة الطويلة لتنبت هذه النواة على مهل ، وتأخذ مكانها من نفسه الشريفة ويسوغها ويتحقق بها أكمل تحقق ، ثم يتشوف لما وراءها ويشتاق لما هو تكملة لها ، ويتطلع الى المزيد منها ، حتى إذا أخذ الشوق منه مأخذه ، وطال به الانتظار الذى يخشى عليه معه أن يتسرب الى النفس اليأس ، عاوده الوحى وأخذ يتوالى حتى بلغ من العظمة ما بلغ .

فكان شهر ربيع الأول هو مطلع فجر الهدى الإلهى ، ففيه ابتدأت حياته الشريفة عليه الصلاة والسلام ، وفيه ابتدأ مولد الوحى كما سبق شرحه إذ انبثق فجر النبوة ، وفيه ابتدأ فجر العز والنصر المبين بالهجرة ، وفيه انتقل عليه الصلاة والسلام الى المكان الأعلى والمقام الأسمى حين اختاره الرفيق الأعلى لجواره ، وحين قام بما عهد إليه به ، وحين تمت النعمة نعمة الهداية العظمى على يديه ، وكملت السعادة الكبرى للنوع الانسانى ببعثته ، وتجلت رحمة الله بذلك على الناس أجمعين ، وتحقق قوله عز وجل : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

ابراهيم الجبالى

الحكم على المسلمين بالكفر

شبهة جسيمة وتشبيه فاسد وحكم باطل

جاءنا هذا السؤال تحت هذا العنوان :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير والمحقق الشهير ، مرشد الضالين وقامع الملحدين ، لسان الاسلام الناطق ، وترجمانه الصادق ، وسيفه الماحق لكل مارق وفاسق ، الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ، حفظه الله وأطال بقاه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فغير خاف على فضيلتكم أن تفسير الشوكانى المسمى « فتح القدير » طبع بمطبعة الحلبى بمصر ، وكان من بين ما قرأناه فيه عند تفسير قوله تعالى فى سورة التوبة : (ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ) الآية (ص ٣٣٧) من الجزء الثانى العبارة الآتية التى حكم فيها على عموم المسلمين المقلدين للأئمة المجتهدين بالكفر الصريح ، وحضهم على نبذ كتب الدين ، ولم يردعه عن جهره بهذا الحكم الفاسد والرأى المنكر وازع من الدين ولا زاجر من العلم . وهذا نص عبارته :

وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله وتأثير[1] ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه هو كاتخاذ اليهود

---

(١) لعله الايثار .

والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا ، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء ، فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبا وعمدتم الى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه ، فعملتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين ، ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه ، فأعرتموها آذانا صما وقلوبا غلفا وأفهاما مريضة وعقولا مهيضة وأذهانا كليلة وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياى كتبا كتبها لكم الأموات من أسلافكم [(١)] واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى أقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم ، وهو الامام الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم اه .

فنلتمس من فضيلتكم دحض هذه الشبهة ، ورد هذه الفرية ، بما آتاكم الله من قوة فى الدين وصلابة فى الحق ، ونشر ذلك بأول عدد من مجلة نور الاسلام الغراء . وحبذا لو أتيتم على جميع شبههم ، فكم فى تفسير الشوكانى من الشبه المعسولة المسمومة التى نحا فيها نحو ابن تيمية ؛ وإن الله لمؤيدكم بروح القدس ما نافحتم عن دينه ودافعتم عن كتابه وأرشدتم عباده الى الصراط المستقيم . وختاما نبتهل الى الله سبحانه وتعالى أن يحفظكم زخرا للاسلام ومرشداً للمسلمين وتفضل يا سيدى بقبول فائق احترامى .

محمد احمد عماره

تلا — منوفية

---

(١) ليت شعرى ماذا يريد بكلمة الأموات وماذا دس فيها ، أيريد ألا نأخذ شيئا إلا عن الأحياء وإذن يضيع الدين كله ، أم ماذا يريد !

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فهذا كلام لا يصدر إلا ممن غلظ فهمه وجمدت عواطفه وقسا قلبه وقل احتياطه ، فاستهان بإجماع العلماء وكلام أئمة الهدى الذين لا يقولون فى الدين بشئ إلا إذا كان لهم مستند من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما سنبينه ، وذلك منه اغترارا بما زعمه لنفسه من زعامة كاذبة واجتهاد باطل ، ولو احتاط فى أمر الدماء وتحرج من خطر التكفير ، أو احترم اتفاق المسلمين وكلام غيره من العلماء المبرزين ، لم يجازف بإلقاء القول على عواهنه ضد أمة بأسرها ، وفيها من العلماء والفضلاء والأولياء والمحدثين والمفسرين وعلماء التوحيد والفلسفة ما أدهش التاريخ وأنطق أعداء الاسلام بفضل الاسلام (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار سبعين خريفا) وكل من قدس نفسه واتبع هواه فلا بد أن يضل عن سبيل الله ، وكل من امتلأ أنانية وكبرا فلا بد أن يحتقر المسلمين ولا يحترم العلماء السابقين (إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير)[1] هؤلاء إذا حللنا نفوسهم وجدناها مملوءة قسوة لا تقل فى وزنها وتقديرها عن قسوة قطاع الطريق الذين يستهزءون بسفك الدماء وقتل الأبرياء ، غير أن أولئك يسفكونه ليلا وهؤلاء يسفكونه نهارا لو قدروا ، وأولئك يسفكونه خائفين وجلين وهؤلاء يسفكونه فرحين متبجحين[2] وأولئك لا يصفون بألسنتهم الكذب ولا يتقولون على الله ، وربما رجعوا اليه نادمين مستغفرين ، وهؤلاء

(١) وليس أدل على ذلك من أن جهلة أتباعهم يجرمون بل يكفرون من صلى على الرسول بعد الأذان بلا حياء من رسول الله ولا تحقيق من العلم ولا احتياط فى الدين وعندنا خطابات كثيرة من هذا وهو أدل دليل على ما ذكرنا فان علماء المذاهب الا ربعة نصوا على استحسانها . وكم لهم من أمثال تلك المجازفات .

(٢) وانظر الى الوهابية مقلدة ابن تيمية وما امتلا به تاريخهم من حوادث قتل المسلمين واعتقادهم أنهم يشركون فهم يتقربون الى الله بسفك دمائهم وتطهير الا رض منهم كما هو معروف .

يلصقون ذلك بدين الله مفترين على الله الكذب قائلين : هذا حلال وهذا حرام ، هذا كفر وذاك إسلام . فجدير بهم أن يغلق باب التوبة فى وجوههم ، فإنهم من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فكيف يتوبون أو يستغفرون (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) . هذه النزعة نزعة تكفير المسلمين والاستهانة بدمائهم هى نزعة الخوارج الذين هم شر الطوائف ، حتى ذهب كثير من العلماء (وتشهد لهم الأحاديث الصحيحة) الى تكفيرهم . وما نرى طائفة على نقيض ما جاء به الأنبياء من الشفقة والرحمة والمحبة والوئام وعدم الانقسام مثل هذه الطائفة .

وبعد فالقول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد على كل واحد يجافى المعقول قبل أن يخالف المنقول ، فما أدرى بأى قلم يكتبون وبأى عقل يتفكرون ؛ فإن الناس خلقوا على درجات متفاوتة لا يحصيها إلا الله (وإنما العلم بالتعلم) ومبنى هذا الوجود على أن الصغير يرجع الى الكبير والجاهل يرجع الى العالم والضعيف يرجع الى القوى .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإن شفاء العى السؤال » قال ذلك فى قوم أفتوا مجروحا أن يغتسل ويغسل جرحه ولا يتيمم فمات . رواه أبو داود وابن ماجة[1] وقال تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) وقال : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فعلة الأمر بالسؤال هو الجهل والأمر المقيد بالعلة يتكرر بتكررها . ومعلوم أن العلماء لم يزالوا يُستفتَوْن فيفتون ويتبعهم الناس من غير إبداء المستند ثقة بدينهم وأمانتهم ومزيد معرفتهم حتى شاع وملأ البقاع ولم ينكره أحد ، فكان إجماعا .

(١) وكان من حقه على مذهب هؤلاء أن لا يرى له فانه اتخذ هؤلاء المسئولين الجاهلين أربابا من دون الله فكان حقه أن يسخط عليه وأن يحذر من مثل فعله .

ولو أوجبنا على كل أحد أن يؤهل نفسه للأخذ من الكتاب والسنة وما يجب لذلك لأدى الأمر الى إبطال المعايش والصنائع ، ولكان تكليفا بما لا يطاق . ولا يمكننا أن نطيل فى النصوص الآن ، ولا فيما ورد من خطر تكفير المسلم وعدم احترام دمه وماله وعرضه ، ولكن نقول : إن سنة الله فى البشر أن يرجع الناس فى كل شيء الى العارفين به المبرزين فيه ، ولو لم يفعلوا ذلك لا اختلت أمورهم وفسد نظامهم ، ولأصبح العالم فوضى ، ولكان الهلاك أسرع إليه من السلامة .

وانظر لو اجتهد كل إنسان برأيه فى الطب أو ذهب المريض الى من لا يحسن علاجه ، فماذا تكون النتيجة . وكيف يكون الحال إذا ألقينا بقيادة الحروب الى الجهال الأغرار أو الجبناء الأغمار ، أو خوّلنا كل أحد حرية الرأى ورسم الخطط فى مجالدة الأعداء والذود عن بيضة الإسلام ، أفلا تكون النتيجة خراب البلاد وهلاك العباد !
وقل مثل ذلك فى التجارة والزراعة وكل حرفة من الحرف وصنعة من الصنائع .
وها أنت ذا ترانا إذا أردنا طبيبا لمرض من الأمراض لم يقنعنا أن نذهب الى طبيب عام بل الى الطبيب المختص بذلك الفرع الذى وجه كل عنايته اليه ، علماً منا بسعة العلم وأن الأمور تشتبه ، وأن الجهل غريزة فى البشر ، والضعف طبيعة فى الانسان ، وشعورا بأنه لا يكاد يخلص من سلطان الوهم وظلمات المشكلات والمتشابهات إلا من قتل العلم بحثا ، وأحاط بمناحى التفكير خبرا ، وعرف ضعف نفسه فلم يسارع الى أول رأى فطير ولا أسبق خيال طائش .

هذا كله مركوز فى الطباع يعرفه الجاهل والعالم ، والصغير والكبير ، والرجل والمرأة . فليت شعرى هل أصبحت الشريعة أهون من ذلك كله مع ما فيها من الأسرار الدقيقة ، والمشكلات الخفية ، والمتعارضات القوية ، والمرجحات المختلفة ، والمنسوخات المتروكة ، والمطلقات المقيدة ، والعمومات المخصصة ، والمفاهيم المعطلة ، والمجملات التى قد يخفى بيانها ، والظواهر التى لا يراد ظاهرها ، والمجازات التى تدق قرينتها ، والكنايات

التي تخفى إشارتها وتبعد غايتها ، ومواقع الإجماع والاختلاف ، ومباحث القياس المتشعبة ، ومسالك العلل الخفية وقوادحها المتراامية ، الى أقوال الصحابة المختلفة وآرائهم المتباينة ، وما يحتاج إليه ذلك كله من دقة الفهم ، وإصابة الرأى ، وأهلية الحكم ، وسعة الاطلاع وطول الباع ، بعد معرفة اللغة العربية وفنونها ، الى آخر ما ذكره الأصوليون فى مباحثهم الطويلة العريضة ، خصوصا شروط الاجتهاد المبينة هناك ، حتى قال كثير منهم : إن الاجتهاد لا يتجزأ لجواز أن يكون لبعض الأبواب علاقة بغيره ، الى آخر ما قالوا .

فلا بد إذاً من الرسوخ فى جميع الأبواب والإحاطة بمظانها ، وما عسى أن يكون فيها من مقيد ومخصص ومعارض ومرجح ، الى غير ذلك ، وهذا بحر لا ساحل له ، ومهامه فيحاء يضل فيها الخريت ، ولذلك كان كثير من السلف الصالح يتحرجون من الفتيا غاية التحرج (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار) . وقد عرض الخليفة المنصور العباسى وحفيده هرون الرشيد على الامام مالك أن يحملا الناس على الموطأ فأبى ، وإذا حللت ذلك الإباء وبحثت عن سره وجدته الإخلاص البالغ والدين القيم ، واتهام النفس وعدم تقديسها ، فهو يجوز على نفسه أن يكون مخطئا وأن يكون الحق مع غيره ، تاليا قوله تعالى : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وقوله عز وجل : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا) .

وإن من أول شروط الاجتهاد عندى نور البصيرة وصفاء الذوق وقوة الإخلاص وشدة الخوف والمراقبة ، واتهام النفس الباعث على شدة التحرى ومزيد الاحتياط ، ولا يكفى فى ذلك سعة العلم ولا كثرة الاطلاع ، وكم قد رأينا من كبار الحفاظ من هو أكثر حديثا من بعض المجتهدين ولكن لم يسمح له دينه أن يدعى الاجتهاد ، علما منه بأنه لم يخلق له ولا وُجد فيه استعداده الذى يعرف به روح الشريعة فى كل شىء ، وذوقها فى أحكامها ومراميها ، وقد قالوا : إن المحدث كالصيدلى والمجتهد كالطبيب .

ولا بأس أن أفكهك بشيء طريف له مغزى شريف عن بعض هؤلاء المجتهدين العصريين ، ثم نردفهم برؤسائهم المتقدمين الذين كانوا من سعة العلم بالذروة العليا ، ولكن ليس فيهم أناة الأئمة ولا تحريهم ولا رزانتهم ووقارهم ، بل كانوا أنانيين متبجحين ، وقلما يأتى المتبجح بخير أو يهدى الى صواب ؛ وقد قال تعالى : (وَجَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) أما هؤلاء الطائشون فلا يعرفون الصبر ولا الإيقان . وعلى الجملة فالأمانة تحتاج الى استعداد خاص فى طينة النفس وتكوينها (والناس معادن كمعادن الذهب والفضة) والنحاس لا يكون ذهبا أبدا وإن راقتك صفرته وخفيت عنك حقيقته . وقد شط بنا القلم ، فانعد الى تلك الفكاهة :

سئل بعض مجتهدى العصر عن قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) هل يبقى التحريم فى لحم الخنزير إذا أوصلناه من الغليان الى درجة تقتل كل ما فيه من الديدان التى اكتشفوها الآن ؟ فأجاب مجتهدنا الظريف بأنه لا وجه للتحريم حينئذ ويمكننا أن نستنبط ذلك من آخر الآية حيث تقول (إلا ماذكيتم) والتذكية هى التطهير ، فحيث طهر لحم الخنزير مما فيه ، كان حلالا داخلا فى هذا الاستثناء .

ولم يفرق حضرته بين التذكية بالذال وهى الذبح ، وبين التزكية بالزاى وهى التطهير (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ولا حقق ما يرجع إليه الاستثناء فى الآية ، وهذا من البدهيات التى يعرفها صغار الطلبة ، فماذا تقول فى هذا الاجتهاد وذلك التجديد المصرى : أليس هذا أشبه شىء بقول من قالت : إن النساء أفضل من الرجال بنص القرآن ، ثم استدلت بقوله تعالى : (أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ) غير مفرقة بين همزة الوصل وهمزة الإنكار فظنت أنه إخبار عن فضلهن ؟ ! فلا أكثر الله من هؤلاء المجتهدين ولا هؤلاء المجتهدات !

لون آخر

جاء فى تفسير ابن كثير هذا الحديث الذى رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيكم يتابعنى على ثلاث ؟ ثم قرأ قوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) الخ الآيات الثلاث ، ثم قال : « فمن وَفى فأجره على الله » الحديث . قال الحاكم : صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه ، فعلق عليه ذلك المجتهد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا خمس لا ثلاث ، ولم يبين حضرته فى الحديث علة تقدح فى صحته غير ما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هى الوصايا مع أن النبى صلى الله عليه وسلم يريد بها الآيات لا الوصايا ، والآيات ثلاث بلا شك ، وقد جاء التصريح بذلك فى رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت ، وفيه : « أيكم يتابعنى على الآيات ؟ ثم تلا (قل تعالوا) الى ثلاث آيات » فانظر الى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائما على شفا جرف هار ، وكم لهؤلاء من أمثال هذه التعليقات الحمقاء ، فرحم الله امرءاً عرف قدره فلم يتعد طوره .

ولنترك هذه الطبقة المتفيهقة المتشدقة على ما بهم من جهل وسخافة ، ولنرجع الى من قبلهم من رؤسائهم وأئمتهم لنرى إمامهم ابن تيمية الذى قدموه على جميع الأئمة ، وهم فى تلك النزعات الخبيثة على الرغم من دعوى الاجتهاد مقلدون له فانون فى تقليده ، كيف منع من شد الرحال لزيارته صلى الله عليه وسلم وجعل السفر للزيارة سفر معصية لا يصح فيه قصر الصلاة ، خارقا بذلك إجماع المسلمين ، غير مستحى من سيد المرسلين ! ودليله الذى استند إليه واستنبط منه ما لم يستنبطه أحد من الأولين والآخرين هو منعه صلى الله عليه وسلم من شد الرحال إلا لأحد المساجد الثلاثة ، ففهم من ذلك النهى أن الرحال لا تشد للزيارة بناء على خيال قام برأسه أن القصر حقيقى لا إضافى ، ولو كان

كما فهم ذلك المجتهد الكبير لكان شد الرحال لصلة الرحم أو زيارة الإخوان أو التجارة أو غير ذلك محرما ، فاذاً تقف مصالح العالم ، وتتعطل أمور الدين والدنيا ؛

ولو تبصر قليلا لعلم ما أراد صلى الله عليه وسلم من أن المساجد متساوية فى الفضل فكلها سواء إلا هذه المساجد الثلاثة ، وذلك ظاهر لاخفاء فيه ، فإن الأصل أن الشىء يستثنى من جنسه القريب ، فإذا قلنا : ما مات إلا زيد ، كان معناه : ما مات إنسان إلا زيد ، وليس معناه : ما مات حيوان إلا زيد ، ومن فهم ذلك كان من الحيوان لا من الانسان . على أننا لو جعلنا القصر حقيقيا لفسدت أمور العالم كما قلنا ، والشريعة إنما جاءت بالصلاح لا بالفساد .

ويلتحق بذلك ما رأيناه فى فتح البارى من قول ابن تيمية المذكور : إنه لم يجمع بين إبراهيم وآل إبراهيم فى رواية من الروايات التى وردت فى تعليم الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم حين سئل عن ذلك ، مع أن الجمع بينهما وارد فى البخارى ، وهو لدى الحفاظ بمنزلة الأجرومية فى النحو ، الى غير ذلك مما هو معروف عنه وهو من كبار (أو كبير) أولئك المجتهدين ، ولو لم يكن له إلا ما هو معروف عنه وعن تلميذه ابن القيم خصوصا فى نونيته من إثبات الجهة لله تعالى أخذاً بالمتشابهات واغترارا بظواهر الآيات لكان كافيا لكل منصف فى تقدير مالهم من علم وعقل [1] .

ثم انظر بعد ذلك كله الى كلام الشوكانى [2] الذى ذكره السائل ، والى فهمه الكاسد

---

(١) ومن الاجتهاد المضحك قول بعضهم إن الامة إذا زنت جلدت مائة إن كانت بكرا لدخولها فى عموم قوله تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منها مائة جلدة) فان تزوجت جلدت خمسين بقوله : (فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) فالمحصنة عنده اقل من غير المحصنة . فانظر الى هذا الاستنباط العجيب . وأعجب منه مانقل بعضهم عن ابن حزم من أن الانسان اذا بال فى الماء الراكد نجسه لورود النهى فى الحديث عن ذلك ، فان بال فى إناء ثم صبه فيه لم يتنجس ، الى غير ذلك من المضحكات المبكيات من أولئك المجتهدين الذين لا يأخذون إلا من الكتاب والسنة . وما أحسن قول ابن الجوزى فى حقهم :

لعمرى لقد أدركت منهم مشايخا ... وأكثر من أدركته ماله عقل

(٢) لما تولى الشوكانى القضاء قال بعض علماء اليمن : وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . وهناك ما هو أشد من هذا من أقوال العلماء فى حقه ، ولا داعى الى نقلها .

وقياسه الفاسد ، وهو من كبار هؤلاء أيضا ، فإن الأحبار والرهبان كانوا يحللون ويحرمون من عند أنفسهم قائلين : ما حللناه فى الأرض فهو محلول فى السماء، وما ربطناه فى الأرض فهو مربوط فى السماء ، كما هو معروف عنهم ومسطر فى كتبهم المقدسة فضلا عن تاريخ الكنيسة أو التاريخ العام .

وأما أئمة المسلمين فلم يدعوا لأنفسهم ذلك المنصب الذى لا ينبغى أن يكون إلا لله ، وحاشاهم أن يقولوا ذلك أو يصدروا عن غير قول المعصوم وسنته التى هم أعرف الناس بها وأحرصهم عليها . وقد صرحوا بذلك فقالوا : إذا خالفنا الحديث الصحيح فاضربوا بقولنا عرض الحائط . فكيف يحل له بعد ذلك أن يقول : إنكم اتبعتم آراءهم ولم تتبعوا الكتاب والسنة ، وكل إنسان يعلم أنهم لم يقولوا من عند أنفسهم ، وإنما يقولون : هذا قول رسول الله وذاك فعله وتلك سنته ، وهم أعرف الناس بذلك وأقدرهم على تعرّف ما جاء فيه ؛ وقد وثق الناس بهم فلم يتهموهم فى دينهم ولا علمهم ولا أمانتهم بعد ما عرفوا أنهم يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاشاهم أن يشرعوا من عند أنفسهم وهم خير القرون ، فإن لم يجدوا شيئا فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، اجتهدوا ما استطاعوا ، وهم أعرف بروح الشريعة ومقاصدها ومناط أحكامها ، ولو لم يفعلوا ما فعلوا لكانت الشريعة الآن لعبة بيد الجهال كما رأيت فيما تلوناه عليك .

وبالجملة فهؤلاء الأئمة قد نظروا فى الشريعة نظر العالم المدقق والأمين الحذر ، فما وجدوه مجمعا عليه عضّوا عليه بالنواجذ ، وما كان فيه اختلاف أخذوا منه الأقوى والأرجح ، لكثرة من ذهب إليه أو لموافقته لقياس قوى ، أو تخريج صحيح من الكتاب والسنة ؛ وقد كان هذا ميسرا للطراز الأول من المجتهدين حين كان العهد قريبا ، والعلوم غير متشعبة ، ومذاهب الصحابة والتابعين معروفة . على أنه لم يتيسر ذلك أيضا إلا لنفوس قليلة ، ومع ذلك فقد كانوا مقتدين بمشايخهم ، معتمدين عليهم ، ولكن

لكثرة تصرفهم في العلم صاروا مستقلين؛ وكيف يقيس عاقل هؤلاء الأئمة على أولئك الرهبان الذين لم يدعوا لأنفسهم منصب النبوة فحسب، بل تخطوا ذلك الى منصب الالهية : فإن النبي لا يقول من عند نفسه، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ولذلك قالت الآية : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) كما اتخذوا المسيح ابن مريم، فسوت بينهما، وقالت في آخرها : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)!

فهل ترانا أشركنا الأئمة بالله تعالى، أم ذلك كلام من يرسل لقامه العنان بما يوجب سخط الله والملائكة والناس أجمعين؟! وقد استتبع ذلك ما لا يحصى من المفاسد التي يرتكبها هؤلاء الجهلة ويتشدق بها أغمار من ينتسبون الى العلم من زعانف القوم وأراذلهم . وقدجر ذلك الى استباحة الأعراض بل الأموال والدماء، فهي من السيئات الباقيات التي عليهم وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة . فإن تشبثوا بالقياس والاستنباط، قلنا : ذلك لابد منه على رغم أنوفهم بمقتضى الدلائل العقلية والنقلية، حتى قال بعضهم : إن من لا يقول بالقياس لا يعد من العلماء ولا يعتبر من أهل الإجماع .

وإجمال القول أنهم إذا قالوا إن كل إنسان يأخذ من الكتاب والسنة ولو لم يعرف الفاعل من المفعول فضلا عن دلالة الإيماء والاقتضاء، ومسالك العلة وقوادحها، ومعرفة المنطوق والمفهوم وما فيه من جدل وكبير عمل، ومعرفة ماصح وما لم يصح، وما يعمل به في فضائل الأعمال، وما يحتج به في الحلال والحرام، وما قيل في المرسل والمسند، الى غير ذلك، فضلا عما قيل في الرجال من تعديل وتجريح، وهو بحر لاساحل له، وما عسى أن يكون في الحديث من علة خفية، مع معرفة تاريخ الأحاديث ليتميز الناسخ من المنسوخ، ومعرفة المرجحات عند التعارض، ومواقع الاختلاف والاتفاق، حتى لا يخرقوا الاجماع الخ، نقول : إذا أباحوا للناس أن يأخذوا من الكتاب والسنة مع

الجهل بذلك كله ، فقد عرضوا الدين للضياع والشريعة للهزء والسخرية ، وكان ذلك منهم جنونا أو فوق الجنون ، وإن قالوا إنه يقلد العالم فى ذلك كله ، فقد هدموا ما بنوا ، وقوضوا ما شيدوا ، فأين يذهبون ! (وهل هذا إلا رجوع للتقليد الذى منعوه وتفسير للماء بعد الجهد بالماء) (١) !

وبعد فإنى أعجب كيف يكلفون أرباب الحرف والصنائع وعامة السوقة المشتغلين بمعاشهم وعيالهم أن يأخذوا من الكتاب والسنة وليس ذلك فى وسعهم ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ؟ ! ولا أرانى محتاجا بعد ذلك للإفاضة فى الدلائل النقلية والكلام عليها ، فإن الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس . ولو لا ظهور تلك الطائفة التى اقتدت بأسلافها من الخوارج الذين هم أسرع الى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم من الفراش الى النار ، لما تحرك به قلم ولا تفكر فيه أحد .

ولنختم كلمتنا هذه بتلك الحكاية التى تخفف عنك ما لاقيت من تلك الترهات التى يخجل منها العلم ويبكى لها الدين — قال مولانا الشيخ محمد عليش رحمه الله فى فتاويه : إن ابن حزم كان له مناظرات مع الباجى وهو من كبار علماء المالكية ، فلقى أخاه ابراهيم بن خلف الباجى يوما فقال له : ما قرأت على أخيك ؟ فقال : قرأت عليه كثيرا ، فقال له : هلّا اختصر لك العلم فأقرأك إياه فى سنة أو أقل ؟ فقال : أو يصح هذا ؟ فقال : أنا أقرئك العلم فى سنة ، فقال : أنا أحب ذلك ، فقال له : أو فى شهر ، فقال له : ذلك أشهى الى ، فقال له : أو فى جمعة أو دفعة ، فقال : هذا أحب الى من كل شىء ، فقال له : إذا وردت عليك مسألة فاعرضها على الكتاب ، فإن وجدتها فيه وإلا فاعرضها على السنة ، فإن وجدت ذلك فيها وإلا فاعرضها على مسائل الإجماع ، فإن وجدتها وإلا

(١) وليت شعرى ماذا يريدون منا ؟ أيريدون أن نقلدهم فيما يقولون وهم يحرمون التقليد أم يريدون أن ينازعونا ونحن مجتهدون كما أنهم مجتهدون ؟ !

فالأصل الإباحة فافعلها . فقال له ابراهيم الباجى : أرشدتنى الى ما يفتقر الى عمر طويل وعلم جليل ، لأنه يفتقر الى فهم الكتاب ومعرفة ناسخه ومنسوخه ، ومؤوله وظاهره ، ومنصوصه ، ومطلقه ومقيده وعمومه وخصوصه ، الى غير ذلك من أحكامه ؛ ويفتقر أيضا الى حفظ الأحاديث ، ومعرفة صحيحها من سقيمها ، ومسندها ، ومرسلها ومعضلها ، وتأويل مشتبهها ، وتاريخ المتقدم والمتأخر منها ، الى غير ذلك ؛ ويفتقر الى معرفة مسائل الإجماع وتتبعها فى جميع أقطار الاسلام ، وقل من يحيط بهذا اه .

وقد قال الامام أبو بكر بن العربى فى حق هذه الطائفة فى القواصم والعواصم : إنها أمة سخيفة تسورت مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكّم على رضى الله عنه يوم صفين ، فقالوا : لا حكم إلا لله . وما أدرى أيهما أجهل وأخطر : أطائفة الباطنية أم طائفة الظاهرية ؟

هـذا وإنى ألفت نظرك الى ما أتى به الخوارج والروافض والمعتزلة والظاهرية والوهابية مما تقشعر منه الأبدان وتتبرأ منه الأديان بناء على اجتهادهم المبنى على الوهم دون الفهم . ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، إشفاقا على القارئ . وربما عدنا اليه مرة أخرى .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء



قال الأصمعى : قلت لأعرابى معه شاء : لمن هذه الشاء ؟ فقال : هى لله عندى .

تفسير

سورة والضحى

شىء من سيرته صلى الله عليه وسلم

اقتضت حكمة البارى جل وعلا التفرقة بين الناس ، فجعل منهم الطيب والخبيث والصالح والطالح ، والرضى وغير الرضى ، والقانع والطامع ، والسعيد والشقى .

ولكمال حكمته وعلمه لا يصطفى من كل جنس من أجناس المخلوقات إلا أطيبه فيختصه بنفسه ويرتضيه دون غيره ، لهذا قد اختار رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من أكرم العناصر وأطيبها . اختاره واصطفاه ، فنشأ عليه الصلاة والسلام على مكارم الأخلاق ، حليما وقورا ، رءوفا رحيما، صابرا، سهل الجانب ، لين العريكة ، صديقا صدوقا ، ليس فى صدره غل ، ولا فى نفسه حقد ولا حسد ، متواضعا غاية التواضع لأهل الإيمان ، رحيما على المؤمنين ، شديدا على الكافرين ، عفاً سمحا شجاعا ، بعيدا عن الريب والظنون ، لم يعهد عليه شىء من أوصاف الجاهلية ، بعيدا عن الفحش فى المقال والبذاءة فى اللسان ، بريئا من الكذب والنميمة والغش . ولا غرو فى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى — وقد علم أن سيكون صفيه وخاتم أنبيائه وأكرمهم عنده — قد كلأه بعين عنايته وشمله برعايته . اختاره الله من بين خلقه ، فجعله لسانه الهادى الى طريق الرشاد ، ورسوله الداعى الى محبة الله ، وحبيبه الذى يطلب الى عباده القرب الى الله .

اختاره جل شأنه من خير أهل الأرض نسبا، فنسبه أشرف وأعلى من كل نسب ، شهد بذلك أعداؤه ، شهدوا بأن أشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته ، وأعلى

الأنساب نسبه ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبوه عبد الله ابن عبد المطلب أحب أبناء عبد المطلب اليه . نشأ فى مكة حيث العزة والكرامة والأخلاق الكريمة والشمائل الطيبة . خرج به أبوه حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة وهو يومئذ سيد بنى زهرة شرفا ونسبا ، فزوّجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وحسبا ، فلما بنى بها عبد الله حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن المنية عاجلت عبد الله فلم تكتحل عينه برؤية سيد الخلق فمات والرسول لا يزال جنينا فى بطن أمه .

فولد صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيه بشهور لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل على المشهور . ولد يتيما فلاحظته العناية فحببته الى جده عبد المطلب فصار شغله الشاغل وموضع عنايته ، لا سيما وقد عرفت أنه ابن أحب أبنائه إليه وآثرهم عنده ، فكفله جده عبد المطلب ، وأرضعته امرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها حليمة ابنة أبى ذؤيب ، إذ كانت عادة أعيان أهل مكة التماس المرضعات لأبنائهم ، وكانت نساء الأحياء الأخرى من العرب لفقرهن يحضرن الى مكة حينا بعد حين التماسا للرضعاء نظير لما يرزقنه به من مال تجود به أيدى الآباء بين حين وآخر ، نظير رعاية أولادهم فكن يطمعن فى الملىء ويرغبن فى ذى الجاه والثروة ، ليضمن معاشا رغدا وكسبا وافرا ، فلما أن جئن عقب ولادته صلى الله عليه وسلم أبينه — غير أن رعاية الله التى لاحظته لم تنفك ترعاه ، فكان أن ذلل الله نفس حليمة وأخضعها حيث أراد لها السعادة ، فأرضاها أن تأخذ رسوله بعد أن أبته وأباه المرضعات ، فلما أخذته عوضها الله عن قليل كانت تنتظره بكثير أفاءه عليها ، وبدلها برضا الخلق رضاه سبحانه جل شأنه فحسن حالها ، ويسرت معيشتها ، ودر لبنها ، وكثر كسبها ، بفضل الله وبركة الرسول ، قالت حليمة تخبر خبرها وتحدث بما أصابها من خير بعد أن قبلت محمداً عليه الصلاة والسلام

وضمته إليها : « خرجت أنا ونسوة من بنى سعد ومعى زوجى وابن لى صغير نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء لم تبق شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء[١] ومعنا شارف[٢] لنا والله ما تبض[٣] بقطرة ولا ننام ليلنا من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، كذلك أنا ، إنما نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجده ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : فلا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت : فذهبت اليه فأخذته وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك . ثم استطردت تقص ما جلب الله عليها رضى الله عنها من خير وبركة بفضله صلى الله عليه وسلم .

وما زالت حليمة ترضعه صلى الله عليه وسلم وتحبوه بعنايتها ، ومازال الله تعالى يكرم حليمة ويوفقها ، حتى أتم نعمته عليها ، فكتب لها الإسلام ، فأسلمت هي وزوجها فكانا من الناجين المخلصين .

درج محمد صلى الله عليه وسلم فى أحضان أمه وجده وهما لا يألوان جهدا فى الحرص عليه — غير أنه ما كاد يحس عطف أمه وحدبها عليه حتى كان ما أراد الله ففقد أمه ولما يبلغ السادسة ، فحباه الله عوضا عن ذلك زيادة حب جده له وعطفه عليه ، غير أنه لحكمة أرادها الله قضى جده وقد أوصى به عمه أبا طالب ، فحذا هذا فى تكفله حذو أبيه ولم يغير من أمره شيئا ، بل زاد عطفه عليه ومناصرته له . وكلنا يعلم ما كان

(١) بيضاء . (٢) الشارف : الناقة التى قد أسنت . (٣) أى ما يدر لبنها .

من أمر أبى طالب فى عنايته برسول الله وتحمله الشدائد والأذى من قريش، حتى لقد آلى أن قريشا لن يصلوا الى محمد بأذى حتى يوسد فى التراب دفينا.

نما الرسول إذن بين يدى حليمة، ثم يدى أمه الشريفة الطاهرة، وكفالة جده عبد المطلب، وعناية عمه أبى طالب، فلم يشعر باليتم ولا أحس تغيرا فى الحياة، بل كان ينعم بها ككل أبناء قريش: له مالهم، وقد كان محببا فى قومه يحرص كلهم على إرضائه ويسعون الى التبرك به، وكان موضع الرعاية من أهل عشيرته وأقربائه، تحوطه العناية الربانية، وتحفظه، وتوجهه الى الخير دائما، حتى عرف بين قومه بالأمين، لأنه امتاز عن بقية الفتيان. فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم، وفيه شدة فى الحق، وله من المزايا ما جعله نصيرا للضعفاء حكما بين الخصوم، لم يصدر فى أعماله عن هوى، بل كان يصدر فى أعماله عن قوة خفية تسيطر عليه وتهديه أبداً الى الخير، فكان خلقه من صغره خلق الدين لم يتدنس بدنس الجاهلية قط، حتى لقد حكى أبو طالب ما كان من عناية به، وما رآه منه، قال لأخيه العباس فيما قال: «لقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبنى، وذلك عند مضى بعض الليل، وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده، وكان يقول فى أول الطعام: باسم الله الأحد، ويقول فى آخره: الحمد لله، فتعجبت منه، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكة ولا جاهلية، ولا رأيته وقف مع صبيان يلعبون».

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك، قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة: لو حفظت لى غنمى حتى أدخل مكة فاسمر بها كما يسمر الشبان؛ فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة فسمعت عزفا بالدفوف والمزامير، فقالوا: فلان بن فلان يزوج بفلانة فجلست أنظر اليهم، وضرب الله على أذنى فنمت ما أيقظنى إلا مس الشمس، قال: فجئت صاحبى فقال: ما فعلت؟

فقالت : ما صنعت شيئا ، ثم أخبرته الخبر ، ثم قال : قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس .

ولقد وفق الله نبيه الى طرق الكسب فسافر فى التجارة واتجر بمال لخديجة رضى الله عنها ؛ وكان من شأنه فى التجارة أنه ما اتجر إلا ربح ؛ ولقد تضاعف مال خديجة ببركة تجارته ؛ ولما علمت من شأنه صلى الله عليه وسلم ما أخبرها به ميسرة غلامها مما رآه فى خلقه وفى عناية الله به صلى الله عليه سلم ، وكانت سيدة حازمة شريفة ، رغبت فى الزواج به وتم لها ما أرادت لسبق سعادتها فى الأزل ، فكان زواجها به من فضل الله عليها ، فكانت رضى الله عنها أول من أسلم من النساء : آمنت بالله وبالرسول ، وصدقت ماجاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إنه ما كان يسمع شيئا يكرهه من المعاندين المكذبين فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تخفف عنه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس .

ولقد ساعدته بمالها فى كل ما يطلب ، حتى إنه دخل مرة عليها مغموما لقحط الزمان وأخبرها أنه إن بذل المال ينفد مالها فيستحى منها ، فدعت قريشا ومنهم الصديق فوهبته أمامهم كل مالها مشهدة أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه . ومازال عليه الصلاة والسلام بين قومه تحفه المهابة والوقار ، معروفا كما قدمنا بالأمانة والصدق ، حتى بعثه الله رسولا إلى الناس كافة ، فقام بأمر الدعوة ودعا قومه وعشيرته الأقربين ، وصدع بالدعوة بعد ذلك حيث أمر بذلك (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ) .

وأوحى الله اليه ما أوحى من تعليم وإرشاد ، حتى غضب قومه وتألبوا عليه وألبوا باقى القبائل عليه أيضا ، كل ذلك وهو لا يفتر لحظة عن الدعوة الى الله بكل ما يملك من قوة ؛ وكان الوحى يتتابع عليه بالأوامر ، ثم فتر الوحى عنه مدة قصيرة حتى شق الأمر عليه وحزن من أجله ؛ وكان ذلك بعد أن نزلت سورة « تبت يدا أبى لهب »

وبعد أن ذهبت امرأة أبى لهب تسأل الرسول علام تهجونى فقال : إنى والله ما هجوتك ما هجاك إلا الله تعالى . ثم انطلقت فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأتيه الوحى فرجعت إليه شامتة قائلة : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك ، وشمت المشركون وقالوا مثل ذلك القول ، فكان ذلك سببا فى نزول سورة (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) .

تفسير هذه السورة

أقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى أنه ما ودعه وما قلاه : ما تركه وما أبغضه ، وما كان ذلك ليكون ممكنا بعد أن أكرمه بما أكرمه به ووعده الحسنى وزيادة ، وبعد أن أخبره أنه خاتم المرسلين ، وأن كلمته ستكون هى العليا وكلمة أعدائه السفلى ، فرد بذلك على المشركين زعمهم ، وآنسه صلى الله عليه وسلم ، وأزال الوحشة عنه حيث نفى ما زعموه على أبلغ وجه ، فكأنه يقول له عليه الصلاة والسلام : إن أى نوع يخل بمقامك الجليل لم يوجد ولم يكن فضلا عما زعموه من الترك . وفى التعبير بعنوان الربوبية وإضافته الى ضميره صلى الله عليه وسلم من كمال اللطف ما لا يخفى ، بما يتضمن من النكير على هؤلاء ، فكأنه يقول : كيف يتركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك كمالك اللائق بك ، وكيف يبغضك من أنت حبيبه وصفيه وخليله ؟ إنه لم يتركك ولم يبغضك ، بل أعطاك وسيعطيك من أنواع الكمالات وعليا الدرجات ما ليس فى حسبان أحد من هؤلاء .

والضحى : معروف ، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها . والليل : معروف ، وسجوه : سكون أهله . وذلك يكون غالبا فيما بين طرفيه أو بعد مضى برهة من أوله . وتخصيص الضحى بالإقسام به لأنه شباب النهار . والجواب قوله تعالى : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) أى ما تركك ربك منذ اختارك وما أبغضك منذ أحبك .

والمراد المبالغة فى نفى الترك كما شرحنا ، فهو نظير قوله تعالى : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

قال تعالى : (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ) أى الذى أعطاك ربك فى الآخرة خير لك وأعظم مما أعطاك فى الدنيا ، لأن ما أعطاك فى الدنيا من أنك سيد ولد آدم ، وأنك خاتم الأنبياء والمرسلين باق لك فى الآخرة يزاد عليه السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمتك على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين ، وإعلاء مرتبتهم ، وغير ذلك من الكرامات السنية ، فكان ما فى الآخرة خيرا لك مما فى الأولى لهذا ، ولأن ما فى الدنيا مشوب بالمضار ، وما أوتى عليه الصلاة والسلام فى الآخرة صاف عن الشوائب ، وما أعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الآخرة خير مما أعد لجميع الفائزين . ويكفى لذلك اختصاص المقام المحمود به صلى الله عليه وسلم ، لهذا كانت الآخرة خيرا له من الأولى على الإطلاق . وحمل بعضهم الآخرة على نهاية أمره صلى الله عليه وسلم ، والأولى على بدايته . والمعنى عليه أن نهاية أمرك خير من بدايته ، لأنك ستزداد قوة وتتصاعد رفعة — غير أن حمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا هو الظاهر ، والأنسب لمقام الامتنان .

والخلاصة أن معنى الآية أن الذى أعطاك ربك فى الآخرة خير لك وأعظم من الذى أعطاك فى الدنيا . ووجه ارتباط قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الأولى » بقوله : « ما ودعك ربك وما قلى » أن نفى التوديع والقلى يتضمن أن الله مواصله بالوحى ، وأنه حبيب الله . ولما كان ذلك من أعظم الكرامات على الله ، بل قد لا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه ، أخبره جل شأنه أن حاله فى الآخرة أعظم من ذلك وأجل .

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) عدة شاملة منه جل وعلا لما أعطاه فى الدنيا : من الفلاح ، وانتشار الدعوة ، ودخول الناس فى الدين أفواجا ، والظفر بالأعداء ،

وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن عدة شاملة لذلك ولما ادخره الله له من الثواب الذى لا يعلم كنهه إلا هو. قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن العطية فى قوله تعالى : « ولسوف يعطيك » هى الشفاعة حتى يرضى .

فدلت الآية على خيرى الدنيا والآخرة معا، فقد أعطاه الله فى الدنيا النصر والظفر ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه فى الآخرة الشفاعة العامة والخاصة وهى مزايا لم تعط لغيره ولم يظفر بها أحد سواه ، صلى الله عليه وسلم .

بعد أن أدخل جل شأنه الطمأنينة على رسول الله ، لأنه لم يتركه ولم يبغضه ، وأنه أعد له فى الدنيا والآخرة ما لم يعد لغيره ، وأنه سيعطيه فيرضى ، أخذ يعدد ما أفاض الله عليه فى أول أمره من النعم العظام ، ليكون الحاضر شاهدا على المترقب الموعود ، فيزداد قلبه الشريف اطمئنانا وتزداد نفسه سرورا وانشراحا ، فقال : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ) أى ألم يعاملك طفلا لا أبا لك فضمك الى من قام بأمرك وعنى بشأنك أتم العناية ، وهم جدك ووالدتك وعمك وحليمة السعدية مرضعتك التى رزقها بصحبتك الخير والبركة ، حتى أحبتك واهتمت كل الاهتمام بشأنك . وفيما قدمناه لك من عناية هؤلاء وكفالتهم له وذودهم عنه وقيامهم بشئونه وتحمل بعضهم الأذى فى سبيله ما يشرح لك هذه الآية ويوضحها .

(وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ) : جملة معطوفة على ما قبلها ، أى أما وجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ؟

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من شأنه مع قومه أنه كلما دعاهم الى الدخول فى الدين وبيّن لهم الرشد من الغى وطلب إليهم البعد عماهم عاكفون عليه من الآراء السخيفة وعبادتهم لغير الله ، أبوا وصموا آذانهم عن سماع الحق ، وأعرضوا عن الإصغاء إليه ، واستحبوا العمى ، ورضوا بالضلال والكفر

عنادا واستكبارا، وغلوا فى ذلك غلوّا كبيرا، ولم يقفوا عند حد الإعراض، بل كانوا يؤذونه صلى الله عليه وسلم ويؤذون من آمن به . كل ذلك والنبى صلى الله وسلم لا يترك دعوتهم، ويصبر على أذاهم، داعيا لهم فى كل حال بالتوفيق، حرصا منه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم، لفرط حبه لهداية الناس، وأنه قد بلغ من أمره أنه حزن لإعراضهم حزنا كاد يذهب بنفسه (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) علم أن النبى هاله إعراض قومه عن نور الهداية حتى ألمت الحيرة بقلبه كيف يتخذ الطريق الى إخراج هؤلاء من الظلمات الى النور، علم الله ذلك فهداه الى الصراط السوى فى الدعوة وأرشده الى أحسن المناهج فيها، وعلمه ما لم تصل اليه العقول من الشرائع وعلمه ما لم يكن يعلم، وطلب اليه ألا تذهب نفسه عليهم حسرات، وأنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

وأبان له أن من القوم قوما لا ينفع فيهم الإنذار (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) وبشره فى الوقت نفسه بأن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وأن نصر الله لا بد مؤاتيه، وأن الناس تدخل فى دينه أفواجا . ولقد وقع ما أراده الله من تلك النعم العالية، فصدق وعده، ونصر عبده، وهداه وامتن عليه فقال : « ووجدك ضالا فهدى » .

هذا هو الظاهر من الآية، وهو الأنسب لمقام الامتنان على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمّا أنه صلى الله عليه وسلم ضلت ناقته عن الطريق وهو مسافر الى الشام، أو غاب عن جده عبد المطلب وهو صغير، أو حصل له ذلك وهو لدى السيدة حليمة بعد فطامه، فلا يناسب مناسبة تامة مقام المنة على خاتم الأنبياء وصفوة الخلق وأكملهم عنده تعالى .

(وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنَى) ـ العائل : الفقير . أى علمك فقيرا محتاجا اليه فأغناك به عن كل ما سواه ، فقنعت نفسك فلم تمد عينك الى عرض الدنيا الزائل ولا الى حطامها الفانى . أغناك ربك فلم تأبه لزينة الدنيا ، أغناك فيسر لك المال بما أعطاك من مال خديجة زوجك ومال أبى بكر صديقك ، فلم يجد المال الى نفسك سبيلا ، بل كنت تعين الكل ، وتؤتى المحروم ، وتدخل اليسار على المعسر ، وتؤثر الفقير على نفسك ، لم تر للمال قيمة إلا أنه وديعة عندك تصرفها فى مصارفها مما يعود بالنفع على غيرك من أمتك . أغناك الله عن كل من سواه حيث وجدك عائلا محتاجا الى الجاه والجند والأعوان ، فيسر لك أصحابا يؤثرونك على أنفسهم ، ويسترخصون كل عزيز لديهم فى سبيل مرضاتك ، وينصرونك ويؤيدونك ، فجعل لك منهم جندا وأعوانا ناصروك وقاتلوا معك ، وجعل جاهك أعظم جاه ، وأيدك بالنصر وألقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وجعلك مهيب الجانب ، فكان الذى يلقاك فردا يفرق ويخاف من هيبتك التى جللك الله بها .

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) : لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يرعى النعمة ويقدرها ويشكر عليها ، وكان من شكر النعمة أن يعامل الشخص غيره المعاملة التى تلائم مزيد النعم وتستوجب زيادة الفضل ، أرشده سبحانه وتعالى (الخطاب له ولأمته) الى أن رعاية الناس بلين ورفق من مظاهر الشكر . ولما كان أولى الناس بالرعاية وأحقهم بحسن المعاملة اليتيم ، لأنه عديم الأهلية فاقد القدرة ، يطمع فى ماله الأقوياء ، وكان صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بذلك بما كان يتيما ، ورأى من صنيع الناس باليتامى ما رآه فى صغره ، ورأى ما كان من حدب عمه عليه ونصرته إياه مالولاه لكان للأقوياء شأن عليه ، حضه الله جل شأنه على مواساة اليتيم وعدم قهره وحفظ ماله ، فقال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » ومثل اليتيم كل شخص عدم الأهلية ، وإنما خص اليتيم بالذكر لأنه أظهر فى ذلك من غيره .

ولما كان العلم هو الخير كله، إذ لا منقبة إلا وهو الدليل عليها، ولا مفخرة إلا هو سندها، ولا حسنة إلا هو مفتاحها، ولولاه ما تميز الانسان على الحيوان، ولا وجد الناس طريقا الى الفضل وسبيلا الى المجد، بل ولا الى الكسب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بذلك، أوصاه الله تعالى بطالب العلم خيرا، فقال عز من قائل: « وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ » أى وأما من طلب إليك أن يعلم فأفده ولا تنهره، لأن ذلك هو عماد الدعوة وأساس الهداية، إذ من علم فقد رشد، ومن جهل فقد هلك؛ ولمزيد العناية بهذا ورد الوعيد فيمن علم علما وكتمه. هذا هو الظاهر من معنى الآية، وإن صح حمل الآية على أن المراد بالسائل طالب المال، إلا أن ما قدمناه يجعل حملها على طالب العلم أظهر.

على أنه يصح التعميم فى الأمرين، أى لا تنهر طالب العلم ولا طالب المال، وذلك إرشاد منه تعالى له ولأمته.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ): لأن فى الحديث عن النعمة شكرا لها. وقد روى مرفوعا: من أعطى عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلّ بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور. وقد استحب السلف الصالح التحدث بما يعمله الانسان من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار ليقتدى الناس به فى ذلك. والمراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم من صنوف النعم التى من جملتها ما تقدم.

وخلاصة القول أن الله أرشد نبيه بما معناه أنك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك وهداك وأغناك، فهما يكن من شئ فالواجب ذكر هذه النعم والاقتداء بالله تعالى بالعطف على اليتيم ورحمة السائل. والله أعلم

طه حبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

الفتاوى والأحكام

صلاة العيد

ورد من حضرة بسيونى بيومى أبو طالب ما يأتى :

صلاة العيد هل تصح فى المسجد أم خارجه بجانبه أو فى الصحراء بعيدا عن المسجد ؟

وورد نفس هذا السؤال من حضرة سكرتير لجنة جامع كولمبو الأعظم على الوجه الآتى :

هل يصح للمؤمن أن يصلى صلاة العيد فى تكايا وزوايا صغيرة على مقربة من المسجد الجامع تبعد عنه حوالى مائتى (ياردة) مع أن هذا كما ترون يقالل كثيرا من عدد الحاضرين للمسجد الجامع ؟ وإنى أكون مسرورا إذا تفضلتم علىّ بفتوى عما إذا كان ذلك مسموحا للحنفية والشافعية .

الجواب

تجب صلاة العيد على من تجب عليه صلاة الجمعة بشرائطها سوى الخطبة ، فإنها سنة بعد صلاة العيد . وقد نص الفقهاء على أنه يندب للمصلى الاستياك والاغتسال والتطيب ولبس أحسن الثياب ، ثم يخرج ماشيا الى الجبانة ، وهى المصلى العام ; والخروج

الى الجبانة لصلاة العيد سنة ، وإن وسعهم المسجد الجامع . وكان صلى الله عليه وسلم يصلى العيدين فى المصلى ، وهو الذى على باب المدينة الشرقى ، ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة أصابهم مطر فصلى بهم العيد فى المسجد . وكان من هديه الصلاة قبل الخطبة . وكان إذا انتهى الى المصلى أخذ فى الصلاة بغير أذان ولا إقامة ، ولم يكن هو ولا أصحابه يصلون شيئا قبل صلاة العيد ولا بعدها . من هذا يتبين أن السنة فى صلاة العيد أن تكون فى الصحراء اقتداء بهديه صلى الله عليه وسلم ، ولكن إذا صليت فى المسجد كانت صحيحة . وبما أن صلاة العيد واجبة عند الحنفية على من تجب عليه الجمعة بشرائطها فلا يصح عندهم صلاتها منفردا ، سواء أكان ذلك فى البيت أم فى المسجد . أما صلاتها بجماعة فى زاوية صغيرة أو فى تكية فلا مانع منه متى تحققت شروط الجمعة . ولا شك فى أن الأفضل فى صلاتها هو الإتيان بها على الوجه الذى كان يفعله الرسول عليه السلام ، كما أنه لاشك فى أن صلاتها فى المسجد الجامع خير من صلاتها فى غيره ، خصوصا لمن كان قريبا منه . هذا فى مذهب الحنفية .

أما السادة الشافعية فعندهم صلاة العيدين سنة ، ويسن فيها الجماعة وخطبتان بعدها . والأفضل أن تصلى فى المسجد لأنه أشرف وأنظف ، إلا إذا ضاق فالأفضل أن يصلى بهم فى الصحراء ، ويستخلف من يصلى بالضعفاء فى المسجد .

وقيل الأفضل صلاتها فى الصحراء وإن اتسع المسجد ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم واظب على صلاتها فى الصحراء . وأجاب أصحاب الوجه الأول بأن ذلك كان لضيق المسجد بالمدينة . وكل هذا فى الأفضل ، وإلا فهى تصح فى المسجد وفى البيت وفى غيرهما جماعة وفرادى .

أحكام الجنازة

وورد أيضا من حضرة بسيونى بيومى أبو طالب ما يأتى :

هل تصح صلاة الجنازة فى الصحراء أم فى المسجد أم أمام المسجد أم فى المقبرة ؟ وما حكم الذكر أمام الجنازة، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، وقراءة البردة والأحزاب ؟ — وسأل أيضا عن حكم الصلاة على النبى بعد الأذان، وحكم قراءة سورة الكهف فى المسجد قبل صلاة الجمعة .

الجواب

الصلاة على الميت فرض كفاية، وهى أربع تكبيرات كل تكبيرة منها قائمة مقام ركعة . ومن السنة الدعاء فيها بعد التكبيرة الثالثة بأمور الآخرة، والدعاء بالمأثور أولى نحو : اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا، ونحو : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله . الى آخر ما هو معلوم من هذا، ويسلم بعد الرابعة تسليمتين، ولا قراءة ولا تشهد فيها، ولا يستغفر فيها لصبى ولا لمن بلغ مجنونا أو معتوها لعدم تكليفهم . وتكره صلاتها فى المسجد، سواء أكان الميت داخل المسجد أم خارجه على ما هو ظاهر الرواية . وفى رواية لا تكره صلاتها فى المسجد إذا كان الميت خارج المسجد . والمختار الكراهة مطلقا، وحقق الكمال أنها كراهة تنزيه . وخالفه بعض تلاميذه، ورجح القول بكراهة التحريم لإطلاق المنع فى قول محمد فى موطئه : لا يصلى على جنازة فى مسجد . وكان هديه صلى الله عليه وسلم الصلاة على الجنازة واتباعها ودفنها . وكان يحمد الله ويسأل المغفرة للميت والرحمة له، وكذلك أصحابه . وكان يصلى عليه خارج المسجد . ولم يكن من هديه الراتب الصلاة عليه فى المسجد، غير أنه صلى أحيانا على الميت فى المسجد، ولكن لم يكن ذلك عادته . وعليه فالصلاة على الميت تكون خارج المسجد، سواء فى ذلك المقبرة وغيرها، وتصح فى المسجد .

أما الذكر أمام الجنازة ورفع الصوت بالقراءة أو بإنشاد بعض الشعر وما ماثل ذلك، فقد سبق أن كتبت عنه المجلة فى العدد السابع من السنة الثالثة، فليراجع .

وكذلك كتبت عن حكم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان، وكتبت عن حكم قراءة سورة الكهف فى العدد الثانى من السنة الرابعة .

صلاة الجمعة فى القرى

وورد من حضرة أحمد افندى فرج ناظر مدرسة دماط الإلزامية ما يأتى :

كثير من الناس يترك صلاة الجمعة فى القرى معتمدين على أن صلاتها على مذهب الحنفية أن تكون فى مصر، وأن المصر ما كان له حاكم وقاض ينفذ الأحكام ويقيم الحدود، فهل العمدة ومأذون الشرع الشريف يقومان مقامهما أم لا ؟ ... وإذا كان الجواب بالإيجاب ووجوبها على أهل القرى، فهل تغنى عن الظهر مع تعدد المساجد ؟

الجواب

من شروط صحة الجمعة عند الحنفية المصر، وهو ما لا يسع أكبرُ مساجده أهلَه المكلفين بها، وعليه فتوى أكثر الفقهاء. وبناء على ذلك تكون الجمعة واجبة على أهل القرى إذا كان مسجد القرية الكبير لا يسع أكثر المكلفين بها. أما تفسير المصر بأنه كل موضع له أمير وقاض ينفذ الأحكام ويقيم الحدود، فهو رأى آخر لأبى يوسف رحمه الله، وليس مفتى به، وبالتطبيق عليه لا تجب الجمعة على أهل القرى .

ومن الواضح أن العمدة والمأذون لا يقومان مقام الأمير والقاضى، لأن اختصاص العمدة لا يشمل إقامة الحدود والفصل فى الخصومات، كما أن اختصاص المأذون لا يتجاوز التوثيق فى عقود الزواج وما يقع من طلاق . على أنك قد علمت أن المفتى به هو تفسير المصر بأنه ما لا يسع أكبر مساجده أهله المكلفين بها، ولا يصح الجرى على غير المفتى به . ومتى صحت الجمعة أغنت عن الظهر عند الحنفية . والله أعلم .

القرآن لفظا ومعنى

وورد من حضرة محمد جودت بدر حباتر ما يأتى :

هل نزل القرآن الكريم بالمعنى وعبر عنه باللفظ فقط ، أم نزل باللفظ فقط ، مع أن كلام الله ليس بصوت ؟ وما الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسى ؟

الجواب

القرآن هو اللفظ العربى المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، المتواتر ، فالمنزل هو اللفظ المقروء . أما الحديث القدسى فهو ما أسنده النبى صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ، ولا يلزم أن يكون متواترا ولا هو متعبد بتلاوته ولا متحدى به . أما كلام الله الذى هو صفة له عز وجل منافية للسكوت والآفة ، فليس من جنس الحروف والأصوات ، ولا يختلف الى الأمر والنهى والإخبار ، ولا يتصف بالماضى والحال والاستقبال إلا بحسب التعلقات والإضافات .

وجملة القول أن المنزل والمقروء ليس هو الصفة القديمة كما هو ظاهر . والله أعلم .

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

حكم صلاة الظهر بعد الجمعة

ورد على إدارة المجلة عدة أسئلة تتعلق بهذا الموضوع ، فجوابا عليها نقول :



الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قد فرض الله على عباده خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وهى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، وفرْض يوم الجمعة هو صلاة الجمعة متى استوفت شروطها ، فإن لم تستوف شروطها فالفرض الظهر كباقى الأيام ، لا يخالف فى ذلك أحد .

وقد اشترط الشافعى لصحتها ألا يسبقها ولا يقارنها جمعة فى مكانها ، أى فى البلد الذى أقيمت فيه . هكذا نص الشافعى ، وعلّله الأصحاب بأنه صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده لم يقيموا فى البلد الواحد إلا جمعة واحدة ، ولأن المقصود من الجمعة إظهار شعار الاجتماع ، واتفاق الكلمة ، وكونُها جمعة واحدة أفضى الى هذا المقصود .

وقد دخل الشافعى بغداد وفيها يقام جمعتان ، وقيل ثلاث ، فلم ينكر على أهلها ، فاختلف الأصحاب فى الجمع بين نصه على عدم جواز التعدد وسكوته عن إنكار التعدد : فنهم من قال : إن التعدد فى بغداد كان لحاجة ، ونصه محمول على ما إذا لم يكن هناك حاجة للتعدد ولم يعسر الاجتماع . وعليه أكثر الأصحاب ، بل قال الرويانى : إن مذهب الشافعى لا يحتمل إلا هذا . ومنهم من قال : بل كانت بغداد يشقها نهر الى قسمين ، وفى كل قسم جمعة ، والتعدد حينئذ يجوز . وقال بعضهم : كانت قرى منفصلة ثم تلاصقت ، والتعدد

يجوز فى هذه الحال . ومنهم من قال : إن مذهب الشافعى هو ما نص عليه من عدم جواز التعدد مطلقا ، وأما سكوته عن الإنكار على أهل بغداد فلأن المسألة اجتهادية ، وليس للمجتهد أن ينكر على مجتهد فى ذلك . وإذا جرينا على ما عليه الأكثر من جواز التعدد لحاجة ، فللحاجة صور ، منها أن يكثر أهل المصر بحيث لا يسعهم مكان واحد ، مسجدا كان أو غيره ، وأن تبعد أطرافه بحيث يشق السعى منها الى مكان واحد ، وأن يوجد بين أهله خصومات تؤدى الى فتن لو اجتمعوا فى مكان واحد ، وأمثال ذلك .

وعلى هذا فاذا لم تتعدد الجمعة أو تعددت وعلم السابق لا يجوز إعادة الجمعة ولا الظهر ، أما عدم إعادة الجمعة فلسبق جمعة صحيحة لها ، وأما عدم جواز إعادة الظهر فلأن فرض اليوم هو الجمعة لا الظهر ، وهذا بالنسبة لأهل الجمعة السابقة ، أما أهل الجمعة المسبوقة ، فإن قلنا بعدم جواز التعدد مطلقا فعليهم إعادة الظهر ، وإن قلنا بجوازه لحاجة ، وكان هذا التعدد لحاجة ، فيسن لهم إعادة الظهر ، خروجا من خلاف من يمنع التعدد مطلقا ، وإن كان هذا التعدد بلا حاجة فعليهم إعادة الظهر حتما ، لأن جمعتهم لم تستوف شرط صحتها وهو عدم سبق جمعة صحيحه لها ، فإن اقترنتا وجب عليهم جميعا إعادة الجمعة ، لأنه لم يسبق جمعة صحيحة وهم من أهلها ، فإن شك فى السبق والمقارنة أو علم السبق ولم يعلم السابق ، وجب عليهم جميعا إعادة الظهر ، أما فى حالة الشك فللاحتياط للخروج من عهدة التكليف بيقين كما شغلت الذمة بفرض الجمعة بيقين ، فانه يحتمل المقارنة فتكون جمعتهم كلهم باطلة ، ويحتمل السبق ، وكل من الطرفين يجوز أن يكون هو المسبوق ، وأما فى حالة ما إذا علم سبق ولم يعلم مَن السابق ، فلأن كلا منهما يحتمل أن يكون هو المسبوق ، فيكون الفرض لا يزال فى ذمته .

وعلى ذلك تكون الخلاصة أنه إذا لم تتعدد الجمعة لا يجوز إعادتها جمعة ولا ظهرا ، وإذا تعددت لغير حاجة ، فإن سبقت إحداها وعلمت فهى المعتد بها ، وعلى الآخرين إعادة الظهر ، وإن قارنت وجب على الجميع إعادة الجمعة لبطلان الجمعتين بالمقارنة ،

وإن سبقت إحداها بيقين ولكن لم تعلم السابقة ، وجب على الجميع إعادة الظهر ، وإن شك فى السبق والمقارنة وجب على الجميع إعادة الظهر .

وبهذا يتبين جهل من يرمى الشافعية بأنه يلزم مذهبهم أن تكون فرائض الصلاة ستا فى أحد الأيام وقد جعلها الله خمسا ، فهذا كلام لا يصدر إلا عن مسرف فى المجازفة والافتيات على أئمة الدين بدون أن يتفهم كلامهم ويعرف مستندهم ، فقد رأيت مما تقدم أنهم استندوا فى وجوب أن تكون جمعة البلد الواحدة واحدة الى ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده من أنهم لم يقيموا فى البلد الواحد إلا جمعة واحدة . والحكمة فى ذلك واضحة ، وهى أن المقصود من الجمعة إظهار شعار الاجتماع واتفاق الكلمة ، ولا شك أن تعدد الجمعة فى البلد الواحد لا يفضى الى هذا المقصود إفضاء وحدتها ، فمن الذى ينكر ما فى اجتماع أهل البلد الواحد كل أسبوع مرة فى مكان واحد : يتعارفون ، ويتوادون ، ويتعهد بعضهم بعضا ، ويجددون رابطتهم ، من الفائدة العظمى التى لا يزال الدين يرمى الى أمثالها .

وإذ قد ثبت عند الشافعى أن وحدتها شرط لصحتها بالدليل النقلى المسند بالنظر العقلى ، فكل ما فقد شرط صحته من العبادات فهو غير مجزئ ، وإذا لم تقع الجمعة مجزئة فالظهر واجب بإجماع المسلمين . والمراد بأهلها الذين لا يسعهم مكان واحد ، مَن يغلب صلاتهم لها فى البلد . وقيل من تجب عليهم ، وقيل من تصح منهم . واعتمد الرملى الأول . ثم العبرة فى السبق بسبق الإمام بتكبيرة التحريم ، أى بتمام (الراء) من (أكبر) وقيل العبرة بسبق بدء الإمام بالتحريم ، أى بهمزة (الله) . وقيل بالسلام . وقيل بالخطبة .

ولنتل عليك عبارة الأم التى هى أصل نص الشافعى فى هذا الموضوع : «ولا يجمع فى مصر وإن عظم أهله وكثر عامله ومساجده إلا فى المسجد الأعظم ، وإن كانت له

مساجد عظام لم يجمع فيها إلا فى واحد ، وأيها جمع فيه أولاً بعد الزوال فهى الجمعة ، وإن جمع فى آخر سواه بعده لم يعتد الذين جمعوا بعده بالجمعة ، وكان عليهم أن يعيدوا ظهرا أربعا » . ثم قال : « وإن أشكل على الذين جمعوا أيهم جمع أولاً ، أعادوا كلهم ظهرا أربعا » والله سبحانه وتعالى أعلم .

ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

قال أبان بن تغلب :

شهدت أعرابية توصى ولداً لها أراد سفرا وهى تقول : أى بنى : اجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقك ، قال أبان : فوقفت مستمعا لكلامها ، مستحسنا لوصيتها ، فاذا هى تقول : أى بنى : إياك والنميمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ؛ وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته ، حتى يهى ما اشتد من قوته ؛ وإياك والجود بدينك ، والبخل بمالك ؛ وإذا هززت فاهزز كريما ، يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها ؛ ومثّل بنفسك مثال غيرك ، فما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فان المرء لا يرى عيب نفسه ، ومن كانت مودّته بشره ، وخالف منه ذلك فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها .

ثم أمسكت ، فدنوت منها فقلت لها : بالله يا أعرابية إلا مازدته فى الوصية ؛ قالت : أوقد أعجبك كلام العرب ياحضرى ؟ قلت : نعم ، قالت : الغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء ، فقد أجاد الحُلة رَيْطتها [1] وسربالها .

(١) الملاءة غير ذات اللفقين .

قرار

هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

فيما يجب على الأمة الاسلامية اتخاذه إزاء أعمال المبشرين

فى يوم الاثنين ٣ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (٢٦ من يونيه سنة ١٩٣٣) اجتمعت هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر الشريف تحت رياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بناء على الدعوة الموجهة إليهم من فضيلته .

وقد عرض عليهم فضيلته فى هذا الاجتماع ما استفاضت به الأخبار من قيام (المبشرين) بتنصير أبناء المسلمين وفتياتهم فى مختلف الجهات بما يتخذونه من وسائل الحيل والخديعة والإغراء تارة ، وضروب العنف والإرهاب تارة أخرى .

وبعد البحث والمداولة قررت الهيئة ما يأتى :

أولاً — مطالبة الحكومة بأن تسن تشريعاً حازماً حاسماً يجتث بذور هذا الفساد ويستأصل شأفة هذا المرض الوبيل الفتاك ، كى يطمئن المسلمون على الدين الاسلامى القويم والقرآن المجيد ، وكى يكون أولادهم وإخوانهم وأقاربهم فى مأمن من أن تصل إليهم يد بالاعتداء أو الإغراء لتحويلهم عن دينهم .

وقد عهدت فى تنفيذ ذلك الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ليقوم بمطالبة الحكومة بسن هذا التشريع .

ثانياً — إصدار البيان الآتى :

بيــــان

الى الامة الاسلامية

من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

أيها المسلمون : لقد استفاضت الأخبار بما يعمله هؤلاء الذين يسمون أنفسهم (مبشرين) وعمت البلاد من أولها الى آخرها ، ووصل الى علمكم أنهم يتخذون الوسائل الفظيعة الى تنصير أطفال المسلمين ، وضعفاء العقول منهم ، وأنهم لا يخجلون من ارتكاب ما لا يجيزه عقل ولا فطرة ، وما يحمرّ منه وجه المروءة والفضيلة ، ويجعلون ذلك طريقا لإخراج الشاب المسلم الضعيف الإدراك من دينه .

فإذا أعيتهم الحيلة عمدوا (على ما جاء فى الصحف) الى التخدير والتنويم ، فإذا لم يفدهم هذا عمدوا الى الإرهاب والتعذيب حتى يصلوا الى بغيتهم .

ولقد انبث هؤلاء المبشرون فى المدن والقرى ، وأتقنوا الحيل : فظهروا أمام ضعفاء العقول بمظهر رسل الرحمة ، فأنشئوا المستشفيات تقبل المرضى وتعالجهم مجانا ، وأنشئوا المدارس تقبل أولاد الفقراء وتعلمهم بلا مقابل ، وبنوا الملاجئ تقبل المعوزين وتوسع عليهم فى النفقة — عمل ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه فيه الختل والخداع .

فأقبل ضعفاء الإدراك والعقول على مستشفياتهم ومدارسهم وملاجئهم ، ورائدهم حسن النية ، لا يدرون أن وراء الأكمة ما وراءها .

إنهم أيها المسلمون يتخذون من هذه المستشفيات والمدارس والملاجئ شباكا يصطادون بها ضعفاء العقول من الأطفال والمرضى والفقراء والمعوزين .

أما فى المستشفيات فإن المبشرين ينتهزون من مرض المسلم وفقره وضعفه وحاجته الى الصحة فرصة لزحزحته عن دين الإسلام .

وأما فى المدارس فإنهم يعلّمون أولاد المسلمين أمورا هى ضد الدين الاسلامى وضد محمد صلى الله عليه وسلم ، وضد القرآن الكريم ، يبثون ذلك فى الدروس كالسم فى الدسم ، ويصورون للأطفال محمداً صلى الله عليه وسلم تصويرا مخيفا مزعجا ، ويفترون على الدين الإسلامى ، والقرآن المجيد ما شاءوا أن يفتروا ، ويرغمون هؤلاء الأطفال على تأدية صلواتهم ، معتمدين فى ذلك كله على أن الأطفال ضعفاء الإدراك يسهل تشكيكهم وتحويلهم عن دينهم .

وأما فى الملاجىء فإنهم يتصيدون الفقراء الذين مسهم الضر ثم يضعونهم فيها فيطعمونهم ويكسونهم ، وعند ذلك يتصرف المبشرون فى عقائدهم الدينية حتى يخرجوهم من دين الاسلام .

فإذا تم لهم ما أرادوا اجتهدوا فى قطع صلة من نصّروه بأهله وذوى قرابته ، وربما غربوه الى البلاد البعيدة التى لا يرجع منها الى بلاده .

أيها المسلمون : إن مما فرضه الله على العلماء أن يذكّروكم بما يوجبه الإسلام عليكم نحو هذه الأعمال الضارة بدينكم وأولادكم وإخوانكم وأمتكم .

فالواجب عليكم شرعا أن تحبطوا أعمال المبشرين ، وتباعدوا بينهم وبين أولادكم الذين هم فلذات أكبادكم .

يوجب عليكم الاسلام أن تنبذوا وتهجروا كل من يعرض ابنه أو بنته أو قريبه للدخول فى هذه الأماكن الخبيثة والبيئات الضالة المضلة .

إن من يُدخل ولده أو مريضه فى هذه الأماكن الموبوءة بعد أن افتضح أمرها وتبينت الأعمال المروعة التى ترتكب فيها لهو الرجل المحتقر فى نظر الدين بل الخارج من حظيرة الاسلام إن كان عالما بتلك النتائج التى يقصدها المبشرون راضيًا بها .

فيجب عليكم معاشر المسلمين أن تهجروه ، ولا تمكنوه من معاملتكم ، ولا يكون له فى قلوبكم أى ميل أو عطف ، حتى يشعر بعظم ما ارتكب فى حق دينه وأولاده وعشيرته فيفيء الى أمر الله ، ويرجع عن غيه ، ويخرج صغيره أو قريبه من الظلمات الى النور .

أيها المسلمون : هل ترضون لأولادكم وإخوانكم أن يتخذوا غير الاسلام ديناً والله تعالى يقول : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ) .

وهل ترضون أن يرتدوا عن الإسلام والله تعالى يقول : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وهل يسوغ لكم أن تسلموا أولادكم الى طائفة المبشرين وتخدعكم حيلهم والله تعالى يقول : (يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) .

وهل ترضون لبناتكم المسلمات أن يكن زوجات لمن ليسوا على دين الإسلام فيتصرفوا فى أعراضهن ودينهن .

أين نخوتكم الإسلامية ، وأين غيرتكم على دينكم وأحسابكم وأنسابكم الكريمة !

أيها المسلمون : إذا أنتم تهاونتم فى أمر دينكم فماذا يكون موقفكم غدا بين يدى الله تعالى : (يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا) !

أيها المسلمون : لقد علمتم أن أعمال هؤلاء المبشرين قامت على المستشفيات والمدارس والملاجىء ينشئونها فى المدن والقرى ، ويتصيدون لها من هنا ومن هنا من أوقعهم الفقر وسوء الحظ فى حبائلهم .

فالإسلام يوجب عليكم أن تجتثوا الوباء من أساسه، فتنشئوا مثل هذه المستشفيات والمدارس والملاجئ، وتقوموا بالنفقة عليها، إنقاذاً لدينكم وأعراضكم، ومنعاً لفقرائكم ومعوزيكم من الذهاب الى تلك الأمكنة الموبوءة التي علمتم أغراض المبشرين من إنشائها.

قال الله تعالى: (وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ).

وقال الله تعالى: (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ).

وقال الله تعالى: (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

أيها المسلمون: إن إنقاذ الدين الإسلامي وأولاد المسلمين بإنشاء مثل هذه المستشفيات والمدارس والملاجئ والإنفاق عليها واجبٌ على الأمة الاسلامية حكومةً وشعباً على اختلاف الطبقات، وفي المقدمة العلماء، كل بحسب قدرته وما يستطيع بذله.

وواجب العلماء أن يبذلوا أموالهم ونصحهم وإرشادهم الناس بالحجة والبرهان الى معرفة مايوجبه الدين الاسلامي عليهم في هذا الأمر.

وواجب الحكومة التي تعنى بالمحافظة على الأرواح والأموال أن تقوم بحراسة الدين، وأن تنقذ أولاد المسلمين من مخالب المبشرين، وأن تضع تشريعاً حاسماً يستأصل ضلال المبشرين من الدولة المصرية.

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ).

وعلى أثر صدور هـذا القرار تبرع لمشروع مقاومة التبشير المشار إليه فى القرار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الأحمـدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر بمبلغ ٢٠٠ مائتى جنيـه ، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشـيخ عبد المجيـد سليم مفتى الديار المصرية بمبلغ ١٠٠ مائة جنيه ، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر بمبلغ ٥٠ خمسين جنيها ، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين والى بمبلغ ٥٠ خمسين جنيها ، وتبرع كثير من كبار العلماء بمبالغ مختلفة .

ونرجو أن يكون هـذا التبرع الكريم فاتحة اكتتاب تبسط له الأمة أيديها بسخاء وكبرهمة حتى تبلغ الغاية الكافية لتحقيق هذا المشروع الجليل .

الطُرف والمُلح

قال الشاعر :

وآنف من أخى لأبى وأمى إذا ما لم أجـده من الكرام
ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى إلى جد همام
ولم أر فى عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

حول حوادث التبشير

كنا نحسب أننا فى عصر يعرف فيه الأفراد والجماعات ما لغيرهم من الحقوق ، ويقومون فيه على حسن المعاشرة محتفظين بما ينبغى أن يكونوا عليه من الآداب المرضية ، وهو المسلك الذى يرفع لواء السلام ، ويبسط ظلال الأمن فى البلاد ، ويمكّن الجماعات المختلفة فى الملل والمذاهب أن يعيشوا فى وطن واحد ، يتعاونون على مصالحهم المشتركة ، وتستقل كل جماعة بمصالحها الخاصة دون أن تلحق بغيرها ضررا . ولكن المبشرين من البلاد الأجنبية يهبطون بلاد الاسلام ويستخفون بأدب حسن المعاشرة ، ويرتكبون الطرق المعوجة فى دعايتهم ، فينتهزون جهالة بعض الشبان المسلمين ، أو الشابات وغفلة أوليائهم فرصة لإفساد عقائدهم ، وإخراجهم الى ملة غير ملتهم .

وقد غلب قصدهم الى هذا الغرض السيىء فلم يراعوا حتى مصلحة مدارسهم ومستشفياتهم التى يدّعون أنهم فتحوها لخدمة العلم والانسانية ، فان ما ظهر من حوادث تغريرهم للفتيان والفتيات المرة بعد الأخرى ، لما ينبه الناس للتهلكة التى يلقون فيها بأبنائهم إذا هم زجوا بهم فى هذه المدارس ، أو حملوهم ليعالَجوا فى هذه المستشفيات ، ومن الذى يرضى لابنه أو قريبه الانسلاخ من الدين الحق ؛ وأى فائدة لهم فى علم يُخالط بزيغ العقيدة ؛ وأى فضل لأخلاق لا تقوم على قرارة الايمان ؛ ومن أرسل ناشئا جعله الله تحت ولايته الى أمثال هذه المدارس أو المستشفيات وهو يعلم ما تفعله من إفساد العقائد فقد سفه نفسه ، وخسر ابنه ، وباء بغضب من الله .

وقد اشتد ألمنا لصنيع هؤلاء المبشرين ، وكنا نود أن يدركوا من أنفسهم أن للنزلاء آدابا يحسن منهم الوقوف عندها ، ومن هذه الآداب أن لا يتعرضوا لإفساد عقائد أبنائنا وبناتنا ، ويتجنبوا إثارة الفتن بمحاولة تنصيرهم ، ولكنهم لم يشاءوا إلا أن ينبذوا هذا الأدب جملة ، حتى ذهبوا فى إغواء بعض البنات أو البنين مذهب الإرهاق زيادة على طريقة الاستدراج والإغراء .

ومن حوادثهم الجديدة ما جرى فى مدرستهم المسماة « مدرسة السلام » ببور سعيد ، ومن أشنع هذه الحوادث أن مبشرة أجنبية هنالك كانت تستهوى فتاة مسلمة الى النصرانية ، ولما لم يُجدِها الاستهواء بالقول نفعا ، عمدت الى تعذيبها بالضرب حتى اضطرت الفتاة تحت هذا الإرهاق الى التظاهر بالدخول فى النصرانية . وظهر على ما روته الصحف أيضا أنهم توسلوا الى تنصير فتاة مسلمة بتأثير التنويم المغنطيسى ، وزوجوها من داعية لهم نصرانى زعموا لأمها أنه مسلم ، الى ما يشا كل هذا من الحوادث التى تنكرها الشرائع وتتبرأ منها الانسانية الفاضلة .

وقد فزع لهذه الحوادث الفظيعة الشعب المصرى بأجمعه ، ونودى بالاحتجاج عليها من كل ناحية . ومقاومة هذا الخطر الذى لا يطاق ، تتحقق من ناحية الأهالى بامتناعهم من إدخال أبنائهم أو بناتهم فى مدارس عرفت بمحاولة إفساد عقائد البنين والبنات ، وببذل المال لإنشاء مستشفيات وملاجئ يأوى اليها الأيتام والفقراء بدل مستشفيات أولئك المضلين وملاجئهم . ومن ناحية الحكومة باتخاذ الوسائل الكافية لإنقاذ النشء من شرور هذه الأخطار .

فجلة نور الاسلام تنكر هذه الحوادث المزعجة أشد الإنكار ، وتنصح المسلمين بالكف عن إرسال أبنائهم الى هذه المدارس المفسدة لعقائدهم ، المجرّدة لهم من آداب

دينهم ، الباثّة فيهم بغض أهلهم وعشيرتهم ، ونؤمل من رجال حكومتنا الرشيدة أن يدبروا الوسائل الحكيمة الى قطع هذه الحوادث الممقوتة ، حتى لا يتجدد أمثالها ، وتأمن الأمة على دينها ، ومستقبل أبنائها . وفى دفع أذى هؤلاء المبشرين بالتى هى أقوم قطع لأسباب فتن نحن فى حاجة الى أن نضع مكانها أمناً وسلاماً .

الطرف والملح

قال معن بن أوس :

ورثنا المجد عن آباء صدق
أسأنا فى جوارهم الصنيعا
إذا المجد الرفيع تعاورته
بُناة السوء أوشك أن يضيعا

حلقة جديدة

من سلسلة المآثر العديدة

التى لجلالة مولانا الملك **فؤاد الاول** وأياديه البيضاء على مصر

تجديد

كوبرى الخديوى اسماعيل والاحتفال بافتتاحه رسميا

منذ جلس جلالة مليكنا المعظم على عرش مصر وهو دائب على ترقية شئونها وترفيه أحوالها ، ورفع مكانتها بين الأمم . فما من سبيل الى نشر العلوم والفنون إلا سلكه بها ، ولا وسيلة من وسائل الحضارة والتجديد إلا أمر باتخاذها ، فمهما قلبت طرفك فى أنحائها ، وجلت بفكرك فى المقارنة بين ماضيها وحاضرها ، بهرتك الآيات البينات ، والشواهد القائمات على ما لهذا الملك العظيم من العقل الرصين ، والحكمة السامية ، والخبرة الواسعة بتدبير شئون مملكته ، وتصريف زمامها ، وتوجيه رعيته الى الخير .

ناهيك بالجامع الأزهر وكلياته ومعاهده الدينية ، وبالجامعة وفروعها ، ودور العلم المختلفة ، والمدارس العالية ، ومعاهد التربية ، ومكاتب التعليم الالزامى ، ودور الصناعة والمنشآت الكبيرة ، كالمستشفيات ، والملاجئ ، والمساجد ، وأندية الرياضة البدنية ، والمطارات والكبارى ، والجسور ، والترع ، وغير ذلك مما لا يأتى عليه عد ولا يبلغه حصر .

وآخر منقبة من هذه المناقب الخالدة أمره بتجديد الكبرى الذى كان مقاما على ضفتى النيل بجوار قصر النيل، وكان يطلق عليه «كوبرى قصر النيل».

قامت حكومته المسارعة الى تلبية دعوته فى كل ما يعود على البلاد بالراحة والرخاء، القائمة على تنفيذ إرادته الملكية، فعهدت الى شركة (دورمان لونج) بهذا العمل على أن تنجزه فى ثلاثين شهرا من أول يناير سنة ١٩٣١، فأنجزته فى سنتين وشهرين وخمسة أيام، وكانت نفقة إنشائه ٢٩١٩٥٥ جنيها، وسلمته عقب إتمامه الى وزارة المواصلات وهو يمتاز عن الكوبرى القديم بفرط متانته، وقوة رسوخ دعائمه، وزيادة مساحته طولا وعرضا، فجاء أحسن مرفقا، وأتم راحة ويسرا.

جعل يوم ١٣ صفر سنة ١٣٥٢ الموافق ٦ يونيه سنة ١٩٣٣ ميقاتا للاحتفال بافتتاح هذا الكوبرى الجديد الذى سمى (بكوبرى الخديوى اسماعيل) تخليدا لذكر ذلك الرجل العظيم، صاحب المآثر العديدة على مصر.

فكان يوما تاريخيا مشهودا جديرا بأن يعد من أيام هذا العهد الفُؤادىّ المبارك.

نصب أمام الكوبرى من الجهة الغربية سرادق فخم فرش بالطنافس الفاخرة وصفّت فيه الكراسى المذهبة المخملة. وفى الموعد المحدد توافد إليه وزراء الدولة ورجال الدين، يتقدمهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وكبار الأمة من شيوخ ونواب وموظفين وغيرهم. ثم شرفه جلالة الملك المعظم، فاستقبل بالإجلال والإعظام، وكان بدر الاحتفال المنير، تحوطه المهابة، وتلوح على محياه الكريم علائم البشر واللذة لإتمام هذا العمل الجليل.

وقد ألقى بين يدى جلالته سعادة وزير المواصلات كلمة شكر واعتراف بما لجلالته من الأيادى المشكورة، وذكر نبذة وجيزة فى تاريخ الكوبرى القديم ووصفه ونفقته

وفى السبب الذى دعا لإنشاء الجديد . ثم ألقى النائب عن الشركة كلمة بالانجليزية لا تخرج عما ذكر .

وبعد ذلك تفضل جلالة الملك فافتتح بيده الكريمة طريق الكوبرى الجديد وودّع كما استقبل : بقلوب وامقة تحفظ له عوارفه الكثيرة ، مقرونة بالشكر الخالص وعيون رامقة تملؤها مهابته إكبارا وإعظاما ، وألسنة داعية بدوام ملكه السعيد ، وعطفه على رعيته ، قرير العين بسمو ولىّ عهده الأمير فاروق ، حرسه الله للبلاد ذخرا وعتادا .

الرسالة الخالدة

أو

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وهى الحلقة الثانية من سلسلة المعارف التاريخية الاسلامية التى يقوم بتأليفها فضيلة الأستاذ الأديب الشيخ محمد حسين النجار المحامى الشرعى بأسيوط .

تكلم فيها عن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحال الأمم قبل بعثته الشريفة التى نقلت الأمم من وحشية واضطراب الى سلم ونظام ، ببيان عذب وأسلوب رصين ، فجاء كتابا وافيا نافعا .

فنشكره على هذا العمل الجليل . طبع بالمطبعة الأهلية بأسيوط طبعا متقنا فى ورق جيد . ويطلب من حضرة المؤلف .

قرار

من العلماء فى كلية الشريعة الاسلامية

فى يوم الثلاثاء ٤ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (٢٧ من يونيه سنة ١٩٣٣) اجتمع حضرات أساتذة كلية الشريعة الاسلامية برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الكلية ، وتداولوا فيما يقوم به المبشرون من أعمال تنفر منها العقول السليمة ، وفيما يجب على المسلمين عامة والعلماء منهم خاصة نحو ذلك فأصدروا البيان الآتى :

اطلعنا على القرار الحكيم الذى أصدرته هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف فى شأن التبشير والمبشرين ، فوجدناه قد كشف الداء ووصف الدواء ، وأبان عن حكم الله ورسم للمسلمين المحجة البيضاء — ولا عذر بعد البيان .

وإنا لنؤيد ذلك القرار ، ونرى أنه هو الدواء الحاسم لصد عدوان المبشرين ، ونضم صوتنا الى صوت هيئة كبار العلماء فى مطالبة أولى الأمر بسن تشريع حازم حاسم يقطع على أولئك المهرجين سبيلهم ، ويطمئن المسلمين على دينهم وعلى أطفالهم وذوى الحاجة والضعفاء منهم .

وإن الحكومة إذ تسن هذا التشريع تعمل على صون الأمن فى البلاد ، وعلى إطفاء نار الفتنة التى يوقدها هؤلاء المبشرون دائما بما يرتكبون من استهواء أبناء المسلمين ، وصرفهم عن دينهم واستعمال وسائل غير مشروعة : من إغراء القاصرين والقاصرات تارة ، ومن ضربهم وسجنهم وتعذيبهم تارات أخر ، الى غير ذلك من الأعمال

التى تهيج شعور المسلمين وتثير الفتن والقلاقل وإن تشريعا يحفظ على الأمة الاسلامية دينها لهو عمل إنسانى جليل، يصون المبادئ السامية، ويعزز الفضيلة ومكارم الأخلاق وينشر السلام بين الناس جميعا، فالاسلام دين السلام والمحبة والوئام .

وإننا ندعو الأمة كما دعاها هيئة كبار العلماء ألا يدخلوا أبناءهم وبناتهم مدارس المبشرين ولا ملاجئهم ولا مستشفياتهم ، لأنهم يسلبونهم فيها أعز شىء لديهم وهو دينهم، وذلك هو الخسران المبين .

وندعو الأمة كلها الى أن يتواصوا فيما بينهم بالنصح والإرشاد أن يمتنعوا من معاملة هؤلاء النفر الذين يرسلون أبناءهم الى مدارس المبشرين ، بعد أن ظهر للعيان ضررها البليغ فى الدين ، وبعد أن تبينت مقاصد هذه الفئة التى سمت نفسها بالمبشرين ، وأن يتوخوا فى ذلك سبيل الحكمة والسكينة والهدوء . وليتنبهوا الى أن أى اعتداء على أى شخص هو أكبر عقبة فى سبيل العاملين الدين .

كما أننا ندعو أغنياء الأمة وموسريها أن ينموا فيهم عاطفة الرحمة بالفقراء والضعفاء ببذل اليسير مما أنعم الله عليهم من الأموال فى سبيل إنقاذ هؤلاء البائسين من هواة الفساد . وسنكون من أول الباذلين لأموالهم فى هذه السبيل (الراحمون يرحمهم الرحمن) .

ساهموا أيها المسلمون فى بناء المستشفيات والملاجىء والمدارس لإيواء إخوانكم وأبنائكم وذوى الحاجة منكم ، ولا تلجئوهم الى أن يدخلوا فى تلك النار المستعرة مضطرين فى صورة مختارين (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ) .

الأزهر
وجامعة المسجد الأقصى

رد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

على حديث الوفد الاسلامى المسافر فى الهند

حديث لفضيلته مع المقطم

نظم التعليم فى الأزهر — عدد الطلاب الاجانب فى الازهر وطرق دخولهم — رأى فضيلته فى فلسطين — مصر قلب الاسلام النابض .

نشرت جريدة الأهرام يوم الأحد الماضى حديثا للسيد أمين الحسينى ومحمد على علوبة باشا عضوى الوفد الاسلامى الى الهند قالا فيه عن الجامعة الأزهرية : « إن التعليم فيها يكاد يكون مقتصرا على الشئون الدينية ، وإن حواجز وقيودا تحول دون دخول الأجانب فيها » فقابل مندوبنا فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وسأله رأيه فى الحديث وفى الجزء الخاص بالجامعة الأزهرية فقال :

لقد اطلعت على الحديث ، وأول ما تبادر الى ذهنى حين قرأته أن اضطرابا أو تحريفا وقع فى نقله أو ترجمته قبل وصوله الى الأهرام ، فلست أصدق أن رجلا فاضلا مثل محمد علوبة باشا — وقد كان وزيراً للأوقاف واطلع طبعا على نظام الأزهر بحكم منصبه — يصفه بأن فيه حواجز وقيوداً تحول دون دخول الأجانب فيه . فالجامعة الأزهرية ما زالت منذ إنشائها منهلا عذبا يرده أبناء المسلمين على اختلاف أقطارهم

وتباين لغاتهم ولهجاتهم ، وما ردت طالبا لجنسيته . ولقد أيدت المادة الثامنة من القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ما جرى عليه العمل فى القديم ، فقالت ما نصه : « الجامع الأزهر والمعاهد الدينية والأقسام العامة معدة لقبول الطلبة المسلمين أياً كانت جنسيتهم » .

وكذلك لا أكاد أصدق أن رجلا فاضلا كالسيد أمين الحسينى سبق له أن اندمج فى طلاب الأزهر ، وارتشف من مناهل علمه ، ولم يجد يوما مانعا يمنعه أو يمنع غيره بسبب جنسيته من دخوله الازهر وطلبه العلم فيه — أقول : لا أكاد أصدق أن مثل السيد الحسينى يقول عن الأزهر ماجاء فى الحديث المنسوب اليهما .

س — هل يسمح لنا فضيلة الأستاذ الأكبر بذكر شىء عن عدد الطلاب الأجانب وجنسياتهم ؟ وهل هنالك شروط خاصة بالأجانب دون المصريين ؟

ج — لقد منحت القوانين المتبعة الطلبة الأجانب امتيازات ضنت بها على زملائهم المصريين ، أذكر بعضها : فى الأقسام الابتدائية استثنتهم من استظهار القرآن مع أن استظهاره شرط على المصريين لما ثبت من أن بعض الأقطار الاسلامية لم تأخذ بهذه القاعدة .

وكذلك منحوا امتيازا خاصا فى تحديد السن ، فيجوز قبول من كان منهم فى الثامنة عشرة ، مع أنه لايجوز قبول من تجاوز الست عشرة من المصريين .

وكذلك منحوا امتيازات أخرى فى قسم التخصص ، فقد جاء فى المادة ٢٢ من هذا القانون « أن لمجلس الأزهر الأعلى بعد أخذ رأى مجلس إدارة الكليات أن يرخص بقبول طلبة من الغرباء من غير الحاصلين على الشهادة العالية » والحصول على هذه الشهادة شرط لقبول المصريين فى هذه الأقسام . وكذلك أجازت هذه المادة للمجلس أن يرخص بقبول طلبة غرباء مستمعين لتلقى محاضرات ، وأباحت لهم أن يتقدموا لأداء الامتحان فى المواد التى تلقوها ، فإذا نجحوا نالوا شهادة بما نجحوا فيه من مواد ، وهذا ممنوع على المصريين .

والتعليم فى الجامعة الأزهرية بالمجان فى جميع مراحله ، ويمنح الأجانب إعانات تساعدهم على معيشتهم ، ويهيأ لفريق منهم أماكن للسكنى على حساب الأزهر . وفضلا عن ذلك فدخول الأقسام العامة وقسم الأزهر القديم مباح لهم بلا قيد ولا شرط . وأظن أنه ليس بعد هذه التسهيلات تسهيلات يمكن منحها لهم .

وفى الأزهر أيضا ١٨ رواقا معدة لهؤلاء تضم ٦٣٤ طالبا من جنسيات مختلفة وأقطار متباينة .

س — هل يتفضل مولانا الأستاذ بشرح مناهج الأزهر وخططه فى دراسة العلوم ؟

ج — مراحل التعليم فى الأزهر أربع :

١ — ابتدائى ومدته أربع سنوات ، ويدرس فيه من المواد : الفقه ، الأخلاق الدينية ، التجويد ، استذكار القرآن الكريم ، التوحيد ، السيرة النبوية ، المطالعة والمحفوظات ، الإنشاء ، النحو ، الصرف ، الإملاء ، الخط ، التاريخ ، الجغرافيا ، الحساب ، الهندسة العملية ، مبادئ العلوم ، تدبير الصحة ، الرسم .

٢ — ثانوى ومدته خمس سنوات ، ويدرس فيه غير ما تقدم من العلوم العربية والدينية — الرياضة (الحساب والهندسة والجبر) والعلوم (الطبيعة والكمياء والتاريخ الطبيعى) والمنطق ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والأخلاق ، والتربية الوطنية .

٣ — عال ومدته أربع سنوات ، وينقسم الى ثلاث كليات :

كلية اللغة العربية ، وتدرس فيها العلوم العربية بأنواعها . وكلية الشريعة ، وتدرس فيها علوم الدين مع أدب اللغة العربية وعلوم البلاغة . وكلية أصول الدين ، ويدرس فيها التوحيد ، والمنطق ، والمناظرة ، والفلسفة ، والأخلاق ، وعلم النفس والبلاغة ، وتاريخ الاسلام ، وآداب اللغة العربية .

٤ — التخصص ، والغرض منه إعداد علماء متفوقين فى العلوم الأساسية . فالمواد التى تدرس فى تخصص الوعظ والإرشاد هى التوحيد مع الرد على الشبه الذائعة ، والقرآن

الكريم وعلومه ، والحديث الشريف وعلومه ، والدعوة الى سبيل الله ووسائلها ، والخطابة والإلقاء ، والمناظرة ، والملل والنحل ، والمذاهب الفقهية وتواريخها ، والبدع والعادات والأخلاق والفضائل الاسلامية. محاضرات صحية ، لغة أجنبية شرقية أوغربية . ولم نحدد اللغة لأننا نريد أن تكون مطابقة للحاجة ، فتارة تكون شرقية وأخرى غربية .

والمواد التى تدرس فى تخصص التدريس هى علم النفس بقسميه العام والتعليمى والتربية العلمية بأقسامها الثلاثة . أصول التربية والطرق العامة ، والتنظيم المدرسى . طرق التدريس الخاصة ، وتاريخ التربية العملية ، والتربية العملية ، والأخلاق ، والمنطق ، وتدبير الصحة المدرسى ، والرسم ، والتربية البدنية الخ .

س — ما رأى فضيلة مولانا الأستاذ فى مشروع جامعة المسجد الأقصى ؟

ج — نحن نعطف على فلسطين وقضيتها كما نعطف على مشروع جامعة المسجد الأقصى ، ونرحب بكل مشروع يؤدى الى نشر العلم وتعزيزه بين المسلمين عملا بأوامر ديننا الكريم . على أننا فى جانب هذا نرجو أن لاينسى القائمون بأمثال هذه المشروعات أن للجامعة الأزهرية مقاما رفيعا فى العالم الاسلامى استمدته من تاريخها ومن جليل خدمها ، فهى ما تزال منذ ألف سنة تقوم على حراسة الدين الاسلامى واللغة العربية . وقد أخرجت للمسلمين فى مختلف العصور علماء أعلاما وقادة عظاما ملأت أخبارهم الصحف واستفاضت بذكر أحاديثهم الأوراق . كما نحب أن يذكروا أيضا ما لمصر من المقام العظيم فى العالم الاسلامى ، فالمسلمون على اختلاف أقطارهم وبلدانهم يسيرون وراءها ويتبعون خطواتها وينظرون اليها نظر الجندى الى القائد . ويحمل الينا البريد كل يوم عشرات من الرسائل من أنحاء العالم الاسلامى وكلها تنطق بهذه الحقيقة ، وها هى ذى رسالة جاءتنى الآن وأنا أحدثكم من جمعية نهضة العلماء فى بندونج (جاوة) تؤيد ما قلت . وقد وصف بعض إخواننا العراقيين مصر بأنها قلب العالم الاسلامى النابض حين زيارة محمد على باشا لهم .

الى هنا انتهى الحديث . ثم ودع المحرر فضيلة الأستاذ الأكبر وخرج شاكرا له

Monotheistic Divinity and the refutation of current doubts and heresies, The Holy Koran and conjoint subjects, Traditions of the Prophets and conjoint subjects, Preaching and methods, oratory, elocution and debate, sects, creeds, rites and their development, heresies, customs, ethics and Islamic virtues, lectures on Hygiene and a foreign language either Oriental or European. The foreign language has been purposely left undetermined as need alone could determine the choice thereof sometimes being Oriental and other times European as the case may be.

The Specialisation Section for Teaching comprises the following subjects of study : —

Psychology, general and educational, Scientific Pedagogy comprising principles of pedagogy, general methods and school organisation, Methods of teaching, History of pedagogy and practical pedagogy, Ethics, Logic, school hygiene, drawing, physical culture etc.

Q. — Would Your Eminence kindly give your opinion on the project of the Palestine University?

R. — We sympathise with Palestine and its case as well as with the project of the Palestine University as we welcome every project which aims at the dissemination and maintenance of learning among Moslems in pursuance of the conjunctions of our Holy Faith.

We hope however, that those interested in such projects should not forget that Al-Azhar University enjoys a unique standing in the Moslem world, a standing which it has attained through its history and the great services which it has rendered to Moslems all over the earth. For a thousand years, the Al-Azhar University has vigilantly guarded the Moslem Religion and the Arabic language, and has given the Moslems, throughout the ages, distinguished ulema and great leaders whose tidings and sayings were recorded everywhere. We would also like that they should bear in mind that Egypt occupies a leading place in the Moslem World. For despite the differences of race and country, Moslems follow in its footsteps and look up to it as a soldier to his leader.

We receive tens of letters daily from all corners of the Moslem world all of which emphasise this fact and here is a letter which I have just received as I was talking to you from the Association of "Nahdatul-Ulema" of Tjabang, Java, in support of what I have just said. Some of our brethren in Iraq, have rightly described Egypt on Mohammed Ali Pasha's visit to them as "the throbbing heart of the Moslem world".

Q. — Would Your Eminence please explain the curricula of Al-Azhar and the subjects of study?

R. — Education in Al-Azhar is classified into four stages :

1) The Primary Section of four years duration and comprising the following subjects of study: Mohammedan Law, Ethics, Psalmody, Recitation of the Holy Koran, Monotheistic Divinity, Life of the Prophet, Reading and Selections of prose and poetry, Composition, Grammar, Morphology, Dictation, Caligraphy, History, Geography, Arithmetic, Practical Geometry, Elements of Science, Hygiene and drawing.

2) The Secondary Section of five years duration and comprising the following subjects of study: Mohammedan Law, Exegesis, Traditions of the Prophet, Monotheistic Divinity, Recitation of the Holy Koran, Grammar, Morphology, Rhetoric, Prosody and Rhyme, Reading and selections of prose and poetry, Composition, Arabic Literature, Mathematics (Arithmetic, Algebra and Geometry), Science (Physics, Chemistry and Natural History), Logic, History, Geography, Ethics and Civics.

3) The Higher Section of four years duration is divided into three Faculties : —

(i) The Faculty of Arabic Language comprising the following subjects of study : —

Grammar, Etymology, Morphology, Logic, Rhetoric, Arabic Literature and History, History of the Arabs before Islam, History of Moslem Countries, Exegesis, Traditions of the Prophet, Principles of Mohammedan Law, Composition and Philology.

(ii) The Faculty of Mohammedan Law comprising the following subjects of study : —

Exegesis, Traditions of the Prophet, Principles of Mohammedan Law, History of Islamic Jurisprudence, Mohammedan Law and the comparative study of rites in regard to fundamental questions and the raison d'être of the Law (Hikmet-el-Tashrie), Arabic Literature, Rhetoric and Logic.

(iii) The Faculty of Principles of Religion comprising the following subjects of study : —

Monotheistic Divinity, Logic and debate, Philosophy and the criticism of anti-religious conceptions, Ethics, Exegesis, Traditions of the Prophet, Arabic Literature and History, History of Islam, Psychology and Rhetoric.

4) Specialisation Section, the object of which being the training of efficient ulema in the principal subjects of study. In the Specialisation Section of Preaching and Spiritual edification the following subjects of study are given : —

"Also I could hardly believe that an eminent man such as Al-Sayyed Amin Al-Hussainy who had, at one time, been a student of Al-Azhar and had imbibed of its culture and learning, never encountering any restriction to bar him or any other student, on account of their nationality, from pursuing their studies at that University, I repeat that I could hardly believe that such a man as Al-Sayyed Al-Hussainy would say of Al-Azhar what had been reported by the "Al-Ahram" in the conversation ascribed to him".

Q. — Would Your Eminence kindly give some information of the number of foreign students at Al-Azhar University and their nationalities?

R. — The laws in force have granted certain privileges to foreign students, which have been denied to Egyptian students, of which the following may serve as an example:

In the Primary Section, foreign students are exempted from the committal of the Koran to memory, whereas it is a condition in regard to Egyptians, as it has been discovered that some Moslem countries do not follow the same rule. They have also been granted a privilege in so far as the age limit is concerned. Foreign students are admitted to Al-Azhar up to the age of 18 whereas Egyptian students over 16 years of age are not admitted.

They have also been granted other privileges in the Specialisation Section. Article No. 22 of the Law provides that subsequent to the opinion of the College Board being taken, the Supreme Council of Al-Azhar may sanction the admission of foreign students who have not obtained the Higher Certificate. In the case of Egyptians, this certificate is a necessary condition for admission to the Specialisation Sections.

This article has also authorised the Council to concede the admission of foreign students as irregular students to the lectures and allow them to sit for the examination in the subjects attended by them, and if successful, they are granted a certificate in regard to those subjects. This is denied to Egyptian students.

Education at Al-Azhar is free of charge in all its stages and foreign students are granted pecuniary aids while a great number of them are provided with free lodgings by Al-Azhar.

Moreover they are granted free and unconditional admission to the Irregular Sections and the old Azhar Institution. I daresay that there could be no more facilities given than the foregoing.

There are 18 Riwaks (hostels) in Al-Azhar housing 634 students of different nationalities and countries. (1)

---

(1) The following is a list of the countries to which foreign students at Al-Azhar University belong: Syria, Tripoli, Tunis, Algeria, Morocco, Iraq, Turkey, Asia Minor, Caucasia, Hedjaz, Nejd, Yemen, Kurdistan, Afghanistan, India, The Sudan, Abyssinia, Somaliland, South Africa, Java, Borneo, China, Yougoslavia, Russia, Poland, Albania, Bulgaria and America.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

AL-AZHAR AND THE PALESTINE UNIVERSITY.

An Interview with His Eminence the Rector of Al-Azhar University.

It was reported by the "Al-Ahram" of Sunday, July 2nd., 1933, that in course of a conversation made by Al-Sayyed Amin Al-Hussainy and Mohammed Aly Allouba Pasha, members of the Moslem Delegation to India, the statement was made that education at Al-Azhar University is almost confined to religious subjects and that there were certain restrictions which bars foreign students from admission to that University.

Following the publication of the said conversation, a "Mokattam" reporter sought an interview with His Eminence the Grand Sheikh, Rector of Al-Azhar University to ask His Eminence's opinion regarding the part of the conversation concerning Al-Azhar. His Eminence made the following statements :

"I have read the report of "Al-Ahram" and the first thing which occured to me as I read it, was that some confusion or distortion in the quotation or translation of the conversation must have taken place before the report was transmitted to "Al-Ahram". I could not bring myself to believe that an eminent man such as Mohammed Allouba Pasha who was a Minister of Wakfs and had naturally been conversant, by virtue of his office, with the regulations of Al-Azhar, would say that there were restrictions barring the admission of foreign students to Al-Azhar University. For, since its foundation, Al-Azhar University has always been the fountain-head of Islamic culture and learning to which Moslems of different nationalities and languages repair. No student has ever been denied admission to Al-Azhar on account of his nationality. Article No. 8 of Law No. 49 of 1930 has maintained the proceedure of old. It provides that "Al-Azhar University, the Religious Institutions and Irregular Sections are open for the admission of Moslem students whatever their nationality might be".

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

نُورُ الإِسْلَامِ

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الرابع	ربيع الثانى سنة ١٣٥٢	المجلد الرابع

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف ⎫ سابقا
ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى ⎭

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

		قرش
داخل القطر المصرى		٤٠
خارج القطر المصرى		٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب	داخل القطر	٢٠
	خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

التعاون فى الاسلام

الاسلام فى مقدمة الشرائع المتضافرة على حفظ حقائق هى الدين والنفس والعرض والعقل والنسل والمال ، فمن قصده الى المحافظة على الدين فرْضُه القيام بالدعوة إليه والدفاع عن حوزته ، ومن قصده الى المحافظة على النفس شرْعُه القصاص وفرضه حضانة الأطفال ورعايتهم ، ومن قصده الى المحافظة على العرض تقريره لعقوبة القذف بالزنا وأمره بتأديب من يتطاول على غيره بلمز أو هجاء ، ومن قصده الى المحافظة على العقل شرْعُه لعقوبة من يتناول المسكرات أو يسعى فى إزالة عقل شخص بالضرب ونحوه ، ومن قصده الى المحافظة على النسل حثُّه على النكاح وسنُّه لعقوبة من يعتدى على شخص فيبطل منه قوة التناسل ، ومن قصده الى المحافظة على المال شرْعُه لعقوبة السارق وقاطع الطريق .

وقد يقع بعض هذه الحقائق فى ضياع أو يكون مشرفا على الضياع ، ويتعذر على الشخص الواحد العمل لسلامتها ، فكان من مقتضى ثقل أعبائها أو كثرة شُعَبها ، أن يمد إليه أشخاص آخرون أيديهم ليتعاون الجميع على حفظ دين أو نفس أو عرض أو عقل أو نسل أو مال .

ومن المعلوم الماثل أمام كل من تفقه فى الدين أن الاسلام قد راعى عجز الأفراد عن القيام بكثير من المصالح الخاصة أو العامة ، فأمر بالتعاون على وجه عام ، ثم أقام

كثيرا من أحكامه وآدابه على هـذه القاعدة التى ينتظم بها العمران وتخف بها متاعب الحياة .

أما الأمر بالتعاون على وجه عام فمن شواهده قوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) .

يتناول التعاون على البر والتقوى المؤازرة فى كل عمل ينتج عنه الخير ، سواء كان القائم به فرداً أم جماعة ، وسواء كان الخير عائدا الى فرد أم الى أمة ، ولا فرق فى أصل طلب التعاون بين أن يكون الخير من مصالح الحياة الدنيا التى أذنت الشريعة بإقامتها ، وأن يكون من وسائل السعادة فى الأخرى ، فمن التعاون على البر والتقوى أن يقوم الرجل للصلاة فتناوله وضوءا ، أو تهيىء له مصلى ، ومن التعاون على البر والتقوى أن ينهض القوم لإعلاء كلمتهم بنحو بناء المدارس أو المستشفيات أو الملاجىء أو إقامة مصانع تسد جانبا من حاجاتهم المدنية ، فتبذل فى إسعادهم ما تستطيع من قوة .

ويدخل فى الإثم والعدوان كل عمل يعطل شريعة من شرائع الدين أو يعود على النفس أو العرض أو العقل أو النسل أو المال بالفساد ، فمن التعاون على الإثم والعدوان أن تقضى للخصم بقطعة من مال خصمه وأنت تعلم أنه يدعيها زورا وبهتانا ، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشهد حفلات ترتكب فيها بعض محرمات كتعاطى المسكرات ، أو رقص الفتيان مع الفتيات ، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تشترى ورقة من تلك الأوراق التى يصدرها جماعات ، ويسمونها « اليانصيب » فانها من الميسر الذى وصفه الله تعالى بأنه رجس من عمل الشيطان ، ومن التعاون على الإثم والعدوان أن تكون كاتب البطاقة التى يأمر فيها الظالم بالاعتداء على نفس أو عرض أو مال .

ومما ورد فى التعاون قوله صلى الله عليه وسلم : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) فإن قصد أحد الى من بينك وبينه إخاء ليعتدى عليه فى نفسه أو ماله أو عرضه ، وجب

عليك الانتصار للمعتدَى عليه ودفع المعتدى بما يكفى الخلاص من شره ، وذلك معنى الانتصار له وهو مظلوم ، أما الانتصار له وهو ظالم ، فقد بيّنه النبى صلى الله عليه وسلم فى نفس الحديث بمعنى الأخذ على يده ومنعه من الظلم ، وفى كفه عن الظلم الذى يذيقه عذاب الهون فى الآخرة ، ويلبسه ثوب الخزى فى الأولى ، انتصار له أىّ انتصار .

ومن الوجوه التى تدل على قصد الشريعة الى التعاون تحريم السؤال على مستطيع الكسب ، وفى هذا التحريم باعث له على القيام بجانب من حاجات الأمة ، وفى إخلاد القادر على الكسب الى السؤال بليتان اجتماعيتان : (أولاهما) فوات الانتفاع بشخص يمكنه أن يكون كقطرة صالحة فى دم حياة الأمة فتزداد به قوة على قوتها ، (ثانيتهما) بقاؤه فى جسم الأمة كعضو يشرب من دمها ويأكل من لحمها ، بل كعضو يسرى منه مرض البطالة الى أشخاص لا تعرف نفوسهم العزة ، فيكثر سواد هؤلاء الثقلاء فى البلاد ، قال صلى الله عليه وسلم : (والذى [1] نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله ، أعطاه أو منعه) فحرام على من يستطيع كسب الرزق أن ينكث يده من العمل ويجلس متشوفا لما سمحت أو تسمح به نفوس المحسنين لمن قعد به العجز عن طريق الاكتساب .

فلو بدا لأولى الأمر أن يهيئوا للعاجزين عن الكسب ملاجىء ويأخذوا على أيدى المتسولين حتى يضطر صحيح البنية الى مباشرة بعض الأعمال الحيوية ، لوجدوا فى الاسلام ما يحثهم على أن يبنوا الملاجىء ، ويمنعوا المتكففين من التجول فى الطرق والأسواق .

وقد بث الاسلام روح التعاون فى النفوس لأول ظهوره ، ترى هذا فى حياة المسلمين بالمدينة عقب الهجرة ، فقد ورد فى الصحيح أن المهاجرين قدموا من مكة وليس

(١) كتاب الموطا .

بأيديهم شيء ، فعرض الأنصار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم النخيل بينهم وبين المهاجرين ، فقال : لا ، فعرضوا عليه بعد أن يكفيهم المهاجرون مؤونة العمل ويشركوهم فى الثمرة ، فأجاب لذلك ، فقاسمهم الأنصار على ذلك ، وكان الأنصار يؤثرون المهاجرين بما عندهم وإن كانوا فى حاجة اليه ، وهو الإيثار الذى مدحهم الله تعالى به فى قوله : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) .

ومن قصد الشارع الى التعاون على وجه عام أنه نظر الى الأعمال المنطوية على مصالح ، فكان منها ما تحصل مصلحته لكل شخص يقوم به ، وتوجد هذه المصلحة كلما قام به قائم وهو مستوفى الشروط والأسباب والأركان ، فجعل الخطاب فيه موجّها الى كل من بلغ سن التكليف ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، وهذا ما يسميه الفقهاء بالواجب على الأعيان ، ومنها ما تحصل مصلحته بفعل شخص أو أشخاص ، ولو قام غيرهم من بعدهم ليفعله وجد المصلحة قد تحققت ، فجعل الخطاب فيه موجّها الى الأمة على أن تقوم به طائفة منها ، كتجهيز الموتى وإنشاء ما يكفى حاجة البلاد من المدارس ، وهذا ما يسمى فى عرف الفقهاء بفرض الكفاية .

والحقيقة أن الطلب فى فرض الكفاية يتوجه الى من فيهم الكفاية للقيام بالعمل المطلوب ، وإذا قام به بعضهم سقط الطلب عن سائرهم ، فولاية القضاء مثلا يتوجه الطلب فيها الى من درسوا أحكام الشريعة وكان لهم مقدرة على تطبيق الأصول على الوقائع ، وإنقاذُ الغرقى يتوجه الطلب فيه الى من يحسنون السباحة ، وإغاثةُ المضطر يتوجه الطلب فيها الى من يستطيعون الإغاثة ، ونصرةُ المظلوم يتوجه الطلب فيها الى من كان قادرا على أن ينصره بانفراده أو بالانضمام الى غيره ، وإنما جُعل الخطاب فى فرض الكفاية موجها الى الأمة لأنه يجب على من لم يكن فيهم أهلية للعمل المطلوب أن يهيئوا وسائله لمن فيهم أهلية ، أو يجبروهم على القيام به إذا أهملوا أو تباطئوا ،

فدفع الشبه وتقويم الزيغ واجب على العارفين بأصول الدين ، فإذا دخلت الضلالة فى قرية لا يوجد فيها من فيهم الكفاية لتقويم الزائغين ، وجب على من فيهم الكفاية ببلد آخر أن ينتقلوا لارشاد أولئك الضالين ، وإن احتاجوا الى نفقة أو وسيلة غيرها وجب على القادرين على مساعدتهم بالمال أو بتهيئة ما احتاجوا اليه من الوسائل أن يعينوهم على أداء واجب الإرشاد فيسقط الوجوب عن الجميع . وقيادة الجيوش تجب على من جمع الى الشجاعة العلم بالفنون الحربية ، فإذا امتنع من تحققت فيهم شروط القيادة من الخروج الى مواقع القتال ، لا يتركون وشأنهم بعلة أن الأمر بقيادة الجيش موجه اليهم وحدهم ، بل على أولى الشان إجبارهم على تولى قيادة الجيش ، فإن لم يجبروهم كانوا فى العقوبة سواء ، بل لولى الأمر أن يعمد الى من فيهم الكفاية لأمر من الأمور ، ويعين من بينهم شخصا أو أشخاصا للقيام به ، فيصير بهذا التعيين فرض عين لا يسوغ لهم التأخر عنه .

ومن المطلوب على الكفاية ما هو دينى محض كالصلاة على الميت ، ومنه ما يرجع الى مطالب مدنية كتعاطى بعض الحرف أو الصنائع المحتاج اليها فى انتظام حال الجماعة . والنوع الأول يبعث على القيام به القصد الى امتثال أمر الله تعالى ، وأما النوع الثانى فقد يبعث عليه داعية فطرية ، ذلك لأن همم الناس تختلف فى توجهها الى ما تستدعيه الحياة من الحرف والصنائع ، فيوجد فى أغلب البلاد الحداد والنجار والبنّاء والصائغ والخائط والحمال والكناس ، الى غير هذا من الحرف والصنائع الضرورية . ومن المحتمل أن لا تطّرد هذه السنة فى بلد أو فى عصر ، فيزهد الناس فى حرفة أو فى صناعة ، فلم يدع الشارع هذه الضروريات أو الحاجيات الى الدواعى الفطرية وحدها ، بل جعل القيام بكل حرفة أو صناعة يحتاج اليها فى الحياة فرض كفاية ، حتى يستقيم أمر الحياة ، فإن لم تختلف همم الناس اختلافا يفى بما تحتاج اليه البلاد من الحرف والصنائع ، وجب على

أولى الشأن العمل لسد حاجات الأمة وإقامة الحرفة أو الصنعة المفقودة ولو ببعث طائفة الى خارج البلاد ليتعلموها ويحسنوا القيام عليها .

وقد دلنا التاريخ الصحيح لعهد النبوة أن الناس كانوا يتعاونون على مرافق الحياة ووسائل السعادة ، فقد روى الإمام البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : (إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق [1] بالأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون) .

فدل الحديث على أن طائفة من المهاجرين كانوا يشتغلون بالتجارة ، وطائفة من الأنصار كانوا يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وأن أبا هريرة كان منقطعا لطلب العلم . وعرفنا من طرق غير هذه الرواية أن فى الأمة لذلك العهد طائفة كانت تتعاطى بعض الصنائع كالنجارة والحدادة .

ولم يكن أهل الصُّفّة [2] إلا بمنزلة الجند المهيأ للدفاع زيادة على ما كانوا يتلقونه من علم ، فلهم من هذه الناحية قسط عظيم من التعاون المطلوب فى قوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ) .

ويجرى على شاكلة الحرف والصنائع العلومُ والفنون ، فقد قرر علماء الشريعة أن كل علم أو فن يحتاج اليه فى الحياة يجب أن تقوم به طائفة من الأمة ، فمن التعاون على تنمية العلوم وتحقيقها إقبال كل طائفة على علم يقتلونه بحثا ، ويحيطون به من كل جانب ، وإنما اتسعت دوائر العلوم بمثل هذا العمل المسمى بالتخصص . وقد أدرك علماء الاسلام فى القديم فائدة انفراد كل طائفة بعلم تفرغ فيه جهودها وتصرف فيه جانبا كبيرا من أوقاتها ، فاختلفت وجهاتهم على قدر ما كان بين أيديهم من العلوم ، وظهر النبوغ فى هذه العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباعد أغراضها .

---

(١) البيع والشراء . (٢) موضع مظلل فى مسجد المدينة يأوى اليه المساكين .

وقد يكون اختلاف الناس فى إتقان هذه العلوم من دواعى الفطرة ، بأن يقبل كل إنسان على العلم الذى يجد فى نفسه الميل الى تعاطيه ، فإن وجد الرئيس همم الناس منصرفة عن بعض العلوم اتخذ الوسيلة الى حمل طائفة منهم على مزاولته .

وأما أن الشريعة بنت كثيرا من أحكامها وآدابها على قاعدة التعاون ، فشواهده كثيرة ، تجد هذه الشواهد فى التعاون على حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والنسل والمال .

من شواهد التعاون على حفظ الدين أن الشريعة نظرت الى ما ينبنى على التفقه فى الدين من إنارة الجاهلين ، وإنذار المسرفين ، وتنظيم الحياة على وجه أدعى الى الارتياح والاطمئنان ، فلم تتركه لهمم الأفراد التى قد يطرأ عليها ضعف أو انصراف عن التعلم ، بل فرضت على كل فرقة من المسلمين أن يرحل منها طائفة الى المواضع التى يمكنهم أن يتفقهوا بها فى الدين ثم يعودوا الى قومهم ، فتبقى عقائد الدين وواجباته وآدابه محفوظة بينهم .

قررت رحلة طائفة للتفقه فى الدين ، وفيه معنى التعاون على حفظه ، وورد فى الشريعة الأمر بالتعاون على حفظ الدين من وجه آخر ، وهو أن رجال القبيلة أو القرية قد يغفلون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فتضيع أحكام الدين وآدابه ، ففرضت على الأمة أن يقوم طائفة منها بالدعوة الى الحق والإصلاح ، والتحذير من الباطل والفساد ، قال تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

وقد تختلف وجوه التعاون على حفظ الدين اختلاف الأحوال والأزمان . ومما حدث فى هذا العصر أن بعض المخالفين يعملون لزلزلة أركانه وطمس معالمه ، بوسيلة ما يفتحونه من مدارس ومستشفيات وملاجىء يزعمون أنهم يخدمون بها العلم

والانسانية ، فهنالك يجدون الأطفالَ والمستضعفين من الرجال والنساء واقعين فى حبائلهم لا شاهد عليهم ولا رقيب ، فيحدثونهم عن الاسلام بألسنة تفترى عليه الكذب ، ويلقنونهم آراء تجعلهم من أشد الناس عداوة لدينهم وازدراء لآبائهم ، فمن التعاون على الدين فى هذا العصر أن ينهض المسلمون نهضة صادقة ، فيبسطوا أيديهم بالبذل فى سبيل إنشاء مدارس ومستشفيات وملاجىء تغنى عن تلك المبانى المفتوحة لإغواء الغافلين ، ومن التعاون على حفظ الدين أن ينشط العلماء للإرشاد فيطلقوا ألسنتهم وأقلامهم فى نصح من فى قلوبهم بقية من خير ، بأن لا يرسلوا أبناءهم الى تلك المدارس التى لو غفل عنها الناس اليوم غفلتهم عنها بالأمس لطوى بساط الدين طىَّ السجل للكتاب .

ومن شواهد التعاون على حفظ النفوس أن الشريعة قد نظرت الى ما يحدث بين الطوائف من التنازع فالتقاتل ، فأشفقت من أن تذهب نفوس بريئة ، وتراق دماء كثيرة ، فأمرت الباقين من المسلمين بالسعى للصلح بين الطائفتين المتقاتلتين .

ومن هـذا القبيل فرض إغاثة العطشان والجائع ، حتى قال الفقهاء : من لقى عطشانا ومعه ماء ، أو لقى جائعا ومعه طعام ، فمنع العطشان الماء أو الجائع الطعام ، وهو يعلم أنه لا يجوز له منعه ، وأنه يموت إن لم يسعده بما عنده ، حقّت عليه عقوبة القصاص .

دعت الشريعة الى التعاون على حفظ النفوس ، وجعلت له من الزكاة النصيب الأوفى ، فكان من مصارفها الفقراء والمساكين ، ليسدوا بها حاجتهم ويصونوا بها ماء وجوههم ، ثم ندبت الى وجوه أُخرى من وجوه البر كالصدقة والهبة ، فالقصد من الصدقة أو الهبة مواساة من يُتصدق عليه أو يوهب له ، وإعانته على حفظ نفسه أو نفس من يعوله ، غالبا .

وفى الناس من لا تسمح نفسه برفع يده عن الشئ المنتفع به جملة ، فجعل له الشارع طريقا الى أن يعين غيره بمنفعة الشئ مع بقاء ذاته تحت ملكه ، كالعارية والعمرى (١) ومن الوجوه الراجحة فى تفسير قوله تعالى : (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) أن المراد ما يتعاوره الناس من متاع البيت كالقدر والجفنة والسكين . وإذا طلب منك إعارة أمثال هذه الأدوات فى حال ضرورة كان منعها حراما ، فإن طلب منك إعارتها فى حال لا تبلغ حال الضرورة ، كان منعها خادشا فى المروءة ، دليلا على أنك تطوى نفسك على شئ من البخل بما آتاك الله من خير .

ومن شواهد التعاون على حفظ العرض أن الشريعة قد وضعت على القذف بالزنا عقوبة محدودة ، وعلى من يتناول غيره بسباب أو هجاء التعزير بما يكفى لردعه ، وعهدت بإجراء ذلك الجزاء الى الرئيس الأعلى أو من يقوم مقامه ، وفى إجراء ذلك الجزاء تعاون على حفظ الأعراض ، والقاضى الذى لا يحقق النظر فى قضايا السباب والهجاء ، ولا يقرر لها جزاء وفاقا ، يعدّ فيمن لا يقدر حق صيانة الأعراض ، ويلحق بمن يجهل أن العرض أعز على الرجل من ماله ونفسه .

ومن مقتضى التعاون على حفظ الأعراض أن لا تترك مجلسك ميدانا يتسابق فيه الطغام الى ثلب الأعراض ، فاذا حرّك أحد لسانه بالقدح فى عرض برىء أو بريئة ، ألجمته بالحكمة ، وكذلك يفعل الصالحون والمصلحون ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يخذل امرءا مسلما فى موضع ينتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موضع يحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موضع يحب نصرته (٢) » .

---

(١) ان تعطى شخصا منفعة شىء مدة حياته أو حياتك أو الى أجل مسمى . (٢) أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من ذبّ عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة[1] » .

ومن شواهد التعاون على حفظ العقل أن الشريعة وضعت عقوبة على من يتناول شيئا من المسكرات ، أو يؤذى شخصا فيزيل عقله ، وعقوبة الأول معروفة ، وعقوبة الثانى الدية كاملة ، وهذه العقوبات يجريها القائمون على المصالح العامة ، وإجراؤها من قبيل التعاون على حفظ العقول .

ومن مقتضى التعاون أن تحول بين الانسان وما يذهب بقوته العاقلة أو يضعفها ما استطعت أن تحول ، فإن كان لك سلطان منعته بيدك الغالبة ، وإن كنت مرشدا منعته بموعظتك الحسنة . ونصح الطبيب فى معالجة من تصاب عقولهم بشىء من الخلل داخل فى قبيل هذا التعاون المطلوب .

ومن شواهد التعاون على حفظ النسل أن الشريعة رغبت فى النكاح ، وجعلت من شروط صحته الإشهاد ، فمن حضر ليشهد به فقد أخذ بأدب التعاون على حفظ النسل ، ومن الآخذين بهذا الأدب المحمود الخاطب ومن يشفع لدى الزوجة أووليها فى تخفيف نفقات العرس ، أو الرضا بالميسور من المهر .

ومتى ظهر فى الناس قلة الإقبال على الزواج ، وجب على حكماء الأمة والقائمين على مصالحها أن يتعاونوا فى البحث عن علل قلة الزواج ، ويتخذوا الوسائل الى علاج هذه العلل ، حتى تعود الأمة الى الفطرة السليمة ، وتسير فى طهر ، وينمو عددها نماء يكفل حياتها ، ويكسبها قوة على القيام بنفسها .

ومن شواهد التعاون على حفظ المال بحمايته من التلف أو العمل على نمائه أن الشارع قرّر الإيصاء ، وهو أن يعهد الأب لمن يعرف فيه الأمانة وجودة الرأى

---

(١) الترمذى .

بالنظر فى شئون ابنه من بعده ، ومن مقتضيات الإيصاء حفظ مال الطفل والتصرف فيه على ما تقتضيه المصلحة ، فقيام الوصى على أمر الطفل بحزم ونصح معونة على حفظ ماله وإصلاح حاله .

ومن هذا الباب تقرير الشارع لباب القراض ، وهو إعطاء مال لمن يتجر به على أن له جزءاً من ربحه ، فصاحب المال يعين العامل على كسب جزء من المال كانت يده فارغة منه ، والعامل يعين صاحب المال على تنمية ماله ، ولولا إعانة هذا العامل لبقى المال عند حد ، وقد ينقصه الإنفاق حتى يذهب به جملة .

ومن هذا القبيل فتح الشارع لباب عقد الشركات فى الأموال ، وهى خلط شخص ماله بمال آخر على أن يتصرف كل منهما فى المالين فى حال حضرة شريكه وغيبته ، أو فى حال حضرته فقط .

وفى هذا النوع من التعاون فائدة عظمى لا توجد عند عمل كل واحد فى ماله منفردا ، فإنّ ضم القليل الى القليل يصيره كثيرا ، وهذه الكثرة تجعل الشركاء قادرين على جلب بضائع مرتفعة القيم ، أو مختلفة الأجناس والأصناف ، ولولا الشركة لضاق باع كل منهم أن يصل الى تلك البضائع ذات القيم المرتفعة ، أو ذات الأجناس والأصناف المختلفة فتقل الأرباح ، ولا يجد أهل البلد على تفاوت طبقاتهم كل ما يقوم بحاجاتهم ويوافق رغباتهم ، ونجاح الشركات قائم على تحقق الأمانة والسير على نُظم علم الاقتصاد الصحيح ، فمن الملائم لروح التعاون فى الاسلام تأليف شركات تحتفظ بعهد الأمانة ، وتسير على نظم يراعى فيها قواعد الاقتصاد المعقولة ، وتسعها أصول الشريعة الغراء .

والتعاون بالنظر الى ما تقع به المعونة إما أن يكون تعاونا بالنفس ، كأن تدفع بيدك أو سلاحك صائلا على نفس أو مال ، وإما أن يكون تعاونا بالمال ، كالقرض والهبة والصدقة وضرب الدية فى قتل الخطأ على العاقلة ، وإما أن يكون تعاونا بالرأى كأن تشير

على الرجل بما يخرجه من حيرة أو ينقذه من عطب ، وإما أن يكون تعاونا بالجاه ، كأن تشفع لذى حاجة عند من يملك قضاءها ، قال صلى الله عليه وسلم : (اشفعوا تؤجروا[1]) وقال عليه السلام : (والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه[2]) وتتفاوت همم الناس فى مصارف الجاه ، وأصغرهم همة من يستخدمه فى منافعه الخاصة ، ولا يوجهه الى قضاء المصالح العامة ، وقد دلنا التاريخ على أن كثيرا من زعماء الاسلام وعلمائه يدوسون منافعهم الخاصة بأقدامهم ، وإذا وجدوا موضعا لنفوذ الكلمة لم يذكروا إلا مصلحة عامة أو مصالح أشخاص يبتغون من السعى لها رضا الله فى الدنيا والآخرة .

وخلاصة المقال أن الاسلام أقام التعاون على أساس محكم ، ومدّ له فى كل ناحية من نواحى الحياة بسبب ، فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة ، بلغت بهم المكانةَ المحفوفة بالعزة المشار اليها بقوله تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ؟

محمد الخضر حسين

---

(١) النسائى . (٢) صحيح مسلم .



سورة النور

١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء » الآية ، متسق مع ما قبله فى نسق واحد ، وهو بيان عظمة الإلهية ، والإرشاد الى الآثار الربانية ، البالغة منتهى النظام وغاية الإحكام ، الدالة على جلال مبدعها ، وقدرة موجدها ، وتنزهه عن شريك أو ضريب ،

فلو كان هنالك إله غيره ما استقام لهما هذا النظام وهذا الإبداع سالما من كل ما يشوبه أو يفسده : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والدابة : اسم لكل مادبّ على وجه الأرض . وقد تستعمل فى العرف العام خاصة بذوات الأربع . والمراد هنا كل ما دب ودرج من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها . والمراد بالماء إما العنصر المعروف ، باعتبار أنه لا غنى عنه فى تخلق الحيوان ، وإما النطفة التى يتكون منها الحيوان . وكون آدم عليه السلام خلق من التراب بلا نطفة ، وعيسى عليه السلام خلق بنفخ الروح بلا نطفة أب ، لا يقدح فى الكلية . لأن المراد بلفظ كل التكثير لا العموم ، كقوله تعالى : «يجبى إليه ثمرات كل شىء » فان أريد بالماء العنصر المخصوص فلا ورود لهما لما عرفت أن الماء داخل فى قوام كل حيوان ، أو لما قيل من أن أصل المخلوقات الماء ، إذا صحت الرواية فى ذلك .

وأياً ما كان فان هذه الآية تشبه فى الدلالة على باهر القدرة قوله تعالى : «يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل» ففى كل منهما شهادة بعظم اقتداره ورجوع الأمر فى التخصيص بالأحوال الى مشيئته ، فقد خلق الأنواع من أصل واحد ، وباعد بينها أنواعا وأفرادا ، حتى لا تكاد تجد فرداً يشبه فردا من جميع الوجوه ، فهو وحده المبدع والمدبر والمتصرف فى خلقه كما يشاء . ولما كان لفظ دابة قد استعمل فى العقلاء وغيرهم ، وكان الاستعمال الفصيح فى هذه الحال أن يغلب العقلاء على غيرهم ، أتى بالضمير بصيغة ضمير العقلاء فى قوله : «فمنهم من يمشى» الخ ، فإن ضمير (هم) خاص بالعقلاء . وبهذا حسن استعمال من فى قوله : « من يمشى على بطنه » وقوله : « من يمشى على أربع » وأما قوله : « من يمشى على رجلين » فالأمر فيها ظاهر ، فانها للانسان والطير ونحوهما ؛ وتغليب العاقل أمر معهود . على أن المشاكلة من المحسنات البديعية ، وهى التعبير عن شىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، كقول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

والحاصل أن لفظ دابة شامل للعقلاء وغيرهم ، فعاد عليه ضمير العقلاء فى قوله : فنهم ، لتغليب العقلاء . ولفظ « من يمشى على بطنه » و « من يمشى على أربع » خاص بغير العقلاء، مع أن مَن للعقلاء ، فإما متابعة لحكم الضمير السابق، وإما من باب المشاكلة.

ولما كان سياق الكلام لإظهار باهر القدرة واجتلاء الآثار الدالة على أنه لايعجزه شىء ، بدأ بمن يمشى على بطنه أى بدون آلة مشى وهى الأرجل ، حتى يبهر السامع لأول ما يلقى به فيعترف بأن ذلك تقدير العزيز العليم ؛ ولذلك سمى هذا مشياً وإن كان الأكثر تسميته زحفا ؛ ولا تنس حديث المشاكلة الذى قدمناه آنفا ؛ ثم ثنى بما يمشى على رجلين وثلث بما يمشى على أربع ، لأنها تلى ذلك فى الدلالة على المقصود ، فكأنها تتميم لها واستيفاء لما قصد منها . وقد اقتصر على من يمشى على أربع مع أن هناك من يمشى على أكثر ، إما لدخولها فى قوله : يخلق الله ما يشاء ، وإما لما قيل إن الدواب التى تمشى على أكثر اعتمادُها فى الحقيقة حال المشى إنما هو على أربع والباقى كالمساعد للأربع. والله أعلم. ومع ذلك فالأكثر فى توجه التأمل اليه هو الأصناف الثلاثة : الماشى على بطنه ، وعلى رجلين ، وعلى أربع ؛ وأما الأصناف الباقية فقلّما يتوجه اليها النظر والتفكير لندرتها وقلة ملابسة الانسان فى شئونه لها .

وقوله تعالى: «إن الله على كل شىء قدير» كالنتيجة لما قبله . وإظهار لفظ الجلالة للتنويه بالحكم المقصود واقعا على صريح اللفظ الكريم ، إذ كان هو المقصود بالذات ، كما أن إظهاره فى قوله : « والله خلق كل دابة من ماء » للعناية بأمر الخلق وإفادة أنه من الأحكام الخاصة بالإله لا يشركه فيها مخلوق . والله أعلم .

قال تعالى : (لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ) :

بعد أن ساق جل شأنه من الأدلة الباهرة والبراهين الساطعة ما يملأ القلوب إيمانا، ويشبع النفوس يقينا، ويقطع كل شك، وينفى كل ريب، شرع جل جلاله يبين حال بعض من أضله الله عن الهدى حتى عمى عن هذه الشموس الساطعة ولم تفده تلك الحجج القاطعة، لتعلم أن هدى الله هو الهدى، وأن الله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم، حتى يدوم للمؤمن التجاؤه الى ربه، ويبقى هو موئله فى كل أمر مهما تقوت أسبابه، فلا يأمن مكر الله، ولا يعول على قواه، ولا يخرج لحظة عن الحظيرة المباركة التى هى منزلة بين الخوف والرجاء، ومعناها الرجوع اليه فى كل الأشياء، فقال: «لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم» مردفا لها بقصة أولئك المنافقين التى ساقها بعد هذه الآية على وجه يجعل هذه الآية كالمقدمة لذكرها، حتى يكون الكلام كله على سنن واحد، وفى نسق متسق.

وسبب نزولها: أن رجلا من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة، فدعاه اليهودى للتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاه المنافق للتحاكم الى كعب بن الأشرف، فرارا من التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى دعا اليه اليهودى، كأن كلا منهما يعلم أن الحق فى جانب اليهودى، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحيد عن الحق، فلذا كانت رغبة اليهودى فى التحاكم اليه عليه السلام، بينما يطمع المنافق فى محاباة كعب بن الأشرف له حين يقول له: لقد دعوته الى التحاكم اليك وكان يدعونى للتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم. ثم انتهيا للتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحكم لليهودى، فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام، وقال: بل نتحاكم الى عمر، وكأنه حدثته نفسه الخبيثة بالطماعية فى عمر كما كان يطمع فى كعب بن الأشرف، فرضى اليهودى وتحاكما الى عمر، فقال اليهودى لعمر رضى الله عنه: تحاكمنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لى فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أحق هذا؟ قال:

نعم ، فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما ، ودخل بيته وخرج بسيفه فضرب عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . ووجه ذلك أن الرجل قد أعلن الردة برده قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهره بأنه قد حاف عليه ، وحكمُ المرتد القتل ؛ وقد تحا كما إليه ورضيا بقضائه . وروى أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه سلم : إن عمر قد فرق بين الحق والباطل ، فسمى الفاروق من حينئذ .

وروى فى سبب نزولها أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين على كرم الله وجهه شركة فى أرض فتقاسماها فوقع لعلى جزء لا يصل اليه الماء إلا بمشقة ، فقال المغيرة : بعنى أرضك فباعه إياها وتقابضا ، فقال الناس للمغيرة : اشتريت أرضا سبخة لا يصل اليها الماء فرجع على علىٍّ يقول : إنما اشتريتُها على شرط أن أرضاها ولم أرضها ، فقال على : بل اشتريتَها وأنت تعرفها ، وقبضتها وأنت تعرف حالها ، لا أقيلها منك ، ودعاه الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة : أما محمد فلست آتيه فإنه يبغضنى وأخاف أن يحيف على . فنزلت الآية .

وعلى هـذا كله يكون اتساق الآية بعد الآى السابقة التى جلت من البراهين ما جلت ، هكذا : هذه الأدلة ترونها تجـلى عليكم فلا تدع مرية فى نفس ، ولا يعتريها شك ولا لبس ، وهكذا شأن آيات الله ، لقد أنزل آيات مبينات ، أى تبين الحق من الباطل والرشد من الغى ، أو آيات بينات فى نفسها ، يقال بين بمعنى تبين ، كما يقال قدم بمعنى تقدم ، إلا أن وضوح الآيات فى نفسها وتبيينها السبل تبيينا وافيا لا يغنى عن توفيق الله للهدى ، بل من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، بل قد يصل الأمر ببعض من خذلهم الله الى أن يعلم الهدى وموضعه والزيغ وموقعه ثم يعرض عنه إباء واستكبارا ، أو طمعا فى عرض الدنيا واستهتارا ، ومع ذلك يكون قد أعطى العهد على نفسه ، وأعلن التزام حكم الإيمان وطاعة الله ورسوله ، ثم يتولى معرضا

عن حكم ربه لأنه لم يوافق هواه، كما حصل من هؤلاء المنافقين، فما كان إعراضهم عن خوف من حيف كما يتشدقون، بل أولئك هم الظالمون وهل أدلّ على ذلك من أنهم إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ؟

قوله تعالى: «لقد أنزلنا آيات مبينات»: جيء بها هكذا بلا عطف، لأنه ابتداء الشروع فى شرح حالة جديدة، وهى حال المنافقين الذين يعلنون الإيمان ويتجلى لهم البرهان، ومع ذلك يتمادون فى طغيانهم. والكلام المبتدأ من جديد لا حاجة به الى العطف على ما سبقه، وإن كانت مناسبته ظاهرة كما شرحناه. ولم يقل: أنزلنا إليكم، كما قال فى الآية السابقة، لأن الكلام فيما سبق كان لتوجيه نظرهم الى الأحكام التى سيقت لهم ليستبصروا بها ويعرفوا مقدارها، فيحرصوا على امتثالها، ثم يأخذوا منها فائدة أجل، وهى علم أنها لم تصدر إلا عن النور الإلهى، فهو وحده الجدير بأمثال هذه الهدايات، فلذا قال: أنزلنا إليكم. وأما هنا فان الكلام مسوق لبيان حال الآيات فى نفسها، وأن الله قد أنزلها بينة مبينة، لا يشك فيها شاك ولا يرتاب فيها مرتاب، ومع ذلك يصادف الخذلان بعض الناس المطلعين عليها فتعشى أبصارهم وتعمى بصائرهم عنها، وهذا شأن يرجع الى نفس الآيات لا يختص بالمخاطبين. وقوله: «والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم» لتقرير أن جلاء النور لا يغنى عن الرجوع الى واهب العقول على ما سبق. وقد قال القائل:

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وقوله تعالى: «ويقولون» معناه أن من الناس من يقول بلسانه آمنّا وأطعنا ثم يتسالل فريق منهم ويعرض عن حكم هذه المقالة، والباقى منهم عرضة لمثل هذا يقرون إخوانهم عليه، فأصحاب هذه المقالة الجوفاء الكاذبة فى تصوير معتقداتهم ليسوا من المؤمنين فى شىء. وعلى هذا فضمير «يقولون» المنافقين، وهم وإن لم يسبق ذكرهم فان

بقية الكلام مبين المراد . ومثل هذا فيما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم أن يبدأ الرجل كلامه بمثل هذه العبارة : إنى أعجب من هؤلاء الناس يا أخى : يعاهدوننى على أنهم معى الى آخر الأمر ، وبمجرد أن تبدر أول بادرة مكروهة لا أجد حولى منهم أحدا ؛ فقد تعاهد معى فلان وفلان الخ . وتجد للكلام تمكنا فى النفس ليس له إذا بدأت بتعيين المحدث عنه بادئ ذى بدء . وعلى هذا فقوله : «وما أولئك بالمؤمنين» إشارة الى القائلين هذه المقالة جميعهم .

وجوز أن يكون ضمير يقولون لكل من أظهر الايمان صادقا أو كاذبا ، وقوله : يتولى فريق منهم ، المراد به المنافقون . والإشارة فى قوله : وما أولئك بالمؤمنين ، للفريق خاصة ؛ وهذا مع ظهوره لا يساوى الأول فى دقة الأسلوب ، فنميل الى ترجيح الوجه الأول فى تفسير الآية الكريمة .

ومعنى يتولى : يعرض . والإتيان بثم التى معناها التراخى فى الترتيب للإشارة الى أن التولى أمر بعيد الحصول ما كان يظنه العقل ، فمن صدر منه الاعتراف بالايمان والطاعة فمن البعيد أن يعطى على نفسه عهدا بالطاعة بعد تلك الآيات البينة ثم يتولى عن حكم الله ورسوله . وأما على الوجه الثانى فمعناها استبعاد تولى هذا الفريق الى طريق الشقاء والضلال بعد أن اندرج فى زمرة المؤمنين ، فما كان يُظن بعاقل أن يتولى عن فرقة الراشدين بعد أن اندرج فى زمرتها الى فرقة الغاوين .

وقوله : وما أولئك بالمؤمنين ، إذا رجع الى كل القائلين يكون معناه أن الذين يقولون آمنا ثم يتسللون فيتولى فريق منهم والباقى سكوت عليهم موافقون على مسلكهم — هؤلاء كلهم ماهم بالمؤمنين ؛ واذا رجع الى الفريق المتولى خاصة فأمره ظاهر . وأيا كان فاختيار لفظ أولئك فى التعبير عنهم دون الضمير ، لتصويرهم بالصفات التى تجردوا من الايمان بسببها ؛ وكونه بصفة البعيد لتحقير منزلتهم وإقصائهم عن أن يلتفت اليهم

أو يكونوا بعقربة من ساحة الخطاب. ويشبه هذا من بعض الوجوه قول الناس فى تخاطبهم حين الذم أو الاشمئزاز: (البعيد) أو (الأبعد). فهى لمثل هذا فى أغراضهم وإن لم يفطنوا الى تصويره حق التصوير. وقوله: بالمؤمنين، بصيغة المعرف باللام، للتنويه بعظمة المؤمنين كأنه يقال. ليس أولئك بالمؤمنين المعروف حالهم الظاهر أمرهم الذين لا يلتبسون ولا يخفون. وقوله: من بعد ذلك، مبالغة فى استبعاد أن يصدر هذا التولى ممن يعقل، من بعد أن اندمج فى المهتدين، واعترف على نفسه بالايمان، وأعطى على نفسه حكم الطاعة، ووضحت له الآيات البينة، أفمن بعد ذلك كله يكون التولى؟ والإشارة التى للبعيد فى لفظ ذلك لتعظيمه. وما أكثر النكات التى يعطيها اسم الإشارة فى البلاغة العربية!

وقوله تعالى: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ):

من تمام تصوير حالهم الشنيعة، فقد وصفهم أولا بالتولى من حكم الايمان فى الجملة، ووصفهم هنا بإظهار الإعراض والتمرد عند دعوتهم للتحاكم. وقوله: «ليحكم بينهم» أى وبين خصومهم. والتعبير بيحكم بينهم دون عليهم، ليقطع ما عسى أن يتلمسوه عذرا لهم من أنهم فروا من الحكم عليهم، وكل امرئ يخاف من أن يحكم عليه، فلذا عدل الى هذه العبارة الدالة على أنهم دعوا ليحكم بينهم، عليهم أو لهم. وقوله: «إذا فريق منهم معرضون»: «اذا» هنا تسمى اذا الفجائية، وهى جواب لإذا الأولى الشرطية. والمعنى أنهم إذا دعوا للمحاكمة فاجأ الداعىَ إعراضُهم وأنهم مصممون على الإعراض مصرون عليه من قبل. وهذا سر العدول عن لفظ أعرضوا فى الجواب الى هذا، فكأن المعنى أنهم منطوون على الإعراض عن حكومته مصممون على ذلك من قبل الدعوة، فاذا جاءت الدعوة فاجأها إعراضهم الثابت المستقر. وكأن قوله: فريق منهم، بدل قوله: إذا هم معرضون، للتوطئة لقوله: وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين. وكأنه

يبادر بإفادة أنهم ليسوا كلهم معرضين عن حكمه ، بل إنما يعرضون حين يعلمون أن الحق عليهم لا لهم ، فإن علموا أن الحق بيدهم — وقليلا ما يكون ذلك بدليل التعبير بإن التي للشك أو القلة والندرة فى الشرط — أتوا اليه مذعنين طائعين مستسلمين لحكومته أو مسرعين مبادرين ، كما روى فى تفسيره ، فقد روى تفسير مذعنين بمستسلمين وبمسرعين .

قال تعالى : (أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

هذا أشبه شيء بما يسمونه السبر والتقسيم ، ليبطل الباطل ويحق الحق ، فقد ردد أمرهم فى التقسيم بين أشياء فى سياق الاستفهام الإنكارى ليخلص الى النتيجة المحتومة ، وهى بيان أن الباعث الحقيقى على إعراضهم إنما هو توغلهم فى الظلم حتى كأنهم وحدهم هم الظالمون لا يشاركهم فى ذلك الظلم أحد . ومعنى الآية : أعميت بصائرهم فلم يدركوا رسالته صلى الله عليه وسلم ؟ فرض القلوب معناه عمى البصائر عن الإدراك ، أم هم فى شك من أمره عليه السلام فلا يدرون أيوفق فى حكومته أم لا ، أم لحقهم الخوف من الحيف لما شعروا به من أنه عليه السلام يبغضهم ، كما صرح بذلك بعضهم علناء ، فإعراضهم خوف على حقهم أن يضيعه بغض الرسول عليه السلام لهم ؟ كلا ، لم يكن شيء من ذلك هو الباعث . فلو كان الباعث لهم على الإعراض أحد هذه الأشياء فلماذا يأتون مذعنين طائعين مستسلمين مسرعين إن كان لهم الحق ، ويخصون إعراضهم بحالة ما إذا كان الحق فى جانب خصومهم ؟ فهل هذا إلا لشيء واحد وهو علمهم أنه لا يقضى إلا بالحق وأن الحق فى جانب خصومهم ، فهم جازمون بأنه سيحكم عليهم ؟ وهذا كقول القائل : إذا لم تكن مدينا لى حقا فلماذا تخاف من توجهى الى محكمة العدل ؟ فهؤلاء لم يكن الباعث لهم على الإعراض عمى قلوبهم عن الحق وإن كانوا عمى القلوب حقاء ، ولا ارتيابهم

فى عدالة حكومته عليه السلام ولو كانوا غير مؤمنين ، فقد أذعن الكل الى أنه عليه السلام لا يقضى إلا بالحق ، وما اتهموه بكذب ولا جور حتى كبار المشركين فى الإشراك ؛ وما كان ذلك لخوف من حيف ، فقد علموا أنه أبعد من أن يحيف فى حكومته ، وإنما باعثهم على الإعراض محض تمسكهم بالظلم . وعلى هذا فالاستفهام إنكارى ، وليس محل الإنكار هو مرض قلوبهم وما معه ، فهم مرضى القلوب ولا شك ، وإنما محل الإنكار أن يكون هذا هو باعث الإعراض ، بل باعث الإعراض هو ظلمهم وتمسكهم بغير الحق .

وإنك لتعرف موقع البراعة فى أن يجمع الاسم الكريم الى اسمه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (وإذا دعوا الى الله ورسوله) وفى قوله : (أن يحيف الله عليهم ورسوله) ففيه من التنويه بشأن المصطفى صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، فقد بين أن حكمه حكم الله ، وأن ما يصدر منه فهو صادر من الله ، فكيف يتصور أن يصدر منه حيف . بل قد جيء بالآية على وجه يدل على استحالة ما يخافونه ، على فرض أنهم يخافون ذلك ، فقد قيل : أم يخافون أن يحيف الله عليهم ، وكيف يعقل من الله حيف ؟! ثم عطف عليه لفظ رسوله كأنه ليفهم أنه لا يمكن الحيف من الرسول إلا إن أمكن الحيف من الله ، وهذا مستحيل قطعا ، والنبى لا يحكم إلا بما أمر به ربه ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . فنسأل الله أن يجعلنا ممن تمسك بهداه ، لا من اتخذ إلهه هواه ، فأضله عن سبيل الله .

رب إن الهدى هداك وآيا   تك نور تهدى بها من تشاء

ابراهيم الجبالى

السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وَجَد حلاوةَ الإيمان : أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سِواهُما ، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلّا لله ، وأن يَكْرَه أن يَعودَ في الكفر كما يَكْرهُ أن يُلقى في النارِ) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

الايمان : هو التصديق الجازم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغا عن ربه مصحوبا بإذعان النفس وقبولها وطمأنينتها له وعدم إبائها مكابرة أو عناداً واستكبارا . وقد يوجد الجزم ويرتفع عن النفس الريب والشك ولكن تبقى المكابرة والإباء والعناد وعدم الإذعان ، فمثل هذا لا يعد إيمانا . ولكن المؤمن حقا هو من أذعنت نفسه واطمأن قلبه وانشرح صدره ورأى في ذلك نعمة كبرى من الله عليه يغتبط بنيلها ويحمد الله على منته بها ويقول بلسان حاله : الحمد لله على نعمة الايمان . ولكل نعمة لذة تقوى بحسب تنبه النفس وشعورها بعظم الانتفاع بها ، ويزداد الشكر عليها وتقديرها بحسب ما يدرك من نالها من آثارها . فكم ترى في الناس من آمن في يسر ورخاء وهو غافل عن نعمة الأمن واليسار . وإن المتمتعين بنعمة الصحة مع غفلتهم عن الشعور بها لأكثر من أن يحصوا ، حتى قيل : الصحة تاج على رءوس

الأصحاء لايراه إلا المرضى . فالنعم قد تصادف المرء ويكون وافر الحظ منها وهو مع ذلك لا يتذوقها ولا يحسها لأنه منصرف عن التفكير فيها والالتفات إليها ، وإنما يوجهه إليها ويشعره بها حرصُه على اجتناء ثمرها وقيامه بواجب شكرها .

ومن أجلّ نعم الله على العبد نعمة الإيمان . ولقد ترى الكثير ممن آمن وجزم واستيقن وخلص من الشك والريب وسلم من آفة العناد والمكابرة ، ولم يبتل بكراهية ما أنعم الله به عليه من نعمة الإيمان ، تراه مع هذا مستغرقا فى غفلته ، منصرفا عن أن يقدر نعمته حق قدرها ، مقصرا فى القيام بواجب شكرها . فمثل هذا مؤمن ولاشك ، إلا أنه لم يذق لإيمانه طعما ، ولم يدرك له لذة . وكيف يدرك لذة لم يلتفت اليها ولم يتنبه لعظيم قدرها ولم يشعر بغبطة لإحرازها ! ومثله مثل من نشأ فى بحبوحة من العيش ولم يلتفت الى حال الفقدان والعدم ، فقلما تجده قائما بشكر نعمة السعة ، إلا أن يزعجه تعرضها للزوال ، فعندئذ يتنبه لما هو معرض له من أخطر الأحوال . كذلك تجد هذا قلما يتنبه للإيمان ونعمته ، إلا إذا كان عرضة للمهاجمة فيه ومحاولة انتزاعه منه ، فتتنبه حواسه ويستيقظ من سباته ، كما يحكى عن ذلك المؤمن الذى كان منغمسا فى الشهوات ولا يتحاشى عن تعاطى المسكرات فعرض له أحد المغوين الذين يسمون أنفسهم بالمبشرين وظن أنه يختلس منه إيمانه وهو فى غفلة من سكره فتقدم له يقول : إنك شاب مهذب نشأت ربيب نعمة وتعودت الرفاهية ومثلك لا يمكنه الإقلاع عما اعتاد من ترف ، ولكنك تدين بدين يحظر عليك هذه العادات التى تملكتك ، ويتوعد بالنار كل من تعاطاها ، فإن بقيت على ذلك الدين وأنت تتعاطاها حكم عليك بدخول النار ، أفلا أدلك على دين متى اعتنقته استبحت كل شىء ونجوت من عقابه ؟ ذلك أن تؤمن بمخلصنا المسيح ، فانه افتدانا من الخطايا بصلبه ، فمتى آمنت به نجوت من كل عذاب مهما فعلت من الجرائم . فما هو إلا أن وصل به الى هذا حتى تنبهت فيه غريزة إيمانه وتحركت فيه نخوة دينه ،

فصحا من سكرته ، ودفع ذلك المضل فى جبهته ، وقال له : اخسأ يا كافر : إنا نطلب من الله أن يغفر لنا جريمة السكر فتريد أنت أن توقعنا فى الكفر ؟ ! فذهب عنه خاسرا . فمثل هذا ممن شملتهم نعمة الإيمان ، ولكن ذهلوا عنها بسكرة الحياة الشهوانية وانغماسهم فى حمأة من الترف بل البهيمية ، فقلما يذوق أحدهم لذة إيمانه أو يشعر بعظيم النعمة التى أنعم الله عليه بها ، وكيف ينتفع بالنعمة من لم يعرف قيمتها ، وكيف يقوم بشكرها من لم يقدرها حق قدرها .

ولقد جاء هذا الحديث ينير لنا الطريق الذى به نتعرف مقدار هذه النعمة العظمى : نعمة السعادة الدائمة والنعيم المقيم ، نعمة الإيمان الضامنة لسعادة الدارين ، لنجنى ثمرها ونوفيها شكرها ، فأرشدنا الى ما به نمتحن نفوسنا ، فإن وجدنا فيها أمارة الإيمان حمدنا الله وزدناها نموا ، وإن وجدنا النفوس خلوا منها جاهدناها حتى نحليها بهاونروضها عليها ، وذلك من أعظم وسائل تربية النفوس ومراقبتها ليكمل نقصها وتحلى بما فقدت من فضائل ، فقال عليه أفضل الصلاة والتسليم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » والمراد ثلاث خصال ، وهى المبينة فيما يأتى . وستعرف مقدارها من الدين ليتجلى لك أن هـذا الحديث أصل عظيم جامع لأبواب الخير . وحلاوة الإيمان هو ما يتذوقه المؤمن المطمئن النفس من لذة هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه فهيأه بها لإحراز سعادتى الدنيا والآخرة . أجل : سعادة الدنيا بإرشاده الى ما فيه صلاح معيشته وتهذيب نفسه وتنظيم حياته الخاصة والعامة ، وناهيك بما يفيضه الإيمان على صاحبه من نعمة الصبر على البلاء ، والشكر على السراء ، والنظر الى كل ما يصادفه المرء فى حياته بأنه صادر عن الحكيم العليم ، فيشهد فيه ماينثلج له صدره ويطمئن له فؤاده ، فلا يفتأ يشهد من بديع الحكم ما يربو على المتنقل فى بستان بين طيب الرياحين وبديع الأزاهير وشهى الثمار . هـذا ما يجده المؤمن من ثمرة إيمانه فى الدنيا وما عند الله خير وأبقى . حلاوة

الإيمان يتذوقها المؤمن الصادق فى إيمانه فى كل مظهر من مظاهر حياته من سراء وضراء، فهو فى كل شىء يشهد أثر اللطيف الخبير، فيستفيد بإيمانه لذة فى الدنيا وأجرا عظيما فى الآخرة .

الأولى — أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما :

الحب ميل النفس الى ما تجد فيه لذة أو منفعة أو موافقة طبع . وأسبابه متنوعة ، فقد يحب المرء الشىء لأنه يعود عليه بالنفع ، أو يحب الشخص لأنه يسديه الإحسان ، وقد يحب الإنسان الشىء لما فيه من كمال ذات أو جمال صفات أو حسن اتساق . ولقد ذكر الغزالى رحمه الله للحب خمسة أسباب وهى :

(١) حب الإنسان نفسه ، ووجوده ، ودوام وجوده ، وكماله ، وذلك ضرورى .

(٢) حب الإنسان من أحسن اليه وانتفع منه منفعة ما ، وهو ما يشهد به كل إنسان . جبلت النفوس على حب من أحسن اليها .

(٣) وحب المحسن فى ذاته لنفس الإحسان وإن لم يصل أثره الى الإنسان ، فإنا إذا سمعنا بشخص له إحسان وبر ، وقد بسط خيره وكثر منه النفع للعباد ، وجدنا من نفوسنا الميل اليه ، وعلقت محبته بالقلوب ، وإن كنا فى غنى عنه وعن إحسانه .

(٤) وحب الجمال والحسن فى ذاته بقطع النظر عن أن يعود علينا منه لذة أو منفعة ، والجمال يتفاوت الى أنواع ومراتب كثيرة لا تنحصر : فمنه حسى كحسن الأزهار والألوان الجميلة والأشكال الهندسية المتقنة والخط الحسن والحيوانات المتناسبة الأعضاء أو الطيور الزاهية الألوان وأمثال ذلك ، ومنه معنوى كحسن الأخلاق الكاملة والصفات الفاضلة ، كالعلم والذكاء والشجاعة والعدل وضبط النفس مع القدرة وهلم جرا . فكم ترى لبعض المشهورين بالشجاعة من محبة فى نفوس العامة الى درجة

التفانى فى التعصب لتفضيلهم والتقاتل فى سبيل الذب عن مكانتهم، وما ذلك عن رؤية لذواتهم أو صلة بينهم و بينهم، وإنما هو الولوع بالصفة الفاضلة التى تعتبر مثلا أعلى فى الجمال النفسى عند أولئك الأقوام، حتى لقد يكون صاحب الصفة شخصا خياليا و تفاض عليه صفات الجمال مضمومة بعضها الى بعض، ويذكر من شواهدها ما يعزز وجودها وكمالها فيه، فتعلق محبته بالقلوب ولو صور بصورة زنجى أسود. فهذا من حب الجمال المعنوى حيث لا إحسان فيه لك ولا لغيرك، ولا فائدة منه مرجوة للمحب تعود اليه أو الى أحد ممن يتصل به.

(٥) وحب الإنسان لمن بينه وبينه مناسبة وألفة ولو لم تكن تلك الأسباب السابقة أو شىء منها موجودا، وذلك كما ورد فى الحديث: الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

وإذا نظرنا الى هـذه الأسباب وجدناها موجبة حب المؤمن العارف لربه حبا لا يشاركه فيه محبوب. فأما السبب الأول وهو حب الإنسان لنفسه ووجوده وكماله وبقائه فهو ظاهر التوصيل الى حب الخالق الموجد المكمل المبقى. وهل يتصور امرؤ يحب أن يعيش ولا يحب ما به قوام معيشته ومالا يحيا إلا به كقوته وماله؟ وهل يمنح الوجود والكمال والبقاء إلا الله الموجد؟ وكذلك السبب الثانى فى غاية الظهور، فلا محسن على الحقيقة إلا الله تعالى، وما يتصور من إحسان غيره فهو إحسان مجازى لا يزيد فى مجارى العادات على إحسان خازن مال الأمير على شخص بأمر الأمير. فإذا نظرت الى ملك الأمير لماله بالنسبة الى مالك الأمر كله فإنه أضعف من نسبة خازن المال الى الأمير، فالأمير مسخر فى عطاياه للدواعى التى سلطها الله عليه لا يستطيع منها فكاكا، كما أن الخازن لا يقدر على مخالفة أمر أميره، بل تسخير الأمير لدواعيه أقوى من سلطان الأمير على الخازن. وفوق هذا فالمحسن من الناس لا يحسن إلا فى مقابلة عوض: من انتظار أجر

وثواب ، أو إحراز محمدة وثناء ، أو اشتهار اسم وبعد صيت ، أو ما ماثل ذلك من دواعى الإحسان . وأما الإحسان الإلهى فإنه إحسان وفضل محض لا يعود منه الى المحسن فائدة ولا له فيه غرض ، فقد تنزه جل شأنه عن الأغراض .

هذا فى الإحسان الى المحب خاصة . أما الإحسان المطلق وهو السبب الثالث ، فأى محسن يتصوره الوهم يمكن أن ينسب إحسانه الى الجود الإلهى المطلق ، كيف وكل ما فى الوجود هبة من هباته وجزء من نفحاته ؟ لا ينكر ذلك بر ولا فاجر ، ونعم الله على عباده لا تحصى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا) (ومَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ) .

أما الجمال والكمال فى الذات والصفات والتنزه التام عن سمات النقص، فمن خواص الذات الأقدس ، المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقصان . فالحب للكمال والجمال متى نسب إليه فقد ضاع كل حب دونه . بقى السبب الخامس وهو الحب للمناسبة والمشاكلة ، فى هذا النوع خفاء يحتاج الى كشف وإيضاح ، فان مشاكلة المخلوق للخالق مستحيلة بالضرورة والبرهان ، فما يتحقق منها فى هذا الباب يحتاج الى تلطف فى الفهم وأناة فى التعقل .

لقد اتصف جل شأنه بصفات تفرد بها وكان لها تعلقات وآثار دعا المؤمنين الى التأسى به فيها ، كالرحمة والرأفة والإحسان والعطف والبر . وقد جاء : تخلقوا بأخلاق الله . فالمؤمن الذى وفقه الله للتحلى بهذه المكارم والأخلاق الفاضلة يجد نفسه مظهراً لبعض الصفات التى يمن الله بها على عباده ليتخلقوا بأخلاقه ؛ فاذا كان مظهرا للرحمة أو للعدالة أو للبر والخير وذكر الرحمة الإلهية والعدل الإلهى ، فلا شك أنه يحس من نفسه اقترابا لتلك الصفات الكمالية التى ينعم بها الخالق على المخلوق ، وتكون من باب التأسى والاقتداء ، وإن كانت المسافة شاسعة بين المقامين ، فيحس حينئذ بالزلفى التى تدفعه الى المحبة والتعلق الروحانى . وأول باب لذلك التقرب بالنوافل . ومن هذا جاء فى الحديث

القدسي : «لا يزال عبدي يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» . والمعنى والله أعلم : أنه في كل ما ينظر ويسمع ويخطر له من خطرات يراعي معنى التقرب الى الله ويتحرى مرضاته ، وكفى بهذا تصويرا في معنى الألفة بل في تقريب أسباب المحبة من الأفهام ، وإلا فالمحبة وجدان تعالى عن أن يناله الشرح أو يكفي فيه الوصف .

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وإنما أطنبنا في هذا المقام لأن بعض الناظرين فسّر المحبة بالطاعة والامتثال فحسب وقال : إن المحبة لا تتصور إلا بين الأجناس المتآلفة أو التي يتصور فيها التآلف ، وذلك محال بين الخالق والمخلوق فتحمل على لازمها وهو الطاعة . وقد علمت ما يزيل هذه الشبهة وأن المحبة لا تقتصر على ذلك ، إلا إن نظر الى نوع منها هي المحبة الشهوية كمحبة الحيوان للحيوان . وليت شعري كيف يفسر هؤلاء محبة الانسان لمظاهر الكون المنسجمة أو للأزاهير والرياحين أو للبلاغة والبراعة أو للأشكال الهندسية المتقنة وهكذا مما لا ينحصر !

نعم ثمرة المحبة الإلهية الطاعة والامتثال ، ولكن فرق بين طاعة عن حب وطاعة عن رغبة أو رهبة . روى أن عيسى عليه السلام مر بقوم يعبدون خشية النار أو رجاء الجنة فقال : إنكم تخشون مخلوقا وترجون مخلوقا . ومر بآخرين قد نحلت أجسامهم من العبادة وقالوا : نعبده حبا له وتعظيما لجلاله ، فقال : أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أجلس . ويقرب به من الذهن في معتاد الناس أن يقول الرجل الذي عرف من آثار ملكه وعدله وحسن تقديره للأمور ونحو ذلك من الصفات الحميدة : إني أخدم ملكي لا بمجرد أن القانون يوجب ذلك بل لأن هذا الملك أهل لأن يحب مستحق لأن يخدم ، وإن من عرف فيه ما أعرف من صفات الكمال يجد لذته في أن يخلص إليه ويتقرب منه .

هذا فى أصل الحب وهو أمر يزداد وينمو بقوة الايمان والطاعات حتى يكون ماثلا دائما أمام المحب ، فيصل عند بعض المقربين الى أن تكون قلوبهم دائما مشغولة بذكره متلذذة بتحميده وتمجيده والزلفى اليه . نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته .

وأما حب الرسول صلى الله عليه وسلم فهو من حب الله ، فإنه ليس أحد بعد الله أمنّ علينا ممن اصطفاه لتبليغ هداه وتوصيل رحمته إلينا ، وبه أنقذنا من الظلمات الى النور وأعدّنا للسعادة الدائمة والنعيم المقيم ، وقال مخاطبا له : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) . وكون الله ورسوله أحب الى المؤمن مما سواهما ، أى من أهله وولده ووالده والناس أجمعين ، بل أحب اليه من نفسه . وليس فى هذا تمدّ ولا غرابة ، فالمؤمن هو الذى يفتدى نبيه بنفسه ، حتى لو خير فى الضرر يصيبه أو يصيب نبيه فلا يرغب بنفسه عن نفس نبيه ، ففى افتداء نبيه بنفسه تقديم حياة دائمة وسعادة خالدة على متاع زائل وعرض فان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

الخصلة الثانية — أن يحب المرء لا يحبه إلا لله :

وهذا فرع عن الخصلة الأولى وهى محبته لله ، فالذى يحب الله حبا صادقا إذا أحب امرءا فإنما يحبه لما يراه منه من طاعة ربه ، وليس معنى هذا أن من أحب إنسانا لبعض أغراض نفسية يخرج بذلك عن الايمان ، وإنما المعنى أن الذى يعتبر ثمرة من ثمار الايمان ودليلا على أن الشخص قد ذاق حلاوة الايمان ، أن يكون منه حب فى الله وبغض فى الله ، أى أن يوجد منه حب لا يكون الدافع اليه غرضا نفسيا ولا غاية شهوية وإنما يكون داعيه هو قيام المحبوب بطاعة الله ، وأنه من المقربين الى الله ، وكذلك داعية البغض تلبس المبغوض بمعصية الله ، فهذا هو الذى يعتبر علامة ذوق المؤمن حلاوة الايمان ، فلا ينافى أن يوجد معه حب لشخص آخر لغاية من غايات هذه الحياة الدنيا ،

فإنه فرق بين أن يقال : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله وبين أن يقال : ألا يحب أحدا إلا لله ولا يبغض أحدا إلا لله .

الخصلة الثالثة — أن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار :

وهي من الأمارات الظاهرة لرسوخ الايمان فى النفوس بل لحصوله واستقراره ؛ وكيف يكون مؤمنا بالله ورسوله من لم ير أن إيمانه هو وحده المنجى من النار ؟ وكيف يؤمن بالله ورسوله من لا يصدق بقوله تعالى : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فالمؤمن حقا هو من لا يعزب عنه أو من لا يشك فى أنه إن عاد الى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كان لا محالة ملقى فى النار نار الآخرة ، فهو يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار . ويصح أن يراد نار الدنيا ، والتشبيه باعتبار أنها أشد ما يخشاه الانسان من الألم المحسوس ، ولنار الآخرة أشد وأبقى .

وكما يكره المؤمن لنفسه أن يلقى فى النار يكره لأخيه المؤمن صغيرا كان أو كبيرا ولولده ولكل من له به سبب أو صلة نسب أن يلقى فى النار . فمن ذا الذى يرى إنسانا ما ولو كان لا يعرفه أو ولو كان عدوه ، يراه يتردى فى النار على غفلة منه أو علم ثم لا يسارع لإنقاذه منها مهما كان متحجر القلب صخرى العاطفة ؟ إن هذا شعور تمليه الحساسية الإنسانية ، فكيف بعاطفة الإيمان التى هى مصدر الرحمة والرأفة والحنان . وإن ما يساق اليه سيئو الحظ من ضعفاء العقول : من أخذهم على غرة منهم ، واستغلال ضعفهم وسوء حالهم لردهم عن دينهم ، إنما هو شر يساقون إليه بأيد مجرمة انتزعت منها الرحمة الى الإيقاع فى النار ؛ فهل فى المؤمنين من يستهين بأخيه وولده فيرى من يسوقه الى النار على غرة منه ثم لا تأخذه الشفقة لإنقاذه منها واستخلاصه من هذا العدو الجبار ؟ !

وإن من البلية أن يزعم أولئك المضلون أنهم مرشـدون ويقولون عن أنفسهم إنهم مبشرون. ولو كانوا على بينة من أمرهم وعلى يقين من صحة دعوتهم ما عمدوا الى اختلاس الضعفاء على غفلة من ذويهم وأهليهم، بل كانوا يعمدون بالحجة والبينة ليدللوا على صحة أقوالهم، أو على الأقل على أنها ليست سخافة وحماقة. فصاحب الحق المتمسك بالحجة والبرهان لا يخشى المجادلة بالبرهان ولا يعمد الى اختلاس الضعفاء والصبيان ولا يلجأ الى تلك الوسائل الإجرامية: من تغرير وتعذيب، وتشويق الأطفال بقطع الحلوى، وخداع الشبان بأخس الوسائل الغرامية، واستغلال ضعف المرضى وضجرهم مما هم فيه. وإنها لفتنة لعن الله من أيقظها. وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. نسأل الله تعالى أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ؟ ابراهيم الجبالي

الراديو

من الوجهتين الدينية والفنية

محاضرة قيمة ألقاها حضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير الأستاذ الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقا فى مركز فرع جمعية الهداية الاسلامية بالعباسية؛ وحضرها جمع عظيم من العلماء والفضلاء. وقد بحث فضيلة الأستاذ فى محاضرته عن هـذه الآلة (الراديو) من الوجهة الفنية، وتعرض لحكم قراءة القرآن فى موضع إذاعتها، وأضاف الى ذلك فوائد جليلة، فتلقاها الحاضرون بالإنصات والإعجاب والدعاء لفضيلته بطول البقاء [1].

(١) ستنشر هذه المحاضرة فى عدد جمادى الاولى من مجلة الهداية الاسلامية.

توحيد الالوهية – وتوحيد الربوبية

جاءتنا رسائل كثيرة يسأل مرسلوها عن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ما معناهما ، وما الذى يترتب عليهما ، ومن ذا الذى فرق بينهما ، وما هو البرهان على صحة ذلك أو بطلانه ؟ فنقول وبالله التوفيق :

إن صاحب هذا الرأى هو ابن تيمية الذى شاد بذكره .

قال : إن الرسل لم يبعثوا إلا لتوحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة ، وأما توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف فى أمورهم فلم يخالف فيه أحد من المشركين والمسلمين ، بدليل قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) ثم قالوا : إن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء ويتشفعون بهم وينادونهم عند الشدائد هم عابدون لهم قد كفروا بما كفر به عباد الأوثان والملائكة والمسيح سواءً بسواء ، فإنهم لم يكفروا باعتقادهم الربوبية فى تلك الأوثان وما معها بل بتركهم توحيد الألوهية بعبادتها ، وهذا ينطبق على زوار القبور المتوسلين بالأولياء المنادين لهم المستغيثين بهم الطالبين منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى (بل قال محمد بن عبد الوهاب : إن كفرهم أشنع من كفر عباد الأوثان ، وإن شئت ذكرت لك عبارته المحزنة الجريئة) فهذا ملخص مذهبهم مع الإيضاح ، وفيه عدة دعاوى . فلنعرض لها على سبيل الاختصار ، ولنجعل الكلام فى مقامين فنتحاكم الى العقل ثم نتحاكم الى النقل ، فنقول :

قولهم : إن التوحيد ينقسم الى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، تقسيم غير معروف لأحد قبل ابن تيمية ، وغير معقول أيضا كما ستعرفه ؛ وما كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول لأحد دخل فى الاسلام : إن هناك توحيدين ، وإنك لا تكون مسلما حتى توحد توحيد الألوهية ، ولا أشار الى ذلك بكلمة واحدة ، ولا سُمع ذلك عن أحد من السلف الذين يتبجحون باتباعهم فى كل شيء ، ولا معنى لهذا التقسيم ، فإن الإله الحق هو الرب الحق ، والإله الباطل هو الرب الباطل ، ولا يستحق العبادة والتأليه إلا من كان ربا ، ولا معنى لأن نعبد من لا نعتقد فيه أنه رب ينفع ويضر ، فهذا مرتب على ذلك ، كما قال تعالى : (رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) فرتب العبادة على الربوبية ، فإننا إذا لم نعتقد أنه رب ينفع ويضر فلا معنى لأن نعبده كما قلنا . ويقول تعالى : (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) يشير الى أنه لا ينبغي السجود إلا لمن ثبت اقتداره التام ، ولا معنى لأن يسجدوا لغيره . هذا هو المعقول ، ويدل عليه القرآن والسنة .

أما القرآن فقد قال : (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَائِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا) فصرح بتعدد الأرباب عندهم ، وعلى الرغم من تصريح القرآن بأنهم جعلوا الملائكة أربابا يقول ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب : إنهم موحدون توحيد الربوبية وليس عندهم إلا رب واحد وإنما أشركوا فى توحيد الألوهية . ويقول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن وهو يدعوهما الى التوحيد : (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ) .

ويقول الله تعالى أيضا : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي) وأما هم فلم يجعلوه ربا . ومثل ذلك قوله تعالى : (لَٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي) خطابا لمن أنكر ربوبيته تعالى . وانظر الى قولهم يوم القيامة : (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) (أى) فى جعلكم أربابا كما هو ظاهر . وانظر الى قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) فهل ترى صاحب

هذا الكلام موحداً أو معترفا؟ ثم انظر الى قوله: (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللَّهِ) الى غير ذلك وهو كثير لا نطيل بذكره.

فاذاً ليس عند هؤلاء الكفار توحيد الربوبية كما قال ابن تيمية، وما كان يوسف عليه السلام يدعوهم إلا الى توحيد الربوبية، لأنه ليس هناك شيء يسمى توحيد الربوبية وشيء آخر يسمى توحيد الألوهية عند يوسف عليه السلام (فهل هم أعرف بالتوحيد منه أو يجعلونه مخطئا فى التعبير بالأرباب دون الآلهة؟).

ويقول الله فى أخذ الميثاق: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ) فلو كان الإقرار بالربوبية غير كاف وكان متحققا عند المشركين ولكنه لا ينفعهم كما يقول ابن تيمية، ما صح أن يؤخذ عليهم الميثاق بهذا، ولا صح أن يقولوا يوم القيامة: (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) وكان الواجب أن يغير الله عبارة الميثاق الى ما يوجب اعترافهم بتوحيد الألوهية حيث إن توحيد الربوبية غير كاف كما يقول هؤلاء، الى آخر ما يمكننا أن نتوسع فيه، وهو لا يخفى عليك. وعلى كل حال فقد اكتفى منهم بتوحيد الربوبية، ولو لم يكونا متلازمين لطالب إقرارهم بتوحيد الألوهية أيضا، ومن ذلك قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ) فإنه إله فى الأرض ولو لم يكن فيها من يعبده كما فى آخر الزمان. فإن قالوا إنه معبود فيها أى مستحق للعبادة، قلنا إذاً لا فرق بين الإله والرب، فإن المستحق للعبادة هو الرب لا غير، وما كانت محاورة فرعون لموسى عليه السلام إلا فى الربوبية، وقد قال: «أنا ربكم الأعلى» ثم قال: «لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين» ولا داعى للتطويل فى هذا.

وأما السنة فسؤال الملكين للميت عن ربه لا عن إلهه، لأنهم لا يفرقون بين الرب والإله (فإنهم ليسوا تيميين ولا متخبطين) وكان الواجب على مذهب هؤلاء أن يقولوا للميت مَنْ إلهك لا من ربك، أو يسألوه عن هذا وذاك. وأما قوله: (وَلَئِنْ

سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم إجابة لحكم الوقت ، مضطرين لذلك بالحجج القاطعات والآيات البينات . ولعلهم نطقوا بما لا يكاد يستقر في قلوبهم أو يصل الى نفوسهم ، بدليل أنهم يقرنون ذلك القول بما يدل على كذبهم ، وأنهم ينسبون الضر والنفع الى غيره ، وبدليل أنهم يجهلون الله تمام الجهل ويقدمون غيره عليه حتى في صغائر الأمور . وإن شئت فانظر الى قولهم لهود عليه السلام : (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) فكيف يقول ابن تيمية : إنهم يعتقدون أن الأصنام لا تضر ولا تنفع الى آخر ما يقول ؟ ! ثم انظر بعد ذلك الى قولهم في زرعهم وأنعامهم : (هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ) فقدموا شركاءهم على الله تعالى في أصغر الأمور وأحقرها . وقال تعالى في بيان اعتقادهم في الأصنام : (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ) فذكر أنهم يعتقدون أنهم شركاء فيهم .

ومن ذلك قول أبي سفيان يوم أحد : اُعْلُ هُبَلْ ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : الله أعلى وأجل . فانظر الى هذا ثم قل لي ماذا ترى في ذلك التوحيد الذي ينسبه اليهم ابن تيمية ويقول إنهم فيه مثل المسلمين سواء بسواء وإنما افترقوا بتوحيد الألوهية ! ثم انظر بعد ذلك الى قوله تعالى : (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي) (أي) وأما هم فلم يجعلوه رباً . ومثل ذلك قوله تعالى : (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) خطابا لمن أنكر ربوبيته تعالى : وانظر الى قولهم يوم القيامة : (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (أي) في جعلكم أربابا كما هو ظاهر لغير المتعسف . وانظر الى قوله تعالى . (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ) فهل ترى هذا

كلام موحد أو معترف ؟ ثم انظر الى قوله : (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللَّهِ) الى غير ذلك ، وهو كثير .

وأدل من ذلك كله قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) الى غير ذلك مما يطول شرحه ، فهل ترى لهم توحيدا بعد ذلك يصح أن يقال فيه إنه عقيدة ؟ أما التيميون فيقولون بعد هذا كله إنهم موحدون توحيد الربوبية ، وإن الرسل لم يقاتلوهم إلا على توحيد الألوهية الذى لم يكفروا إلا بتركه . ولا أدرى ما معنى هذا الحصر مع أنهم كذبوا الأنبياء وردوا ما أنزل عليهم واستحلوا المحرمات وأنكروا البعث واليوم الآخر وزعموا أن لله صاحبة وولدا وأن الملائكة بنات الله (أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) الخ الخ وذلك كله لم يقاتلهم عليه الرسل فى رأى هؤلاء ، وإنما قاتلوهم على عدم توحيد الألوهية كما يزعمون ، وهم بعد ذلك مثل المسلمين سواء بسواء ، أو المسلمون أكفر منهم فى رأى ابن عبد الوهاب ! وما علينا من ذلك كله ، ولكن نقول لهم بعد هذا : على فرض أن هناك فرقا بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية كما يزعمون فالتوسل لا ينافى توحيد الألوهية ، فإنه ليس من العبادة فى شىء لا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، ولم يقل أحد إن النداء أو التوسل بالصالحين عبادة ، ولا أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولو كان عبادة أوشبه عبادة لم يجز بالحى ولا بالميت . ومن المعلوم أن المتوسل لم يطلب إلا من الله تعالى بمنزلة هذا النبى أو الولى ، ولا شك فى أن لهما منزلة عند الله تعالى فى الحياة وبعد الممات ، فإن تشبث متشبث بأن الله أقرب إلينا من حبل الوريد فلا يحتاج الى واسطة ، قلنا له : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء ، فإن رأيك هذا يلزمه ترك الأسباب والوسائط فى كل شىء ، مع أن العالم مبنى على الحكمة التى وضعت الأسباب والمسببات فى كل شىء . ويلزمه عدم الشفاعة يوم القيامة وهى معلومة

من الدين بالضرورة ، فإنها على هذا الرأى لا حاجة اليها ، إذ لا يحتاج سبحانه وتعالى الى واسطة فإنه أقرب من الواسطة ، ويلزم خطأ عمر بن الخطاب فى قوله : إنا نتوسل اليك بعم نبيك العباس الخ الخ .

وعلى الجملة يلزم سد باب الأسباب والمسببات والوسائل والوسائط ، وهو خلاف السنة الالهية التى قام عليها بناء هذه العوالم كلها من أولها الى آخرها ، ولزمهم على هذا التقدير أن يكونوا داخلين فيما حكموا به على المسلمين ، فإنه لا يمكنهم أن يدعوا الأسباب أو يتركوا الوسائط ، بل هم أشد الناس تعلقا بها واعتمادا عليها .

ولا يفوتنا أن نقول : إن التفرقة بين الحى والميت فى هذا المقام لا معنى لها ، فان المتوسل لم يطلب شيئا من الميت أصلا ، وإنما طلب من الله متوسلا اليه بكرامة هذا الميت عنده أو محبته له أو نحو ذلك ، فهل فى هذا كله تأليه للميت أوعبادة له ، أم هو حق لا مرية فيه ، ولكنهم قوم يجازفون ولا يحققون ؟ كيف وجواز التوسل بل حسنه معلوم عند جميع المسلمين !

وانظر كتب المذاهب الأربعة (حتى مذهب الحنابلة) فى آداب زيارته صلى الله عليه وسلم : تجدهم قد استحبوا التوسل به الى الله تعالى ، حتى جاء ابن تيمية فخرق الإجماع وصادم المركوز فى الفطر مخالفا فى ذلك العقل والنقل . ونخشى أن يطول بنا القول . فلنقف هنا ، ونؤخر الكلام على نداء الأولياء وتعظيمهم والاستغاثة بهم . وموعدنا العدد الآتى ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

أبو بكر الصديق

نشأته :

نشأ أبو بكر فى بيئة عربية خالصة ، ودرج يستنشق حياة بدوية ناعمة ، فيها شىء من العناية التى قلما يجدها من يعيش فى تلك الصحراء القاسية ، حيث الخشونة والجدب . فلا جرم كان أبو بكر لينا هادئ الطبع ، رقيق الإحساس والشعور .

نشأ أبو بكر على ما ينشأ عليه أبناء البادية جميعا : من طلاقة فى اللسان ، وفصاحة فى القول ، وشدة فى الحق ، وتمسك بأهداب الفضيلة . وكان أبو بكر يجمع الى تلك الثقافة البدوية الخالصة علما بالأنساب وبالشعر الصحيح ، فكان ينسب كل قول الى قائله ، وكل فرد الى قبيلته ، ويكفى أن تعلم أن أبا بكر من قريش سيدة العرب ، لتعلم أنه عريق النسب عربى الأرومة .

نسبه وبيئته :

هو عبد الله بن أبى قحافة ، واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة . ومهما يكن فانه يلتقى نسبه مع نسب سيد الخلق جميعا وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الجد الخامس وهو مرة بن كعب .

أما أمه فهى سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وكان يقال لها أم الخير . فأنت ترى من هذا أن بيته من البيوت التى انتهى إليها الشرف ، جاهلية إذ كانت سيدة العرب وحامية ذمارها ، وإسلاما إذ شرفها تعالى ببعث رسوله

منها ، وزاد إكرامها أن كان منها أبو بكر أول المسلمين وسيد الذائدين وخير الداعين الى دين الحق .

ترعرع أبو بكر فى تلك البيئة ، وفى كنف ذلك البيت الذى وقفناك على ما خص به من مجد ، وما حبى به من شرف ، وما كان إليه فى الجاهلية ، وما صار إليه فى الإسلام ، فكان طبيعيا أن يكون لهذا أثره فى نفس أبى بكر فينشأ على مكارم الأخلاق ، والصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل .

مولده ومبادئه :

ولد أبو بكر بعد مولده صلى الله عليه وسلم بسنين ثلاث ، فهو يقاربه فى السن ؛ وهو أيضا من نفس القبيلة التى نشأ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وقد اصطحبا فى الطفولة وارتبطا أيام الشباب ، فليس من شك أن عرى الصداقة زادتها الأيام توثقا .

وقد ظلا هكذا صفيين يحب أحدهما لأخيه ما يحب لنفسه ، ويرضى له ما يرضاه لها ، حتى بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، فكان أبو بكر أسرع الناس الى تلبية ندائه ، وتصديق دعائه ، والعمل على نشر الدعوة بين العرب .

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وأول من صلى منهم ، فقد صح عن عائشة رضى الله عنها قولها : « ما عقلت أبوى إلا وهما يدينان الدين وما مر علينا يوم قط إلا ورسول الله يأتينا بكرة وعشية »

نحب قبل أن نسرع بك الى ما قدم أبو بكر للاسلام من خدمات ، وما ضحى فى سبيله من نفس ومال ، وما جهد فى تثبيته — أن نقفك على مركز أبى بكر فى قومه قبل الدعوة :

يحدثنا أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه أن أبا بكر كان معروفا بالتجارة ، وهى إذ ذاك من أشرف الحرف ، وأنه لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كان عنده

أربعون ألف درهم ، فكان ينفق منها فى شئون المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة ؛ وأبو بكر مع هذا كان فى قومه بمنزلة القطب من الرحى : ينحدر عنه السيل ، ولا يرقى اليه الطير ؛ فهو فى الطود الأشم ، يصدقه قومه إذا حدثهم ، ويحمدون له فعله إذا وقفوا منه على شىء ، لا يردون له قولا ، ولا ينبذون له رأيا ، فقد كانت اليه فى الجاهلية الأشناق (الديات والمغرم) فكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه .

صفة أبى بكر :

كان أبو بكر رجلا نحيفا ، خفيف اللحم ، أبيض . وقد صح عن عائشة رضى الله عنها قولها فى وصف أبيها حين طلب اليها وصفه : أنه رجل أبيض ، نحيف العارضين ، أجنأ لا يستمسك إزاره ، يسترخى عن حقوته ، معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، عارى الأشاجع .

مزايا أبى بكر :

علمت مما قدمناه لك أن أبا بكر كان فى الجاهلية من سادة العرب ومن بيوت المجد ، ونحن ذاكرون لك هنا ما ميز الله به أبا بكر فى الاسلام ، فنقول :

إن مزايا أبى بكر فى الاسلام قد تجل عن الحصر ؛ وأفضل مزية له هى ذكر الله عز وجل له فى كتابه العزيز مثنيا عليه ، حيث قال تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . وهذه مزية لم يشاركه فيها أحد من المسلمين . وقد أخرج ابن عساكر عن سفيان بن عيينة قال :

عاتب الله المسلمين جميعا فى نبيه صلى الله عليه وسلم غير أبى بكر رضى الله عنه فانه خرج من المعاتبة ، ثم قرأ : إلا تنصروه فقد نصره الله — الآية .

ومنها أنه رضى الله عنه أول من آمن برسالته صلى الله عليه وسلم ، وكان صاحبه الملازم ، فحصلت له ببركة هذه الصداقة الخيرات الجمة . ولعرفانه بفضائل النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة كان أشد هذه الأمة استعدادا لنور الاسلام . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم لم يعرض الإسلام على أحد إلا وكان له فيه وقفة إلا أبا بكر رضى الله عنه . وروى أن عائشة رضى الله عنها قالت : لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ولا يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها أنه كان صفى النبى عليه الصلاة والسلام وموضع سره ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم لم يختر لصحبته حين الهجرة غيره ، ولم يأمن على سره وعلى نفسه حين أراد الهجرة إلا أبا بكر . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : هل قلت فى أبى بكر شيئاً ؟ قال : نعم ، قال : قل وأنا أسمع ، فقال :

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعّد الجبلا
وكان حِبّ رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : صدقت ياحسان . ومنها أنه كان ثانى اثنين فى الغار، وقد خاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله : ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما . وهذه منقبة من أفضل المناقب ، ومرتبة هى أعلى المراتب ، لأن رسول الله عليه الصلاة والسلام أكبرها ، وأشار الى أنه لا شأن أعلى من هذا الشأن ، ولا منزلة أسمى من هذه المنزلة . وقد أيد الله ذلك بقوله عز وجل حكاية لرسوله : « لا تحزن إن الله معنا » ولا يخفى أن المراد بالمعية هنا معية خاصة هى معية التأييد ، ومنها ثبتت صحبة أبى بكر بالكتاب .

وقد دلت الآيات الكريمة على فضل المجاهدين على القاعدين وإن كان لكل الحسنى ؛ ودلت على تفاوت الناس في الإيمان والعمل . ومما لا شك فيه أن المهاجرين السابقين أفضل من سائر المؤمنين ؛ وقد امتاز أبو بكر رضي الله عنه بالسبق في كل شيء ؛ وامتاز بأن هجرته كانت مع رسول الله نفسه ، وبإذن من الله تعالى ورغبة من رسوله . وقد اختص بمدح الله تعالى له دون غيره في القرآن الكريم كما سبقت الإشارة الى هذا قبل ذلك .

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه لما تجهز أبو بكر قِبَل المدينة قال له صلى الله عليه وسلم : على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي . فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك ؟ بأبي أنت . قال : نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه . قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : أخرج من عندك . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال : فإني قد أذن لي بالخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . الى آخر ما جاء في قصة الهجرة وحديث الغار .

هذه المزايا وغيرها مما لا يسع المقام ذكرها دلت على أن صحبة أبي بكر أفضل وأكمل من صحبة غيره ، وأنه أفضل الصحابة من غير منازع . ومما يرشح هذا ويقرره ما في صحيح البخاري : أن عمر بن الخطاب غضب من أبي بكر رضي الله عنه في محاورة بينهما فطلب منه أبو بكر أن يغفر له فأبى ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ،

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يغفر الله لك يا أبا بكر — ثلاثا . قال الراوى وهو أبو الدرداء رضى الله عنه : ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فقال : أثَمّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى الى النبى عليه الصلاة والسلام فسلم عليه فجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمعّر حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله والله أنا كنت أظلم ، مرتين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى اليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركولى صاحبى ؟ ! مرتين ، فما أوذى أبو بكر بعدها . وقد صرح أيضا بأنّ أمَنَّ الناس عليه فى ماله ونفسه أبو بكر .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آخى بين أصحابه آخى بين أبى بكر وعمر ، فرآهما يوما مقبلين فقال : إن هذين لسيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين : كهولهم وشبابهم إلا النبيين والمرسلين . وقد روى عن عبد الله بن عتبة : لما أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدور بالمدينة جعل لأبى بكر موضع داره عند المسجد . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : أرحم أمتى بأمتى أبو بكر . وعن عمرو ابن العاص قال قلت : يا رسول الله أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قلت : إنما أعنى من الرجال ، قال : أبوها . وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : إنى أبرأ الى كل خليل من خلته ، غير أن الله قد اتخذ صاحبكم خليلا — يعنى نفسه — ولو كنت متخذا خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا .

استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر :

عن عائشة رضى الله عنها : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلال يؤذن للصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قالت : فقلت : يارسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى مايقم مقامك

لا يسمع الناس فلو أمرت عمر . فقالت له حفصة ، فقال : إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيرا . قالت : فأمروا أبا بكر يصلى بالناس ، فلما دخل أبو بكر فى الصلاة وجد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة فقام يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان فى الأرض حتى دخل المسجد ، الى آخر الحديث . وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتابا فإنى أخاف أن يقول قائل ويتمنى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر . وعنها قالت : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن أبى بكر فقال : ائتنى بكتف حتى أكتب لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه ، فذهب عبد الرحمن ليقوم فقال : اجلس أبى الله والمؤمنون أن يختلف على أبى بكر .

بيعة أبى بكر

تبين لك مما أوضحناه قبل ما كان لأبى بكر من ميزات لم يشاركه فيها أحد من الصحابة ، كما تبين لك موضعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته العظيمة عنده ، وأنه كان رضى الله عنه ثانى اثنين فى الغار ، ولم يقف الأمر عند هذا ، بل كان رضى الله عنه ثانى اثنين فى أكثر المناصب الدينية ، فانه صلى الله عليه وسلم لما أرسل الى الخلق وعرض الاسلام على أبى بكر، آمن به ، وعرض الاسلام على طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة آخرين من أجلة الصحابة فآمنوا على يديه ثم أحضرهم الى الرسول بعد أيام قلائل فكان ثانى اثنين فى الدعوة الى الله ، كما كان رضى الله عنه ثانى اثنين فى مجلسه صلى الله عليه وسلم فى حياته . وقد دفن بعد وفاته بجانب الرسول، فكان ثانى اثنين هنالك أيضا . ولقد سبق أنه استخلفه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة حيث أمر بأن يصلى بالناس ، فكان ثانى اثنين فى إمامة الناس .

ونزيد على ما تقدم أن من المزايا التى امتاز بها أبو بكر الثبات الذى لم يكن لغيره من الصحابة مثله ، فانه لما انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى ملكت الدهشة جميع الصحابة وذهل بعضهم ، حتى قال عمر : من قال إن محمد قد مات علوت رأسه بسيفى هذا . أما أبو بكر فانه لما بلغه نعيه عليه السلام وكان غائبا فى أهله بالسنح ، أقبل فوجد الناس فى اختباط عظيم بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهم المصدق ومنهم المكذب ، أقبل فوجدهم على هذه الحال ، فلم يزايله الثبات ، ولم يعتوره الدهش ، ولم يذهل ، وبقى ثابتا ، وأعاد الى القوم ثباتهم الذى زايلهم لحظة لهول ما هم فيه من الحزن لوفاة الرسول عليه السلام ، فدخل رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال : بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك . ثم خرج الى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس : من كان يعبد محمدا فان محمدا قدمات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) فقال عمر : فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت الى الآن[1] ماتحملانى رجلاى . وقال غيره : والله ما كنت أحسبها نزلت .

رجل هذا شأنه وهذه أعماله وأخلاقه حرى بأن تتوجه اليه نفوس الناس بعد الرسول عليه السلام ، فلا يستطيع أحد أن يجرأ على القول بأنه أفضل منه . وفى القصة التى نسردها عليك الدليل على ذلك : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى عمر أبا عبيدة بن الجراح فقال : ابسط يدك فلأبايعك فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر: مارأيت لك فَهَّة [2] قبلها منذ أسلمت ، أتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين ؟! وفى رواية أنه لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم أتوا أبا عبيدة فقال :

(١) يريد أنه وقع لساعته (٢) سقطة أو جهلة .

أتأتونني وفيكم ثالث ثلاثة ؟ قال أبو عون : قلت لمحمد : ما ثالث ثلاثة ؟ قال : ألم تر إلى تلك الآية (إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا) ؟ وعن عبد الله بن عباس : سمعت عمر بن الخطاب وذكر بيعة أبي بكر فقال : وليس فيكم من تقطع اليه الأعناق مثل أبي بكر .

وعن أبي عمرة الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قُبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا : نولي هذا الأمر بعد محمد عليه السلام سعد بن عبادة وأخرجوا سعدا إليهم وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه : إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ولكن تلق مني قولي فأسْمِعْهموه ، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيسمع أصحابه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمدا عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلْع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عُمّوا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الايمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه ، والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً ، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين . استبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون الناس . فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقتَ في الرأي وأصبت في القول ، ولن نعدُوَ ما رأيت ، نوليك هذا الأمر فانك فينا مقنعٌ ولصالح المؤمنين رضى . ثم إنهم ترادّوا الكلام بينهم فقالوا : فإن أبَتْ مهاجرة قريش

فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده. فقالت طائفة منهم: فإنا نقول: إذاً منّا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا. فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن. وأتى عمر الخبر، فأقبل الى منزل النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل الى أبي بكر، وأبو بكر في الدار وعليّ بن أبي طالب عليه السلام دائب في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل الى أبي بكر أن اخرج اليّ، فأرسل إليه أني مشتغل، فأرسل إليه أنه قد حدث أمر لابد لك من حضوره، فخرج إليه فقال: أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنهم مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمير؟ فمضيا مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم، فلقيهم عاصم بن عدي وعُوَيْمُ بن ساعدة، فقالا لهم: ارجعوا فانه لا يكون ما تريدون. فقالوا: لا نفعل، فجاءوا وهم مجتمعون فقال عمر بن الخطاب: أتيناهم وقد كنت زَوَّيْتُ [1] كلاما أردت أن أقوم به فيهم فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق فقال لي أبو بكر: رويدا حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت، فنطق فقال عمر: فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه.

ثم بدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله بعث محمدا رسولا الى خلقه، وشهيدا على أمته، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة، وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور. ثم قرأ: « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »، وقالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زُلْفَى » فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والايمان به والمؤاساة له والصبر معه

(١) هيأت ورتبت.

على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف زارٍ[(١)] عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنَفِ الناس لهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار مَن لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الاسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . قال : فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : يامعشر الأنصار : املكوا عليكم أمركم ، فان الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، ذووالبأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس الى ما تصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم ، أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع اثنان فى قرن ، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل ، أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة ! فقام الحباب بن المنذر فقال : يامعشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب . أما والله لئن شئتم لنعيدنها جزعة ، فقال عمر : إذن

(١) عائب ومتنقص .

يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل ، فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار : إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير . فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار : إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا ، فماينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك ، إلا أن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى ، وايم الله لايرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم . فقال أبو بكر : هـذا عمر وهـذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوه ، فقالا : لا والله لا نتولى هـذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هـذا الأمر عليك ؟ ابسط يدك نبايعك . فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما اليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر يا بشير بن سعد : عققت عقاق . ما أحوجك الى ماصنعت : أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ : فقال : لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن خضير وكان أحد النقباء : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر ، فقاموا اليه فبايعوه ، فانكسر على سعد ابن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ، فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكادوا يطئون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعدا لاتطئوه . وتمت البيعة ، ثم بايع بعد ذلك على بن أبى طالب والزبير بن العوام وغيرهم من بنى هاشم .

لاخفاء فى أنك علمت من هذا ما بلغه الصحابة من جهد فى بقاء الخلافة للمهاجرين أونهم دافعوا عن حق اعتقدوه ما وسعتهم الحجة ، حتى تمت لهم الإمارة ، وأجمع

على إمارة أبي بكر أصحاب رسول الله إلا نفراً قليلا . وقد رأيت من سياق خطب القوم أن الجهاد القولى كان شاقا عنيفا كاد يخرج عن القول والحجة الى القوة ، وأن أبا بكر كان دائما كما عهده المسلمون رقيقا لينا فى غير هوادة ، يدعو الى الرفق والتسامح ، يأخذ بالحجة ما لا يأخذ بغيرها ، فأدلى رضى الله عنه بعد هذا اللجاج وتلك المناقشة الحادة العنيفة بحجج كانت أشد فعلا من السيف البتار ، فما هو أن سمعها المسلمون حتى ركنوا اليه وأسلموا الأمر بعد الرسول اليه .

ولى أبو بكر أمر المسلمين بإجماعهم عليه إلا قليلا . وليهم وحالتهم غير مستقرة ، ومن القبائل من يرغب أن تكون فيهم الخلافة ، وفيهم من كان ينفس عليه ويرى نفسه أحق منه بها ، فأراد أن يثلج الصدور ويذهب بالفتنة ويغيظ الحاقدين . أراد أن يمحو ما علق فى نفوس بعض المسلمين ويطمئنهم على أن ما عهدوه زمن الرسول من الأمن والعدل والحق سيكون هو عمل أبى بكر ، فافتتح إمارته رضى الله عنه بخطبة جامعة عرض فيها لخطته وسياسته وما هو عازم عليه ، فداوى بتلك الخطبة الجروح ، فقال : « أيها الناس ! قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له بحقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، إن شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله .

ثبات أبى بكر وقوة ارادته :

افتتح أبو بكر حياته السياسية بهذه الكلمة البليغة التى جعلها عهدا وميثاقا ، ولكنه ما كاد يتسلم زمام الأمور حتى فوجئ بأحداث طارئة تتصدع لها الجبال ، ولكن

أبا بكر كما علمت ثابت الجنان رابط الجأش ، لا تذهله نائبة ولا تدهشه فاجعة ، وقد مر عليك حديث موقفه يوم توفى صلى الله عليه وسلم وكيف كان موفقا فيه حكيما ، فليس عجيبا أن ينهض بالأعباء الثقيلة ، وأن يتحمل الشدائد ، فالحوادث مهما عصفت لا تلين قناته ، فقد استقبل رضى الله عنه الأنباء المتواترة بامتناع بعض العرب عن إخراج الزكاة وبارتداد بعض المسلمين عن الدين بنفس هادئة وعزيمة ثابتة وصدر رحب ، فلم تفل عزيمته الحوادث ، بل صمد لها وسار بالسفينة كالربان الماهر وسط الأمواج المتلاطمة حتى وصل بها الى شاطىء السلامة والنجاة ، ولم يلحق بربه إلا بعد أن أعاد شوكة الاسلام كما كانت فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن قاتل أهل الردة ومانعى الزكاة . ونحن ذاكرون لك ما كان منه ومن أكابر الصحابة بعد أن ولى الأمر ، لتعلم مقدار ثباته وقوة إرادته :

لما قضى رسول الله صلى عليه وسلم استثقل بعض العرب دفع الزكاة لأنهم كانوا يعدونها كالأتاوة ، حتى لقد قال قرة بن هبيرة لعمرو بن العاص : إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالأتاوة ، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم . فانتهز بعض العرب فرصة الهرج التى سنحت بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وعملوا للتحلل من هذا العبء فامتنعوا عن دفع الزكاة وطردوا عمالها ، فلما وصل الخبر الى أبى بكر رضى الله تعالى عنه جمع الصحابة للمشورة ، فاختلفوا فى هل يقاتل العرب على تركهم دفع الزكاة كما لو تركوا الدين ، فقال قوم : لا نقاتلهم قتال الكفرة ، وقال قوم : بل نقاتلهم ، فكان عمر بن الخطاب ممن يرون عدم قتالهم ، ولكن أبا بكر لم يكن ليوافق على هذا الرأى بل خالف عمر وقال : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

إلا الله محمد رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله ؟ فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقها ، فقال عمر رضى الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

هذا الموقف الذى وقفه أبو بكر رضى الله عنه ولم يمنعه منه تجهيز جيش أسامة كان موقفا كله حكمة ، إذ لو تساهل رضى الله عنه لضاع الدين وتألب الناس يريدون الخروج منه وعدم القيام بشعائره . رأى ذلك جميعه أبو بكر فأصر على قتال مانعى الزكاة ، فلم يكن أبو بكر موفقا فى الرأى فحسب ، بل كان موفقا أيضا فى فهم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث قرر رضى الله عنه أن الزكاة حق المال ، فقد قال النبى إلا بحقها . ولقد أكبر المسلمون له هذا الرأى وعلموا أن التوفيق كان رائده حتى صح أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبى بكر : أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم ، فوالله ما رضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار ومن قتل منا فى الجنة ، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم .

يتبع

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

هيئة كبار العلماء

وحماية الاسلام والمسلمين

قراراتها ونــداء للامة

اجتمعت هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر الشريف فى يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (١٧ يوليه سنة ١٩٣٣) لتنظيم العمل لحماية الاسلام والمسلمين من خطر التبشير ، وقررت ما يأتى :

١ — أن تضم اليها فى هذا العمل حضرات :

صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى

« الفضيلة الأستاذ السيد محمد على الببلاوى

» » » الشيخ محمد مأمون الشناوى

» » » » ابراهيم حمروش

» » » » أحمد حسين

» » » » ابراهيم الجبالى

» » » » على الخفيف

» » » » أمين الخولى

» » » » محمد الخضر حسين

» » » » طه حبيب

» » » » محمد أحمد عرفه

٢ — توجيه نداء الى الأمة الاسلامية

٣ — تأليف لجنة تنفيذية لهـذا العمل برياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وعضوية حضرات أصحاب الفضيلة :

الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم

« « محمد عبد اللطيف الفحام

« « حسين والى

صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى

٤ — يقوم بسكرتارية الهيئة فى هذا العمل حضرات أصحاب الفضيلة :

الأستاذ الشيخ أحمد حسين

« « على الخفيف

« « أمين الخولى

٥ — تأليف لجان لإعداد ما يلزم لذلك العمل ، منها لجنة علمية ، وتؤلف من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة :

الشيخ أحمد نصر	الشيخ أحمد حسين
« محمد حسنين	« على الخفيف
« يوسف الدجوى	« أمين الخولى
« عبد الرحمن عليش	« طه حبيب
« عبد المجيد اللبان	« محمد الخضر حسين
« ابراهيم حمروش	« محمد أحمد عرفه
« ابراهيم الجبالى	« عبد الرحمن قراعه
السيد محمد على الببلاوى	« حسين والى

وللجنة التنفيذية أن تضم الى أعضائها كل من ترى مصلحة فى ضمه .

٦ — تأليف لجنة لوضع لائحة لتنظيم عمل الهيئة فى هذا السبيل من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة :

الشيخ عبد المجيد سليم	الشيخ على الخفيف
« محمد عبد اللطيف الفحام	« ابراهيم الجبالى
« أحمد حسين	« أمين الخولى

٧ — تأليف لجان فرعية لمعاونة هيئة كبار العلماء فى تحقيق غرضها فى المدن الآتية : الاسكندرية . طنطا . الزقازيق . دسوق . دمياط . أسيوط .

وفوضت الهيئة الى اللجنة التنفيذية تأليف لجان فى جهات أخرى كلما اقتضت الحال .

٨ — أن يكون للهيئة أمين صندوق هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ كلية الشريعة بالأزهر .

وترجو الهيئة أن يكون لها من أريحية المسلمين أكبر المعونة فى مهمتها الشريفة . ويتقبل أمين صندوقها تبرعات ذوى الغيرة والحمية الاسلامية بعنوان : (الإدارة العامة للمعاهد الدينية — شارع نوبار — صندوق البريد رقم ٩١٩ بالقاهرة) .

نــداء

هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

أيها المسلمون :

لقد جاءكم نبأ تلك الأموال المرصدة ، والجموع الحاشدة ، والمكايد المدبرة ، والوسائل الماكرة ، التي يتخذها أولئك المتسمون باسم المبشرين ، محاولة لإفساد أمر الإسلام ونكث حبله .

ولقد تجلى لكم من ذلك ما عزّت معه المجاملة ، وقبح بعده التواكل والإهمال ، فأنفتم أن يسعى بينكم أولئك المغررون المضلون ، ونهضتم نهضة المؤمن الأبي ، وغضبتم غضبة ذى اليقين الحي . وكان علماؤكم منكم حيث يملي عليهم دينهم ، ويضعهم واجبهم ، وهاهم أولاء قد ألف كبارهم جماعة للعمل المنظم ، ووضعوا خطة للسعي المحكم ، ورتبت تلك الجماعة نظامها ، وبدأت جهدها ، مستعينة بالعون الإلهي ، مهتدية بالهدى النبوي ، واثقة من غيرتكم الإسلامية ، قوية الأمل في أريحيتكم الدينية ، ما إن تشك لحظة في أنكم باذلون في سبيل الله ما لكم ، متطوعون بكل مقدوركم ، ملبون داعي ربكم (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) .

أيها المسلمون :

عار عليكم أن تساق تلك الجموع للإضلال ، وترصد تلك الأموال للإغواء ، وتقام تلك الصروح للصد عن سبيل الله ، ثم لا يكون لنا بعد تلك الهجمات مايحدّث عن إيمان راسخ ، وعقيدة ثابتة ، ويعلن في أنفة وعزة سخريتنا بهذه

الاعتداءات الخاسرة، وهاتيك المحاولات الضائعة، وليصدقن أبدا قول العليم الحكيم: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) .

أيها المسلمون :

إن جماعة علمائكم وهى الحريصة أشد الحرص على الذود عن دينها، تكره منكم الشغب، وتوصيكم بالصبر، وتذكركم بأن كل عنف فى ذلك شر، وكل سفه فيه خطر، يضيع غرضها ويعطل عملها (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) .

أيها المسلمون :

إن العالم ليشهد صراعا بين حق وديع، وباطل جرىء، ومعاذ الله أن يكون الباطل فى مهاجمته، أمضى من الحق فى مقاومته، وما إن رضيتم ولن ترضوا أن يكون بذلهم فى سبيل الإضرار بكم، أكثر مما تبذلون لحماية دينكم، وإنقاذ كرامتكم، وتخليص أبنائكم من التهلكة النفسية، والخسار الدينى. وإن الكثير فى ذلك من الفرد قليل، والقليل فيه من الجمع كثير (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ . لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) .

إن علماءكم لا يعرفون بكم حاجة الى حث على إنفاق، او استثارة الى بذل، وإنما هى الذكرى فحسب فإن الذكرى تنفع المؤمنين : (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

قصيدة

لفضيلة رئيس تحرير هذه المجلة

بمناسبة سفره الى الاقطار الحجازية

لأداء فريضة الحج فى هذا العام ١٣٥١

أَلمجـــدِ لا ينـــال القاطنينْ ودَّع الصحبَ وحيّا الظاعنين

شامَ فى وجهته يمنـــا ولو زَجـر الطـــير لمرَّت باليمين

لا تلوما فى النـوى من هاجـه للنوى لاعجُ شـوق فى الـكنين

شاقه البيتُ وقـــبرُ المصطفى وربوعُ الخلفاء الراشـــدين

سار شوطاً وهـو لا يدرى أفى حـــلُم أم فى زمان لا يخـون

ذ كَر الخِضْر وموسى إذ أتى مجمعَ البحـــرين مرتادَ السفين

ركِب الطائفَ [1] يطوى البحر فى جـذل والبحرُ كالشيخ الرزين

وإذا هبت جنـــوب طـرّدت ما يلاقيه الندامى من شجون

هم سكارى ما احتست آذانهم حكمةَ القرآن فى نطق رصين

ودنوا من رابغ فاستبـــقوا يذكرون الله جهـراً محـرمين

فى بيـــاض ناصع تحسبهم بادىء الرأى زهـورا فى الغصون

رست الطـــائف فى جُـدة لا برحت جُدة فى حصن حصين

رحـلوا فى جنح ليـل وأتوا مكة الغراء من نحـو الحجون

---

(١) الطائف : اسم الباخرة التى نقلتنا من السويس الى جدة .

في رضا الله خُطاً خاضوا بها ... في حصا يغبطه الدر المصون
دخلوا بيتاً حراماً يستوى ... فيه ذو التاج ومغبرّ الجبين
شاهَدوا الكعبة وهْناً[1] فجرت ... عبرات البشر من بعض الجفون
مقلة الدنيا فإن أبصرتها ... في سواد فعيون الغيد جُون
لثموا من ركنها الأيمن ما ... لثمته شفتا طه الأمين
هي بيت الله إن طافوا بها ... وهمُ أضياف رب العالمين
وردوا زمزم يشفون بها ... ظمأ الأكباد حيناً بعد حين
لو شفا عمرو بن كلثوم بها ... غلة عاف خمور الأندرين
صعدوا المروة من بعد الصفا ... وسعوا لله سبعاً راجلين
وقفوا في عرفات موقفاً ... يطرح الآثام من ماضي السنين
إنّ دهراً طاف ساقيه بما ... تشتهي أنفسُهم غير ضَنين
هبطوا « جمعا »[2] وقد ساد الدجى ... وحدَوا منها المطايا مصبحين
هل درى « المشعر »[3] إذ عاجوا به ... أنهم جند إمام المرسلين
نزلوا خيف منى حيث رموا ... بالحصا سبعاً على وجه اللعين
وأتوا أمّ القرى فاطوّفوا ... ثم عادوا لمنى في العائدين
ركعوا في مسجد الخيف وهل ... أحرزوا فيه ثواب الخاشعين؟
وقضوا حق منى وارتحلوا ... بعد أن أذَّن بالعصر أذين[4]
سل ثَبيراً[5] ماله ظل بها ... مُلقِيَ الرحل وقد بان القطين
أفلا يحمل ما نحمله ... لرُبا طيبة من شوق مكين
دع ثبيراً قاسي القلب فهل ... تلفح الأشواق صخراً فيلين

(١) الوهن : نحو من نصف الليل (٢) جمع : المزدلفة (٣) المشعر الحرام
(٤) الأذين : المؤذن (٥) جبل بمنى .

هـذه مـكة ما للشمس فى صفرة تحكى بهـا وجه الحزين
أترينا والنـوى قـد أزفت كيف تصفرّ وجـوه النازحين
بلدة عظمى وفى آثارها أنفع الذكرى لقوم يعقلون
شب فى بطحائها خـير الورى وشبـا[1] فى أفقها أسمح دين
إنْ عزمنا النأى عنهـا فالضرورا ت قد تثني خدينا[2] عن خدين

* * *

حادىَ السيارة انهض نغتنم فرصـة نرقبهـا منذ سـنين
خضْ بهـا البيد الى سلع فلى حاجة فى أرض سلع وشئون
بين ليل مثل أحـداق المهـا ونهـار مثـل نور الياسمين

* * *

أحمَدُ الإدلاجَ والتأويبَ[3] إذ أريانى خـير ما تهوى العيون
أمتعا طرفى بمرأى روضـة أودعوا تربتهـا خـير دفين
روضـة يصبو اليهـا كل من عرف الحق وبالحق يدين
شادها الهـادى على أس التقى وتـلا القرآن فيهـا جـبرئين
حرم كم سقيت حصباؤه فى دجى الليل دموعَ القانتين
فاسألوا المحراب عن بدر الهـدى إذ هـو يسجد فى ماء وطين
معهد الحـكمة لاينبت فى دوحـه إلا الدعاة المصلحون
مدرَسٌ للحرب لم يرم العـدا قـط إلا بالـكماة الفاتحين
ثُـكْنة للجند والقضب إذا لم يكن بُدٌّ من الحرب الزبون

(١) شبا : علا ، وأضاء (٢) الخدين : الصاحب (٣) التأويب : السير فى النهار .

حجـــــرات مائث طُهراً أمَّا عمرَتهـا أمهـات المـؤمنين
لُقِّنت فيها حقوق أنقذت رَبَّة المنزل من أسر يشين

* * *

ها أنا ذا فى مقام مؤنس كسنا البدر مهيب كالعرين
فسلاما فى حضور بعد ما كان يزجيه على البعد حنين

* * *

جئتَ يامختار والعالم فى ليل جهل وضلال ومُجون
فمحوت الهـزل بالجد كما ذُدت ليل الغىّ عن صبح اليقين
وأقمت العــــلم صرحا شامخا وصرعت الجهل طعنا فى الوتين
سُسْتَ أقـواما فساسوا أمما بيد الإنصاف فى حـزم ولين
وقضـوا فيهـا بشرع قيم فأروها كيف يقضى العادلون

* * *

دينـك الوضاء ثارت حـوله غـبرة من شبهات المبطلين
من يدٍ ترميه فى رأد الضحى ويدٍ ترميه من خاف الدجون
ولهم فى كل واد قـــلم ولسان لاصطياد الغافلين
كم أزاغوا عن عفاف وهدى من بنـات طاهرات وبنين

* * *

لم يرعنا ياأبا القـاسم مِن جـــولة الغى دَوىٌّ وطنين
إن فى الشرق شبابا أيقنوا أنك الداعى الى الحق المبين
وقفوا يرمون أعـداء الهـدى بنبـال قوسهـا العـلم المتين

يعشقون البذل فى الخير إذا عشق المال طغام موسرون
والى الخضرة ما حمّلته من تحيات شباب ناهضين

* * *

أىّ وِرد لم يكدر صفوه صَدَرٌ ما الدهر إلا منجنون [1]
أزمع الركبُ رحيلا لم يكن منه بُدّ والضرورات فنون
فوقفنا لوداع والأسى يلذع الآماق بالدمع السخين
أفلا نأسى على عهد أتى وتولى وهو مقطوع القرين
بهج كالورد حلاه الندى بجُمان [2] صيغ من ماء معين

* * *

ياحمى ودعتهُ والشمس قد ودّعت والتحقت بالراحلين
هل لنا عود كعود الشمس من قبل أن يصرفنا عنك المنون ؟
وسلاما كلما رتّلته قالت الدنيا ومن فيها « أمين »

---

(١) المنجنون : الدولاب التى يستقى عليها . (٢) الجمان : اللؤلؤ .

الاسلام فى بلاد الصين

التركستان الصينية

(سين كيانج) (١)

وقد عم الإسلام جنوب جبال « كوين — لون » منذ القرن السادس عشر ، وذلك بعد أن واجه البوذيةَ والزندقة والنسطورية . وكل المسلمين تقريبا سنيون . وقد دخل المذهب الشافعى فى هذه البلاد فى القرن الخامس عشر ، إلا أن المذهب الحنفى كان أكثر ذيوعا بفضل تأييد الخواجات (مشايخ الأتراك) الذين جاءوا من بخارا . ويوجد بعض الشيعة (من العبدليين أو الاسماعليين والباطيين) فى شرق البامير ؛ ويبلغ عدد المسلمين بها مليونا بنسبة ٨٣ ٪ فى المائة ، كما يوجد بضع مئين من اليهود فى كاشجار .

هذا ويجد المرء فى بلاد التركستان من الصينيين مَن أصلهم من الأجناس التالية :

(ا) « الطاجيك » الذين صبغوا بالصبغة التركية ، وأصلهم من الجنس الهندى الأوربى (الايرانى) ، ويكوّنون الأغلبية ، ويبلغ عددهم ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

(ب) صينيين من أصل «طونجانى» واعتنقوا الإسلام ، ويبلغ عددهم ٢٠٠ ٠٠٠ ويقيمون بالمدن .

(ج) الأتراك المهاجرين ، وهم من العشائر الآتية :

عشيرة « كارا ـ قرغيز » ويبلغ عددها ٥٠ ٠٠٠ نسمة ، وتقيم فى «ايلى» وفى أوج — طورفان . وعشيرة « الكايجاك — دولمان » (قازاق) وتقيم فى « تزونجاريا » وعلى نهر

---

(١) تابع لما نشر فى الجزء السابق .

« التاريم » ، ويبلغ عددها ٢٠٠٠٠٠ نسمة ، وعشيرة « النوجاى » ويبلغ عددها ٣٠٠٠ نفس جاءوا من قازان وأقاموا فى « قولجا » وطائفة النبلاء (الخواجات) أو (العلماء) .

(د) المنغول الذين اعتنقوا الاسلام ، ويقيمون فى « كاراشار » ولهم سبعة « خوشون » أو ألوية .

(ه) الايرانيين الشيعيين السابق ذكرهم ، ويقيمون فى « بايناب » فى « خان — أريق » بعد ٤٠ كيلو مترا من جنوب كاشجار ، وفى «ترجون» و « كريا » و «جيرجين» ويبلغ عددهم ٣٠٠٠ نسمة حسب قول « فون ليكوك » وجرينار ، و «بيوه» وعلى بحيرة « لوب — نور » .

(و) « اللولين » وهم جماعة النَّوَر الذين اعتنقوا الاسلام ، ويقيمون بالقرب من « خوتان » . واللغة التركية هى اللغة السائدة هناك ، وتكاد تكون اللغة الوحيدة ، أما اللغة الصينية فهى نظريا اللغة الرسمية .

الحكومة والادارة :

إن بلاد التركستان الصينية (سين كيانج) يديرها حاكم يطلق عليه اسم «شنغ شانغ» ويقيم فى « أورومتسى » ، وله ستة وكلاء يقيمون فى أورومتسى و «تارباجاتاى» و «ييلى» و « أكسو » و « كاشجار » و « آ — شان » ، ويشرف فى الادارة على ٤٨ مركزا ، والقنصلية البريطانية فى كاشجار ، تلعب دورا سياسيا ذا أهمية كبرى فى آسيا الروسية منذ سنة ١٩١٧

أما نظام الضرائب عند المسلمين والذى وضعه يعقوب بك فقد استبقى وازداد شدة ، وهو يتضمن : (الخراج) ، وهو عبارة عن ضريبة العشور التى تؤخذ عن المحصولات الزراعية ، فان الحكومة قد أوجدت مخازن عمومية للحبوب تقرض عليها . و (الزكاة) وهى اختيارية منذ سنة ١٨٨١ ، و (الضرائب الاضافية) مثل المال الباجى الذى يؤخذ

على المواشى وبيعها . أما النظم الشرعية فقد أضعفت : فصودرت الأوقاف ، وألغيت وظائف المحتسبين ، وأصبح الملا (العلماء) والقضاة ورجال الإفتاء والأئمة والخطباء خاضعين للادارة ، وصار القاضى لا يحكم إلا فى المسائل المدنية ، أما المسائل الجنائية فمن اختصاص القاضى الصينى ، وكانت خطبة الجمعة تلقى باسم خليفة آل عثمان ، وتوجد بها مساجد عديدة ، منها ٤٤ مسجدا فى « خوتان » ، وكثير من المدارس و « مزارات » (أمكنة يحجون إليها) وأشهرها مزار « حضرة إپاك » فى « كاشجار » ومزار « سلطان أبو سعيد » فى « خوتان » ومزار الأئمة الأثنى عشر ، ومزار « جعفر الصادق » فى « خوتان » ومزار سعد بن أبى وقاص فى « طورفان » ، أما الأعياد عندهم فهى الأعياد التركية ، منها « البراءة » فى ١٤ شعبان ، ويشمل المذاهب الخاصة فى البلاد ، وفى الزواج لا تتسلم الزوجة « القاليم » [1] .

الاعمال والحاصلات :

إن زراعة الذرة تعطى محصولا غير عادى ، ويزرع الشعير والقطن فى مرتفعات قد تبلغ من ١٦٣٤ مترا الى ٣١١٠ مترا .

الصناعات :

صناعة الحرير فى مدينتى « قومول » و « طورفان » ، والمنسوجات القطنية فى « كاشجار » والصباغة فى « طورفان » ، صناعة الأوانى المنزلية من النحاس الأصفر فى « أسكو » . صناعة السجاد من أصناف « كاشجار » و « يارقند » فى « خوتان » و « يورنجكاش » ، والجلود فى « كوتشا » ، والسروج فى « كاراشاهى » ، والفحم الحجرى فيما بين « اسكو » و « قومول » أو فى « بوكايك » ، وصناعة « اليشب » ومنها اشتق اسم « بو - من » ، ومعناه « باب اليشب » الذى أطلق على الممر الموصل للصين .

(١) كذا فى الاصل وربما كان المقصود منها الصداق .

هذا وقد درس المسيو « جرينار » دراسة دقيقة حالة الطبقات الاجتماعية المختلفة للمسلمين فى بلاد « كاشجارى » مثل طبقة البهوات ، وطبقة « الملا » (العلماء) وطبقة أصحاب الأموال ، وطبقة الزراع ، وطبقة العمال (ذوى الأجر الضئيلة) وطبقة الشحاذين . وقد تحايلوا بحيلة قانونية لإباحة الرق بأن وضعوا قانونا يبيح استئجار الأطفال المسلمين للخدمة لمدة خمسين سنة فيبيعهم بيع الأرقاء .

طرق القوافل المهمة هى :

(ا) الطرق الموصلة للصين :

(١) طريق الجنوب وهو طريق قليل الارتياد .

(٢) طريق جبل طاش داوان ويبلغ ارتفاعه ٣٩٦٠ مترا .

(٣) طريق الشمال . وهو الطريق القديم والمعتاد ، ويمر بجبل أورومتسى .

(ب) الطرق الموصلة للروسيا :

(١) طريق كاشجار — نارين — أوش ، وطوله مسيرة أحد عشر يوما ، ويمر بجبل « تريك داوان » ، وارتفاعه ٣٨١٠ مترا .

(٢) طريق الشمال : الطريق القديم المسمى طريق الحرير ، ويمر بأورومتسى وقولجا .

(ج) الطرق الموصلة للهند :

طريق « يارقند — ليه » ويمر بجبل كارا كوروم ، وارتفاعه ٥٦٥٠ مترا ، وتوجد الحرية الجمركية بين بلاد التركستان وبين الروسيا منذ سنة ١٨٨٠ ، وهل هذا لأن البلاد تتبادل التجارة مع بلاد التركستان الروسية على الأخص ؟ إنه ليس لدينا عن ذلك معلومات إحصائية حديثة .

ولاية «كان — صو» الصينية

سميت هذه البلاد بهذا الاسم نسبة لمدينتى «كانتشيو» و «سوتشيو» وهذه الولاية واقعة فى جنوب «منغوليا» وتبلغ مساحتها ٣٢٥٠٠٠ كيلو مترا مربعا ، وهى عبارة عن الجزء الأعلى من وادى نهر «هوانغ — هو» وهو نهر وعر المجرى وسريع الاندفاق من الجهة الغربية ، حيث يوجد بها بعض جبال عالية يبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠ مترا ، أما من الجهة الشرقية فهو سهل الملاحة ، وعند مصبه يمر بأراضى من الصلصال الأصفر .

إن ولاية «كان — صو» تشمل ثلاث مديريات و ٩١ مركزا ، ويبلغ عدد سكانها ٣٨١٠٠٠٠ (فى سنة ١٩٠٢) وقد يبلغون أكثر من ضعف هذا العدد .

أما مدنها التى يبلغ عدد سكانها أكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة فهى : «لانتشيو» وعدد المسلمين بها يبلغ ٥٠٠٠٠ ، وبها أربعة عشر مسجدا ، و «تسين — تشيو» وبها ٤٠٠٠ مسلم وأربعة مساجد ، و «لينغتشيو» . ومدينة «سى — ننغ» يبلغ عدد سكانها ٦٠٠٠٠ ، ولها ضاحية خاصة بالمسلمين بها مسجدان ، ومدينة «هو — تشيو» يبلغ عدد سكانها ٦٠٠٠٠ نسمة ، منهم أكثر من ٣٠٠٠٠ مسلم يقيمون فى ضاحية خاصة يوجد بها من ١٤ مسجدا الى أربعة وعشرين مسجدا . وأول من دخل فيها من المسلمين هم الجنود المرتزقة المستعربون الذين جاءوا إليها من بغداد لنجدة الأمبراطور «تانغ — سو — تسونغ» الذى هاجمه التبتيون فى سنة ٧٥٥ من الميلاد ، ولا يزالون الى الآن يجلّون قبر أحدهم وكان يدعى عبد الرحمن البغدادى الذى قتل فى سنة ٧٥٧ ، ولا تزال ولاية «كان — صو» منذ أحد عشر قرنا أهم معقل للتجنيد فى الجيش الصينى .

والمسلمون الذين لبثوا خاضعين لحكم بوذى «قاغانات الويجور» فى ولاية «كان تشيو» من سنة ٧٠٠ الى سنة ١٠٢٨، ولحكم تيبتى «تانغ هيانغ» فى «هيا» من سنة ٨٧٠ الى سنة ١٢٢٦، ثم تحت حكم أسرتى «يوان» و «منغ»: هؤلاء المسلمون أثاروا ثورة فيما بين سنتى ١٨٦١ و ١٨٧١ انتقاما من المذابح الرسمية التى وقعت فى «شين — سى» وقد كانت هذه الثورة تهدد مدينة «سينغان» بالسقوط فى أيدى الثوار فيما بين سنتى ١٨٦٧ و ١٨٧٠، هذا وقد احتفظ المسلمون الى الآن بنظم وطيدة بالرغم مما أصابهم من أعمال القمع الوحشية.

وقد يبلغ مجموع المسلمين فى هذه الولاية ٤٠٠ ٠٠٠ ١، أى بنسبة ٢٧ ٪ (فى المائة) وهذا تقدير رسمى غير كاف، إذ لابد أنهم يبلغون ٤٠ ٪ (فى المائة) من مجموع السكان. وقد طالب المسلمون (فى سنة ١٩٢٣) من حكومة بيكين بتقليد وظيفة «الحاكم الحربى» للولاية أحد المسلمين؛ أما من الوجهة الجغرافية فإنهم ينقسمون الى ثلاث فئات: فئة تقيم فى الشمال الغربى فى «صو - تشيو» وبها ٠٠٠ ٢٠ مسلم، وفئة فى الشمال الشرقى فى «ننغ — هيا» و «كين — تسى — بو» وبها ٠٠٠ ٢٠٠ مسلم، وفئة تقيم فى الوسط الغربى فيما بين «سى غنج» و «لان — تشيو» و «هو — تشيو» وبها ٠٠٠ ٧٠٠ مسلم، ويوجد فى جهة الجنوب فى «مين — تشيو» و «تسين — تشيو» ٠٠٠ ٥٠٠ مسلم، وينتمى سكان هذه الولاية الى ثلاثة أجناس مهمة وهى:

(ا) الصينيون الذين اعتنقوا الاسلام، وهم على الأرجح ممن اتصلوا بصلات المصاهرة بذرية الجنود العرب المرتزقة الذين جاءوا الى الصين فى العهد الأول، ويبلغ عددهم مليون نسمة.

(ب) الأتراك الويغور الذين اعتنقوا الاسلام، ويطلق عليهم اسم «تونغ هيانغ هوئى — هوئى» ويبلغ عددهم ٠٠٠ ٣٠٠ نسمة، ويقيمون بالقرب من «هوتشيو».

(ح) « الأتراك السالار » (سالار مأخوذة من كلمة سالير ومعناها: تركى) وقد نزحوا الى الصين فيما بين سنتى ١٣٨٠ و ١٤٢٨ من « ساراخس » عن طريق سمرقند وطورفان وصو تشيو حتى سى غنج فى الغرب، ومن « هوتشيو »، ويبلغ عددهم ٧٠٠٠٠

(د) بعض المنغول الذين اعتنقوا الاسلام بالقرب من « ننغ — هيا » وأما إخوانهم من البوذيين المتحمسين لبوذيتهم فهم متمردون ضد اعتناق الاسلام كما هو الحال مع أهالى التبيت (التنغوت) فى « سى — غنج » الذين يقيمون حول أديرتهم البوذية التى يبلغ عددها أربعة وعشرين، ومنها دير « كوم بون » الشهير.

وهؤلاء المسلمون يتكلمون الصينية، وبعضهم يتكلمون التركية (سالار) ويقتنون الكتب الفارسية والعربية، والمدرسون فى مدارس تعليم القرآن (أهونغ) يتلقون علومهم فى « هو — تشيو » وهى مركز التعليم الاسلامى لجميع بلاد الصين الشمالية الغربية، أما خطبة الجمعة فهى خطبة « بخارا ». والنساء سافرات إلا نساء « هو — تشيو » فانهن مقنعات، ومحظور تدخين الدخان، ولكن لا حرج من تعاطى الكحول، ومسموح اتباع لوحات العبادات التى كان يقيمها أسلافهم القدماء، اللهم إلا عند الأتراك (السالار) فان ذلك محظور عليهم، ويذهب كل عام بعض الحجاج الصينيين الى مكة وجميعهم سنيون، وينقسمون الى مذهبين متنافسين: « القديم » وهو يعادل المذهب الحنفى، إذ أن الصلاة تؤدى فيه « بالذكر الخفى [1] » وهو عبارة عن متابعة المؤتمين بفكرهم للإمام فى تلاوته للقرآن عند إقامته صلاة الجماعة جهرا، ثم المذهب « الجديد » وهو يعادل على الأرجح مذهب الشافعية، إذ أن الصلاة تؤدى فيه « بالذكر الجهرى » أو التلاوة بصوت عال.

وقد لوحظ أن الأتراك كانوا يتبعون هذا المذهب الأخير فى سنة ١٧٦٠ وفيما بين سنتى ١٧٨١ و ١٧٨٥، ويعزو « ده جروت » الى هذا المذهب الجديد بعض

(١) لعل مراده بهذه العبارة أن الحنفى قراءة إمامه قراءة له فلا يقرأ بخلاف الشافعى فانه يقرأ سرا.

الميول الوهابية ، وقد أدخلت على هـذا المذهب بعض التعديلات فى سنة ١٨٦٠ ، أدخلها عليه « ماهوا — لونغ » المتوفى سـنة ١٨٧١ ، وقد كان زعيم الثورة الـكبرى التى قامت فى ذلك الحين ، وكان رجلا عظيما مبجلا ، وقد أسس طريقة تدعى الطريقة « الجهرية » ويطلق عليها فى بلاد التركستان اسم الطريقة « القادرية » التى تعارض الطريقة « النقشبندية ، وقد انتقل مركز الطريقة « الجهرية » فى سنة ١٨٧١ من مدينة « كين تسى — بو » الى « شا كيو » بالقرب من « كو — يين — تشيو » وقد كانت الأغلبية تنظر إلى أتباع هـذه الطريقة نظرة استصغار ، فتسربوا الى ولايتى « صوتشوان » و « يون ـ نان » ، أما التوسل بالأولياء وهو عبارة عن زيارة أضرحتهم فقد انتشر فى ولاية « كان — صو » مع كثرة إقبال الناس على الدخول فى الطريقتين القادرية والنقشبندية .

فى ولاية « يون — نان »

إن ولاية «يون ـ نان» ومعناها (الجنوب الغائم) وتمتد من الجنوب الغربى لبلاد الصين الى جنوب مصب « يانغ — تسو » وتبلغ مساحتها ٣٨٠٠٠٠ كيلومتراً مربعا وتقع فى منطقتين : منطقة شمالية ، وشمالية شرقية وغربية ، وهى منطقة ذات جبال شامخة وعرة وقاحلة ، ومنطقة أخرى شرقية جنوبية ، وهى منطقة ذات هضبة عالية ينتشر فيها كثير من البحيرات ، وكثيفة السكان ، وتشمل هذه الولاية أربع مديريات و ٩٧ مركزا .

ويحكم هذه الولاية منذ ٧ فبراير سـنة ١٩٢٧ مجلس أعلى ينوب عنه فى « إدارة الشئون الحربية » قائد مسلم « ماتسونج » ويبلغ عدد سكانها ٨٠٥٣٠٠٠ نسمة حسب إحصاء سـنة ١٩١١ ، هذا وقد أثبت الاحصاء الرسمى أن متوسط أفراد كل أسرة إسلامية يبلغ ستة أشخاص وغير الاسلامية خمسة .

أما مدنها حسب البحث الذى قام به « ج • سولية » فهى :

مدينة « يون — نان — سين » ويبلغ عدد سكانها ٤٥٠٠٠ نسمة ، منهم ٧٢٠٠ مسلم ، وبها سبعة مساجد . ومدينة « تشاؤ — تونغ » ويبلغ عدد سكانها ٣٥٠٠٠ نفس ، منهم ١٥٠٠٠ من المسلمين . ومدينة « تونغ — تشوان » ويبلغ عدد سكانها ١٥٠٠٠ نسمة منهم خمسة آلاف مسلم . ومدينة « مونغ — تسو » ويبلغ تعدادها ١٢٠٠٠ نسمة . ومدينة « تنغ — يو » وعدد سكانها ١٢٠٠٠ نفس . ومدينة « طالى » ويبلغ تعدادها ٦٠٠٠ نسمة ، منهم ١٥٠٠ مسلم . ومدينة « لى ـ غان » وعدد سكانها ٦٠٠٠ نسمة ، من بينهم ٤٠٠٠ مسلم . ومدينة « مونغ — هوا » ويبلغ عدد أهاليها ٣٠٠٠ نفس ، منهم ١٢٠٠ من المسلمين ، و « أتنتسيه » حيث يوجد السوق التبيتى ويبلغ ارتفاعه ٣١٠٠ متر . ومدينة « تا تشوانغ » بالقرب من « مونغ تسو » ويبلغ عدد المسلمين بها ٢٣٥٠ نفس من مجموع عدد سكانها البالغين ٢٥٠٠ نسمة . هذا ولم يكن هناك شىء أكيد عن حالة الاسلام فى مملكة « نان تشاؤ » قبل الفتح المنغولى فى سنة ١٢٥٣ .

وقد كان حاكم هذه الولاية الذى عينته أسرة « بوان » فى سنة ١٢٧٤ مسلما يلقب باسم « أمير هين يانغ » وكان اسمه (شمس الدين عمر بخارى) ويكنى باسم « السيد الأجل » توفى سنة ١٢٧٩ ، وقد وطد ابنه « ناصر الدين » وحفيده « سعدى » دعائم استقرار الجالية الاسلامية التى قدمت الى هذه البلاد مع الجد من بخارا .

هذا وقد أجريت الأبحاث عن الآثار التى شيدوها فى « يون — نانسين » مثل المساجد الموجودة فى « الباب الجنوبى » وفى « يانغ پى » والضريح الموجود فى « أول — تو » ومنذ بدء القرن التاسع عشر ثار المسلمون المتجمعون فى « تالى » و « لينغان » (فى سنة ١٨١٨ الى سنة ١٨١٩ ، وسنة ١٨٢٩ وسنة ١٨٣٤ وسنة ١٨٤٠) .

وقد نشبت الثورة الكبرى فيما بين سنتى ١٨٥٦ و ١٨٧٣ ، وقام بها المسلمون المتحالفون ، إلا أن هذا التحالف لم يلبث طويلا ، إذ انقسم الى فريقين : فريق المعتدلين بقيادة « حاج ماتوسين » فى « يون نان — فو » ، وفريق المتطرفين تحت قيادة « تووين — سيو » الملقب باسم « السلطان سليمان » فى « تالى » والذى رفض الخضوع للصين ، والذى استنجد بخليفة آل عثمان فى سنة ١٨٧٣ ، إلا أن مدينة « تالى » سقطت فى سنة ١٨٧٣ وأبيد جميع من كانوا بها من المسلمين .

ويقدرون عدد المسلمين فى ولاية « يون — نان » بسبعمائة ألف ، أى بنسبة ٩ ٪ فى المائة من عدد السكان ، وهم كما يأتى :

(ا) المسلمون الذين هم من نسل مهاجرى بخارا الذين قدموا الى هذه الولاية فى القرن الثالث عشر مضافا اليهم الصينيون الذين اعتنقوا الاسلام لا سيما فى « يونان — سين » .

(ب) أهالى « اللولو » الذين اعتنقوا الاسلام فى « لينغان » حيث يقطنون قصورا مكعبة الشكل .

وتلقى خطبة الجمعة باللغة العربية ، ويقرءون الفاتحة كذلك عند انتهائهم من تناول الغذاء شكراً وحمدا لله ، ويقومون كذلك بأداء فريضتى الصوم والزكاة ، ويذهب بعض الحجاج الصينيون سنويا الى مكة عن طريق صوتشوان والتركستان وبخارا ، وفى الغالب عن طريق هانوى وهايفونغ وبورسعيد ، وجميعهم سنيون حنفيو المذهب ومسموح لهم إبقاء الألواح المكتوبة عليها الشعائر الدينية التى كان يقيمها أسلافهم القدماء .

ولاية « هونغ — كونغ »

يبلغ تعدادها حسب إحصاء سنة ١٩٢١ : ١٦٦ ٦٢٥ نسمة ، ويوجد من بينهم نحو ٣٠٠٠ مسلم ، كما يوجد بها مسجدان ومنتدى للمسلمين .

الخلق الكامل

تأليف حضرة صاحب العزة الباحث القدير الاستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف .

وهو كتاب جامع لأبحاث خلقية نافعة تعرض فيها للكلام على الفلسفة الخلقية ونسبتها الى سائر العلوم ، وبسط القول فى الكلام على الغرائز والعادات والإحساسات ونحوها من ينابيع الخُلق ، وأتبع ذلك بفصول ممتعة فى أمثل الطرق لتكوين الخلق وهى طريقة دين الاسلام ، وقد أورد حضرته أثناء بحثه آراء علماء الاسلام وفلاسفة الأخلاق مع أمثلة تاريخية وشواهد قيمة تدل على غزارة العلم وسعة الاطلاع . فجاء من أوسع ما كتب فى موضوعه ومن أوفى الكتب الخلقية الدينية علما وأعمها فائدة .

والكتاب مفصل تفصيلا وافيا ، ومطبوع طبعا متقنا ويقع فى ٤٦٤ صفحة . فجزى الله المؤلف عن عمله النافع خيراً .

His Eminence Sheikh Ali Al-Khafif, Director of Mosques, Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Ibrahim Al-Jibbaly, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Amin Al-Khouly, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

7 — The appointment of sub-committes in the following towns to co-operate with the Body of Grand Ulema for the fulfilment of its object:

Alexandria, Tanta, Zagazig, Dessouk, Damietta and Assiut.

The Body has authorised the Executive Committee to appoint further sub-committees in other parts should it be deemed necessary.

8 — The appointment of His Eminence Sheikh Mohammed Maamoun Al-Shinnawy, Head Sheikh (dean) of the Faculty of Mohammedan Law, Al-Azhar University as Treasurer to the Body.

The Body of Grand Ulema trusts that it will find the greatest support in the generosity of Moslems to discharge this noble duty. Contributions are received by the Treasurer of the Body at the following address:

Religious Institutions Department,

Sharia Noubar, P. O. B. 919, Cairo.

Following the first convocation of the Body of Grand Ulema to discuss the situation arising from the recent missionary activities in Egypt, His Emimence Grand Sheikh Mohammed Al-Ahmadi Al-Zawahiri, Rector of Al-Azhar Uniuersity, has made a contribution of L.E. 200 for the purpose of counteracting these activities. His Emimence Sheikh Abdul-Majeid Selim, Grand Mufte of Egypt, gave L.E. 100.

His Emimence Sheikh Mohammed Abdul-Latif Al-Faham gave L.E. 50 and His Emimence Sheikh Hussain Wali, member of the Body of Grand Ulema, gave L.E. 50.

Many other Ulema also contributed.

His Eminence Sheikh Mohammed Hassanein, member of the Body of Grand Ulema.

His Eminence Sheikh Abdul-Rahman Oleish, member of the Body of Grand Ulema.

His Eminence Sheikh Abdul-Majeid Al-Labban, Head Sheikh (dean) of the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Ibrahim Hamroush, Head Sheikh (dean) of the Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Ibrahim Al-Jibbaly, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Al-Sayyed Mohammed Ali Al-Biblawy, Chief of the Descendants of the Holy Prophet in Egypt.

His Eminence Sheikh Ahmed Hussain, Mufti of the Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Ali Al-Khafif, Director of Mosques, Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Amin Al-Khouly, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Taha Habib, professor at the Faculty of Mohammedan Law, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Mohammed Al-Khidr Hussain, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Mohammed Ahmed Arafa, sub-dean of the Faculty of Mohammedan Law, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Abdul-Rahman Qorraa, member of the Body of the Body of Grand Ulema.

His Eminence Sheikh Hussain Wali, member of the Body of Grand Ulema.

The Executive Committee has the right to include in its membership anyone whose inclusion is deemed beneficial to it.

6 — The appointment of a committee to make the necessary regulations pertaining to the organisation of the work of the body in this connection. The said committee to be constituted of the following :

His Eminence Sheikh Abdul-Majeid Selim, Grand Mufti of Egypt.

His Eminence Cheikh Mohammed Abdul-Latif Al-Faham, Vice Rector of Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Ahmed Hussain, Mufti of the Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Ahmed Hussain, Mufti of the Ministry of Wakfs (Pious Foundations).

His Eminence Sheikh Ibrahim Al-Jibbaly, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Ali Al-Khafif, Director of Mosques, Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Amin Al-Khouly, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Mohammed Al-Khidr Hussain, professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Taha Habib, professor at the Faculty of Mohammedan Law, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Mohammed Ahmed Arafa, sub-dean of the Faculty of Mohammedan Law, Al-Azhar University.

2 — The publication of an appeal to Moslem people.

3 — The appointment of an executive committee for this purpose presided over by His Eminence the Grand Sheikh Rector of Al-Azhar University and including the following :

His Eminence Sheikh Abdul-Majid Selim, Grand Mufti of Egypt.

His Eminence Sheikh Mohammed Abdul-Latif Al-Faham, Vice-Rector of Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Hussain Wali, member of the Body of Grand Ulema.

His Eminence Al Sayyed Abdul-Hamid Al-Bakry, head Sheikh of Sufis.

4 — The secretarial work of the Body to be entrusted to the following :

His Eminence Sheikh Ahmed Hussain, Mufti of the Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Ali Al-Khafif, Director of Mosques, Ministry of Wakfs.

His Eminence Sheikh Amin Al-Khouly, Professor at the Faculty of Principles of Religion, Al-Azhar University.

5 — The appointment of committees for the preparation of preliminaries necessary for the work and a learned committee to be constituted of the following :

His Eminence Sheikh Ahmed Nasr, head Sheikh of the Malikites.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

RESOLUTIONS OF THE BODY OF GRAND ULEMA FOR THE PROTECTION OF ISLAM AND MOSLEMS

On Monday the 24th. of Rabei-ul-Awal, 1352 A.H. (17th. of July, 1933 A.D.), a meeting of the Body of Grand Ulema was held at Al-Azhar University to organise the work for the protection of Islam and the Moslem people against the grave dangers of missionary activities. The Body passed the following resolutions:

1 — The inclusion of the following for the purpose of assisting in this work:

His Eminence Al-Sayyed Abdul-Hamid Al-Bakry, Head Sheikh of Sufis.

His Eminence Al-Sayyed Mohammed Ali Al-Biblawy, Chief of the Descendants of The Holy Prophet in Egypt.

His Eminence Sheikh Mohammed Maamoun Al-Shinnawy, Head Sheikh (dean) of the Faculty of Mohammedan Law, Al-Azhar University.

His Eminence Sheikh Ibrahim Hamroush, Head Sheikh (dean) of the Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University.

من مدير مجلة نور الاسلام

لقرائها الكرام

شرفنى مجلس الأزهر الأعلى ، بناء على اقتراح حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، شيخ الجامع الأزهر ، بإسناد وظيفة إدارة هذه المجلة الىّ . وإنى حيال هذا التوجيه الكريم ، أعاهد الله على بذل الوسع فى الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة ، ووقف كل جهودى ، على إبلاغ هذه المجلة المكانة التى تليق بها ، من قيادة النهضة الدينية فى العالم الإسلامى ، ودفع شبهات خصوم الدين التى توجه إليه ، واستخدام الأسلحة العلمية والفلسفية لإثبات أنه الحق ، وأنه الدين العالمى الخالد ، الكافل لسعادة البشر على اختلاف بيئاتهم وأجناسهم.

وإنى فى هذا المقام ، أرى من أوجب واجباتى ، رفع يد الدعاء والابتهال الى الله تعالى بأن يبقى حضرة صاحب الجلالة الملك « **فؤاد الاول** » ملاذاً لهذا الدين ، فإن أياديه التى تترى على معاهده ، وعنايته العالية التى تتوالى على قادته ، مما يعجز القلم عن حصرها ، ويعيا اللسان عن القيام بواجب شكرها . أبقى الله ذاته الكريمة ذخرا للأمة ، وأقر عينيه بحضرة صاحب السمو الملكى ولى عهد الدولة المصرية « **الامير فاروق** » .

وإنى أقدم نفسى لحضرات القارئين ، واعداً إياهم بالعمل على إبلاغهم أقصى أمنياتهم ، فى أن يجدوا من هذه المجلة منارة للهدى ، وعلما للحق ، وموردا عذبا لعلوم الدين وبيناته ، بمساعدة حضرات أصحاب الفضيلة محرريها من العلماء الأعلام ، وفقنا الله جميعا للقيام بمراضيه ، والعمل بمحابّه ، بفضله وكرمه .

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ١ —

الإنسانية تتدرج نحو الكمال بقدم ثابتة ، وخطى متزنة . والجماعات البشرية كلها وإن تناحرت وظهر أن بعضها يهدم بعضا ، فإنها فى الواقع مسخرة لقوى تمخضها مخضا لتستخرج منها خلاصة ما أودعته فطرتها من خصائص كريمة وخلال عالية . وقد تزول أمم وتقوم أمم ، وتبيد طوائف وتنشأ طوائف ، وتزلزل الأرض تحت أقدام الجماعات حتى ليظن الناظر إليها أن العالم مدفوع لدمار محقق ، وخراب لا مردّ له . والحقيقة أن أجزاءه تتفاعل تفاعل المواد الكيماوية ، لتخرج مركبا جديداً أجمع منها جميعا للمزايا المتفرقة فيها ، ليؤدى عملا جديدا لا يستطيع أن يضطلع به من كان قبله ، ويكون مقدمة لغيره من الترقيات الصورية والمعنوية التى يأخذ بعضها بأيدى بعض ، متكافلة على تحقيق وعد الله فى الأرض .

لقد عاش الناس آمادا طويلة متفرقين شيعا ، ومتخالفين أصولا ومبادىء ، وكان العقل الإنسانى ملتاثا ببقايا السذاجة الأولى ، يتخذ من هذا التشيّع والتخالف عاملين قويين على توسيع شقة الانقسام البشرى . وقد اتخذوا الأديان بواعث المضى فى هذا التناحر الى أقصى حد . وما زالوا جارين على هـذا السمت حتى تمهدت سبل الاتصال بين الشعوب ، وتسهلت وسائل التعارف بينها ، ونجمت حاجات حيوية تدعوها لتبادل الثمرات ، وتداول المنافع ، فنشأ للأمم شعور لم يكن من قبل ، وهو وجوب قيام صلة بينها تسمح لها بالتكافل فى الحياة ، ليكمل بعضها نقص البعض

الآخر في أعم الحاجات وأبسطها ،فنشأت التجارة العالمية ،فكانت وسيلة للتفاهم ،والتفاهم يدفع الى التسالم ، فكان هذا عهدا جديدا في حياة الأمم ما زال تدفع عوامله بالشعوب بعضها نحو بعض ، ممهداً لأكبر عهد من عهود البشرية ، ألا وهو القيام على أصل جامع يؤلف بين الكافة في حظيرة واحدة ، إخوانا على سرر متقابلين ، ليقطعوا مراحل هذه الحياة ، مجرّدين قواهم كلها للتكمل في العلم والعمل ، لا متناحرين يبغي كل فريق لخصمه الفشل ، ويبيّت له الويل والخبل .

وُلد هذا الشعور في العالم ، ولكنه ولد خيالا يطوف ببعض الرءوس ولا يستقر فيها ، إلا أنه كان يزداد على مَرّ الأيام قوة ، الى عهد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

في هذا العهد أراد قيوم الوجود سبحانه وتعالى أن يجعل من هذا الشعور الخيالي حقيقة واقعة ، فشرع للناس الاسلام ،وأمر بإشاعته في جميع أكناف الأرض .افتتح به عهدا نهائيا للبشرية لم تكن تتخيله من ناحية الدين قط ، لأن كل أمة لُقنت أن الأديان كلها مزورة إلا الدين الذي هي عليه ، فمن أية جهة تأتي مجموعها الوحدةُ المرغوبة من قبله ؟ ذلك كان من المحالات العقلية ، فكان بعض الفلاسفة يتخيل هذه الوحدة من ناحية التخلي عن جميع الأديان . وكيف كان يعقل ذلك في أمم اختلط حب الدين بدمها وآثرته على نفسها وولدها ؟

فكيف حل الإسلام هذه المعضلة الخطيرة في حدود العقل ومنطق الأشياء ، وسوّغها للأذهان الى حد أن صار ليس بين خصم الإسلام وقبوله والتحمس له إلا أن يسمعها بينةً من الداعي اليه ، وأن يفهمها حق الفهم ؟

حقاً إن هذه لمعجزة لدين يعلن أنه آخر الأديان الإلهية ، وأنه الدين العام لمجموع البشرية ، وسيصبح دين الكافة غير منازع ، بعد أن تتجلى للناس آياته في الآفاق والأنفس الإنسانية .

أعلن الإسلام أنه فى أصوله الاعتقادية ليس بدين جديد، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله الى نوح، ثم تابع وحيه الى جميع المرسلين من بعده، فاذا كان الناس يرون أمام أعينهم أديانا مختلفة فى هذه الأصول، فإنما حدث ذلك من تحريف قادتها لها، وتحميلها مالا تحتمله من أهوائهم وأوهامهم، بغيا بينهم.

وقد أرسل الله به نبيه محمدا فى آخر الزمان، خالصا من كل ما أدخل اليه مما ليس منه، ليقوم الناس على أصل جامع، فينعموا بمزايا الوحدة، ويتوجهوا بجملتهم لتحصيل الكمال الذى وعدت به البشرية. ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ. وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ. فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ (أى لا محاجة ولا خصومة) اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ).

وقال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ. وَقُلْ لِلَّذِينَ

أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ) .

إذا ألقيت هذا البيان الى كائن من كان ، أساغه عقله ، واطمأن اليه قلبه ، وحن له شعوره ، وإلا فهل يعقل أن الله يوحى أديانا متخالفة فى أصول العقائد لأمم تتشابه فى عقولها وقابلياتها ووجهاتها، على حين أن الحق لا يتعدد ، ونواميس الكون لا تتغير؟ فاذا لم يكن هذا التخالف فى الأديان من جنايات قادة الأديان ، فجناية من هو ؟ وهل يعقل أن يتوحد العلم الكونى فى كل مكان ، حتى تكون أصوله فى أية بقعة من بقاع الأرض هى أصوله فى سائر بقاع العالم ، ويكون الدين فى أصوله ذا وجوه مختلفة ينقض بعضها بعضا ، ويبغى بعضها على بعض ؟

والذى ضمن للدين الإسلامى الخلود أمران : الفطرة الإنسانية ، وسلطان العقل الكامل . والناس جميعا يتفقون فى مقتضيات الفطرة ، فما يراه إنسان بفطرته حسنا يراه كل الناس حسنا ، ومايراه قبيحا يراه الكافة قبيحا ، اللهم إلا إذا تعمد الآباء والمربون إفساد هذه الفطرة ، وشرط الإسلام أن تبقى الفطرة سليمة من الشوائب التى تحولها عن منهجها .

وأما سلطان العقل الكامل ، فلا سبيل لأكبر قوة فى الأرض أن تسلبه إياه ، فإنه قبس من نور الله ، ونفحة من حكمته ، وقد حاول طمسه قادة الأديان السابقة أجيالا ، وعاقبوا من يحوم حول حماه بالحديد والنار قرونا ، فأظهره الله على جميع القوى الظلمانية التى جردت لمكافحته ، وتجلى جوهرا خالصا لم يمسسه سوء ، وهو اليوم فيصل التفرقة بين الحق والباطل فى العالم كله .

اعتمد الإسلام على هذين الأمرين الطبيعيين ، اعتماد البناء على ركنيه الركينين فقال عن الفطرة الإنسانية : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

فالخالق جل شأنه يبين للناس أن الدين هو ماجبلت عليه النفوس من الفطرة الإلهية، ولكن بشرط أن لا تشاب بتعاليم تتحكم فيهاوتوجهها غير وجهتها الطبيعية. وهذه الفطرة الخالصة من كل شوب: من هوى، أو وهم أو تقليد، أو تعليم، هى الإسلام نفسه.

إلا أن هذا الموقف يحتاج لمقوّم يقومه، فإن الناس يتخالفون فى الغرائز الطبيعية، وفى الصفات الوراثية: فنهم المتثبت والمتسرع، والبعيد النظر والقصيره، والكثير العلم والقليله، فكان لابد من حكم يَرضى الناسُ جميعا حكومته، ولا يشذ عنها إلامفتون أومتعنت. هذا الحكم هو العقل. ولما كان هذا العقل مناط التكليف، وفيصل التفرقة بين الحق والباطل، وجب أن يكون بحيث يصلح لهذه المهمة الخطيرة. فلذلك حث الحق سبحانه وتعالى على تكميله، بالنظر فى الأعلام التى نصبها فى الكون لتكميله، والمنار التى أقامها لهدايته، ليقوى على ما هو بصدده، ويأمن العثار فى حكمه، ولا يلتبس عليه الباطل فى تلوّنه.

فهذا الجمع بين حكم الفطرة المعدلة بحكم العقل الكامل، هو الأساس الدينى الذى بعث الله خاتم أنبيائه لوضعه وإعلانه بين الأمم، لتتوحد فى أديانها وعقائدها، كما هى متوحدة فى إنسانيتها وفطرها وعقولها.

لقد أنجح الفيلسوف الانجليزى (باكون) واضع الدستور العامى قبل نحو ثلاثة قرون فى توحيد العلم فى كل بقاع الأرض، ببنائه على المشاهدة والتجربة، وعلى التحليل والتركيب، وبإخراجه جميع الآراء والظنون من مادته، فاذا كان (باكون) قد استحق إعجاب العالم كله به لتوفقه الى هذا العمل العظيم، فإن الإسلام يستحق أكبر مايتصور من الإجلال والإكبار لإيحائه الى خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هذا الدستورَ الدينى الذى نحن بسبيله، فجمع به بين أمم لا تغرب عن بلادها الشمس، وسيجتمع عليه سائرها، متى وفق الله المسلمين لإعلانه للناس فى هذه الصورة الباهرة، ومتى أراد الله أن يتم هذا الإصلاح الكبير فى الأرض.

وبما أن الاسلام يرمى الى توحيد الأمم فى عهد جديد للبشرية ، كانت عقائده على هذا الأصل الجامع ، فأمر الآخذين به أن يعتقدوا بجميع رسل الله ، وأن لا يفرقوا بينهم ، وأن يصدقوا بما أرسلوا به من الكتب ، جاعلا ذلك أساس الايمان ، لتكون صبغته عالمية من كل وجه ، فقال تعالى : (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

وبعد هذا البيان لا يستطيع أحد أن ينكر أن هذا الأساس الدينى الذى جاء به الاسلام هو أقصى ما يمكن تخيله من نظام يدعو الى دين واحد ، والى الاخاء بين الأديان ، ويجمع على الرضاء به كل ذى فطرة وعقل . وإن رجلا فى أبعد بقعة من الأرض عن العمران ، وعن مثل هذه الأحلام العالمية ، وفى عصر لم يطف فيه توحيدُ الأديان والأمم فى عقل بشر ، لا يعقل أن يكون انفرد بالتفكير فى هذا الأمر ، وهو لم يفرغ بعد من التوحيد بين القبائل التى نشأ فى بيئتها . وإذا عقل أنه قد يفكر فى ذلك ، فلا يعقل أن يأتى بدستور يبلغ من الكمال الى هذا الحد .

لا مشاحة فى أن هذا أمر جلل ، وفى أنه معجز الى أقصى حدود الإعجاز ، وفى أنه سيكسب الإسلام المكانة التى يرمى اليها، وهى أن يكون الدينَ الذى شرعه الله للناس كافة (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) .

فاذا قدر الله للبشر أن يجتمعوا على دين عام ، فى عهد من عهودهم ، فهو هذا الاسلام، وقد قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

محمد فريد وجدى



سورة النور

١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) .

لقد رأيت كيف قصّ علينا جل شأنه فى الآيات السابقة حالَ المنافقين وذبذبتهم ، ومقالتهم المتقلبة مع أهوائهم ، وأنهم يدّعون أنهم آمنوا بالله وبالرسول ، وأنهم أطاعوا ثم يتولّون معرضين عن مقتضى حكم الإيمان ، خارجين عن حكمه ، فهم وهذه حالهم ليسوا من الإيمان فى شئ . وزاد ذلك توضيحا بما يكشف القناع عن تلبيسهم ، ويفضح مكنون أستارهم ، إذ يتكشفون على حقيقتهم حين يُدْعون الى الله والى الرسول ليحكم بينهم ، فتراهم حينئذ : إن كان الحق بيد خصومهم أعرضوا عن حكم الله ورسوله علما منهم أنه لا يقضى إلا بالحق ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين .

هذه الحالة لا يصح أن تصدر عن صادق فى دعوى الإيمان . هذه المقالة ليست شعار المخلص فيما يزعم من الطاعة والانقياد . هذه الذبذبة ليست صفة المستيقنين ، إنما هى صفة الكاذبين المنافقين ، الذين لا يرتادون إلا مصالحهم الشخصية ، مهما صادمت قضية الحق والعدالة . أما ما يقابل هذه المقالة ، وذلك هو القول الثابت المطابق ظاهره لباطنه ، وهو قول سمعنا وأطعنا حين يدعون للحكم بينهم ، فإنما هو قول المؤمنين وحدهم ، لا ينتظر أن يصدر من تلك الفئات التى لا تعرف إلا أشخاصها ، ولا تقدر إلا مصلحتها . ويا ليتها كانت تنظر الى صالحها بالنظر الصائب ؛ إذاً لعلمت أن صالحها الحقيقى مرتبط بالصالح العام ، فهو المستقر الثابت الدائم ، الكافل للسعادة العامة الشاملة المستقرة . ذلك هو النظام الدائم الذى يعرف الكل طريقه ، فيسلكونه ليصلوا الى ما ينبغى أن يكون به عمار الكون . ذلك هو العدل الذى هو أساس الملك الذى يسند العمران ، ويكفل الطمأنينة والأمن بين الناس أجمعين .

إذا تأملت ما شرحناه لك فى مقارنة الآيتين إحداهما بالأخرى ، لتنظر اليهما نظرا واحدا ، عرفت السرّ فى نصب (قول المؤمنين) على أنه خبر كان ، والمصدر المأخوذ من قوله : « أن يقولوا سمعنا وأطعنا » اسم كان مؤخرا . وإن كان يجوز فى العربية أن يكون كل منهما خبرا لكان واسماً لها ، فكل منهما معرفة . وقد قرئ فى غير القراءة المشهورة برفع « قول » على أنه اسم كان . وزعم بعض المفسرين أنه أقعد من جهة المعنى ، وذلك لعدم تنبههم لما شرحناه لك من أن الكلام فى الآية الأولى كان لبيان مقالة المنافقين العوجاء ، فحرىٌّ بقارئها أن يتطلع الى المقالة التى تقابلها ، وهى المقالة الثابتة الصادقة ، وينتظر أن يعرف لمن تكون ، ومن ذا الذى يتحلى بها . فكان الإفادة فى حين التطلع ، وقيل فيها : هذه الكلمة إنما هى قول المؤمنين ، لا ينتظر أن يتحلى بها سواهم . وكأن تقديم الخبر على الاسم للمبادرة بالتنويه بحالها ، والتنبيه على شرف مقدارها ، بأنها حلية المؤمنين الصادقين .

ولا يفوتك أن تقييد الخبر وهو « قول المؤمنين» بقيد « إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم » محط قصد ، وهو يجعل الفائدة منتظرة أيما انتظار . ولا تسأم من هذه الجملة النفيسة، فقد دعانا إليها ما رأيناه من حيرة بعض المفسرين فى الترجيح بين قراءة النصب وهى المشهورة ، وبين قراءة الرفع . ولا يستطيع الناظر فى تفسير كلام الله — وهو أبلغ كلام — أن يتخلى من النظر فى دقائق أسرار البلاغة العربية .

وقوله تعالى فى بيان مقالة المؤمنين : «سمعنا وأطعنا» معناه : سمعنا دعوتكم للتحاكم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأطعنا كم فيما تطلبون . أو سمعنا قولكم سماع انقياد ، وأطعنا الرسول فيما حكم . أو سمعنا وأطعنا إطاعة ثابتة على كل حال ، ليست متقلبة ولا معرضة للزوال ، كما كانت طاعة أولئك الكاذبين المنافقين . وعلى كل حال : فالطرفان وإن اشتركا فى إظهار الطاعة ، فقد افترقا أيما افتراق فى تمحيصها ، فإن الطاعة المقيدة بموافقة هوى المطيع ليست من الطاعة فى شئ ، وإنما هى اختياره لما فيه حظ له ، فلا بدع أن كانت غير جديرة بأن تسمى طاعة مطلقا . من أجل ذلك جاء قوله تعالى : « ومن يطع الله ورســوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » بعد بيان حال المؤمنين فيه لفظ (يطع) على إطلاقه ، لم يقيده بمثل طاعة صادقة ، أوطاعة صحيحة ، أو طاعة فى كل حال ، إشارة الى أن ما زعموه طاعة ليس من الطاعة فى شىء ، وإنما هى تسمية كاذبة .

ومعنى «من يطع الله ورسوله» أى يطع الله فيما كلف ، ورسوله فيما بين ، أو يطع الله فيما فرض ، ورسوله فيما سنّ . وعلى كل حال : من يطع الرسول فقد أطاع الله . وإنما نص عليه بالذكر تنويها بشرفه صلى الله عليه وسلم ، وتنبيها على أن طاعة الرسول مطاوبة المرسل ، جل وعلا . وقوله : « ويخش الله » أى يخشى عذابه فيما مضى له من ذنوب ، ويتقه فيما يستقبل منها . وخشية عذابه فى الذنوب الماضية باعثة على الندم على ما فرط منها ، وهى تستتبع اتقاءه فيما يستقبل ، وذلك من أركان التوبة : الندم على الماضى ، والعزم على عدم الوقوع فى الذنب . ولذلك قال بعض المفسرين : إن هذه الآية على إيجازها حاوية

لما ينبغي أن يكون من المؤمنين : طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وخشية عذابه لما مضى ، واتقاؤه فيما يستقبل . وكيف لا وهي مستجمعة لامتثال الأوامر في : يطع الله ورسوله ، واجتناب النواهي في : يخشى الله ويتقه ؟ فما أحقها أن يرتب عليها الفوز بالآمال ، والظفر بالمطلوب : فلذا قال جل شأنه : « فأولئك هم الفائزون » بهذا التعبير الدال على حصر الفوز فيمن هذه حاله .

ولقد قلنا مرارا : إن اختيار اسم الإشارة « أولئك » للتعبير في مثل هذه المواطن ليدل على أن المحدَّث عنه استحق هذا الحكم من أجل الصفات السابقة التي استحضرت مع موصوفها بالإشارة إليه . والفوز : النجاة والظفر بالخير ونيل المقصود . وقد قرئ يتقه بإسكان القاف ، وهي قراءة حفص . وكأن وجهها أن اللفظ وإن كان مركبا من الفعل والضمير الذي هو الهاء ، إلا أنه لاتصاله نزل منزلة الكلمة الواحدة . وهذا الوزن كثيرا ما يسكن وسطه للتخفيف ، كافظ كتف . وقرئ بكسر القاف على الأصل مع تسكين الهاء على أنها هاء السكت أو هاء الضمير ، ونزل الوصل منزلة الوقف . وقرئ بتحريك الهاء بإشباع الكسرة وعدم إشباعها .

قال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

عود على بدء ، وحكاية لحال من أحوال المنافقين ، زيادة في فضح حالهم ، وكشفا لمستور قناعهم ، وتفظيعا لشنيع أعمالهم ، حتى يكمل النفور من تقليدهم . وكثيرا ما نرى في القرآن الكريم عند الكلام على المنافقين أن يفيض القول في شرح سوءاتهم ، وتقليب الأساليب الفاضحة لهم . وما أجدر من يزعم أنه يخدع الله ورسوله والمؤمنين بأن يكشف حاله وتعلن مخازيه : والقسم : اليمين . أو أصله خاص بيمين القسامة ، وهي اليمين التي توجه الى القبيلة في نفي تهمة القتل عن أحدهم ، فيقتسمونها ، ثم غلب استعماله

فى مطلق اليمين . وقوله : « جهد أيمانهم » أى أقصاه ومنتهاه ، كأنه جهد يمينه ، أى بلغ أقصاه . وهو منصوب على الحال ، أى جاهدين أيمانهم ، أو على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى يجهدون أيمانهم جهدا .

وقوله : « لئن أمرتهم ليخرجن » جواب القسم ، على أنه حكاية لما كان منهم لا حكاية لمقالتهم ، وإلا كان مقتضى الظاهر : لئن أمرتنا لنخرجن . ومعنى أمرتهم ، أى بالخروج ، كما يدل عليه الجواب ، وهو ليخرجن . ومعنى الخروج إما للجهاد ، أو الخروج عن أموالهم وما يمتلكون .

وقوله تعالى : « قل لا تقسموا » ردٌّ عليهم ، وتبكيت لهم ، وكشف لخداعهم . ومعناه : أنكم تقسمون لتثبتوا دعواكم فى نفوسنا ، ولكن ذلك لا يفيدكم شيئا ، فطاعتكم طاعة معروفة ، هى طاعة لا تتجاوز اللسان والشفتين ، ولا يخفى من أمركم من شىء . أو فالطاعة فى حقيقتها أمر معروف ، وليس مما يثبته أو ينفيه دعوى اللسان ، وإنما هى آثار ظاهرة لا يحتاج من اتصف بها الى ادعائها ، ولا يغنى عمن حرمها أن يدعيها ويقسم عليها . فتكون « طاعة » متبدأ ، وجاز الابتداء به لأن المقصود حقيقة الطاعة وماهيتها ، لا فرد منها الذى هو محل إبهام يمنع من صحة الابتداء بالنكرة . أو فالمطلوب منكم طاعة معروفة بينة لا تلك المراوغة . ولعل الأظهر الوجه الأول ، وهو أن التقدير : فطاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها اسمية لا فعلية . ويشهد له إردافها بقوله تعالى : « إن الله خبير بما تعملون » أى فقد كشف الله ستركم ، وهو لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف تحدثكم أنفسكم أن يخفيه عن نبيه الذى يوحى اليه ما فيه الهداية والإرشاد ؟

يقول تعالى بعد ذلك خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أى قل لهم : لقد كشف حالكم ، وتبين أمركم ، ولا يغنيكم محالكم ، فخير

لكم أن تعرضوا عن هـذا السبيل الملتوى الذى لا يفيدكم، وأن تطيعوا الله وتطيعوا الرسول فيما يأمركم وينهاكم. هذا هو سبيل النجاة لكم. فالمقول لهم فى قوله: « قل لا تقسموا طاعة معروفة » فضح وتوبيخ وتبكيت. والمقول لهم فى « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » إرشاد وتعليم. فالكلامان نوعان مختلفان. ونظير هذا فى متعارف الناس كثير: يعمد المرء مع مخاطبه حتى يكشف دخائله، ويبين تغريره، ثم يقول له: لا لا، ليس هذا هو الطريق، يجب أن تعمل كيت وكيت، ويرى نفسه قـد انتقل من فن فى القول الى فن آخر. وهذا هو السر فى تكرير لفظ «قل» مع « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » وعدم الاكتفاء بتسليط قل على لا تقسموا وعلى أطيعوا.

وبعـد: فلعلك تشعر بالروعة العظيمة فى ذلك الأمر الجازم الحازم يلقى عليه بإيجاز، فكأنه قيل له عليه السلام: قل لهم هذه الكلمة، وأمرهم هذا الأمر وكفى، ولا عليك بعدُ فيما يكون منهم. وإن هـذا ليشعر بالعظمة والرهبة، تملك المأمور وتأخذ عليه نواحيه. وقوله بعد ذلك: (فَإِنْ تَوَلَّوْا) الخ، يحمل من مكملات الرهبة والتحذير ما يحمل. ثم إن إعادة لفظ أطيعوا مع جانب الرسول يفيد أن طاعة الرسول مأمور بها بعناية مستقلة، وذلك من بواعث الامتثال، إذ كانت طاعته عليه السلام قد أمر بها الله، فيصدق: من يطع الرسول فقد أطاع الله.

وقوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ) تولوا، أى تعرضوا. وأصله تتولوا، فهو خطاب لهم بعد خطابه صلى الله عليه وسلم. وتغيير الأسلوب كأن فيه إشارة الى أنه قد أمر فامتثل، وقيـل له: قل لهم: أطيعوا فقال لكم، إذ شأنه أنه متى أمر بادر بالامتثال، صلى الله عليه وسلم، وليس كشأنكم: يحتاج الى التكرير والتحذير، ويوجه اليه التخويف، ليقلع عن التسويف، لا، بل متى قيل له: قـل، فقد قال حتما. فيبقى الكلام معكم أنتم، فإن تعرضوا عمـا أمركم وتتولوا عنه،

فما ذلك بضاره شيئا ، فإنما عليه ما حمل وقد أداه ، وعليكم ما حملتم ، فانظروا لأنفسكم ، وأنقذوا أنفسكم من الضلال الذى يرديكم ، والحيرة التى توقعكم فى التهلكة ، ولا عذر لكم فيما تنكصون ، فقد بيّن لكم طريق الرشاد والهدى ، وذلك فى طاعته واتباع أمره ؛ وذلك قوله عز وجل : « وإن تطيعوه تهتدوا » فهو ترغيب بعد ترهيب . وفى ذلك من سوقهم الى ما فيه سعادتهم ما فيه ، فقد دفعوا بالرهبة ، وجذبوا بالرغبة . وذلك هو الأسلوب الحكيم : تملأ قلب الجانح المغتر رعبا مما هو فيه ، حتى إذا أخذتَ عليه الجوانب وتلفّت يمينا وشمالا ، فتحت له طريق الخلاص ، مرغبا له فيه ، فينساق اليه طوعا أو كرها .

وقوله عز وجل : (وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ) معناه : فلن يضره تأخركم عن إجابته ، ولا يحيق سوء عملكم إلا بكم . وأما هو فما بعثناه عليكم وكيلا ، ولا يتضرر من قبلكم فتيلا « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

فالقصر ليس معناه أنه طولب بالبلاغ ويتركهم بعد ذلك فلا يعالجهم بوسائل العلاج الناجعة ، بل معناه أن ضرر معصيتهم حائق بهم وحدهم ، ولا يضره ضلال من ضل متى قام بما طلب منه ، فهى كقوله : « فإنما عليه ما حمل » وهذا محمل الآيات التى من هذا القبيل ، مثل قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) . (مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ) . (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) وغير ذلك كثير . فمن فهم منها أن وظيفة الرسول مجرد التبليغ ، وليس منها أخذ الناس بصنوف التربية اللائقة بمقتضى الحكمة من شدة ولين وغيرها ، وكل من ذلك فى موضعه ، فقد جهل .

وبعد : فلعلك ترجع الى الآية الكريمة متأملا متدبرا ، لتشهد ما احتوته من معالجة النفاق ، وهو من أشد أمراض النفوس استعصاء ، فترى كيف بدأ بتحليل نفسيتهم ، والتعجب مما يجول فى خواطرهم ، بعد ما بزغت شمس الهداية ، ووضحت أنوار

الآيات البينات التي أنزلها الله على عباده ، ثم أطلعهم وأطلع المؤمنين على حركات نفوسهم متتبعا لها على وجه يساير الخواطر التي تعتريهم ، حتى يخزوا مما اقترفوا ، وحتى يأخذوا من ذلك برهانا قاطعا على أنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ثم لم يدعهم عند تشخيص المرض ، بل أردفه بالدواء ، يحثهم على التزود منه والاستشفاء به ، واعداً لهم بالهداية متى سلكوا طريقه ، مزيحا عنهم ما قد يهجس بنفوسهم من أن للأمر مصلحة ذاتية تعود عليه منهم ، فتدفعه الى الإلحاح عليهم فى أن يهتدوا ويرشدوا ، اللهم إلا ما وعد الله به من كان سببا فى الهداية وتوصيل الرحمة الإلهية لأحد من العالمين ، كما جاء فى الخبر : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » .

نسأل الله تعالى أن يلهمنا الهداية والرشاد ، وأن يوفقنا لطريق الخير والسداد ، إنه سميع مجيب .

ابراهيم الجبالى

التورع عن ولاية المناصب

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الى عدى بن أرطاة : أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجرشى ، فول القضاء أنفذهما . فجمع عدى بينهما ، فقال له إياس : أيها الرجل سل عنى وعن القاسم فقيهى البصرة : الحسن وابن سيرين . وكان القاسم يتردد عليهما وإياس لا يأتيهما ، يريد بذلك أن يشهدا بكفايته ، فيسند عدى القضاء اليه ، ويخلص هو منه .

فأدرك القاسم هذه الحيلة ، فقال لعدى : لا تسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذبا فما ينبغى أن توليني ، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى .

فقال إياس لعدى : إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم ، فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها ، وينجو مما يخاف .

فقال له عدى : أما إذ فهمتها فأنت لها . فاستقضاه .



بسم الله الرحمن الرحيم

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتّقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألاَ وإن لكل ملكٍ حمىً ، ألا وإنّ حمى الله فى أرضه محارمُه ، ألاَ وإنّ فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » رواه البخارى .

إن المرء الذى يجاهد نفسه لا يزال مترددا بين نفس أمارة بالسوء ، نزاعة الى الهوى ، ونفس لوامة على التفريط ، جاذبة الى الخير ، تواقة الى التوفيق . أما النفس المطمئنة الراضية ، فتلك نفس المخلصين الصديقين ، والإنسان مهما قارف مشتهى أو شارف هوى ، انطلق يتلمس لنفسه المعاذير ، ويبحث لها عن مختلف التأويل ، حرصا على أن يجمع لها بين الاستمتاع بما تهوى ، والظفر بالنجاة من البلوى . وكيف لا وهو دائما بين هوى متغلب وعقل يردع ، والعراك بين العقل والهوى لا يفتر ، والمعركة لا تنتهى . وللعقل سلطان ولكنه كثيرا ما يغفو أو يلهو ، والهوى يقظان مترقب للفرص ينتهزها ، والإرادة بينهما كرة بين صوالجة .

وإن أكبر الخطر فى أعوان الهوى يرجع الى التلبيس والتدليس، وتصوير العمل بغير صورته، وفهم الأمر على غير حقيقته. ولقد تجد الكثير من الأعمال جامعا لصفات عدة، كل صفة منها تلحقه بأصل من أصول الخير أو الشر غير ما تلحقه به الصفة الأخرى. وكل امرئ يقرأ من الكتاب الصفحة التى توافق غرضه. وهنا يجئ اختلاف الآراء وتباعد النزعات.

وقلّما يحصل العراك والنزاع بين قوى النفس المختلفة فيما استبان أمره من حلال خالص أو حرام محض. وإنما يجيء هذا التردد، وتنشب تلك المعركة بين القوى النفسية خيرية وشرية، فيما اشتبه من الأعمال، وتردد أمره بين الحرام والحلال. فكان هذا الحديث الشريف نعم المرشد، وأقوى العون على قهر الشيطان، وسد باب الشر عن الإنسان.

والحلال: ما أذن فيه الشارع ولم يمنع منه. والحرام ضده. وقد ذكر الأصوليون أن الحلال يتناول الواجب والمندوب والمباح والمكروه، والحرام خاص بالممنوع المحظور. وقيل: ليس المكروه من الحلال المذكور هنا، بل هو من المشبهات، و «بين» أى ظاهر واضح لا يشتبه فيه.

وقوله: «وبينهما مشبهات» روى بتشديد الباء مفتوحة ومكسورة، أى شبهت بأمرين مختلفين، أو ألحقت نفسها بالأمور المختلفة المتعارضة فى الحل والحرمة. وروى: مشتبهات ومتشابهات، بمعنى مشكلات فى أحكامها، لما فيها من وجوه الشبه بالأمور المتعارضة فتخفى على الكثير من الناس. والمتشابه من الأمور: المختلط النواحى، الذى يتعسر تمييز بعضه من بعض. ومنه قوله تعالى: (إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا) أى اختلط فى صفاته، وأشبه بعضه بعضا، فلا ندرى ما الذى يراد ذبحه منه. ومثله المشتبه.

و «اتقى» من الوقاية وهى الحفظ، أى احتفظ من الوقوع فيها، و «استبرأ لدينه وعرضه» أى طلب البراءة لهما، أى عمل على تحصيلها، وسلك سبيلها. ومعنى ذلك أنه اجتهد فى نقاء دينه وعرضه، وسلامتهما من الثلم والخدش والانتقاص.

وقوله : « ومن وقع فى الشبهات » أى قارفها وانغمس فيها . والوقوع فى الشىء الانغماس فيه والتدهور فى جوانبه ، وهو غير الإلمام البسيط .

وقوله : « كراع يرعى حول الحمى » هو خبر قوله : ومن وقع فى الشبهات . وفى رواية مسلم : « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى » الخ . والحِمَى : المحمى . وأصله أن ملوك العرب كانوا يحمون أماكن من المراعى يحظرون على غيرهم أن يرعى فيها ، وينزلون العقاب بمن يرعى فيه ، فخوطبوا بما يعهدون . على أن الحمى هو المكان المحمى المحتجز عن غير حاميه . ولا يكاد عظيم من ملك أو غيره يخلو من أن يكون له حمى ، فلذا جاء « ألا وإن لكل ملك حمى » توطئة للتشبيه الآتى فى الجملة التالية . ومعنى أن حمى الله محارمه ، أنها هى التى منع الناس أن يرتعوا فيها ، أو يقتحموها .

المعنى :

ومعنى الحديث : أن الشيطان فى إغوائه للانسان لا يكاد يأتى المؤمن من طريق صريح فى العصيان ، فهو يداوره ويراوغه ، ويزين له المبادئ ، مخفيا عنـه ما فيها من المفاسد والشرور . فأمْر الحلال الصرف والحرام الصرف نهج واضح لا يشتبه على المؤمن المراقب لنفسه . ولكن الخوف كل الخوف هو فى أمور يحسبها المرء هينة ، لما فيها من الانتساب الى المباحات التى أحلها الشارع ورخص فيها ، فيهوّن عليه مقارفتها ، ثم يزين له الخوض والاسترسال فيها ، ثم يغريه بالإكثار منها ، حتى يستدرجه بعدها لما هو أشد منها ، فاذا هو راتع فى الحرام منغمس فيه . والأمور يجر بعضها بعضا ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

ولقد نجد بعض الناس يستهين مثلا بشرب بعض الأنبذة التى لا يسكر قليلها ، استنادا الى أن بعض المجتهدين يرى أن غير الخمر لا يحرم منه إلا المقدار المسكر ، وأما ما دونه فلاحرمة فيه ، فيستدرجه ذلك الى الزيادة ، لأنه يرى استطابة هذا الذى شرب منه ، والفصل بين المقدار المسكر وغير المسكر مما يدق ويخفى . فهل ترى بعيدا أن ينزلق

فى هاوية السكر ويتردى فيها وهو لا يشعر ؟ وإنك لترى فى الكثير من أنواع الترف أو اللهو المباح بأصله ، أنه يجر الى هاوية عميقة لا يشعر بها صاحبها إلا بعد أن يتردى فيها .

ومثال هذا من المعاملات مايجرى من بعض الناس من المبايعات الآجلة بأثمان عالية ، ثم يبيعها المشترى بثمن عاجل أقل مما اشترى ، تحايلا على أن يجرى قرضا يجر نفعا ، وهو عين الربا . ولا يجدى فيه أنه عمل صفقتى بيع كل منهما حلال فى ذاته . فمثل هذا إذا قال بعض الفقهاء فيه بالحل ، فغير خاف ما فيه من التوصيل الى الربا الممقوت ، ولو من وراء ذلك الستر الشفاف ، الذى لو فرض فيه أنه أخفى شيئا على الخلائق ، فلا يصح الطمع فى أن يخفى على العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومن ذا الذى يعقل أن الحكيم العليم يحرم على الناس أمرا لما فيه من المفاسد والشرور والمضار ، ثم يفتح له باب الحل من طريق آخر لم تقتلع منه شروره ومفاسده ؟ وعلى فرض أنه ليس بالحرام المحض لأن فيه بيعا على دورين وكل منهما حلال فى ذاته ، فهل يخفى أن الانغماس فيه يجر إلى اختصار الطريق ، والوقوع فى الربا المباشر ، احتقارا لهذه المحاولات والمماحكات التى لا تنطلى على أضعف العقول وأقصر الأفكار ؟ !

نعم : الحلال والحرام كل منهما بيّن واضح لا يلتبس فيه ، وذاك هو ما جاء فى صريح النصوص الشرعية بعمومه أو خصوصه ، كقوله تعالى : (ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ) وكقوله جل شأنه : (وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ) وكقوله عز وجل : (يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ) (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) وهكذا من الآيات الصريحة فى تحريم الحرام وتحليل الحلال. ومثلها الحديث الذى صح عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإنه واجب الطاعة بقوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

وأما ما لم يدخل دخولا صريحا فى النصوص الشرعية، فإن كثيرا منه يتردد وجه الشبه فيه بين ما هو حلال بعمومه، وبين ما هو حرام بعمومه، فيخفى حكمه على كثير من الناس. وخفاؤه على الكثير لا يقتضى خفاءه على الجميع، فقد يدرك حكمه الحقيق من بذل الجهد فى تعرف أغلب الأشباه عليه، فرده الى نصابه، وألحقه بما هو الأشبه به، وحينئذ يتضح حكمه، ويتجلى أمره.

أما ما بقى على اشتباهه فالورع التحرز عنه، والاحتياط لسلامة النفس من العقوبات البعد بها عن مواطن الشبهات. وحسبك منه أن كل ما فيه من خير إنما هو حظ عاجل زائل، من حظوظ هذه الحياة الفانية. ولكن ما يعقبه من شر وويل، سيكون جزاؤه عقابا جسيما، وعذابا أليما، لا سيما إذا تدهور فيه حتى جره الى الوقوع فى المحظور، وارتكاب الحرام البين، كما هو الغالب فى متتبع اللذائذ والشهوات، المنحدر مع الهوى فى أعمق المنحدرات. وقد روى: « اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال ».

وقال بعض السلف : المكروه عقبة بين العبد وبين الحرام ، فمن استكثر من المكروه تطرق الى الحرام ؛ والمباح عقبة بين العبد وبين المكروه ، فمن استكثر منه تطرق الى المكروه . فاللائق بحال المؤمن الحريص على إيفاء حق العبودية ألا يجعل كل همه الانغماس والاسترسال فى الطيبات والملذات ولو مباحة . فأقل ما فى هذا تمكن الشهوات من نفسه ، وغلبة اللذائذ على قلبه ، فيتملكه الطغيان ، ويأخذه البطر ، وتقل منه همة الاشتغال بالنافع ، حتى فى أمور دنياه . ولا تكاد تجد امرءاً حصر همه فى لذائذه ولو مباحة ، وتملكه الرفه والنعيم ، إلا وخارت قواه ، وضعفت همته ، وقلت حميته حتى فى المصالح التى تهمه ، فما بالك بأمر الآخرة ، وهو لا يكاد ينقاد إلا للنفوس اليقظة والأرواح الصافية ، والقلوب النيرة ؟ وهل يستقيم هذا لمن جعل همه فى نعيمه وترفه ؟ ثم هل ينكر أن الانغماس فى هذه مدعاة الى التكالب على الجمع ، والتغالب فى أمر الكسب ، من غير احتياط فيما حل وفيما حرم ، فإذا ما انزلق فى هذا فقد خرّ الى الهاوية ، واستمرأ الغش والظلم ، والكذب فى سبيل إحراز ما يريد من أمر الدنيا ، فغلبته شقوته ، وكان رعيه حول الحمى مزلقة له آلت به الى أن يقع فيه ؟ نسأل الله السلامة فى ديننا ودنيانا .

يقول صلى الله عليه وسلم بعد هذا : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . وهذا من الهداية الى طريق العلاج ، وبيان ما ينبغى المرء أن يرقبه من نفسه ، حتى يصلحه ، فيصلح ما سواه تبعا له . فالقلب سلطان الجوارح ، أو هو مبعث الإرادات ، ومبدأ الميول . ومهما قيل فى أن مركز العقل الدماغ أو القلب ، فلا ينكر أن العواطف والميول ، والاستحسان والاستهجان — وهى مبدأ تكوين الإرادة — تستند الى القلب أقوى استناد ، بل كثير من الخواطر والهواجس كان الانسان يشعر بأنه من وحى القلب وحديثه الخفى ، وبخاصة ما لم يستند الى التفكير والاستنباط ، وهو ما نعرفه بأنه إلقاء فى الروع .

وإن للقلب صلاحا وفسادا بحسب ما يعتاد من الأعمال ، حسنها وقبيحها ، خيرها وشرها ، فان للاعتياد والمران أقوى تأثير فى صلاح القلب وفساده ، فهو - مع أنه صاحب السلطان على الجوارح - تجده عرضة للتأثر بما يجرى عليها ، فيمرُن ويرتاض بكثرة التكرار ، حتى يصير الأمر فيه سجية : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

واعتبر بما تراه من اعتياد الإنسان لبعض الأعمال التى يكرهها فى أول الأمر فلا يزال به التكرار حتى تنقلب الكراهية محبة ، والاشمئزاز ألفة ، بل يصير ما كان مكروها بغيضا ضربة لازب ، يحاول المرء أن يتخلص منه فلا يستطيع . وهل أدل على ذلك من حال شارب التبغ مثلا ؟ إنك لن ترى واحدا يشربه لأول عهده به إلا ويتضرر من رائحته وطعمه ، ولكنه يغريه به المغريات : من حب تقليد ، أومحاكاة من يعتقد فيه العظمة أو الظرف ، فيتجرعه على كره ، ولا يزال يعاوده حتى يخف اشمئزازه منه ، ثم يتدرج الى استطابته ، وإذاهو بعد ذلك قد أصبح ولاغنى له عنه، ولا مفر له منه . أصبح مستطابا مستلذا ، تميل اليه النفس ، بل تراه من ضرورياتها ومقومات حياتها . وهل مصدر الاستطابة والميول إلا القلب ؟ وهل يعتقد أنه بحاجة أو ضرورة اليه إلا القلب ؟ فلو أنه حرص من أول أمره على مراقبة قلبه : فلم يدع العادة السيئة تتحكم فيه ، فتقلب إرادته وميوله الى السيئات، لما تحكم فيه ، وأوحى الى جوارحه مايضره ويبطش بصحته وماله .

فالقلب من الجوارح بمنزلة السلطان الآمر الناهى ، وهى خاضعة له أيما خضوع . فمن شاء أن يصلح جوارحه ويحسن أعماله ، فلينظر من أين يجيئها الفساد ، فيقطع عليه الطريق ، ومن أين يرجى لها الصلاح ، فيصل ما بينها وبينه ، حتى يتم له ما يريد من صلاح حاله وحسن أعماله . وهذا هو القلب ، فهو الذى إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله .

نسأله جل شأنه أن يصلح قلوبنا ، ويحسن أعمالنا ، ويرزقنا سداد الرأى ، وصدق القول ، وثبات اليقين . والله المستعان .

ابراهيم الجبالى

توحيد الالوهية – وتوحيد الربوبية

تفرّق قومنا من غير شيء   فحلّ بقومنا وبنا البلاء

كتبنا في هذا الموضوع في العدد الماضي ، ونكتب فيه اليوم ، ولعلّنا نكتب فيه غدا . وإنما نريد بذلك كله الدفاع عن سماحة الإسلام ، غيرةً عليه من تلك الطائفة التي جعلته حربا لا سلاماً . ولو كان كما زعموا لم يكن دين الرحمة والمحبة والحكمة ، ولا دين الأمم كلها ، بل كان دين الخصام والانقسام ، والنار والدمار ، ولم يصلح إلا لقوم جامدين ، وطائفة مخصوصين .

ولسنا نريد بكل ما نكتب في هذا الموضوع غير ألّا يتنازع المسلمون ، ولا ينقسم بعضهم على بعض ، من أجل أشياء يقع فيها الخلاف ، ويتباين فيها الرأى . فيجب على أولئك المكفرين المسلمين أن يحترموا رأى غيرهم ، ولا نريد منهم أن يتبعوا غيرهم ، بل أن يتركوهم أحرارا كما أنهم أحرار ، وأن يقيموا لأولئك العلماء من أئمة الهدى وزنا ، فلهم منطق سليم ، ونظر مستقيم ، وسلف صالح . وينبغي أن يعرفوا أن كل ما هو محل للنظر وموضع للاجتهاد ، يجب أن لا يتنازع فيه الناس ، فالأمر واسع . فكم اختلف الصحابة والتابعون وتابعوهم ، مع محبة بعضهم بعضا ، حتى قاسم الإمام مالك الإمام الشافعي ماله مرارا ، وقد خالفه في أشياء كثيرة وهو تلميذه . وقد قالوا : إن المنكَر لا يجب إنكاره إلا إذا كان مجمعا على إنكاره . فكيف بالكفر الذي جاء في الحديث الصحيح أن أحدهما يبوء به ؟ ! وكيف بالقتل الذي يستبيحه هؤلاء ؟ !

وقد أنكر صلى الله عليه وسلم على أسامة حين قتل من قال : لا إله إلا الله – تقية في رأى أسامة – ولم يقبل منه ذلك العذر ، ولا رضى منه هذا التأويل . وإني أكرر عجبي

منهم كيف يُلزمون غيرهم باتباعهم وهو ينادى بخطئهم ، ويقيم البرهان من الكتاب والسنة والعقل والنقل على ذلك ؟ وهل هذه إلا رتبة المعصوم الذى يجب على الناس أن يتبعوه ولا يخالفوه ؟ فهل هم معصومون حتى لايجوز أن نخالفهم بحال من الأحوال ؟ ! بل نتنزل قليلا ، ونقول لهم : أفتوجبون علينا التقليد وأنتم تحرمون التقليد ، أم تلزموننا أن نتبعكم ونحن مجتهدون كما أنكم مجتهدون ؟ !

وإنا نسألهم : هل كان الصحابة والتابعون يقسمون التوحيد الى توحيد الألوهية والربوبية ، ويدعون الناس لذلك ؟ الجواب أنه لم يسمع ذلك عن أحد منهم ، فلماذا لا يسعنا ما وسعهم ؟ !

وإن من علامات الراسخين فى العلم أن يحترموا كلام الأئمة ، وما درجت عليه الأمة . أما إمامهم ابن تيمية فلم يسلم منه أحد ، حتى أبو بكر وعمر ، وعلى وفاطمة . ولا يسعنا تفصيل ذلك الآن .

ومن علامات الراسخين فى العلم أيضا أن تراهم ميالين دائما الى اليسر والسهولة ، علما بسماحة الإسلام ، وأنه يسر لا عسر فيه ؛ وعملا بما كان عليه صلى الله عليه وسلم مع المسلمين ؛ وأنهم لا ينكرون إلا ما أجمع على إنكاره ، إلا ما اختلف فيه ، كما كان حال أئمة الهدى بعضهم مع بعض ؛ وأن كل ما كان محلا للاجتهاد والنظر كان الأمر فيه واسعا ، متمسكين فى ذلك بأن المجتهد إذا أخطأ كان له أجر ، وإذا أصاب كان له أجران ، كما فى الصحيح .

ومن علاماتهم أنهم لا يقدسون أنفسهم ، ولا يحتقرون غيرهم ، علما منهم أنهم غير معصومين ولا مقدسين ، فلا يوجبون على غيرهم أن يرجع الى رأيهم ، ولا يفرضون طاعتهم على الناس فرضا ، كما فعل الخوارج فيما مضى ، وكما يفعلون الآن .

ومن علامتهم أنهم يجادلون غيرهم بالتى هى أحسن ، وأن الحق إذا ظهر على يد

غيرهم اتبعوه ، كما هو معروف من سيرة السلف الصالح . أما أرباب الأهواء ، فهم على العكس من ذلك كله ، وإن صاموا وصلوا ، وعملوا من ظواهر العبادات ما يحقر أحدنا صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم .

وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم أنهم يدعون الى كتاب الله وليسوا منه فى شيء ، وأنهم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب[1] بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخل فيه . وكأنه صلى الله عليه وسلم يحذرنا من مخالطتهم ، مخافة أن يسرى الينا داؤهم كما يسرى داء الكلب الذى يسرع انتقاله ويعسر شفاؤه . فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن أمته .

ولا تكاد تجد لواحد منهم شيئا يروقك من علم أو عمل إلا وجدت بجانبه ما يفسده ويربو عليه . وسرّ ذلك أنهم يتبعون الهوى ، فهو معهم حيثما كانوا ، ومن كان تابعا لهواه فلا بد أن يضل عن سبيل الله . وعلامة الإيمان الصحيح ، بل علامة العقل الصحيح ، أن يتهم المرء نفسه ، ويرجع الى ما عليه الأمة المعصومة التى شهد لها صلى الله عليه وسلم أنها لا تجتمع على ضلالة . وأكثر ما نجد هذه النزعة التى لا تحترم إلا عقلها ، ولا تقدس إلا هواها ، ولا تبالى بالتضليل والتكفير — أكثر ما نجدها فى الخوارج الذين هم أضر على الإسلام والمسلمين من كل شيء ، بنص الحديث الصحيح الذى يقول فيه : إنهم شر الخلق والخليقة ، ويقول فى تصلبهم فيما أشربوا من حب الهوى : إنهم لا يعودون الى الإسلام حتى يعود السهم الى فُوقه ، أى مع كون أحدنا يحقر صلاته مع صلاتهم الخ . ولا بدع فى ذلك ، فإن للأحبار والرهبان من التقشف والزهد فى الدنيا والبعد عن زخارفها وأنواع المجاهدات ما لا يتفق لكثير من أفاضل المسلمين ، ومع ذلك لم يغن عنهم شيئا (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) والله يتولى هدى الجميع .

(١) بالتحريك : هو الداء المعروف الذى يصيب الكلاب الكلبة .

وإنى أعجب لتفريقهم بين توحيد الألوهية والربوبية ، وجعل المشركين موحدين توحيد الربوبية مع قوله تعالى : (ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ) ! وهل المراد من الأرباب فى الآية إلا المعبودون [1] ؟ الى آخر ما ذكرناه فى مقالنا السابق من تفنيد تلك الدعوى التى ابتدعوها ، فإننا لم نسمع أن أحدا سمى المشركين موحدين غير ابن تيمية وابن عبد الوهاب .

والخلاصة التى نريدها من ذلك كله : أن الذى يجب على كل من يحتاط لدينه ونفسه هو الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلا ، فإن استباحة دماء المسلمين المصلِّين المقرين بالتوحيد خطأ لا يماثله شىء ، فإن الخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك دم مسلم واحد ، كما قاله حجة الإسلام الغزالى وغيره .

ولابدّ أن ننبه هنا على أن الشرك والكفر لابد أن يكون معقول المعنى . ولا أدرى كيف يكفرون بالاستغاثة ونحوها ، فإن المستغيث إن كان طالبا من الله بكرامة هذا الميت لديه ، فالأمر واضح ، وإن كان طالبا من الولى نفسه ، فإنما يطلب منه على اعتقاد أن الله أعطاه قوة روحانية تشبه قوة الملائكة ، فهو يفعل بها بإذن الله ، فهل فى ذلك تأليه له ؟ ولو فرضنا جدلاً أننا مخطئون فى ذلك ، لم يكن فيه شرك ولا كفر ، بل نكون كمن طلب من المقعد المعونة معتقدا أنه صحيح غير مقعد ، مع أن عمل الأرواح ومواهب الأنبياء والأولياء ثابتة فى الدلائل القطعية ، على الرغم من أنوفهم .

وصفوة القول أننا نقول : هؤلاء المستغيثون يعتقدون أن الله أعطى هؤلاء الأولياء مواهب لم يعطها لغيرهم ، وذلك جائز لا يمكنهم منعه . وهم يقولون : إنهم اعتقدوا

---

(١) فكيف يقولون إن عندهم توحيد الربوبية ! وكذلك قوله : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) وقد قال عدى : إننا لم نتخذ الاحبار والرهبان أربابا فاننا لم نعبدهم . فدل ذلك دلالة صريحة على أن كل معبود رب . وقد أقره صلى الله عليه وسلم على هذا . فماذا ترى ؟

فيهم الألوهية ، مع أن ذلك لا يقول به أحد ، إلا عند من أساء الظن بالمسلمين ظلما وعنادا . ولو فرضنا أن ذلك مشكوك فيه ، فهل يجوز التكفير والقتل بمجرد الشك ؟

فالاستغاثة مبنية عندنا على أن الأنبياء والأولياء أحياء فى قبورهم كالشهداء ، بل أعلى من الشهداء ، ويمكنهم أن يدعوا الله تعالى للمستغيث بهم ، بل يمكنهم أن يعاونوه بأنفسهم كما تعاون الملائكة بنى آدم . وللأرواح تصرف كبير فى البرزخ . وعلى ذلك دلائل كثيرة أطنب فيها ابن القيم ، وهو من أئمة هؤلاء . وأثبت ابن تيمية سماع الأموات وردهم السلام فى فتاويه وغيرها ، مستندا الى الأحاديث الصحيحة فى ذلك ، وذكر سماع سعيد بن المسيب الأذان من قبره صلى الله عليه وسلم أيام الحرة فى كتبه . فإذا استغاث بهم كان كمن يستغيث بالحى سواء بسواء ، لأنهم عندنا أحياء ، بل أعظم نفوذا ، وأوسع تصرفا من الأحياء .

ولو تنزلنا غاية التنزل ، وفرضنا أننا مخطئون فى ذلك ، لم يكن هناك وجه للتكفير . وإنما يقال للمستغيثين : إنكم أخطأتم فى ذلك ، فإنهم ليسو أحياء ولا قادرين ، على ما سبق لنا . فإذاً يكون الخلاف بيننا وبينهم مبنيا على أن الأموات يسمعون ويعقلون ويدعون ، أم هم كالجماد لا يستطيعون شيئا من ذلك ؟ فنحن نقول بالأول ، مستندين فى ذلك الى الكتاب والسنة ، والأخبار المتواترة عن كرامات الأولياء ، ومرائى الصالحين ، وبركات النبى صلى الله عليه وسلم التى حصلت للمستغيثين به ، والاستشفاع به عند زيارته صلى الله عليه وسلم . وقدنصت على ذلك كتب المذاهب الأربعة ، حتى الحنابلة عند ذكر آداب الزيارة له صلى الله عليه وسلم . وهم يقولون بالثانى ، وأن الأموات قد دخلوا فى عالم العدم ، كما يقول الماديون . وعند ما تحرجهم بالبراهين القاطعة يقولون : إنهم أحياء ، ولكنهم مشغولون بالعذاب أو النعيم :

وهـذا كلام خيالى ، ولا نقول خطابى ، فإنه أقل من ذلك . وأكبر ظنى أنهم يقولونه بألسنتهم وليس فى قلوبهم . وليس هـذا محل شرح ذلك ، فإن المتنعم حرٌ

مختار، ولا ينافى نعيمه أنه يدعو الله لأحد المسلمين، بل قد يرى من نعيمه أن يساعد ابنه أو محبه بما يقدر عليه. والدلائل على ذلك متواترة مستفيضة، خصوصا المرائى فى ذلك، كحديث بلال بن الحارث الصحابى رضى الله عنه المذكور عند البيهقى وابن أبى شيبة، وفيه: أنه جاء قبره صلى الله عليه وسلم وقال: يارسول الله استسق لأمتك، أى ادع الله لهم، فجاءه فى المنام وقال: بشر عمر أنهم سيسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس. ورؤيته صلى الله عليه وسلم جعفرا ذا الجناحين يطير مع الملائكة يبشرون أهل بيشة بالمطر. وهو فى المستدرك وغيره بألفاظ مختلفة. وكرؤية أم سلمة للنبى صلى الله عليه وسلم وإخباره إياها بقتل الحسين. وهو فى المسند وغيره.

ويكفى فى ذلك محاجة آدم لموسى عليه السلام، وما رأى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من الحوادث الكثيرة، خصوصا مراجعة موسى فى أمر الصلاة، وكفالة إبراهيم لأطفال المؤمنين. وانظر كيف رأى موسى يصلى فى قبره، ثم رآه فى السماء السادسة وببيت المقدس مع الأنبياء. وأى استبعاد فى ذلك؟ وقد قلنا: إن لهم حالة ملكية لا تقاس على أحوالنا.

وإنك لتعرف أن عزرائيل عليه السلام لا يشغله قبض عن قبض، والقبض لا يشغله عن العبادة طرفة عين. على أن حال البرزخ بخلاف حال الدنيا. وقد قال أبو الطيب المتنبى ما يفيد هذا المعنى وإن لم يكن مما نحن فيه:

وكالبدر من حيث التفتّ رأيته يهدى الى عينيك نورا ثاقبا

(ولكل عالم نواميس تخصه. ومن الغلط البين الحكم على عالم بأحكام عالم آخر). وقد نهى عمر عن رفع الصوت فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونهى الامام مالك المنصورَ عن رفع صوته كذلك. ونهت السيدة عائشة عن دق الوتد بالدور المجاورة للحجرة الشريفة، مخافة أن يتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كانت

تدخل مشدودا عليها إزارها بعد دفن عمر ، حياءً من عمر . الى غير ذلك مما هو معروف في كتب السنن والآثار .

فلو كانوا منقطعين عن هذا العالم تمام الانقطاع على ما يقول هؤلاء ، لم يكن لذلك معنى ، خصوصا ما هو خارج عن المعقول فى العادة ، كعرض الأعمال عليه ، واستغفاره لنا صلى الله عليه وسلم ، ورد السلام على كل من يسلم عليه ، وهو ثابت لامراء فيه . وقد كتبنا فيه فى العام الماضى . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أذية الميت ، وكسر عظمه ، والجلوس على قبره ، مخافة تأذيه . الى غير ذلك ، وهو كثير . ولا يمكننا فى هذه العجالة إلا أن نلمع اليه ، وندل على ما وراءه ، ولا نزال نكرر أنه إذا لم يكن فى هذا إلا ما كان فى حديث المعراج : من أسف سيدنا موسى على بنى إسرائيل ، ومراجعة النبي فى أمر الصلاة ، واجتماع الأنبياء فى بيت المقدس ، وخطبهم ، لكفى .

وقد ذكر ابن القيم فى كتاب الروح حديث مذاكرة الأنبياء فى أمر الساعة ، وأنه إذا جاء عيسى عليه السلام كانت كالحامل المتم [1] فلو كانت الأرواح على ما يقولون لم يكن لهذا معنى . ومع كل هذا نسلم لهم صحة ما يقولون ، ونفرض أننا نحن المخطئون ، فهل يوجب ذلك شركا أو كفرا ؟ وقد قلت لبعض أذكياء العامة فى المولد الحسينى — وقد قال يارسول الله : إن الوهابية يكفرونك بقولك: يا رسول الله ، كما فى الهدية السنية وغيرها ، فقال : إن كنا نقول يا رسول الله على ما نريد ، فلا معنى للكفر ؛ وإن كنا نقوله على ما يريدون من تأليه الرسول ، فنحن كفار . فأعجبنى هذا منه ، فقلت له : وهل يسمعك وأنت هنا وهو بالمدينة ؟ فلم يجب جوابا شافيا .

ونحن نقول : إن هذا الاستبعاد منشؤه قياس الغائب على الشاهد ، وقد عرفنا أن سمع الأجسام لا يصل إلا الى مسافة محدودة ضئيلة ، ولكن هل عرفنا المسافة التى

(١) وقد جاء فى الاحاديث الصحيحة أنهم يحجون ويلبون ، ونسأل الله أن يكفينا شر المتعسفين

يصل اليها سمع الأرواح ، وماذا أعطيت من ذلك ؟ وكيف ندرك أن عمر وهو بالمدينة أسمع سارية وهو بنهاوند من أرض العجم ؟ وأس الغلط فى هذا وأمثاله أننا نعطى أحكام العوالم المختلفة بعضها لبعض ، مع أن لكل عالم أحكاما تخصه ، ونواميس ليست لغيره ، فقياس عالم الأرواح على عالم الأشباح من أفسد الأقيسة وأبطلها . والواقفون عند ما عرفوا من أحكام هذا العالم فحسب ، إنما هم الماديون لا أتباع الرسل (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) .

أما قولكم : إنهم يطلبون مالا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فكلام لا تحقيق فيه ، فهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فإننا نقول أولاً :

هب أن الأمر كذلك ، وقد أخطأ ذلك السائل فظن غير الممكن ممكنا ، وغير المقدور للبشر مقدورا له ، أفيكفر بذلك ، أم يعذر بجهله وخطئه ؟ (وهو لم يعتقد الألوهية على كل حال) .

وثانيا — نقول لكم : إننا لم ندّع أنه يفعل ذلك استقلالا من عند نفسه ، بل نقول : إنه يفعله بإذن الله . وبعبارة أخرى نقول : أعطاه من المواهب ما لا تعقلونه . وهل عرفتم ما يصح أن يعطيه الله عبيده المقربين وما لا يصح ؟ وهل ثبتت عندكم تلك الحدود التى لا يصح لله أن يتجاوزها مع عبيده ؟ وهل كان الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يرتد الطرف مما يقدر عليه البشر فى نظركم ؟ وهل كان رد عين قتادة رضى الله عنه وقد سالت على خده فجاء للنبى صلى الله عليه وسلم فردها اليه فكانت أحسن عينيه ـ مما يقدر عليه البشر فى رأيكم ؟ وهل رؤية عمر بن الخطاب لسارية وجيشه ببلاد العجم مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إسماعه صوته وهو بنهاوند مما يقدر عليه البشر ؟!

وهل قول بنى إسرائيل لموسى عليه السلام : « لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك » مما يقدر عليه البشر ؟ الى غير ذلك ، وهو طويل عريض ، أم الخوارج كلها من هذا

القبيل لا يقدر عليها البشر فى العادة ، ولكنه يقدر عليها بإقدار الله إياه ؟ وهل تقيسون الأرواح على الأشباح ؟ وهل عرفتم نواميسها وما تنتهى اليه ، أم ذلك قياس الغائب على الشاهد كما قلنا ؟ فهو قياس مع الفارق ، بل مع ألف فارق . وهل إذا رأيتم بنى إسرائيل يطلبون من عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص تقولون إن هذا مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتم النبى يضرب جبل أحد ويأمره أن يثبت ولا يتحرك ، تقولون إن ذلك يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتموه يأمر الشجر فيمتثل أمره ، ويخدّ الطريق خدا ، تقولون إن ذلك مما يقدر عليه البشر ؟ وهل إذا رأيتموه وقد نبع الماء من بين أصابعه قلتم إن ذلك مما يقدر عليه البشر ؟ الى غير ذلك مما جاء فى الصحيح ، ولا يمكنكم المكابرة فيه .

على أن لنا أن نقول : إن كل شىء مقدور للبشر بالدعاء ، فما لا يقدر عليه البشر بالذات يستطيعه بالدعاء ، فالفاعل فى الحقيقة هو الله لا غيره ، والذى يستغيث بالنبى مثلا لا يريد منه إلا هذا . وقد عرفنا أنه صلى الله عليه وسلم يستغفر لنا بعد موته ، كما فى الحديث الصحيح : (حياتى خير لكم) الخ . وقد بيّنا صحته بلا مزيد عليه فى العام الماضى . ويمكننا أن نتوسع فى هذا المقام كثيرا ، فسماع الموتى وإدراكهم لاشك فيه لمن يؤمن بالله وما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال السيوطى فى منظومته :

سماع موتى كلام الخلق قاطبة   جاءت به عندنا الآثار فى الكتب

وقد قدمنا أن ابن تيمية نفسه ذكر أن سعيد بن المسيب كان يسمع الأذان والإقامة فى زمن الحرة من قبره صلى الله عليه وسلم . وأما جعلهم هذا عبادة وعبادة غير الله كفر ، فهو من مجازفاتهم الشنيعة ، فإنهم إذا فهموا أن كل تعظيم عبادة ، أو كل طلب عبادة ، فقد برهنوا على جهلهم ، فإنا رأينا إخوة يوسف قد سجدوا ليوسف ، والملائكة قد سجدوا لآدم ، وليس هناك شىء أبلغ فى التعظيم من السجود ، فإذًا

ليس التعظيم شركا لذاته مهما بلغ أمره . ولو كان ذلك وصفا ذاتيا له لوجب ألا يفارقه . فالتعظيم لا يكون عبادة إلا اذا كان معه اعتقاد الربوبية .

وأما الدعاء الذى يتمسكون به ويستدلون عليه بمثل قوله تعالى : (فَلاَ تَدْعُوا مَعَ ٱللهِ أَحَدًا) الى آخر الآيات الكثيرة التى نزلت فى المشركين ، فطبّقوها على المسلمين ، زاعمين أن الدعاء عبادة وعبادة غير الله كفر ، فهو تلبيس لا ينبغى أن يصدر إلا من غاش أو جاهل ، فإن الدعاء مشترك .

فإذا قالوا : إن كل دعاء عبادة ، ردّ عليهم قوله تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) (رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعَائِى إِلاَّ فِرَاراً) (وَٱللهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) الى غير ذلك ، وورد عليهم أنهم يدعون الأمير والوزير ، فهذا دعاء لغير الله ، فيلزمهم على هذا الفرض أن يكون ذلك شركا ، وأن يكون الدعاء فى تلك الآيات بمعنى العبادة ، وهو ما لا يقوله أحد . وإن قالوا : إن الطلب من غير الله كفر ، وهذا هو العبادة ، لزمهم كفر العالم كله . ولا معنى هنا للفرق بين الحى والميت ، كما أوضحناه ، فلا يقول إن مجرد الطلب من غير الله عبادة إلا من لا يدرى ما يقول . وإن قالوا : إن الطلب من الأولياء والأنبياء هو الكفر لا غير ، قلنا : إن هذا هو محل النزاع ، وهذه هى الدعوى التى لم يقم عليها دليل ، بل قام على بطلانها ألف دليل .

وإيراد الآيات النازلة فى حق المشركين العابدين لغير الله لا معنى له ولا غناء فيه ، فهل نظفر منهم بعد ذلك بشىء من الإنصاف ، حتى يرحموا هذه الأمة المسكينة ، فلا يكفروها ولا يستبيحوا دماءها ؟ إنى أشك فى ذلك ، ولا أكاد أتوقعه ، ولكننا نكتب لغيرهم ، خشية أن ينخدعوا بترهاتهم وضلالاتهم .

والخلاصة أن هؤلاء يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بل هم أقل من ذلك، فإنهم يقولون ما لا معنى له ولا مستند فيه، تلبيسا على العوام الذين هم كالأطفال يمكن كل أحد أن يأخذهم الى ما يشاء.

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى ذى الخويصرة التميمى: « إن من ضئضئ هـذا أو فى عقبى هذا — قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدَعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » وفى بعض الروايات: « سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرءون القرآن، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون اليه حتى يعود السهم الى فُوقه، هم شرار الخلق والخليقة، يدعون الى كتاب الله وليسوا منه فى شىء » الحديث. وفى رواية أخرى: سيخرج فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » الحديث.

وعند مسلم من رواية عبد الله بن أبى رافع: يقولون الحق بألسنتهم، لا يجاوز هذا منهم. وأشار الى حلقه. وفى رواية عنده أيضا: « سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم مالم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم » ورواه بلفظ آخر فقال: « يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم » وجاء فى وصفهم كما فى بعض الروايات عند أبى داود وغيره: أنهم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى فيه عرق ولا مفصل إلا دخل فيه. الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى وردت فيهم.

فجزى الله نبينا أفضل ما جازى نبيا عن أمته . لقد بلغ ونصح ، وأدى الأمانة حتى تركنا على الحنيفية البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . وهذه الفرق الضالة لا يزال يتجدد شرها ، ويتفاقم أمرها الى يوم القيامة . ففى بعض الروايات أنه سيكون آخرهم مع الدجال ، وهم ميئوس منهم ، لحديث البخارى أنهم يمرقون من الدين ثم لا يعودون فيه .

وبعد : فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .

وكل ما يقوله الكذوب يزول بالتحقيق بل يذوب

ولنقتصر على هذا ، ففيه مقنع وكفاية .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

أن من البيان لسحرا

كان عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر عالما جليلا ، وخطيبا مفوها ، وشاعرا مجيدا . كتب الى بعض إخوانه :

أما بعد : فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء ، من غير جريرة ، فأطمعنى أولك فى إخائك ، وأيأسنى آخرك عن وفائك ، فلا أنا فى غير الرجاء مجمع لك أطراحا ، ولا أنا فى عدم انتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

متى يستيقظ المسلمون لدينهم؟

لقد استحوذ الجمود على المسلمين ، واستكانوا للراحة ، وشملهم الكسل ، حتى تقدمت الأمم وتأخروا ، واستيقظ الناس وناموا . تركوا كل طريق نافع من طرق العلم والعمل ، بينا أصغر الأمم قد نهضت تبحث فى شئونها وما يرقيها علميا وعمليا ، حتى تتخذ لها مكانا بين الأمم الحية .

غير أن أحدا لم يكن يظن أن تصل الحال بالمسلمين الى الغفلة عن دينهم ، وهو الداعى الى الحق ، والموصل للسعادة . ولكن للأسف الشديد غفل المسلم عن دينه ، وعن الاسترشاد بتعاليمه ، وهذا هو علة تأخره وتقدم غيره .

ترك المسلم الأخذ بآداب الإسلام ، حتى أصبح بعيدا عنها ، وأجنبيا منها . نسى المسلم قواعد دينه واستهان بها ، ولو أنه تمسك بما دعا إليه الدين من خلق حسن ، وتباعد عما نهى عنه من خلق قبيح ، لما كانت تلك حاله ، ولما تقدم الناس وتأخر !

سها المسلم عن تعاليم دينه فجهلها ، وظن لجهله أن الخير كل الخير فى تقليد الأجنبى فقلده ، وليته قلده فى أخلاقه الحسنة ، وفى تمسكه بعاداته وقوميته ، ومحافظته على دينه وآدابه ، ولكنه قلده فى الضار دون النافع ، وفى القبيح دون الحسن .

بهرته بهارج المدنية ، واستولت على نفسه ، حتى ظن أن المدنية فى عدم التدين ، ولوتدبر ، لعلم أن المدنية لا تسمو الا بالدين ، وأن الفخر والجاه والمروءة ، اذا لم تعتصم بالدين فهى هباء ، غالى بعضهم فى ذلك حتى ساءت حاله ، وكان من أثر ذلك أن وهت قوة الدين فى نفوس البعض من الناس ، حتى وصل الأمر الى أسوأ الأحوال ،

وأصبحوا — إلا الخاصة منهم — فى غيابة من الجهل بدينهم ، ساهين لاهين عن تعلمه ، وعن الأخذ بأوامره ، حتى ضرب الجهل بجرانه فيهم ، وأخذهم من كل مكان . فالأغنياء منهم يقذفون بأولادهم فى بعض مدارس التبشير ، ويتذرعون فى ذلك بأن معاهد التربية فى القطر تعلم البيئة التى لا تتناسب وأوساطهم ، والمتوسطون من الناس يقلدونهم فى ذلك ، والجميع غافلون عما نجم وينجم من هذا الشقاء المستور بثوب السعادة ظاهرا ، وما هو إلا تعاسة وبؤس ، وغم وهم ، وبلاء وشقاء ، فإن الناشئة هم رجال ونساء المستقبل ، فإذا نبتوا على الجهل بالدين ، وعدم المعرفة به ، ضاعت أخلاقهم ، ولا أمة دون خلق ، (وإنما الأمم الأخلاق) .

غفلوا عن هـذا وجهلوا أو تجاهلوا ما ينشأ عليه الطالب فى هـذه المدارس ، وما يتلقاه فيها من بعض التعاليم التى تنافى دينه وتبعـده عنه ، حتى ساءت العقبى ، وأصبح حديث الدين بين بعض أبناء الأمة وبناتها ، حديثا ثقيلا على الأسماع ، يعرضون عنه ولا يستمعون اليه . والويل لمن دعا الى أمر دينى ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر . الويل له ، لأنه فى نظرهم الفاسد جامد بعيد عن (اللياقة) وعن الذوق ، جامد يتكلم بالشىء العتيق ، ويدعو الى الشىء البالى القديم !

ينشأ الطالب فى بعض هـذه المعاهد ، على جهل بدينه ، لأنه لا يتلقى تعاليمه ، ولا يستمع لنصائحه وإرشاداته . وأصحاب هذه المدارس لا يراعون كرم الضيافة ، فيقسرون الطلبة على الإتيان ببعض العبادات فى غير دين الإسلام ، وهى من غير شك تبعدهم عن دينهم . ويتلون عليهم المطاعن فى دينهم ، وفى رسولهم عليه الصلاة والسلام ، وهم لعدم معرفتهم بأصول دينهم وما عليه رسولهم ، لا يبالون بهذا ، ولا يمتنعون عن سماعه ، ولا يعترض آباؤهم عليه ، إما لجهلهم ، أو لأن الاعتراض لا يجديهم ، لأن المدرسـة حين البحث تجحد .

يتلقى الطالب فى هذه المدارس تعاليم الكنيسة ، وتعاليم « متى » أو « يوحنا » ولا يعلم من تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا ، لأنه تعلم الأول دون الثانى .

ولو فقه هؤلاء الذين يرسلون أولادهم لما ينشأ عن صنيعهم من المفاسد ، لما أباحوا لأنفسهم إرسال أولادهم الى هذه المعاهد بحال . ولكن ما الحيلة والكثير من بعض الطبقات أصبح بعيدا عن العلم بالدين ، جاهلا بتعاليمه ، ومن جهل شيئا عاداه ؟! ولو أن هؤلاء الذين يرسلون أولادهم التفتوا لما عليه حال غير المسلمين من تمسك بالدين ، وقارنوا بين حال الكنائس وحال المساجد ، لقضت عليهم مروءتهم ونخوتهم بالابتعاد عن هذا الصنيع السىء .

لو تأمل المسلم فى شأن غيره ، فهو لا شك عالم بعد قليل من النظر أن تسليم أبنائه لهذه المعاهد لا نتيجة له إلا أن يكونوا غير متدينين بالدين الإسلامى . ولو نظر فى الناشئة لعلم أن روح الدين قد فقدت منها ، فلا عبادة لله ، ولا حياء من الناس .

انظر الى شبابنا فى الطرقات ، فى المشارب ، فى الملاهى ، فى المقاهى ، تجدهم مكدسين يتزاحمون بالمناكب . وانظر الى محلات العبادة ، وهى المساجد ، فإنك لا تكاد تظفر إلا بالطفيف من هذه الجموع الحاشدة ، وما سبب ذلك إلا الاستهانة بالدين ، لأنهم لم يتعلموه ، فلم يتمكن فى نفوسهم . انظر إلى الشابات فى أكثر المحلات العمومية ، تجد البهرجة والزينة التى لا يحلها دين ، ولا تسمح بها مروءة ، وكل هذا من فقد العامل الدينى فى النفوس !

إن هذا الفساد العام لاسبب له إلا جهل غالب الآباء والأمهات بالدين ، فالمنزل — وهو المدرسة الأولى — خلو من الإرشادات الدينية ، ومن تاريخ النبوة ، وما قام به السلف الصالح من فضائل الأعمال . فالطالب يعلم من تاريخ « نابليون » الكثير ولا يعلم من تاريخ الرسول إلا القليل . والطالب يعلم من تاريخ « لوثر » وغيره من رجال أوربا

الشيء الكثير ، ويجهل الجهل كله فضلاء الرجال من المسلمين . فعمر وفتوحاته ، وعلى وقفازه ، وعمرو بن العاص وما كان عليه من سياسة ، والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من كبار الرجال مجهولون لدى أبنائنا ، ولدى الكثير من آبائهم .

سل ولدك أو أخاك الصغير عن العبادات ، وأنا واثق من أنك لا تجد جوابا ، إذ لا جواب لمن لا يعلم . سل ابنتك التى تذهب الى مدرسة الأمريكان مثلا عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وعن السيدة مريم ، تلقها عالمة بالثانية دون الأولى . ادع من شئت من الناشئة الى القيام بأمر من أمور الدين كالصوم مثلا أو الزكاة ، وانظر بعد هذا ماذا يكون الجواب . أنا واثق بأنك لا تجد سميعا لنصحك ، ولا مجيبا لندائك !

نشأ كل هـذا من تكوين الناشئة على عدم المعرفة بالدين ، وعدم تعليمهم حتى أصول العقائد ، ومن زجهم الى معاهد تعلمهم تعليما يبعـد بهم عن الرشد ، ويدعوهم الى الغى . هل كنت تسمع أو تظن أنك تسمع أن مسلما يغير دينه ويبتعد عن طريق الحق الى غيره ، لو لا ما نحن فيه من هجران للدين ، وجهل بوصاياه وما دعا إليه ؟ هل كان يدخل فى روعك أن مسلما حقا ومؤمنا صدقا يهجر دينه ويتمسك بدين سـواه لو أننا أرشدنا الناشئة وغير الناشئة الى أصول الدين ومحاسنه ؟ وهل كان يكون من الممكن أن نسمع ما نسمع الآن من أن ابنة زيد تنصّرت وأن ابن عمرو خرج الى دين غير دين الإسلام لحاجة كلٍّ الى المال ؟ !

لو كان المسلمون معتصمين بدينهم آخذين بقواعده ، أ كان أحد يتوهم حصول هذا ؟ لو قام المسلمون بما أمرهم به الله من زكاة فى المال : يواسون به الفقير ، ويسدون به خلة المحتاج ، ويكفون إخوانهم سؤال الغير والذهاب اليه ، أ كان يدخل فى الوهم أن مسلما يغير دينه للمال ؟

لو أن المسلمين تواصوا بينهم بالحق ، فأعان أقوياؤهم ضعفاءهم كما أمرهم الدين ،

أ كان يدخل فى الوهم أن يستحوذ مغرر مهما كانت صنوف تغريره على مسلم، فيجعله يبدل دينه ؟

لو أن غالبية المسلمين تعلمت الدين وعلمته أبناءها، وتعلمت وعلمت أبناءها أوامر الحنيفية السمحة، وما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من خلق وشيم وآداب وسجايا لا يسمو اليها فرد فى الوجود من الممكنات، أ كان يكون الحال ما ترى أو بعض ما ترى ؟

لو استرشد المسلمون بحكمة دينهم واستيقنوا الإيمان وعلموا من شأن المسلمين مالم يعلموه، أ كان يكون تلك حال المسلمين ؟ لو تذوقوا حلاوة الايمان واستعذبوه، ووقفوا على ما لاقاه المسلمون فى سبيل المحافظة على الدين من الشدائد، هل كان يبدل المسلم دينه، إذا علم أن دينه يدعو الى الخير والى الاعتماد على الله دون سواه، وأن الله هو الذى يرزق الناس، وقد كفل الرزق لعباده (وأن التفاوت فى الأرزاق من السنن الكونية) وأن على الشخص أن يجدّ فى طلب الرزق، وأن يعمل وأن يعتمد على نفسه بعد الله، حتى لا يكون عاطلا عالة على غيره يتكفف الناس ؟

هل كان يبدل المسلم دينه لو عنى المسلمون بشئونهم كبيرها وصغيرها، فأنفقوا أموالهم ابتغاء رضوان الله، ففتحوا الملاجئ، وأنشئوا التكايا، وبنوا المدارس وحبسوا عليها شيئا من تلك الأموال المتضخمة فى المصارف، والتى يصرف أغلبها فى سبيل الهوى والملاهى، التى لا تعود بفائدة على الشخص ولا على الأمة ؟

هل كان المسلم يفكر فى تغيير دينه ولو ظاهرا، إذا وجد من الخاصة من يرشده الى الطريق القويم والصراط المستقيم، فيعلمه أن دينه هو الدين الحق، وأن مايدعى اليه هو الباطل، وأن دينه يدعو الى التوجه نحو إله واحد، مستقل بالخلق والرزق، والإشقاء والإسعاد، وأنه برىء من الإشراك، فلا أحد سواه بخالق، ولا أحد غيره برازق، وأن

الرسول عليه الصلاة والسلام هو المرشد الأعظم ، وهو خاتم الرسل والأنبياء ، جاء بشرع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . جاء بمكارم الأخلاق ، حاضاً على الفضيلة ، ناهيا عن الرذيلة ، داعيا الى التعاون ، ناهيا عن التخاذل ؟ ! وهل كان المسلم يغير دينه ولو ظاهرا ، لو أن المسلمين لم يتنوا كلوا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقاموا بتلك الفريضة ولو لاقوا فى سبيلها الأهوال ؟

لو عنى المسلمون بواجب الأمر بالمعروف وقاموا بالدعوة الى الرشد والنهى عن الغى مثل ما قام سلفهم الصالح ، لكانت الحال غير الحال . ولكن وا أسفاه علينا ! فإن كثيرا من الناس قد بعد عن تعلم الدين كما قلنا . وارتكسوا فى الجهل به ارتكاسا هو أشبه بالجاهلية الأولى .

فواجبنا الآن هو الدعوة الى الاسترشاد بالدين حتى يفىء الناس الى الشرع ، ويثوبوا الى أحكامه . وحسبنا التمادى فى الترك ، فقد بانت المغبة ، وظهر ظهور الشمس أن ترك فضيلة الأمر بالمعروف أوجب ما نحن فيه الآن وما نشكو منه .

وحبذا لو أن الحكومة السنية ضاعفت عدد الوعاظ حتى يكثر عددهم فى المدن والقرى ! فنحن الآن أحوج ما نكون الى هذا ، لأن العدو ليس على الباب فحسب بل فى وسط الصفوف ، فإن لم يتدارك المسلمون الأمر كان الخطب مدلهماً . فلنكثر من الوعاظ الدينيين . وليرشد كل منهم ما أمكنه الى العمل بالحق ، وقول الصدق ، وتبيان أصول الدين ومحاسنه ، ومزاياه وفضائله .

ولنعمد جميعا الى الدعوة الى الدين كما كان يدعو السلف الصالح . ندعو الى ما كان عليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من حسن الشيم وعظيم المكارم ، ونبيّن أن من أعماله أنه قام بالدعوة وحده ، حتى ملأ الكون نوراً ، وعمت هدايته الخلق فى المشارق والمغارب . نعلّمهم أن ذلك المبعوث الأعظم لم يترك فضيلة إلا دعا إليها ، ولا رذيلة

إلا نهى عنها ، وأن من اتبع دينه وأخذ بما دعا إليه كان له الفوز الأعظم ، ومن نأى وأعرض باء بالخسران المبين . نعلمهم ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من صدق فى العزيمة وإخلاص فى العمل . نعلمهم أن الصحابة رضوان الله عليهم قد نالوا فى سبيل المحافظة على الدين ما لا قبل لهم به ، وأن الرجل منهم كان يُضرب ويعذب ويلقى فى الرمضاء وقت الظهيرة ليقول كلمة الكفر فلم يقلها ، وأن البعض منهم مات من شدة العذاب ولم يظفر منه أعداء الدين بمنال ، وأن البعض ترك وطنه الى وطن آخر فى سبيل تلك المحافظة على الدين .

نعلمهم أن عزة الدين كعزة النفس بل أقوى ، فكما يجب على الشخص المحافظة على النفس ، كذلك يجب عليه المحافظة على الدين والذب عنه . نعلمهم أن المال عرض زائل ، وأن الدين هو الباقى ، وأن المرء بدينه ومروءته لا بماله ونشبه ، وأن من فقد دينه فقد فقد ثروته ونفسه ، وكان شخصا عاطلا من كل فضيلة ، لا ينفع أحدا ولا ينتفع به أحد . نعلمهم أن الدين أساس الفضائل ، وأن الدين وحده كان السبب فى العظمة والمجد لأسلافنا ، وأن أبا بكر رضى الله عنه أنفق ماله فى نصرة الدين ، وعثمان ابن عفان لم يأل جهدا فى نيل الفضيلة بصرف ماله فى سبيل الدين ، وأن السيدة خديجة رضى الله عنها صرفت كثيرا من مالها فى سبيل الدين وحفظ أصحابه، وأن الصحابة رضوان الله عليهم لم ينالوا ما نالوه من سؤدد ورفعة يتحدث بها الناس جميعا إلا بالدين، وتمسكهم بإرشاده وتعليمه ، فقد فتحوا الفتوح وعمروا الممالك بفضل تمسكهم بدينهم الذى هو عماد كل خير ، وأن الدين ليس سلعة تباع وتشترى ، وإنما الدين يقين بالله وإذعان له ، وهو أساس الفضيلة .

نرشدهم الى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أعظم الناس جاها، وكان أعظم الناس منزلة وكان أعظم الناس خلقا . ولم يكن يعنى بالمال، ولا كان فى نشأته كثير المال، ولم يحتفظ بعد

بعثته صلى الله عليه وسلم بمال، ولم يجد المال سبيلا الى نفسه الشريفة . وكذلك كان أصحابه : لا يعنون إلا بالفضائل ، ولم تجد المادة اليهم سبيلا ، وقد عظم شأنهم ، وحسن حالهم ، وقد أتاهم المال بكثرة بفضل الدين والعلم ، والخلق والعمل الصالح . فما كان المال وحده بالذى يكسب مجدا ويكفى لربح فضيلة . وإن من العار الذى لا يماثله عار أن يفكر المسلم فى المال قبل الدين ، أو يفرط فى بعض فرائض الدين للمال ، ومن الخسران الذى لا يشبهه خسران أن يترك المرء دينه للمال لأن ذلك وأد للفضيلة .

فمن هذا الذى سفه نفسه ورضى بخسران الدنيا والآخرة من أجل المال ؟ ! وإن الذى يزايل دينه للمال لا دين له ، ولا ينبغى لمن ذهب إليهم أن يسروا به ولا أن يفرحوا من أجله ، لأنه تاجر أديان ، فأى شخص أعطاه مالا أكثر كان معه ، فهو عبد المال أين سار وأين أقام ، فلا خير يرجى منه ، ولا فضل يعرفه ، بل هو سلعة تباع فى الأسواق . فمن بذل فيها عطاء أكثر كان له حق الاستيلاء عليها .

نعلّم المسلمين آباءً وأبناءً ماحاز المسلمون الأولون من الفضائل ، وما ورثوا من مجد بفضل الدين . نعلمهم أن العزة لله ولدين الله ، لا للمال ولا للنوال ، وأن الإنسان الفاضل بدينه وخلقه يواتيه الله بالمال من حيث يدرى ولا يدرى ، بل إن الإنسان بدينه وخلقه يميزه الله على غيره ، ويجعل له السلطان عليهم . وهاهم أولاء صحابة رسول الله لم يكونوا من أصحاب الأموال ، وقد أفاء الله عليهم المال ، وأغدق عليهم الرزق والعطاء ، وملكهم الأراضى والدور ، وجعلهم الحكام على الناس ، فكان منهم مع فقرهم فى المال أمراء الجند وقواد الجيوش ، وكان منهم مع هذا الأمراء والوزراء ، ومنهم القضاة والرؤساء ومنهم ومنهم ... الى ما لا قبل للعدد بحصره ، وكل ذلك بفضل دينهم وتمسكهم به ، وجعل المال عرضا غير مقصود . نرشدهم الى ذلك ، ونسرد عليهم من سير الصحابة والتابعين ما فيه مزدجر لقوم لا يعقلون ، فضلا عن مسلمين يسترشدون .

نرشدهم الى أن المسلم الحق هـو الذى يؤمن بربه إيمـانا صادقا ، ويذعن بأن الله واجب الوجود يجب له كل كمال ، وأن من الـكمال الواجب لذاته ألا يكون له شريك ، وألا يكون له ولد ولا صاحبة ، وأنه يتنزه عن أن يحل فى جسد ، أو يتصل اتصالا جسمانيا بمخلوق مهما علت منزلته ، وأن الأنبياء والمرسلين كلهم عبيده ، وكلهم نشأ بقدرته ، ومحتاج فى وجوده وبقائه اليه . فعيسى مثل موسى وغيره : عبد من عباد الرحمن ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأنه كغيره من بقية الرسل ليس له من الأمر شىء ، وأنه وكل المخلوقات كلهم مفتقر الى الله فى وجوده وبقائه ، وكل ما أظهره الله على يديه من معجزات فهو بإذن الله وإرادته وقدرته ، وأنه لا يقدر على الإتيان بأى واحدة منها لولا تأييد الله له ، وأن من السخف الذى لا يقبله العقل أنه ابن لله ، فلا أبوة ولا بنوة ، لأن كل ذلك نقص يستحيل على الله ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه وتعالى عما يشركون ، له الخلق والأمر تعالى عما يظنون .

نرشدهم الى أنه لا معبود بحق سوى الله ، وأنه تعالى الذى تجب عبادته دون غيره ، وأن اتخاذ معبود سواه شرك ، إذ لا تأثير لغيره ، فالعذراء والمسيح عبدان من عباده ، لا ميزة لهما فى العبودية عن غيرهما ، وإن كان الله قد منّ على المسيح بالرسالة ، وعلى والدته بالهداية ، وأن من المحال الذى لا يقبله عقلٌ اعتقاد الألوهية فيمن هو محتاج الى غيره ، محتاج كغيره للطعام والشراب ، وهو ينام حيث ينام الناس ، ويصح ويمرض ، ولا يستطيع دفع الضر عن نفسه ، وهو فى ذاته غير باق ، بل يفنى ويهلك ، وقد وجد بعد أن كان معدوما ، وكان بعد أن لم يكن ، وكل هذه صفات تنافى الألوهية ، إذ كيف يكون إلهاً من لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه ، ومن إذا منع عنه الطعام عدة أيام هلك ؟ وكيف يكون إلهاً من يحله العدم ويسبقه العدم ؟ وكيف يكون إلها من لا يعرف ماذا يراد به ؟

إذا عرف المسلم هذا على البساطة لا يكاد يفهم ألوهية لغير الله، ولا يمكنه إجابة داع يدعوه الى غير التوحيد. وإذا عرف المسلم ما كان من أمر الرسالة والدعوة، وما كان من شأن المسلمين حين البعثة، وإجابتهم داعي الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث دعاهم الى ما يحييهم، وعرفوا أن الخروج من الدين يستوجب الهلاك فى الدنيا والآخرة: أما فى الآخرة فالخلود فى النار، وأما فى الدنيا فخروج عن الإنسانية، والبواء بالخسران العظيم، وأن الخارج عن دينه يصبح فاقد الأهلية فى كثير من التصرفات، ويترتب على خروجه من دينه أن تبين امرأته منه، وإن عاشرها بعد ذلك فأولاده منها غير ثابتى النسب، وأنه مع هذا يجلب السبة والعار لنفسه وعائلته وقريته.

إذا أنشأنا النشء على معرفة محاسن الإسلام ومزاياه، وأفهمنا العامة ما يجب عليهم لله، وجعلناهم يدركون الحق بأسلوب بسيط لا عوج فيه ولا تعقيد، وأيقظنا فيهم وازع الدين، وسلكنا بهم طريق الحكمة، وأوضحنا لهم ما فى عقيدة الإسلام من معارف وما فيها من حكم، وما اشتملت عليه من أنواع الفضائل، لاستيقظ المسلمون لدينهم، وأمِنَّا على الكبير منهم والصغير، ولما استطاع مغرور جاهل من تجار الأديان أن يؤثر فيهم، لأنهم يستطيعون أن يردوا شبه زيغه، وأن يكبحوا جماحه بالحجة بفضل ما علموا.

لو رشدنا وأرشدنا لكان لنا من حسن إيمان المؤمنين وصدق إسلام المسلمين ما يجعلنا فى مأمن من المحن، وأمان من الإحن، ولباء تجار الأديان بالفشل. بل لو سار المسلمون على الصراط السوى الذى دعانا اليه الرسول صلى الله عليه وسلم، لقلت أو عدمت الجرائم، وأمن الناس على أنفسهم وأديانهم، وأموالهم وأعراضهم، ولما استطاع إنسان أيا كان أن يطلب الى أحد من الدهماء تغيير دينه أو تبديل عقيدته، بل لما وسعه المقام بينهم، لأنهم بالعلم بما دعا اليه الرسول يعلمون أن الدين عند الله الإسلام، وأنه لم يدع فضيلة من الفضائل ولا خلقا كريما إلا ودعا اليه ونهى عن ضده. يعلمون أن من اتبع أوامره كان من الناجحين، وأن من حاد كان من الهالكين. وفقنا الله جميعا لما يحب ويرضى؟

طه حبيب

علة اعراض الشبان

عن الزواج وعلاجها

في الشعوب من يهضم حقوق الزوجة ، ويقسو في عشرتها ؛ وفيهم من تكون إرادته تابعة لإرادتها ، ورأيه ملغى أمام رأيها . وقلّما أخلصت المرأة لمن يهضم حقوقها ويسيء عشرتها . وقلما طاب للرجل عيش مع زوجة تكون كلمتها فوق كلمته . وقلما اغتبط بولد تضعه من لا تحترمه في حضوره فضلا عن غيبته .

أما الإسلام فكان بين ذلك قواما : أنقذ المرأة من أيدي الفريق الذين يزدرون مكانها ، وتأخذهم الجفوة في معاشرتها ، فقرّر لها من الحقوق ما يكفل راحتها ، وينبّه على رفعة منزلتها ؛ ثم جعل للرجل حق رعايتها ، وإقامة سياج بينها وبين ما يخدش كرامتها . ومن الشاهد على هذا قوله تعالى : (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) فجعلت الآية للمرأة من الحقوق مثل ما للرجل . وإذا كان أمر الأسرة لا يستقيم إلا برئيس يدبره ، فأحقهم بالرياسة هو الرجل ، الذي شأنه الإنفاق عليها ، والقدرة على دفاع الأذى عن ساحتها . وهذا ما استحق به الدرجة المومأ إليها في قوله تعالى : (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) .

فالإسلام أصلح الصلة بين الرجل والمرأة ، وجعلها بمأمن من أن يلحقها وهن ، أو يعلق بها كدر . وبعد أن أحكم صلة الزواج ، وهذّب حواشيها ، حث على الزواج ، وجعله من سننه التي يعدّ تاركها من غير عذر ، مستخفاً بما أمر الله .

وإذا نظرت الى أن حكمة الله تعالى قد اقتضت بقاء النسل ، لإقامة الشرائع ، وعمران الكون ، وإصلاح الأرض ، وأن النسل الصالح لا يبقى إلا بالزواج ، رأيت

كيف كان الزواج وسيلة الى تحقيق أمور عظيمة أحبّ الله أن تكون ، وحبّب للناس القيام عليها .

وإن كنتَ من علماء الأخلاق ، ونظرت الى أن هناك فضيلة يقال لها العفاف ، وعرفت أن الزواج مما يعين على التحلي بهذه الفضيلة ، ظهر لك أن الزواج وسيلة من وسائل الفضائل ، وكثيرا ما تأخذ الوسائل حكم المقاصد فى نظر الشارع ، وفى عرف الناس .

وإذا نظرت الى النساء (الجنس اللطيف) وما فطرن عليه من الضعف وعدم إطاقة الأعمال الشاقة ، شهدت فيهن العجز على أن يهيئن لأنفسهن مرافق الحياة ، ويعشن فى شىء من الراحة . والزواج يصل ضعفهن بقوة ، ويسوق اليهن جانبا من الهناءة . ولو قصد الرجل كفاية المرأة ما يعنيها من مطالب الحياة ، لقصد لعمل يكسبه شكورا ، وتزداد به صحيفة حياته نورا .

أوليس الزواج يكسب الرجل رفيقة تخلص له ودّها ، وتشمل منزله برعايتها ؟ ومثل هذه الرفيقة التى تحمل حبه الطاهر ، وتعمل لتدبير منزله فى غير منٍّ ولا تباطؤ لا تتمثل إلا فيمن تربطه بها صلة الزواج .

وليس الزواج صلة مقصورة على الزوجين فحسب ، بل تمتد هذه الصلة من الزوجين الى أسرتيهما ، فتكون حلقة واسعة فى سلسلة اتحاد الأمة . وللصلات الخاصة ، كالقرابة والصِّهر أثر فى التناصر كبير .

والزواج يكسب الرجل ولدا إن يحسن تربيته ، كان له قرة عين فى حياته ، وذِكرا طيبا بعد وفاته . ومن ذا ينكر أن الولد المهذب من أجلّ النعم فى هذه الحياة ؟

فللزواج مصالح تكثر بكثرته ، وتقلّ بقلته ، وتفقد بفقده . وقد عرفت قيمة هذه المصالح ، ومكانها فى إعلاء الدين ، وبسط أجنحة العمران ، وتخفيف متاعب الحياة .

ويكفى الإعراضَ عن الزواج شرا أنه علة خراب الديار ، واليد القابضة لروح العفاف ، والوسيلة الى ابتذال فتياتنا وعيشهن فى تعب أو فى غير صيانة . فمن واجب من يغارون على الفضيلة ، أو على عمارة الأوطان ، أو على الفتيات المصونات ، أن يعملوا للتعاون على مكافحة هذا الوباء المتفشى فى البلاد ، وهو انصراف شبابنا عن الزواج .

الزواج صلة بين الرجل والمرأة ، تسوق اليه الفطر السليمة ، وتدعو اليه الشرائع الحكيمة . وما زالت نفوس البشر تنساق فيه مع الفطرة ، وتجيب به داعى الحكمة ، إلا نفوسا لم تسلم فطرتها ، أو عميت عن حكمة خالقها . وقد كانت هذه النفوس المعرضة عن الزواج لعدم سلامة الفطرة ، أو لجهلها بما فى الزواج من حكمة ، مغمورة بالنفوس الآخذة بسنته ، العاملة على تحقيق حكمته ، فلم يشعر الناس بالنقص أو الفساد الذى دخل فى المجتمع من ناحية أولئك المعرضين عن الزواج .

أما اليوم ، فقد أصبح انصراف شبابنا عن الزواج فى ازدياد ، حتى ظهر فى مظهرٍ ينذرنا سوء المنقلب ، وما بعد هذا المنقلب إلا الانقراض . فحرام علينا أن نقف أمام هذا الخطر الداهم صامتين . وحقيق علينا أن نبحث عن العلل التى أصبحت بها قلة الزواج ظاهرة ظهور المرئى بالعين الباصرة . وعلينا بعد البحث عن هذه العلل النظرُ فى طريق معالجتها ، لعلّنا نقطعها من منبتها ، وننقذ فتياتنا ، ونحفظ أمتنا ، ونطهر أوطاننا من خبائث لا تظهر إلا من إعراض الفتيان عن الزواج .

وإذا بحثنا عما يصح أن يكون سببا لهذه الأزمة الاجتماعية ، وجدناه يرجع الى علل مختلفة .

وأظهر هذه العلل تبرُّج كثير من الفتيات تبرج من استولى عليهن الهوى ، ونضب من وجوههن ماء الحياء ، حتى استوى فى هذا التبرج المقوت بعض الناشئات

في بيوت غير فاضلة ، وبعض المترددات على مدارس لا تعنى بتلقين الفضيلة ، ولا يؤلمها أن تذهب الفتاة في الخلاعة الى غاية قصوى .

وهذا المظهر الذى ظهر به كثير من فتياتنا اليوم ، قد جعل الشاب يحجم عن الزواج مخافة أن ينساق الى قرينة تستخف بجانب الصيانة ، كما تستخف به هؤلاء السافرات المتهتكات .

وليس هذا الخوف بحق ، فإن البيوت المحتفظة بالحشمة ، الآخذة بأدب الصيانة غير قليلة ، يهتدى اليها كل من يبتغى الحياة الطاهرة ، ولا سيما فتى لا يعنيه من الفتاة إلا أن يرتاح قلبه إذا نظر اليها ، ويأمن على عرضه إن غاب عنها .

وإذا أردنا معالجة هذا التبرج الذى أوجس منه الشبان خيفة ، فإن تبعته تعود الى أولياء هؤلاء المتبرجات ، إذ لم يأخذوا في تربيتهن بالحزم ، ولا في الرقابة عليهن باليقظة . فمن طرق مكافحة الإعراض عن الزواج ، مقاومة هذا السفور القاضى على كرامة فتياتنا ، وإرشادُهن الى أن الصيانة خير من الابتذال ، والحياء أجمل من الصفاقة . وأى صفاقة أكثر من أن تُقلّب الفتاة وجهها في وجوه الرجال !

ومن علل قلة الزواج ضعف العقيدة الدينية ، فإن الايمان بما ينال الفاسق من الخزى والشقاء ، يقر النفس على العفاف ، ويقطع تطلعها الى ما ليس بحلال ، فلا يبقى له إلا الاستمتاع بالزواج المباح . أما مزلزل العقيدة ، فلا يجد في نفسه حرجا من أن يطلق لشهواته العنان ، ويتقلب بها في بيوت الدعارة ، وذلك ما يصرف قصده عن الزواج وهو يستطيع الزواج .

وإذا أردنا أن نعالج هذه العلة ، فإن أكبر جانب من تبعة ضعف العقيدة يقع على المتولين لتربية النشء ، حيث لم يعملوا لتلقينهم العقائد الصحيحة تلقينا يجعلها راسخة رسوخ الشجرة الطيبة : أصلها ثابت ، وفرعها في السماء .

فعلاج هـذه العلة أن نسعى لأن يكون نشوؤنا على تربية دينية صحيحة ، والدين هو الذى يزكى النفوس ، فلا ترى القبيح حسنا ، ولا الخبيث طيبا .

ومن علل قـلة الزواج تشوّف كثير من الشبان للاقتران بذات ثروة ، وذوات الثروة اللاتى يقبلن على التزوج بالشبان المقلّين غير كثير . فهل لأساتيذ التربية وخطباء المنابر ، أن يلقوا للنشء نصائح فى الزواج ، ويوجهوا نفوسهم الى الناحية التى تجىء منها راحة البال ، وانتظام الحياة ، ودوام العشرة ، وهى طيب منبت الزوجـة ، وسماحة أخلاقها ، وسمو آدابها ؟ ! وأريد بطيب المنبت أن تنشأ فى بيت يرعاه ذو غيرة وحزم وإن كان قوت أهله كفافا ، قال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة [1] » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك [2] » ! .

وانظروا كيف عنيت الشريعة الإسلامية بوصف الكفاءة بين الرجل والمرأة ، ومن وجوه الكفاءة أن يكون حال الرجل من جهة المال والحسب مناسبا لحال المرأة من هذه الجهة . وإنما عنيت بالكفاءة بين الزوجين ، وجعلت المال من مقوماتها ، لأن أمر الزواج لا ينتظم فى غالب الأحوال إلا أن يكون الرجـل محترما فى عين المرأة ، وشأن المرأة أن لا تحترم من يكون أقل منها مالا أو حسبا ، فلا يجد منها المعاشرة التى يودّ دوامها ، ولا يطمع أن تطيعه بالمعروف ، فيكون مرتاح القلب للاقتران بمثلها .

وقد يكون سبب الإعراض عن الزواج اتساع رغبات النساء فى صنوف الملابس والمآكل والفرش ، ونحوها من أمتعة البيوت ووسائل الرفاهية ، حتى صارت كل طبقة تنظر الى ما فوقها من الطبقات ثروة ، وتجتهد أن تحاكيها فى الترف ومظاهر الأبهة .

---

(١) صحيح الامام مسلم . (٢) رواه الامامان البخارى ومسلم .

فإن صممت الفتاة على محاكاة الأسر التى هى أوسع غنى وأنمى ثراء من أسرة زوجها ، فإما أن تجد من الزوج غفلة أو ضعف إرادة ، فترهقه بما تقترحه من النفقات إرهاقا ، ومصير من ينفق من غير سعة الفاقةُ والإفلاس ، وإما أن يقابل مقترحاتها الخارجة عن مستطاعه بشىء من الحزم والنظر فى العواقب ، فينفق بمقدار مايسعه كسبه . وهى بعد هذا إما أن تجنح الى الفراق ، وإما أن تبقى مع زوجها الحازم فى حالة من ترى أنها مبتلاة بهذا الزواج الذى لا يفى بجميع رغائبها . وماذا ترى فى عيشة صاحبين يعتقد أحدهما أن صحبته للآخر قد جرّت عليه شقاء ، والى عيشه كدرا ؟ فهل يقطعان مسافة الحياة فى شىء من الراحة والصفاء ؟!

أما التى تعود الى رشدها ، وتقنع بالرزق الذى يسوقه الله تعالى الى زوجها ، فأمثالها فى هذا العصر — ولا سيما الناشئات فى المدن — غير كثير .

قد يكون هذا المرض الخلقى المتفشى فى فتياتنا أحد الأسباب التى صرفت الشبان عن الزواج ، لأن الشاب يخشى أن يكون نصيبه بمطالبها وما تشتهيه نفسها فى حدود المعروف ، فإما إن ترهقه عسرا ، وأما أن تسلّ ثوبها من ثوبه جانحة للفراق ؛ وإما أن تبقى معه على غير مودة خالصة . وإذا لم تخلص المودة بين الصاحبين ، فلا تسلْ عن كثرة مايدور من مناقشات ومنغصات .

ونحن لاننازع فى أن اتساع رغبات النساء فى شئون الحياة قد تجاوز حد المستطاع ، ولكننا لا نسلم أنه نزعة عامة ، وطبيعة لا تتحول ، حتى نتخذ منه للشبان الذين لا يقبلون على الزواج معذرة ، بل نرى أن اتساع الرغبات الى الحد الذى يثبط عن الزواج إنما هو شائع فى طبقات الناشئات فى ترف ، أو من يتصلن بهن ولم تسبق لهن تربية نافعة . أما الأسر التى تعيش فى حالة اقتصاد وفيها أثارة من تهذيب ، فإن فتاتهم تقنع بما يسره الله لزوجها من رزق ، وتغتبط بحسن خلقه ومودته وبذله الوسع

فى إنعام بالها ، غير ناظرة الى ما تقصر عنه يده من الأشياء الزائدة على الضروريات والحاجيات . وليست هذه الأسر المهذبات بقليل ، فلو وجّه الفتيان هممهم الى لذة الحكمة والعلم ، وعرفوا أنهم يجدون مع الفتاة المهذبة من راحة الضمير والتفرغ لاكتساب المجد ما لا يجدونه مع الفتاة الواسعة الرغبات ، لكان لهم فى مصاهرة تلك الأسر الفاضلة ما يجعل ضمائرهم فى راحة ، وعيشهم فى هناء .

فمن يُبلغ شبابنا هذه الحقائق ، ليعلموا أن إعراضهم عن الزواج قتل لفضيلة العفاف ، وحرمان للأوطان من نسل طيب ، وإطفاء لمصابيح الحياة الاجتماعية الراقية ! ولا أراهم بعد أن يعلموا هذه الحقائق وهم عشاق الفضيلة ، والغيورون على المصالح العامة ، والعاملون لحياة الأمة ورقيها — إلا أن يطهروا نفوسهم من محاكاة الإباحيين فى الإعراض عن الزواج وهم يستطيعونه ، فيكونوا بتوفيق الله تعالى أيديًا بانية لا هادمة، ومصلحة لا مفسدة : (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

محمد الخضر حسين

البلاغة فى الايجاز

قال رجل لعمرو بن العاص : والله لأتفرغن لك ! قال : هنالك وقعت فى الشغل . فقال له الرجل : كأنك تهددنى ، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرا ! فقال له عمرو : وأنت والله لئن قلت لى عشرا لم أقل لك واحدة !

وقال رجل لأبى بكر رضى الله عنه : والله لأسبنك سبا يدخل القبر معك ! فقال الصديق : معك يدخل لا معى .

وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك اليوم أبو أيوب السجستانى حتى رحمناك . فقال عمرو : إياه فارحموا .

تأييد العلم الصحيح للاعتقاد بالله

(أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ
مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى)

يخيل الى بعض الناس أن العلم قد قضى على العقيدة بوجود الخالق ، ويلوكون عبارات اقتضبوها من هنا ومن هنا ، من كتابات ملحدة القرن التاسع عشر ، أمثال بوخنر وملدر وجيبل ، ومن كتب الداروينيين ، يثبتون بها دعواهم .

نعم : صدرت كتابات كثيرة في مدى القرنين : الثامن والتاسع عشر ، في أثناء النشوة التي أصابت بعض رجال العلم والفلسفة ، من انتصارهم على أوتوقراطية رجال الدين في أوروبا . وقد غلا بعضهم الى حد إنكار المحسوس من أعلام الكون المنصوبة لهداية العقول الى الحقيقة ، فحولوا جميع هذه الأعلام الى ما يوافق أهواءهم الإلحادية ، فاستاقوا الجماهير أمامهم الى متائه الإلحاد ، غير مبالين بنتيجة هذه المغامرة على نظام الاجتماع ، وناموس الأخلاق . فافتكت النفوس من شكائمها الأدبية ، وتسكعت في عالم الاباحة ، غير مبالية بالغاية التي تتأدى اليها ، مدفوعة بهذه الدوافع الشهوانية .

وقد اجتازت هذه النزعات من الغرب الى الشرق ، بحكم اتصالها العلمي والفلسفي ، فنجمت نواجم هذه الفتنة ، وشرع بعض المتسرعين يعلنون إلحادهم في مجالسهم الخاصة ، وعمد كتابهم الى نشره من طريق الدس في كتاباتهم ، يحدوهم الى ذلك ما يتخيلونه من أن ذلك هو الطريق الوحيد لتخليص مواطنيهم من حالة الجمود التي يتخيلون أنها نتيجة طبيعية لعقائدهم الوراثية .

جهل معيب بحقيقة العوامل الاجتماعية ، وخلط كبير بين العلل الأدبية ، وطيش لا يغتفر لرجال نصبوا أنفسهم لقيادة العقول فى الحياة المدنية .

ونحن فى هذه المجلة نجد أول واجباتنا تعقبهم فى مزاعمهم هذه ، للتدليل على خطئها ولحماية العقول الحائمة حولهم من الانخداع بما يقدمونه إليها ، من هذا الغذاء الضار بكيانها .

وإنما نسلك الى هذا الغرض من طريقين : (أولهما) نقل ماردّ به أهل البصر من العلماء على مروّجة الإلحاد فى أوربا ، و(ثانيهما) تعقب أذنابهم هنا فيما يدسونه من هذه السموم القتالة ، لحماية النشء من تسرّبها إليهم .

كتب العلامة الفرنسى (لوجيل) فى كتابه (العلم والفلسفة) يناقش الماديين فى ذات أصولهم المقررة ، ويثبت لهم أنها لا تؤدى الى النتائج التى يودون استنتاجها منها ، فقال :

« العلم يستسلم أحيانا لإنكارات وشكوك تزعجنا ، ولكن للعلم مساتير لا يسبر لها غور ، فهو يكتفى بالألفاظ كلما لم يجد سبيلا للنفوذ الى سرائر الظواهر المحسوسة .

« تُكثر الكيمياء من ذكر الألفة الكيمائية (أى الميل الذى هو بين بعض الجواهر وبعضها الآخر لإحداث مركبات جديدة) . أليست هذه الألفة قوة فرضية غير مدركة بالحواس كالحياة والروح ؟

« الكيمياء ترجع الى الفيزيولوجيا أصل الحياة ، وتأبى عليها أن تشتغل بها ، ولكن المذهب الذى تحوم حوله الكيمياء هل فيه ظل من الحقيقة ؟ هذا الأصل الحيوى لايدرك ليس فى ينبوعه فحسب ، ولكن فى نتائجه أيضا . فهل يستطيع الإنسان أن يتأمل قليلا فى القوانين المسماة بقوانين (برتلو) مثلا ، دون أن يدرك بأنه حيال سر لا يسبر غوره ؟

« وإذا اعتبرنا ظاهرة بسيطة من ظواهر الألفة الكيمائية ، وأشرفنا على هذا الميل الذى يدفع بعض الذرات الى بعض آخر ، فنراها تتباحث ثم تتضامّ ، بعد تخلصها من المركبات التى كانت تحويها ، أليس فى هذا ما يحير العقل ؟

« كلما أنعم الإنسان فى درس العلوم من وجهتها المعنوية ، زاد اعتقادا بأن ليس فى العلم ما يمنع من اتفاقه مع أبعد الفلسفات العقلية مرمى . العلوم تحلل العلاقات ، وتأخذ القياسات ، وتكتشف النواميس التى تنظم عالم الظواهر ، ولكن لا يوجد ظاهرة واحدة مهما كانت تافهة لا تضعها العلوم حيال أمرين ليس للأسلوب التجريبى عليهما من سبيل . (أولهما) أصل المادة التى تغيرت بواسطة تلك الظاهرة الطبيعية . و (ثانيهما) القوة التى استدعت هذه التغيرات فيها .

« نحن لا نعلم ولا نرى إلا الظواهر والقشور ، أما الحقيقة والعلة فتأبيان أن تنكشفا لنا . وإنه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى الخاصة التى أفاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة ، صادرةً من قوة أولية أبدية واجبة الوجود ، مصدر كل حركة ، ومركز كل عمل . إذا وجهنا أنفسنا هذه الوجهة تظهر لنا الحوادث الطبيعية ، والكائنات ذاتها صورا متغيرة لفكرة إلهية » .

وقال العلامة الكبير (كاميل فلامريون) الفلكى فى كتابه (الاعتقاد بالله من النظر فى الطبيعة) واسمه الحقيقى فى عبارة المؤلف (الله فى الطبيعة) :

« إذا أعلمنا أن جميع أنواع النباتات والحيوانات لم تخلق خلقا مستقلا على صورة مقدرة لكل منها ، وذهبنا الى أن هذا التنوع فى الصور فعل قوة متحدة بالمادة ، فهل يمنعنا ذلك من الاعتقاد بوجود عقل خالق ، وبظهور غرضه وقصده فى الخليقة ؟ ألسنا نكون متعمدين عدم التدبر بعين البصيرة إذا رفضنا اعتبار هذه القوة الملازمة للمادة نتيجة عقل مدبر لها ؟ ألسنا نكون عميا إذا رفضنا الاعتراف بهذه الدلائل الناطقة على وجود عامل قادر أزلى فى الكون ؟

« إن الزعم بأن الخليقة تتكون بذاتها وتترقى بطبيعتها فى أعمالها على اتجاه ثابت نحو نتائج متدرجة فى الكمال ، يعتبر كنصف اعتراف بأن هـذه الطبيعة مقودة نحو الكمال بسبب عاقل .

« كيف يعقل أن الطبيعة الميتة تفكر فى أن تترتب على التعاقب فى صور نباتية ثم حيوانية ثم إنسانية ، وأن تكوّن هذه الأعضاء التى تؤلف الكائن الحى ، وتكون مليئة بحفظ الحياة فى خلال العصور ، وأن تبنى هذه الأجهزة لهذا الكائن الحى ، ليكون فى اتصال مستمر بالأشياء المغايرة له ؟ بأى اتفاق مدهش تكونت هـذه الأعضاء يَسيراً يسيراً ، لأجل إيصال المؤثرات الخارجية الى الجسم ، ثم ارتبطت هذه الأعضاء بالمخ المدرك الذى هو وحده يفهم ويحكم ؟ وكيف اتفق أن تكون هذه الأعضاء على أكمل حالة من البناء والتركيب ؟ وكيف حدث أن أكثر الأجهزة كملت ولم تأت عادمة الجدوى ، أوفاسدة الصنعة ؟ وكيف تستديم الأجسام الحية أنواعها بالتوالد حافظة لكل صفاتها ؟ ولماذا كانت الخليقة مؤلفة من أجناس وأنواع وفصائل ؟ ولماذا يستطيع العقل الإنسانى أن يرتب هذه الكائنات فى مجموعها ترتيبا مؤسسا ، ويجد فيه نظاما عاما ؟ ولماذا لم تكن الطبيعة مجموعا من الكائنات المشوهة ؟

« إنهم يجيبونك على كل هذه الأسئلة بقولهم : إن علة ذلك ناموسُ الانتخاب الطبيعى ، فتراهم يفسرون جميع المسائل بتكرار قولهم : إن الطبيعة مدفوعة الى الترقى المستمر ، وإنها تدع الخبيث وتأخذ الطيب ، وتميل دائما لأن توجد الصور الكاملة .

« نعم : ولكن هذا الميل للأمام ، وهذا الترقى الطبيعى ، وهذه الحاجة الى الكمال ، ما هى إن لم تكن عمل قوة عامة تقود العالم نحو غاية عالية ؟ وما هو هذا التدرج من جميع الكائنات نحو التكمل إن لم يكن مظهرا واضحا لعامل يعلم أين يوجه سفينة الكون ؟ وكيف يقودها عامل لم تستطع المادة الخاضعة له أن تقيم أمامه أقل العثرات ؟

الى أن يقول :

« إن فوق كل الاستحالات الممكنة للكائنات ناموسا لا يتحول ، يقود التطورات الطبيعية منذ بدء تكوّن الأنواع الأولية العريقة فى السذاجة من لدن العصور الأولى لوجود الأرض ، على ما حققته الجيولوجيا والباليونتولوجيا (أى علما طبقات الأرض والحفريات) . هذا الناموس هو ناموس الترقى الواضح الذى لا ينكر أثره فى سلسلة الأنواع المتعاقبة من أول الحيوانات الرخوة الى الإنسان . كيف يمكن أن ينكر على هذا الناموس أنه مقود بعقل مدبر ؟ أليس يمثل غرضا ومقصدا ، وقانونا مفروضا على الطبيعة برمتها ؟ نحن نربأ بكل عالم بطبقات الأرض والأحافير ، وبكل طبيعى أن ينكر هذا القانون !

« إن العقل الخالق المدبر الذى ندعوه (الله) هو إذن المدبر الأزلى الأبدى ، والقدرة الصميمة العامة ، المؤلفة للوحدة الحية للعالم » انتهى .

وقال الفليسوف الكبير (أدوارد ملن) الانجليزى كما نقله عنه الأستاذ (كاميل فلامريون) :

« يجب أن يدهش الإنسان لما يرى حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدّعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج الاتفاق والخبط ، أو بعبارة أخرى : نتائج الخواص العامة المادة ، وأثر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الخشب ومادة الأحجار . وأن إلهامات النمل وأسمى مدركات القوة العقلية الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الكيماوية التى بهايتم تجمد الماء ، واحتراق الفحم ، وسقوط الأجسام . إن هذه الافتراضات الباطلة ، بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى ، قد دحضها العلم الصحيح دحضا ، فإن العالم الطبيعى لا يستطيع أن يقول بها أصلا . وإذا أطلّ الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة ، يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ، ترشد مخلوقاتها الى أصول أعمالها اليومية » انتهى .

محمد فريد وجدى

الدين والدنيا معا

(رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً)

مما يأخذه علماء الاجتماع على أكثر المتدينين أنهم يقصرون فى التبسط فى الماديات ، ولا يتناولون منها ما به استصلاح معيشتهم ، واستكمال حاجاتهم . بل من الأديان ما صرف الناس عن الماديات جملة ، إما ذهابا منها الى الطرف المناقض لما عليه المترفون ، ليثوب الناس الى الاعتدال ، كما يعالج الأخلاقيون المصاب بالسرف بلزوم الإمساك المطلق ، والمنوّ بالنّهم بالحمية المتطرفة ، وهلم جرا ، لتتذوق النفوس فضيلة الاعتدال فتعول عليها ، وإما تضليلا من قادة الأديان للناس ، ليتركوا ما بأيديهم ليستأثروا هم به ، وفى تاريخ الأديان أمثلة كثيرة لهذين الأمرين .

ولا ننسى أن التدين فى ذاته يحبّب فى الزهد فى الدنيا ، والانصراف لأمور الآخرة إيثارا لما هو خير وأبقى . ولقد كان لتغالى بعض الأمم فى هذه النزعة أثر كبير فى تأخير النهضات الاجتماعية ، وخاصة بعد أن تخلصت أوروبا من الوصاية الكنسية ، واندفعت فى طريق استكمال الوسائل العلمية والاقتصادية ، فزاحمت الأمم المقصرة فيها على ما بيدها ، فكان ذلك موجدا لعوامل جديدة فى جمودها .

فإن كانت توجد أمة يقيها دينها من مثل هذا الجمود المادى ، فهى الأمة الإسلامية ، لأن دينها يدعوها للاهتمام بحاجاتها المادية ، ويحثها على العمل لدنياها ، استكمالا لوجودها العالمى الذى يستدعى أن تكوّن منهما مثلا أعلى للأمم فى الأرض فقال تعالى : (وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا

وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) وأمر المسلم أن يقول فى دعائه : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » وقال تعالى : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ) .

وحثت السنة النبوية على استغلال الأرض وإحياء مواتها ، وعلى السعى على المعاش من جميع الوجوه المشروعة . وصرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ادخار المال ليس فيه بأس ، فقال : « ما أديت زكاته فليس بكنز » أى إذا أديت زكاة ما لديك من الذهب والفضة ، فلا يعتبر ادخارك لهما كنزا ينطبق عليه قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

وكان أبو ذر الغفارى قد رأى أن ادخار المال غير جائز شرعا ، وأشاع ذلك فى المؤمنين ، فشكاه معاوية الى عثمان رضى الله عنهما ، فنفاه الى الربذة يقيم فيها بعيدا عن الناس ، حتى لا يفتتن بمذهبه المسلمون ، فيقصروا فى أمور دنياهم .

ولسنا نكتفى بهذه الأدلة النقلية وإن كانت بالغة أقصى غايات التدليل العلمى ، فإن أمامنا دلائل عملية ليس فى وسع أى مكابر أن يتردد فى قبولها ، وهى مابلغته الأمة الاسلامية من تأسيس مدنية حاصلة على جميع المقومات الروحية والمادية ، فأقامت بإزاء كل أصل قيم بثته فى الأرض صرحا عاليا من صروح التكمل المادى : من تمصير الأمصار ، وإقامة المبانى ، والذهاب فى استخراج كنوز الأرض الى أقصى ما تبلغه القدرة البشرية ، حتى إن كتبهم فى الزراعة واستخراج المعادن والانتفاع بها تعتبر الى اليوم من أنفع الكتب وأولاها بالعناية . وأعمالهم فى الصناعة وترقية فنونها ، وفى التجارة وتذليل عقباتها ، تعد من مفاخر الأمم التى كان لها حظ من خلافة الله فى الأرض . وإذا كان لا بد من الاستئناس بأقوال المؤرخين الأجانب فى هذا الشأن ، فإنا نقدم للقارئ طرفا منها تأييدا لما نقول :

قال العلامة (درابر) فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : «إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة (٦٣٨) ميلادية ، أى بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى كانوا مستأنسين بجميع الكتب العلمية اليونانية ، ومقدريها قدرها الصحيح »

الى أن قال : « ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقّوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا ، وأوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم »

ثم قال : « الفلكيون العرب قد اهتموا أيضا بتحسين آلات الأرصاد وتهذيبها ، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال ، والساعات المائية ، والسطوح المدرجة الشمسية ، وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض .

«أما فى العلوم التجريبية ، فقد اكتشفوا الكيمياء ، وبعضا من محلالاتها الشهيرة : حمض الكبريتيك ، وحمض النتريك ، والكحول .

« استخدم العرب علم الكيمياء فى الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات ، والأقرباذينات ، واستخراج الجواهر المعدنية .

« أما فى علم الميكانيكا ، فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام ، وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة .

« أما فى الايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لضروب الأوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثا عن الأجسام السابحة ، والغائصة تحت الماء .

الى أن قال : « إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر (تأمل) الذى نالته الصنائع على عهدهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى

والتسميد ،وتربية الحيوانات ، وسن النظامات الزراعية الحكيمة ، وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن . وقد انتشرت المعامل والمصانع (تأمل) لكل أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ، ويجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها » .

وقال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسى فى كتابه (تمدن العرب) ما يأتى :

« العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع ، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جدا . وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك ، فإننا نعرف نتائجها وآثارها . فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم ،واستخرجوا منها الكبريت ،والنحاس ،والزئبق ، والحديد ، والذهب ، وأنهم برعوا جدا فى الصباغة ، ومهروا فى صقل الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن (فتأمل) » .

وقال العلامة (سديو) فى كتابه (تاريخ العرب) : « كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون والصنائع . وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم الى أوروبا ، فكانوا سببا لنهضتها وارتقائها » .

وقال العلامة (درابر) المتقدم ذكره :

« أول مدرسة أنشئت للطب فى أوروبا هى المدرسة التى أسسها العرب فى (بالرم) (عاصمة سيسيليا) من إيطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون فى أشبيلية باسبانيا . ولو أردنا أن نستقصى نتائج كل هذه الحركة العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا ، وأوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم » .

يرى القارئون من كل ما مر أن العرب الأولون قد اتجهوا بحافز من دينهم الى طلب العلم ، منذ احتلالهم الاسكندرية ، تحت قيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وأنهم اندفعوا في هذا التيار لا توفية لشهوات عقولهم فحسب ، ولكن ليطبقوه على العمل ، ويزيدوا به مادة المدنية الفاضلة التي تقتضيها خلافة الله في الأرض ، مصداقا لقوله تعالى : (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) وقد وفوا بما ندبهم الله اليه من الاضطلاع بهذه المهمة ، فأسسوا ملكا لم ينبغ لأمة قبلهم ولا بعدهم الى اليوم ، وانتهت اليهم الزعامة العامة في كل ماله صلة بالإنسانية من أخص نواحيها وأعمها . فنحن لا ندعو الأمم لشيء جديد ، وإنما ندعوهم للقيام على سنة أسلافهم الذين عملوا لدينهم ودنياهم معا ، جريا على أوامر دينهم . فإن كان قد قصر بعضهم في العمل لدنياهم ، فإنما فعلوه لانتشار روح أجنبية عن الإسلام فيهم ، على أيدي دعاة يجهلون أسرار الدين ، وسنن الاجتماع معا ؟

محمد فريد وجدي

ابن المقفع يصف صديقا له

وصف ابن المقفع صديقا له ، فكان مما وصفه به قوله : كان لي أخ أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه . وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة . وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم إلا بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم . وكان أكثر دهره صامتا ، فاذا قال بز القائلين . وكان لا يلوم أحدا فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره . وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحبا إلا أن يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشكى ولا يتشهى ، ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولي ، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل ، خير من ترك الجميع .

الفتاوى والأحكام

ورد إدارة المجلة الاسئلة الاتية ، ننشرها مع اجوبتها فيما يلى :

سماع القرآن من الراديو

نرجو الإفادة عن حكم قراءة القرآن ، والأذان ونحو ذلك فى الراديو ، مع أن ذلك يسمع فى محلات الملاهى ونحوها من الأندية التى تحتوى على ما لا يليق .

الجواب

إن الذى يُسمع من الكلام بواسطة الراديو هو كلام المتكلم وصوت القارئ ، وليس صدى كلمات كالذى يسمع فى الجبال والصحارى وغيرها ، وعلى هذا يكون المسموع من الراديو قرآنا حقيقة . فمتى كان القارئ جالسا فى محل غير ممتهن ، وكان فى قراءته مراعيا ما تجب مراعاته ، مستوفيا شروط القراءة ، وليس فى قراءته خلل ، كانت قراءته جائزة ، والمسموع منه قرآنا سماعه جائز ، ومثاب عليه . أما إذا لم يستوف الشروط كأن جلس فى محل ممتهن ، أو أخل بشروط القراءة ، أو قصد من قراءته اللهو واللعب ، فلا تجوز . ولا يضر القارئ — متى كان مستوفيا الشروط ، مراعيا أحكام التجويد ، وكان على الوصف الذى قدمنا — أن يسمع صوته فى محل لا تجوز القراءة فيه . وعلى السامع أن يستمع ، واذا وجد من يشوش نهاه عن التشويش . ومثل القراءة غيرها فى أن المسموع هو نفس المتكلم ، فإن كان مغنيا ، فحكمه حكم الغناء ، وإن تكلم بما هو مباح ، فحكمه الإباحة ؛ وإن تكلم بمحرم ، كان ذلك حراما . والله أعلم .

تحديد النسل

وورد أيضا على إدارة المجلة سؤال يتضمن طلب بيان الحكم فى تحديد النسل .

الجواب

إن تحديد النسل خوفا من العيلة والفقر غير جائز ، لأن الله سبحانه وتعالى كفل الأرزاق لعباده . وإن فى قوله تعالى : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ) وفى قوله تعالى : (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) ما فيه الغناء لمن آمن بالله عن التفكير فى مسألة الأرزاق . ومن علم أن مال الله غاد ورائح ، وأن الغنى قد يصبح فقيرا معدما ، والفقير المعدم قد يمسى غنيا موفور الغنى ، لم يشك فى أن الغنى والفقر من العوارض التى تتبدل . ومن علم أن الفقير قد يولد له أولاد منهم من يكون ذا ثروة عظيمة يستفيد منه شعب بأسره ، لا يرتاب فى أن تحديد النسل خوفا من الفقر أو عدم القدرة على الإنفاق غير جائز . ومن أدرك المنفعة التى يجنيها المرء بل والأمة من الأولاد ، والمنافع التى تترتب على كثرتهم وما ينجم عنها ، مما أقله دفع يد العدوان عن الأمة ، لا يعتوره ريب فى عدم الجواز . على أن ذلك التحديد قد يؤدى الى عقم المرأة ، فتندم ولات حين مندم . وقد يعمد الشخص الى تحديد نسله ، فيعدو الدهر على ولده أو أولاده ، ويكون قد تقدم فى السن ، فتعتوره الحسرة والندامة .

وعلى الجملة فمسألة تحديد النسل خوفا من الفقر أو العيلة لا تجوز ، ولا يصح أن تكون مدار بحث دينى . أما الأحوال التى تعتور المرأة من أضرار من الحمل أو غير ذلك ، فلكل حادثة حكمها ، وما بالضرورة يتقدر بقدرها . والله أعلم .

تعليم القرآن بغير تجويد

هل تجوز قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة مضبوطة ، وتعليمه لتلاميذ وتلميذات المدارس أو غيرهم بغير أحكام التجويد ؟

الجواب

ينبغى أن تكون قراءة القرآن وتعليمه على وجه لا يترتب عليه خلل فى القراءة، فلا يجوز الإفراط فى المد، ولا فى إشباع الحركات، كما لا يجوز الإدغام فى غير موضع الإدغام. فمن قرأ كذلك أو تعلم كذلك، كانت قراءته وتعليمه صحيحين وإن لم يكن عالما بأحكام التجويد. على أن مراعاة أحكام التجويد للقارئ والمتعلم مما ينبغى ألا يتساهل فيه. والله أعلم.

ملابس النساء والرجال

وورد سؤال يعلم من جوابه:

سبق للمجلة أن بينت حكم صوت المرأة، وبينت أن كل بدنها عورة، عدا الوجه واليدين. وسبق أن فسرت المجلة آيات الكتاب المجيد المتعلقه بما يجوز إبداؤه من الزينة وما لا يجوز، وبيان من هم الأقارب التى يجوز للمرأة الاجتماع بهم، وغير ذلك مما ورد مفصلا فى آيات سورة النور. فعلى السائل الرجوع إليها، ففيها الغناء. أما الخلوة بالأجنبى ولو طبيبا، فغير جائزة فى أى مكان كانت، بل الواجب أن يكون مع السيدة أحد من المحارم، كالأب أو الأخ أو العم إن لم يتيسر حضور الزوج، أو وجود من وجوده يمنع الخلوة ولو من غير هؤلاء. ولو أن السيدات عالجن أنفسهن عند طبيبة، كان ذلك أولى، لأن نظر الجنس الى الجنس أخف. وقد بينا فيما سبق أن ما بالضرورة يتقدر بقدرها، وأن الضرورات تبيح المحظورات.

أما ملابس النساء فيعلم الحكم فيها مما يأتى:

لا حرج على السيدة أن تلبس الحرير وغيره، كما لا حرج عليها فى أن تلبس الثياب بأى لون كانت. ولا حرج عليها فى أن تتحلى بالذهب والفضة، سواء كان ذلك سوارا أو خاتما أو ساعة. وكل الذى ينبغى هو أن تكون ثيابها غير مظهرة لبدنها، ولا ممثلة

لجسدها . فتى كانت الثياب ساترة غير ممثلة للبدن ، جازت . أما اذا كانت غير ساترة للبدن أو كانت ممثلة له تمثيلا يجلب النظر ، فإنها تكون غير جائزة .

أما الرجال فقد حظرت الشريعة الإسلامية عليهم لبس الحرير فى غير ضرورة ، كما حظرت عليهم التحلى بالذهب والفضة . أما ألوان الثياب فالخطب فيها يسير ، وإن كره بعض الأئمة لبس بعض الألوان . وأجازت لهم التختم بالفضة لابالذهب ، لنهيه صلى الله عليه وسلم عن خاتم الذهب . وكذلك خاتم الحديد والصفر والنحاس مكروه للنساء والرجال . ويجوز للرجال التمتع بالأحجار الكريمة ، كاللؤلؤ والياقوت ، على شريطة ألّا يتحلى بها كتحلى النساء . وعلى الجملة فإن للرجل أن يتمتع فى لباسه بكل ما لم تحظره الشريعة ، بشرط أن يكون ذلك فى حشمة ووقار لائقين بالرجال . والله أعلم .

أما البرنيطة ، فلا يجوز لبسها إذا كان القصد منه التشبه بالكفار . أما إذا لبسوها غير قاصدين التشبه بها ، وكان لبسهم لضرورة دفع برد أو حر أو غير ذلك من المصالح فلا إثم فيه . وهذا كله ما لم يوجد من الملابس ما يدل على استخفافه بالدين ، وإلا كفر بالاستخفاف . ومع ذلك فالخير كل الخير فى اتخاذ ما يقى البرد أو الحر ، على نموذج غير نموذج القبعة ، وهو أمر ميسور . والله أعلم .

سؤال القبر

هل صحيح أن سؤال القبر سيكون باللغة السريانية ؟ واذا كان فما الحكمة فى كونه بهذه اللغة ؟

الجواب

إن الدين الإسلامى ورد بسؤال الناس فى القبر ، ولم يقص علينا فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله — على ما أعلم — أن السؤال يكون بلغة خاصة . وغير خاف أن الظاهر المعقول هو أن يكون السؤال بلغة يفهمها المسئول . أما أنه بالسريانية أو العبرانية أو غيرها ، فلا أعلم للأئمة شيئا فيه . والله اعلم .

طه حبيب

الاسلام فى نظر بحاثى أوروبا

بقلم البحاثة الكبير سِنِكْس

مترجمة عن المجلة الروحية

« ظهر محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة ، وكانت مهمته هو أيضا ترقية العقول البشرية ، بإيتائها بالأصول الأولية للأخلاق ، وإيصالها للاعتقاد بإله واحد ، وبحياة بعد هذه الحياة . فأحدث فى أفريقية وفى الشرق بأسره انقلابا دينيا يشبه الانقلاب الذى أحدثته تعاليم عيسى فى أوروبا . ولكن ذلك الانقلاب لم يتم بمجرد الكلام ، والأمثلة الحسنة ، واحتمال الأذى والجد ، بل حدث بجديد المقاتلة الذين تحمسوا لعقائد الإسلام وآدابه التى حملها الى النبى الملك جبريل [1] .

« بعد أن أمضى محمد سنين فى الحياة التأملية أعلن الأفراد المخلصين له بأنه سيقوم بنشر دين الله ، ويحمل الى الناس سعادة هذه الحياة وسعادة ما وراءها من الوجود الثانى ، فتصداه قومه فى مكة وهددوه بالقتل ، فلجأ الى قرية سميت منذ ذلك الحين بالمدينة (مدينة النبى) ومن تاريخ هذه الهجرة يؤرخ المسلمون .

« لما توفى النبى كان ملكه الذى عاصمته مكة قد تم تأسيسه ، ولم يمض إلا قرن بعده حتى كانت جميع شعوب البلاد العربية وشمال أفريقية من أول مضيق هرمز الى شواطىء المحيط الأطلسى خاضعة الراية الاسلامية .

---

(١) يريد البحاثة الفاضل أن يقول : إن المسيحية انتشرت بالكلام والامثلة الحسنة الخ والاسلام انتشر بالسيف . والحقيقة أن الاسلام هو الذى انتشر بالاقناع والامثلة الحسنة ، لانه لا يعقل أنه انتشر بالسيف قبل أن تكون له دولة ورجال ، والمعروف أن المسيحية ظلت بلادولة حتى تولى أمبراطور الرومان كونستنطين فى القرن الرابع فنشرها بالحديد والنار .

« فكانت أسبانيا قد تم فتحها ، وأغار المسلمون منها على فرنسا ، ولم يصدهم عنها إلا مطرقة (شارل مارتل) دوق الفرنكيين الشديد البأس ، فإنه وقف تقدمهم فى بواتييه سنة (٧٣٢) .

« فلم تناسب ديانة محمد عقول الشعوب التى تكوّن نواة أوروبا الحالية ، فإن الشعوب اليونانية الرومانية التى كانت لا تزال متأثرة بأساطير الوثنية الشعرية ، لم تستطع أن تفهم دعاية غاية فى البساطة والصرامة ، ولا تتملق لقوة التصور . لهذا السبب عينه أدخلت المسيحية الى جوهرها بعض الطقوس من الأديان القديمة ، وبعض العقائد التى كانت سائدة فى المملكة ، بعد أن أحدثت فيها شيئا من التغيير . وغير ذلك فإن المسيحية وحدها تستطيع بتركيبها القوى ، وبسلطتها وتأثيرها على العقول ، أن تساعد بقوة على جمع الشعوب المغيرة المختلفة الجنسيات ، وعلى إبقائها فى الأراضى التى فتحتها .

« لما وقف الشرق فى فتوحاته دخل الى عهد جديد من الحياة الفكرية ، فارتقت الآداب والصنائع والعلوم ارتقاء عجيبا . فبينما كانت أوروبا تتخبط فى غياهب القرون الوسطى ، كان المسلمون قد وصلوا الى درجة من المدنية عالية بالنسبة لما كان موجودا منها ، وأكبّ العرب المتعلمون على ترجمة كتابات الفلاسفة والعلماء الأقدمين ، وأسسوا فى بغداد وقرطبة جامعات علمية ومدارس ، فحفظوا بذلك جميع المعارف الإنسانية ، وزادوا فى مادتها ، تلك المعارف التى لم تصل الى أوروبا ولم تدرس فيها بطريقة عامة إلا فى عهد النهضة المعروفة » .

ثم أتى الكاتب على وقوف النهضة الإسلامية فى القرن الخامس عشر بسبب تعاليم ضالة تسربت الى الناس وأسباب أخرى ، ثم خرج من ذلك الى نفى بعض ما يعاب على الإسلام فى نظر بعض المتعنتين ، من مسألة القضاء والقدر ، ودلل على أن فى المسلمين اليوم نهضة قوية لاسترداد مجدهم ، مما هو معروف . ثم ذكر القرآن الكريم فنقل عن العلامة بارتلمى قوله :

«قال المسيو (بارتامى سنتيلير) : « إن القرآن قد بقى أجمل أثر للغة التى أنزل بها ، ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الانسانى . وهـذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا بأن محمدا فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هـذا الكتاب ، وأنه لابد من أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل » .

« وقد كان محمد يؤكد بأنه يتلقى معارفه عن الملأ الأعلى . وقـد أجمع معاصروه على الاعتراف بأن معارفه الخاصة أصغر من أن تجعله يدرك ويكتب مثل هذه التعاليم العالية الحكيمة المشحون بها هذا القرآن .

« تلك التعاليم هى التى رقت عقول الملايين من الناس ، ولا تزال ترقى كل يوم شعوبا متأخرة ، بإشرابها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيتية . ولن تمضى سنوات قليلة حتى تصبح أفريقا كلها دائنة للاسلام . والمائة والعشرون مليونا من المسلمين فى آسيا الذين يزدادون كل يوم عددا لأدلة على حيوية وعظمة ديانة الله (يريد الاسلام) .

« لم يأت محمد لمكافحة التوراة والإنجيل ، فإنه يقول بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس الى الحق . وأن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما ، ولكنه لم يأخذ منهما .

« وقد رفض جميع الرموز والأساطير ، ودعا الى عبادة إله واحد قادر رحمن رحيم ، كما يصفه بذلك فى رأس كل سورة من سوره .

« وقد أمر بخمس صلوات فى اليوم ، ليضطر الانسان للتخلى عن اشتغالاته المادية لحيظات فى اليوم ، ليرتفع فى خلالها الى مولاه . وأمر أن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية ، فإن الله أعلم بما هو أصلح لنا . وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بحصة

من إيراده ، وتلك غير الصدقة الاختيارية . وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التى كانت غير معترف بها الى عهده : بمنعه أو بتهذيبه مبدأ تعدد الزوجات . وحمى الأطفال بتحريم قتلهم تخلصا من إعالتهم ، وهى تلك العادة القديمة التى كانت منتشرة . ورعى حق الرقيق : فأمر بمعاملته كعضو من الأسرة . وقد كان أول من قرر مبدأ المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين ، من أغنى الناس وأقواهم ، الى أفقرهم وأضعفهم . وحرم السرقة والقتل والإكراه . ومنع شرب الخمر والميسر .

« وقد أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن الإنسان حياة مستقبلة فيها عقاب وثواب أبديان ، ولكن رحمة الله تدع أملا للمذنبين فى أن لا تكون عقوباتهم أبدية .

« لقد استهزأ المستهزئون بجنة محمد ، وقالوا عنها أسوأ ما يمكن قوله ، ولكن كل هذه الأحكام الضالة تتلاشى متى قرأ الإنسان القرآن .

« ومما هو جدير بالذكر أن المرأة المسلمة تظهر فى تلك الآيات ذات مكانة ، فقد صرح بأنها تشارك زوجها فى دار النعيم » .

الى أن قال :

« الدين الإسلامى قد أحدث رقيا عظيما جدا فى تدرج العاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد ، بين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة يجازى فيها على أعماله ، وبإله واحد يمكنه أن يعبده ، ويرتفع بروحه اليه دون أن يضطر لتوسيط وسيط .

« ثم إن محمدا بتحريمه الصور فى المساجد وكل ما يمثل الله ، قد خلص الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى الخشنة ، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه ، وأن يرتفع اليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام ، والشكر والحب .

« إن الناس لم يلتفتوا للترقى العظيم الذى أوجده الإسلام من الوجهة الأدبية ، فإن ذلك الرقى تحقق بعيدا عنا فى أمم اعتدنا أن نصفهم بالبرابرة ، لأنهم ليس لديهم مثل أفكارنا ولا عقائدنا ، ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العلمية والعقلية . ولكن مع هذا كله يجب الاعتراف بأن هذه الحركة الدينية قد ساعدت وتساعد كل يوم لإنارة عقول أمم .

« والاسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة ، ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبي ، يظهر لنا أنه أعظم ما يدركه الانسان عن العلاقات التى يجب أن توجد بين الانسان وخالقه ، وأكثرها انطباقا على الطبيعة والمنطق » انتهى .

محمد فريد وجدى

أعلان

لحضرات قراء هذه المجلة

بسبب إسناد إدارة هذه المجلة الى عهدتنا نرجو أن يجعل عنوان المراسلات كلها باسمى . وأن يكون عنوان الحوالات والأذونات : (مدير مجلة نور الاسلام) دون إضافة اسم اليها . محمد فريد وجدى

مشكلة البغاء الرسمى

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمود أبى العيون

للأستاذ المصلح الشيخ محمود أبى العيون جولات فى وجوب إلغاء البغاء الرسمى ، بل كان هو أول من طرق هذا الباب ، و نبه إليه بمقالات بليغة طنانة نشرها فى الصحف السيارة ، فترددت أصداؤها فى البلاد ، وأدرك شرف مقصدها و نبالة غايتها القراء ، وكان من أثرها اهتمام الجمهور بهذه المسألة . وكانت الحكومة من ناحيتها قد فكرت منذ زمان فى هذه المسألة ، فأصدر حضرة صاحب السعادة الدكتور شاهين باشا وكيل الداخلية للشئون الصحية استفتاء لأصحاب الفضيلة علماء الاسلام ، ورؤساء الأديان المختلفة ، والجماعات والأفراد الممتازين ، فأجمع الكافة على استحسان إلغاء البغاء ، فتقرر الأخذ بهذا الاجماع . والحكومة الآن تتخذ الأهبة لالغائه رسميا . وقد بادرت بعض المديريات بالغائه فعلا . وكان قلم الأستاذ الغيور الشيخ محمود أبى العيون أقوم الأقلام حجة ، وأقواها عارضة .

وقد أصدر أخيراً رسالة ضمّنها جوابه على استفتاء سعادة وكيل الداخلية للأمور الصحية ، وهى من أجمع الأجوبة للوجوه التى تحتم إلغاء البغاء ، وأوفاها بالأدلة على وجوب ذلك . وقد أهداها لملاذ هذه الأمة وحامى حماها ، حضرة صاحب الجلالة الملك «فؤاد الاول» أطال الله بقاءه . وهى جديرة بأن ترفع الى سدته العلية . فجزى الله الأستاذ كاتبها عن عمله خير ما يجزى به المخلصين ، ووفقه للمزيد من خدمة الأخلاق والدين .

كشف الشبهات

عن إهداء القراءة وسائر القرب للأموات

كتاب يحتوى على حكم إهـداء القراءة وسائر القرب للأحياء والأموات من المسلمين ، وهـل يصل ثوابها الى المهدى إليهم أولا يصل ؟ وبيان ما يقال ويفعل عند المحتضر قبل الموت وبعده ، وعند القبر ، وما يقضى عن الميت وجوبا أو ندبا مما أوصى به ومما لم يوص ، من دين وكفارة وزكاة وحج وصوم وصلاة واعتكاف وغيرها ، وكل ما ينفع الميت من دعاء وصدقة وغيرهما ، والأحاديث الواردة فى « قل هو الله أحد » وفى « لا إله إلا الله » وحكم العتاقة الكبرى والصغرى ، وحكم إسقاط الصلاة ، مبينا كل ذلك أتم بيان ، مع ذكر المذاهب وتحريرها ، والآحاديث وتخريجها ، والأدلة وتقريرها ، مما لا تجده مجموعا فى كتاب .

هذا ما كتبه بقلمه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمود حسن ربيع من علماء الأزهر الشريف فى وجه كتابه (كشف الشبهات) الذى تقدم ذكره . وقد وفى الأستاذ بما أخذه على نفسه ، فجمع فى كل باب ما ورد فيه من الأحاديث النبوية وآراء الأئمة مما لم يسبق اليه ويكثر السؤال عنه من الناس . وقد أحسن كل الإحسان فى ترتيبه وتبويبه وطبعه . أحسن الله جزاءه على خدمته الدينية ، ووفقه لأمثالها فى حياته العلمية .

The Companions of the Prophet and those learned people who followed them continued to interpret the Koran in accordance with what had been authentically cited of the Holy Prophet and in accordance with the usage of the language and their rhetorical style. An era of vast learning and rich literature was initiated by them and it was indeed a great heritage of wonderful philosophy, tolerant laws and pure social codes that they left behind.

But this seemed to be disagreable to a certain class of men who claimed that the interpretation of the Koran which was revealed in the language of the Arabs, was not given to such men who recited it morning and night but it was entrusted to the like of Mirza Ali, Mirza Husayn, Abbas and Abul-Fadl Al-Garfadkany in order to apply their sophistry and infuse corruption in the interpretation thereof!

In refutation of the Batinists' claim that "The viceregent of Allah is he who proclaimeth Him", Abu Bakr Ibn Al-Arabi says that "The viceregent of Allah is the Prophet who announceth His truth and whom the Lord recalled back to Him and none is infallible after him".

There is a detailed answer in "Fadaihul-Batiniyya" to the claim of the advent of the so-called infallible imam and the ascription of truth to his words only. This infallible imam claimed by the Batinists is the one recognized by the Babists as "Man Yuzhiruhu Allah" (He whom Allah shall manifest).

It is claimed by them that it is him that knows the right interpretation of all that was revealed to prophets. This Persian impostor declares in a book of his that the stories of the Koran are not authentic and says in this connection "It is not not feasible for the historian to derive his historical information from the Koranic verses" and that "The prophets were not precise as far as the historical facts and folklore were concerned. They spoke of what they knew and concealed many facts and truths behind the veil of symbols and metaphors".

The allegation that the Koran contains unauthentic stories symbolic of certain esoteric meanings, has apparently no justification except the wicked intentions which the exponents of such theory conceived against the Holy Koran with a view to cause doubt and scepticism as to its Divin origin.

Indeed no historical or theoretical evidence has up till now been advanced to gainsay the authenticity of a single story given in the Holy Koran. We maintain such authenticity by the verses which point out that Mohammad speaks not out of his own accord. The Moslem historian as well as the history teacher of Moslem youth, derive their historical information directly from the Koranic verses which are in our opinion, more trustworthy and reliable than any account of contemporary events by a historian. This implicit faith could not of course be entertained by those who deny or doubt that the Koran is the word of God unto mankind, and we do not expect the Magians or Babists who doubted the truth of Mohammad's prophethood, to quote in their historical works, events of past generations derived from the Koran.

(to be continued.)

Further on he says : "The divine books themselves declare that the interpretation of its verses into their real meanings shall not be revealed until Doomsday ie. the day of resurrection, the manifestation of God's will and the illumination of the earth's corners by the splendour of God".

Finally he says "It is for this reason that we find the interpretations of the Ulema since the revelation of the Old testament (Torah) up to the revelation of the "Bayan", (1) are trivial, prosaic and bigoted ; nay even misleading, distorted and corrupted".

We would have liked to pass such sophistiries over in order to spare our pages the stigma of such heresy and such venemous attack on the Ulema of Islam who have stoutly maintained the truth of their faith against its enemies. But the missionaries of this cult who have succeeded in enticing a few sons of Islam, have had the audacity, to preach their creed in public meetings and in the press. They have even written books which get into the hands young Moslems and we have therefore found it imperative to give a somewhat detailed exposition of their doctrine and beliefs so that Moslems may stand on their guard against them.

The Babists have, in imitation of their co-religionists the Batinists, insisted on this kind of interpretation, so that corruption may find a way into the Koran and the Tradition and cause them to be wrongly understood by interpreting them in a sense which is contrary to the guidance and judiciousness which are meant thereby.

« إِنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لهُ لَحَافِظُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily We have sent down the Koran whose revelation the unbelievers deny ; and verily We shall preserve it from distortion and corruption".

(Baidawy's Commentary).

The Lord hath revealed the Koran in a clear Arabic tongue and we were told that His Apostle will explain all that was hidden of its meanings, for so the Koran saith :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"We have revealed the Koran unto you that you may explain to men what they were commanded and forbidden to do and make clear unto them things regarding which they are confused".

(Baidawy's Commentary).

---

(1) The Bayan is the book written by Mirza Ali known as Al-Bab.

"When Joseph said unto his father "O my Father! Verily I have beheld in a dream eleven stars and the sun and the moon descend from heaven and make obeisance to me".

(Baidawy's Commentary).

Mirza Ali assumes that Joseph is Husayn Ibn Ali, that the sun is Fatima, that the moon is Mohammad, and that the stars are the leaders of truth, all of whom prostate themselves and shed tears on Joseph!

Abul-Fadl Al-Garfadkany another exponent of Babiism quotes the following two verses in his book "Al-Durarul-Bahiyya".

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Nay, they hastened to deny the truth of the Koran when they heard it recited for the first time, even before they reflect on its verses and even though they have not yet comprehended its interpretation".

(Baidawy's Commentary).

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"What! have they to wait for the appearance of its truth by the fulfilment of its promises and threats? When its fulfilment shall come, those who were oblivious thereof shall say "Verily the prophets of our Lord did indeed bring the truth".

(Baidawy's Commentary).

He explains that "What is meant by the interpretation of the verses of the Koran is not their apparent meaning or literal sense but the hidden or inner meaning which the words convey by way of metaphor, simile and metonomy".

He then goes on to say that "The Lord has revealed those verses through the media of the prophets but has assigned the interpretation of their meaning and the explanation of the purpose thereof to the spirit of the Lord when it descends from heaven".

He also says "The prophets were only sent to lead mankind to a fixed goal, and general belief on the part of men is considered enough by the prophets until the book attains its alloted span and hearts reach the stage of perfect attainment, then the promised spirit of the Lord will be manifested and the hidden truths be revealed on the memorable day".

In his introduction to the latter book, the author says that he had perused all the books on the Batiniyya and had found out that they comprise two varieties, the one dealing with their history from the very outset, enumerating their missionaries in every country and giving a detailed account of their adventures in distant times and climes.

The other is a detailed exposition of their doctrines and beliefs which were borrowed from the dualists (1) and philosophers and were changed and distorted by the Babists in order to cover up the traces of their origin.

Al-Ghazali explained that he wrote this book with a view to exposing their heresies and as a warning against their sophistic casuistry.

Abu Bekr Ibn Al-Arabi is another who engaged with some of the chief exponents of the cult in debates, an account of which is given in his book "Al-Quasim Wa Al-Awasim".

Ibn Taymiyya also severely criticised and assailed certain sects of the Batiniyya in some works of his.

We have studied the Batiniyya and read a few books of the Babists, and we are convinced that the very spirit of Batiniyya had been transmitted to Mirza Ali and Mirza Husayn Ali and that it came out in a different guise under the name of Babiism or Bahaism.

As the Batinists quote the Koran and Tradition and pervert the meaning thereof such as the interpretation of the pilgrimage to the Kaaba by visiting their head sheikhs, so too do the Babists interpret the Koran and Tradition by such sophistries.

Mirza Ali or El-Bab follows the same instance in giving an interpretation of the verse IV, Chapter XII.

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

---

(1) The followers of the doctrine of dualism, a philosophical term applied to all theories which attempt to explain facts by reference to two coexistent principles. The term plays an important part in metaphysical, ethical and theological speculation.

Metaphysical dualism postulates the eternal coexistence of mind and matter, as opposed to monism both idealistic and materialistic.

In the domain of morals, dualism postulates the separate existence of Good and Evil, as principles of existence. In theology the appearance of dualism is sporadic and has not the fundamental, determining importance which it has in metaphysics. It is a result rather than a starting point. The old Zoroastrianism and those sects which were influenced by it, postulate two contending deities Ormuzd and Ahriman (Good and Evil), which war against one another in influencing the conduct of men. *(Encycl. Brit.)*

They found out that their best plan was to resort to the interpretation of the Moslem Laws so as to convert them into their own doctrines and thereby entice the weak from among the Moslems and sow the seeds of discord among them.

With this end in view, the Batinists cunningly devised a scheme which they carried out in stages :

First, to make sure whether their prospective convert is amenable to conversion or not.

Second, to lure their victims by means of asceticism or profligacy according to whether he is inclined that way or the other.

Third, by scepticism regarding the very principles of religion.

Fourth, a promise from the convert not to devulge any secret of theirs.

Fifth, the claim that their cult is fully approved of by both leading men of religion and laymen in order to entice more converts thereto.

Sixth, making such advances to would-be converts, taking their individual circumstances into consideration, as would secure their approval.

Seventh, reassuring of converts as to the propriety of dropping the physical injunctions such as prayers, fasting etc.

Eighth, the gradual corruption of the beliefs of the Moslem convert and finally the interpretation of the Moslem Law in accordance with their misguided views.

This scheme was adopted as a means of attacking Moslem Religion by many sects professing to be the loyal adherents of the family of Mohammad whereas in reality they did not believe in any prophet or revealed book, nor did they admit the judgment day or the creation of the Universe. They quote profusely the Koran and the Tradition but they distort the meaning thereof and give such renderings as are not meant by the Lord and His Apostle.

Among the Batinists who affect loyalty to the family of Mohammad, are some who claimed prophethood of certain members of that Family as for instance the Ismailites who claim the prophethood of Mohammad Ben Ismail Ben Jaafar. This sect had even gone as far as to presume that there is a prophet for every age until doomsday. Their claims did not stop at that and they further assert the divinity of certain members of the family of Mohammad and claim divinity of Aly, peace be on him, and many others of his sons and grandchildren.

Those who claimed such attributes as prophethood and divinity have often been the cause of untold troubles and afflictions to the Moslem world. The Ulema, on their part, did not fail to rebut their untruths and expose their fallacies. Among those who took up the refutation of their claims, Abu-Hamed Al-Ghazali figure prominently as the author of "Hudjatul-Haque" in Persian and "Fadaihul-Batiniyya" in Arabic.

Bahau-Allah then embarked on a campaign of propaganda for himself claiming to be "the promised one" whose advent was prophesied by El-Bab. (1) Most of the Babists accepted his claims and were thenceforward styled Bahaists. His brother Mirza Yahia styled "Subhul-Azal" (Morning of eternity) was among the dissenters who declined to follow him.

The Ottoman Government then ordered the banishment of the two parties from Adrianople. Mirza Yahia and his adherents (2) were banished to Cyprus and Bahau-Allah and his followers to Acre in Palestine where he died in 1309 of the Hijra (1892 A.D.)

His son Abbas called Abdul-Bahai succeeded him as head of the sect. He began to propagate the teachings of the sect and introduce such changes as he deemd fit. These changes did not meet however with the approval of the Bahaists who dissented thereto and turned to his brother Mirza Ali. They wrote books in Persian and Arabic bitterly criticising Abbas and accusing him of deviation from the creed of Al-Bahai.

What are the doctrines held by its founders and their adherents?

Bahaism is by no means a new cult bearing no semblance to other apostatic creeds which served as a foundation on which to establish its doctrines. It is a product of Batiniyya (3) and it had borrowed its doctrines from a medley of religions, philosophical and political ideas. It assumed a false show of religion and claimed to be a divine revelation; and were it not for those people who are wont to follow blindly any newfangled idea, it would not indeed have found a single supporter or the least response. We will give in the following pages an exposition of the doctrine of Batiniyya along with an account of Babiism from which it would be seen that Babiism is a direct issue of that wicked doctrine.

The Batiniyya aims at the abolition of the Moslem Law. The origin of this sect goes back to the time when Islam was on the ascendant. A party of the Magians of Persia, fearing the ascendancy of Islam, wanted to interpret its tenets in such a manner as to appear to be derived from the doctrines of their own ancestors. They met and discussed the situation and the glory that was theirs, and they came to the conclusion that it was not possible to overcome the Moslems by the sword on account of their great power and far-flung dominion.

---

(1) The Bahaists claim that El-Bab referred to some one who will come after him and whom they called "Man yuzhiruhu-Allah" (He whom Allah shall manifest).

(2) Those Babists are called the "Azalis". They claim that Yahia is the one referred to as "Man yuzhiruhu-Allah".

(3) A sect which claims that the Holy Koran has an apparent as well as an inner meaning and that the Batinists understand its inner meaning and give the interpretation of the Koranic verses accordingly.

What is Bahaism?

Bahaism is ascribed to Bahau-Allah (the splendour of God), a title by which Mirza Husayn Ali the second head of the sect was called. The sect is also called Babists and is so styled after El-Bab, a title of Mirza Ali Mohammad who invented the doctrine.

The origin of this sect goes back to Mirza Ali Mohammad who was brought up in Shiraz, South Persia, and acquired some rudiments of knowledge, setting in business later as a trader.

In 1260 of the Hijra (1844 A.D.) on attaining his twenty fifth year, he claimed to be the expected Mahdi. He announced his doctrines and was followed by a few ignorant people some of whom he sent to different parts of Persia to proclaim his advent and propagate his pretensions.

The Ulema's attention was drawn to this propaganda and they rose up against it. Some Walis (governors) arranged for debates to be held between the Ulema and Mirza Ali. On finding out that his doctrine was pervaded with aberration and apostasy, some of the Ulema declared him an unbeliever and apostate. Others on finding out the sophistry and absurdities it contained, attributed them to insanity and the workings of a deranged mind.

He was thereafter imprisoned in Shiraz and then in Asfahan, and in the reign of King Nasir-ud-Din Shah, he was confined by the Persian Government in Tabriz. Disturbances and conflicts between his disciples and the Moslems ensued and bloodshed resulted culminating in his crucifixion in Tabriz by the Government in 1265 of the Hijra (1849 A.D.)

Then came a period in which his adherents disagreed as to his successor until they plotted the assassination of King Nasir-ud-Din Shah to avenge their chief. Two Bahaists attacked the King but the attempt on his life was abortive and the Government began forthwith to hunt the Bahaists down and bring their chiefs to justice before a special court of inquiry.

Mirza Husayn Ali, who was later given the title of Bahau-Allah, was a staunch adherent of Al-Bab and an active propagandist of his sect. He was arrested and imprisoned for a few months in Tehran whence he was exiled to Baghdad in 1269 of the Hijra (1853 A.D.)

On realising the grave dangers of this sect and the plots its adherents were constantly hatching, the Persian Government put them under strict and vigilant observation.

Many of them went to Baghdad and there they gathered round Mirza Husayn the self-styled Bahau-Allah. In Baghdad they came into dispute with the Shiites, a dispute which well nigh resulted in bloodshed. The Ottoman Government consequently decreed the banishment of the Babists from Iraq and had them transported to Constantinople whence they were exiled to Adrianople.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

BABIISM OR BAHAISM [1]

What is Bahaism? What are the doctrines held by its founders and their adherents? Do they believe in doomsday, heaven and hell? Do they believe in the prophethood of Mohammad on whom be Peace? And if so, how could they believe in a prophet succeeding him and in a religion other than his? What should be done to frustrate their designs so that no one would fall in their snares?

The above questionnaire was sent to us for reply and we give hereafter each question followed by the answer relying for authority, upon the works of the Bahaists [2] themselves and other books [3] written by those who studied their works in Persian and Arabic with a view to exposing their fallacy and as a warning to our Moslem brethren throughout the world against their pernicious propaganda.

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidre Hussain's article in Nour-El-Islam Review.

(2) Al-Durarul-Bahiyya; Book of Abdal-Bahai and Al-Asrul-Jadid.

(3) Muftahu-Babul-Abwab.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

– ٢ –

إعلان الألفة العامة بين الشعوب

بعد أن أعلن الإسلام أنه الدين الحق ، وبيّن الأساس الذى يقوم عليه من الفطرة السليمة والعقل الكامل ، شرع فى إحداث إصلاح اجتماعى خطير الشأن ، تستدعيه مدنية فاضلة أراد الله تعالى أن يكون الدين الاسلامى مفتتح عهدها ، وواضع أساسها .

هذا الإصلاح الاجتماعى الخطير ، هو دعوة الشعوب كافة الى التآلف العام بين جميع الأجناس .

الاسلام وإن كان لا يخرج فى أصوله الاعتقادية عن الدين الأول الذى أوحاه الله الى جميع الرسل السابقين ، فإن الظروف التى تهيأت له لم تتهيأ لغيره من الأديان السابقة عليه ، فقد كان الاتصال بين الأمم على عهد الديانات السابقة من الصعوبة بحيث يتعذر عليها جميعها أن تقوم على دين عام واحد ، فحفظ الله هذا الامتياز للدين الاسلامى الذى كان الاتصال على عهده بين الشعوب ميسورا ، وكانت الحكمة الإلهية تقضى بأن يكون خاتمُ الأديان حاصلا على جميع المؤهلات والمقوّمات التى تجعله عاما ، وصالحا لكل زمان ومكان .

فهل كان العالم عند بعثة النبى صلى الله عليه وسلم بحاجة الى قارعة سماوية تهيب به

الى كلمة جامعة ، والى صيحة علوية ترد المتسكعين فى طرق الغى الى رشد يقف بهم عن المضى فى عمايتهم عند حد ؟

هذا سؤال يحسن بنا أن نكل الجواب عليه الى رجل أجنبى ، هو المستشرق الكبير المسيو (جول لابوم) فقد كتب فى مقدمة الفهرست الذى وضعه للقرآن الكريم باللغة الفرنسية يصف حالة العالم قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم جاء منها قوله :

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) كان جو العالم ملبدا بغيوم الاضطرابات والفتن »

ثم أخذ يفصل هذا الإجمال منوها بما كانت عليه الأمم من التناحر أمة أمة ، ثم خلص من ذلك الى هذه الفذلكة ، وهى قوله :

« الخلاصة أن جوّ العالم الأرضى كان مكفهرا بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل مكان ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ، ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا ، إلا شىء واحد ، هو الغُنْم ، وسلب الأمم والشعوب ، والمدائن والأعيان ، ورجال الحروب ، وفقراء الحرائين ، حتى بسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة ، وبعض المبادئ الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح الى روح أخرى ، بوساطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرق لكانت البربرية أسرعت فى خطاها ، مقودة بغطرسة زعماء البهيمية ، واستحالت الى وحشية محضة »

ثم قال بعد كلام طويل من هذا الضرب :

« على عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ، ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى .

نقول نحن : ولم تكن الأمة العربية بأقل من سائر الأمم تفرقا وتناحرا ، فإنها لانقسامها الى قبائل كانت تؤلف مجموعة من جماعات متعادية لا تعرف للسلام سبيلا ، فكانت جزيرتها ميدانا لحروب جُهلت فيها كل ضروب الرحمة والعطف ، حتى كان الرجل يخصف نعله من جلد عدوه ، بعد أن يقتله ويمثل به .

في هذا العهد المشحون بالقلاقل ، وفي هذا الجو المكفهر بظلمات الفتن ، أوحى الله الى محمد صلى الله عليه وسلم أن يرفع علم الألفة العالمية العامة ، وأن يضع للناس تحت نور الوحي أساسها ، فنزل عليه قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

كان العرب الذين أنزل بين ظهرانيهم هذا الأصل الكريم من أشد الأمم تباهيا بالأنساب ، وتساميا بالآباء ، فكانت كل قبيلة تزعم أنها الضاربة في المفاخر بأوفر السهوم ، وقد غلوا في نزعتهم هذه الى حد أن جعلوا لإبلهم وخيولهم أنسابا يرفعونها بها على سائر الإبل والخيول ، فما بالك بمن نأى عنهم من الشعوب والقبائل ، واختلف وإياهم في اللون واللسان والتقاليد ؟

ولكن الله الذي أنزل الدين الحق ، بعث خاتم رسله صلى الله عليه وسلم بهذا الأصل الكريم يدعوهم اليه ، وإن استهزأ به المستهزئون ، وصدف عنه الجاهليون (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ) .

إن مجرد إعلان هذا الأصل الكريم فى عالم كلٌّ ما فيه يدعو الى الفرقة ، ولا يُطمِع فى الوحدة ، يعتبر من أدل الأدلة على أنه صادر من رب العالمين ، لأن عقل الحكيم مهما حلّق فى جو المبادئ الصالحة فلا يستطيع أن يعدو طوره ، فيفكر فى وضع أصل عالمى كهذا الأصل ، فى وقت تدعو جميع الأحوال الى الصد عن التفكير فيه .

هذه الألفة العامة التى أعلنها الاسلام تعتبر فاتحة لعصر جديد ستدخل فيه الأمم ، ومقدمة لما سيعقبها من الأصول القرآنية العالمية ، التى قصد بها الى توحيد الوجهات والغايات البشرية .

ولا يصح لنا أن نتخطى هذا الموضوع الى غيره دون أن ننبه الى جمال الصيغة الإقناعية ، التى تحلى بها هذا الأصل الخطير ، ككل أصل أعلنه الكتاب العزيز :

بدأ الله تعالى الكلام بنداء الناس كافة الى السماع ، ثم ذكّرهم بأصلهم الأول الذى صدروا منه ، تقديما الدليل على الموضوع ، وهو من لب البلاغات الحكمية ، وصميم الأساليب الإقناعية . ومن الذى يشك فى أن الناس جميعا — وإن اختلفوا بيئة ولونا ومعيشة — أولاد آدم وحواء ؟

هذا التذكير الذى تخطى كل ما أقامه الناس من الحوائل بين العقول وبينه ، وما أوجدته العادات والتقاليد من دواعى تناسيه وإغفاله ، يحفز النفوس لسماع ما ينبنى عليه من أمر جالل ، فتصغى اليه بكليتها ، فاذا استعدت للسمع تلقتها الآية بالغرض من هذا التذكير ، وهو : أن الله جعل الناس شعوبا وقبائل ، ليعرف بعضهم بعضا ، ويقوموا على سنة التآلف والتوادّ ، والتعاون على تذليل عقبات الحياة ، وتوفير وسائل العمران ، ليكون ذلك ماحياً للتناكر الذى يجر الى الحروب ، ويؤدى الى الدمار . فإن الحرب فى العادة سجال ، والنصر دُولة بين الناس . وهى إذا كانت للأغراض المادية البحتة أوغرت الصدور ، وملأت القلوب بالسخائم ، واستدعت الانتقام ، وكل هذا يقوض

أركان النظم ، ويحطم صروح الاجتماع ، ويستنفد قوى الشعوب فى كيد بعضها لبعض ، وتربّص بعضها الدوائر ببعض . وإذا تخيلت عالمًا كل ما فيه من الجماعات متأثر بهذا الروح ، ظهر لك كأنه ساحة حرب ، لايقر فيها السيف فى قرابه ، ولا يثوب فيها الانسان الى رشاده ، تجرى فيها الدماء أنهارا ، وتسيل فيها المهج إسرافا وبدارا . وماذا كنت رائيا لو كانت تتبدل هذه الحال المنكرة بألفة عامة بين الشعوب والقبائل ، وسلام يضرب سرادقه عليها جميعا ؟ أما كانت تتحول قواها الأدبية الى ما خلقت له ، من إقامة صرح الخير العام فى العالم ؟

هنا تشعر النفس بسمو هذا الأصل ، شعورا يكاد يدفعها الى الأخذ به دون أن تتردد فيه ، لولا مايثور فيها من بقايا العصبية التقليدية ، من ادعاء كل قبيل بأنه الأولى بالزعامة ، والأحق بالكرامة ، محتجا بأن جنسه أشرف الأجناس البشرية ، وأن من عداه فأجدر به أن يبقى فى العبودية ، وأن يحمل له نير التبعية . هنا يتلقاه الأصل الكريم الثانى ، الذى تضمنته هذه الآية الجامعة ، وهى قوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ، أتقاكم ، أى أخوفكم لله ، وأعملكم بمحابه ، من : العدل ، والإنصاف ، والمساواة ، والوفاء بالعهد ، ومكافحة الشهوات ، والخضوع لسلطان العقل ، والخروج من طاعة الهوى ، والانتداب لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، والتخلق بأخلاق الله ، والاضطلاع بخلافته فى الأرض .

بهذا الأصل السامى أصيبت العصبية فى مقتلها ، وجُدع أنف الجنسية من منبته ، وسقطت جميع ضروب الخلافات الاجتماعية الى الحضيض الذى هي أولى به ، فلم يبق ما يمنع أن يعيش الناس إخوانا متعاطفين متكافلين غير ما علق فى النفوس من إيثار الفرقة ، وأصبح من غرائزها ، بسبب أخذها بتعاليم ضالة ، وتقاليد ضارة ، يجب العمل على اجتثاث أصولها ، وتطهير الصدور من آثارها ، وهو الأمر الذى نيط بالإسلام

أن يقوم به ، من طريق بث تعاليمه ، ونشر أصوله ، وتعميم مبادئه بكل وسيلة من الوسائل المشروعة : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

أما وقد انتهينا الى هـذا الحد ، فلا نعدم معترضا يثور فى وجهنا قائلا : اذا كان الاسلام يدعو كما تقول الى الألفة العامة بين الشعوب والقبائل ، والى السلام الشامل للكافة ليفرغوا الى طلب الكمال الشخصى والاجتماعى على سنة التعاون والتكافل ، فلمَ عمد الى الحرب فأوقد نارها ، والى البقاع المجاورة لبلاده فطلب استعمارها ، والى الأمم القريبة منه والبعيدة عنه فانساح فى بلادها ، وانساب فى ربوعها ، فهلا اكتفى بدعوتها الى محجته بالحجة ، والى اكتساب هواها بالإقناع والأمثلة الصالحة ؟

فجوابنا على هذا الاعتراض هو : أن من حكمة الاسلام مشايعة السنن الطبيعية ، ومسايرة العوامل الاجتماعية ، وقد كانت تلك السنن والعوامل الى عهده تقتضى شيئا من القوة ، وإلا بطلت الدعوة وسكنت حركتها ، وزالت ولم تحـدث أثرا . ألا ترى أن ديانة عيسى عليه السلام لما فيها من التحريم الصريح للحرب ، قـد بقيت أكثر من ثلثمائة سنة فى حالة ضعف عام ، حتى إن ملوك الرومان كانوا يقتّلون أشياعها تقتيلا ، ويمثلون بأجسادهم وهم أحياء تمثيلا ، ويتعقبونهم فى كل مكان يلجأون اليه ، حتى جاءهم الأمبراطور كونستنطين ، وكانت أمه قـد دخلت فى المسيحية وربته عليها منذ نعومة أظفاره سرا ، فلما تولى الملك استخدم القوة فى نشر هذا الدين ، فأمر بهدم المعابد الوثنية ، وأجبر الناس بالحديد والنار على الأخـذ به ، فأصبح له من ذلك اليوم دولة وصولة ، ولا يزال الى اليوم راسخ الدعائم فى كثير من بقاع المعمورة لهذا السبب نفسه ؟

فلو كان الاسـلام قرر الاكتفاء بالدعوة دون استخدام القوة ، لبقى محصورا فى جزيرته ، ولتصدى المشركون أتباعه فأجبروهم على تركه . فاذا قـدر له أن ينجو

من الحق ، كان بمثابة ديانة ابراهيم التى كان يقول بها رجال هنا وهناك من بلاد العرب وليس لهم أثر بين الجماعات البشرية .

على أن الاسلام وإن اتخذ أسلحته وعدته للحرب ، فقد لطف من حدتها ، وكسر من شرتها ، وحسّن من أساليبها ، فجعل لها قانونا عادلا ، ونظاما محكما ، وأمر بعدم الاعتداء فيها . وأكبر ما يُسَجل له من أمرها أنه لم يَشْرعها لنيل المغانم ، وفرض المغارم ، ولكنه جعلها وسيلة لنشر كلمة الله بين الأمم ، ولم تَشْرع أمة قبله الحرب لهذا الغرض قط ، بل شرعتها لإذلال الجماعات وسلب ما بيدها ، واجتياح ثمراتها ، والاستيلاء عليها .

ومع هذا فقد وصى الله نبيه بأن يكون مرماه الخير العام فى كل ما يحاوله منها ، حتى إذا جنحت الأمم للسلام فى يوم من الأيام ، لأى اعتبار من الاعتبارات الاجتماعية ، فعليه أن يلبى دعوتها ، وأن يلقى السلاح معتمدا على وسائله الأخرى ، فقال تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

الخلاصة أن هذه الصيحة التى رنت فى بلاد العرب تدعو الى التعارف العام بين الأمم لأول مرة فى تاريخ العالم ، لا يزال صداها يرن فى الآذان ، وقد دفع التطور بالأمم الى محاولة الأخذ بهذا الأصل . فما المؤتمرات التى تعقد لتحديد التسلح ، والعهود التى تقطع على الدول لعدم جعل الحرب وسيلة لنيل مطالبها ، إلا تحقيقا لهذا المبدأ العظيم الذى دعا إليه الإسلام قبل نحو أربعة عشر قرنا ، وله المثل الأعلى فى كل ما دعا إليه وعمل عليه ، كما سنبينه تفصيلا فى مقالاتنا المتتابعة هنا ، تكميلا لصرح المدنية الفاضلة فى العالم كله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

محمد فريد وجدى



سورة النور

١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ . وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) .

لقد أرسلت الآى السابقة على المنافقين تلك الصيحة الهائلة التى أزعجتهم، وهتكت سرائرهم ، وفضحت ضمائرهم ، وألقمتهم الحجارة ، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، وأقامت فى وجوههم الحجة على نفاقهم ، مأخوذة من قبيح أعمالهم ، فلم يبق إلا أن يؤمن المؤمنون على نقاء ،وأن ينسحب المنافقون عن حظيرة الإيمان مكشوفين مفضوحين . ولما حاولوا سترفضائحهم بالقسم على الطاعة رد عليهم بهذا الرد الشديد، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : « لا تقسموا طاعة معروفة» الخ الآية .

ولما كان مثل هذا من شأنه أن يدعو الى التفكير، لاسيما عند قوم هم فى دور البناء

والتكوين ، يهمهم أن يكثر سوادهم ، وتتمكن قوتهم ، ويزداد الإقبال على ما يدعون اليه من هدى الله ودين الحق ، ومن حولهم العرب والأمم تناوئهم وتناصبهم العداء ، فهم بحاجة الى أن يزدادوا وينضم اليهم غيرهم ، وليس من السهل عليهم أن ينتقصوا وينفصل منهم من انضم اليهم ، فلعل خاطرا يهجس فى بعض النفوس قائلا : « لعل الحكمة كانت فى أن يبقى أمر أولئك مستورا ، فربما كان فى انضمامهم تقوية لعامل القوة وتكثير لسواد الأمة » فجاءت هذه الآية الكريمة مطمئنة لقلوب المؤمنين ، مسكنة لروعهم ، تزف اليهم البشرى السارة التى تقر أعينهم ، وتشد أزرهم ، وتثبت عزائمهم . ذلك وعد الله بنصره للمؤمنين ، بل باستخلافهم فى الأرض ، وتمكين دينهم ، بتثبيت قواعده ورسوخ بنيانه ، إذ يقول جل شأنه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » الخ . ووعد الله ناجز لا محالة ، وقد ناطه بالإيمان وعمل الصالحات . وقد حقق الله وعده ، فاستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ومكن لهم دينهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا .

ولا يزال هذا شأن من آمن وقام بحق إيمانه ، وعمل الصالحات التى أمر الله عباده أن يقوموا بها ، فأقام العدل ، وضبط النظام ، ونشر الأمن ، وأخذ الحيطة كما أمر الله سبحانه وتعالى .

والتمكين للدين تثبيت قواعده ، وإعزاز جانبه ، ليترتب على ذلك ثباته واستقراره ، وعدم زعزعته بقيام حجة ضده ، أو وهن البراهين المؤيدة له . وكأنه من التمكن فى المكان ، أى الاستقرار فيه ، والسلامة من الزعزعة . وفى إضافة الدين لضميرهم تربية لوجه الامتنان عليهم . كما أن فى وصفه بالذى ارتضى لهم تنويها بشأنه ، وإعلاء لقدره . وقوله : «وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا» فيه طمأنة للمؤمنين ، واقتلاع لجرائيم الخوف من أفئدتهم ، ذلك الخوف الذى يلم عادة بقلوب الفئة القليلة إذا تألب عليها

أعداؤها الكثير و العدد ، الشديدو البأس والطول . وكان ما يساور بعضهم من الخوف الشديد يدعوهم الى الحرص على تكثير سوادهم ، بالإغماض عما يصدر من بعضهم ، وإن كان كاشفا عن سوء النية ، وفساد الطوية ، ليؤمن جانب أولئك المنحرفين بعض الأمن بكونهم فى صفهم ولو بحسب الظاهر ، فجاءت الآية لتثبيتهم ، وتقوية نفوسهم ، وطأ نينتهم على أن الفوز مضمون لهم ، وأن النصر قريب منهم ، وأن هذه المخاوف ستستبدل بالأمن .

ثم ذيل الآية بما يقرر هذا الوعد ويثبته فى النفس أبلغ تثبيت ، فقال عز من قائل : « يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » . وفى هذا الأسلوب البليغ ما يشير الى أن ما وعد به المؤمنون من استخلافهم ، وإعزازهم فى الأرض ، وتمكين دينهم ، وحياطتهم بالأمن الشامل ، إنما كان جزاء إخلاصهم لله فى العبادة ، وأنهم يعبدونه لا يشركون به شيئا .

أما قوله جل شأنه بعد هذا : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » فهى لترتيب حكم يلمحه العقل من سابق الكلام ، أى سيكون الأمر على ما ذكرنا من إعزاز المسلمين ، والتمكين للدين ، وتأمين الخائفين ، وحينئذ تنقطع معاذير الضعفاء المترددين ، ويسد باب التضليل فى وجوه أولئك الشياطين ، فلا يكفر بعد هذه المظاهر التى أيد الله بها عباده إلا من فسق عن أمر ربه ، وخرج عن حظيرة الهداية ، وصار كأنه وراء دائرة التخاطب المعقول .

وأصل الفسق الخروج عن الدائرة المحدودة المعروفة اللائقة . يقال : فسقت الرطبة ، أى خرجت عن قشرتها التى كانت تحتويها وتحفظها . واستعمال الفسق فى العصيان الذى لم يصل الى درجة الكفر استعمال عرفى غير المعنى اللغوى الأصلى المراد هنا .

وقوله : « بعد ذلك » لتقوية الاستبعاد ، أى أن الكفر مع وضوح آيات الهدى لا ينبغى أن يصدر إلا من عدو نفسه ؛ فما بالك وقد تأيدت تلك الآيات بأن

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز دينه ، وأعلى كلمة أوليائه ، أفينتظر كفر بعد هذا الذى صورناه لك ؟

ثم قال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » :

يجرى مثل هذا الأسلوب فى القرآن الكريم كثيرا ، فبعد أن يستوفى أمر الرد على الكافرين ، وبعد أن تقام الحجة فى وجه المعاندين ، ويفضح جليا أمر المنافقين المخادعين ، وتبلغ الحجة غايتها وتستكمل نصابها ، يعود الى أهم ما يوجه اليه اهتمام المؤمنين ، فيأمرهم بإقامة الصلاة التى هى عماد الدين . وذلك كما يجرى فى التخاطب المتعارف ، فإنك تجد هذا الأسلوب كثيرا ما تنساق إليه العقول ، إذ يفيض المتكلم فى بيان حجته وتقرير دعواه ، حتى يبلغ القصد منها ، ويصبح ولا حاجة له فى المزيد على ما قرر بشأنها ، فيقول لمخاطبه : ولنعد الى أهم ما يعنينا : إنه يجب أن نعمل ما فيه مصلحتنا ، ونعرض عن الاهتمام بأولئك بعد ما بلغنا منهم ما أردنا .

والصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن أضاعها فهو لما سواها أضيع . وحسبك فى شأنها قوله تعالى : (إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ) .

ولا يهولنك وقوع بعض المنكرات من بعض المصلين ، فما كان عملهم إلا صورة صلاة خالية عن مخها ، وهو الخشوع ، وكمال الاستحضار . فما أجدر أمثال هؤلاء بالدخول فى قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ) .

والزكاة تكاد تلازم فى القرآن ذكر الصلاة ، وذلك لأن فيها من كمال الفائدة العائدة على جماعة المسلمين ما يقوى الأواصر ، ويصفى الضمائر ، ويزيل الشحناء ، ويؤكد التراحم والتعاطف .

أما قوله تعالى : « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » فهو تعميم لكل الأحكام التى جاء بها المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن جهة أخرى تنصيص على ما سيق الكلام السابق لتقريره ، وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تحبه النفس وفيما تكرهه ، بل أن تجعل النفس هواها تبعا لما أمر به صلى الله عليه وسلم ، ولفظ لعل فى القرآن الكريم يفيد التعليل المصحوب بالرجاء فى جانب المؤمنين . وحاصل معناها : أدّوا ما أمرتم به ، فإنه أرجى للرحمة ، وأدنى الى انتظارها وإحرازها . والتعليل به غير التعليل بالام وكى ونحوهما ، فإن ذلك فيما يكون فيه الارتباط بين العلة والمعلول مطردا البتة ، وأما لعل وعسى فهو تعليل يتصل به أشياء لابد من توافرها ، كإخلاص النية ومزيد التوفيق ، والقبول عند الله عز وجل .

وقوله تعالى : « لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض » فيه من رفع استبعاد النفوس تحقق الوعد السابق ما فيه ، فكأنهم لما وعدوا بهذه العدة العظمى ، وهى أن يستخلفوا فى الأرض ببسط السلطان ، وأن يمكن لهم فى الدين بالإعزاز وقيام البرهان، وأن تزول عنهم المخاوف ويعمهم الأمن والأمان، وكانت هذه المنن بحيث تتطلع النفوس شوقا اليها، وتتلهف حرصا عليها ، والعادة أن يدركها مع عظيم التشوف شىء من الهواجس والترقب ، أزيلت عنهم تلك المخاوف ، وسد فى وجهها كل طريق .

فالآية السابقة بدّدت المخاوف من ناحيتهم هم ، وذلك فى قوله تعالى : « يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » أما هذه الآية ففيها تبديد لمخاوف المؤمنين من ناحية أنه تعالى واسع القدرة ، أى فاذا كنت أنا المهيمن على جميع الأشياء ، القادر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ، واهب القوى والقدر ، المعز المذل ، وكان هؤلاء قد وفقوا لعبادتى لا يشركون بى شيئا ، بينما أعداؤهم قد اتبعوا الشياطين فضلوا عن سبيل العبادة ، أفلا يكون حقا أن أنصر عبادى على أعدائى .

وفى هـذه الآية إزاحة للاستبعاد الناشىء من استعظام شأن أولئك الأعداء ، فكانت النفوس تنظر الى ما هم فيه من كثرة عدد واستيفاء عدد ، فجاءت الآية مزيلة لهـذا الهاجس أيضا ، فقال جـل من قائل : « لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض » أى لا تغفلوا عن حالهم الحقيقية ، وأنهم لا قدرة لهم من ذاتهم ، وكل ما هم فيه فإنما هـو إمدادٌ منا ، وهم فى كل حال فى قبضة قدرتنا ، فلا يحسبن حاسب أنهم يعجزوننا أو يخرجون عن قدرتنا . فالخطاب فى لا تحسبن لمن يتأتى منه الحسبان .

ومعنى الإعجاز : الفوت عن أن تلحق بهم قدرته تعالى ، والهرب من وصول أثرها اليهم . وقوله : « فى الأرض » تنبيه للأذهان الى ما يقتلع جذور ذلك الحسبان . أى فأين يعجزوننا وهم مهما ذهبوا فى الأرض فهم فى دائرة سلطاننا ؟ فأين يذهبون ، وكيف يغلبون ؟ ولا شك أن من التفت الى هذا فقد اقتلع من نفسه كل جذور الاستبعاد . فالغرض من قوله : فى الأرض ، سد جميع المسالك أى لا تحسبنهم فائتين قدرتنا وإن هربوا كل مهرب .

وقوله تعالى : « ومأواهم النار » وعيد لهم بالعذاب فى الآخرة ، بعد وعيدهم بالإهلاك فى الدنيا ، فإن الآية الأولى وإن كانت نهيا عن الحسبان فهى دالة دلالة ظاهرة على الإخبار بأنهم هالكون لا محالة . فكأنه قيل : لا تحسبنهم يعجزوننا ، بل فى قبضتنا ، ذائقون فى هذه الحياة من النكال منا ، ومأواهم فى الحياة الأخرى النار . وقوله : « ولبئس المصير » تذييل لسابق الكلام ، متضمن معنى راحة المسلمين من ناحيتهم ، فإن مثل هذه الجملة إنما تقال لمن ذهبت ريحه ، واستراحت النفوس منه الى النهاية .

وإنك حين تتأمل تنويع الإفادة فى النظم الكريم ، وإيفاء كل مقام حقه على أبلغ وجه ، ثم تنقل الإفادة من مهم الى مهم ، تجد الهداية قد تجلت فى كل ناحية من نواحيه والنور يشرق من جميع جوانبه ، فاللهم اهدنا بنوره ، وأحى نفوسنا بهدايته ، إنك سميع مجيب ؟

ابراهيم الجبالى

الاسلام – والعلم

طلع الاسلام فوجد طرقا من الباطل مسلوكة ، ومظاهر من الفساد مألوفة ، فجاهد تلك الأباطيل حتى زهقت ، وكشف عن قبح تلك المفاسد حتى هجرت . قوّم النفوس حتى استقامت على توحيد الله تعالى ، والعبادات التى يتقبلها ، ويجزل المثوبة عليها ، وعلّمها بعد هذا كيف تعيش فى هذه الدنيا عالية الهمم ، نبيلة الأعمال ، عزيزة الجانب ، محفوظة الكرامة ، مأمونة العواقب ، سديدة الأنظار ، رشيدة الآراء ، متواصلة القلوب . وتفاضل الشعوب على قدر أنصبائها فى هذه الخصال والمزايا التى لا تتحقق المدنية الفاضلة إلا بها .

دعا الاسلام الى تلك المقاصد السامية ، وأخذ فى دعوته بإقامة الحجة ، وإلقاء الحكمة ، وضرب الأمثال ، وإيراد القصص العامرة بما فيه عبرة .

نشأ هذا الدين الحق بين خصوم يناصبونه العداء ، ويأتمرون به ليطفئوا نوره ، ويقطعوا السبيل دونه ، وما كان إلا أن خاب سعيهم ، فسطعت حجته ، وعلت كلمته . ومع سطوع حجته وعلو كلمته يلقى فى كل عصر طوائف يأكل الزيغ قلوبهم ، فيطعنون فيه علنا ، أو يذهبون فى الكيد له مذهب التأويل الفاسد وهم يعلمون .

ولم يفقد بتوفيق الله تعالى فى كل عصر طائفة من ذوى العقول الراجحة لا يخشون فى الذود عن موارده لومة لائم ، فيزيحون من طريق هدايته ما يلقيه أولئك الجاحدون أو المراءون .

ومن هذه الطوائف الخاطئة من يزعم أن الإسلام لم يبعث الدواعى الى طلب العلم . والواقع أن الإسلام قد رفع قدر العلم ، ونوه بشأن العقل ، وسلك بطلاب العلم

مسالك النظر والاجتهاد ، وعوّدهم على نقد الآراء وتمييز زائف الأخبار من صحيحها ، فلما نقلت العلوم النظرية الى اللغة العربية ، وجدت منهم نفوسا تلذ العلم ، وعقولا تنشط للمناظرة ، وألسنة تعرف كيف تقرر الحجة ، ففتحوا لها صدورهم ، ووضعوها تحت سلطان أنظارهم ، ولم يمنعهم إعجابهم بها ، وتنافسهم فى التضلع من مواردها ، أن يطلقوا الأعنة فى مناقشتها ، وتقويم المعوج من مذاهبها ، فسدّوا ثغورا يأتى من قِبَلها الباطل ، وذلّلوا لطلاب العلم الطريق الذى تفيأوا فيه ظلال الرشد ، وتدنى فيه الفلسفة المعقولة قطوفها ، فقامت للعلوم على اختلاف موضوعاتها سوق نافقة ، وأصبحت ترى علوم الشريعة وعلوم الفلسفة المعقولة يلتقيان فى النفوس المطمئنة بالايمان ، وتسنّى للتاريخ أن يحدثك عن كثير من علماء الاسلام ، ويصفهم بأنهم جمعوا بين العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية ، كالغزالى وابن رشد ، وأبى عبيدة مسلم بن أحمد الأندلسى ، وهو أول من اشتهر فى الأندلس بعلم الفلسفة ، وكان مع هذا صاحب فقه وحديث .

ومن الظن الخاطئ ما تخطه بعض الأقلام من أن هذه العلوم المادية قد تشد أزر الالحاد ، وتجعله يظهر على دين كدين الاسلام ، فإن النظر الصحيح فى هذه العلوم لم يأت بما يؤازر الإلحاد ، وليس فى نصوص الدين الاسلامى وأصوله ما يتعارض مع العلم الصحيح ، حتى يستطيع الإلحاد أن يتخذ منه قوة ، وإنما الآراء التى تدفعها الحجة ، قد تقع فى يد من لا يحسن نقدها ، ولا يميز رأسها من عقبها ، فيعارض بها آية من كتاب الله ، أو حديثا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذهب فى الحيرة أو الضلالة الى مكان بعيد . وقد تكون آفة الرجل من عدم تفقهه فى الدين وتخيله أن معنى الآية أو الحديث يخالف ما أثبته العلم الصحيح .

فبلاء أبناء المسلمين الآن من أحد رجلين : رجل يتعلق بآراء المنتمين الى الفلسفة ، لا يفرق بين جيدها وزائفها ، حتى إذا لقى فى الدين مالا يوافق تلك الآراء

الزائفة ، خالطه الريب أو الجحود ؛ ورجل يدرس الفلسفة ولكنه لم يدرس الدين في طمأنينة ، ولم يبحث في حقائقه بنظر فاصل ، فيتوهم أن بعض نصوص الدين أو أصوله لا يطابق المعقول .

ماذا يكون مبلغنا من الحكمة إذا لم نزن آراء علماء الغرب بالقسطاس المستقيم ، ولم نفرق بين ما ينبنى على علم أصيل ، وما يقولونه على وجه الفرض ، أو يتعلقون فيه بشبه واهية ، وعمدنا الى كل نص يظهر لنا أنه مخالف لرأى من آراء أولئك العلماء ، فنذهب في تأويله الى معنى يطابق ذلك الرأى ، حتى إذا انكشف الحق ، وظهر للملأ أن ذلك الرأى خيال في خيال ، عدنا الى ذلك التأويل فمحوناه بأيدينا ؛ وكذلك يفعل من يستهويه كل ناعق ، ويفتنه كل جديد .

لم يخلص الدين من مبتدعة أو زنادقة افتروا عليه مزاعم باطلة ، وذهبوا في تأويله مذاهب فاسدة . وقد قام علماء الشريعة الذين يردون منابعها العالية ، فبينوا بطلان تلك المزاعم وفساد تلك المذاهب ، فما كان لأحد أن يأتى الى أمثال هذه الأقذاء التى نفاها أهل العلم من قبل ، ويتخذ منها شبهة على أن في الدين ما لا يقبله العقل أو لا يرضى عنه العلم .

فإنْ بدا لك أن في قسم العبادات ما لم يصل العقل الى حكمته الخاصة ، وهو ما يقول فيه بعض العلماء : هذا الأمر تعبدىّ ، قلنا : معنى هذا أن في الشريعة أحكاما قد تخفى على العقل حكمتها المعينة ، كما أنه لا يستطيع إنكارها إنكارا يستند الى وجه معقول . وهذا النوع على قلته في شريعة الاسلام ليس بموضع خلاف بين الدين والعلم أو العقل ، وإنما يرينا أن من أحكام الدين مالا يدخل العقل في تفصيل حكمته ولا في نفى حكمته ، ولكن الآيات القائمات على أن الدين حق ، هى الآيات البينات على أن هذه الأحكام مطوية على حكمة بالغة ، وإن لم ندركها بوجه خاص ، فإن الدين الحق لا يدعو إلا الى ما فيه خير (وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) .

محمد الخضر حسين

حكم الله فى التبرج

الحجاب — السفور — التبرج — صور النساء — نشرها فى الصحف
التجديد وفى أى شىء يكون — تزين الرجال بزينة النساء

س — ما حكم الله تعالى فى حضور المسلمات حفلات السينما والملاهى التى تبعث فى القلوب ينابيع الشر والفسق والفجور مما هو شائع ومشهور ، أو يوجد فيها اللهو بالآلات المحرمة التى لا تخلو من نظر رجال الأجانب الى وجوه النساء وشعورهن وأعناقهن وغير ذلك ؟ وما الحكم أيضا فى ذهاب المسلمات الى حوانيت الحلاقين لقص الشعر بيد الرجال ، أو بيد النساء مع حضور الرجال ونظرهم الى رءوس النساء وأعناقهن ، فهل يفترض منع جميع ذلك فى دين الإسلام ؟

الجواب

ظهور السيدة خارج منزلها :

خروج السيدة من منزلها متبرجة يأباه الدين وتأباه الكرامة بإجماع المسلمين ، ولا يرضى به إلا من هو بعيد عن الخلق والدين . فاذا خرجت المرأة لمقتض فلا يباح لها الخروج بحالة تبرج وتزين يكون داعية الى نظر الرجال . قال الله تعالى : (وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولىٰ) . وقد نص الفقهاء على أن بدن السيدة كله عورة إلا وجهها وكفيها . فلا يجوز لها أن تبدى شيئا فى الطرقات والأسواق والحفلات والمجتمعات العامة ولو مع أمن الفتنة ، لأن ذلك عورة لا يجوز إظهارها . أما الوجه فإنما يجوز النظر اليه لمن يأمن الفتنة . أما من لا يأمنها فلا يجوز له النظر ،

ولو أن الوجـه غير عورة ، لأنه لا تلازُم بين كونه ليس عورة وجواز النظر اليه ، إذ جواز النظر منوط بعـدم خشية الفتنة .

وصفوة القول أنه إذا خرجت السيدة لما يقتضى الخروج فينبغى أن يكون خروجها فى حشمة ووقار ، وعلى كيفية لا تجلب اليها أنظار المارة من الرجال والشبان . وظاهر لك من هذا أن خروج السيدة ليلا أو نهارا لمثل ما جاء فى السؤال من الحفلات الروائية وحفلات السينما التى تقول إنها تبعث فى القلوب ينابيع الشر ، وإنها لا تخلو من نظر الرجال الى وجوه النساء وأعناقهن ، لا يجوز ، لما فى ذلك من الفتنة ، ولما فيه من الوقوع فى المحرم فعلا ، كنظر الرجال الى أعناق السيدات وشعورهن ، وغير ذلك مما لا يجوز النظر اليه .

والقاعدة أن كل ما فيـه فتنة أو فتح باب فتنة محظور غير جائز ، لأن سد الذرائع مقـدم على جلب المنافع . ولا شك أن ذهاب المسلمة الى حانوت الحـلاق لقص أو حلق شعرها ، بيد رجل أو بيد امرأة ، مع حضور الرجال ونظرهم الى رءوس النساء وأعناقهن ، أمر غير جائز ، لأنه فضلا عما فيه من كشف الشعر والعنق — وهما عورتان ـ هو تبرج ممقوت .

السفور :

ولا شك أن الخروج على الوصف الوارد فى السـؤال لا يجـوز شرعا . وقد التبس الأمر على كثير من الناس ، فظنوا أن مجرد أن وجه المرأة ليس عورة يبيح لها الخروج سافرة ، مهما ترتب على ذلك من فتنة ، كما ظن هـؤلاء أنه ما دام الوجه غير عورة يجوز النظر اليه ، وكلا الأمرين غير صحيح . والأساس الذى يجب السير عليه هو خشية الفتنة ، فمتى وجـدت لا يجوز الخروج ، كما لا يجوز النظر لمن لا يأمن الفتنة .

ولقد ترتب على هذا الظن الخاطئ أن تورط الناس فى ذلك تورطا فاحشا ، فأصبحت بعض السيدات تغشى الطرقات دون حاجة ، وتختلف الى محلات التجار سافرات متبرجات يستجلبن النظر البهن ، ولا تخرج إحداهن إلا متزينة بأبهى زينة ، سافرة بادية الذراعين والعنق والصدر وبعض الظهر ، دون حياء أو مبالاة بخاق أو دين . ولقد بلغ من أمر بعض هؤلاء أنهن أصبحن لا يبالين بالأخلاق الفاضلة ، وفقدن خلق الحياء بالمرة ، وأصبحن كالنساء فى الجاهلية الأولى . وقد نعى الله على أصحابها فى القرآن ، وأمر النساء بترك التبرج .

الداعون الى السفور :

وكأنى بأصحاب الدعوة الى السفور يندبون الأخلاق لأنهم لم يكونوا يتوهمون أن يترتب على ما قاموا به من دعوة الى خروج المرأة سافرة ما عليه النساء الآن ، لأن دعوتهم لم تكن إلا مصحوبة بطلب الحشمة والوقار ، حتى إنهم نعوا حين دعوا على من تستر وجهها بخمار لا يحجب ما وراءه ويدعو الى النظر . وما كان ذلك إلا لأنهم يرون أن جواز كشف السيدة وجهها يجب أن يكون مصحوبا بغير تبرج ، كما يجب أن يكون مصحوبا بترك الزينة التى تجاب الأنظار . ولقد كانت دعوتهم الى إبداء الوجه واليدين اعتمادا منهم الى أن ذلك أدعى الى عدم التبرج وترك المهازل التى كان عليها النساء وقت الدعوة من التستر بخُمُر لا يغيب ما وراءها ، بل تكون داعية الى تحديق النظر أكثر مما لو كان الوجه عاريا والزينة متروكة .

تلك كانت دعوتهم ، ولكنها للأسف لم تفهم على وجهها الصحيح ، فوقعنا فيما نراه الآن : من انهيار الأخلاق ، وضياع الحشمة والوقار ، بل وضياع المروءة فى بعض النساء ، حتى أصبحن تبرزن للناس بوجه ليس فيه حياء ، تكاد الواحدة منهن تخرج عارية . وإن لك فيما تراه من الصور التى تنشرها جرائد الصباح والمساء لأكبر العبر فيما وصل اليه الحال الآن .

التبرج والشكوى منه :

ولقد راقنى ماقرأته لبعض الكتاب فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٧ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ تحت عنوان «ما قل ودل» ، فقد جاء فى هذا المقال ما نصه : « الأسكندرية فى أوجها ، و«ستانلى باى » صباح الأحد هائج مائج . لقد طفح عليه قطار البحر مئات المتلهفين على رؤيته ، الذين تنقصهم الموارد ، والناس يجذب بعضهم بعضا ، فهذا رجل حائر يدور بآلة التصوير فى يده ، يلتقط عن يمينه وشماله ، ويجتهد فى الحصول على الصور الشاذة الخارجة ، يريد الاحتفاظ بتذكار دائم » الى آخر ما كتبه ذلك الكاتب القدير من قوله : « ولكن جزعى ليس من أجل واحدة أو اثنتين أو عشر فتيات ، ولكن جزعى هو من أجل المستقبل . أخشى عشر السنين القادمة ، أخشى التحضير للحرية عن طريق الاستهتار » ؛ الى أن قال : فإننا يجب أن ننفخ فى صور الفضائل ، ونمجد اللواتى يجلسن الى مكاتبهن السنين الطوال ، يدرسن ويبذلن شبابهن فى خدمة المجتمع ، فهؤلاء هن اللواتى يحضرن هذا المجتمع للحرية العاقلة ، الرزينة الكريمة ، لا اللواتى يقتبسن آخر أزياء البجامات من شاطىء « ستانلى باى » .

صور النساء :

راقتنى هذه الكلمة حقا ، وبقدر ما راقنى هذا الأسلوب البديع للدعوة الى الأخلاق الفاضلة وترك التبرج الممقوت ، ساءنى والله ما رأيته فى إحدى جرائد الصباح من رسم ثلاث فتيات من مدرسة لتعليم الرقص ، ومن رسم فتاتين بثياب البحر تلعبان مع صديق لهما بقذفه الى الماء ، ومن رسم الألعاب على شواطىء البحر ، التى سمتها الجريدة « قذفة الخروف » فإن هذه الرسوم التى تنشرها جرائدنا على اختلافها ليس إظهارها من صالح مجتمعنا ، ولا هى تناسب قوميتنا . وظهورها يرغب فتياتنا فى هذا ، وهو ما ينافى أخلاقنا وديننا .

ساءنى هذا ، كما ساءنى غيره من كثير مما أراه من الرسوم فى صحيفة الصور التى تنشر فى جرائد الصباح والمساء ، وقلت : حبذا لو أن كُتّابنا وجهوا عنايتهم وأقلامهم البليغة الى محاربة هـذا الصنيع الممقوت ، الذى لم يقف عند النساء ، بل تعداهن الى الشبان ، فإن منهم — والحسرة تملأ القلب — من يتزين بزينة النساء ، فيضع المساحيق على وجهه بجميع أنواعها ، فهذا والله داء وبيل ، وصنيع ممقوت ، وأمر يأباه شرعنا ، وتأباه الفضيلة ، ويدعو الخاق الى تغييره . وإنه لما يدمى له القلب ويضيق له الصدر أن يترك القوم أوامر دينهم التى يؤيدها العقل ، ويسلم بها الطبع السليم ، وتدعو اليها الفضيلة . فإلامَ نبقى على تلك الحال السيئة ؟ ! وأين الآباء والأزواج ؟ ! إنهما مسئولان قبل كل أحد ، مسئولان عن تدهور الأخلاق وراء ما نسميه تمدينا . ألا قاتل الله التمدين إذا كانت هذه آثاره وتلك نتائجه !

لقد اعتدنا وا أسفاه على أن نأخذ من عادات الغير ما هو ضار ونترك ما هو نافع . ولو أننا تمسكنا بأخلاقنا وقوميتنا تمسك هؤلاء الذين نقلد بعضهم ، لما وصل حالنا الى ما وصل اليه اليوم . فها نحن أُولاء نسمع أن بعض الدول العظمى قد بلغت أسمى المراتب ، ومع ذلك لا تزال متمسكة بعاداتها التى كانت لها فى العصور الوسطى . أما نحن فمع أننا لم نبلغ شأواً فى الدنيا ، فقد تركنا الدين والخلق ، وأخذنا بكل جديد ، دون نظر الى آثاره وما يترتب عليه ، حتى نشأ عن ذلك أن انهارت أخلاقنا ، وكثرت فينا المفاسد، وفشت البدع ، حتى صار القبيح المجمع على قبحه حسنا فى نظر البعض ، يحبذه ويدعو اليه . ولك مما تنشره بعض الجرائد الأسبوعية فى تحسين ما ليس بحسن الدليل القاطع على أننا قد كدنا ننسل من الأخلاق الفاضلة . واليك مثلا أنت الحكم فيه بعد سماعه :

نشرت إحـدى الجرائد الأسبوعية أن ممثلة من الممثلات عقدت مباراة بين الممثلات ، لابسات ملابس البحر ، عرضتهن وهن كذلك على النظارة ، وجعلت الحكم

لبعضهم فى أى الفتيات أحسن ، فحكموا لإحداهن ، وقد رسمتها هذه المجلة بملابس البحر ! فهل رأيت أوسمعت مثل هـذا فى بلد يدعو دينه الى مكارم الأخلاق ؟ ! إنى لا أكاد أصدق أن مثل هـذه الأمور بلغ مسامع القائمين بالأمر فينا ؛ ولو سمعوه لمنعوه وعاقبوا القائمين به ؛ لأن هـذا الضرب من التهتك بل الجنون فى التهتك انتحار لأخلاقنا !

هذا مثل من كثير من تحسين ما ليس بحسن ، والدعوة الى ما ينافى الفضيلة . ولا أدرى أى نفس تلك التى تستحسن تحبيذ هذا الفعل القبيح وهو خزى فى الدنيا والآخرة ، ومعصية تأبى الأديان وجودها ، وتدعو الى قطع شأفتها ومحو جرثومتها ؟ !

وما جاءنا هذا إلا من اتباع الهوى ، وعدم تحكيم العقل ، والتقليد الأعمى فى كل ضار ، وترك تعاليم ديننا ، حتى أصبح الذى يدعو الى خلق حسن وعادة قومية ، وينهى عما ينهى عنه الشرع ، محلا لسخرية أصحاب الهوى والغرض ، يسكبون عليه جام غضبهم ، ويوجهون اليه كل لوم ، وينسبونه الى الجهل وقلة الذوق ، مهما كان من أمره . ولو درى الألى يعملن هذا وعلم الذين يدافعون عنهن بأن الكل بهذا قد ذهب بخلق الأمة وهدم قوميتها ، وارتكب محظور دينه — لو علم هؤلاء ذلك وتفطنوا له ، لثابوا الى رشدهم ، وحالوا بين الأمة وما هى فيه من سوء الأدب . ولكن ما الحيلة وقد ابتعد الناس عن الدين والخلق المتين ، حتى كاد ينقض من الأساس ، وأصبحت تسمع ممن تنصحه الدراية بك والطعن عليك بأنك جاف جامد لا تكاد تصلح للجيل الذى أنت فيه : جيل التجديد والمجددين !

التجديد وبراءة المجددين من أمثال هذه المفاسد :

وإنى أربأ بالمجددين وعلماء التجديد عن أن يكون منهم نصير أو شبه نصير لمثل هؤلاء ، وأعتقد أن المجددين ودعاة التجديد يدعون أول ما يدعون الى الأخلاق

والتمسك بأهداب الفضيلة . ومن الذى يقول إن التجديد غير مطلوب وهو ضرورى لحياة الأمم ؟ ولكن لم يكن معناه فى يوم من الأيام العمل على هدم القومية ، أوضياع الأخلاق ، أو الحط من كرامة الدين ، أو العمل على محوه . وإنما هو سير مع الظواهر الكونية والنواميس الطبيعية . وهو فى كل شىء بحسبه وبما يلائمه ، ولا يكون التجديد إلا فيما يقبله .

ومن البدهيات أن الأديان لا تقبل التجديد ، لأنها عقائد وأحكام يجب على أهلها التمسك بها ، ولا يمكنهم الخروج عنها ، إلا إذا خرجوا عن الدين والأخلاق الفاضلة ، فلا يمكن التجديد فيها ، إلا بكثرة الدعوة اليها ، والتفنن فى الأخذ بها ، وصيرورتها ملكة تنطبع فى نفوس الأمة . والمحظورات الدينية لا يمكن تغييرها ، ولا المساس بجوهرها ، ولا القول بإباحتها . فإذا حظر الشارع أمرا بقى محظورا ، وليس من التجديد أن أفعله ، بل فعله والدعوة الى فعله خروج على الخلق والدين ، وليس هذا من التجديد فى شىء ، بل هو محو وهدم لا يقول به أحد ، إذ لا يمكن القول بأن ما اتفقت العقول والفطر السليمة على أنه خُلُق حسن ، ونصت الشرائع على أنه واجب ، لا يمكن القول بأن تركه تجديد ، بل الداعى الى ذلك هادم باغ ، عاد على خلقه ودينه .

أما ما يقبل التجديد فإننا إن لم نجدد فيه ونقبل التجديد ، كنا كمن يريد الخروج من الكون وهو فيه ، والقعود والركب سائر ، وهذا ما لا يقول به أحد . ومن الذى يستطيع القول بعدم الاستفادة من الحوادث والظواهر الكونية ، مع أن الأمور الدنيوية متجددة ؟ فالواجب على ذوى العقول العمل فى تلك الدوائر الواسعة ، واكتناه الحقائق العلمية منها .

كذلك الحوادث التى تقع للناس وليس فيما بين يدينا نص عليها : يجب علينا الاجتهاد فيها ، والبحث فى عوارضها ، ورد الواقعة الى حكم يتفق مع تعاليم الدين الأصلية

ولا ينبو عنها . ولا شك أن هذا تجديد . وهذا النوع من التجديد دعا اليه الشارع واعتبره ، حيث قال تعالى : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) والاعتبار ليس موقوفا على فن من الفنون ، ولا على قوم معينين ، ولا على زمن دون زمن ، بل هو مطلوب ممن قدر عليه ، ولم يتخذ هواه سبيلا اليه .

التجديد بهذا المعنى مطلوب ومرغوب فيه . أما ما يفهمه بعض من لا يستطيع فهم التجديد من أن معناه ترك القديم ولو دينا ، فهذا مالا يقول به من له مسكة من العقل . وها نحن أولاء نرى علماء أوربا قد جددوا واستفادوا وأفادوا ، ومع ذلك لم يقل أحد منهم لواحد من قومه : لا تذهب الى محل عبادتك ، وللدين عندهم المنزلة السامية . وهذا البابا رئيس الدين له من التجلة والاحترام فى نظر ملوك أوربا وأتباعه ما هو معلوم ، فهو إذا دعا الى أمر دينى تلقته أتباعه بالقبول . ومما لفت نظرى فى أوامره أنه أمر بأن النساء اللاتى يكن عاريات الذراع والمعصم لا يباح لهن دخول المعابد .

راقنى هـذا الأمر واستحسنته ، لأنه أمر يدل على أن التبرج أمر ممقوت فى الأديان ، وأن من تتبرج ليست ممن ينظر اليها الدين نظرة قبول ، ولا هى حَرية بدخول معابده ومحلات التقرب الى الله .

هذه النصيحة الغالية أمر بها البابا . فهل سمعت أن أحدا من أتباعه قال : إن هذا رجوع بالناس الى القديم وترك للتجديد ؟ لم يحصل هذا ولن يحصل ، لأن الديانات ليست محل تجديد كما قدمت لك . وهذه الدعوة التى دعا اليها البابا دعا اليها الدين الاسلامى من أكثر من ألف وثلاثمائة سنة . ولـكن بعض المسلمين — كما شرحنا لك — قد غفل كثير منهم عن حكم دينه ، وأبى إلا ترك تعاليم الدين ، وما لا يتفق والخلق الحسن .

ولا يفوتنى أن ألفت نظر المسلمين الى أن ما دعا اليه ديننا الحنيف إنما هو الخير كل الخير . وأن كل خلق دعا اليه هو الفضيلة ، وكل خلق نهى عنه هو الرذيلة . وما نراه

الآن ونستحسنه مما يأتينا به الغرب منصوص فى ديننا . فهذه جرائدنا تقات على سبيل الاستحسان ما أمر به زعيم إيطاليا من حظر الرقص على الضباط إشفاقا على رجولتهم . فهذا الذى استحسنته جرائدنا — وهو حسن فى ذاته — دعا اليه ديننا من قبل ثلاثة عشر قرنا . ولكن غفلتنا عن حكم الدين أوقعتنا فى الشرور من حيث لا ندرى ، وإلا فأى مسلم هذا الذى لا يتقطع قلبه حين يرى بعض الشبان يتزين بزينة النساء ، فيزجج الحاجب ، ويحمر الخد بعد تبييضه ؟ ! إنها فضيحة وأى فضيحة أن نرى رجالا يتركون رجولتهم ، ويأبون إلا أن يرتكبوا ما حظره الدين على النساء فى الطرقات !

ولست أبالغ اذا قلت : إن الحالة فى حاجة الى سن قانون يقضى بعقاب كل شاب يلاحظ عليه التبرج ، وعقاب كل امرأة تخرج متبرجة تتزيا بأزياء الجاهلية ، وتتبرج تبرجهن . ففى سن هذا القانون قطع الرذيلة ومحو لها ، وبت لتلك الظاهرة السيئة التى عليها الحال الآن فى الطرقات والمسارح والملاهى .

فحبذا لو أن حكومتنا عملت هذا أو ما يقرب منه ، كوضع عقوبة لأولياء الأمور من آباء وأزواج ، وإلا فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى . فلا حول ولا قوة إلا بالله ! ؟

طه حبيب

ابن نفسه

تكلم رجل عند عبد الله بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فأعجب به عبد الملك . فقال له : ابن من أنت ؟ قال : أنا ابن نفسى يا أمير المؤمنين التى بها توصلت اليك . قال : صدقت .

المادية ومذهب العلماء الراسخين

ما هى المادة ، وما هو الأثير ؟

أولع الناظرون فى الوجود منذ القدم بمعرفة حقيقة الموجودات ، وقد تكلموا فى كنهها على قدر ما كانوا وصلوا اليه من العلم بها ، ولكن لم يدخل هذا البحث فى نطاقٍ علمى ، ولم يجعله الباحثون أساسا لفلسفاتهم إلا فى نحو القرن السادس قبل ميلاد عيسى عليه السلام .

أقدْم من تصدى للبحث فى أصل المادة (لوسيب) من فلاسفة اليونان الأقدمين ، وتلميذه (ديموكريت) ، فذهبا الى أن المادة قديمة ، ودعوا الأصل الذى تألفت منه جميع صورها بالهيولى . وكان مؤدى مذهبهم أن هذه الهيولى مؤلفة من ذرات دقيقة جدا لا تقبل الانقسام ، متحركة منذ الأزل بحركة ذاتية فيها ، منها يتركب كل شىء محسوس فى الكون .

بقى هذا الرأى معوّلا عليه الى القرن التاسع عشر ، حتى كاد يلحق بالمحسوسات عند الفلاسفة الماديين .

وقد عللوا به ظواهر الاتحادات الكيمائية ، وقالوا إن الأجسام المركبة لا تتألف عناصرها إلا على نسب معينة . فالماء مثلا يتألف من اتحاد جوهر فرد واحد من الأوكسيجين ، وجوهرين من الإيدروجين ، ولا تختل هذه النسبة فى أية حالة من الأحوال . ويقاس على الماء جميع المركبات ، فلكل عنصر منها نسبة محفوظة إزاء بقية العناصر .

ولكن ما هو هـذا الجوهر الفرد فى ذاته ؟ أما قول لوسيب وديموكريت بأنه جسم صلب متناهٍ فى الصغر لا يقبل الانقسام ، ولا عرض له ولا طول ولا سمك ، فافتراض لا يقف أمام النقد ، فإن المادة مهما تناهت فى الصغر فإنها تقبل الانقسام ولو توهماً . وما ليس له طول ولا عرض ولا سمك لا تتألف منه أجسام لها طول وعرض وسمك ، فاضطر العقل للبحث عن افتراض آخر . فذهب العلامة الانجليزى وليم طومسون الى أن المادة حركة زوبعية فى الأثير . وتفصيل هـذا الإجمال أنه استخدم الفرض القائل بأن الوجود كله مشحون بسائل لطيف للنهاية القصوى ، لا يعقل شىء ألطف منه ، لا مسامّ فيه ، وهو متصل بعضه ببعض كل الاتصال ، فذهب الى أن الجواهر الفردة فيه ليست بشىء سوى زوابع جزئية حدثت فيه ، فاكتسبت بسرعة دورانها على نفسها صلابة يحس بها ، فتألفت من اجتماع عدد لا يحصى منها الأجسام الجامدة المرئية ، وأجساد النباتات والحيوانات . فالمادة فى نظره ليست بشىء غير زوابع أثيرية ، من تركُّبها وتفرقها ينشأ تركب الأجسام وتحللها .

راج هـذا التعليل زمنا ، وعللت به بعض الحوادث الطبيعية ، وحُلت به بعض الغوامض الوجودية ، ولكنه لم يكف لتعليل أكثرها ، فتمسك العلماء به وقتا ما حتى يجدوا تعليلا غيره يكون أقرب منه للحقيقة ، وهُجر مذهب لوسيب وديموكريت الذى بقى أكثر من ألفى سنة ، وضلل عقولا كثيرة عن محجة الصواب .

والذى حدا بالعلماء أن يتشككوا فيه ، عدم إمكانهم تعليل تلك الحركة الزوبعية التى تحدث فى الأثير الساكن كل السكون ، والتى تتولد بسببها الجواهر الفردة ، وعجزُهم عن تفسير ميل بعض تلك الجواهر الى بعض على نسب محدودة ، لتأليف المركبات المختلفة .

هـذا فضلا عن أن الأثير فى ذاته أمر افتراضى اضطر اليـه العلماء اضطرارا

لتعليل بعض الظواهر الطبيعية ، فيكون تعليل وجود المادة به افتراضاً فى افتراض وليس هذا من الأمور اليقينية فى شىء .

على أنهم بعد هذه الافتراضات قد فوجئوا برأى جديد . هو أن جميع المحسوسات الماثلة أمام أعيننا فى الكون ليست بشىء فى حقيقتها سوى قوة ، فسقطت بذلك نظرية الجواهر الفردة ، وقامت مقامها نظرية أن ليس فى الوجود سوى القوة ، تصدر عنها الموجودات .

وهذه خطوة حاسمة نحو إثبات القدرة الإلهية من طريق آراء علماء المادة ، إذ لا يعقل أن تفرض هذه القوة العامة مجردة من تدبير صادر من حكيم يقودها الى تأليف الجواهر الفردة ، ومنها الى تركيب المركبات المختلفة الصور .

ونحن لأجل أن نبين للقراء هذا الرأى ننقل لهم ماورد فى دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية ، فقد ذكرت كل ما ذكرناه من تاريخ الآراء العلمية فى المادة ، ثم عقبت عليها بالعبارة الآتية ، وهى :

« بناء على هذا تكون جميع الافتراضات التى افترضت الى الآن عاجزة عن حل تناقضاتها الذاتية ، ولا تنطبق على الظواهر المحسوسة . فاذا نستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلمية عن المادة لا تستطيع أن تزعم أنها الحقيقة المطلقة ، وهذه الافتراضات باعتبار أنها لا وظيفة لها إلا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة ، لا يمكن أن تكون حتما إلا رمزية وخداعة كهذه الظواهر نفسها ، فهى تستخدم على أى حال من الأحوال لضبط الظواهر الوجودية ، ولكنها لا تنفذ بنا الى ما وراء هذه الظواهر . فنحن محكوم علينا والحالة هذه بجهل ماهية المادة على الدوام »

يرى قارئنا مما مر أن دعامة المذهب الإلحادى — وهى المادة — لم يعرف كنهها الآن، وما دام الأمر كذلك فكل مذهب يبتنى عليها يكون قائما على الخيال المحض. فكيف يمكن التوفيق بين زعم الماديين أن مذهبهم قائم على العلوم اليقينية، وبين إقرار علمائهم بأنهم لا يزالون يجهلون كنه المادة ؟!

محمد فريد وجدى

وصاة على كرم الله وجهه لبنيه

مما أوصى به أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه بنيه قوله لهم:

يابنى! عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنوا اليكم، وإن فقدتم بكوا عليكم.

يابنى! إن القلوب جنود مجندة، تتلاحظ بالمودة، وتتناجى بها، وكذلك هى فى البغض، فان أحببتم الرجل من غير خير سبق منه اليكم، فارجوه، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم، فاحذروه.

ومن حكمه رضى الله عنه:

إن السبب الذى أدرك به العاجز مأموله، هو الذى حال بين الحازم وطلبته.

وقال:

إذا عظمت الذنب فقد عظمت حق الله، وإذا صغرته فقد صغرت حق الله، وما من ذنب عظمته إلا صغر عند الله، وما من ذنب صغرته إلا عظم عند الله.

وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية:

دلنى على قوم من القراء أولهم (يريد بالقراء العلماء) فقال له: القراء ضربان: ضرب يعملون للآخرة لا يعملون لك (أى يأبون الولاية) وضرب يعملون للدنيا. فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فوهم.

الحكمة العربية

الحكمة معرفة الحقائق على ما هى عليه ، وقد يراد بها الكلام النافع الذى يمنع من الجهل والسفه ، وهى بهذا المعنى فن من فنون الكلام المنظوم أو المنثور ، وذلك ما نريد الحديث عنه فى هذا المقال . وهذا النوع من الحكمة ثمرة التجارب والتفكير على الوجه الصحيح ، فنصيب الأمة من الحكمة على قدر نصيبها من جودة التفكير والشعور بما تشترك فيه الحوادث من الأسباب والآثار .

ومن الذى ينكر ما للأمة العربية من صفاء الذهن وتوقد الذكاء ؟ فلا بد أن يكون حظها من الحكمة عظيما .

نطق العرب فى جاهليتهم بحكم تدل على تجارب صادقة ، وألمعية مهذبة . وأسوق لك مثلا على هذا قول النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخاً لاتلمُّه على شعث أىّ الرجال المهذب ؟

فهذه الحكمة لا تصدر إلا من ألمعىّ خالط طبقات الناس زمنا طويلا ، ونقدهم طبقة بعد طبقة ، فاستخلص من طول صحبتهم أنه لا يوجد من بينهم الصاحب الذى يصفو لصاحبه فى كل حال . والإنسان محتاج الى الإخوان احتياجه الى الماء والهواء ، فليس له إلا أن يتمسك بصحبة من وثق بودتهم ، ويغضى عن هفواتهم التى لم يقعوا فيها لفساد ضمير ، أو نكث عهد مودة .

كان للعرب براعة فى صوغ الحكمة ، حتى طلع عليهم القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فامتلأت أسماعهم بالحكم البالغة . أما القرآن فكقوله تعالى : (ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) وقوله

تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) وقوله تعالى : (قُلْ لَا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ) وأما الأحاديث النبوية فكقوله صلى الله عليه وسلم : «اليد العليا خير من اليد السفلى» وقوله : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وقوله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك »

أفاض القرآن والحديث النبوى أمثال هذه الحكم الرائعة ، وفتحا للحكمة طرقا كانت مقفلة ، فالاسلام ساعد الخطباء والشعراء والوعاظ على أن يسيروا فى هذا الفن من الكلام بخُطاً واسعة ، ويقطعوا فيه أشواطا بعيدة ، فأصبح الناس يسمعون من الحكم أبلغ مما كانوا يسمعون ، ويجمعون منها أكثر مما كانوا يجمعون . وإذا هممت أن أسوق اليك أمثلة من حكم العرب فى الاسلام ، تكاثرت علىّ تكاثر الظباء على زياد ، فلم أدر ما آخذ منها وما أذر ، فانظر الى ما شئت من الدواوين التى تحوى خطب البلغاء ، ورسائل الأدباء ، وقصائد الشعراء ، ومحاورات العلماء ، ففيها ثمرات قرائحهم الخصيبة ، ونظراتهم الصادقة .

ولابن الطيب المتنبى فى هذا الميدان جولات سبق بها أقرانه من الشعراء ، وللصاحب بن عباد صحائف جمع فيها ما يحسن التمثل به من شعر المتنبى ، كقوله :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وقدمها هدية لمخدومه فخر الدولة الذى كان يتمثل كثيرا بأبياتٍ من نظم هذا الشاعر الحكيم .

وأورد ابن أبى حجة فى شرح بديعيته[1] ما ملأ به صحائف كثيرة من حكم أبى الطيب المتنبى ، وربما أورد بعد البيت أو قبله ما يدل على إعجابه به كما تعرض لقصيدته التى يقول فيها :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لا يجرب

وقال : منها وأجاد الى الغاية :

(١) بحث « إرسال المثل »

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب

وكما أشار الى قصيدته « واحرّ قلباه ممن قلبه شبم » وقال : ومنها وليس لمثله مثيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وفى لامية الطغرائى أبيات كثيرة تشتمل على حكم عزيزة ، فجرت على ألسنة الأدباء والكتاب مجرى الأمثال السائرة ، كقوله :

وعادة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدى بطل

الحِكَم لذيذة ، وأحسنها وقعاً ما صدر على البداهة ، فإنه أدل على عبقرية الرجل وكثرة انتفاعه بتجاربه ، لام عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أباه على إرجائه تنفيذ بعض ما يراه حقا ، فقال عمر بن عبد العزيز : « أخشى أن أحمل النـاس على الحق جملة فيدفعوه جملة » وامتدح شاعر الامام محمد بن مسلم الزهرى ، فأعطاه جائزة ، فقيل له : أتجيز على كلام الشياطين ؟ فقال : « من ابتغاء الخير اتقاء الشر »

وأشد ما يغبط الشاعر شاعرا آخر ، فى البيت العامر بالحكمة ، أنشد محمد بن كناسة اسحاق بن ابراهيم البيتين :

فىّ انقباض وحشمة فاذا صادفت أهل الوفاء والكرم

أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

فقال اسحاق: وددت والله لو أن هذين البيتين لى بنصف ما أملك ! فقال ابن كناسة: قد وفر الله عليك مالك، والله ما سمعهما أحد ، ولا قلتهما إلا الساعة ،فقال إسحاق: فكيف لى بعلم نفسى أنهما ليسا لى . وإسحاق إنما غبط ابن كناسة فى البيتين لما اشتملا عليه من الحكمة ،وهى وضع كل من الحشمة والاسترسال على السجية فى مقامه اللائق به .

والخلاصة أن فى آداب اللغة العربية حكما غزيرة ، فى ألفاظ عذبة وجيزة ، فنود من القائمين على تعليم النشء وتربيتهم تلقينهالهم بطريقة واسعة، حتى لا يحتاجوا الى الاستشهاد بأقوال الغربيين وفى كلام حكمائنا وبلغائنا ما يغنى عنه ؟

محمد الخضر حسين

تأييد العلم الصحيح للاعتقاد بالله

رأى الفيلسوف الفرنسى ديكارت

كتبنا شيئا فى العدد السابق فى هذا الموضوع ، ولا نريد أن نقطع هذا البحث دون أن نبلغ منه حدا يحسن السكوت عليه . ونحن فى كتابة هـذه الفصول نتحرى نقل آراء رجال العلم المقدمين ، وأركان النهضة العلمية الحديثة من جميع الجنسيات ، ليكون للقارئ من مجموع ذلك مرجع يرجع اليه فى استمداد الأدلة التى تخدمه فى تقوية إيمانه ، أو فى دعوته وإرشاده لغيره ، ممن يمتّون الى المعارف الطبيعية بسبب ، من أفراد الناشئة الجديدة .

فنأتى اليوم على براهين الفيلسوف (ديكارت) المولود سنة ١٥٩٦ والمتوفى سنة ١٦٥٠ :

ديكارت هـذا فرنسى الجنس ، وواحد من الذين خلدت ذكراهم فى تاريخ العقل البشرى ، لما انتهجه من الأصول الفلسفية البعيدة المدى . فهو الذى حول وجهة الفلسفة ، وجدّد القواعد التى تقوم عليها . فبعد أن كانت مستقرة على مذهب أرسطو أقرها على قاعدة العلم المجرد عن الظنون والمسلمات المتفق عليها ، والتى ليس لها فى ذاتها سلطان يُحلها هذا المحل الرفيع .

وقد نهج فى تعرّفه الوجود والموجودات طريقا لم يسلكه سواه قبله ، حتى ولا (بيرهون) الفيلسوف اليونانى القديم . والفرق بينهما أن ديكارت جعل الشك وسيلة لإدراك الحقائق ، ولكن بيرهون جعل الشك غاية للفلسفة .

نعم : إن من نقدة الأوربيين من قرر أن هذا الفيلسوف اليونانى لم يقصد من الشك إلا أن يصل منه الى الحقيقة ، كما فعل ديكارت من بعده . فلو صح ذلك فإنه

صرف حياته فى التشكك دون أن يصل الى حقيقة ، فلم يؤثر عنه أنه أثبت حقائق كما فعل ديكارت الذى جاء بعده بنحو ألفى سنة . فإن هـذا الأخير لم يمض حياته فى الشك ، وفى بث فلسفة الشـك ، ولـكنه اتخذه أداة للوصول الى الحقائق ، وقد وصل الى بعضها على عجل .

ونحن لا يعنينا أن ننقل مذهبه هنا ، ولـكن يعنينا أن نعرض أدلته فى إثبات الخـالق على أسلوبه ، فإنه لا يخلو من طرافة وفائدة فى آن واحد .

وهو لأجل أن يصل الى دليل قاطع على إثبات الخـالق ، جرّد نفسه عن كل ما يحيط به أولاً ، ثم أخذ يبحث عنه فى أعماق نفسه لا فى الوجود الخـارجى ، فلم يسأل الوجود عن صانعه ، ولم يناج العوالم مستفسرا عن عللها الأولية ، بل اقتصر على ذاته ، ورغب فى أن ينـكشف له ما غمض عليه منها ، فاستخرج منها على وجود الخـالق ثلاثة أدلة كلها نفسانية كما سترى .

عند ما حاول ديكارت إقامة الدليل على وجود الخالق قدّم هاتين المسألتين ، وهما : هل يوجد إله للـكون ، وما هو ذلك الإله ؟ راميا بذلك أن يتأدى بالبحث الى حقائق ثابتة لا الى خيالات ذهنية ، فطوح به هذا الميل الى امتحان ذاته أولاً ، فرأى أن ذهنه محشو بحشوٍ رث من عقائد وتقاليد وموروثات مختلفة . قال : فأردت لأول مرة فى حياتى أن أتخلص من هذه الآصار الثقيلة ، وأن أنظر متجردا من كل وراثة لأصِل الى حقائق ثابتة من العلم .

سلك ديـكارت هذا الطريق ، فأثار الشك فى نفسه على كل شىء : على السماء التى تظله ، وعلى الأرض التى تقله ، وغلا حتى شك فى القوانين الرياضية نفسها ، وهى أثبت المعلومات البشرية .

يتبادر الى الذهن أن ديـكارت هذا اندفع فى تيار شكوكه هذه ، فلم يستقر على حقيقة ، ولـكن هذا غير ما وقع له ، فإنه قد فجّر من مجموع هذه الشكوك عيون الحقيقة

الصافية ، فقال : « إن فى طى هذه الشكوك كلها شيئا واحدا لا يتناوله الشك أصلا ، وهو (أنا) . وقد كنت قررت بأنى لست بشىء فى الواقع ، فشككت فى وجود شعورى وجثمانى . ولكنى فى هذه الحالة التجريدية كنت موجودا فى الواقع ، لأنى استطعت أن أفكر ، فاذاً أنا موجود حقيقة ، ولا يوجد شىء يستطيع أن يقنعنى بأنى لست بموجود ما دمت أفكر . فقولى : (أنا موجود) حقيقة ثابتة لا أستطيع أن أشك فيها كلما قلتها ، أو تصورتها فى ذهنى .

هنا تمكّن ديكارت أن يحل نفسه من قيود الشك ، فخرج بعقيدة صريحة واضحة لا تقبل الجدال ، وهى أنه موجود ، ومن هذا الطريق نفسه توصل الى استكشاف حقيقة أخرى جليلة القدر ، وهى أنه توجد ذات إلهية متصفة بجميع صفات الكمال ، فقال :

« إن هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتى ، وقد ولدت حاملا أمانتها فى ثنايا قلبى ، لأنه كيف يعقل أن أدرك بأنى شاك ، وأنى أريد الوصول الى حقيقة ، وأنى لم أبلغ الكمال الذى أرمى اليه ، إذا لم يكن مغروزا فى طبيعتى إدراك وجود ذات أكمل من ذاتى ؟ »

لما تأدى ديكارت الى هذه النتيجة أراد أن يبرهن على أن شعوره بوجود تلك الذات الكاملة لم يأته من التفكير الشخصى ، ولكن أتاه من تلك الذات الكاملة الخارجة عنه ، فقال :

« إن كلمة (الله) إن لفظت بها فإنما أعنى بها ذاتا لا بداية لها ولا نهاية لها ، أزلية أبدية ، ومستقلة عن كل شىء ، وعالمة بكل شىء ، وقادرة على كل شىء . وإنى أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها . وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها .قة ازددت اعتقادا بأنى لم أستنبط الشعور بوجود الله من ذاتى وحدها ، وعليه فيجب علىّ أن أستنتج من ذلك أن لله وجودا مستقلا ، وأن شعورى بوجود عالمَ غير متناه لا يمكن أن يكون أصله فى ذاتى أنا ذلك الكائن المتناهى ، بل إنه غُرس فى ذاتى من قِبل ذات غير متناهية »

قلنا إن ديكارت استخرج من بحثه هذا فى ذاته ثلاثة أدلة على وجود الخالق ، هى ملخص ما تقدم من كلامه ، وهى :

(أولها) قال : إنى مع شعورى بنقص ذاتى ، أحس فى الوقت ذاته بوجوب وجود ذات كاملة ، وأرانى مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال ، وهى : الله تعالى .

(ثانيها) قال : إنى لم أخلق ذاتى بنفسى ، وإلا فقد كنت أعطيها جميع صفات الكمال التى أدركها . إذاً فأنا مخلوق لذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها الحكم الذى أجريته على نفسى .

(ثالثها) قال : إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة لا يفترق فى الوضوح عن علمى بأن مجموع زوايا أىّ مثلث يساوى زاويتين قائمتين . إذاً فالله تعالى موجود .

أليس هذا كله مصداقا لقوله تعالى : (وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) .

نقول: إن ديكارت هذا الذى جعل أصل مذهبه الشك فى كل شىء حتى فى جسمانيته وما يحيط به من العالم المادى ، وغلا حتى تشكك فى القوانين الرياضية ، قد تأدى الى الاعتقاد الراسخ فى وجود الخالق . وهو بهذا قد دلل على أن وجوده تعالى فى عداد الأمور البدهية التى يتأدى اليها الإنسان تأدّيا ضروريا . وهذه حجة فلسفية تثبت من طريق مباشر قوله تعالى : (أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) ؟

فإلى الذين يعتبرون التشكك فى هذا العصر من شارات الألمعية ، نسوق هذا الحديث ، ليروا أن إمام الشك فى هذه العصور المتأخرة يعترف صراحة بأن العقيدة بالله تُستنتج من طريقته استنتاجا فلسفيا ضروريا . فأية حجة بعد هذه يمكن أن يدلى بها الذين يمثلون مذهبه ويعملون على نشره فى الشرق ، رامين من وراء ذلك الى زعزعة الايمان فى نفوس المؤمنين ؟ !

محمد فريد وجدى

السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الدين يُسر ، ولن يشادّ الدين إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة) رواه البخارى .

اليسر : هو السهل التناول الذى لا عنَت فيه ولا صعوبة . والمشادّة : المغالبة والمقاومة . والسداد : التوسط فى الأمور ، ومجانبة الإفراط والتفريط . والمقاربة معناها عدم المغالاة فى الاستقصاء الى غاية الشىء . وأبشروا : أى ارتقبوا من الله حسن المثوبة . والغدوة فى السفر : سير أول النهار وصبيحته ، والروحة : سير وقت الأصيل . والدلجة : السير ليلا ، أو فى وقت السحر خاصة .

قد يدفع الحذر الشديد بعض الناس الى أن يغلو فى دينه ، ويتعمق فى عبادته ، فيكلف نفسه فوق ما تطيق ، فيصبر على ذلك ردحا من الزمن ، ثم تفتر همته ، وتكلّ عزيمته ، ويقلّ نشاطه ، فيتراخى فى العمل ، ويخل بما التزم . ولو كان فى هذه الحالة واقفا عند حد التقصير عن بعض النوافل لهان الأمر ، ولكن مثل هذا قلّ أن يصير الى التراخى إلا عن سآمة وملال ، وانصراف نفس عن العبادة ، وقلة رغبة فيها . وهذا هو ما ينبغى أن يحذر من الوقوع فيه .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الدين يسر » معناه أن مبنى التكاليف فى شريعتنا السمحة هو عدم الإرهاق ، والبعد عن العنت . وروحها هو الاحتفاظ بالاقبال على الله ،

والرغبة فى الطاعة ، والحذر من كراهية العبادة أو سآمتها ، فإن ضرر ذلك يربو بكثير عما ينتظره من ثواب الاشتغال بالنوافل الكثيرة مدةً وينقطع . وإنك لتجد فى المتعارف بين الناس أن من يداوم مودة صديقه ويتردد عليه فى مواعيد معينة باستمرار ولو قليلا ، خير ممن يلزمه يوما أو أسبوعا ثم ينقطع لا الى رجعة . وقد ورد أن أحب الأعمال إليه أدومها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولن يشاد الدين إلا غلبه » معناه : ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، كما فى رواية أخرى ، وهذه الجملة فى معنى التعليل المبين للحكمة المنطوية فى صدر الحديث . وكأنه يبين لنا أن الأمر بالرفق والتوسط ليس مبناه الزهد فى العبادة والرغبة عنها ، وإنما هو للمحافظة على النفوس من أن تفلت من مجال الخير ، وتحيد عن طريق السعادة ، فإن الشيء إذا زاد عن حده قد ينقلب الى ضده . ومشادة الدين مغالبته والاستقصاء فى أعماله بغية الوصول الى غايته . وإن المرء مهما بذل جهده فى التقرب الى الله والقيام بشكره ، فهو البتة مقصر ، فإن توفيقه لهذا الشكر نعمة تستدعى منه شكرا جديدا ، ومهما راقب جلاله وعظمته ، وجد نفسه فى مقام يتطلب منه تعظيما وإجلالا ، وقياما بحق العبودية ، إن لم يكن خوفا من عقابه ، فحياء من جنابه ، فأى نفس بشرية تستغرق فى هذا المقام وتدوم عليه منقطعة عما يلزمها فى شأن حياتها ، فلا بد أن ينصرف . ولَأن ينصرف على شوق الى الرجوع لهذه الحظيرة القدسية ، خير من أن ينصرف وقد ملكه الملل واستولت عليه السآمة .

وفى معنى هذا ما ورد : أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى . ومعنى متانة الدين أن أعمال طاعته غزيرة ، وأبواب العبادة والزلفى فيه كثيرة ، ومسالك الشكر على نعم الله الوفيرة طويلة ، فعليكم من الأعمال ما تطيقون . ومعنى المنبت : الذى يكلف مطيته من السير فوق طاقتها ، حتى تهلك منه

وهو فى أثناء طريقه . فلو كان قد بقى مكانه لكان أسلم عاقبة له من الانقطاع وسط الطريق .

وغير خاف أن ذلك كله فى باب النوافل والمندوبات والقربات التى ليست من الفرائض ، وإلا فالفرائض التى فرضها لم يرخص فى تركها ، إلا إذا عجز عنها العجز كله ، على تفصيل معروف فى كتب الأحكام .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فسددوا وقاربوا » كالنتيجة لما سبق من التعليم والتعليل له . والسداد : القصد والتوسط فى العمل ، بالتجافى عن الإفراط والتفريط . ومعنى الأمر بالمقاربة : أن من تعاصى عليه بلوغ الدرجة الكاملة فليقاربها بلا إجهاد ولا كد . وقوله : «وأبشروا» أى بالثواب على العمل الدائم وإن كان قليلا ، ولا تستقلوا ما تعملون من الطاعات مع المداومة متى أديتم فروض الله وابتعدتم عن منهياته ، كما ورد : « اتق المحارم تكن أعبد الناس» وإن البشارة فى هذا الموضع لتحمل النفوس على الرغبة فى المداومة والابتهاج بهذه المنزلة التى ضمن لها القبول مع سهولتها ويسرها . ومن ابتهج بما هو فيه واغتبط بحاله ، كان جديرا بملازمته ، ولا سيما إذا كان سهلا هينا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » :

هذا من باب التمثيل ، فإن الغدوة هى السير أول النهار كما قلنا ، والروحة السير آخره . فكأنه مثّل المؤمن فى هذه الحياة بالمسافر الذى يكدّ الى بلوغ الغاية القصوى ، وهى السعادة الخالدة ، والفوز برضا ربه . ولا شك أن الدنيا طريق للآخرة ، والمسافر ينبغى أن يتلمس فى سيره أوقات النشاط الذى يكسبه القوة فى سيره ، فكأنه يقول : إنكم جادّون فى السير الى السعادة التى أعدّت لكم ، فالتمسوا لمسيركم أوقات النشاط ، كما يعمد المسافر الى اختيار وقت الغداة ووقت الأصيل للسير فيهما ، حتى لا يهلكه الحر الشديد .

وقوله : « وشيء من الدلجة » ما زال يلمح منه الرفق فى السير ، فإن الدلجة هي السير ليلا . وإن من سار كل الليل كَلّ لا محالة ، أو من أخذ وقت السحر كله سيرا عرض نفسه للكلال كذلك . فلذا جاء فى جانب الدلجة . والكلام على كل حال من باب تمثيل السائر فى عمل دينه بالمسافر ، فيؤمر بالرفق الذى يحسن أن يؤمر به المسافر .

وبعد : فهذا باب يختلف فيه الناس بحسب قوة إقبالهم على ربهم ، وشديد مراقبتهم لجلاله ، بل يختلف فيه حال الشخص الواحد بحسب سنه شبابا وشيخوخة ، وبحسب تربية نفسه وتعويدها على يسير الطاعة ، ليتدرج منها الى عظيمها . والأساس قبل كل شيء هو التنحى عن منهيات الله ، والقيام بأوامره المحتومة ، وأداء فرائضه تامة غير منقوصة . كما أن مراقبة المرء نفسه لينقيها من أدران المساوئ الباطنة من غل وحقد وحب الأذى للناس وغير ذلك من الأمراض النفسية ، أمر هو فى الدرجة الأولى لمن يرغب فى إسعاد نفسه ، وفوزها برضا الرحمن .

نسأله تعالى أن يمنّ علينا بالرحمة والرضوان ، وأن يمنحنا التوفيق ، ويجنبنا الخذلان ، والله المستعان ؟

ابراهيم الجبالى

الترغيب عن تولى المناصب

طلب رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمله (أى أن يوليه عملا) . فقال له : إنا لا نستعمل على عملنا من يريده .

طلب العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ولاية ، فقال له النبى : يا عم ! نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها ، ولم يجبه الى طلبه .

معجزة علمية للقرآن الكريم

أصل الأديان دين واحد حق

كان الفلاسفة فى القرون المتأخرة من الذين عنوا بالبحث فى أصول الأديان واشتقاق بعضها من بعض ، يقررون أن الانسان الأول فى سذاجته لم يستطع أن يدرك أن للكون إلها واحدا موصوفا بجميع صفات الكمال ، بل اعتبروا أن وراء كل قوة طبيعية إلهاً يدبرها ، فجعلوا للهواء إلهاً ، وللأرض إلهاً ، وللبحر إلهاً وهلم جرا ؛ وتخيلوا بينها من العلاقات مثل ما بين الناس من قرابات ومصاهرات ، بل واختلافات ودسائس وحروب . على هذا جرى المصريون والهنود والصينيون وجميع من وصلنا تاريخهم من القدماء ، وأشهر ما وصلنا عنهم تاريخ الآلهة عند اليونان والرومان . فكان الفلاسفة فى العصور المتأخرة يزعمون أن الانسان بدأ حياته الدينية وثنياً معددا للآلهة ، ثم ترقت فكرة الربوبية عنده يسيراً يسيرا ، فاستحالت من مادية محضة الى روحانية ، ثم تدرجت من ذلك الى التوحيد المشوب بشيء من التشبيه ، ثم الى التنزيه المطلق .

هذا الرأى كان من الآراء المقررة فى الفلسفة ، الى حد أن واحدا من المشتغلين بهذا الأمر لم يجرؤ أن يبدى عليه نقدا أو اعتراضا .

بقى هذا الرأى سائدا فى أوروبا ، حتى نبغ الأستاذ الألمانى (ماكس موللر) صاحب المباحث المستفيضة فى الأديان الشرقية ، فأثبت بالدلائل القاطعة فى كتابه (أصل الدين وترقيه) أن الإنسان عَبَد فى أول أمره إلهاً واحد منزها عن الزمان والمكان والجثمانية ، وأن تعدد الآلهة والتشبيه عرضا على هذه العقيدة بعد التوحيد الخالص ، دُفع اليهما الإنسان بخيالات ذاتية أو بتسويلات خارجية جاءته من رؤساء

الأديان ، كإرادة تصوير تلك الذات المجردة بصور مادية ، وإحاطتها بأشكال رمزية ، ثم طوح به الخيال الى تسمية تدبيرها قوى الطبيعة المختلفة بأسماء شعرية ، وأنس بهذه المجموعة التصورية أنسا دفعه الى إحلالها محل عقيدة التوحيد والتنزيه . وجرى على ذلك أحقابا نسى أخلافه فيها أصلها الأول ، فقامت الأمم على هذه الوثنية وعمتها جميعا . فلما جاء الباحث العصرى وجدها شائعة فى كل مكان ، وخاصة لدى الأمم المتوحشة ، فقرر بأنها أصل الأديان ، وأن التوحيد الخالص نشأ بعدها ، زاعما أن الانسان ما كان ليستطيع أن يصل الى دين حق وهو لم يخرج بعد من لفائفه الطفلية .

والذى حداهم الى هذا الزعم أنهم فى ماديتهم كانوا يجهلون أن للكون إلها قادرا ، وكانوا يعتقدون أن الأديان ليست فى حقائقها إلا ثمرات الخيال المحض ، تورطت فيه الشعوب جهلا بحقائق الوجود . ولو كانوا يعتقدون بالله لما طوح بهم الوهم الى هذا الرأى . فجاء اكتشاف العلامة (ماكس موللر) مقوّما لهذا العوج الفلسفى من جهة ، ومقربا للفلسفة الاعتقادَ بالله من جهة أخرى ، فإن الشعوب ما دامت لا تستطيع فى زعم الفلاسفة أن تصل الى عقيدتى التوحيد والتنزيه بعقولها القاصرة وهى فى عهدها الأول ، فيكون فى ثبوت وجود الدين الحق وهى فى ذلك العهد دليل على أنها تلقته من خالق الكون نفسه بطريق الوحى ، كما دلت عليه نصوص الكتاب الكريم .

أما الآيات الدالة على أصل الدين فهى آى كثيرة ، منها قوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

أبان الله تعالى فى هذه الآية أن الدين الحق فطرة فى كل نفس بشرية ، فاذا كان الانسان قد اتخذ بدله وثنية خيالية ، فإنما حدث ذلك لخروجه عن تلك الفطرة .

وقوله تعالى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

معنى هذه الآية : كان الناس فى أول عهدهم أمة واحدة متفقين على دين الفطرة ، وهو التوحيد والتنزيه ، فاختلفوا ، فبعث الله اليهم النبيين ، وأنزل معهم الكتاب يرشدهم الى الحق ، وليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فى الكتاب إلا الذين أُعطوه ، أى أنهم عكسوا الأمر ، فجعلوا ما أنزل لإزالة الخلاف سببا لاستحكامه ، تحاسدا منهم ، فهدى الله المؤمنين للحق ، والله يهدى من يشاء الى صراط قويم .

وقوله تعالى : (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

فانظر كيف جاءت الفلسفة فى القرن العشرين تقرر ما نص عليه القرآن قبل نحو أربعة عشر قرنا ؟ وهذا قليل من كثير من معجزات الاسلام العلمية والفلسفية التى سنلمّ بها هنا واحدة واحدة « ولتعلمن نبأه بعد حين » **محمد فريد وجدى**

الفضائل الخمس

قال على كرم الله وجهه : أوصيكم بخمس لو ضربتم اليها اباط الابل لكانت لذلك أهلا : لا يرجون أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحين أحد اذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، ولا يستحين أحد اذا لم يعلم الشئ أن يتعلمه . وعليكم بالصبر فان الصبر من الايمان كالرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس معه ولا فى إيمان لا صبر معه .

أبو بكر الصديق

لم يقف ثبات أبى بكر عند الحد الذى أشرنا اليه فى مقالاتنا السابقة، بل إن فى موقفه الذى سأقصه عليك فى مسألة إنفاذ جيش أسامة الذى عقد لواءه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينبئك بعظمة أبى بكر، ورفعة شأنه، مع لين وتواضع : ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام كان قد أعدّ قبل وفاته جيشا، وأمّر عليه مولاه أسامة بن زيد لبعثة الى الشام، فتأخر الجيش عن السفر لمرضه عليه السلام ووفاته. فلما بويع لأبى بكر، وكان الوقت عصيبا، إذ لم يكد يبلغ الناس خبرُ وفاته عليه السلام حتى ارتد منهم كثير، ومنع بعضهم الزكاة، كما مر بك، أنفذ أبو بكر جيش أسامة والحال ما وصفنا، لأنه لم يكن ليؤخر شيئا أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد قال له الناس : إن هؤلاء الذين مع أسامة هم جند المسلمين، والعرب قد انتقضت بك، فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك، فقال أبو بكر رضى الله عنه : والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ! فانظر الى قوة الإرادة، والى الثبات أمام الأخطار والخطوب فى مثل ذلك الموقف الحرج، لا تجده إلا فى مثل أبى بكر رضى الله عنه.

أمر رضى الله عنه بالتجهز، وأن يخرج الجيش من المعسكر، فلما خرجوا وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وكان معه فى جيشه — الى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال : إن معى وجوه الناس وجلتهم، ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون، فلم يثن ذلك أبا بكر عن عزمه، بل استمر ثابتا على رأيه، وقال لعمر : إن خطفتنى الكلاب والذئاب، لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله، ولو لم يبق فى القرية غيرى لأنفذته.

حصل هذا ، وحصل أن طلب كبار الأنصار ممن كانوا فى جيش أسامة من عمر بن الخطاب أن يطلب الى أبى بكر أن يولى أمرهم مَن هو أسنّ من أسامة ، فلما أفضى عمر الى الخليفة بما حمل من رسالةٍ ، أبى إلا المضاء فيما أمر رسول الله ، واشتد على عمر حتى أخذ بلحيته ، وقال له : عدمتك أمك وثكلتك يا بن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتطلب الىّ أن أنزعه !

ولقد أعطى أبو بكر المسلمين درسا فى الأخلاق أراد به أن ينتزع ما فى ضمائرهم من آثار الجاهلية ، والتمسك بعرى التفاضل بالأنساب ، وأن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء ، فخرج بنفسه رضى الله عنه ، حتى وافى الجيش وشيعه ماشيا وأسامة راكب . فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا نزلتَ ولا أركبُ ، وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ! فلم يسع الأنصار وقد رأوا خليفة الرسول ماشيا فى ركاب أسامة إلا السكوت ، ولم يبدر من أحد منهم بادرة قط ، وساروا صحبته وأبدوا ما عُرفوا به من إخلاص فى الجهاد .

ولم يشأ الوقوف عند هذا الدرس ، بل أراد أن يفهم الجيش أنه تجب الطاعة للقائد ، والوقوف عند رأيه مهما تكن سنه ، فتقدم وهو الخليفة الى أسامة ، وطلب اليه أن يترك له عمر ، قائلا له : إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل ، فأذن له .

خليفة رسول الله يستأذن من قائد جيشه فى أن يترك له جنديا من جنوده ، وقد كان فى وسعه أن يستثنى ما شاء من الجند . رجل هذا شأنه حرىٌّ بأن تطيعه المسلمون ، وأن تتأدب جيوشه بأدبه . وإذا لاحظت أن أبا بكر رضى الله عنه رأى أنه إن توقف عن إنفاذ جيش أسامة الى الوجه الذى أعدّ له ، شعرت قلوب العرب بضعف المسلمين عن حماية أنفسهم ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وأن إنفاذه إمضاء لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتصوير المسلمين فى النفوس بصورة القوى

الجرىء الذى لم يختلج قلبه خوف ولا وجل ، علمت أن ثبات أبى بكر وقوة إرادته كانا مقرونين بحسن الرأى والتدبير .

أعماله :

قام أبو بكر رضى الله عنه أيام خلافته بأعظم الأعمال، ومن ذلك بل من أهم أعماله جمعه القرآن الكريم ، فقد وفقه الله بسماع مشورة عمر رضى الله عنه ، حيث أشار عليه بجمع القرآن من صدور القراء وبعض الصحف ، فأمر بجمعه وكتبه دون أن يلحق حرفا واحدا منه تغيير أو تبديل . أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، إلا أن يجمعوه ، وإني لأرى أن يجمع القرآن . قال أبو بكر: قلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فقال عمر: هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت الذى رآى عمر . قال زيد : وعمر عنده جالس لايتكلم ، فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل ، ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن فاجمعه ، فوالله لوكلفنى نقل جبل ما كان أثقل علىّ مما كلفنى به من جمع القرآن ! فقلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله النبى صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعشب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخره ، فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

ومن أعماله العظيمة عمله على نشر الدين ، وإعلاء كلمة الحق واليقين ، فى كل رقعة من

رقاع الأرض استطاع النفوذ اليها ، فقد أرسل البعوث ، وسير الجيوش الى العراق والشام وغيرها من الممالك ، وهاجم الفرس والروم ، وكاد يتم النصر للمسلمين إبّان خلافته لولا أن عاجلته المنية . ومهما يكن من شيء فإليه يرجع الفضل فى اتساع رقعة الأمة الاسلامية من بعده ، فقد وضع الأساس ، وسار عليه خلفاؤه من بعده .

سياسته مع الرعية :

كان أبو بكر سياسيا محنكا ، يأخذ الناس بالرفق واللين ، ويغفر لهم هناتهم ، فمن ذلك أنه عفا عن السمط بن الأسود الكندى ، وعمرو بن معدى كرب ، والأشعث ابن قيس ، لما جاءوه مكبلين ، فأسر بذلك نفوسهم ، وامتلك ضمائرهم ، وأصبحوا بعدُ من أكبر أنصار الاسلام ، وأشدهم عونا له على أعدائه . كذلك عفا أبو بكر عن خالد بن الوليد رضى الله عنه ولم يسمع فيه مقالة عمر ، من ضرورة إحضار خالد ومعاقبته . ولقد كانت هذه السياسة سببا فى لم شعث المسلمين وجمع كلمتهم ، كما كانت سببا فى الخير العظيم لهم . تتبين هذا من عفوه عن خالد ، فقد كان ذلك حكمة نتج عنها الخير العام ، فإن خالدا رضى الله عنه كان سيف الله القاطع ، وكان القائد الموفق فى الفتح .

وعلى الجملة فإن معاملة أبى بكر لرعيته كانت شدة فى غير عنف ، ولينا من غير ضعف ، لا يتعجل العقوبة إلا فى قصاص واجب . وكثيرا ما أمر عماله بالرفق والأناة ، قائلا : إياكم والمثلة فى الناس ، فإنها مأثم ومنفرة ، إلا فى قصاص .

زهد أبى بكر وورعه :

كان أبو بكر زاهدا ورعا ، تقيا نقيا . ولسنا ندلل على زهده بأكثر من أن نقص عليك أمره بعد أن ولى خلافة المسلمين ، وكيف استكثر على نفسه أن يستعين بأموال المسلمين على سد حاجته وحاجة عياله ، بل آثر أن يبقى على ما هو عليه من تجارة ، ولكنه لما وجد أنها تستنفد من وقته ما المسلمون فى حاجة اليه ، قَبِل أن يعين له شيء يقيم به أوده ،

لينصرف بكليته الى ما فيه صلاح المسلمين . ومع ذلك أبت نفسه إلا أن ترد ما أخذت من مال المسلمين حين حضرته الوفاة ، حتى لقد قال عمر : لقد أتعب أبو بكر مَن بعده .

روى عن عائشة أنها قالت : لما ولى أبو بكر قال : قد علم قومى أن حرفتى لم تكن لتعجز عن مئونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين ، وسأحترف للمسلمين فى مالهم ، وسيأكل آل أبى بكر من هذا المال . وعن عطاء بن السائب قال : لما استخلف أبو بكر أصبح غاديا الى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح ، فقال له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق ، قالا تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قالا له : انطلق حتى نفرض لك شيئا . فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه فى الرأس والبطن ، فقال عمر : الىّ القضاء . وقال أبو عبيدة : والىّ الفىء . قال عمر : فلقد كان يأتى علىّ الشهر ما يختصم الىّ فيه اثنان . وعن نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة قال : قال رجل لأبى بكر : يا خليفة الله . فقال : لست بخليفة الله ولكنى خليفة لرسول الله ، أنا راض بذلك .

وقد بويع أبو بكر الصديق يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان منزله بالسنح ، وكان قد حجر عليه حجرة من شعر ، فما زاد على ذلك حتى تحول الى منزله بالمدينة ، فأقام هناك بالسنح بعد ما بويع له ستة أشهر ، يغدو على رجليه الى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشق ، فيوافى المدينة ويصلى الصلوات بالناس ، فاذا صلى العشاء رجع الى أهله بالسنح . قالوا وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو نفسه فيها ، وربما كفيها فرعيت له ، وكان يحلب للحى أغنامهم ، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا . فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت

عليه ، فكان يحلب لهم . فربما قال للجارية من الحى : ياجارية أتحبين أن أرغى لك أو أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرح ، فأى ذلك قالت فعل ، فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر ، ثم نزل الى المدينة فأقام بها ، ونظر فى أمره فقال : لا ، والله مايصلح أمر الناس التجارة ، وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر فى شأنهم ، ومابد لعيالى مما يصلحهم ، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم ، ويحج ويعتمر . وكان الذى فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم ، فلما حضرته الوفاة قال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئا ، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم . فدفع ذلك الى عمر ، فقال عمر : لقد أتعب من بعده !

هذا ونحب قبل أن ننتهى بك أن نقفك على قضاء أبى بكر ، فقد روى عن محمد ابن سيرين أنه قال : لم يكن أحد بعد النبى أهيب لما لايعلم من أبى بكر ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب لما لايعلم من عمر ، وإن أبا بكر نزلت به قضية لم نجد لها فى كتاب الله أصلا ولا فى السنة أثرا فقال : أجتهد رأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، وأستغفر الله .

هذه أخلاق أبى بكر ، من الدعة والرحمة والتواضع ، وهو المميز عن سائر الصحابة ، وهو الذى يقول فيه رسول الله وفى عمر ، وقد رآهما مقبلين : إن هذين لسيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين : كهولهم وشبابهم ، إلا النبيين والمرسلين . فهلا تخلقنا نحن المسلمين الذين لاحول لنا ولا قوة بأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم المقربون المكتوب لهم الجنة ؟ ! ألا إننا ضائعون ، إلا أن تأتينا رحمة ربك ، إنه واسع عليم : م ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا

تجلى التدبير الالهى فى أعمال الحيوانات

مشاهدات عجيبة فى حياة الحشرات

ينكر الماديون فى سبيل تأييد مذهبهم كل ما يقف فى وجهه ولو كان من المحسوسات ، وهذه خصلة فيهم كانت أشد على مذهبهم من كل الدلائل التى قامت ضده ، فاتّهموا من أجلها بما يجب أن يتنزه عنه كل سليم الفطرة مستقيم السيرة .

من أقوى الإشكالات التى رُموا بها ما توَجه اليهم من ناحية الإلهام الإلهى للحيوانات ، وخاصة الضعيفة منها ، فقد سُئلوا عن مصدر الأعمال المحيرة للعقل التى يقوم عليها الحيوانات فى بناء بيوتها ، وتربية صغارها ، وتدريبها على ما يحفظ وجودها من المحاولات ، وعدم تركها إياها ، حتى تكون قد بلغت حدا تستطيع معه أن تعيش مستقلة عنها .

فكان جوابهم أن تلك الأعمال كلها عادات موروثة ، أى أن أمهاتها وآباءها قد قامت على وسائل لحفظ وجودها ، وتربية صغارها ، فورثها عنها أخلافها .

فلما سئلوا : ومن أين نشأت لأسلافها تلك العادات ؟ أجابوا بأنها هديت اليها على طريق التدرج فى آماد طويلة .

فلما سئلوا : وكيف أمكن أسلافها ، ولم يهتدوا بعد الى تلك الوسائل كاملة ، أن تحفظ وجودها ووجود أنواعها ؟ أجابوا بأنها قبل أن تصل الى الكمال من تلك الوسائل قد هلك منها عدد لا يحصى ، وما بقى منها تناوله ناموس التطور حتى أوصلها الى ما هى فيه اليوم .

ومن العجيب أن تثلج صدورهم على هذه الأجوبة الركيكة، وترتاح اليها نفوس مقلديهم دون أن يشعروا بأقل حرج منها .

ولكن العلم يُدؤو به فى دراسة حياة الحيوانات قد وصل الى اكتشاف عجائب من هذا النوع تجعل هذه التعليلات فى مستوى الأضاليل التى لا يصح أن يقول بها رجال يدعون أنهم من أهل التمحيص الدقيق، والأسلوب العملى .

فانأت على شىء من تلك الاكتشافات العلمية التى تهدم آراء الماديين هدما لا قيام لها بعده .

لندع ما يبتنيه النحل من الخلايا المسدسة الأشكال، وما يقيمه كلب البحر من السدود على الأنهار، وما يأتيه النمل من الأمور المحيرة للعقل، وما تفعله الطيور من العجائب، لندع كل ذلك، وننظر فيما اطلع عليه العلماء من مراقبتهم للحشرات .

فنها أن الفراشة متى وصلت الى الطور الثالث من حياتها، تضع بيضها على هيئة دوائر على الأوراق الخضراء . هذا البيض لا يفقس إلا فى الفصل التالى، فيخرج على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذى تكون فيه أمهاته فى عداد الأموات، أى أنها لا تراها . فمن الذى علّم الفراشة أن صغارها متى خرجت احتاجت الى التغذى بجَنَى النباتات الخضراء ؟ ومن الذى هداها الى وضع بيضها على تلك النباتات ؟ هل هدتها الى ذلك أمهاتها ؟ لا، فإنها لم ترها فى حياتها .

ومن تلك المشاهدات أن الحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة، أى أنها لا ترى لها ذرية أبدا، ولم ير فرد من أفرادها له أما أو ولدا، ولكن من العجيب أن هذه الحيوانات قبل أن تبيض تعنى غاية العناية بجمع جثث حيوانية تضعها بجانب بيضها، لتصلح أغذية لصغارها متى خرجت . ففى أى كتاب قرأت هذه الحيوانات أن بيضها يحتوى على صغار، وأن تلك الصغار ستخرج محتاجة الى غذاء، وأن

ما تحتاجه تلك الصغار هو تلك الجثث الحيوانية ؟ ألا يدل هذا على عناية الله بمخلوقاته وعلى توليه لهم بالإلهام والهداية ؟

ومن أعجب المشاهدات من هذا القبيل أن الحيوانات المسماة (بومبيل) من أ كالة الحشائش ، ولكن صغارها تولد محتاجة للتغذى من الحيوانات . فترى الأمهات تعمد الى وضع بيضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت صغارها وجدت ما تغتذى به . فمن الذى أدراها أن صغارها يجب أن تغتذى فى أول أمرها بالحيوانات ؟

ومن المدهشات فى هذا الباب ، الحيوانات المسماة (أوديتير) و (سفكس) فإن صغارها متى خرجت من البويضات احتاجت أن تغتذى بأجساد حيوانات حية . فترى أمهاتها متى باضت عمدت الى اصطياد حيوانات ، فهى لا تقتلها ، ولكنها تضربها بحيث تمنعها الحركة ، وتركها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فاذا خرجت صغارها وجدت أمامها لغذائها حيوانات حية ، وإن كانت لا تستطيع الحركة .

ومن محيرات العقل فى أمر إلهام الحيوانات ما تكلم عنه الأستاذ (ميلن أدوارد) فى جامعة السوربون بفرنسا من حياة الحيوانات المسماة (أكسيلوكوب) ، فقد قال : إن هذه الحيوانات التى نراها طائرة فى الربيع ، تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تبيض مباشرة ، فلم ير صغارها أمهاتها ، ولا تعيش هى حتى ترى أولادها التى تكون على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ، ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة من الزمان ، فى مسكن مقفل ، وهدوء تام ، وإلا هلكت .

فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فاذا أتمته على ما ينبغى شرعت فى جاب ذخيرة اليه تكفى صغارها سنة كاملة ،

وتلك الذخيرة تتألف من طلع الأزهار، وبعض الأوراق السكرية، فتحشوها فى قاع السرداب، ثم تضع بيضة، وتأتى بعد ذلك بنشارة الخشب، فتكوّن منها عجينة تجعل منها سقفاً على تلك البيضة، ثم تأتى بذخيرة جديدة فتضعها فوق ذلك السقف، وتجعل فيه بيضة أخرى، وهلم جرا، فتبنى بيتا مؤلفا من عدة طبقات، ثم تترك ذلك كله وتموت.

قال العلامة (ميلن ادوار) مُورد هذه المشاهدة عقب إيرادها:

« يجب أن يدهش الانسان حين يرى حيال هـذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست غير نتائج الاتفاق، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة ».

ونحن يحسن بنا أن نقف عند هذا الحد، واعدين بإيراد عجائب من نوعها، لتكون حججا ناطقة على وجود الصانع الحكيم، وعلى توليه مخلوقاته بالهداية والتدبير، مصداقا لقوله تعالى: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) ؟

محمد فريد وجدى

من لباب الحكمة الاسلامية

قال على كرم الله وجهه: لسان العاقل من وراء قلبه، وقلب الأحمق من وراء لسانه.

قال جامع كلامه رضى الله عنه عقب هذه الحكمة:

« وهذه من المعانى الشريفة، والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية، ومؤامرة الفكرة، والأحمق تسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره، ومماخضة رأيه، فكأن لسان العاقل تابع لقلبه، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه. وقد روى عنه عليه السلام (يريد عن على نفسه) هذا المعنى بلفظ آخر وهو قوله: قلب الأحمق فى فيه ولسان العاقل فى قلبه. ومعناهما واحد.

فى تنظيم الاحسان طمأنينة المحسنين

قال الله تعالى : (لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) .

جدّت فى هذه السنة حركة نرجو أن يكون فيها للأمة خير وبركة . تلك حركة مقاومة التسول الصناعى ، الذى ابتليت به الأمة فى فئة من أبنائها ، انحطت نفوسهم ، وفقدوا الكرامة والعزة ، وذهب عنهم الإحساس بشىء يسمى شمما أو إباء ، أو شرفا أو عفة ، فلم يكن لهم همٌّ إلا فى إحراز ما فى يد الغير بلا مقابل ، سوى الظهور بمظهر العجز والفقر والمسكنة ، يصرفون من التفكير فى ابتكار الأساليب الخداعة ما يستدر الدموع من العيون رحمة بهم ، ويدر الأكف بالصدقات إحسانا إليهم ، ويبقى الناس فى عماية من أمرهم ، وجهل بدخيلة حالهم ، حتى ينقضى عمر أحدهم — وما أطول أعمارهم — فيتكشف الأمر عن ثروة متنوعة من مال مختلف الأشكال ، ما بين فلوس صغيرة ، ونقود ذهبية وفضية وفيرة ، وأوراق مالية كثيرة ، وأمتعة مختلفة الأشكال لا تجمعها رابطة ، ولا يأتلف منها قديم بجديد .

بلى : وقد يظهر مع هذا كله عقارات ثمينة ، وعمارات شاهقة ، فيدرك الناس أمران لا مفر منهما : دهش يملك عليهم تفكيرهم ، وندم على ما أعطوا لأولئك الخداعين المغررين يملك عليهم أيديهم ، فلا تطاوعهم بعدها بعطاء لمن يظهر بمظهر المسكنة ، بل نرى الكثير من المحسنين يكون أكثر ما يكون إساءة ظن بالمستجدى متى رأى أثر المبالغة فى إظهاره المسكنة . وهنا ينجم شران مستطيران ، أشدهما : قبض

يد الإحسان عن المستحقين الحقيقيين . وثانيهما : ظهور هؤلاء المتسكعين بالمظهر المشوه للمجموع الانسانى ، المصور للأمة بصورة شنيعة : من فقد الشفقة ، وانحلال الرابطة .

من هـذا كله كان نظر العقلاء وأهـل الخير الى مشروع قانون التسول نظر اغتباط ورضا ، نظر ارتياح واستحسان . وإنا لنرجو من هذا الاغتباط والرضا ، من هذا الارتياح والاستحسان ، أن يكون مصدر خير عظيم لإمداد مشروعات الملاجىء الخيرية ، التى أعدت لإيواء من يثبت أنهم مستحقون للإحسان استحقاقا صادقا ، وأنهم عاجزون عن الكسب عجزا حقيقيا . أولئك الذين لا يستطيعون ضربا فى الأرض ومنهم من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، وهم أقـل أولئك التعساء حظا من الإحسان ، لأنهم لا يسألون الناس إلحافا ، وقد بدت عليهم آثار المتربة ، بل المخمصة . فمن تتبع حالهم عرفهم بسيماهم معرفة صحيحة ، لا تلبيس فيها ولا تدليس .

هذا هو تنظيم الإحسان ، وهذا هو باب الطمأنينة للمحسنين على أن إحسانهم قد صادف محلاً ، وأن برّهم قد لا فى موضع الحاجة ، وذلك أكبر ما يعنى المحسن فى إحسانه .

ولقد ينقطع بذلك تعالل المتعللين فى قبض أيديهم عن الخير بقولهم : وما يدريك فلعل الذى يستجديك هو أغنى منك وأثرى ! وكيف كنا نلومهم وقد تفنن الناس فى الأقاصيص عنهم بالحق وبالباطل ، بما ملأ النفوس اشمئزازا من تلك الفئة وقسوة عليها ، وقد يكون ذلك فى بعضهم لا فى أكثرهم . ولكن الشك إذا دخل نفس المحسن كان قبض اليد أقرب اليه من بسطها . وإن حادثة واحـدة تنشرها صحيفة يومية عن مستجد خلّف ثروة كبيرة ، لكافية لاختلاق مائة قصة تشبهها ، من قديم وجديد ، من خيال مختلق ، بتفنن متقن ، ومن حادثة حقيقية . والنفوس مولعة بالإصغاء المستغربات . وإن أمارة تمكُّن الخير من نفوس الأمة وتأصل عاطفة الإحسان فيها ، أن تقبل

على إمداد هذه الأعمال الخيرية المحضة ، سواء منها الملاجىء المستجدة أو القديمة ، أو مطاعم الشعب التى أغدقت على كثير من البؤساء الذين لا تكاد أيديهم تصل الى عمل منتج يبرون به أنفسهم وأولادهم . ولو أن عظماءنا سمحوا لأنفسهم الفينة بعد الفينة فى تعرّف حال العاملين فى بعض المهن الشاقة الضعيفة الإنتاج ، لرأوا فيهم بابا واسعا للشفقة والرأفة . وخير أن يكون برهم عن طريق فيه حفظ لكرامتهم نوعا ما ، أو على الأقل فيه السلامة من تعويدهم الاستجداء الذى متى ذاقوه استمرأوه وأكبوا عليه ، فلا ترتفع رأسهم لعمل نافع ، ولا لحفظ كرامة .

ولنشعر أنفسنا فى كل حال أن هذا العطف والبر بالفقير على ذلك الوجه الجميل يتضمن معنى مما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وكنى بالتساند فى أصل العيش وضرورة الحياة شداً لبناء الأمم ، وتمتينا لصلاتها . نسأله جلت قدرته أن يوفق الجميع الى ما فيه رضاه ، والله المستعان ؟ .

ابراهيم الجبالى

طرائف حكمية

قال على كرم الله وجهه :

قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروءته ، وشجاعته على قدر أنفته ، وعفته على قدر غيرته .

وقال أيضا : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه .

وقال أيضا : أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

وقال أيضا : إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر .

تراجع الفلسفة عن موقفها الالحادى

كلام عن النواميس الطبيعية وآراء العلماء فيها

لما افتتن أهل الفلسفة بنظرياتهم التى تواضعوا عليها فى عهد نهضتهم منذ نحو ثلاثة قرون، كان فى مقدمة ما تواضعوا عليه وجعلوه أساسا لجميع بحوثهم فى الطبيعة، أن المادة محكومة بنواميس ثابتة قديمة مثلها، وأن هذه النواميس فى انتظامها وترابطها تكفى لإحداث الخليقة من أدنى رتبها الى الانسان نفسه دون أن تحتاج الى مدبر يدبرها . وهم يريدون بهذه النواميس القُوى التى تربط بين أجزاء المواد، وتتولى تطوراتها المختلفة، وتقود حركات تدرجها الى الكمال، وتطبع فيها الصور المنوّعة، وتحدث علاقاتها المتبادلة، فإن شذّ كائن عن نظامها المقرر لسبب من الأسباب، فلا تزال به حتى تخضعه له أو تبيده .

نعم إن الأقدمين قد قالوا بما يقرب من هذا الافتراض، إلا أنهم لم يبلغوا منه الى الحد الذى بلغه المحدثون، ولم ينسقوه تنسيق هؤلاء له، فكان هذا الرأى من أراكين الفلسفة حائلا بين بعض الناظرين وبين القول بالقدرة الإلهية .

ولكن حدث مالم يكن فى حسبان أحد، فإن التطور العلمى قد دفع رجالا من أهل البصر الى إعادة النظر فى هذا الافتراض على ضوء الاكتشافات الحديثة، فتبين لهم أنه من الوهن بحيث لا يثبت أمام النقد، ولا يكفى فى تعليل وجود الكائنات وحفظها، وفى تنويع صورها، وتولى تطوراتها، فصرحوا بأن القول بقدمها يناقض بداهة العقل، ولا يفسر غوامض الطبيعة، وأن فى الأصرار على القول به صداً عن فهم أسرار الوجود، وحائلا دون الوصول الى الحقيقة، وهى الغرض الأول لجميع المحاولات

الفلسفية . فكان لهذه المفاجأة أثر كبير فى الدوائر العلمية ، فهمّت لدحضه بادىء ذى بدء ، ولكنها اضطرت أخيرا الى قبوله ، فكان عهدا جديدا للفلسفة تأدّت به الى إثبات القدرة الإلهية من طريق النظر فى الحوادث الكونية .

من أنجب من كتبوا فى هذا الموضوع العلامة الفرنسى (أميل بوترو) العضو بالمجمع العلمى ، فقد نشر كتابا أسماه (حدوث النواميس الطبيعية) جاء فيه ما يأتى :

« إن العالم يرينا فى كل ناحية من نواحى الوجود تغيرا وارتقاء وانحطاطا ، وهذا يقتضى القول بحدوث النواميس وقبولها للتغير ، وليس هذا يصدق على النواميس الجزئية فحسب ، ولكن على النواميس الكلية التى تجمع تلك النواميس الجزئية وتسيطر عليها » .

يريد الأستاذ (بوترو) من النواميس الجزئية ، التى تظهر فى صغريات الحوادث الطبيعية ، وتقود حركاتها الفردية . ويريد من النواميس الكلية التى يعم حكمها هذه الحركات الفردية ، ويوفق بينها وبين النظام العام السائد فى الكون .

ثم شرع الأستاذ (بوترو) يتوسع فى التدليل على ما ذهب اليه ، فقال ما مؤداه :

إذا صح ما يزعمونه من أن المادة قديمة لم تحدث من عدم ، وأنها باقية لا تتلاشى ، وقلنا إن النواميس الطبيعية هى التى تقود هذا النظام العالمى ، فما الذى يفسر لنا ما نراه فى نواحى الوجود من التغير والارتقاء والانحطاط ، إذا كان هذا العالم مقودا بنواميس طبيعية قديمة ؟ أفما كان ينبغى إذا صح ذلك أن هذا النظام العالمى يكون من مبدئه الى منتهاه على حالة واحدة ، دون أن يكون لما فيه من الموجودات قيم متفاوتة ، ودون أن يتغير من ارتقاء الى انحطاط ، ومن انحطاط الى ارتقاء ؟ ألا يدل هذا على خطأ ما يزعمونه من أن العالم مقود بنواميس طبيعية ، وأن تلك النواميس قديمة لا إدراك لها ولا اختيار ؟

إن الانسان فى علاقاته مع ما يحيط به من العالم ليس واقفا موقف المنفعل الذى لا يستطيع أن يفعل ، ولا أن يؤثر فيما بين يديه من الموجودات ، فهو فى كل آن تعمل يده فى الكائنات التى تدخل فى دائرة قدرته ، فيحولها من حال الى آخر ، ويطبع بعض المواد بما يشاء من الأشكال ، ويستخدم بعض النواميس الطبيعية ، ليحدث أعمالا أرقى من الأعمال التى كانت موجودة . فأين كانت تلك النواميس الطبيعية حين يعمل الانسان هذه الأعمال ، ولم لم تعقه مرغمة له على احترام أفاعيلها هى ، فكانت آثارها هى التى تبدو للعالم دون ما يريده الانسان من آثار أخرى ؟ إن وجود الانسان وهو كائن شاعر بذاته ، لا يمكن تفسيره بأنه أثر لفعل النواميس الطبيعية والفيزيولوجية ، لأن وجوده وقيامه بالأعمال المتنوعة والمؤثرة ضد الطبيعة يدل على أنه هو ليس أثرا من آثارها ، ولا منفعلا آليا لقواها .

نقول : هذا كلام صريح حاسم ، فى ضرورة زعزعة سلطان النواميس الطبيعية وإحالتها الى أقدارها الحقيقية ، وليس هو بقول فردى يمكن عزوه الى مؤثرات دينية فى نفس قائلها ومذيعها ، ولكنه هو الرأى العلمى الراهن ، الذى تصدى للكتابة فيه جمهرة من أركان العلم العصرى . ونحن مضطرون لإيراد بعض أقوالهم لتقرير هذه الحقيقة الكبرى .

فإليك رأى الفيلسوف الفرنسى (أدوار لوروا) كما نقله عنه العلامة (هنرى بوانكاريه) فى كتابه (قيمة العلم) صفحة ٢٣٤ ، قال :

« العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله ، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهره المعهود من الثبوت . فتعليل الحوادث الطبيعية ، والقول بوجود النواميس ، ليس إلا من مخترعات العلماء أنفسهم ، فالعلم لا يستطيع وحالته هذه أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة » .

وقال العـلامة (هنرى بوانـكاريه) ناقل هـذه العبارة فى كتابه المتقـدم ذكره فى صفحة ٢٧٧ :

« كثيرا ما يتساءل الناس : من ذا الذى يدرى هل النواميس تتطور أم لا ، وهل كانت فى العهد الفحمى على ما هى عليه اليوم ، أم كانت على حال أخرى ؟ » .

ثم ذكر أن محاولة الإجابة على هـذه الأسئلة ليست فى قدرة العـلم ، فقال : « إن هـذا الأمر يتعاصى على كل ضرب من ضروب المراقبة ، بحيث إنه إذا كانت نواميس الطبيعة ليست اليوم على ما كانت عليه فى العهد الفحمى ، فإننا لا نستطيع التحقق من ذلك ، لأننا لا نعـلم شيئا عن ذلك العهد إلا ما نستنتجه استنتاجا من افتراضنا عدم تغير النواميس الطبيعية » .

هذا قول ثقة فى العلم بالنواميس . ونستطيع أن نضيف اليه قول العلامة الدكتور (ج . جوليـه) المدرس بجامعة السوربون فى كتـابه (من اللا شاعر بذاته الى الشاعر بها) قال :

« النواميس التى يزعمون أنها تقود العالم المـادى ليست بحاصلة على ما كان يظنه الناس لها من وجـوب الوجود ، إذ ثبت أن قيمتها نسبية ليس إلا . وعليه فيمكن أن لا توجد أجلا محدودا ، وأن تتغير بعارض من العوارض ، وأن يبطل عملها أيضا » .

وقال العلامة الـكبير (وليم كروكس) رئيس المجمع العلمى الانجليزى ، كما ورد فى مجموعة خطبه صفحة ٣٦ :

« إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو فى حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع أن نعالل حركات الجواهر الفردة كما نعلل حركات الأجرام السماوية ، ونستطيع أن نستـكشف جميع القوانين الطبيعية

للحركة، ولكنا مع هذا لا نكون أقرب مما كنا عليه . والمسألة الوحيدة التى يجب حلها هى: أىّ ضرب من ضروب الإرادة والفكر موجود خلف هذه الحركات الجوهرية، مجبرا إياها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل؟ وما هى العلة العاملة التى تؤثر من وراء حجاب؟ وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للجواهر الفردة خارجة عن النواميس الطبيعية، بحيث يحملها على تكوين هـذا العالم المادى الذى نعيش فيه؟ »

وقال هذا العلامة نفسه من خطبة له أخرى فى تلك المجموعة نفسها :

« متى امتحنا من قربٍ بعضَ النتائج العادية للظواهر الطبيعية، نبدأ بإدراك : الى أى حد تنحصر هـذه القوى، أو كما نسميها النواميس، فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم؟ »

هذه حكاية حال بعض كبار العلماء فى مسألة النواميس الطبيعية . ومنها يرى القارىء الى أى حـد بلغ بهم الخروج من سلطانها الوهمى . وإنا ننشرها وننشر أمثالها لتغذية عقول النشء بثمرات العقول العلمية الحـديثة، حتى لا يغتروا بالألفاظ الموضوعة، ولايذهبوا فى تقديسها مذاهب لا تتفق وقيمتها الحقيقية . محمد فريد وجدى

حكم اسلامية

قال ابو بكر رضى الله عنه لخالد بن الوليـد : فر من الشرف يتبعك الشرف، واحرص على الموت توهب لك الحياة .

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلا (أى أن يوليه) فبادر الرجل بطلب العمل قبل أن يفاتحه فيه، فقال عمر : والله لقد أردتك لذلك، ولـكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه .

الحديث – تدوينه

السنة لغة الطريق المسلوكة . وهى فى لسان أهـل الشرع : قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وفعله ، وتقريره . وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة هى الأصل الثانى من أصول الأحكام . وقد ثبت بالسنة أحكام كثيرة ، كتحريم لحوم الحمـر الأهلية ، وتحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير ، وغير ذلك . وفى القرآن ما يشهد بوجوب الأخذ بسنة رسول الله ، قال تعالى : (وَمَآ آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) . وقال تعالى : (مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ) وقال : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ)

وكون السنة المطهرة حجة من ضروريات الدين ، لا يخالف فى ذلك إلا من لا حظّ له فى الإسلام .

وما روى عن رسول الله من طريق ثوبان : «ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف فلم أقله» موضوع ، قال الإمام الشافعى : مارواه أحد عمن يثبت حديثه فى شىء صغير ولا كبير . وقال يحيى بن معين : إنه موضوع وضعته الزنادقة .

ولا يخفى على المسلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى ، وأن الدليل قد قام على عصمتهم . وقد عنى المسلمون الأولون بما كان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظروا فيما فعله ، وفيما قرره ، وفيما قاله ، فبحثوا الخبر من حيث التواتر وعدمه ، وشرطوا شروطا لكل ، كما شرطوا فى المخبر وهو الراوى أن يكون مسلما عاقلا بالغا عدلا ، حتى تحصل ثقة النفس بصدقه ، كما شرطوا أن يكون الراوى ضابطا لما يرويه .

وأشرف العلوم وأجلها بعـد كتاب الله ، سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل هذا كانت معرفة هذا العلم موضع فخر الصحابة والتابعين وأتباعهم خلفا بعد سلف . وقد توافرت عليه رغباتهم ، وانقطعت له هممهم ، فكانوا يرحلون له المراحل ، ويجوبون له الفيافى . وكان اعتمادهم أول الأمر على الحفظ والضبط فى القلوب والخواطر ، ولم يعنوا بكتابته وتسطيره ، لما قيل من أنهم نُهوا عن ذلك فى أول الأمر خشية أن يشتبه عليهم بالقرآن ، ولسرعة حفظهم ، وكثرة ضبطهم .

غير أنه لما انتشر الاسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة فى الأقطار لكثرة الفتوحات ، ومات معظم الصحابة ، احتاج العلماء الى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة ، فمارسوه من هذه الناحية خشية قلة الضبط ودخول التلبيس على الحق ، فأنفقوا فى تحصيله زهرة أعمارهم ، دائبين فى العمل ليل نهار ، حتى أبرزوا للناس تصانيف عدة كانت قدوة وقبلة . فجزاهم الله سبحانه وتعالى أحسن الجزاء .

وكان أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه بالكتاب ، الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمة الله تعالى عليه خوف اندراسه كما فى الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى ابن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أهل الآفاق : انظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه . فيستفاد منه كما قال الحافظ بن حجر ابتداء تدوين الحديث النبوى . وقال الهروى : ولم تكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث ، إنما كانوا يؤدونها حفظا ، ويأخذونها لفظا ، إلا كتاب الصدقات ، والشىء اليسير الذى يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء ، حتى خيف عليه الدروس ، وأسرع فى العلماء الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر بن محمد فيما كتب اليه : أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه .

وفى فتح البارى أن أول من جمع فى ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبى عروسه وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة، الى أن انتهى الأمر الى كبار الطبقة الثالثة، وصنف الامام مالك بن أنس الموطأ بالمدينة، وعبد الملك بن جريج بمكة، وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام، وسفيان الثورى بالكوفة، وحماد بن سلمة بن دينار بالبصرة، ثم تلاهم كثير من الأئمة فى التصنيف كل على حسب ما سنح له، وانتهى اليه علمه، فمنهم من رتب على المسانيد كالإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبى بكر بن أبى شيبة وأحمد بن منيع وغيرهم، ومنهم من رتب على العلل: بأن يجمع فى كل متن طرقه واختلاف الرواة فيه، بحيث يتضح إرسال ما يكون متصلا، أو وقف ما يكون مرفوعا، أو غير ذلك. ومنهم من رتب على الأبواب الفقهية وغيرها، ونوّعه أنواعا، وجمع ما ورد فى كل نوع وفى كل حكم إثباتا ونفيا فى باب، بحيث يتميز مايدخل فى الصوم مثلا عما يتعلق بالصلاة، وأهل هذه الطريقة منهم من تقيد بالصحيح، كالشيخين وغيرهما، ومنهم من لم يتقيد بذلك، كباقى أصحاب الكتب الستة. وكان أول من صنف فى الصحيح محمد بن إسماعيل البخارى، رحمه الله.

طه حبيب

طرائف حكمية

قال الحسن البصرى رضى الله عنه — وهو من علماء القرن الاسلامى الأول: يا من يطلب من الدنيا ما لايلحقه، أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه؟!

قيل: وقع بين الحسن وأخيه محمد بن على رضى الله عنهم نزاع، ومشى الناس بينهما ليصلحوا بينهما، فكتب محمد الى أخيه الحسن: أما بعد: فان أبى وأباك على بن أبى طالب لا تفضلنى فيه ولا أفضلك، وأمى امرأة من بنى حنيفة، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلوملئت الأرض بمثل أمى لكانت أمك خيرا منها، فاذا قرأت كتابى هذا فاقدم حتى تترضانى، فانك أحق بالفضل منى، والسلام.

تربية النفس بالنفس

للدكتور الأستاذ پول دوبوا مؤلف جليل القدر أسماه « تربية النفس بالنفس » نرى أن نقتطف منه فذلكات قيمة للاستفادة من بحوثه فى هذا الصدد .

قال فى مقدمة كتابه : الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى لا يعرف كيف يعيش . هذا ما كنت أحدث به نفسى بعد أن استمعت لشكوى مرضاى ، فلم يكن ألمهم هو الذى أوحى الىّ هـذا الرأى . وإنما هـو ما رأيت من أنهم كانوا هم أنفسهم وأقرباؤهم ومعاشروهم أسبابا لشقائهم ، وعند تأملى فى حال أولئك المساكين كنت أقول فى نفسى : إن كل ما يشكون منه كان من المستطاع أن لا يقع ، ويجب أن لا يتكرر وقوعه . والتربية تلعب من ناحيتها دورا هاما فى تكوين تلك العقليات المرضية .

حقا : إنها هى أكبر جان ، وليس هناك فرض آخر ممكن ، ذلك أننا لا نتعلم كيف نفكر .

نحن فى حاجة الى التفكير فى هذه الحياة ، والى إدراك صحيح للأشياء ، فنحن إذا تعلق الأمر بحماية مصالحنا المادية ، نظهر كثيرا من التبصر والمهارة ، ولكننا نفقد هذا النشاط العقلى متى كان الأمر متعلقا بحياتنا الأدبية وبسلوكنا .

نحن نشعر شعورا مختلف الدرجات بضرورة التخلص من عيوبنا الأدبية ، وبضرورة إنماء الصفات الحسنة فى نفوسنا ، ونحب أن نفرض على غيرنا هـذا العمل الشاق ، ولكننا نشعر بشىء من اليأس عند ما نرى بطء هذا التقدم العام . لذلك نرى الناس يقابلون بابتسامة الشك كل اقتراح يرمى الى تقويم أخلاق الأفراد والجماعات . وليس بمثل هذه الحالة النفسية نستطيع أن نعمل للنفع العام ، بل يجب على العكس أن نعتقد بأنه فى الإمكان إصلاح عقلية الناس ، وأن نزرع كل نبات ، ونواليه بصبر

وثبات، وأن نتوقع منه محصولا قيما، عند ذاك لا نقف عند حد عملنا ولا نعتبره من أعمال السخرة، بل نعجب به، ونجد في هذا العمل جذلا في الحال، وأملا في المآل.

الحصول على السعادة:

لِمَ نجد الإنسان كثير الغيرة، شديد الاهتمام بتربية عقليته، وبالتأثير في معاشريه؟ لا شك أن غرضه من ذلك هو الحصول على أكبر قسط من السعادة الممكنة في هذه الدنيا [1] فالباعث الوحيد لأعمال الإنسان هو الحصول على هذه السعادة، وقد اعتبروا أن ميل الإنسان الفطري لحفظ ذاته هو الإلهام الأوّلي لكل مخلوق حي. ليس هذا بصحيح في جميع الأحوال، والذي يهمنا هنا هو أن نبحث أين تثوى هذه السعادة التي تتعطش لها الإنسانية؟

الذي يجب علينا أن نعرفه أن للحياة غرضا واحدا، وهو العيش على أكمل الأحوال. والإنسان تعمى عليه الطريق التي توصله الى هذا الغرض، فيبحث عنها في توفية جميع شهواته بما يسعه إمكانه من متاع مادي وعقلي، ولكن السعادة الحقيقية ليست في إشباع هذه الشهوات مهما كانت مشروعة، ولكن هنالك حقيقة تبهر أعيننا، وهي أن جميع السعادات الجزئية فانية متحولة. فالثروة تضيع، والشهرة العلمية والكتابية والفنية تتبخر مع الزمن متى صادفت حسادا منافسين، والصحة تضمحل، والمتاع البيتي والزوجي والأبوي لا بقاء له ككل ما سبقه، فهل يقال من أجل هذا إن السعادة (أي الدنيوية) ليست من حظ هذا العالم؟ لا، لست من أصحاب هذا الرأي، فإن كثيرا من الأحداث الحيوية يمكن تجنبها.

أجل: إن كوارث قد تقع فتكدر صفو حياتنا ولا نستطيع أن نتقيها، ولكن أتهدم هذه الكوارث سعادتنا النفسية؟ لا.

---

(١) المؤلف يريد هنا من السعادة السعادة الدنيوية، وأما السعادة الكاملة الحقة فقد تكفل الدين ببيانها وهي غاية ليس وراءها مطمح.

فإذا كنا نرى كثيرا من الناس يلحقهم الفزع من الحياة ، وييأسون لأقل خيبة تنالهم ، وهؤلاء هم التعساء حقا ، فإن بإزائهم أرواحا تقوى على تحمل جميع الآلام والأسقام والموت الذى ينزل بذويهم ، فتمطرهم الأحداث صيبا من المصائب ، ولكن سعادتهم القلبية تبقى مع كل هذه الصدمات حية لم يمسسها سوء .

فلنحذر أن نضع كل سعاداتنا على مثل أوراق اللعب ، لتغير أمكنتها فى كل لحظة بأيدى غيرنا ، أو لنجعلها عرضة لريح تهب عليها فتبعثرها فى كل مكان .

أنا لست بكبير الاعتماد على ما تؤاتينا به المدنية من المنافع ، وما تمتعنا به من الخيرات المادية فيما يتعلق بمعيشتنا وتغذيتنا وشهوات عقولنا مهما كانت شريفة ، لأن السعادة ليست هنا ، ولكنها فى أعمق موطن من ذواتنا ، وفى الصميم من أفئدتنا ، وهى فى عقولنا على أكمل ما نتخيله من مُثُل عليا ، وفى تقدير الحق والجميل والخير .

هذه الحالة النفسية يمكننا أن نحصل عليها بمثابرتنا على تربية نفوسنا تربية أدبية ، فنحن قد لا نبلغ الكمال من هذه التربية ، ولكننا بمتابعتها نكون على الأقل جارين على الطريق الموصل الى هذا الكمال ، وسعادتنا الوحيدة الحقة التى لا يمكن نقضها هى دائما على نسبة ما نحصله من هذا التكمل المعنوى .

ومهما يكن من جلالة الأعمال التى قام بها الإنسان من ناحية عقله ومثابرته حتى انكشفت له أسرار الطبيعة وسخرقواها لتعمل على إنالته أغراضه ، فإنه لا يزال فى الشقاء الذى أوجده لنفسه ، وإن هذا الشقاء ليشتد وطأته على نفسه كلما رأى أن ثروته التى حصلها له العلم وأوجدتها له الصنائع لا تغنى عنه فى شقائه شيئا .

كل مفكر يرى أن الفضائل التى تقول الأديان إنها تحقق لنا السعادة فى حياة بعد هذه الحياة ، هى فى الواقع الفضائل التى تعطينا السعادة فى هذه الحياة أيضا . ومن العجيب أن الانسان يجهل هذه الحقيقة الواضحة ، أو يصرح علنا بأنه لا يستطيع الجرى على هذه الفضائل .

وإن تكميل الشخصية الأدبية ليس ممكنا إلا بالتربية النفسية ، فكل خطوة نخطوها فى هذا الطريق تساعدنا على الحصول على السعادة ، وتجذب الينا الذين يخضعون لتأثيرنا من حيث يدرون ولا يدرون . وعلى هذا النمط تتهذب الجماعات ، فإن الترقى الشخصى هو الذى يقرب مسافة الخلف بين عقلية الجماعات وعقلية الأفراد الممتازين ، ولأجل وصولنا الى هذا التكمل الضرورى ليس لنا من سبيل إلا الفكر ، فإنه المصباح الوحيد الذى ينير علينا الطريق ؟

(نور الاسلام) : فى العدد المقبل نلخص لحضرات القراء ما ذكره المؤلف عن الفكر .

طرائف حكمية

قال حكيم : كن وصى نفسك ولا تجعل الناس اوصياءك ، وكيف تلومهم أن يضيعوا وصيتك وقد ضيعتها فى حياتك !

من حلم العلماء ما رواه العلامة الماوردى فى كتابه (أدب الدنيا والدين) قال : كنت يوما فى مجلسى بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابى إذ دخل على رجل مسن قد ناهز الثمانين أوجاوزها ، فقال : قد قصدتك بمسألة اخترتك لها . فقلت له : اسأل عافاك الله ، وظننته يسأل عن حادث نزل به . فقال : أخبرنى عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو ؟ فان هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء الدين .

فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله ، وبدر إليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف ، فكففتهم ، وقلت : هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثله . فأقبلت عليه وقلت : يا هذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم ، فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله ، فحينئذ أقبل عليك .

فقال : جزاك الله خيرا ، ثم انصرف مسرورا . فلما كان بعد أيام عاد وقال : ما وجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هذين .

الفتاوى والأحكام

الحلف بالمصحف

ورد : ما حكم الحلف بالمصحف ، وقول الحالف : بحق هذا المصحف ما فعلت كذا ؟ وهل يعتبر هذا يمينا شرعيا ؟ وإذا كان فما كفارته ؟

الجواب

اختلف الأئمة رضوان الله عليهم فى الحلف بالمصحف والقرآن وكلام الله : فذهب الأئمة الثلاثة رضوان الله عليهم الى أن الحلف بالمصحف والقرآن وكلام الله يمين . وقال الحنفية إن الأيمان مبنية على العرف فيما لم يرد نهى من الشارع عن الحلف به ، قال الكمال بن الهمام : ثم لا يخفى أن الحلف بالقرآن الآن متعارف فيكون يمينا كما هو قول الأئمة الثلاثة . وأما الحلف بكلام الله تعالى ، فيجب أن يدور مع العرف . ومعناه أن الكلام صفة مشتركة ، فاذا تعارف الناس الحلف بكلام الله كان يمينا ، لأن القصد حينئذ هو الحلف بصفته تعالى فيكون يمينا . وأما المصحف ، فقال العلامة العينى : وعندى لو حلف بالمصحف أو وضع يده عليه وقال : وحق هذا ، فهو يمين ، ولا سيما فى هذا الزمان الذى كثرت فيه الأيمان الفاجرة ، ورغبة العوام فى الحلف بالمصحف . أما لو أقسم بما فى هذا المصحف من كلام الله تعالى فهو يمين . ولو تبرأ من كلام الله أو من القرآن أو مما فى المصحف أو من النبى ، فهو يمين . ومعنى التبرى من هذا أن يقول : لو فعل كذا كان بريئا من القرآن أو مما فى المصحف . وإذا كان يمينا لزم الحالف عند الحنث كفارة يمين ، وهى المنصوص عليها فى الآية فى قوله تعالى : (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم) والله أعلم ؟

المطالبة بديون الغير

وورد : هل يطالب الابن بدين أبيه والأب بدين ولده ؟

الجواب

إن الدين حق فى ذمة المدين يطالب به ، ويؤديه من ماله إن كان حيا ، ويؤديه وارثه من مال الميت إن ترك مالا يفى بالدين . وأما الابن أو الأب أو غيرهما فلا يطالب أحد بدين أحد ، إلا إذا كان ضامنا للمدين ، أو كان شريكا له فى مال ، وكانت الشركة شركة يترتب عليها مطالبة كل منهما بدين شريكه . والله أعلم ؟

حكم تعليق الطلاق

وورد ما خلاصته استعلام عن حكم تعليق الطلاق الثلاث على فعل شىء أو تركه ، ثم فعل المحلوف عليه .

الجواب

إذا علق شخص طلاق زوجته ثلاثا على فعل شيء أو تركه ، فالحكم الشرعي فى ذلك أنه متى تحقق الأمر المعلق عليه ، وقع الطلاق الثلاث . وهذا هو المشهور عند الحنفية . غير أن هناك رأيا بان تعليق الطلاق إن كان القصد منه الحمل على فعل الشيء أو تركه لا غير ، لا يترتب عليه وقوع الطلاق المعلق ، ما دام القصد ليس إيقاع الطلاق . أما إذا كان القصد إيقاع الطلاق فانه يقع .

وقد جرت الحكومة المصرية على هذا الرأي ، وصدر مرسوم ملكى بقانون نمرة ٢٥ سنة ١٩٢٩ وجرت عليه المحاكم الشرعية فى مصر من وقت صدور القانون . وقد جرى هذا القانون أيضا على أن الطلاق الثلاث منجزا أو معلقا يقع واحدة فقط . والله أعلم .

راجع مادة نمرة ٢ ومادة نمرة ٥ من القانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ م ؟

الطلاق قبل النكاح

وورد : ماهو الحكم فيما إذا قال الرجل: كل امرأة أتزوجها فهى طالق ، أو إن فعلت كذا فأول امرأة أتزوجها طالق ؟

الجواب

من قال لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق ، أو كل امرأة أتزوجها فهى طالق، أو إن فعلت كذا فأول امرأة أتزوجها طالق ، صح هذا ووقع اليمين عند حصول الشرط عند الحنفية ، إذ يكفى لصحة التعليق أن يكون فى الملك او مضافا الى الملك . وقال الشافعى رحمه الله : لايقع . ونقل عن على وابن عباس وعائشة رضى الله عنهم، وبه قال الامام أحمد . وقال الامام مالك : إن خص بلدا أو قبيلة أو صنفا أو امرأة ، صح، وإن عمم مطلقا لايجوز إذ فيه سد باب النكاح . واستدل من يقول بعدم صحة هذه الأيمان بقوله صلى الله عليه وسلم :لاطلاق قبل النكاح. أخرجه ابن ماجه من حديث المنور بن مخرمه . وفى رواية أخرى : لا طلاق قبل النكاح ، ولا عتق قبل ملك . وأخرج أبوداود والترمذى عنه صلى الله عليه وسلم:لانذر لابن آدم فيما لايملك، ولا عتق له فيما لا يملك ، ولا طلاق له فيما لايملك . قال الترمذى : حسن وهو أحسن شيء روى فى هذا الباب . وأخرج الدار قطنى عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن رجل قال:يوم أتزوج فلانة فهى طالق ثلاثا ، قال : طلق مالا يملك . وأخرج أيضا عن أبى ثعلبة الخشنى قال : قال عم لى : اعمل لى عملا حتى أزوجك ابنتى. فقلت: إن تزوجتها فهى طالق ثلاثا، ثم بدا لى أن أتزوجها ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسالته فقال لى : تزوجها فانه لا طلاق إلا بعد النكاح . قال : فتزوجتها فولدت لى سعدا وسعيدا . وقد ناقش الحنفية فى هذه الأدلة بما لا يتحمله البحث هنا. ومن هذا يعلم جواب السؤال فى المذاهب الأربعة ، والله أعلم م ؟

المندوب فعله شرعا فى الافراح

وورد السؤال عما يندب عمله شرعا فى الأفراح، وعما هو منهى عنه فيها مما يحصل فعله كثيرا ببلادنا .

الجواب

إن المندوب فعله فى الأفراح هو أن يولم الشخص ويطعم بقدر ما يسعه، ولا يطلب الى غير القادر شىء . ولا باس بالزفاف وهو أن يجتمع النساء وحدهن والرجال وحدهم لحضور عرس وزفاف عروس، ولا مانع من أن يكون لدى النساء شىء من اللهو الذى لا يصل الى منكر شرعا كالدف . أما اللهو المحرم كالرقص وغناء النساء بصوت مرتفع فمحظور شرعا، سواء كان ذلك للنساء أو للرجال .

ومن هذا يعلم أن ما جرت عليه عادة الناس الآن من القيام بحفلات كبيرة يتخللها الغناء والرقص وتبرز فيها النساء متبرجات وقد يختلطن بالرجال، لا يجوز شرعا . كذلك لا يجوز شرعا أن يرهق الشخص نفسه ويعمل ما لا يستطيعه من ولائم وأفراح ليست جائزة وتؤدى به الى الاستدانة، وقد تكون الاستدانة من غير طريق شرعى . وحبذا لو أن أهل العروسين اقتصروا على ما كان عليه السلف الصالح من إشهار الزواج وعمل الزفاف على الوجه المشروع بدل التوسع والبذخ المؤدى لهلاك المال فى غير وجهه الشرعى. وحبذا لو فقه الناس والتفتوا لما يصيبهم من هذا، فتعارفوا على عدم المبالغة والمغالاة فى المهور والجهاز والاحتفالات، وأعطوا ذلك المال للزوج أو للزوجة، ليكون رأس مال لهم ينفعهم عند الملمات . والله أعلم ؟

طه حبيب

تنبيه هام لحضرات المشتركين

نرجو من كل مشترك أن يتفضل بذكر رقم اشتراكه (الموضوع على الغلاف) عند كل كتاب يرسله الينا، ليسهل علينا مراجعة اسمه، وعمل ما يطلبه الينا على وجه السرعة .

نوابغ الكلم

روى انه اجتمع حكيما العرب : عمرو بن الظرب العدوانى وحممة بن رافع الدوسى عند أحد ملوك حمير باليمن . فقال لهما : تساءلا حتى أسمع ما تقولان .

فقال عمرو لحممة : أين تحب أن تكون أياديك ؟ قال : عند ذى الرتبة العديم (أى الفقير) ، وعند ذى الخلة (أى الحاجة) الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الحليم .

قال فمن أحق الناس بالمقت ؟ فقال : الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والغبى القوال .

قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ فقال : الحريص الكاند (أى منكر الفضل) ، والمستفيد الحاسد ، والمخاف الواجد .

قال فمن أجدر الناس بالصنيعة ؟ فقال : من إذا أعطى شكر ، واذا منع عذر ، وإذا مطل صبر ، وإذا قدم العهد ذكر .

قال فمن أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إذا قرب منح ، وإذا ظلم صفح ، وإن ضويق سمح .

قال فمن ألأم الناس ؟ قال : من إذا سأل خضع ، وإذا سئل منع ، وإذا ملك كنع ، ظاهره جشع ، وباطنه طمع .

قال فمن أجل الناس ؟ قال : من عفا إذا قدر ، وأجمل إذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر .

قال فمن أحزم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الأسود بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه (أى أعرض عنه) .

قال فمن أخرق الناس ؟ (أى أحمقهم) ؟ قال : من ركب الخطار ، واعتسف العثار ، وأسرع فى البدار ، قبل الاقتدار .

قال فمن أجود الناس ؟ قال : من بذل المجهود ، ولم ياس على المفقود .

قال فمن أبلغ الناس ؟ قال : من حلى المعنى المزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز .

قال فمن أنعم الناس عيشا ؟ قال من تحلى بالعفاف ، ورضى بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف الى مالا يخاف .

قال فمن أشقى الناس ؟ قال من حسد على النعم ، وسخط على القسم ، واستشعر الندم على ما انحتم .

قال فمن أغنى الناس ؟ قال من استشعر الياس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يسخط على القسم .

قال فمن أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر

قال فمن أجهل الناس ؟ قال : من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما .

He goes on to say "Doomsday is not one of the ordinary days, but it is a day which begins with the appearance of the Great Manifestation and ends with the universal cycle".

This is how the Bahaists interpret Judgment and resurrection day. They interpret Paradise as spiritual life and Hell as spiritual death. The following is recorded in the above book :

"Paradise and Hell in the Scriptures are symbolic facts. According to Abdul-Bahai and his son Abbas, Paradise is a state of perfection while Hell is a state of imperfection. Paradise is therefore spiritual life and Hell spiritual death".

Ibn Hamed Al-Ghazali records the Batinists to say :

"All the apparent meanings of the ordained injunctions, doomsday and other divine matters are figurative and symbolic of certain esoteric meanings". He then gave a few instances of their erroneous and misguided interpretations.

In the denial of resurrection, they followed in the footsteps of the naturalists and were completely taken in by their heresies which could not withstand the arguments of the Holy Koran :

« أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِين.
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ
يُحْيِيهَا الذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Doth not man who denieth resurrection, perceive that We have created him of a mere clot of blood ? Yet lo ! He is an open caviller. And he setteth forth unto us an instance of his inability and forgeteth our creation of him : "Who" saith he, "shall give life to bones when they have rotted" ?

Say : "He shall give life to them who gave them being at first for He is cognisant of all the details of creation".

(Baidawy's Commentary).

---

or new. All will find in this creed, a universal religion which is most suited to the present time and constitutes the greatest policy of mankind"(1)

In another article he says that he wishes to unify Moslems, Christians and Jews and bring them together in accordance with the Mosaic Law in which they all believe". (2)

I do not suppose that Abbas meant anything by this but to flatter the Jews and feign loyalty to their cause in order to win their favour and support. It is inconceivable of anyone who believes in the Koran to endeavour to turn people away from Islam in the precceding fashion.

Ibn Taymiyya says: "The Batinists were always in league with the enemies of Islam". "The Tatars could not have conquered the lands of Islam and kill the Caliph of Baghdad and other Moslem potentates without their co-operation".

In this same wise we find the Babists siding with the enemies of Islam. Abbas Abdul-Bahai, openly takes the part of the Jews and proclaims that Palestine will become their home. "The Israelites will gather in the Holy Land and the Jewish people who were dispersed in east, west, north and south will be unified", says Abbas.

In another article he says :

"The tribes of the Israelites will settle in the Holy Land and gradually increase until it becomes their own home".

The Bahaists and the Batinists are equally alike in their hatred of Islam and their support of its enemies. We confidently trust however that the Arabs and all Moslems backing them will present a united front in face of both the Zionist colonisation and the Bahaist propaganda supporting it, so that Palestine will remain, in spite Abdul-Bahai and the Bahaists, an Arabic Islamic land.

Do they believe in Doomsday, Paradise and Hell?

The Babists do not believe in resurrection, Paradise or Hell. They interpret the judgement day as the advent of Mirza Hussain or Bahau-Allah. The following quotation from "Bahau-Allah and the New Era" is significant :

"In accordance with the Babist's interpretation, the appearance of every divine manifestation constitutes a judgement day. But the advent of the greatest manifestation Bahau-Allah, is the great judgement day for the worldly stage in which me live".

---

(1) "Abdul-Bahai and Bahaism" p. 87 (Arabic Version).

(2) "Abdul-Bahai and Bahaism" p. 93 (Arabic Version).

Bahaism which was built up on the ruins of Batiniya continued to be a creed whose secret aim is the abolition of Islam by means of interpretation, the claim of divine mission and the revelation of a new dispensation abrogating Islam.

This went on until Abbas Abdul-Bahai became head of the sect and wished to present to the world this made-up creed under a new guise. He introduced such topics into the creed as were discussed by certain people as some pressing need of civilisation or some recent scientific discovery. They included such things as the equality of men and women in regard to educational opportunities, disarmament, the adoption of a universal language to be known throughout the world, the establishment of an international tribunal to settle world's problems and the development of man through evolution from the lowest species till he attained his present form (The Darwinian Theory). Universal peace and the renunciation of religious prejudices are also included.

By the introduction of such ideas into Bahaism, Abbas thought to entice into his creed those of the budding generation who blindly follow any new-fangled idea. To this end he preached the following:

"The teachings of Bahau-Allah offer the fulfilment of all hopes and aspirations of the world's parties whether religious, political or social, old

---

the one and negatively in the other. Ormuzd is light and life, and creates all that is pure and good — in the ethical world of law, order and truth. His antithesis is darkness, filth, death and produces all that is evil in the world. Until then, the two spirits had counterbalanced one another. The ultimate triumph of the good spirit is an ethical demand of the religious consciousness and the quintessence of the Zoroaster's religion.

The evil spirit with his wicked hosts appears in the Gathas much less endowed with the attributes of personality and individuality than does Ahura Mazda. Within the world of the good Ormuzd is Lord and God alone. In this sense, Zoroastrianism is often referred to as the the faith of Ormuzd or Mazdaism.

As soon as the two spirits encounter one another, their creative activity and at the same time their permanent conflict begin. The history of this conflict is the history of the world. All creation divides itself into that which is Ahura's and that which is Ahriman's.

In the soul of man is the object of war. Man is a creation of Ormuzd, who therefore has the right to call him to account. But Ormuzd created him free in his determinations and in his actions, wherefore he is accessible to the influences of the evil powers. Man takes part in this conflict by all his life and activity in the world. By a true confession of faith, by every good deed, word and thought, by continually keeping pure his body and his soul, he impairs the power of Satan and strenghtens the might of goodness, and establishes a claim for reward upon Ormuzd; by a false confession, by every evil deed, word and thought and defilement, he increases the evil and renders service to Satan.

(*Encycl. Brit.*)

Learned men of great standing have come forward to falsify the arguments which were advanced in favour of this view. They proved that effect should come later to cause, for cause is that which bestows existence on a thing and effect is that which receives existence from it. It is absurd therefore to bestow existence on a possibility which could be materialised, unless it were to give it existence after being non-existent, and that is nothing short of materialisation.

The astounding thing about this sect is that while they claim prophethood, divine mission nay even more, they deny miracles on the ground that they are irrational. This open denial is to be found in a book of their propagandist Abul-Fadl Al-Gorfadkany. He mentioned such miracles as the cleaving of the sea and bursting forth of springs by Moses, the healing of the leper and blind and the raising of the dead by Jesus, and the flowing of water from between the fingers of Mohammed adding the following comment:

"Many leading men of learning believe that all such happenings recorded in books are merely allegorical of reasonable and possible phenomena which no balanced mind could deny". He then started to interpret the Koranic verses and Traditions in connection with these miracles and give them such far-fetched renderings that only a half-wit or an unbeliever could entertain.

The Bahaists' denial of miracles clearly tells of their blind and headlong pursuit of materialistic philosophy which denies the universe of an omnipotent Creator who does whatever he choses.

In short Babiism or Bahaism is a creed which is made up of different religions, creeds and philosophic ideas. In describing the Babists, the writer of "Muftahu-Babul-Abwab" says:

"They have a particular creed, a medley of religions including Buddhism, Brahmanism, Zoroastrianism (1), Judaism, Christianity and Islam as well as Sufis and Batinists' beliefs.

---

(1) Zoroastrianism: the doctrine of Zoroaster, the founder of the national religion of the Iranian people from the time of Achæmenidæ to the close of the Sassanian period. Zoroaster was famous in antiquity as the founder of the wisdom of the Magi. Zoroaster taught a new religion rooted in the old Iranian — or Aryan — folk-religion, of which we can form some represantation by comparision with the religion of Veda. The Aryan folk-religion was polytheistic. Worship was paid to popular divinities, such as the war-god and dragon-slayer Indra, to natural forces and elements such as fire, but the Aryans also believed in the ruling of moral powers and of an eternal law in nature.

The doctrine of Zoroaster may be summarised as follows:

At the beginning of things there existed the two spirits who represented good and evil. Both Spirits possess creative power, which manifests itself positively in

Ismaïl Ibn Jaafar. This claim ie, the incarnation of God makes its appearance in certain articles of the Bahaists.

Abbas, known as Abdul-Bahai says in an article of his: "Bahau-Allah hath told us that the advent of the Lord of the hosts, the eternal father and the world's saviour whose advent is indispensable at the end of the world, according to all prophets, means His manifestation in human form just as He manifested Himself in the form of Jesus of Nazareth, only this time His manifestation is more perfect, glorious and complete, for Jesus and other prophets have prepared the hearts of men for this grand transfiguration".

By this, he means that the Lord hath been manifested in him in a greater measure than in other prophets.

Their babbling mouth-piece Abul-Fadle says in this connection: "All that is attributed to God and ascribed to Him including might and glory, omnipotence and omniscience, wisdom and will, and other attributes, goes back in reality to the manifestations of His word, the illumination of His light, the descension of His revelation...." !

This is shown by the inscription written by Bahau-Allah in extolling his son Abbas for thus he said: "The tongue of eternity (1) announceth unto men the glad tidings of the appearance of the great name (2) who proclaimeth among nations that he is myself, the image of my soul, the embodiment of my word; whoever turns unto him, will he turn unto my face, walk in the light of my splendour, recognise my unity and acknowledge my oneness... etc." !

The Bahaists have emulated the philosophers in their claim regarding the infinity of the universe. In the book "Bahau-Allah and the New Era", the following statement is made: "Bahau-Allah knew that the universe had no temporal beginning. It is an eternal issue of the first cause. Creation and Creator were co-existent and co-eternal."

---

stage, the earlier teachers of Islam were shown to be wrong in doctrine and the imams alone were proved to be infallible. In the third, it was thaught that there were only seven imams and that the other sects of the Shiites were in error. In the fourth, the disciple learnt that each of the seven imams had a prophet who was to be obeyed in all things. In the fifth stage, the uselessness of Tradition and the temporary nature of the precepts and practices of the Prophet Mohammad were taught, while in the sixth the believer was induced to give up these practices (praying, fasting, pilgrimage etc.). At this point, the Carmathians had completely ceased to be Moslems. In the remaining degree, there was more liberty of opinion allowed and much variety of belief and teaching existed. (*Encycl. Brit.*)

(1) The "tongue of eternity" is Bahau Allah according to Bahaist's interpretation.

(2) The "great name" is Abbas Abdul-Bahai acccording to Bahaist's interpretation.

Al-Bab claims prophethood and asserts that his creed abrogates the Moslem Faith. He invented certain precepts for his disciples, which differ from those of Islam. He prescribed an annual fast of 19 days from sunrise to sunset. The fast was fixed for the spring equinox so that Eid-ul-Fitr was to coincide always with easter day. In his book "Al-Bayan", he refers to this fast as "Certain numbered days on the completion of which we ordained easter to be a feast-day".

Mirza Hussain, styled Bahau-Allah, reduced prayers to nine prostrations a day while Abdullah Ibn Al-Kharab Al-Kindi, in whose divinity many so-called people believe, prescribed 19 prayers a day.

The Kiblah (the point towards which Moslems turn in their prayers) of the Babists is whatever place Mirza Hussain or Bahau-Allah may happen to be. The Babists are enjoined by him "Should you wish to pray, then turn your faces towards my most holy direction". His son Abbas says: "We should turn our faces to a certain point where the manifestation of God may be". This so-called "manifestation of God" is, according to their claim, the very person of Bahau-Allah. As to pilgrimage, Al-Bahai suppressed the practice and recommended to pull down the Holy Caaba on the appearance of a powerful man of his disciples.

Certain Batinists have forbidden the common people to acquire knowledge and the upper classes to peruse the early books so that they may remain in darkness regarding the truth.

In his book "Al-Bayan", we find that Mirza Ali, otherwise styled "Al-Bab" had forbidden learning and the reading of books other than his own. It was due to this inhibition that those who believed in "Al-Bab" have burnt the Holy Koran as well as all other books of learning which have fallen into their hands. But Mirza Hussain known as Bahau-Allah realised the evident fallacy of such an inhibition and that it will inevitably result in turning discerning people away from the creed. He consequently ordained in his book "Al-Aqdas" (the Most Holy) a new precept abrogating that of "Al-Bayan". It ran thus "Allah hath abrogated for you what hath been revealed in Al-Bayan concerning the destruction of books and ye are permitted to pursue such studies as ye may find of use".

Some Batinists assert the incarnation of God in certain persons. The Carmathians [1] for instance assert the godship of Mohammed Ibn

---

(1) Carmathians: a sect named after Hamdan Qarmat, who accepted the teaching of the Ismailites toward the close of the 9th. Century.

In their religious teaching they claimed to be Shiites ie., they asserted that the imamate belonged by right to the descendants of Ali. The adherents of this sect were initiated by degrees into the secrets of its doctrines and were divided into seven classes.

In the first stage the convert was taught the existence of mystery in the Koran and made to feel the necessity of a teacher who could explain it. In the second

The interpretation of the Babists as well as their predecessors the Batinists which is diametrically opposed to the very text of the Mohammedan law, is by no means an innovation of theirs. But by so doing they have merely followed the instance of a certain sect of Hebrew philosophers who came prior to them.

We read in a biography of "Philo" the Jewish philosopher born between 20-30 B.C., that he had written a book on the interpretation of the Torah (Old Testament) in which he maintained that many things referred to therein are symbolical of hidden facts. This allegorical interpretation, is said by writers who treated the history of philosophy, to have been familiar to Jewish scholars of Alexandria prior to the time of "Philo". In giving instances of this interpretation, the writers say that Adam was given to mean reason, Paradise to mean self-control, Abraham to mean dogmatic virtue, Isac to mean instinctive virtue, Jacob to mean emperical or acquired virtue and such like interpretations to which only hypocritical unbelievers have recourse and are only admitted by those who are completely blind to the manifestations of truth.

Abul-Fadl Al-Gorfadkany was by far the worst of the Babists in this respect. He evinced the most bitter animosity to the Ulema of Islam and nothing short than his whole reperioire of vituperative words would satisfy him once he starts heaping abuse on them. In page 147 of his book "Al-Dur arul-Bahiyya" he writes :

"They persisted in sin, insisted on error and delusion, wallowed in folly, were blinded by inebriety, and hopelessly indulged in abberation". It is apparent that the man had memorised certain sentences which he had come across in some paper or old book and used them indiscriminately in his writings thinking that this kind of euphuistic style would convince people against their better judgement.

There are others among the Batinists who claim to be prophets or believe in the prophethood of other men. Mirza Ali styled Al-Bab claimed to be an apostle of God and wrote a book "Al-Bayan", by name, which he asserted to be a divine revelation. He had even gone as far as to send an epistle to Sheikh Mahmoud Al-Alucy, the author of the famous commentary on the Koran "Rouh Al-Maani" requesting him to follow his creed. It ran thus "Verily I am the servant of Allah who hath sent me with guidance unto men". In this epistle he dubbed his creed "the religion of Allah" and went on to say "The state of those who did not betake themselves to the religion of Allah is like unto that of those who did not come to Islam".

Bahau-Allah, the head of the sect claims the same thing. In "Bahau-Allah and the New Era" written by one of his disciples, his mission is claimed to establish peace on earth. In speaking of Al-Bab and Al-Bahai, the author of this book says: "It is impossible to find a more fitting description of their greatness save by the admission that they have acted in compliance with divine revelation".

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

BABIISM OR BAHAISM[1]

(Continued)



This Persian impostor asserts that the Prophet proclaims certain scientific principles in order to curry favour with his people whereas in reality those principles are false and unfounded. Evidently this is a rash assertion on his part, for although the Prophet is not sent to establish scientific truths whether they are easily assimilated by the human mind or call for some mental exertion as in the case of natural sciences and mathematics, nevertheless he could not speak authoritatively of any such matters unless they are perfectly true.

The assertion that they are symbolic is an invention of this impostor and his associates to conceal their disbelief. But a flimsy veil concealeth not what lieth behind.

(1) Translated from the very Reverend Al-Sayyed Mohammed Al-Khidre Hussain's article in Nour-El-Islam Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

– ٣ –

المثل الأعلى فى بناء الأمم

ليس المدار فى قيمة الأصول والتعاليم على أنها بالغة مدًى بعيداً من الكمال ، ولكن على تطبيقها والعمل بها ، وإلّا صدق عليها المثل بأنها مجرد حبر على ورق . فقد أتى أفلاطون فى جمهوريته ، وأرسطو فى سياسته ، بأصول قيمة ، ولكنهما عجزا عن حمل قومهما على الأخذ بها ، فبقيت ثاوية حيث هى من صحائف ذينك الكتابين ، وجرى العمل على نقيضها طول حياتهما وحياة الأمة اليونانية . وخلفها الرومانيون فلم يرفعوا بها رأسا ، ولكن الأصول التى قررها القرآن الكريم ، قد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بتطبيقها على المجتمع الاسلامى تطبيقا دقيقا ، وجرى العمل عليها جريا مطردا ، واعتبر الخروج عنها خروجا على القواعد المقررة فى الشريعة .



قلنا : إن القرآن الكريم دعا الى الألفة العامة بين الشعوب ، لا فرق بين أبعدها وأقربها ، ولا بين أسودها وأبيضها ، مقررا أن مدار الكرامة ليست بالاعتزاء الى هذه الأمة أو تلك ، ولا بالانتساب لهذا البيت أو ذاك ، ولكن بالميزات الأدبية ، والمزايا النفسية ، فأشعر بذلك أنه لا يرمى الى تأليف أمة على مبدأ الجنسية ، كما رمى الى ذلك جميع المصلحين قبله ، ولكن الى تأليف أمة عالمية عامة تذوب فيها الجنسيات والفوارق الاجتماعية ، ليتألف من مجموعها أمة تكون المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه الناس يوم تسقط من رءوسهم الأوهام القومية ، والأهواء الجنسية ، التى تفرّق بينهم وتجعل من بعضهم أعداء لبعض ، وتؤجج بينهم نيران الحروب والغارات ، وهى حال تنافى الغرض السامى الذى خلق الإنسان لتحقيقه فى هذا العالم .

وأعجب ما فى هذا الأمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قام بتطبيق هذه الأصول الكريمة، على أمم كانت أعصى الناس عن قبولها، وأكثرها أوهاماً فيها، فحقق للعالم معجزة اجتماعية ينظر اليها المصلحون فى كل جيل، عاجزين عن مثلها حتى فى أمة من جنس واحد، فما ظنك بهم إن تخيلوها على مجموعة من شعوب ذات أصول شتى، وتقاليد متناقضة ؟

إن هذه لمعجزة من معجزات الاسلام الخالدة، فإن كنا نفرد لها فصلا خاصاً فهى جديرة بكتاب ضخم يكتبه علم من أعلام العلم الاجتماعى، ممن درسوا الحالات النفسية للجماعات البشرية، وأدركوا استحالة جمعها على أصول من هذا الضرب.

وإذا غمض على علماء الاجتماع سرّ هذا الأثر الضخم، وذهبوا فى تأويله كل مذهب، فقد كان أقرب سبيل لفهمه على أكمل وجه أن يتأملوا فى الأصلين العظيمين اللذين يقوم عليهما هذا الدين، وهما: إقامة الفطرة، وسلطان العقل، فإن الاسلام بدعوته الى إقامة الفطرة طالَب الآخذ به أن يتخلى أوّلا عن جميع ما ورثه من التقاليد والأوهام، وأن يكون أمام الحقائق كيوم ولدته أمه، خالى الذهن من كل صورة خيالية، أو وراثة تقليدية. ومتى تم له إحداث هذه التخلية الذهنية طالبه بالأخذ بحكم العقل لا بحكم الهوى والوهم، ومتى كان الحكم للعقل سهل إقناعه بكل جميل وحق. فإن قيل له: أليس الناس كلهم أولاد أب وأم، وأن أجناسهم وألوانهم أمور اعتبارية لا تمنع أن يكون بعضهم إخوان بعض ؟ لم يجد مناصاً من الاذعان الى هذا الأصل والتسليم به. وإذا قيل له: ألا يجب أن يكون تفاوتهم فى الأقدار والمراتب تبعا لميزاتهم العلمية، وميزاتهم الأدبية، لا تبعا لاعتزائهم لجنس، ولا لتميزهم بلون، أو لانتسابهم لطبقة من طبقات الغنى والفقر ؟ لم يجد عليه اعتراضا.

هذه الحقائق الكبرى التى لا يزال المتمدنون يعجزون عن الأخذ بها، تعتبر لدى الذى تجرد من أوهامه وأهوائه بإقامة الفطرة على شرط الاسلام،

من الأمور البدهية ، فيندفع الى الأخـذ بها محفوزا بالقوى الأدبية المغروزة فى جبلته الأصلية .

هـذا هو السر فى نجاح القرآن فى غرسها فى نفوس الآخـذين به . ولـكنك لو توجهت بها الى قوم — مهما ضربوا من المعارف الـكونية بأوفر السهوم ، ولم يكافئوا أنفسهم أن يكونوا من التجرد الذهنى على ما شرطه الاسلام فى أول أصوله — لعجزت عن تسويغها لنفوسهم .

فالى أىّ مدى طبقت الأصول القرآنية العالية على المجتمع الاسـلامى ؟ طُبقت الى آخر مـدى يمكن أن تبلغه أصـول فى أمة . وإنا لراوون اليك طرفا من مزاجها العالى ، لترى مثلا أعلى من الاجتماع لم تصل الى مثله أعرق أمة فى المدنية الى اليوم .

كان يَقْدَم الرجل على النبى صلى الله عليه وسلم فيبايعه على الاسلام ، فيصبح واحدا من جماعته ، لا فرق بين قرشى من صميم هاشم أو عبد الدار ، وبين آخر من باهلة أو سلول ، وهما أخس قبائل العرب ، بل لا فرق بينه وبين رجل من الفرس أو الديلم أو الروم ، ممن كان يعدهم العرب الخلص من الأعاجم ، بل لا فرق بينه وبين عبد مملوك أو مولى أو أسود فاحم اللون قد بيع فى الأسواق كما تباع البهيمة . يجمع بينهم رباط واحد هو رباط الأخوة بـكل ما يسعه هذا اللفظ من معنى الترابط والتعاون ، بعيدا عن جميع الاعتبارات التى أوجدتها التقاليد القومية ، والفوارق الاجتماعية .

حدث هذا كله فى بيئة كان للفوارق الاجتماعية فيها المـكان الأعلى من نفوس أهلها ، حتى كان الرجل فيهم يعيّر بالاصهار الى مقرف أو هجين . والمقرف عندهم من كانت أمه عربية وأبوه أعجمى ، والهجين من كان أبوه عربيا وأمه أعجمية . والأعجمى عندهم الأجنبى من أى جنس كان ، وهو غير العجمى الذى ينتسب الى العجم وهم الفرس .

بل كان العرب يفرقون بين القبائل المختلفة ، فينزلون أفرادها منازل متباينة ، وكان بنو باهلة وبنو سلول يعتبرون أخس العرب . قال السموءل بن عادياء من قصيدة فى الفخر :

ونحن أناس لا نرى القتل سبّة إذا ما رأته عامر وسلول

وكان مسلم بن قتيبة من باهلة ، فلم يحل بينه ذلك وبين أن يعين قائدا عاما لفتح ما وراء النهر ، فتم له ذلك على عهد بنى أمية ، حتى ضرب الجزية على الصين ، فاتفق له يوما أن التقى بأعرابى فقال للأعرابى مداعبا له : أتودّ أن تكون ذا مال كثير ، وجاه عظيم وتكون من باهلة ؟ فأجابه على الفور : اللهم لا . فقال له : أتحب أن تكون أميرا مثلى وتكون من باهلة ؟ فأجابه غير متلكىء : اللهم لا . فقال : أترضى أن ترث الجنة وتكون من باهلة ؟ ففكر قليلا ثم قال : لا بأس من ذلك ، على شرط أن لا يعرفنى أحد .

أما سيرتهم حيال الموالى والعبيد السود ومن لا يعرف له أصل ، فقد كان العرب يحفظون كل سمات الترفع ، ولا يفرقون بينهم وبين الحيوانات العجم .

فلما جاء الاسلام بمبدأ المساواة العامة بين جميع الخلق ، تغيرت هذه الحال فجأة ، فأصبح الكل سواء : لا يسأل أحدهم جاره من أى القبائل هو ، ولا الى أى أمة يعتزى ، ويخصه من عنايته ورعايته بما يخص به صميم أهله . وقد عمل النبى صلى الله عليه وسلم بمايجعل هذه المساواة أمرا واقعا ، فقد ولّى بلالاً المدينة ، وفيها من وجوه الناس وجلتهم من ليس يتردد فى فضلهم أحد ؛ وأمّر أسامة بن زيد — وهو مولى — على جيش كان فيه أبو بكر وعمر ، وهاهما نسبا وحسبا وشرفا ؛ وولّى باذان الفارسى إقليم اليمن ، وهى أخصب البلاد العربية ، وقيمتها من الوجهة الحربية لا تخفى على أحد ، فلما مات أسند ولايتها الى ابنه شهر فيروز .

وقد حدث أن أباذر الغفارى تقاول هو وأحد السود يوما بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه أبو ذر وصاح به قائلا : يا بن السوداء . فغضب النبى صلى الله عليه وسلم لذلك وقال : « طفّ الصاع طفّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؛ فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود : قم فطأ على خدى ، مظهرا بذلك غاية الندم مما فرط منه .

وقد قوّى النبى صلى الله عليه وسلم هذا الأصل الكريم فى مواطن عدة ، ومن أشهرما قاله فى ذلك : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالأنساب ، ليس لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » .

وقد جرى المسلمون بعد النبى صلى الله عليه وسلم على هذه السنة الكريمة ، فلم يفرقوا فى المعاملة بين الناس بحسب أصولهم وألوانهم ، بل تركوا الحكم للمزايا الذاتية ، والمميزات الأدبية، فبلغ بعض العبدان والموالى ومن لا يعرف له أصل الى قمة الشرف ، وحكم لهم بالسؤدد غير منازَعين فيه لأى اعتبار من الاعتبارات ، حتى قال عمر رضى الله عنه وهو على سرير الموت وقد سمى ستة رجال ونصح للناس أن ينتخبوا للخلافة واحدا منهم : « والله لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً ما جعلتها شورى » أى لأسندت اليه الخلافة ، وسالم هذا كان رقيقا لأبى حذيفة . هذه كلمة ستبقى مثلا أعلى ما بقى للعالم تاريخ يقرأ .

ولما تم للفاروق رضى الله عنه ترشيح الستة للانتخاب ، أمر أن لا يبرحوا الدار التى يجتمعون فيها حتى ينتخبوا واحدا منهم ، وأمر أن يتولى الصلاة بالناس صهيب ، والصلاة بالناس كانت مهمة عالية لا تسند إلا لأهل الكفايات من ذوى السابقات الكريمة ، وصهيب هذا كان أصله عبدا روميا . فانظر الى أى حد بلغ هذا المجتمع الاسلامى من الإغضاء عن الفوارق الجنسية ، والاعتداد بالمزايا الذاتية !

ومما يؤثر عن هذه الأمة العالمية — وليس له شبيه فى تاريخ العالم كافة الى اليوم — أن قادتها وعلماءها والمبرزين فى مجال نشاطها العقلى ، كانوا من جنسيات مختلفة ، ومنهم من كانوا أرقاء أو أبناء أرقاء ، فلم يمنع ذلك أن يحلّوا من هذه الأمة حيث وضعتهم مواهبهم وكفاياتهم .

فقد كان جميع مقدمى الفقهاء الأولين فى الولايات الاسلامية من أجناس مختلفة ، ومنهم عدد من الموالى ، إلا النخعى ، فقد كان عربيا . وكان إمام المحدثين الحسن البصرى

فارسيا، واتفق أن أول الأئمة المجتهدين أبو حنيفة النعمان بن ثابت كان فارسيا أيضا، وقد لقبوه بالامام الأعظم . وكان العدد الأكبر من أصحاب الصحاح فى الحديث من أجناس شتى، كالبخارى ومسلم وأحمد والبيهقى والترمذى والدار قطنى وابن ماجه، فلم يكن ذلك ليثير عليهم حقدا، ولا ليمنع الناس عن الأخذ عنهم . وكان يجرى هذا المجرى أقدم المفسرين وكبارهم، كالطبرى والزمخشرى والرازى والنيسابورى . وكان من مقدمى علمائهم الذين ولوا الأئمة الأولين فى مختلف العلوم على هذا النحو أيضا، فكان الباقلانى والاسفرايينى وأبو حامد الغزالى الذى لقبوه بحجة الاسلام، والراغب الأصفهانى، ومن لا يحصى لهم عدد، من بقاع مختلفة من الأرض . ولم يستثن من ذلك حفاظ اللغة العربية نفسها، كأبى عبيدة والفيروزبادى والجوهرى، ووضعة آلاتها من نحو وعروض ومنطق، كالخليل بن أحمد وسيبويه ونفطويه وابن خالويه وابن فارس، وأعلام أدبها كبشار بن برد وأبى نواس ومروان بن أبى حفصة ومهيار الديلمى الخ .

فهذا الاجتماع العالمى الذى طَبع به الإسلام أهله الأولين، صورةٌ مصغرة لما ستكون عليه الحال حين يُعرف الاسلام معرفة عامة، ويصبح بعد أن تدرس أصوله على نور العلم، دينَ البشرية كلها فى مشارق الأرض ومغاربها . فإن أكبر ما يصد الناس عن الاتفاق، ويحول بينهم وبين نعمة التعاون العام، ويجعل من بعضهم أعداء لبعض، هى روح القومية التى توهم ذويها أن قومها خير الأقوام، وأنها اختصت من جانب العزة الإلهية بمميزات تجعل لها السيادة على العالم كله، وأن جميع الأمم تقصر أن تصل الى مستواها الأرفع، بل منها ما تُخيل لها تلك الروح أن نسبها يتصل بخالق الكون نفسه، فلا عجب أن تتربص بعض هذه الأمم ببعضها الدوائر، وأن تكون البقاع الأرضية فى نظرها ساحات لحروب ترتكب فيها أشنع القساوات البربرية .

ولكن اليوم الذى يحل فيه الروح الاسلامى الأقدس، بما يقتضيه من العدل والمساواة والإخاء، ترتفع من بينها هذه الأوهام الشيطانية، فيعيش الكافة إخوانا

مترابطين بأشرف الروابط الأدبية ، وينفتح المجال أمامهم للعمل على ما ينفع الناس على السواء ، ويأخذه الناس عنهم غير متأثرين بروح الأنفة الجاهلية ، فيحل الوفاق بينهم محل الشقاق ، وتبطل من بينهم الحروب والغارات ، والمزاحمات الحيوانية .

نعم : إن هذا مطلب بعيد المنال ، ولكنه كائن لا محالة ، فإن كل ما يشعر به العالم اليوم من الشدائد وضروب الأزمات يعمل على تمهيد السبيل له ، وتعبيد الطريق أمامه ، وإذ ذاك يتبين معنى قوله تعالى : (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ؟) .

ومما يجدر بنا أن نزيده على هذا الكلام أن الاسلام وإن كان أعلن الأخوة العامة والمساواة بين الناس ، فقد اعترف بضرورة وجود الطبقات الاجتماعية فى الأمة ، ليقوم صرح الاجتماع على أمتن القواعد ، فلا تتسرب اليه الفوضى من ناحية من نواحيه . وكل ما شرطه فى تأليف تلك الطبقات أن تكون بحسب المؤهلات العلمية ، والمزايا الأدبية ، قياما على سنة إسناد كل أمر الى أهله الذين يستطيعون أن يقوموا بمهامه على أكمل حال . وقد وجدت فيه هذه الطبقات منذ وجوده الأول ، فهو دين مدنى نظامى من كل وجه : (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) . **محمد فريد وجدى**

الحرص على طلب الحكمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها ممن سمعها ، ولا يبالى من أى وعاء خرجت .

أى أن الحكمة يجب أن تلتقط مع صرف النظر عن قائلها . وقد أطلق عليها كلمة الضالة ، وهى ما يفقده الانسان ويظل يبحث عنه حتى يجده ، مبالغة فى أن الحكمة حاجة لا بد منها . ومن كانت له ضالة فوجدها اضطر لأخذها غير مبال بمن وجدها عنده ، سواء أكان مؤمنا أم كافرا ، طيبا أم خبيثا . وهذا أبلغ ما سمع من الحث على طلب الحكمة .

التفسير

سورة النور

١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ ٱلْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ ٱلظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ ٱلْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنْكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

يكون مع المرء عادة فى داره فئة ممن تربطهم به رابطة المعيشة ، كأعضاء أسرته وخدمه ومماليكه ، ومثل هؤلاء تقضى شئون الحياة أن يختلط بعضهم ببعض اختلاطا متكررا ، فلا يتحاشى بعضهم أن يدخل على بعض فى خلوته ، ولا يلتفت الى استئذان فى كل مرة يريد أن يتصل برفيقه فى المعيشة .

ولقد بينت لنا الآيات السابقة حكم دخول المرء على بيت غير بيته ، وشرع الاستئناس والاستئذان ، والسلام على أهل البيت ، وانتظار ما يكون منهم من الأمر بالدخول

أو الأمر بالرجوع ، وأن كلا منهما مقبول وحق مطلوب الامتثال ، وأزالت ما فى ذلك من غضاضة على النفس بأنه حق كما يطلب من المرء مع غيره يطلب من غيره معه ،

وهذه الآية جاءت مقررة لحكم الجماعة تجمعهم دار واحدة ، لاتصالهم فى شئون الحياة على ما سبق ، وما من امرئ إلا وله شئون خاصة يكره أن يطلع عليها غيره ، فهو فى خلوته يطرح الاحتشام ، ويتبسط فى شئونه الشخصية ، فلا يبالى أ كشف شىء من جسمه ، ولا يبالى أن يضطجع أو يستلقى حسبما يجد راحته ، فهو فى حل ما دام فى خلوته ، ولكن الحياء والاحتشام ولو مع الخادم والمملوك ، بل مع الابن المميز والبنت ، كذلك لهما حكم وأثر فى النفس لا يجهله من أعطى قسطا من الحياء والاحتشام ، فاحتاج الأمر الى دستور واضح ، ومنهاج بيّن ، يحدد لنا ما يكفل للمرء راحته ، ويضمن له احترام خلوته ، ويزيل الحرج والمضايقة بين أفراد الأسرة المربوطة بمعيشة واحدة : ذاك هو ما تضمنته هذه الآية الكريمة .

وقد روى فى سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل غلاما من الأنصار الى عمر رضى الله عنه فى وقت قيلولته ، فدقّ الباب ، ودخل بلا استئذان ، وكان عمر نائما ، فكأن شيئا كشف من جسده ، فكره ذلك ، وقال : لوددت أن الله نهى آباءنا ، وأبناءنا ، وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الأوقات بلا إذن ! ثم توجّه معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد هذه الآية قد نزلت ، فخر ساجدا . وهذه إحدى موافقات عمر رضى الله عنه للوحى ، ويتبين بها وبأمثالها سر نزول القرآن منجما حسب الحوادث ، فإنه بذلك تتجلى الحكمة فى التشريع ، فيقوى العون على الامتثال .

قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم» :

تتأمل فى أسلوب الآية الكريمة فتجد الخطاب وُجه فيها للذين آمنوا ،

ثم وجه الأمر بعد ذلك للمملوكين والذين لم يبلغوا الحلم فى قوله : ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، فإن اللام فيه لام الأمر ، والأمر إذا وجه الى غير المخاطب يؤتى مع الفعل باللام . وسرُّ ذلك أن هذا الحكم مما يشترك فيه كلا الطرفين ، وثمرته عائدة على السادة والكمّل البالغين ، ومن أجلهم شرع ، وهم المهيمنون على المماليك والصغار ، فعهد اليهم أن يقوموا بتعليمهم وإرشادهم ، وأن يتتبعوا امتثالهم ، ويتعهدوهم فى القيام بما كلفوه ، إذ كان ذلك حقاً لهم ، ومعهوداً به اليهم . ويجوز أن يكون المقصود أمر الأولياء والسادة أن يأمروهم ، وإن كان فى الظاهر قد وجه الى المماليك والغلمان ، وذلك لأن الذين لم يبلغوا الحلم لا يتوجه اليهم التكليف ، فيكون ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر .

وعلى الجملة فالمطلوب منه الاستئذان هو المملوك والصبى ، وكون الصبى غير مكلف لا يمنع أنّ وليّه يعوّده على ما يطلب منه من الآداب والحقوق .

وقوله تعالى : « ثلاث مرات » أى فى ثلاثة أوقات فى اليوم ، هى ما فصلت بعدُ فى قوله تعالى : « من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء » . هى تلك الأوقات التى يحتاج المرء أن يستريح فيها ، ويخلص من الكلف ومراعاة الواجبات نحو الغير . هى الأوقات التى يحلو المرء فيها أن يطرح الاحتشام ، ويملك فى نفسه حرية التصرف ، فيختار الوضع الذى يروقه ، والهيئة التى توافقه ، وهو آمن من اطلاع غيره عليه مهما كان ذلك الغير . وما منّا إلا من يشعر بأن لا بدّ للمرء من وقت يتمتع فيه بالحرية الكاملة . وأىّ وقت هو أحوج فيه من هذه الأوقات الثلاثة ؟ وقت ما قبل صلاة الفجر حين يستيقظ من نومه ويهب من فراشه فيخلع ثوبا ويلبس ثوبا ، ولعله بحاجة الى تدليك بدنه أو إلانة أعضائه ، ولكل امرئ عادته الخاصة به ؛ ومن بعد صلاة العشاء ، حيث يكون قد فرغ من عمله ، وانتهى من عبادته ، وركنت نفسه الى أن يأوى لفراشه ، فهو يخلع ثياب اليقظة ويلبس ثياب النوم ، وربما

كان يميل الى الأنس بأهله ، فلا منغص له فى هذه الحالة أكثر من أن يفاجأ بدخيل داخل عليه مهما صغرت سنه ، أوقوىَ اتصاله به ، متى كان عنده عقل وتمييز . ولم يتعرض لحكم ما بين الوقتين ، لندرة الدخول حينئذ . وتلمح من هذين الوقتين أدباً فى تعجيل النوم بعد صلاة العشاء ، وتبكير اليقظة قبل صلاة الفجر ، فذلك أعون على انتظام الصحة ، وأبعد عما يجره السمر من المنكرات ، أوتنبيه النفس الى فاسد الشهوات ، ولا يعين على التبكير باليقظة إلا التعجيل بالنوم أول الليل ، ولقد قال قائل : شباب النوم فى شباب الليل . وإن شئت فانظر الى أولئك الذين جعلوا السهر والسمر ديدنا لهم وعادة ، تجد صحتهم غالبا فى اعتلال واختلال .

وقوله تعالى : «وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة» هو الوقت الثالث ، وهو ليس محدودا فى ذاته تحديدا تاما ، فرب امرىء دعاه عمله الى تعجل القيلولة ، وآخر يرى صالحه فى تأخيرها ، وقد يستغنى عنها بالمرة . فلذا نيط الحكم فيها بقوله : وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ولم ينط بنفس الوقت كما فى الموضعين الأولين . والظهيرة : هى وقت الظهر ، أو وقت اشتداد الحر فيه . وقوله تعالى : ثلاث عورات لكم ، بيان لحكمة التشريع ، حتى يدعوهم ذلك الى العناية بالامتثال ، وتتربى فى نفوسهم ملكة الاقتناع بالأحكام ، بل الاغتباط بها ، واعتقاد أنها شرعت لمصلحتهم ، ورحمة بهم . والعورات : جمع عورة ، وهى فى الأصل من العار وهو العيب ، سمى به كل ما يكره الإنسان أن يطلع عليه غيره ويسوءه كشفه ، ومنه عورة المكان لما اختل منه . وقد قرىء : ثلاث عورات بالرفع خبر لمحذوف ، أى هى ثلاث عورات لكم ؛ وبالنصب على أنها بدل من ثلاث مرات .

قال تعالى : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » : بيّن نفى الحرج فى اللقيا فيما عدا هذه الأوقات ، فإن المرء اذا كان فى داره حيث لم يلتزم مكان خلوته الخاصة ، لا يسوءه أن يلقاه أحد من أهل بيته بلا استئذان . وفى تكليف أعضاء الأسرة

الواحدة ومن فى حكمهم الاستئذانَ فى كل مقابلة حرجٌ ومشقة لا تحتمل . وهذا غير ما سبق من النهى عن دخول البيوت على أى حال إلا بعد الاستئذان ، فذاك فى حق الأجانب . والجناح : الحرج والإثم . وقوله تعالى : ولا عليهم ، ظاهر فى المماليك ، أما الصغار الذين لم يبلغوا الحلم فليسوا عرضة للجناح شرعا حتى ينفى ، فإنهم غير مكلفين ، إلا أن الآية سيقت مساق إظهار الجميع فى صورة المخاطبين كلهم بحكم واحد متكاتفين فيه ، بعضهم على بعض رقيب ، فمن أخلّ بشىء منه فعلى الآخر إرشاده وتعليمه وتأديبه وتهذيبه . وفى نفى الجناح عن الصغير فى غير هذه الأوقات عون على تربيته على التزام الأحكام ، بإفهامه أنه على شرف أن يكون واقعا فى الحرج . على أن باب التغليب فى مثل هذا باب واسع .

وقوله : « طوافون عليكم » أى هم طوافون عليكم : بيان لوجه الترخيص باللقيا بلا استئذان فيما عدا تلك الأوقات ، كما بيّن سر النهى بقوله : « ثلاث عورات لكم » ومعنى «طوافون عليكم» أنهم بصدد مخالطتكم ، والمداخلة معكم فى شئون الحياة . وأصل الطواف : الدوران حول الشىء . وقوله : بعضكم على بعض ، زيادة فى بيان ما تدعو اليه الحالة ، مؤكد لحكمة نفى الحرج عنهم ، أى أن كلا منكم لا يستغنى عن مخالطة صاحبه ، فهم طوافون عليكم وأنتم طوافون عليهم على المعنى المتقدم ، فكأن فى قوله : «بعضكم على بعض » تسلية للمماليك والخدم بأن المعاونة فى الحياة أمر مشترك بينهم جميعا .

« كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » : يأتى لفظ كذلك فى القرآن على هذا الوجه كثيرا ، ومعناه أنه بعد أن يبين الحكم أو الآية أو القصة أو نحو ذلك بيانا شافيا يملأ القلب روعة وجلالا ، ينبه السامع والقارئ الى أن هذه هى العادة الإلهية معكم ، وأن مثل هذا البيان الذى ملك قلوبكم تبيين آيات الله التى تتلى عليكم . « والله عليم حكيم » أى شامل العلم بكل ما يصلح ، وبما كان ويكون ، يضع لكم من الأحكام ما يناسبكم ، ويكفل لكم سعادتكم .

قال تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » :

هذا لبيان أن حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم منكم : من السماح لهم بمخالطتكم ، والدخول عليكم بدون استئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة المبينة ، إنما هو ماداموا صغارا لم يبلغوا الحلم ، فإذا مابلغوا الحلم انسحب عليهم الحكم الذى بين فى غيرهم فى قوله تعالى : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا » . وهذا لاقتلاع ما قد يراه بعضهم من أن هذا وإن بلغ فهو معتاد الدخول والمخالطة فلا حرج فى ترداده على سابق عادته ، وذلك كما تراه كثيرا فى أسر محتشمة ، إذ يتسامحون مع رجال بلغوا حد الرجولة أن يترددوا عليهم ، بحجة أن هذا معتاد من صغره أن يتردد ويرى كل من فى البيت ، فجاءت الآية لاقتلاع هذا الوهم ، وتبيين الحكم صراحة فى شأنهم . وكان التعبير فى هذا الموضع بقوله : آياته ليحملهم على الخضوع لأمره تعالى وإن خالف ما كانوا يزعمون ، فهو أعلم بما فيه مصلحتهم . وأما فى الموضع الأول فإن نفوسهم منساقة الى ما بيّن لهم ، فكانت آية بينة على الإطلاق .

قال الله تعالى : « والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم » :

القواعد : العجائز . سمين قواعد لأنهن لكبرهن أغلب أحوالهن القعود ، أو لأنهن يلزمن البيوت غالبا ، كلٌّ قيل به فى وجه تسميتهن قواعد . وقوله : اللاتى لا يرجون نكاحا ، أى لا يطمعن فيه لكبرهن ويأسهن من أن يُتطلع اليهن ، وهو وصف كاشف لمعنى القواعد ، وممهد للحكم بعده ، وهو نفى الجناح عليهن فى وضع ثيابهن ، والمراد بها الثياب التى لا يفضى خلعها الى كشف العورة ، مثل القناع ، والجلباب السابغ الضافى ، كما يفيده قوله : غير متبرجات بزينة . والتبرج : الظهور والتكشف ،

خص بتكشف النساء عمدا ليراهن الرجال . وأصله من البَرَج ، وهو سعة العين مع ظهور بياضها كله محدقا بالسواد .

وهذا المعنى هو الحد الفارق بين من يخشى منها الفتنة ، فالمطلوب لها أن تتحجب وترخى عليها قناعها ، وتضرب بخمارها على جيبها ، وبين من لا يخشى منها الفتنة ، فلاجناح عليها أن تضع ثيابها التى لا يفضى وضعها الى كشف العورة مع عدم التبرج بالزينة . ومع هذا فالاستعفاف والاحتياط بالتستر خير لهن . وعلى ذلك يكون قوله : غير متبرجات بزينة ، حالا يقصد بها تقييد نفى الجناح بأن محله إذا لم يقصدن بالوضع التبرج . وحكمته أن التبرج منها قد ينبه عوامل النفس الخبيثة من غيرها ، وإن كانت لا ترجو شيئا من ذلك . ومنهم من يراه لبيان حكمة الحكم ، فيكون المعنى : لا جناح عليهن فى وضع ثيابهن ، فإنهن لا زينة لهن يتبرجن بها . والله سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو المطلع على مقاصد النفوس وحركات الضمائر ، فيجازى كلا بما عمل .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخير العمل ، وأن يجنبنا الزيغ والزلل ، إنه سميع عليم رءوف رحيم ؟

ابراهيم الجبالى

الحكمة غرض المؤمن

قال عليه الصلاة والسلام : خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين .

نقول : ويجرى مجرى الحكمة كل ما هو حسن ونافع ، فالمسلم مأمور أن يأخذ كل ما يجده من علم وصناعة وفن ، وقد عمل المسلمون الأولون بذلك ، فجمعوا كل ما تفرق فى الأمم التى احتكوا بها ، فكانت مدنيتهم أرقى المدنيات ، وأجمعها لكل الخيور الموزعة بين الخلق .

رجال لله

لله تحت قباب العز طائفة أخفاهم فى لباس الفقر إجلالا

العقيدة بالله فى نظر العلم الصحيح

مذهب العلامة (نيوتن) فى إثبات الصانع

أتينا فى العدد السابق على مذهب الفيلسوف ديكارت الفرنسى فى إثبات الخالق جل وعلا ، ونأتى اليوم على مذهب الفلكى الانجليزى الكبير نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية العامة ،وهو معدود من أهل العقول الممتازة ،والقرائح الجبارة . ناهيك أنه مكتشف الناموس الذى بنى عليه الطبيعيون بحوثهم العلمية ، وأجمعوا على القول به إجماعا لم ينله ناموس غيره ، ولم يجرؤ على نقده إلا العلامة الرياضى (انيشتين) المعاصر لنا ، ولكن مذهبه قد صادف أخيرا نقدة أقوياء كادوا يلحقونه بالخيالات الباطلة .

ولد هذا البحاثة سنة ١٦٤٢ ، وتوفى سنة ١٧٢٧ ، فعاش هذا المدى الطويل حاصلا على إعجاب مواطنيه والعالم أجمع ، ولا يزال اسمه ماثلا بين أسماء الشخصيات الفذة .

الذى يقارن بين مذهب ديكارت ومذهب نيوتن فى إثبات الخالق جل شأنه يجدهما قد سلكا طريقين مختلفين ، فإن الفيلسوف الفرنسى قد أغفل جميع البراهين الحسية المنتزعة من الوجود المادى ،واعتمد على البراهين النفسانية . فجاء نيوتن فعكس الأمر ، فأغفل جميع الأدلة النفسانية ، واعتمد على الحجج الحسّية المنتزعة من الوجود المشهود نفسه . فكان بين الرجلين بون بعيد فى التفكير والتعليل والبرهنة .

فقد جعل ديكارت التحقق من وجود نفسه المفكرة وسيلة الى إثبات وجود الله ، وبنى على هذين الأصلين إثبات الوجود المحسوس ، وطريق البحث عن نواميسه وقواه وخواص مادته قائلا : « إن غرضى من ذلك تفسير المعلولات بعللها لا العلل بمعلولاتها » .

ولكن البحاثة الانجليزى جعل قاعدة فلسفته النظر فى خواص المادة ونواميس الطبيعة ، مستنتجا من ذلك عقيدة وجود الخالق ، والإلمام بصفاته .

ولما اشتهر نيوتن بسلامة النظر وقوة الإقناع ، سأله الناس من كل مكان أن يؤاتيهم بدليل على وجود الخالق يكون فى درجة المحسوسات ، فأبىّ نيوتن دعوتهم وكتب لهم قائلا :

« لا تشكوا فى وجود الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها قائدة للوجود ومهيمنة عليه ، لأن الضرورة العمياء هى هى فى كل مكان وكل زمان ، فلا يتصور أن يصدر منها كل هذا التنوع فى الكائنات ، ولا هذا الوجود نفسه على ما هو عليه من ترتب الأنواع وتناسبها ، رغما عن التغيرات التى تنصبّ عليها بتأثير الأزمنة والأمكنة . فكل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أوّلىّ له حكمة وإرادة » .

ثم أخذ فى تفصيل ما أجمله فى عبارته المتقدمة فقال :

« من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد تأثير الجاذبية العامة ، لأن خاصة هذه القوة أن تدفع بالكواكب نحو الشمس ، ولكن لأجل تمايل دوران هذه الكواكب حول الشمس ، يجب أن توجد يدٌ إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها » .

ثم قال :

« من الجلى الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى يمكن أن يعزى اليه توجيه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة ، وعلى مستوى واحد ، دون أن يحدث فيها أى تغير يذكر . فمجرد النظر لهذا التدبير يُشعر بوجوب وجود قدرة إلهية تحدثه .

« ثم إنه لا يوجد سبب طبيعى يستطيع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المناسبة مناسبة دقيقة للمسافات التى بينها وبين الشمس ، ولمراكز الحركة ، بحيث تتحرك هذه الأجرام فى مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعا . فلأجل تكوين هذا النظام بجميع حركاته يجب وجود مدبر عرف كل هذه

المواد ، وقابل بين كمياتها الموجودة فى هذه الأجرام العلوية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدّر المسافات المتباينة بين الكواكب والشمس ، وبين توابعها ، وساتورن ، وجوبتير ، والأرض ، وقرر السرعة التى يجب أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكز لها .

« فمقارنة كل هذه الأمور بعضها ببعض ، والتوفيق بينها ، وجعلها نظاما يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب وجود سبب لا أعمى ولا حادث بالاتفاق ، ولكن على علم راسخ بأصول الميكانيكا والهندسة » .

ثم قال :

« ليس هذا كل ما فى المسألة ، فإن وجود الله تعالى ضرورى أيضا ، سواء أكان ذلك لإدارة هذه الأجرام بعضها على بعض — وهو الأمر الذى لا يمكن أن ينتج من مجرد القوة الجاذبة — أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق ودورات الكواكب ، كما يرى ذلك فى الشمس والكواكب وتوابعها ، بينما ذوات الأذناب تدور فى كل وجهة على السواء » .

ثم قال :

« وغير هذا فإن فى تكوّن الأجرام السماوية : كيف حدث أن الذرات المبعثرة استطاعت من نفسها أن تنقسم الى قسمين ، فالقسم المضىء منها انحاز الى ناحية لتكوين الأجرام المضيئة ، والقسم المعتم اجتمع فى ناحية أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها ؟ كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل إله لا حدّ لحكمته »

ثم قال :

« كيف تألفت أجسام الحيوانات على هذه الصنعة البديعة ، ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ونواميسه ، والأذن بدون الإلمام بقوانين الصوت ؟ وكيف يحدث أن حركات الحيوانات تحصل بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطرى لنفوس الحيوانات ؟ »

الى أن قال :

« هذه الكائنات العالمية فى قيامها كلها على أبدع الصور وأكملها، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية، حى حكيم، له سلطان فى كل مكان، يرى حقيقة كل شىء فى ذاته، ويدركه أكمل إدراك؟ » انتهى .

هذه أدلة العلامة (نيوتن) فى إثبات الخالق، وهو يعتبر من الأعلام المعترف لهم بالعقليات الممتازة ، وهو باكتشافه لناموس الجاذبية العامة قد جعل اسمه عالميا ، وخلده فى تاريخ العلم مقترنا بكل تبجيل واحترام .

وكل ما ذكرناه من مذهبى ديكارت ونيوتن فى إثبات الخالق، قد سبق اليه القرآن الكريم، وقد جمع بينهما فى آية واحدة، فقال تعالى : (وَفِى ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) إدلالا على أن الانسان يصل الى الاعتقاد به من النظر فى نفسه ، ومن النظر فى الطبيعة . وقد أكثر القرآن من لفت العقول الى هذين الينبوعين من العلم، فقال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) بكسر اللام. وقوله تعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ) . وقوله تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) . *محمد فريد وجدى*

فضل الحلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب الحليم الحيى ، ويبغض الفاحش البذى .

وقال بعض الشعراء :

أحب مكارم الأخلاق جهدى   وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما   وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه   ومن حقر الرجال فلن يهابا

نقض شبه القاديانية

- ١ -

كنا كتبنا فى مجلة نور الاسلام مقالا نبهنا فيه المسلمين لنزعة غلام أحمد ومزاعمه الباطلة ، فكان له بحمد الله تعالى أثر عظيم فى إيقاظ من كانوا فى غفلة عن هذه النحلة وما يثيره دعاتها فى العالم الاسلامى من فتون وشرور ، فتميز أولئك الدعاة غيظا ، وما كان من داعيتهم فى فلسطين إلا أن كتب مقالا يوهم فيه الطائفة الواقعة فى حبالتهم أنه يرد على مقالنا . ووقع نظرنا على ذلك المقال المملوء بالتمويه والالتواء عن آداب المناظرة ، فبدا لنا أن نعود للكتابة فى تلك النحلة ، فنزيد حالها إيضاحا . وكتبنا فى مجلة نور الاسلام مقالين آخرين نبهنا فيهما لبعض ما فى مقال ذلك الداعية من مراوغة وانحراف عن السبيل ، وسقنا فيهما بعض ما نطق به كبيرهم غلام أحمد من زور وهذيان ، وحدث بعد هذا أن نشر ذلك الداعية فى أوراق يصدرونها فى شكل مجلة مقالا حاول فيه الرد على مقالنا الثانى المنشور فى مجلة نور الاسلام . والواقع أنه لم يأت فى مقاله هذا إلا بما يطعن فى دعوتهم ، ويزيد الناس خبرة بفساد مذهبهم ، وقد كان فى عرض بعض أقوال غلام أحمد وشىء من مسلكه الكفايةُ للدلالة على أنه يكيد للأمة الاسلامية ، ويقول على الله غير الحق . ولا حاجة بنا فى إبطال دعواه النبوة والرسالة الى الخوض فى أن النبوة منقطعة أو باقية ، فإن تلك الأقوال التى صدرت من غلام أحمد ، تنادى بملء حروفها أن النبوة فى ناحية اليمين وهو فى ناحية الشمال ، ولكنا آثرنا النزول الى نقض بعض مزاعمهم ، حذرا من أن تجد أذهانا غافلة فتعلق بها . وها نحن أولاء نعرض على حضرات القراء قطعا من مقال داعية القاديانية ، ليزدادوا علما بحال تلك النحلة ، ومبلغ دعاتها من لبس الحق بالباطل :

رأى غلام أحمد ومن اتبع خطواته أن قوله تعالى فى وصف الرسول الأعظم

صلى الله عليه وسلم : (وخاتم النبيين) يسد الطريق على من يريد فتنة الناس بدعوى النبوة ، فحاولوا تأويل الآية على معنى أنه أفضل النبيين ، أو سيد النبيين ، وابتغوا هذا التأويل ليتهيأ لهم أن يقولوا على الله ما شاءت أهواؤهم ، ويفسدوا على المسلمين أمر دينهم ، فقلنا لهم : إن علماء التفسير قد اتفقوا على أن (خاتم) في الآية بمعنى آخر ، وهو المعنى الذى يذكره علماء اللغة ، ويسوقون من شواهده هذه الآية ، ومن أراد صرف (خاتم النبيين) عن معنى آخر النبيين الى معنى أفضل النبيين ، فعليه بإقامة شاهد أو نقل كلمة عن بعض علماء اللغة يدل على أن وصف الرجل بكونه خاتما لقوم ، يقصد منه أنه أفضلهم أو سيدهم ، ولكن داعية القاديانية لم يستطع أن يقيم من كلام العرب أو علماء اللغة ولو شاهدا واحدا على أن مثل تركيب (وخاتم النبيين) قد يستعمل بمعنى أفضلهم أوسيدهم .

يقول الداعية فى مقاله الجديد : « وكنا سقنا شواهد واستعمالات العرب فى كون لفظ الخاتم مضافا والقوم أولى المناصب مضافا اليهم ، وكون استعمال هذا المركب الإضافى ، فى مقام المدح ، ولا يتأتى المعنى فى تلك الاستعمالات إلا أن الممدوح أفضل القوم وسيدهم » .

والداعية لم يورد فى مقاله السابق شيئا من كلام العرب يشهد بأن الخاتم إذا أضيف الى القوم أولى المناصب كان بمعنى أفضلهم وسيدهم ، وإنما أورد عبارات لمن لا يحتج عالم فى تفسير كتاب الله تعالى بكلامهم ، ولا تتجاوز تلك العبارات وصف أحد الرجال بأنه خاتم العلماء أو الأولياء أو الشعراء ، وما هى إلا أقوال صدرت من بعض رجال القرون المتأخرة أو القريبة منها ، وإنما يحتج فى تفسير القرآن الكريم بكلام العربى الصميم .

وهل رأيتم مجادلا أسخف قولا ممن يحتج فى بيان معنى آية من كتاب الله تعالى بما كتبته المطبعة الأزهرية على أول الصحيفة الأولى من كتاب الإتقان ، أعنى قوله : « الجزء الأول من كتاب الإتقان فى علوم القرآن لخاتمة المحققين » .

ثم إن أمثال هذه العبارات من نحو خاتم المحققين أو خاتم الأئمة أو خاتم المجتهدين ، قد ينساق إليها قائلها من شدة إكباره لمقام الممدوح ، لحد أن يظن بلوغه مرتبة يبعد أن ينالها أحد من بعده ، كما قالوا :

هيهات أن يأتي الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لبخيل

وكما قالوا :

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفّر

وكما قال السيوطي في تقي الدين الحراني : « آخر المجتهدين » .

وفسر الداعية في مقاله الأول الخاتم بمعنى الزينة ، ولم يجد شاهدا على هذا من كلام العرب أو أقوال اللغويين أو المفسرين ، فتعلق بكلمة للشيخ محمد طريح النجفي (أحد علماء الشيعة) اقتطعها اقتطاعا ، فقال : « يقول صاحب مجمع البحرين ما نصه : « ومحمد خاتم النبيين ، يجوز فيه فتح التاء وكسرها ، فالفتح بمعنى الزينة ، مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة للابسه » .

والواقع أن الشيخ النجفي قد صرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم آخر النبيين ، فقد قال قبل تلك الكلمة التي اقتطعها الداعية : «قوله تعالى : (وخاتم النبيين) أي آخرهم ليس بعده نبي» ثم قال : «ومحمد خاتم النبيين يجوز فيه فتح التاء وكسرها ، فالفتح بمعنى الزينة ، مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة للابسه ، وبالكسر اسم فاعل بمعنى آخر » .

ولما كان صاحب مجمع البحرين يعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ليس بعده نبي ، فقصارى أمره أن يكون أخطأ في تأويل (خاتم) على قراءة الفتح بمعنى الزينة ، فإنه مخالف لأقوال من هم أدرى منه بتفسير كتاب الله تعالى ، وبوجوه استعمال الألفاظ العربية حقيقة أو مجازا .

وها نحن أولاء نسوق اليكم طائفة من أقوال علماء اللغة الشاهدة بأن الخاتم (بفتح التاء أو كسرها) بمعنى الآخر ، قال صاحب اللسان : « وخاتمهم وخاتمهم : آخرهم ،

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين » وقال ابن سيده فى كتاب المحكم : « وختام القوم وخاتمهم وخاتمهم : آخرهم » وقال : « وفى التنزيل (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى آخرهم » وقال الأزهرى فى كتاب التهذيب : « وخاتم كل شىء آخره ، وقوله تعالى: (رسول الله وخاتم النبيين) معناه آخر النبيين » ولم يذكر أحد من هؤلاء الأئمة أو غيرهم كصاحب الصحاح وصاحب المصباح وصاحب القاموس وصاحب أساس البلاغة أن الخاتم يكون بمعنى الزينة .

ولعل الداعية يعلم أن القرآن الكريم إنما يستشهد فى تفسيره بكلام العرب ، ويتيقن أن استشهاده بالعبارات التى ينقلها عن بعض الكتاب أو أصحاب المطابع ، لا يتقبله أهل العلم ، ولكنه يسوقها استهواء لقوم يجهلون آداب البحث ، ولا يفرقون بين ما يصح أن يستشهد به فى تفسير كتاب الله تعالى ، وما لا يصح الاستشهاد به[1] .

وخلاصة البحث أن علماء اللغة يقولون : الخاتم بمعنى الآخر ، والمفسرون يقولون : (وخاتم النبيين) أى آخرهم ، وداعية القاديانية يزعم أن (خاتم النبيين) بمعنى زينتهم أو سيدهم أو أفضلهم . وانتظرنا منه أن يأتى بشاهد على هذا من كلام العرب ، أو من كتب اللغة ، أو من أقوال أئمة التفسير ، فلم يفعل ، وذهب يعارض أئمة اللغة والتفسير ، بلغوٍ من القول ، كأنه لا يشعر أن القرآن الكريم قول فصل ، وما هو بالهزل ؟

محمد الخضر حسين

من الشديد بحق ؟

قال النبى صلى الله عليه وسلم : الشديد من غلب نفسه .

وقال عون بن عبد الله : إذا عصتك نفسك فيما كرهت ، فلا تطعها فيما أحبت ، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك .

---

(١) اورد فى بعض رسائله أحاديث وآثارا عن بعض السلف ، ووعد بحثها المقال التالى ، إن شاء الله .

رجب

رجب : أحد الأشهر الحرم الأربعة التى نص الله عليها بقوله تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّٰهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » وإنما نسب لمضر ، لأنهم أشد تعظيما له من غيرهم ، وكانت العرب تسمى شهر رجب بالفرد ، لعزلته عن الأشهر الحرم ، وكانوا يسمونه شهر الله الأصم ، أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث ، وربما كانوا يستعملون رجبا لحجهم الأصغر ، يعنى العمرة . وكانت العرب تحترم الأشهر الحرم ، فتلقى فيها السلاح ، وتترك الغزو ، ولا يستبيحون فيها القتال ، ولا الأخذ بالثأر ، حتى لقد بلغ من أمرهم أن أحدهم لو لقى قاتل أبيه أو ابنه فى شهر رجب لم يتعرض له .

وفى اللسان : ورجب سموه بذلك لتعظيمهم إياه فى الجاهلية عن القتال فيه . والترجيب التعظيم . وفى الحديث : هل تدرون ما العتيرة ؟ هى التى يسمونها الرجبية ، كانوا يذبحون فى شهر رجب ذبيحة وينسبونها اليه . والترجيب ذبح النسائك فى رجب ، وكانت العرب ترجب أى تذبح النسائك فى رجب .

وإنما اعتبرت العرب هذه الشهور واحترمتها ، حتى لا يقف العداء بينها وبين بعضها حجر عثرة فى طريق الحاج منهم ، وكان من عادتهم العمرة فى رجب . وأشهر الحج الأكبر عندهم : شوال ، وذوالقعدة ، وذو الحجة . وكانوا يحرمون الشهر الذى فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، والذى قبله ، لأنه وسيلة اليه ، والذى بعده لأنه تابع له ، لأن الحاج كان يسافر فيه الى بلاده ، فوجب أن يكون فيه آمنا على نفسه وماله .

وقد أقرّ الاسلام احترام هذه الأشهر ، وجعل الطاعة فيها مثابا عليها أكثر من الطاعة فى غيرها . ولم يكن القتال مباحا فى الأشهر الحرم فى صدر الاسلام ، فقد صح أنه عليه الصلاة والسلام ساءه ما نسب لبعض أصحابه من أنهم قتلوا قرشيا فى رجب وقال : والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . وضاقت الصحابة بصنيع إخوانهم ، وعيّرت قريش المسلمين المقيمين بمكة لأنهم سفكوا الدم فى الشهر الحرام ، فلما نزل (يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللَّهِ) طابت نفوس الصحابة ، وسُرى عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وإذا كانت الأزمان تمتاز بما يقع فيها من الحوادث ، فلرجب فضل كبير ومزايا عظمى ، لوقوع كثير من الحوادث العظيمة فيه . فمن ذلك أولاً :

حصول الإسراء والمعراج للنبى صلى الله عليه وسلم فيه . أما الإسراء فثابت بقوله تعالى : (سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) والمسجد الحرام هو الكعبة ، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس ، والمباركة حوله : تخصيصه ، لأنه متعبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقبلة لهم ، وكثرة الأنهار والأشجار حوله ، وهو ثانى مسجد وضع فى الأرض ، لخبر أبى ذر : قلت : يا رسول الله أىّ مسجد وضع فى الأرض أوّلا ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . وقد ورد أن الصلاة فيه يضاعف فيها الأجر . وقد أخبر الله تعالى فى هذه الآية بأن الإسراء كان لإطلاع النبى صلى الله عليه وسلم على الآيات الكبرى ، والعجائب العظيمة .

وأما المعراج فقد صح أنه عليه الصلاة والسلام عُرج به الى السموات ليلة أسرى به ، وأراه الله تعالى من الآيات والكائنات ما لم يطلع عليه غيره ، وأطلعه على أحوال الجنة والنار ، وعلى عجائب الخلق من الملائكة وغيرهم ، وأودعه من أسرار الحكمة والفضل ،

وقرّبه وأدناه ، وجعل منزلته أعلى المنازل . وقد جاء فى حديث المعراج أن الصلاة فرضت ليلتئذ ، وقد جعلها الله خمسا فى الفعل ، وخمسين فى الأجر .

ولا شك أن الصلاة من أهم فروض الدين بعد الإيمان ، وقد فرضت فى رجب ليلة المعراج ، فهى من أهم الحوادث التى يمتاز شهر رجب بحدوثها فيه . وقد ثبتت فرضية الصلاة بالكتاب والسنة ، قال تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) وقال : (إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) وقال تعالى : (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ) وقد بيّن صلى الله عليه وسلم الأوقات المفروضة ، كما بين عدد الركعات فى كل وقت وما يفترض فيها ، بتعليم الله له على لسان جبريل عليه السلام .

ومن الحوادث التى حصلت فى رجب تحويل القبلة ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بعد الهجرة متجها نحو بيت المقدس بأمر من الله له ، واستمر على ذلك نحو ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، وكان يحب أن يتجه فى صلاته نحو الكعبة لأنها قبلة ابراهيم ، فأنزل الله تعالى : (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) والأكثرون من العلماء على أن ذلك كان فى يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

هذه أهم حوادث هذا الشهر الذى كان معظما كما قلنا فى الجاهلية ، وإنه ليكفى لعظمته فى الاسلام أن الطاعة فيه تضاعف ، والسيئة تقع أكثر نكرا منها فى غيره ، وأنه ظرف لهذه الحوادث الهامة .

الصوم فيه :

قد علمت أن هذا الشهر من الأشهر الحرم ، وأن هذه الأشهر معظمة عند الله ، وأن الحسنة فيها تضاعف ، فمن تطوع فيها بصوم أو صلاة كان له أجره ، وصوم التطوع مشروع

مأجور عليه ، وقد دلّت الآثار والأحاديث على استحباب الصوم فى الأشهر الحرم ، ورجب منها . وفى سنن أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب الى الصوم فى الأشهر الحرم ، ورجب أحدها . وأخرج مسلم عن معاذة العدوية أنها سألت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت : نعم . فقلت لها : من أى أيام الشهر كان يصوم ؟ قالت : لم يكن يبالى من أى أيام الشهر يصوم .

وأخرج مسلم أيضا عن أبى قتادة فى حديث طويل قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كل شهر ، ورمضان الى رمضان ، فهذا صيام الدهر كله — الحديث .

وأخرج أيضا من حديث آخر فيه أن رسول الله سئل عن صوم يوم وإفطار يومين ، قال : ليت أن الله قوّانا لذلك . قال : وسئل عن صوم يوم وإفطار يوم ، قال : ذاك صوم أخى داود عليه السلام . قال : وسئل عن صوم يوم الاثنين ، قال : ذاك يومٌ ولدتُ فيه ويومٌ بعثت ، أو أنزل علىّ فيه . قال : فقال : صوم ثلاثة من كل شهر ورمضانَ الى رمضانَ صومُ الدهر .

وأخرج مسلم أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لمن سأله : صُم ، أفضلُ الصيام عند الله صوم داود عليه السلام : كان يصوم يوما ويفطر يوما . وما ورد من أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام رجب فضعيف . فظهر من هذا جميعه استحباب الصوم فى رجب ، خصوصاً وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يدع شهرا حتى يصوم منه ، فلا وجه لمن أنكر الصوم فى رجب . نعم لم يرد فى استحباب صوم يوم معين من رجب سنّة ثابتة .

أما صوم رجب جميعه ، وشعبان جميعه ، ليتصل صومهما بصوم رمضان ، فلم يثبت أن رسول الله فعل ذلك أو طلبه الى أحد من أصحابه فيما أعلم ، ولكنه مشروع مثاب عليه .

بقى بعـد الذى بيّناه من أن الطاعة فى هـذا الشهر تضاعف فيها الحسنات ، ألّا تغفل عن أن السيئات فى هـذا الشهر أشد عقابا عنـد الله منهـا فى غـيره . ومما يجب التنبيه اليه أن الإقدام على الفعل المكروه على أنه مندوب أو سـنة أو مستحب ، من أشد الأمور ضررا ، لأن الشيطان يزينه فى نفس من يعمله، ليواظب عليه ويدعو اليه ولا يتوب عنه ، لأنه لا يعلم أنه معصية ، فيلقى الله وهو مذنب لم يتطهر بالتوبة ، وفى هذا بلاء عظيم . فليحذر المسلمون من المعاصى تزيَّن لهم فى صورة الطاعات .

ولا يفوتنا أن نقول : إن الاجتماع فى شهر رجب فى القبور ، والبيات بهـا ، وإيقاد الأنوار ، وعمل الولائم ، واجتماع النساء بالرجال اجتماعا مخلاً بالآداب ، من الأمور المنكرة شرعا ، ولا يجوز لمسلم أن يفعلها ، ولم يرد فى الدين استحباب زيارة القبور فى يوم معين من رجب ، أو فى رجب بخصوصه . وليس معنى هذا عدم جواز زيارة القبور فى رجب ، بل معناه أن خصوص يوم للزيارة فيه لم يرد فى الدين . أما من زار القبور للعظة والاعتبار ، فلا حرج عليه أن يزور فى أى يوم من أيام السنة ، ما دامت زيارته لا يترتب عليها معصية : من انتهاك حرمة الأموات ، واجتماع النساء بالرجال ، وما الى ذلك من أمثال ما تفعله العامة . وفقنا الله جميعا لما فيه خيره ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

فضيلة القصد فى الكلام

قال عليه الصلاة والسلام : رحم الله من قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم .

وقال لمعاذ : أنت سالم ما سكت ، فاذا تكلمت فعليك أو لك .

وقال على كرم الله وجهه : اللسان معيار أطاشه الجهل ، وأرجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مئونة الاعتذار .

الكتاب – والسنة

الصفات التي يشتركان فيها ، والصفات التي تخص كلا منهما

أساس التشريع فى الدين هو الكتاب العزيز . وهو كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، وعنه تفرعت الأصول الأخرى ، فهو أساس السنة ، ودليل الأخذ بها فى قوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) وفى قوله جل شأنه : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) وقوله عز وجل : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وغير ذلك من الآى الدالة على أن طاعة الرسول فيما أمر وفيما نهى ، واتباعه فيما فعل ، وفيما قرر من الأعمال ، كل ذلك أمر به الله . فمن هنا كانت السنة من الأصول التى تؤخذ منها أحكام الله .

والسنة : هى أقواله صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله وتقريراته . ويتفرع عنهما أصول أخرى تؤخذ منها الأحكام ، ويستدل بها عليها ، كالإجماع المستدل عليه من الكتاب بقوله تعالى : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تجمع أمتى على ضلالة » وكالقياس المستدل عليه من الكتاب ، بقوله تعالى : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) ومن السنة ، بتقريره صلى الله عليه وسلم لمعاذ فى قوله وقد سأله حين بعثه لأهل اليمن ليقضى بينهم : « بم تقضى بينهم ؟ فقال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسوله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أقيس الشىء بالشىء » فأقره على ذلك . وقد يكون هناك أصول أخرى قال بها بعض الفقهاء ، وردها بعضهم الى ما ذكره .

وليس غرضنا فى هذه الكلمة بيان كل واحد من تلك الأصول ، وإنما نريد أن نجلو معنى كل من الكتاب والسنة ، وما يشتركان فيه من الصفات ، وما يخص كلا منهما ،

فهما مشتركان فى أن كلا منهما موحى به من قبل الحق عز وجل ، ولولا ذلك ما وجبت الطاعة ، فإن الطاعة والعبودية والعبادة إنما تكون للسيد الأعلى ، والمالك القادر ، والرب الخالق المنعم ، والمهيمن المسيطر ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . وطاعة من عداه إنما جاءت من أجل أمره هو جل شأنه بطاعته ، وذلك كطاعة الأنبياء ، وكطاعة أولى الأمر ، وطاعة السيد ، وأمثال ذلك .

أما الوحى فى الكتاب العزيز فما لا يشك فيه مؤمن . وأما الوحى فى السنة فبقوله تعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ولا يغيب عنا أن هذا فى شأن التشريع وبيان الأحكام الدينية ، وأما فى العاديات فليس كل ما ينطق به عن وحى أوحى إليه به ، بل غاية أمره أنه لا ينطق عن الهوى والميل عن القصد ، وإن كان بعض ماينطق به صادرا عن حكم العقل ، ووجدانات النفس ، ومألوف المخاطبات ، وذلك كشئونه فى طعامه وشرابه ولباسه وجلوسه ونومه وما ماثل ذلك ، فليست كل هذه يوحى بها ، وإنما غاية أمرها أنها منطبقة على ما ينبغى أن يكون ، وما تقضى به الفطر السليمة . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يسكت وهو معهم ، فيعرفون أنه قد جاءه الوحى ، فيلزمون الأدب والصمت حتى ينتهى من الوحى ، فيبلغهم ما نزل به عليه الملك . وكانت عصمته صلى الله عليه وسلم كعصمة إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أمانًا له من أن يقع منه محظور ومعصية توجب غضب الله . نعم كان يجتهد صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحكام فيصيب الحكم الذى رضيه الله لعباده ، وقد يكون منه جل شأنه أن يوحى إليه بما يخالف ما أداه إليه اجتهاده ، وذلك كما ذكروه فى تفسير قوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) . وفى تفسير قوله عز وجل : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) . فمن أنه ينطق عن الوحى لا عن الهوى ، ومن أنه معصوم عن مخالفة الله فيما يأتى وفيما يذر ، ومن أن الله ضمن له ألا يقره على اجتهاد على خلاف ماسيشرع له ولأمته من الأحكام — كان كل مايقوله واجب الاتباع ، ومايفعله

لا يكون فيه حظر ، ما لم يدل الدليل على اختصاصه به ، وما يقره يكون مما يقر مثله في نظر الشرع .

ويبقى في أفعاله صلى الله عليه وسلم نظر آخر بعد أن تقرر دلالتها على الجواز ، وهو : هل تدل على أن ما فعله مطلوب وعبادة ، أو هو لمجرد الجواز ، أو أن ما فيه معنى التعبد يدل على الطلب ، وما هو من قبيل العادات لا يدل على نفي الحرج ؟ هذا مقام يعنى علماء الأصول ، فلهم فيه أقوال واستدلالات ، وردود لا تتسع هذه الكلمة لاستيفائها .

فأقواله صلى الله عليه وسلم في باب التشريع موحى بها قطعا ، والكتاب العزيز موحى به قطعا . فالوحي من عند الله مما يشترك فيه الكتاب والسنة . وسيأتي مايفترقان فيه من أمر الوحي . والكتاب والسنة يشتركان كذلك — بناء على هذا — في وجوب امتثال ما فيهما ، والطاعة والخضوع لأحكامهما . لا يخالف في ذلك مسلم ، وإنما الخلاف الواقع بين الفقهاء في أمرين (الأول) في الاقتناع بأن هذا الحديث صح إسناده للنبي صلى الله عليه وسلم أو لم يصح . و (الثاني) في هل هـذا النص يدل على هـذا الحكم أو لا يدل ؟ وقد دُوّن للأول علم رواية الحديث ، وبينت مراتب الأسانيد ، وحللت عبارات الرواة ، وفحصت سير الرجال باعتناء واستقصاء بالذين بالمطلع مبلغ الطمأنينة وانثلاج الصدر . ولقد استباحوا في هذا الباب ذكر عيوب الرجال وزلاتهم مع كون الغيبة محرمة شرعا ، ولكن هذا كفحص حال الشهود في القضايا ، بل هو أهم وأعظم . ودُوّن للثاني فن أصول الفقه ، حيث فحصت الصيغ والأساليب ، وحقق ما تدل عليه ، واستدل على كل بحث مما يتعلق بذلك بما لا مزيد عليه لمستزيد .

نقول : هذا ما نشأ عنه اختلاف الفقهاء في استنباط الأحكام . فأما الوجه الأول وهو ما يرجع الى السند وتصحيحه ، فهو خاص بالسنة ، إذ الكتاب العزيز قد روى بطريق التواتر في كل طبقاته عن جمع يستحيل أن يتواطأ على الكذب ، أو أن يقع في الخطأ . وتخصص في كل عصر وفي كل مصر فئات جمة عنوا بضبط حركاته وشداته

ومده وغنه وأحكام تجويده عناية لم يفتهم فيها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها. والقراءات المتواترة كل منها نزل به القرآن ، كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » وقد نعرض لهذا الحديث فى فرصة أخرى ، إن شاء الله .

قلنا : إن كلا من الكتاب والسنة موحى به من عند الله ، إلا أن الوحى فى السنة وحى بالمعنى ، ويعهد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يعبر عما ألقى فى قلبه باللفظ الذى يؤلفه . وأما فى الكتاب العزيز فالوحى متناول للأمرين جميعا : اللفظ ، والمعنى . فمثلا قوله تعالى : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى) فى سورة القصص ، وقوله تعالى : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) فى سورة يس : كل منهما ماتزم فى مكانه ليس للنبى صلى الله عليه وسلم ولا لغيره من باب أولى أن يقدم لفظ رجل فى سورة يس على « من أقصى المدينة » ولا أن يؤخره فى سورة القصص .

والوحى : هو إلقاء المعنى فى قلب نبى من الأنبياء ، مصحوبا بلفظ يلتزم ، أو متروكا أمر اللفظ فيه لاختيار النبى الموحى اليه . وقد بينت طرقه فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) ومعنى وحيا فى الآية : أى إلقاء فى القلب بلا سماع لفظ . ومعنى من وراء حجاب : أن يسمع اللفظ ولا يرى ، كما كان لموسى صلوات الله عليه وسلامه . ومعنى أو يرسل رسولا : أن يرسل ملكا يبلغه عن ربه ، ويصحب ذلك جزم النبى واستيقانه أن الرسول من عند ربه ، فيتلخص هذا فى أن معنى الحديث موحى به دون لفظه . وأما الكتاب فوحى بمعناه ولفظه جميعا .

قد يكون من الحديث حديث ينطق به على لسان الحق جل وعلا ، أى كأنه صادر من الخالق مباشرة ، وهو ما يسمى بالحديث القدسى ، كما فى حديث « ألا من مستغفر فأغفر له ؟ ألا من مسترزق فأرزقه » ؟ وكما فى حديث « عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يده » فهذا أيضا مما أوحى بمعناه للنبى صلى الله عليه وسلم وترك له التعبير عنه بالعبارة التى يؤلفها على أنها صادرة عن الحق جل جلاله لعباده .

بقى وصفان يمتاز بهما القرآن الكريم عن السنة ، وهما : التعبد بالتلاوة ، والتحدى بأقصر سورة منه . أما التعبد بتلاوته فمعناه أن تلاوته فى ذاتها عبادة وطاعة ، سواء أكانت فى الصلاة أم كانت خارجها ، وسواء أفهم معناه — وهو ظاهر ، وذلك هو الأكمل فى التلاوة — أم لم يفهم . ووجهه أنه إذا فاته الفهم فلم يفته أنه يساهم بقسط فى حفظ كتاب الله الذى تعهد بحفظه ، والأمن من تغييره وتحريفه ، فى قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وطريق حفظه بتوفيق الله طوائف فى كل عصر يحفظونه ويدارسونه ويكثرون من تلاوته ، حتى يكون بعضهم على بعض شهيدا . وسبيل ذلك أن يجعل الله مجرد تلاوته عبادة ، حتى يشترك فيها من يقوى على فهمه ومن لم يقو عليه .

وأما التحدى بأقصر سورة منه فمعناه أن يدعو السامعين الى معارضته إذا استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وذلك ليتبين عجزهم عن معارضته والإتيان بسورة من مثله ، والسورة تصدق بأقصر سورة . ومتى عجزوا جميعا وفرادى — ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — كان هذا صادرا عن القوة الإلهية ، ليس للقدرة البشرية دخل فيه ، فهو من عند الله ، فالآتى به إنما يبلغ عن الله ، فهو رسول الله ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله . وبذلك ترى أن التحدى راجع الى ثبوت الإعجاز له .

أما حديثه صلى الله عليه وسلم فليست تلاوته عبادة ، وإنما العبادة فى تبليغه للغير من باب إعلام الغير أنه صلى الله عليه وسلم قال كذا ، فهو تعليم ، أو فى تفهمه وتدبره ليهتدى بهديه ويستضاء بنوره ، فالعبادة فيه فى التعلم أو التعليم . وكذلك ليست عبارة الحديث معجزة للبشر من أن يأتوا بمثلها ، وإن كان قد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، وأوتى قسطا من الفصاحة والبلاغة قل من يدانيه فيه ، إلا أن التفوق شىء والإعجاز وانقطاع الأعناق دونه شىء آخر .

هذا : وأما وجوه إعجاز القرآن فكثيرة مستفيضة ، قد نعرض لها فى فرصة أخرى إن شاء الله . والآن نجتزئ بهذا المقدار ، ونرجو أن نبسط منه فى مقال آخر ما يمن الله تعالى به . والله ولى التوفيق ؟

ابراهيم الجبالى

الفتاوى والأحكام

ورد الى إدارة المجلة خطاب من الشيخ عبد العظيم محمد الصيفى يتضمن ما يأتى :

هـل ينتفع الميت بالقراءة بعد الموت ؟ وهـل يحل أخذ الأجرة على القراءة للميت ؟ وهل ينتفع الميت بالقراءة إذا كانت بأجرة ؟ وهل للعتاقة والسبحة — وهو ما يعمله الناس فى الأرياف من قراءة مائة ألف صمدية وسبعين ألف لا إله إلا الله — أصل فى الدين ؟ وهل فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وما الحكم فيما يفعله فقهاء الأرياف من تفهيم الناس — خصوصا أهل الميت — بأن الميت لا يغفر له ولا يدخل الجنة إلا إذا عمل له عتاقة وسبحة ؟ وما الحكم فى احتكامهم فى أخذ أجر معين ؟ وهل يأخذ الإنسان النقود بالربا لأجل ذلك ؟ وهل يجوز أن يتصرف فى التركة التى للقصر حق فيها لهذا العمل ؟ وما الذى يجب عمله ليصل ثواب القراءة للميت ؟

الجواب : جرت الشريعة الإسلامية على أن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صدقة أوغيرها ، فيما يراه الحنفية ، واستدلوا بما فى الصحيحين من أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه والآخر عن أمته ممن أقر بوحدانية الله وشهد له بالبلاغ ، وبما رواه الدار قطنى أن رجلا سأله صلى الله عليه وسلم فقال : كان لى أبوان أبرهما حال حياتهما ، فكيف لى ببرهما بعد موتهما ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : إن من البر بعد الموت أن تصلى لهما مع صلاتك ، وتصوم لهما مع صيامك . وقد روى الدارقطنى أيضا عن علىّ عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه أن من قرأ « قل هو الله أحد » إحدى عشرة مرة ووهب أجرها للأموات ، كان له من الله أجر كبير . وروى عن أنس أنه سأله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنا نتصدق عن موتانا ونحج عنهم وندعو لهم ، فهل يصل ذلك اليهم ؟ قال : نعم إنه ليصل اليهم ، وإنهم ليفرحون به كما يفرح أحدكم

بالطبق إذا أهدى اليه . وعنه صلى الله عليه وسلم : اقرءوا على أمواتكم يس . وبقوله تعالى : (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) ، وبقوله تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) ، وبقوله تعالى : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) وبغير ذلك من الآثار .

ومن المقرر شرعا أن زيارة القبور مندوب اليها ، وقد زار النبي صلى الله عليه وسلم قبور أصحابه ، ودعا لهم وترحم عليهم واستغفرلهم ، وأمر الصحابة إذا زاروا أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإننا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية .

من هذا يتبين أوّلاً جواز القراءة للميت والاستغفار له ، وأنه ينتفع بذلك . وعليه فاجتماع جماعة من الناس فقهاء كانوا أوغير فقهاء لقراءة سورة من القرآن سواء أكانت سورة الإخلاص أو آية الكرسى أو غيرها أو ذكرهم لله ، وإهداؤهم ثواب ذلك للميت ، أمر جائز مشروع ، ما دامت القراءة خالية عن التشويش ، مستوفية شروطها الشرعية ، ومادام ذكر الله بعيدا عن التلاعب . والشأن فى هذه القراءة بنية النفع للميت أنه ينتفع بها . فمن أراد القراءة لأبيه أو الاستغفار له ، فليفعل بنية الدعاء والاستغفار . والمرجو إن شاء الله أن ينفع ذلك المقروء له . أما الاجتماع على الوجه الذى يعمله الآن فقهاء الأرياف أو فقهاء المدن ، فلم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فعله ، كما لم يثبت عن أحد من الخلفاء الأربعة فعله على الوجه الذى يعمل الآن فيما أعلم .

بقى القول فى جواز أخذ الأجرة على قراءة القرآن ، وهل ينتفع الميت بالقراءة التى يأخذ عليها القارئ أجرا ؟ فمذهب الحنفية أن القراءة بأجر لاثواب فيها للقارئ

ولا للميت . قال العينى فى شرح الهداية ويمنع القارئ للدنيا ، والآخذ والمعطى آثمان . وأطال فى ذلك العلامة ابن عابدين فى حاشيته على الدر المختار . وله رسالة خاصة أطال فيها ، ونقل فيها نصوص أئمتنا . فمن شاء المزيد فليرجع اليها .

ويرى السادة الشافعية أن الإجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدرا معلوما ، جائزة ، للانتفاع بنزول الرحمة حيث يقرأ القرآن ، ويكون الميت كالحى الحاضر ، سواء أعقب القراءة بالدعاء له ، أو جعل ثواب قراءته له أم لا ، فتعود منفعة القراءة الى الميت فى ذلك ، ولأن الدعاء يلحقه . الى آخر ما قرره السادة الشافعية . وعلى ذلك فتكون القراءة بالأجرة غير مفيدة عند السادة الحنفية ، ولا ثواب فيها للقارىء ولا للميت ، والإجارة فيها غير صحيحة . أما مذهب السادة الشافعية فالإجارة عندهم صحيحة ، وجائزة ، وينتفع الميت بالقراءة . فما يعمل الآن من تأجير الفقهاء لقراءة الختمات ، أو عمل العتاقة للميت ، جائز فى مذهب السادة الشافعية . وما دامت القراءة بأجرة ، فسواء فى هذه الإجارة الغنى والفقير ، لأن للأجير أجر عمله ولو كان غنيا ، مادام قد أجر نفسه ورضى أن يعمل بالأجر . أما من لم يعمل ، فلا يجوز له أخذ الأجرة ، ولا المطالبة بها ، فقيرا كان أو غنيا ، إلا إذا أعطاه أهل الميت صدقة ، وكان فقيرا ، فيحل له الأخذ . أما احتكام الفقهاء فى أخذ مقدار معين من المال ، فإنه يحل لهم أخذه إن تم عقد الإجارة عليه ، لأنه يكون أجرا متفقا عليه . وأما ما يفعله الفقهاء الذين وصفتهم فى خطابك من تفهيمهم أن من لا يقرأ له لا يدخل الجنة ، فهو تغرير بالناس لا يجوز ، ولا ينبغى لمسلم إقرارهم عليه ، كما لا ينبغى لأحد أن يصدقهم فيه ، لأن من مات من المسلمين أمره مفوض لربه .

وأما أخذ المال بالربا للقيام بالمآتم أو الأفراح أو أى عمل آخر ، فلا يجوز . كما أنه لا يحل لأحد صرف مال القاصر فى مثل هذه السبل ، والله أعلم .

وورد الى إدارة المجلة من الشيخ عبد الغنى قريطم خطاب يتضمن عدة أسئلة تتلخص فيما يأتى :

١ — هل يجوز لمن يبغض زوجته بغضا لا مزيد عليه أن يعذبها فى بيته بدلا من أن يطلقها ؟

٢ — هل يقع طلاق السكران سكرا جعله غير مدرك لما يقول ؟

٣ — هل يصح تمنى الرجل الموت لنفسه ؟

٤ — هل يموت مسلما من ينتحر بسكين أو بغيرها من أدوات القتل ؟

٥ — هل ورد صيام رجب وشعبان ورمضان وصيام الخميس والاثنين ؟

٦ — هل يصح تأخير أداء الصلوات عن وقتها لعامل يعمل بمحل تجارة ولا يستطيع الأداء فى الوقت ؟

٧ — ما حكم المريض والأعمى إذا قتل أوسرق أوزنى ؟

٨ — من هو الملحد ؟

الجواب : ١ — مضارة الزوج لزوجته لا تجوز شرعا ، والواجب هو المعاشرة بالمعروف ، أو التفريق بإحسان ، فمن ضار زوجته وأساء اليها ، كان آثما .

٢ — طلاق السكران على الوصف الوارد بالسؤال ، يقع عند السادة الحنفية زجرا له عن المعصية ، ولا يقع على قول راجح للإمام أحمد ، وقول فى المذاهب الثلاثة . وقد صدر مرسوم ملكى باتباع المحاكم الشرعية الرأىَ القائل بعدم الوقوع ، فالمحاكم لا تحكم بوقوع طلاق السكران الآن . راجع المادة الأولى من المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ، وعدم الوقوع لا يخليه من إثم السكر والعقاب عليه .

٣ — لا يجوز للرجل تمنى الموت لضر نزل به أوضيق فى دنياه ، للحديث الشريف : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لا بد فاعلا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى . ولا يكون تمنى الموت لخوف فتنة فى الدين . أى أن من خشى على دينه جاز له تمنى الموت .

٤ — الانتحار رذيلة من أكبر الرذائل، ومعصية من أشد المعاصي عند الله بعد الشرك، ومرتكب هذه المعصية فاجر فاسق وجبان سخيف يستحق عند الله عقابا أشد من عقاب مَن يقتل غيره عمدا. وإذا علمت أن الله قال في كتابه العزيز: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) وعلمت أن أئمتنا يرون أن قاتل نفسه أشد عقابا عند الله من قاتل غيره عمدا، علمت مقدار ما أعد الله لأمثال هؤلاء من العذاب الأليم، حتى لقد ذهب بعض العلماء الى القول بكفره، ولكن الحنفية يرون أنه وإن أتى بكبيرة من أكبر الكبائر لا يخرج عن دينه بذلك الفعل، وإنما هو عاص باغ عاد على نفسه. ولذلك كان المفتى به في مذهب الحنفية أنه يُغَسل ويصلى عليه كبقية الفساق من المسلمين. ومن أدل الأدلة على عِظَم جرم المنتحر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم امتنع من الصلاة على قاتل نفسه زجرا لغيره عن مثل هذا الفعل القبيح، وناهيك بدلالة امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من انتحر. وهذا كله إذا كان قد قتل نفسه عمدا، أما إذا كان القتل خطأ، فإنه يُغَسل ويصلى عليه بلا خلاف بين الأئمة.

٥ — أجيب عن هذا السؤال في الكلام عن الصوم في رجب وهو منشور بهذا العدد، فليراجع.

٦ — أداء الصلوات في وقتها فرض لا يصح التواني فيه، ولا الكسل في أدائه، ويفسق من لا يؤدي الصلاة في وقتها كسلا ولغير عذر. أما من لم يستطع لعذر ضروري قهري، فعليه القضاء والإسراع به. ومتى كان معذورا عذرا صحيحا فبالقضاء يخرج عن العهدة. ولا قائل من الأئمة بعدم صحة الصلاة قضاء. وليس من الأعذار الاشتغال بالتجارة، ولا عدم قبول الأجير لمن يعمل عنده، ولا الاشتغال بالدرس ولا غيره مما يفهم الناس أنه عذر.

٧ — حكم المريض في هذه الأشياء حكم الصحيح، وحكم الأعمى في القتل والزنا حكم الصحيح. فما قدر من العقاب لهذه الموبقات، فهو مقدر عليه كالصحيح والبصير.

أما السرقة فيرى الحنفية أنه لا يحد حد السرقة ، لاشتباه ماله بمال غيره ، نظرا لفقد بصره ، ولكنه يعاقب عقابا شديدا حسبما يراه الحاكم . أما قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ) فظاهر أنه في غير الحدود والعقوبات . وسيأتي تفسير هذه الآية في تفسير سورة النور بعدد المجلة المقبل .

٨ — سبق للمجلة إيضاح معنى الملحد والإلحاد . فليراجع ما كتبته .

* * *

وورد من حضرة الشيخ أحمد ابراهيم الضبيع أسئلة يتلخص أولها — على طوله في الاستعلام عن الصلاة وراء إمام متكبر ، يتشبث بالإمامة ، ولا يريد التنحي عنها : أصحيحة هي أم باطلة ؟

الجواب : الجماعة سنة مؤكدة ، والأعلم بالسنة أحق بالإمامة من غيره عند الإمام الأعظم ، لحديث عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يؤم القوم أعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقرؤهم لكتاب الله تعالى ؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام : مروا أبا بكر فليصل بالناس . وكان فيهم من هو أقرأ للقرآن منه مثل أُبَيّ وغيره . ثم الأقرأ ، ثم الأورع ، لقوله عليه الصلاة والسلام : اجعلوا أئمتكم خياركم ، الحديث . ثم الْأَسَنّ . وتكره إمامة الفاسق ، لأنه لا يهتم لأمر دينه ، ولأن في تقديمه للإمامة تعظيمه . ولكن إن صلى الفاسق ، جاز ، لحديث : صَلُّوا خلف كلّ بَرّ وفاجر . والأصل عدم اشتراط العدالة في الإمام . ومن صحت صلاته لنفسه صحت لغيره . وقد ثبت إجماع أهل العصر الأول من بقية الصحابة ومن معهم من التابعين إجماعا فعليا على الصلاة خلف الجائر . وقد أخرج البخاري عن ابن عمر أنه كان يصلي خلف الحجاج ابن يوسف ، وأمره مشهور .

من هذا يتبين أن الصلاة خلف إمام متكبر مثلا ، أو متشدد في أن يكون إماما صلاة صحيحة ، وإن كانت الصلاة خلف غيره ممن لا يتصف بهذا الوصف أولى وأجدر .

وورد الى إدارة المجلة من الشيخ شمس الدين الحمراوى ما خلاصته السؤال عن ثبوت النسب، ووجوب النفقة لزوجة وأولاد من تزوجت بعقد، ثم ثبت بعد العقد والرزق بالأولاد أن الزوجة أخت الزوج رضاعا.

الجواب: نسب الأولاد ثابت من أبيهم فى هذه الحالة، ونفقتهم واجبة عليه إن كانوا فقراء، ويرث كل منهما الآخر بعد موته. أما الزوجة فليس لها نفقة عدة، لظهور فساد العقد، لأن المتزوجة زواجا فاسدا لا نفقة لها.

***

وورد من الشيخ أحمد برقى تمام ما خلاصته:

١ — هل الرجل تلزمه عدة؟ وما هى المواضع التى يعتد فيها؟ وما سبب ذلك؟

٢ — ما سبب إسراع نعش الميت، وتأخره، وخفته، وثقله، وطوافه حول بعض المزارات، وتعذر دفن جثته فى مقبرة معينة، وسهولة دفنه فى مقبرة أخرى؟

الجواب: ١ — من المعلوم شرعا أن الله سبحانه وتعالى أباح للرجل أن يتزوج أربعا من النساء، وحظر عليه الزيادة على ذلك، كما حظر عليه أن يجمع بين الأختين، أو بين المرأة وعمتها أو خالتها أو بنت أخيها أو بنت أختها، كما حظر على الرجل أن يعود الى زواج من طلقها ثلاثا، إلا إن تزوجت غيره وانقضت عدتها من الزوج الثانى، بعد أن يكون الزوج الثاني تزوجها بعقد نكاح صحيح. وقد نص الفقهاء على أن المعتدة لها حكم الزوجة فى هذه المواضع. وعليه فمن أراد بعد طلاق سيدة أن يتزوج أختها مثلا، لزمه الانتظار حتى تنقضى عدة زوجته، حتى لا يكون جامعا بين الأختين نكاحا.

ومن طلق إحدى نسائه الأربع لا يصح له أن يتزوج غير المطلقة، إلا إذا انقضت عدة الرابعة المطلقة، حتى لا يكون متزوجا بأكثر من أربع. ومن أراد الرجوع الى زوجته بعد طلاقها ثلاثا، وجب عليه الانتظار حتى تنقضى عدتها منه ثم تتزوج غيره زواجا صحيحا وتنقضى عدتها من الزوج الثانى. هذا هو المراد من قول الفقهاء: يعتد الرجل فى بعض المواضع. وقد حصر الفقهاء هذه المواضع، وبينوها فى باب العدة.

٢ — لله الخلق والأمر، يصطفى من عباده من يشاء، ويكرم من يشاء. وقد ورد فى الحديث الصحيح أن الله سبحانه وتعالى أكرم سعد بن معاذ الأنصارى بعد موته شهيدا من جرحه الذى أصيب به فى غزوة الخندق، فقد روى أنه كان رجلا بادنا، فلما حمله الناس وجدوا له خفة، فقال رجال من المسلمين: والله إن كان لبادنا، وما حملنا من جنازة أخف منه. فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: « إن له حملة غيركم، والذى نفسى بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش »

ويؤخذ من هذا أن بعض من يكرمهم الله ويصطفيهم يكون من إكرامه إياهم تخفيف ثقل جنازتهم على حامليها، وقد يكون من إكرامه الإسراع به الى ما أعد له من النعيم. وغير خاف أن هذا — إن وقع — يكون إكراما من الله لبعض عباده المتقين. وهذا المقدار هو المعروف فى الشرع، وما عداه فلا أعلم أن له أصلا فى الدين.

*
* *

وورد الى إدارة المجلة ما خلاصته: هل لما يجرى فى المساجد من ختم الصلاة بالتسبيح والاستغفار أصل فى الدين، وهل يجوز الجهر به؟

الجواب: ذكر الله واستغفار الله أصل أصيل فى الدين، سواء فى المساجد أو البيوت أو غيرهما، وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام. وكان يقول عقب كل صلاة مكتوبة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وكان يقول غير ذلك من دعوات مبينة بإيضاح فى كتب السنة. وندب أمته صلى الله عليه وسلم الى أن يقولوا عقب كل صلاة: سبحان الله ثلاثا وثلاثين، والحمد لله كذلك، والله أكبر كذلك، وتمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد. وقد روى: من قرأ آية الكرسى عقب كل صلاة مكتوبة كان

فى ذمة الله الى الصلاة الأخرى . وفى فتح القدير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنه : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتكبير وعنه : كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعت . وقد روى مسلم عن أبى الزبير أن ابن الزبير كان يقول عقب الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الى آخر الحديث . وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهلّل بهنّ .

من هذا الذى ذكرناه لك تتبين هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء بعد الصلاة ، وتعلم ما ندب اليه أمته ، وتتبين أن الجهر بالاستغفار بعد الصلاة جائز غير ممنوع ، بشرط أن يكون فى خشوع وخضوع ، وأن يكون فى وقار وسكينة لا تشويش فيه على مصل ولا قارئ . وهذا العمل سنة ليس فرضا ، كما تدل عليه الآثار . والله أعلم م؟

طه حبيب

صفات على كرم الله وجهه

قال ضرار بن ضمرة : دخلت على معاوية بعد قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فقال لى : صفه . فقلت : أعفنى . فقال : لابد من ذلك . فقلت : أما إذ لابد ، فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه هيبة له . يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . فأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغابت نجومه ، قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا غرى غيرى ، أبى تعرضت ، أم الى تشوقت ، هيهات هيهات ! قد أبنتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك يسير ، وعيشك حقير . آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ! فكيف حزنك ياضرار عليه ؟ فقلت : حزن من ذبح ولدها فى حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ، ولا يسكن حزنها .

هل أفلست المدنية الغربية ؟

ليس لنا أن نجيب على هذا السؤال لئلا نتهم بالتحامل على هذه المدنية ، ولكننا ندع الجواب عليه لفيلسوف من صميم فلاسفتها ، هو الأستاذ ماكس نوردو الألماني ، فقد أعلن ذلك وفصله أكمل تفصيل ، في كتابه المشهور (الأكاذيب المتفق عليها في مدنيتنا الراهنة) فإليك مؤدى الباب الأول منه ، قال :

« الإنسانية دائبة وراء البحث عن العلم والسعادة ، ولكنها لم تكن في عهد من عهودها أبعد عن الارتياح اليها ، والغبطة بها ، مما هي عليه في هذا العصر .

« نعم : إن العلم والمدنية ينتشران في كل مكان ، ويرفعان أعلامهما في أكثر البقاع جهالة وجاهلية . وكل يوم يظهر اكتشاف عجيب يجعل الأرض أكثر ملاءمة للسكنى ، وشدائد الحياة أخف وطأة على النفس . ولكننا نرى الانسانية رغما عن توافر شروط السعادة والهناءة تزداد كدرا واضطراب بال ، ونرى العالم المتمدن قد استحال الى باحة مكتظة بالمرضى ، يملأون الجو بعويلهم المؤلم ، ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع . فطف الأرض بلداً بلداً ، واطرق كل باب ، ملقيا على أهل كل بيت هذا السؤال : هل يسكن الارتياح هذه الدار ؟ وهل أنتم مطمئنون وسعداء ؟ يجبك جميع من تسألهم بهذا الجواب : ابحث عما تطلب بعيدا عنا ، فليس لدينا ما تسأل عنه ! ثم تسمَّع الأصوات على حدود بلادك ، تحمل اليك الرياح صيحات المعارك ، والحروب ، والثورات » .

ثم أخذ الفيلسوف يفصل أحوال الأمم الأوربية أمة أمة ، مثبتا أنها جميعا في قلق وهم واضطراب . ثم قال :

« هذا هو الوصف المميز لعصرنا الحاضر ، كما كان الوصف المميز لأسلافنا الأقدمين الغبطة بالحياة ، ولأهل القرون الوسطى التقوى والصلاح .

« فكل إنسان اليوم يشعر بضجر وعدم احتمال يعزوهما الى ألف عارض من الأسباب ، وكلها ليست على شيء من الصواب . وتراه محمولا على أن ينتقد جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، بل ويحكم عليها بالفساد . وقد اعتاد بعض الناس أن يعتبر هذا الضرب من عدم الاحتمال الذى تحيله المؤثرات الخارجية الى غضب وقنوط ، من قبيل الأمراض العصبية ، وقد يدعوه بعضهم الآخر تشاؤماً ، ويسميه غيرهم إلحادا ، فتختلف الأسماء والمرض واحد لدى الكافة على السواء .

« هذا المرض الأدبى يصادَف فى جميع مظاهر العقل البشرى اليوم ، فتجده فى الآداب والفنون ، وفى الفلسفة والعلم ، وفى السياسة والاقتصاد . وقد ظهرت بوادر هذا القلق الأدبى فى الآداب فى أخريات القرن الثامن عشر ، فهى التى فتحت باب هذه الحالة النفسية ، ونشرتها بين الناس . فبينما كانت الطبقة المتعلمة منغمسة فى الملاذ معتبرة الحياة مجالا للشهوات ، وكانت الطبقة الثرية فى حياتها البهيمية مرتاحة الى سير الأحوال ، هبّ الفيلسوف (جان جاك روسو) فصاح صيحاته المعهودة بوجوب الخلاص ، فأعلن الحرب على هذه الأحوال رغما عما فيها من السحر لبعض الناس ، وأشار فى حماسة وبيان الى وجوب الرجوع الى الحالة الطبيعية فى الحياة ، فترددت أصداء صيحاته فى رءوس جميع معاصريه بالإجماع ، فكان المترفون والأثرياء على السواء يتحدثون عن جمال الحياة فى الغابات على انفراد ، فكان فى هذا تناقض غريب بين ما كانوا عليه من استخدام جميع الوسائل والقشور المدنية للتبسط فى شهواتهم ، وبين ما يستحسنونه من مذهب التقشف والاعتزال .

« لقد وقفت طويلا حيال الأدب ، لأنه المظهر الأكثر تنوعا ، والأكمل تصويرا لعقليات الأمم فى كل عهد من العهود . وليس معنى هذا أن جميع مظاهر الفكر الإنسانى فى هذا العصر لم تتأثر بأعراض هذا المرض العضال ، فإننا نشهد دائما وفى كل مكان آثار القلق والمرارة وعدم الارتياح ظاهرة عند بعض الناس بمظهر الألم

أو الغضب ، وعند البعض الآخر بادية بشكل رغبة حادة فى تغيير كلى لأساوب الحياة .

« أما فى الفلسفة فقد ساد مذهب التشاؤم كما يسود شكل من الأزياء ، فبلغ مذهب شيخ المتشائمين (شوبنهور) وتلميذه (هارتمان) أوج الرواج .

« وقد ظهر هذا المرض فى مجال الاقتصاد الاجتماعى بمظهر آخر ، ولكنه ليس بأقل تميزا عن سواه . فمن العبث أن نبحث عند المثرى عن عاطفة الارتياح والاطمئنان ، وعند الفقير عن خصاتى الصبر والاحتمال ، فالأول معذب بما تجول به خواطره من الذعر من ضياع ما بيده ، ويرى فى معاشريه وفى الحوادث تهديداً محققا له ، فتظهر ثروته لعينيه كأنها عارية ستسلب منه فى يوم من الأيام . وأما الفقير فهو واقع تحت براثن الحسد ، لا شغل له إلا فى الحصول على ما بأيدى الناس .

« هذا الاضطراب العام ، وهـذا التمزق النفسانى يؤثران أسوأ تأثير فى حياة الأفراد ، فترى الخوف يساورهم من كل مكان فى ألف مظهر ، وبأقدار مزعجة ، متى اضطروا لتصور العالم فى شكله الصحيح . لذلك تراهم يندفعون لتضليل مشاعرهم وحواسهم ، وإفساد أعصابهم ، بتناول المخدرات ، مظهرين بذلك ذعرهم من حقائق الأحوال .

« إن الإنسانية المتمدنة لترتكب فى جماتها ما يرتكبه الفرد حين يحـاول نسيان مؤلماته بالخمر ، فهى تريد أن تهرب من الواقع الى الأوهام ، والخيالات الـكاذبة .

« فهذا الإفساد للفطرة الإنسانية ، وهذا الهرب الوقتى من وجه الواقع ، نتيجتهما الطبيعية الخروج منهما بترك الحياة نهائيا ، فإن عدد المنتحرين يزداد يوما بعد يوم ، على نسبة ما يستهلك من الخمر ، ومن المواد المخدرة الأخرى فى كل مكان ، وخاصة فى البلاد المتمدنة . وترى كل رجل فى هذا العصر ينطوى على حالة من الحمى تـكسب محاولاته للحياة مظهرا وحشيا جهنميا ، لم يكن يُعهد عليه الإنسان فى الأزمنة الغابرة .

« يشكو الناس اليوم من ضياع الأخلاق ، فهل يسمح الإلحـاد بها وقد أزال الإيمـان من القلوب ، وأزال معه المبادئ الصالحة ؟ فاذا خمدت النجمة القطبية ، وزال

القطب الكهربائى، أصبحت البوصلة عادمة الجدوى . والإلحاد نفسه — وقد أصبح مرضا شائعا — ليس فى حقيقته إلا وجها من وجوه عدم الارتياح من كل ما هو موجود . فالقول بأن كل شىء باطل ، وبأن ليس فى الوجود شىء جدير بالطلب ولا بالمحاولة ، ولا بأن يعترك فيه الواجب والهوى ، هذا القول لا يكون له سلطان على النفس ، إلا إذا كان صاحبها يحتقر كل شىء ، ويعتبره ناقصا ، وليس فيه مقنع لحجاه .

« لقد كانت الإنسانية فى قديم الأزمان تشكو مما نشكو منه من القلق وعدم الارتياح . ولكن الذى منعها أن تثور ثورتنا أنها كانت تستمد من إيمانها تعزية وسلاما يجعلانها تحتمل جميع المصائب وهى مطمئنة مستبشرة ، فإن الذى ينتظر سعادة أخروية ، يسهل عليه أن يصبر على شرٍ وقتىّ ، بل ويخفّ وقعه عليه .

« فمن أىّ العوامل نشأت للإنسانية هذه الحالة النفسية التى لا تحتمل ؟ إنها نشأت من السبب الذى كان يوحِى الى الرومانيين المتعلمين كراهة الاستمرار على حياة ليس لها معنى ، وكانت هذه الحياة تقنعهم بأنهم لا يستطيعون التخلص منها إلا بقتل أنفسهم .

« إننا اليوم ندرك الوجود على صورة مادة متمتعة بحركة ذاتية ، هى القوة الوحيدة التى ندركها على صور مختلفة . ونرى أن هذه الحركة مقودة بنواميس ثابتة ، حققنا بعضها وحددناه ، ولا نزال نتوقع تحقيق ما بقى منها ، وقد حُملنا على أن نعتقد بأن هذه النواميس ثابتة لا تتغير ، وحُملنا أيضا على أن لا نبحث عن السبب الأول ، وعن أصل الكائنات .

« فاذا تنزّلنا من مجموع الكون الى الانسانية ، أدّانا عقلنا العلمى الى اعتبار الإنسان جزءاً لا ينفصل عن الكائنات ، والى أنه محكوم بالنواميس نفسها التى تحكمها ، وقد حيل بيننا وبين أن نعتقد أن للإنسان مزايا خاصة ليست لغيره من حلقات السلسلة الحيوانية ، بل والنباتية أيضا .

« هذه هى مدركاتنا عن الوجود ، وقد استنتجنا منها جميع أصول الحياة ، وكل مبادئ الحقوق والآداب . وقد أصبحت قواعد لمدنيتنا بحيث يستحيل علينا أن نتخلص من سلطانها .

« فهذا التناقض بين أعمالنا الاجتماعية وبين عقائدنا العلمية ، يحدث فى نفوسنا أسوأ الآثار وأشأمها ، فثلنا منها كمثل الممثل الهزلى يضحك الناس بما يعمل وهو منه فى كمد ومرارة » . انتهى ملخصا .

(نقول) : لقد أجاد الفيلسوف ماكس نوردو فى تصوير ما عليه العالم المتمدن من الهم والاضطراب ، ولكنه أخطأ فى تحديد الأسباب . وهى فى رأينا ليست فى عمل الأمم بنقيض ما تعلم ، ولكنه فيما تعلم نفسه ، فإن الأمم التى تدرك الوجود على صورة مادية بحتة ، وتتخيل أنها محكومة بنواميس فولاذية ، وتصد العقل عن البحث فى السبب الأول وأصل الكائنات ، وتتصور الإنسان جزءا مادياً من الكون لا يمتاز بأية مزية عن آحاد السلسلة الحيوانية بل والنباتية ، كل هذا لا ينتج إلا ما يشكو منه من الغم والاضطراب ، وضياع الأخلاق والآداب ، لأن الإنسان فى سمو ما غرز فيه من القوى الروحية ، لا يطيق أن يعيش معيشة حيوانية ، محروما من كل ما يناسب هذه القوى من العقائد الحقة ، والمُثل العليا . فكان الأولى بماكس نوردو أن يبحث عن أسباب القلق الذى أجاد تصويره فى هذه المعيشة الحيوانية نفسها التى دفعته فيها فلسفة مادية توقظ فيه الغرائز الوحشية ، دون أن تنبه فيه ما يقابلها من القوى الروحية . وإذا كان هو يعلن أن المدنية المادية قد أفلست ، فلا يستطيع أن يعلن أن العلم نفسه قد أفلس ، فإنه فى تماديه على النظر والاستقراء والاستدلال ، قد كشف للناس فى هذا العصر عن حقائق تعتبر فى الدرجة العليا من الخطورة ، فقد اكتشف وجود الروح الإنسانية واستقلالها عن الجسد ، وأتى على ذلك بأدلة لا تقبل النقض .

وهذه خطوة حاسمة فى سبيل التجديد الأدبى ، الذى أصبحت أوروبا فى أشد

الحاجة اليه، وقد كتب فى ذلك علماء لا يحصى لهم عدد. أما فى مجال الاعتقاد بالله عز وجل، فقد أقيمت فى سبيل وجوده أدلة لا تقبل النقد، وقد حُملت الإنسانية على أن تتذوق هذه الحقائق، وتجعلها عنصرا من عناصر كيانها. ومتى تم لها هذا الانتقال من المادية الى الروحانية، تعدلت جميع الإفراطات الإنسانية وتفريطاتها، واطمأنت النفوس على وجودها، واستقامت الفطر على صراطها، وحصلت المدنية على مقوّماتها، من حاجات الروح والجسد، فدفعت الإنسانية دفعا منتظما الى كمالها الصحيح، وغاياتها البعيدة

هذا هو العلاج الصحيح لهذه الحالة النفسية التى يضعها ماكس نوردو. وقد تداركها الله بما فتح على العلماء من طريق البحث من إثبات الخالق والروح، وسوف نرى أثر هذه الفتوح العلمية على المدنية فى عهد غير بعيد، والله غالب على أمره م؟

محمد فريد وجدى

آداب الكلام

قال حكيم: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها.

وقال بعض الشعراء:

رأيت العز فى أدب وعقل ... وفى الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه ... له وجه وليس له بيان

وقال بعض الحكماء: إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم، فان فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم: لسان العاقل من وراء قلبه، فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه، فان كان له تكلم، وإن كان عليه أمسك. وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له.

وقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: من لم يعد كلامه من عمله، كثرت خطاياه.

البخارى

أُحبُّ قبل أن أحدثك عن الإمام البخارى أن أوجّه نظرك الى أن عدم تدوين الحديث الشريف فى العصور الأولى كان سببا فى استباحة قوم لم يجاوز الإيمان حناجرهم، ولما يدخل فى قلوبهم، وضْع بعض الأحاديث، ونسبتها كذبا الى رسول الله، مع أنه عليه الصلاة والسلام قال: « من كذب علىّ متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار »

ولست الآن بصدد أن أبين لك ما أحدثه الوضاعون، وأسباب وضعهم الحديث، ولكنى أقول لك: إن أئمة الدين فى العصر الثانى للهجرة تنبهوا لهذا، وعملوا على تلافيه، فصنّف إمام دار الهجرة الإمام مالك الموطأ، وألف الإمام أحمد مسنده، وكتب غيرهما من الأئمة الأعلام كتبا. ومن أجلّ من كتب فى القرن الثالث: الإمام محمد بن إسماعيل البخارى رحمه الله، فقد صنف كتابه الجامع الصحيح، ثم صنف قبله كتاب قضايا الصحابة والتابعين، وكتاب التاريخ. وقد أحببت أن يحيط القراء علما بشىء من سيرته رضى الله عنه:

فهو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفى البخارى حافظ الإسلام، وإمام أئمته الأعلام. ولد رحمه الله ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفى ليلة الفطر سنة ست وخمسين ومائتين، وعمره اثنتان وستون سنة إلا ثلاثة عشر يوما، ولم يعقب ولدا ذكرا.

نشأ رحمه الله فى بيئة أهل الحديث، لأن والده إسماعيل بن إبراهيم كان من رجال الحديث.

روى عن حماد بن زيد، ومالك بن أنس، وصحب ابن المبارك، فشب محمد بن اسماعيل البخارى على حب الحديث، فقد نقل عنه أنه قال: ألهمت حفظ الحديث، وأنا فى الكتّاب — وكان عمره إذ ذاك عشر سنين أو أقل — فخرجت من الكتاب

فجعلت أختلف الى الداخلى وغيره ، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس : سفيان عن أبى الزبير عن ابراهيم . فقلت : إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم ، فانتهرنى ، فقلت له : ارجع الى الأصل إن كان عندك ، فدخل فنظر فيه ، ثم رجع فقال : كيف هو ياغلام ؟ فقلت : هو الزبير ، وهو ابن عدى عن ابراهيم . فأخذ القلم وأصلح كتابه ، وقال لى : صدقت .

ولما بلغ سنه ست عشرة سنة ، حفظ كتب ابن المبارك ووكيع ، وعرف كلام أصحاب الرأى ، ثم خرج مع أمه وأخيه الى الحج . ولما بلغ سنه ثمانى عشرة سنة ، صنّف كتاب قضايا الصحابة والتابعين ، ثم صنف بعد ذلك التاريخ فى المدينة . وقد رحل البخارى فى طلب العلم الى جميع محدثى الأمصار ، وكتب بخراسان والعراق والحجاز والشام ومصر ، وأخذ الحديث عن جماعة من كبار الحفاظ ، منهم مكى بن ابراهيم البلخى ، وعبد الله ابن عثمان المروزى ، والإمام أحمد بن حنبل ، ويحى بن معين ، واسماعيل بن أبى أويس المدنى ، وغير هؤلاء من الأئمة الأعلام .

وكان سبب تأليفه للجامع الصحيح ما تقدم من كثرة الوضع . وقد اطلع رحمه الله على ما صنف فى الحديث من المسانيد وغيرها ، فوجد فيها ما يدخل تحت التصحيح والتحسين ، والكثير منها يشمله التضعيف ، فحرك ذلك جميع همته لجمع الحديث الصحيح الذى لا يرتاب فيه أمين ، وقوّى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين فى الحديث والفقه : اسحاق بن ابراهيم الحنظلى المعروف بابن راهويه ، فقد حدث البخارى رحمه الله قال : كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : فوقع ذلك فى قلبى ، فأخذت فى جمع الجامع الصحيح . وحدّث رحمه الله قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وكأنى واقف بين يديه ، وبين يدىّ مروحة أذبّ بها عنه ، فسألت بعض المعبرين فقال لى : أنت تذب عنه الكذب . فهذا الذى حملنى على إخراج الجامع الصحيح .

وقد التزم البخارى فى مؤلفه أنه لا يورد فيه إلا حديثا صحيحا ، فقد شرط أن يخرج

الحديث المتفق على ثقة نقلته الى الصحابى المشهور، من غير اختلاف بين الثقات الأثبات، ويكون إسناده متصلا غير مقطوع. وإن كان للصحابى راويان فصاعدا، فحسن؛ وإن لم يكن إلا راو واحد وصح الطريق، كفى. وشرط الصحيح أن يكون إسناده متصلا، وأن يكون راويه مسلما، صادقا، غير مدلّس، ولا مختلط، متصفا بصفات العدالة، ضابطا متحفظا، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد. واشترط أن يكون الراوى قد ثبت له لقاء من روى عنه ولو مرة. ولقد جهد البخارى فى التحرى عمن أخذ عنه، وقد عرض كتابه على الإمام أحمد بن حنبل، ويحى بن معين، وعلى بن المدينى، وغيرهم، فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة، إلا فى أربعة أحاديث. قال العقيلى: والقول فيها قول البخارى، وهى صحيحة.

ولقد شهد المنصفون فى عهد البخارى بأنه كان أحفظ أهل زمانه للحديث، وأعرفهم بأسانيده ورجاله، حتى قال بعضهم: محمد بن إسماعيل إمام، فمن لم يجعله إماما فاتهمه. وقال بعضهم: مارأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخارى. وقال إسحاق بن راهويه — وهو أمير المؤمنين فى الحديث: يا معشر أصحاب الحديث! انظروا الى هذا الشاب واكتبوا عنه، فإنه لو كان فى زمن الحسن بن أبى الحسن لاحتاج اليه الناس، لمعرفته بالحديث وفقهه.

وقال محمد بن أبى حاتم: سمعت محمد بن إسماعيل يقول. قال لى محمد بن سلام: انظر فى كتبى فما وجدت فيها من خطأ فاضرب عليه كى لا أرويه، ففعلت ذلك. وكان محمد ابن سلام كتب عند الأحاديث التى أحكمها محمد بن إسماعيل البخارى: رضى الفتى. وفى الأحاديث الضعيفة: لم يرض الفتى. فقال له بعض أصحابه: من هذا الفتى؟ فقال: هو الذى ليس مثله، محمد بن إسماعيل.

وقد جاء فى كتاب الحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ما خلاصته أنه روى عن أبى صالح خلف بن محمد أنه قال: سمعت محمد بن يوسف بن عاصم يقول: رأيت لمحمد بن إسماعيل ثلاثة مستملين ببغداد، وكان اجتمع فى مجلسه

زيادة على عشرين ألف رجل . وروى عن أحمد بن الحسن الرازى قال : سمعت أبا أحمد ابن عدى يقول : سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن اسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا الى عشرة أنفس : الى كل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى ، وأخذوا الموعد للمجلس ، فحضر المجلسَ جماعة أصحاب الحـديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ، ومن البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب اليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخارى : لا أعرفه . فسأله عن آخر ، فقال : لا أعرفه . فمازال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ من عشرته ، والبخارى يقول : لا أعرفه . فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون : الرجل فهم . ومن كان منهم غير ذلك يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الفهم . ثم انتدب رجل آخر من العشرة ، وهكذا حتى فرغ العشرة ، والبخارى لا يزيدهم على : لا أعرفه . فلما علم البخارى أنهم قد فرغوا ، التفت الى الأول منهم فقال : أمّا حديثك الأول فهو كذا ، وحديثك الثانى فهو كذا ، والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتى على تمام العشرة ، فردّ كل متن الى إسناده ، وكل إسناد الى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، وردّ متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها ، وأسانيدها إلى متونها . فأقر له الناس بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل . رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عن العلم وأهله أحسن الجزاء ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا

نصيحة من معدن النبوة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : خذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لوفاتك ، فانك لا تدرى ما اسمك غدا .

الدين والعلم

يتوهم بعض الناس أن العلم قد يعادى الدين ويباينه، لأن بعض النظريات العلمية المعروفة لا تتفق هى وبعض القواعد الدينية ظاهرا. غير أن المتأمل الذى يحقق ويبحث يعلم أن كثيرا من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير، وأن كثيرا من الآراء العلمية التى كان يرى أصحابها أنها هى الثابتة، والتى أفضى اليها البحث، قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها.

من يتحقق هذا ويعلمه — وهو ما تدل كل الدلائل عليه — يجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية فى ظاهره مخالفا للدين، لا يباينه فى الواقع ونفس الأمر، وأن الصحيح فى الأمر هو ما ذهب إليه الدين، وأن الرأى العلمى هو الذى لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه. وإنا ناقلون لك كثيرا من الشواهد على ذلك، ولكنى أحب أن أعلمك قبل كل شىء أننا لسنا ممن يعادى الجديد أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية والمكتشفات الحديثة فى هذا العصر الى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى.

ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقى بها العمران، وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الانسان؟ ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق بعض الباحثين، وهى فى الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقى. تلك الظاهرة التى لا يكاد بعض الناس يخلص منها أو ينفك عنها، هى تلك الكبرياء الممقوتة التى تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثا وأحاط بها خبرا، فتراه (وما أوتى من العلم إلا قليلا) يتكلم فى كل شىء، ويحكم على كل شىء، حتى إنه كثيرا ما يعتقد أن الخارج عما وصل اليه من النواميس وحدده من القوانين لا نصيب له من الصحة، ما دام مجاوزا دائرة فهمه وحدود علمه، حتى إذا جاء مَن بعده ضحك من غروره، وهزأ بما كان يتبجح به من معلوماته، مبينا ما كان له من زلات، وما تورط فيه من جهالات.

وقد ترى ذلك الهازئ الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين ، وكان فوزه فيما استدركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطغى عقله فتزل قدمه . ولو وقفوا عند ما وصلوا اليه من المعلومات الحقة التى شهد لها الحس وأقرها الامتحان وقام عليها البرهان ، ولم يتعرضوا لما سوى ذلك ، لكانوا فى أمن من الزلل ، وعصمة من الخطل . ولكن طغيان نفوسهم أبى عليهم أن يعرفوا قدرهم ، أو ينسبوا أنفسهم لجهل أو قصور .

الخلاصة أن من تأمل فيما يتجدد كل يوم من العلم الحديث ، ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون ، لا يشك فى أن العلم البشرى لا يزال طفلا ، وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلا . وهذا هو مقتضى الضعف البشرى ، وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلقته وتكوينه . وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر : إنهم عرفوا ما يمكن وما لا يمكن ظنا منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون ، غرور يبرأ منه التحقيق العلمى ويستهزئ به النظر الواسع المدقق . ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة :

(١) لو قال قائل : إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلسفة السابقون قائلا بالجهل منابذا للعلم لا يدرى ما يقول ، فإنهم كانوا مجمعين على أن كلا منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل ، وأن ما سموه علما ولم يكن محلا للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به فى عالم الخرافات ، وإن شهد أهل زمانهم بأنهم الاخصائيون فى ذلك .

(٢) لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الجواهر كالذهب عنصر بسيط تلقى منهم أشد الانكار ، والعامة تكون فى جانب المنكرين لا محالة ، لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن . وقد أصبح اليوم إنكار هذا الأمر هو الجدير بأن يُنْكَر ، الى غير ذلك من الأمور العديدة التى تجدد بها العلم .

(٣) هذا الجسم الانسانى كم فيه من جزء كانوا يظنون أنه لا منفعة فيه ، ثم تبين

بعد ذلك أن فيه عدة منافع . وناهيك ما يقولون الآن فى الغدد ، وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص. ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله فى مخلوقاته فى دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ولا يزال قوله تعالى : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) صادقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى تقوم الساعة . ولا ينبغى أن ينخدع منخدع بكثرة ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر (المنظار المعظم) فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون فى بعض الحيوانات التى تسبب بعض الأمراض : إنها تحت المجهر ، يريدون أن المجهر لا يزال قاصرا عن كشفها ، وإنما عرفوها بآثارها . ولا يزال كثير من الأمراض مجهول الميكروبات الى اليوم ، رغم تقدم الأبحاث العلمية والتفنن فى صناعة الآلات الكاشفة . وكم من شىء فى العقاقير الطبية يعرف تأثيره فى بعض الأدواء ولا يدرى لماذا يكون هذا التأثير ، ولذلك نرى الطب كل يوم فى تطور ، حتى لقد قال لى بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زمانا طويلا : إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها فى المدرسة ، وكانت إذ ذاك هى العلم الذى لا يعول على غيره .

وما يدريهم أن ما هم عليه الآن ستُظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم فى خطأ من قبلهم ؟ وقد قرر ذلك غاية التقرير أحد علماء أوربا فى مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة أكمبرج الجامعة أثناء أغسطس سنة ١٩٠٤ . ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ، ولا يدرك غوره أحد ، ولا ينتهى منتهٍ الى كل ما فيه (وأنى للمتناهى أن يبلغ ما لا يتناهى) ؟

وإن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التى تكاد تلحق بالبدهيات أن هناك فرقا بين عدم العلم بالشىء و بين عدم الشىء فى نفسه ، وأن الأول لا يستلزم الثانى ، وأن عدم الدليل على الشىء ليس دليلا على عدمه .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

معجزات القرآن العلمية

القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم بأكثر من ألف سنة

كان الفلاسفة الأقدمون لا يبحثون فى حياة الجماعات البشرية إلا من نواحى التربية والتعليم ، وأخْذها بأحكم القوانين . ولما تأسست المدرسة اليونانية ، وأنجبت كبار العقول ، أمثال فيثاغورس ، وسقراط ، وسولون ، وأفلاطون ، وأرسطو وغيرهم ، جروا على طريقة أسلافهم فى علاج الجماعات ، فاقتصروا على ما اقتصر عليه الأولون من المباحث الخاصة بالاجتماع ، وكان همهم مصروفا الى وضع برامج لتعليم الشعب وإرشاده ، ووضع النظم الحكيمة لرفع مستواه البدنى والعقلى ، وتقسيم طبقاته وطوائفه ، ولم يكونوا يتخيلون أن للاجتماع طبيعة خاصة تتسلط عليها نواميس طبيعية ، وأن تلك النواميس تتبع فى ترقيها وتدليها وتحولها ما يدخل فيه الشعب نفسه من انقلابات ، وما يطرأ عليه من حالات ، وما يجرى عليه من تقاليد وعادات ، وما يعتوره من هزائم وانتصارات ، بل وما يصادفه فى حياته الشخصية من ثروات وأزمات الخ . فكانت الشعوب فى نظرهم كأوراق اللعب يرتبها المشترع على النحو الذى شاء ، ويخيل اليه أنه لو وكل اليه أمرها لأوصلها الى ما يريده لها من نمو وارتقاء .

هذا كان مذهب الفلاسفة اليونانيين ، فلما ورثهم الرومانيون لم يكونوا أبعد منهم نظرا فى هذا الشأن ، فنهضت الأمم وانحطَّت ، ونشطت وجمدت ، وتألفت وتحللت ، مقودة بتلك النواميس المقررة ، دون أن يتخيل وجودَها أثقبُ الناس نظرا فى أحوال الخلق .

فلما جاء الاسلام وشرع أهله فى إحياء موات العلم ، ونقل كتبه القيمة الى لغتهم ، نظروا فى كل شيء ، مستهدين بالأصول الأولية للقرآن الكريم ، كقوله تعالى :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقوله: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) فأدركوا على وجه عام أن لكل شيء في هذا الوجود نظاما يجرى عليه، كما فعل بعض مؤرخيهم، وخاصة ابن خلدون. ولكن المعارف التى كانت قد جمعت عن الأمم لم تكن تكفى لتكوين علم خاص بها. وتلت هذا الدور نهضة أوروبا، فادّخر الله هذا السبق للفيلسوف الفرنسى الكبير (أوجست كومت) سنة ١٧٩٨ — ١٨٥٣ واضع أصول الفلسفة الوضعية، فإنه أول من جعل للاجتماع علما، ووضعه فى رأس جميع العلوم البشرية، لشرف موضوعه من ناحية، ولأنه لا يتسنى إلا لمن يأخذ من كل علم بطرف، لتشعب بحوثه، واستنادها على جملة المعارف البشرية.

فعلم الاجتماع البشرى أحدثُ العلوم وضعا، ولكنه أشرفها موضوعا، إذ يعرّفنا على أىّ الأصول تقوم الجماعات، وبأيّها تحفظ وجودها وترتقى، وما هى عوامل التأليف التى تقوّى وجودها، وعوامل التحليل التى تفصم عرى ألفتها، وهذه كلها معارف عالية، ضرورية للمجتمع ضرورة علمى قوانين الصحة والطب لآحاده.

إن علماء الاجتماع فى تحسسهم من نواميسه الطبيعية اضطروا أن يتساءلوا أوّلا عن حقيقة الجماعة، فقالوا: لا يمكن أن تكون الجماعة مجرد آحاد ساقتهم الضرورة للاجتماع بإرادتهم، ويستطيعوا بتلك الإرادة نفسها أن يجتمعوا أو لا يجتمعوا، لأن المشاهد غير ذلك، فإن الجماعة متى تألفت فَقَدَ أفرادها الاختيار الشخصى فى أمر وجودها، وأصبحت هى القائدة لهم، لا هم القائدون لها. وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا اكتسبت شخصية خاصة تفنى فيها شخصيات جميع الآحاد المؤلفين لها. من هنا اعتبر العلماء الجماعات أشخاصا ذوى شخصيات مستقلة، وأمكنهم تشبيهها بالأحياء من كل وجه.

ولما كان الأحياء يبدأ وجودهم بدور طفولة، يليه دور مراهقة، فشبيبة، فرجولة فكهولة، فهرم، فموت، ولكل من هذه الأدوار نواميس تحكمها، وبواعث تحركها، وعلل تعتريها، ومؤثرات خارجية تؤثر فيها تأثيرا مقويا أو مضعفا الخ، رأوا أن يطبقوا

كل ما يصحب هذه الأدوار والمؤثرات من النواميس على الجماعات ، فتأدّوا من ذلك الى تأليف بيولوجيا [١] اجتماعية تشبه البيولوجيا الفردية من كل وجه .

هذه مباحث فى أقصى مراتب السمو ، وهى مع سموها لا تخلو من طرافة تأخذ بالألباب ، فإن البحث فى تركيب هذا الكائن الاجتماعى الضخم الذى يعتبر الفرد فيه خلية من خلاياه ، والتنقيب عن القوى الماسكة له ، والبواعث التى تحركه ، والمؤثرات التى تعمل فيه ، يعتبر من أجل الفتوحات العلمية التى هدى الله اليها الخلق فى دور الأوج الذى بلغوه من نهضتهم الحديثة ، وهو فى الوقت نفسه يدع لنا باب الأمل مفتوحا لإمكان علاجه من أمراضه ، أو توجيهه الى وجهة صالحة له ولآحاده . وهذا دليل جديد على سمو الفطرة الإنسانية ، وجلالة المواهب العقلية ، التى منحها هذا الكائن الضعيف .

نعم : إن الإنسان لا يستطيع أن يؤثر فى المجتمع لمجرد رأى يبدو له فى إصلاحه ، ولكن ذلك لا يكون إلا إذا فهم الكافة سداد هذا الرأى وعملوا به . عند ذاك يجدّ فى المجتمع ميل جديد للتحول عن الوجهة التى يراد تحويله منها ، الى الوجهة التى يريده على أن يكون عليها ، وهذا كله مصداق لقوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) فمعنى الآية : أن الأمة التى تريد أن يحول الله عنها حالا لا ترضاه لمجتمعها ، يجب عليها أن تغير من نفسيتها أوّلا ، فإن فعلت حول الله عنها ما تكره ، ووجه اليها من نعمه ما تحب . وهذا وحده معجزة علمية للقرآن كان يجب أن يعقد لها فصل خاص ، وأن يشاد بذكرها أعظم إشادة .

كشف هذا السر العظيم يجعلنا ندرك سر تنبيه القرآن على وجوب الدعوة الى المعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) . وقال :

(١) البيولوجيا : علم الحياة .

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) وقد ذم الله فى كتابه الأمم التى تهمل هـذا الأصل الـكريم ، فقال حاكيا حال أمة من الغابرين : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

وقد توعد النبى صلى الله عليه وسـلم الأمة إذا خالفت هـذا الأصل ، فقال : « لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم فتناً كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » .

لقد استطردنا الى ذكر هذه الأمور ، فلنعد الى موضوعنا الأصلى ، وهو إثبات معجزة علمية للـكتاب الـكريم من ناحية النواميس الاجتماعية ، فنقول :

القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعـلم علماء الأرض تخيلا . وقد رأيت أن تعيين تلك النواميس والتحسس مما خفى منها هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع ، فقال الله تعالى : (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) وقال تعـالى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) وقال : (سُـنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) .

ولم يكتف الـكتاب بهذا وحده ، ولـكنه قرر أيضا أن الجماعات كالآحاد : لها آجال لا تستطيع أن تتعداها ، وهو ما هدى اليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وجوه الشبه بين الفرد والمجتمع واحـدة ، فقال تعـالى : (وَلِـكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) وقد تكرر مثلهـا فى سور كثيرة من الـكتاب الـكريم .

الذى يتأمل فى سبق القرآن الـكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون فى وضع أصول العلم الاجتماعى ، ويكون من غير أهل هذا الدين ، يدهش كل الدهش ، ولا يكاد

يصدق عينيه . وسنداب نحن من جهتنا على تجلية الأصول العامية ، مستخرجين إياها من الكتاب الكريم ، ليتحقق العالم أنه على ما يقوله موحيه سبحانه وتعالى : (مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) . وبذلك يتضح سر نهضة المسلمين التي حصّلت لهم زعامة العلم والحكمة في العالم في سنين معدودة ، فإنهم لو كانوا بدأوا حياتهم العامية على النحو الذي تبدؤها بها كل أمة ، ما استطاعوا أن يبزوا الأمم التي تقدمتهم في هذا السبيل بقرون كثيرة ، ولكنهم لبدئهم إياها مستنيرين بهذه الأصول القرآنية العالية ، بلغوا منها أوجاً في مدى قصير لم تبلغه أمة في آماد طويلة . وعلى المسلمين اليوم أن يدركوا هذا الأمر الجلل ، وأن يجعلوا كتابهم نبراسا لهم في اقتباسهم العلم عن الأمم الغربية ، ليبلغوا منه ما بلغه أسلافهم في عهدهم الأول ، ويزيدوا عليه ما هدى اليه البشر في العصور الأخيرة .

محمد فريد وجدي

فضل الزراعة

روى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : التمسوا الرزق في خبايا الأرض . يعني الزرع .

وحكي عن أمير المؤمنين المعتضد بالله أنه قال : رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يناولني المسحاة (أي مجرفة) وقال : خذها فانها مفاتيح خزائن الأرض .

وقد أثبت علم الاقتصاد السياسي صدق هذا القول ، فقرر أن الثروة الحقيقية هي المحاصيل الأرضية ، وكل ما يستغله الناس من الصناعة والتجارة فهو تبع لها ، ولا تغني واحدة منها عن الانسان شيئا . وقد عرفت الأمم الراقية للزراعة هذه المنزلة ، فجعلتها من محاولاتها في المكان الأول . فالفلاح أحق الناس بشكرنا وإعجابنا ، وأولاهم بعنايتنا ورعايتنا .

وقد كافأ الله تعالى الفلاح ، بأن جعله يشهد أجمل مظهر من مظاهر الابداع الالهي ، من نشوء الحياة من الأرض الجامدة ، ثم تدرجها في أطوارها حتى تبلغ الكمال تحت بصره .

الحكمة وأثرها فى النفوس

أريد بالحكمة الكلام الذى ينفع من الجهل والسفه، كالمواعظ والأمثال النافعة، وهى وليدة الذكاء والتجارب، فاذا أقبل الذكى على ناحية من نواحى الحياة المدنية كالاقتصاد وغيره من شئون الاجتماع، أو الخلقية كالكرم والشجاعة، ودرسها بذهن حاضر، كانت أقواله فيها أقرب الى الصواب، وآراؤه فيها أرسخ فى الحكمة، ولا سيما ذكيا يقرن النظر بالتجارب العملية، فقلّما يقول الجبان كلمة تحمل على الإقدام فى مواقع الخطوب، وقلّما يقول البخيل كلمة تحث على الإنفاق فى وجوه الخير.

ولا غرابة أن تصدر الحكمة ممن لقى العلماء، وضرب فى العلوم بسهم. وموضع الغرابة أن تخرج الحكمة من أفواه أناس لم ينشأوا فى علم، ولم يُعرفوا بجودة رأى. والحكمة فى نفسها فضيلة، والتمسك بها غنيمة، وصدورها من غير ذى علم أو رأى، لا يبخس قيمتها، ولا ينقص شيئا من فضلها، فلا ينبغى للرجل يسمع الكلمة من رجل غير معروف بعلم أو سداد رأى، فيستخف بها، ويزهد فى اقتنائها، قال صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها، فهو أحق بها» فالحديث الشريف ينبه على أن الحكمة قد توجد فى غير مظانها، وتستفاد من غير أهلها، كما يقولون: «رمية من غير رام».

قال ابن الأثير فى كتاب المثل السائر: «ومذ سمعت هذا الخبر النبوى جعلت كدى فى تتبع أقوال الناس فى مفاوضاتهم ومحاوراتهم، فإنه قد تصدر الأقوال البليغة والحكم والأمثال ممن لا يعلم مقدار ما يقوله» وأورد من كلام بعض العامة شواهد على أن الحكمة قد تستفاد من غير أهلها، ثم قال: «يجب على المتصدى للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس فى محاوراتهم، فإنه لا يعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة، ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه. ويحكى عن أبى تمام أنه لما نظم قصيدته البائية التى يقول فيها:

« على مثلها من أربع وملاعب »

انتهى منها الى قوله :

يرى أقبح الأشياء أوبة آمل كسته يد المأمول حلة خائب

ثم قال : « وأحسن من نور يفتحه الصبا » .

ووقف عند صدر هذا البيت يردده ، وإذا سائل يسأل على الباب وهو يقول : « من بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا» فقال أبو تمام : « بياض العطايا فى سواد المطالب » فأتم صدر البيت الذى كان يردده من كلام السائل .

قد يقصد الرجل لإلقاء الحكمة فى لفظ يستقل بها ، وقد تجىء تبعا للحديث عن أشخاص أو أشياء معينة ، كما فعل ذلك الشاعر الذى قصد فى نظمه الاعتذار عن قوم التزموا اللثام فى سائر أحوالهم ، حتى قال :

لما حووا إحراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

والحكمة التى انساقت تبعا لهذا الاعتذار ، هى أن كثرة الفضائل تستدعى غلبة الحياء .

ومن الشعراء من يقصد للهزل ، ويرمى الى غرض المزح ، فتجود قريحته فى أثناء ذلك بالحكمة ، نظم على بن عبد الواحد الملقب (صريع الدلاء) مقصورة فى الهزل يعارض بها مقصورة ابن دريد ، وما زال يخوض بها فى هزل الى أن جاء فيها بيت يقال إنه قد حسد عليه ، وهو :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلب على حد سوا

وقد يتوهم متوهم أن الشعر يغلب فيه التخييل ، فلا يكون موطنا للحكمة ، فأزاح عليه الصلاة والسلام مثل هذا الوهم بقوله : « إن من الشعر حكمة [1] » .

---

(١) صحيح الامام البخارى .

يختلف الناس فى النطق بالحكمة اختلافهم فى ألوان نشأتهم، وأساليب تربيتهم، ويختلفون فى الإصغاء الى الحكمة، أو الإعجاب بها اختلافهم فى الارتياح للغرض المسوقة اليه، فالكريم مثلا — يطرب لسماع الحكم الواردة فى الكرم أكثر مما يطرب له البخيل، والشجاع يرتاح لسماع الحكم الواردة فى الشجاعة أكثر مما يرتاح له الجبان، اتل فى حضرة جواد وبخيل قول الشاعر :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

لا شك أنك ترى أثر الطرب فى وجه الجواد أكثر مما تراه فى وجه البخيل. واتل على مسامع شجاع وجبان قول الشاعر :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال : ويحكِ لن تراعى

فإنكِ لو سألتِ بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

ثم انظر كيف وقع البيتان من أنفسهما، فإنك ترى وجه الشجاع فى ابتهاج، ولا تكاد ترى فى وجه الجبان طلاقة، إلا أن يتكلفها تكلفا.

وانظر فى كتب التراجم تجد المؤرخين ينبهونك فى كثير من الأحيان للحكمة التى أخذت من نفس صاحب الترجمة مأخذ القبول والإعجاب، ينبهونك لهذا حين يقولون لك : «وكان كثيرا ما ينشد كذا» كما قالوا فى سيرة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه إنه كان كثيرا ما ينشد :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

وقالوا : كان عضد الدولة كثيرا ما ينشد قول أبى تمام :

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

وقالوا : كان الحسن بن على الملقب «فخر الكتاب» كثيرا ما ينشد :

يندم المرء على ما فاته من لبانات إذا لم يقضها

وتراه فرحا مستبشرا بالتى أمضى كأن لم يمضها

إنها عندى وأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها

وقالوا : كان الخليل بن أحمد كثيراً ما ينشد قول الشاعر :

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

ولا أريد من هذا أن الحكمة لا تلق إلا لمن شأنه الارتياح لسماعها ، بل عليك أن تقرع بها أسماع المنحرفين عن الحق أو الفضيلة أو العمل الصالح ، لعلهم يألفونها ، ويعود انقباضهم منها ارتياحا .

وكثيرا ما ينهض الرجل للعمل الصالح يكون فى غفلة عنه ، وماينبهه له إلا بيت يحتوى حكمة . قال عبد الملك بن جريج : كنت مع معن بن زائدة باليمن ، فحضر وقت الحج ، ولم تحضرنى نية ، فخطر ببالى قول عمر بن أبى ربيعة :

بالله قولى له فى غير معتبة ما ذا أردت بطول المكث فى اليمن

إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

قال : فدخلت على معن ، فأخبرته أنى قد عزمت على الحج ، فجهزنى وانصرفت .

محمد الخضر حسين

فضيلة السخاء

قال الله تعالى : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى .

أى أن من بذل من ماله ، واتقى الله فى وضعه مواضعه ، وصدق بالكلمة الحسنى ، وهى كما قال ابن عباس رضى الله عنه : ماوعدالله من إخلافه ومضاعفته ، فسيهيئه الله للطريقة الأكثر يسرا . وأما من شح بماله ، وتخيل الغنى به ، وكذب بالكلمة الحسنى ، أى بما وعد الله من إخلافه من فضله فسيهيئه الله للطريقة الأكثر عسرا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وملكان يناديان : اللهم اعط منفقا خلفا ، وممسكا تلفا .

ومن كان يعلم أن لا قوام للأمم إلا بالمال ، عرف مكان هذه الآية من أصول علم الاجتماع ، وأدرك سرا من أسرار الدين فى بناء الجماعات القوية .

نظرة علمية فى الكائنات الحية

الماديون ينكرون عنصر الحياة ، والعلم يثبتها

أسرف الماديون فى تحميل المادة الميتة العمياء ما لا تطيقه ، حتى خرج بهم ذلك الى الهذيان المحض ، فذهب بهم الحمق الى الزعم بأن الحياة صفة كامنة فى المادة يظهرها فيها أن تتركب تركبا خاصا على صورة خلية ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن القوة الإدراكية ، التى تتجلى على أكمل حالة فى الإنسان ، ليست فى حقيقتها إلا ثمرة من ثمرات تركيبه العالى . وكان قد افتتن بهذا الرأى عدد عديد من أهل العلم ، فنشبت بينهم وبين القائلين بوجود عنصر مستقل للحياة تستمد منه المادة صفة الحياة ، معارك قلمية لم تقف عند حد ، حتى كثرت المكتشفات اليوم ، فرجع أكثرهم الى القول بوجود عنصر حيوى عام مستقل عن المادة يتصل بها فيخرجها من حالتها الجامدة الى الحالة التى تكون عليها فى النباتات والحيوانات ، فيحدث فيها حركة ونموا وارتقاء وتطورا يصل بها الى كمالها الذى قدره لها الخالق الحكيم ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

من أجلّ المصادر لنقل صورة من صور هذه المناقشات العلمية كتاب (عالَم الحياة) للأستاذ (روسل ولاس) الانجليزى ، ننقلها معربة عن ترجمته الفرنسية . ولسنا فى حاجة للتدليل على مكانة هذا الأستاذ ، ونكتفى بأن نقول إنه عَلَمٌ من أعلام التاريخ الطبيعى فى هذا العصر ، ومؤلفاته مرجع عظيم القيمة لجميع المشتغلين بمساتير الممالك الثلاث : النباتية ، والحيوانية ، والإنسانية .

جاء فى كتابه المذكور آنفا تحت عنوان (طبيعة النمو) من صفحة ٣٩٨ وما بعدها ما مؤداه :

« إن نشوء أى جسم على صورة مركبة مماثلة لفرد من نوعه ، أمر لا يثير فى كثير من الناس أقلّ دهش ولا استغراب ، ومع هذا فإنه لا يزال باقيا بلا تعليل معقول .

« نعم : إن أهل العلم قد كشفوا ظواهر كثيرة تتعلق بالنظام الذى تتبعه الأحياء فى نموها ، ولكنهم فيما يتعلق بطبيعة القوى العاملة فى هذا النمو ، وبالعوامل التى تقودها وترشدها وتنظم أحوالها ، لم يعطونا غير ظنون مبهمة ، وافتراضات لا تغنى عن الحقيقة شيئا .

« لقد عُرف من زمان مديد أن كل نموسواء أكان حيوانيا أم نباتيا يكون بنشوء خلية أوّلية ، وبتكاثرها الى حد ما . ولكن ما هى الخلية فى ذاتها ؟ أهى شىء غير مقدار قليل من المادة البروتوبلاسمية التى اعتبرها أهل العلم المادة الأولية للحياة ؟ على أنها من الناحية الكيمائية أكثر المواد المعروفة تركبا ، لأنها وإن كانت تتألف من العناصر الأربعة : الكربون ، والإيدروجين ، والأزوت ، والأوكسيجين ، فقد علم الآن أن ثمانى مواد أصلية أخرى تدخل فى تركيبها ، وهى : الكبريت ، والفوسفور والكلور ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والمغنيسيوم ، والكالسيوم ، والحديد . ويزيد على هذه المواد ست أخرى قد تصادف فيها وإن كانت ليست من المقومات الأصلية للبروتوبلاسما ، وهذه المواد هى : السيليس ، والفلور ، والبروم ، واليود ، والالومينيوم ، والمانجانيز .

« فالبروتوبلاسما والحالة هذه مادة شديدة التركب ، لا بكثرة عدد المواد الداخلة فى بنائها فحسب ، ولكن بشكل اتحاد هذه المواد كيمائيا ، وهو الأمر الذى يستعصى على كل تحليل فنّى .

«الأستاذ ماكس فيروورن Max Ferworn يذكر فى كتابه على الفيزيولوجيا العامة ضرورة وجود قوة حيوية مستقلة عن المادة فى هذا التركيب ، ويؤكد بأن كل قوة من هذا القبيل هي خاصة المادة البروتوبلاسمية نفسها . ومن العجيب أنه فى الوقت نفسه يقرر وجود فوارق كبيرة بين الخلية الحية والخلية الميتة ، معترفا بأن معارفنا عن الأولى لا تزال ناقصة للغاية ، ويعلن أن من تلك الفوارق أن عددا من المواد الموجودة فى الخلية

الحية لا يكون له فى الخلية الميتة وجود ، ويصرح أن من تلك الفوارق أيضا وجود حركة باطنية مستمرة فى الخلايا الحية ، وعدم وجودها فى الخلايا الميتة . فهل يعقل أن الخلية التى تستطيع على كثرة عدد المواد الداخلة فى تركيبها أن تحفظ وجودها سليما آمادا طويلة مقاومة لجميع عوامل الهدم ، مادامت فى حالة حياة ، وتفقد كل قوة وكل مقاومة إذا أصابها الموت ، أن لا تكون متمتعة بقوة حيوية تحفظها من الدثور ، ما دامت حالّة بها ؟ إن قبول هذا الرأى يناقض العلم مناقضة شنيعة جدا . ومع هذا فإن الدكتور فيروورن لا يعطى أى دليل على وجود هذه القوة المستقلة عنها ، والمنظمة لظواهرها ، والمعقول أن وجود هذه القوة لا بد منه لحفظ وجود الكائنات ذات الخلية الواحدة ، وهو يكون ألزم وأوجب كلما صعدنا فى سلم الكائنات الى النباتات والحيوانات العليا المركبة الأعضاء ، لتعمل على حفظها لأشكالها فى كل جيل من أجيالها خلال كل الأدوار التى تنتاب خلاياها من دثور وتجدد . وهذه الأدوار يستمر تعاقبها فى هذا المعمل العضوى الفسيح الأرجاء حتى تبلغ أجسامها وأعضاؤها وحواسها وآلات تكاثرها درجة الكمال فى التركب والتناسب الى حد يقضى بالدهش العظيم فى كل كائن حى منها .

« لنضرب على صحة ما نذهب اليه مثلا بريش الطائر ، فنقول : إن كل ريشة متى وصلت الى حدها الطبيعى قد تتألف من أكثر من مليون من الأهداب بعضها ممتاز عن البعض الآخر ، وهذه الأهداب تجعل كل ريشة صالحة لأداء مهمتها الخاصة ، باعتبار أنها أداة للطيران ، وكساء للطائر فى آن واحد ، يحفظ لجسمانه الحرارة الغريزية . ولكن هذه الأهداب فى ذاتها أعضاء ذات صفة خاصة ، لها أشكال وتراكيب محددة ، وكل واحدة منها تتصل بمجاورتها الجانبية وبما يليها ، بمشابك تكاد تكون رخوة ، وهى فى نفسها مؤلفة من عدة ملايين من الخلايا تختلف فيما بينها فى الأشكال ، بحيث تنتج لنسيج الجناح كله القوة والمرونة ، وصفة الاستمرار .

« ومن المحقق أن كل ريشة تتولد من الجلد مباشرة ، وخلاياها التى تتكون وتتغذى من دم الطائر يجب أن تتجدد كل سنة لتحل محل الخلايا التى دثرت منها. ولكن هذا الدم نفسه يعطى لكل جزء من أجزاء جسم الطائر مواد مختلفة تدخل فى بنائها ، سواء أكانت عضلات أم عظاما أم أوعية أم جلدا أم أعصابا أم مخاً . فما هى إذاً تلك القوة التى تَستخرج من الدم لكل عضو من أعضاء الطائر ما به قوامه ووجوده ، فتنشىء له هنا خلايا عظمية ، وهناك خلايا عضلية ، وهنا لك خلايا ريشية ، لضرورة أن كلا منها يجب أن يكون له خواص متميزة عن سائرها ؟ ولما كانت هذه الخلايا المنوّعة متخالفة فيما بينها ، فما هى القوة التى تصبها فى قوالب تناسبها ، فتجعل من بعضها عظاما صلبة ، ومن بعضها الآخر عضلات قابلة للتقبض ، ومن غيرها مادة خفيفة وقوية ومرنة ؟ وهذه الأخيرة من أعجب أعمال هذه القوة التى أمد الله بها الكائنات الحية . وغير هذا فما هى طبيعة هذه القوة التى تقضى بأن تنمو كل ريشة فى شكلها الخاص ؟ وما هو ذلك العامل المنظم الذى يحدد توزيع المواد الملونة للريش وهى مستمدة من الدم أيضا ، بحيث تأخذ منها كل ريشة القدر الضرورى لها لا تتعداه ، لإمتاع الطائر بألوانه الأصلية على تنوعها العظيم ، وتناسبها الدقيق ، ليتألف منها مجموع وُضع لأداء مقاصد مختلفة ، من إخفاء الطائر أو إظهاره ، أو لجذب الإناث إليه فى زمن التزاوج ؟

« لا مشاحة فى أن استحالة تعليل هذه الظاهرة بالأسباب الطبيعية يسرى على سائر أعضاء الحيوان ، ولكنا ضربنا المثل بالريش ، لأنه ظاهر ومرئى لكل إنسان ، ويمكنه درسه وامتحان دقائقه بواسطة المنظار المعظِّم للمرئيات .

« أما أنا فلم أصادف فى كل ما كتب عن خواص البروتوبلاسما — وهى المادة الأولية للخلية — ما يلقى بصيصا من النور على هذه المسألة الخطيرة ، فلا بد من الاعتقاد بوجود قوة مدبرة أمدّ الخالق بها الكائنات النباتية والحيوانية ، بل وأمد بها كل خلية منها ، ليمكن تعليل وجودها ، وما يحدث منها فى الأدوار المختلفة »

نقول : يشير الأستاذ (روسل ولاس) بقوله هذا الى ضرورة وجود قوة خلقها الله فى كل كائن ، تتولى تكوينه وتربيته وإيصاله الى كماله . فالعلم كما ترى يتمشى نحو الايمان بخطوات وإن كانت بطيئة ، إلا أنها ثابتة وموصلة للنهايات القصيّة . فأين هذا ونحن فى القرن العشرين من إلحاد علماء القرن التاسع عشر وما قبله ، وتشددهم فى نكران بداهات العقل فى سبيل بناء صرح علمى على أساس مادى محض ؟ .

إن كل هذه الأوهام قد تبددت ، وظهرت الطبيعة اليوم ، بفضل ما فتحه الله على الناس من علومها ، تشهد بأفصح لسان بوجوده تعالى ، وبسريان قدرته فى كل شىء حقر أوجل (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

محمد فريد وجدى

فضيلة التودد الى الناس

روى ابن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس .

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام قال لابنه : لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق ، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد ، فالواحد كثير . فنظم ابن الرومى هذا المعنى فقال :

فكثر من الاخوان ما اسطعت إنهم بطون إذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان وهو أمير المؤمنين : ماذا أفدت من ملكك هذا ؟ قال : مودة الرجال . وقال بعض الحكماء : من علامة الاقبال اصطناع الرجال .

وقال غيره : من استصلح عدوه زاد فى عدده ، ومن استفسد صديقه نقص من عدده .

وقال بعض الأدباء : العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته ، ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه ، بحسب صنائعه وأياديه ،

الاسلام فى الصين

عنيت مجلة العالم الاسلامى الألمانية بنشر تقارير أعضاء الجمعية الألمانية للمعارف الإسلامية ، الذين درسوا أحوال بلاد الشرق الاسلامى ، وخبروا تطوراته ، وتتبعوا اتجاهات الثقافة العربية على العموم ، والإسلامية على وجه أخص . ولقد جاء فى أحد أعدادها مقال لأحد أعلام المستشرقين الألمان « مارتن هارتمان » عن الاسلام فى الصين ، نلخص للقراء أهم ما جاء به فيما يلى :

لم يذكر فى كتب التاريخ الصينية القديمة الشيء الكثير عن تفاصيل دخول الاسلام فى بلاد الصين ، بل إنه فى كثير من الأحوال كانت أخبار المؤرخين مبهمة متضاربة يداخلها كثير من الشك والالتباس ، لا يمكن أن يعتمد عليها المؤرخ الحديث كل الاعتماد ، وكل ما يمكن استنتاجه على كل حال هو أن الاسلام تسرب الى هذه الأقاليم الواسعة تدريجيا . ولقد أجمع مؤرخو الصين على أنه دخل على يدى سعد بن أبى وقاص ، وله فى « كانتون » قبر تذكارى يخصونه حتى الآن بالإكبار والإجلال .

دخل الاسلام الى بلاد الصين براً عن طريق « خامى كومول » (وهى إحدى واحات المقاطعة الصينية « سينكيانج » وهى ملتقى هام للقوافل ومحطة للبرق) بواسطة البُرد المسلمين فى عصر القيصر « تاى تسونج » (٦٢٧ — ٦٥٠ ميلادية) . وأقدمُ الآثار التى قد ترجع اليها الأخبار عن فجر الاسلام فى الصين هو الجامع الأكبر فى « سنجانفو » الذى يستدل من بعض أجزائه على أنه شيد فى أول سنةٍ حكم فيها القيصر « تين باو » فيكون ذلك على تقدير « برو مهول » فى عام ٧٤٢ ميلادية . ولقد أدخلت تعديلات كثيرة فى بناء ذلك الجامع ، وأهمها تلك التصليحات التى تمت على يدى « ساى تين شى » ويلقبونه فى الصين « سيدى الأجل » فى عام ١٣١٥ ميلادية .

وكان المسلمون يلقبون فى جميع المراجع الصينية القديمة باسم « تاشيه » وهى كلمة مأخوذة من لفظة «تاجق» الفارسية التى يرجع أصلها الى اللغة الآرامية، وكان يقصد بها فى الأصل العرب من نسل طى ، وذلك لأن الأعراب الطائيين الذين دخلوا الاسلام من الفريق الفارسى كانوا يعتبرون ممثلى العـرب والعربية ، وأطلق اسمهم على العرب على وجه العموم ، ثم إن هـذا الاسم اتسع مدلوله حتى شمل المسلمين عموما ، وأصبح لا فـرق فى المعنى بين عربى ومسلم . وفى العصور المتأخرة أطلق على المسلمين اسم « هوِى هوِى » نسبة الى « الويجور » الذين يعتبرهم الصينيون ممثلين للاسلام ، وبذلك أصبح اسمهم الشعبى دالا على الديانة الاسلامية .

وأما الأخبار التى وصلتنا من المؤلفين العرب عن تاريخ وطريق دخول الاسلام فى الصين ، فإنها على جانب عظيم من الأهمية ، لتوخيها الحقائق ، وبعدها عن المغالاة . ومن أمثال تلك المراجع كتاب التاريخ للطبرى الذى ذكر فيه جميع الحوادث التى عرفت فى عصره بشكل منسق جميل ، دون أن يغفل شيئا من التقارير الهامة .

ولا يقلّ الجغرافيون من العرب عن مؤرخيهم شأنا فى هـذه الأبحاث ، فإنهم كتبوا كثيرا عن طرق السفر الى الصين برا وبحراً ، ويؤخذ من أبحاثهم الجغرافية أن دخول الاسلام فى الصين كان عن أحد طريقين مختلفين ، فالأول هو طريق البر ، ويؤدى الى شمال الصين ، ومنه وصل الاسلام الى النواحى الغربية من مقاطعات الصين الشمالية ، ولم يساعد على تأسيس جاليات إسلامية فى الجهات الساحلية . والطريق الثانى هـو طريق البحر من الناحية الجنوبية ، ويمس سواحل الصين لغـاية « كانصو » أو «هانج شوفو» ، وبواسطة هذا الطريق تمهدت السبل لتأسيس الجاليات الاسلامية ، ولـكنها لم تمتد نحو الداخل . ولم ينتشر الاسلام فى داخل الصين انتشارا واسعا إلا أثناء حكم المغول ، بل لنا أن نقول إنه ما كان يتيسر بدون مجهودات أسرة « يبان » نشرُ الاسلام فى داخل المقاطعات الصينية الواسعة ، ولا يمكننا التكهن بعدد المسلمين

الذين بَعث بهم حكام المغول الى بلاد الصين ، ولكنهم كانوا على كل حال نواة صالحة للاسلام فى الصين .

وقد اصطحب « جنغيزخان » فريقا من الموظفين ومعهم رجل من « بخارا » اسمه شمس الدين عمر يقال إنه من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو الذى لقب فيما بعد باسم « سيدى الأجل » ، وقد جاء ذكره فى كتب كثيرة ، كما ذكر الرحالة العالمى الشهير « ماركو بولو » فى تقاريره أحدَ أولاد شمس الدين هـذا المدعو ناصر الدين . وأهم ما كتب فى تاريخ حياة شمس الدين عمر ما جاء فى مجموعة « تاشنج بى تونج شيه » وقد عنى بترجمة هذا الجزء الى اللغة الفرنسية « فيسيير » فى مجلة العالم الاسلامى الفرنسية فى شهر فبراير سنة ١٩٠٨ ، وكذلك ما جاء فى مجموعة « فاهسيانج » وقد علق عليها « لاباج » فى تقارير بعثة « أولون » ، وأخيرا ما كتبه رشيد الدين ونقله الى الفرنسية « بلوشيت » فى تقارير بعثة أولون أيضا . ومما جاء فى مجموعة « فاهسيانج » المذكورة آنفا أنه الحفيد السادس والعشرون للنبى (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد تقلد شمس الدين عمر مناصب رفيعة عدة فى زمن « كوبيلاى » (١٢٦٠ — ١٢٩٤) وسماه القيصر « ساى تين شى » وهى ترجمة « سيدى الأجل » وعينه حاكما على مقاطعة « يونان » الصينية ، وفى أيامه الأخيرة حاز لقب « أمير هسين يانج » وترك خمسة أولاد وتسعة عشر حفيدا . وتكاد تجمع كل التقارير على أن سيدى الأجل نشأ فى مدينة بخارا ، وقدم الى مقاطعة « يونان » الصينية ، وتولى إدارتها من عام ١٢٧٣ حتى وفاته سنة ١٢٧٩ ودفن بجوار عاصمة بلاده .

ولقد كان لسيدى الأجل شأن كبير فى نشر الاسلام بين الصينيين فى مقاطعة « يونان » ولم يبزه فى الدعاية للدين الاسلامى إلا ولده الأكبر ناصر الدين الذى كانت له اليد الطولى فى اتساع حلقة المسلمين وزيادة نفوذهم ، واليه يرجع الفضل فى الوصول بمسلمى الصين الى درجة من الانتشار كانت تناوئ فى عصور مختلفة الجماهير الغفيرة

من الديانات الأخرى فى هـذه المقاطعة . وكان ناصر الدين فى أول أمره فى مقـاطعة « شينزى » ثم وُلى حكومة « يونان » حيث توفى بها فى سنة ١٢٩٢ وخلفه أخوه حسين فى إدارة شئونها . وكذلك تقلد أولاد شمس الدين عمر وأحفاده من بعده مراكز رفيعة فى الحـكومة .

ومن أحفاده البارزين فى تاريخ الاسـلام فى الصين المدعو « ماخو » وهو من ذريته الرابعة عشر ، واهتم بالأبحاث الدينية ، وظهر له كتاب سماه « الابرة المغناطيسية فى الاسلام » فى عام ١٦٦٥ ، وعاش من سنة ١٦٣٠ الى سنة ١٧١٠ ، ومن أعماله أنه قام بتعمير مقبرة جده الأكبر « سيدى الأجل » واليه ترجع النقوش المحفورة فى القبر المذكور ، وترجمها « فيسيير » فى تقارير بعثة « أولون » .

وأكبر أفراد هذه العائلة الآن هو « ماواشنج » إمام مسجد « ماشوشياى » بمدينة « يونانفو » .

وقد يرجع السبب فى أهمية شأن الاسلام فى مقاطعة « يونان » الى الطريقة التى دخل بها ، وانتشاره تحت حكم أسرة « ساى » ، ولم تحصل هجرة ذات بال من الخـارج منذ ذلك العهد . وأما الغالبية الساحقة التى هاجرت الى هذه المقاطعة ، فإنها جاءتها راحلة من داخل الأقاليم الشمالية ، دون أن يكون لهذه التنقلات أى أثر محسوس فى الجاليات الاسلامية فى السواحل الخارجية .

استدراك

جاء فى السطر الأول من صفحة ٤٤٦ : أبو حنيفة . والصواب : أبا حنيفة .

"Do the unbelievers seek a religion other than Allah's and to Him had everyone is heavens and earth submitted in obedience or by force, and unto Him shall they return."

(*Baidawy's Commentary*).

If humanity is destined by Allah to come to a universal religion at one period of its history, this religion will be no other than Islam for The Lord saith:

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ،
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلاً عن البيضاوي

"We will shew the unbelievers Our signs in distant climes through the signal victories achieved by Islam, and through the wonders wrought in the creation of man till it becomes manifest unto them that the Koran is the truth. Doth it not suffice that thy Lord is witness over all things."

(*Baidawy's Commentary*).

---

(1) The Koran.

This was made the basis of belief so that Islam may be given a universal character from all stand-points and in this connection The Lord, saith:

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلاً عن البيضاوي

"Say ye believers: We believe in Allah and that which hath been sent down to us (1), and that which hath been sent down to Abraham and Ismael and Isaac and Jacob and his offspring, and that which was given to Moses and Jesus and that which was given to the Prophets from their Lord. We make no distinction between any of them and to Allah we are resigned."

(Baidawy's Commentary).

No one could deny in face of this explanation that the religious code proclaimed by Islam is the highest imaginable, calling to one Faith and the universal brotherhood of man.

It is inconceivable that a man who lived in a corner of the earth far away from civilisation and such universal ideals, and in a time in which the idea of the unification of religions never passed in a mortal's mind, should think alone in this matter when he had yet to achieve the unification of the tribes among which he was born. And if it were possible at all that such an idea could have passed in his mind, he would certainly have failed to devise such a perfect system which reaches this high standard of perfection.

There could be no doubt that this is a great and miraculous phenomenon which will gain for Islam the position at which it aims ie. to become the religion of humanity.

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلاً عن البيضاوي

diposed. No one could change the creation of Allah. This is the right Fa but the greater part of men know it not."

(*Baidawy's Commentary*).

The Creator, be praised, explains that religion is just a streak of divine nature inborn in human souls provided that this nature remains unimpaired by teachings which force it to change its natural course. This pure and untainted nature which is free from passion, illusion or imitation, is nothing but Islam itself.

Yet this situation requires a certain element to direct it in the right way. Men differ in natural instincts and hereditary traits. They may include the staid and the hasty, the foresighted and the imprudent, the resolute and irresolute, etc. It was therefore imperative to set up an arbitrator whose judgment will be binding on all, and no one but a vain and bigoted caviller would take exception thereto. This arbitrator is reason; and since it is the basis of accountability and the umpire of right and wrong, it should be in such a position as to disharge satisfactorily this all-important function.

For this reason The Lord, be praised, has urged to the perfection of the human mind through the meditation of the signposts which He has set up in the universe to shed perfection thereon, and the beacons which He raised to light the way unto guidance and truth, so that it may gain strength and confidence in the judgment it pronounces and is not confused by falsehood in its variegated forms.

This combination of human nature mitigated by the influence of pure reason is the religious basis with which The Lord has sent the last of the Prophets to proclaim unto nations so that they may be unified in religions and beliefs inasmuch as they are united in humanity, nature and intellect.

Bacon who had established the scientific system over three centuries ago, had succeeded in the unification of science all over the world by founding it on observation and experiment as well as on analysis and composition, and by excluding conjecture and hypothesis from its subject matter. And if Bacon has merited the admiration of the world for this great achievement, Islam rightly deserves the greatest honour imaginable for the revelation of that religious system which contributed to the unity of distant people on whose lands the sun never sets. The whole of humanity will some day come to it when Moslems will be able to proclaim it unto the world and when Allah wills this great reform to be accomplished on earth.

Since Islam aims at the unification of nations in a new era of humanity, we find its doctrines are based on this universal principle. It enjoined its followers to believe in all the messangers of God, to make no distinction between them and believe in the dispensations they were sent with.

Should this explanation be given to anyone, it will find ready acceptance in his mind inasmuch as it lends peace and security to his heart and soul. For how could it be that God would reveal various religions differing in their doctrinal principles to nations who are potentially and intellectually similar whereas truth is one and the laws of nature are unchangeable !

Where then does the responsibility of this criminal difference rest if not with the heads of religions?

Is it conceivable that universal knowledge should be one and the same everywhere and that its fundamental principles in any part of the world should be the same as in all other parts while religion should have different phases which contradict and impair one another?

Two things have ensured indefinite continuation and immortality to Islam: one is human nature and the other is the influence of pure reason. Men are the same in so far as the essential requisites of human nature are concerned. Whatever man's nature deems good or bad, all men deem the same, unless parents or teachers deliberately introduce corruption into this nature. It is a fundamental condition of Islam that this nature should remain pure and free of all taints which are apt to change its course.

As to the influence of pure reason, there could be no power on earth to rob man of it. It is a ray of God's Light, a breath of His Divine Wisdom.

For centuries, the heads of anterior religions have endeavoured to destroy it and have chastised by fire and steel, whomsoever sought its aid. But the Lord has lent it His support and rendered it victorious over all the evil forces which were marshalled against it. From this conflict, it has emerged pure and unsullied and to-day it is the final arbiter of right and wrong throughout the whole world.

Islam has fully depended on these two natural things even as an edifice rests on its main pillars, and in this connection the following Koranic verse is significant:

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلاً عن البيضاوي

"Wherefore set thou thy face towards the true Faith deviating not therefrom: the law of Allah to which men are created and are naturally

the Judgment Day, verily the matter would have been decided by the destruction of the gainsayers.

They who have inherited the Scriptures after them are in perplexing doubt concerning it. Wherefore summon thou them unto the true Faith and go thou straight on as thou hast been bidden and follow not their vain desires and say: I believe in all the Scriptures which The Lord hath sent down, and I am commanded to establish justice among you: Allah is our Lord and your Lord, the Creator and Sustainer of all: Unto us will our deeds be imputed and we will be recompensed thereon, and unto you will your deeds be imputed and you will be recompensed thereon.

Let there be no strife between us and you; for Allah will bring us together on Resurrection Day and unto Him is the final judgment."

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »

ترجمة تفسير الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily the true Religion with Allah is Islam and none other is acceptable unto Him; and those who were given the Scriptures (1) differed not concerning it until after the knowledge of its truth and authenticity had come unto them, out of mutual jealousy and the desire for supremacy; and whomsoever believeth not in the signs of Allah, verily Allah is prompt in reckoning with him!

If they dispute with thee in religion, say: I have faithfully given myself unto Allah, as have they who followed me: And say unto them who received the Scriptures, and unto the ignorant who have no knowledge thereof: Do ye give yourselves unto Allah even as I have done now that its truth has been established? If they embrace Islam, then they are rightly guided and are benefited thereby; but if they turn away, verily thy task is only preaching that which hath been revealed unto you; and Allah is regardful of His servants."

(*Baidawy's Commentary*).

---

(1) Jesus and Christians.

Noah and continued to reveal to all Prophets after him. If men however, find religions to differ in those principles, it is because of the corruption and distortion effected by the heads of those religions and the arbitrary and misguided interpretations which they gave thereto out of spite and mutual jealousy.

It was with this pure and unadulterated Faith that the Lord had eventually sent His Prophet Mohammad unto the world so that men may unite on a universal basis to enjoy the blessings of unity and turn in their entirety in an endeavour to attain the perfection promised to humanity.

The Lord's saying fully bears this out:

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ، وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ
عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، ٱللهُ
رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، ٱللهُ يَجْمَعُ
بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ »

ترجمة تفسير الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah hath ordained to you the religion which He commanded unto Noah, and which We revealed to thee and which We commanded unto Abraham, Moses and Jesus: Observe this religion by true belief and obedience, and divide not into sects concerning it. The worship of one God to which thou callest them is untolerable unto the unbelievers. Allah will choose to that Faith whomsoever He pleaseth, and will guide thereunto whomsoever shall turn unto Him.

Nor were the past generations divided among themselves, out of spite and mutual jealousy, till after the knowledge of the true Faith had come to them; and had not a decree from thy Lord gone forth respiting them unto

used as incentives to carry the strife to its furthermost limit. This went on till means of communication and intercourse between races were facilitated and the need was felt to exchange products and utilities.

A new consciousness, hitherto unknown to the world, was born among nations necessitating the establishment of some relation between them which provides for co-operation in life in order to satisfy their mutual needs in their commonest and most simple forms. World trade was thus established and proved to be a means of understanding which contributed in it turns to tranquility and peace. A new era in the history of nations was inaugurated bringing nations more and more together and paving the way for the greatest epoch of humanity, the epoch of uniting mankind on a universal basis and rendering them mutual friends who strive together throughout the stages of life making every effort for the perfection of human knowledge and attainments.

This consciousness was born a mere idea in the world. It passed through some minds hardly taking root therein, yet growing stronger day by day until the advent of Mohammad the last of the Prophets (Peace be on him).

It was in that period that the Creator had seen fit to render the mere idea into an accomplished fact. He ordained Islam for mankind and bade it spread into the furthermost corner of the earth, inaugurating thereby a final era which humanity never before contemplated. Individual nations have been taught that all religions were false save the particular religion they followed. Whence then could the desired unity come to bind them all in one religion?

This was an intellectual impossibility Some philosophers imagined this unity to be attainable only through the abandonment of all religions! But could that be conceivable among nations in whose blood ran the love of religion and to whom it was dearer than life itself!

How then did Islam solve this all-important problem within the bounds of reason and nature of things?

How did it justify itself in the minds of men to such an extent that all that was needed to convince and win an adversary of Islam was just to give him a clear and lucid exposition thereof?

Indeed this is a miracle of Islam, the Faith that proclaims to be the last of divine dispensations, the universal religion of humanity in all its entirety which will eventually become the common Faith of mankind once its signs are revealed in far-off climes and manifested in human souls.

Islam has proclaimed that, in its doctrinal principles, it is not a new religion; but it is the first Faith which the Lord had revealed unto

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD (1)



I.

Humanity is steadily progressing towards perfection and despite the existent strife between human communities and their seeming desire to overturn and destroy one another, they are in reality subordinated to certain forces which vigorously stir them up in order to bring out the best of those noble traits inherent in human nature.

Nations may rise and others may fall, communities may flourish and others may go, the earth may quake under the very feet of society so much so that the onlooker would feign the world to be heading towards sure and inevitable destruction. The truth however, is that its components parts are undergoing a reaction, even as that which chemicals undergo, to produce a new compound embodying all the distinctive qualities of those parts, and to discharge a new function which none prior to it could have discharged, thus forming a prelude to further material and moral developments which follow one another and act conjointly for the fulfilment of the Lord's promise on earth.

For ages men lived in divided and contending communities differing widely in principles and doctrines. The human mind was shrouded in the vestiges of early primitiveness and those contentions and differences were weilded as strong factors to widen the human schism, while religions were

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy 's editorial in "Nour-El-Islam" Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ٤ —

دعوته الى وحدة العقيدة الدينية من جهة أن أصل الأديان واحد

من المسائل الانسانية الكبرى التى تجعل للاسلام أثرا خالدا مستمرا ، وحقاً تاريخياً ثابتا فى الاتصال بالشعوب المختلفة ، ما أتى به من الدعوة الى الوحدة الدينية من ناحية أن أصل الأديان واحد ، وإنما تعددت الأديان وتخالفت بسبب ما أدخل على الدين الأول من الزيادة والنقص والتحريف .

هـذه الدعوة كانت تعتبر — لو خطرت فى ذهن رجل من الأقدمين — من المحالات العقلية ، بسبب الاختلافات الكلية التى كان يراها بين الأديان ، ولا تزال تعتبر فى نظر المشتغلين بالشئون الاجتماعية ممن لا يعرفون الاسلام ، من الأمانى البعيدة التحقق ، بسبب ما اختلطت به الأديان من الشئون القومية ، والتقاليد الجنسية ، فجعلوا جهدهم موجّها الى عزلها جميعا عن مجال المعاملات المادية ، والى إبطال تأثيرها فى تكييف المجتمعات ، حتى يتم للانسانية ما تعمل للوصول اليه من السلام العام ، والتعارف المتبادل ، دون أن يقف فى طريقها مانع من أى نوع كان .

ولـكن لو تأمل هؤلاء المشتغلون بالشئون الانسانية فى القواعد التى بنى عليها الاسلام هـذه الدعوة ، وفى الحقائق التاريخية التى استند اليها ، لرأوا أنها أسرع فعلا فى جمع الأمم من كل الوسائل التى يستخدمونها لذلك . وقد ظهر تأثير أسلوبه هـذا فى جمع الأمم لأول عهده ، رغما عما كان للفوارق القومية بين الأمم من السلطان المطلق على عقولها ، فما ظنك اليوم وقد رقّت حواشى هذه الفوارق فى نظر الشعوب الى حد أنها تعتبرها وهمية محضة ، وذلك بسبب ما انتشر بينها من التعاليم الفلسفية ، وما ذاع

فيها من الآراء العلمية . فالرجوع اليوم الى أسلوب الاسلام فى جمعها من الناحية الدينية يكون له أضعاف ما كان له من قوة التأثير فى الشعوب الطفلة البعيدة عن كل ثقافة عقلية .

هنا يمكن أن يتصدى لنا معترض فيقول : إن الأمم المتمدنة اليوم لا ترفع بالأمور الدينية رأسا ، حتى إذا فرضنا أنها استجابت لدعوة الاسلام واتبعت دينا واحدا ، فأمامها المسائل الاقتصادية قد تطغى عليها فتحملها على مقاتلة بعضها بعضا ، فأىّ أثر يكون لدعوتنا إياها الى توحيد الدين وهى على ما هى عليه من التأثر بالعوامل الاجتماعية ؟ .

نقول : نعم ، ولكن ألا يرى المعترض علينا أن هذه الأمم قد أدركت أن الحروب أصبحت وسيلة ممقوتة ، وأنها تضعف المقهورين والقاهرين على السواء ، وخاصة بعد أن توشجت مصالحها فى النواحى الاقتصادية توشجاً أصبح ما يضر بعضها من الاضطراب يضر بعضها الآخر ، فجعلت تتحسس من وسائل فعالة لحذف هذه الأداة ؟ فاذا أضفت الى هذه الجهود التى تبذل فى كل مكان بثّ فكرة وحدة الدين بينها ، ألا يعود هذا بالخير عليها وعلى العالم أجمع ، ويقوّى عوامل توحيد الأمم ، ويجعلها تتغلب على عوامل التفريق التى لم تبق ولم تذر ؟

ثم ألا يعود من هذه الدعوة فائدة لا يمكن تقديرها على الشرق الإسلامى حين يعرف بوجه عام أنه صاحب أكبر وأرفع دعوة وجهت الى البشر ؟

فلننظر الآن فى القواعد التى قلنا إن الإسلام بنى عليها دعوته فى توحيد العقيدة الدينية ، وفى الحقائق التاريخية التى استند اليها لجعل تلك الدعوة سائغة فى العقول ، تصل منها الى مواطن الاقتناع ، وتصبح فى نظرها من البدهيات التى لا يجوز التردد فيها ، فنقول :

(١) قرر الاسلام أن دين الله واحد فى جميع العصور ، وأنه أوحاه الى أول رسول أرسله للبشر ، ثم وَالىَ إنزاله على المرسلين فى فترات من تاريخ الأمم ، تجديدا لما طَمَس من معالمه ، وبيانا لما غَمَض من أصوله ، وتصحيحا لما حُرِّف من آدابه . قال تعالى :

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) .

(٢) وأن الدين وَضْع إلهى غرزه الله فى صميم الفطرة البشرية ، لا تشذ عنه نفس إنسانية ، وأنه بهذا الاعتبار أصبح فى حكم جميع الغرائز الجبلّية التى لا يختلف فيها اثنان من الناس ، فقال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) . وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ) . المراد بتفريق الدين الخلاف فى أصوله لا فى فروعه .

(٣) وأنه نصب العقل الكامل علماً للاستهداء به فى كل خلاف تحت نور الوحى الإلهى .

(٤) وأن منشأ كل خلاف يشق عصا الناس فى أمر الدين ، ويوجب عليهم التفرق ، هو : إرادة البغى ، وإهمال العقل ، والتقليد الأعمى ، فقال تعالى : (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) وقال : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ) وقال : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ) .

(٥) وأن الإسلام الذى أوحاه الله الى خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هو ذلك الدين الأول ، أرسله الله به على فترة من الرسل الى الناس كافة ، ليبلغهم هذه الحقائق ، ويرفع من بينهم الخلافات التى قضت عليهم بها أهواؤهم ، وليست من مقتضيات العقل ، ولا من حقائق العلم فى شىء ، فقال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) . وقال تعالى : (أَفَغَيْرَ

دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ).

ولأجل أن يجعل الله لهـذه الوحدة الدينية الاعتبار الأعلى فى الأذهان جعل آية الإيمـان مشتملة عليها فى عبارة تفصيلية لا يتسرب اليها أى تأويل، فقال تعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ).

فهذه القواعد التى أبانت أن أصل الأديان واحـد، يقبلها العقل بمجرد التأمل فيها، لأنها من بداهاته الأولية. فأما أن أصول دين الله كانت واحدة فى جميع العصور فأمر لا يسيغ العقل الـكامل سواه، لأن الحـق لا يتعدد. وأما أنه وضع إلهى فى مستوى الغرائز الفطرية، فأمر لا يمكن التردد فيه، لأن النفوس مفطورة على طلب الحق والخضوع له، والإذعان لحـكمه، ما دام يهديها اليه نور العقل السليم. وأما أن منشأ الخلافات فى الأصول التى تفرق الشعوب هو إرادة البغى، وإغفال حكم العقل، والتقليد الأعمى لما كان عليه الأسلاف، فحقيقة لا يمكن إنـكارها، والتاريخ أصدق شاهد على صحتها.

فإذا تجرد الإنسان من هذه النقائص كلها، وترك للعقل الصحيح الحـكم فى إدراك الدين الحق، أفضى به ذلك الى الاسلام لا محالة. وأخذ الناس بهذه القواعد فى العصر الحاضر أصبح من أيسر الأمور، فإن انتشار العـلم فى طبقات الناس، وكثرة مايصادفونه فى مطالعاتهم من وجوب الاستقلال فى الفـكر والنظر، وتـكون الأحكام

الخاصة الخ ، قد مهد الطريق لهذه القواعد الاسلامية ، وإنما المدار على تقديمها للناس فى أسلوب جدير بجلالتها ، وبيان خليق بقيمتها .

فلاجرم قد أصبح الإسلام — وقد نآزر هو والعقل السليم ، والعلم المحقق البعيد عن الظنون والأوهام — ليس بينه وبين الدولة المنتظرة له إلا تنظيم الدعوة اليه ، وبيان أصوله العالمية للناس بكل لغة ، فلا تقوى على صدّ تياره بعد ذلك أكبر قوة فى الأرض .

نعم : إن العقائد الدينية المنتشرة بين الأمم قد اختلطت بكيانها القومى ، فأصبحت عنصرا من عناصرها ، حتى إنك لترى كثيرا من الأمم مع اعتقادها بطلان أديانها تتمسك بها إبقاء على قومياتها ، ولكن مبدأ القومية أخذ ينحلّ بما تنفثه الحوادث فى روع الأمم من روح التقرب بينها ، واعتقاد أن سلامتها جميعا تتوقف على التعارف الذى قد يفضى بها الى العيش كأمة عالمية واحدة . أضف الى هذا أن الأزمات الاقتصادية التى تولدها المنافسات التجارية شرعت توحى للأمم ضرورة إقامة نظام عالمى عام للإنتاج الزراعى والصناعى ، حتى لا يكون أثرُ المنافسات إيقاعَ العالم كله فى فاقة قد تدفع بشعوبه الى التناحر على طريقة أسلافهم الأولين ، وهذه الطريقة لم تصبح ممقوتة فحسب ، ولكنها أصبحت أيضا مهلكة ، لأن العلاقات الاقتصادية بين الشعوب على النحو الذى اقتضاه نظام المعاملات الحديث ، تتأثر تأثرا يضيع على الغالب ثمرات انتصاره الذى يكون قد حصله ، بخسائر فى الأرواح قد تفوق خسائر الشعب المغلوب نفسه . ألا ترى أن الأمم أجمع قد أصبحت سواسية فى الضيق الاقتصادى ، لا فرق بين قاهرها ومقهورها ؟ .

كل هذه الاعتبارات تدفع الأمم اليوم للبحث عن وسائل للحياة العامة تناسب هذه الأطوار الحديثة ، وتوافق التهذيب النفسى الذى أوجده العلم من كل وجه ، ولا تدفع بالجماعات البشرية الى مآزق جديدة قد تقذف بها الى عهد البربرية الأولى .

فكل حامل مبدأ من مبادئ توحيد الكلمة اليوم إنما يحمل الى الإنسانية المعذبة علاجا جديدا لرأب صدوعها ، ولأم جراحها ، وتُتلقى دعوته بارتياح عام ، وإن كانت

العقائد المختلفة قد أصبحت عنصرا من عناصر القوميات ، لأن تلك القوميات نفسها قـد زُلزلت زلزالا شديدا ، وأصبحت الجماعات كلها بحاجة الى تجـديد بنائها على نظام يلائم حياتها الراهنة والمستقبلة . ألا ترى اليوم أن شعوبا من ديانات ونحل مختلفة قد عقدت بينها محالفات دفاعية هجومية ، وهو أمر كان لا يتأتى حدوثه الى القرن الماضى ، وقد هاج الفرنسيون على ملـكهم فرانسوا الأول لاستنصاره بالأتراك على حرب خصمهم (شرلـكان) أمبراطور المانيا والنمسا فى القرن السادس عشر ، مع أنه كاد يحتل دولتهم ؟ فالاغضاء عن هذه الاعتبارات اليوم يعتبر تطورا جديدا فى العلاقات الدولية بين الأمم ذوات الأديان المختلفة ، ويدل على تداعى الحوائل التى كانت تفرق بينها ، وهذا كله تمهيد للعهد الذهبى الذى يدعو الاسلام اليه مجموع الأمم .

على أن فى قيام المسلمين بدعوة الأمم الى اتباع دين واحد على الأسلوب القرآنى الذى يستهوى العقول من ناحيتيه المنطقية والعلمية ، يلفت النـاس بشدة الى دراسة الاسلام دراسة جدية لا تؤدى اليها أية دعوة من نوع آخر .

فإن كل من يبلغه من الأمم أن الإسلام يدعو الى وحدة العقيدة الدينية مبينا أن أصل الأديان واحد ، وأن الأديان ما وصلت الى هذا المدى البعيد من الخلاف إلا بتحريف قادتها لها بغيا بينهم ، وأن الإسلام نفسه هو ذلك الأصل الأقدم يُقَدَّم اليها غير مُحَرَّف ، فلذا كل من يبلغه ذلك من الأمم يتولد فى نفسها باعث قوى لدراسته ، ليعرف أين هو من الدعوى الضخمة . فإذا فعلتْ ذلك تجـلّى لها من أصوله ما يأخذ بقلوبها وألبابها معا ، وتبين لها أنه هو الوضع الإلهى الذى يصلح للأمم كافة فى عهد بلغ فيه العـلم والفلسفة رشدهما ، وفى كل عهد بعده حتى تقوم الساعة (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى ٱلآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) ؟

محمد فريد وجدى



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

هذه أحوال تتصل بالمعاشرة التى بُيّن من أحكامها ما بين فى الآى السابقة ، وهى مما تختلف فيها الأنظار ، وتتباين فيها الآراء ، يتحرج عنها بعض الناس ويستسيغها آخرون ، ويرى كل فريق فيها رأيا بحسب ما يوافق مشربه ، وما يتمكن فى نفسه من خلق ، فيحسبه حكم الله الذى لا محيد عنه .

جاءت الآيات الشريفة توضح أن هذه الأحوال ليس لها فى نظر الشارع الحكيم ما يجعل أحد جانبيها محتوما لازما ، بل هى تدور مع ما تستريح اليه أنفسكم ، وما يوافق المألوف ومحاسن العادات .

فنها حالات الضعفاء وذوى العاهات ممن أصيب بعمى أو عرج أو مرض . كانوا هم يتحرجون عن مؤاكلة الأصحاء ، لأن الأعمى قد يبدو منه ما يتقزز منه البصير ، فقد تطيش يده على غير هدى فينفر منه من يجالسه فى الطعام ، أو قد يتوهم هو ذلك فلا تستقر نفسه للمخالطة فى الطعام . والأعرج قد تضطره حالته الى جاسة ربما تضايق منها غيره ، أوحسب هو ذلك . والمريض عادة دقيق الشعور ، شديد الإحساس والمراقبة لمن معه : هل تأذى منه أحد ؟ فكانت الطوائف الثلاث تتحاشى أن تؤاكل من منّ الله عليه بالسلامة . وكان كذلك الأصحاء : منهم من يتحرج عن مخالطة أولئك الطوائف فى الطعام ، مراعين فى الأعمى أنه لا يرى الطعام الجيد الذى قد تشتهيه نفسه ويستحي أن يطلبه ، فقد تمتد اليه يد غيره دون أن يشعر برغبته . والأعرج لا يتمكن من الجلوس المستريح بسهولة ، فلا يملك راحته مع غيره . والمريض لا يتأتى له أن ينال بغيته كما يتأتى للسليم ، فكانوا تجنبا لهذه المظان يفردونهم بطعام ، ليأخذوا راحتهم ، ويملكوا غرضهم .

وأيضا : كان من عادة الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله إذا خرجوا للغزو وتخلف الضعفاء من عُمى أو عرج أومرضى ، أباحوا لهم أن يأكلوا من بيوتهم فى حال غيبتهم ، فكان هؤلاء الضعفاء يتحرجون عن ذلك .

كل ذلك قد روى فى سبب نزول الآية ، ولا مانع من حصول الجميع ، إذ لا تعارض بينها ، وهى عادات يصح أن تحصل عند طوائف من الناس ، فجاءت الآية لحل هذا الحرج ، وتوسيع الأمر فى مخالطة الناس بعضهم بعضا ، متى حسنت النية ، وطهرت الطوية . وعلى ذلك يكون المعنى : ليس على الأعمى ومن فى حكمه حرج فى أن يؤاكل السليم المعافى ، فليس من شأن النفوس المهذبة أن تعنى بتتبع مثل هذه الشئون الصغيرة ، وليس أمر الطعام من العظم بحيث يحتاط فيه كل هذا الاحتياط . كيف والمؤمنون إخوة ينبغى أن يكون ديدنهم الإيثار لا الأثرة ، ويجمل بهم

أن ينظروا الى الطعام نظرهم الى وسيلة غير مقصودة إلا لحفظ الحياة ، فمن حقهم أن يكونوا ممن يأكل ليعيش ، لا ممن يعيش ليأكل ، فقد قال جل شأنه : (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) وينتظر منهم أن يطمئن بعضهم الى بعض . ويثق بعضهم ببعض ، ويعلموا أن ما يعنى أحدهم يعنى الآخر ، وما يسرّه يسره ، وعلى هذا البيان تجد المعنى : ليس على أولئك الطوائف حرج فى أن يأكلوا مع الأصحاء ، وليس عليهم حرج فى أن يأكلوا من بيوت غيرهم حيث أباحوا لهم ذلك فى غيبتهم ، ولا على من يؤاكلهم حرج فى أن يجتمع معهم فى مائدة واحدة . والمعنى الجامع : ليس فى شأن هؤلاء حرج يتقى ، لا عليهم ولا على من يخالطهم ، فالأمر أوسع مما تتوهمون ، والحرج إنما هو فيما يمس مهمات الشئون . ومعنى الحرج فى اللغة : الضيق ، وهو فى لسان الشرع بمعنى الإثم .

أما قوله تعالى : (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) الخ ، فإنه كذلك توسعة على الناس فيما تمس اليه الحاجة عادة ، بل تستدعيه الصلات الحسنة ولو بدون حاجة . وقد عدد مواضع رفع الحرج عن الأكل فى الآية ، وهى أحد عشر ، تشترك كلها فى استكمال أواصر القرابة أو المودة أو المعاونة . والمواضع ظاهرة المعنى ، إلا أن فى الموضع الأول سؤالاً ، وهو : ما فائدة التنصيص على إباحة أكل المرء من بيته وهو ظاهر غنى عن الإيضاح والتشريع ؟ وقد قالوا فى توجيهه : إن المعنى من بيوت أولادكم . وجعل بيوت أولادهم بيوتاً لهم ، لأنهم أقرب الطوائف اتصالا بهم ، وقد ورد : أطيب ما يأكل الرجل من كسبه . وولده من كسبه . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنت ومالك لأبيك » ويشهد لهذا المعنى أن الآية لم يذكر فيها بيوت الأولاد مع أنهم أقرب الى الوالدين من الطوائف المذكورة . ويصح أن يكون ذكر بيوتهم لإظهار أن ما سيذكر بعده من البيوت هو بمثابة بيت المرء نفسه فى هذا الحكم ، فكأنه يقال : ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوت آبائكم ومن ذكر معهم ، كما ليس عليكم

جناح فى أن تأ كلوا من بيوتكم ،وهوقريب مما قيل فى قوله تعالى:(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) إن المعنى : لا يستأخرون أصلا ، كما أنهم لا يستقدمون إذا جاء أجلهم، فإن الاستقدام وقد جاء الأجل محال، فجعل مثله الاستئخار.

هذا وليعلم أن نفى الحرج فى الأكل من هذه البيوت إنما هو فيما إذا علم أو ظن أن ذلك موضع رضا منهم ، كما هو الشأن الغالب ، وكما هو المنتظر منهم أن يكونوا عليه . فاذا غلب على الظن أن بعض هؤلاء تمكن منه الشح أو الاحتياج الى حيث يتأذى من أكل طعامه ، لم يحل ذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » فالآية محمولة على ما هو الغالب من طيب نفس الأقارب والأصدقاء ، بل سرورهم لتناول أقاربهم طعامهم ولو بغير استئذان منهم ، بل قد يسوءهم ذلك الاستئذان . وإنك لترى من الناس من يقصد إلى تناول طعام غيره فى حال غيبته ليدخل السرور عليه ، وليعلمه أنه من الثقة به والطمأنينة اليه وخالص المودة معه بحيث يتبسط فى ملكه ، ويطلب الطعام من خادمه بدون حضوره . وكم ترى من حالات تفتتح بها المحبة بين الناس ، وتتأكد مودتهم بحالة من هذا ؟ فكم يسرك أن تدخل بيتك فيقال : حضر فلان هنا وطلب الطعام أو القهوة بنفسه ، فيتضاعف له الشكر منك ، وتهتز لذلك ارتياحا ، وقد يقتلع بذلك كثيرا من وساوس تكاد تطفىء مصباح المودة بينكما . بل تجد الصديق يقابل صديقه فيقول : لقد زرتك وطلبت التحية بنفسى ، يمتن عليه بهذا ، فيجد من الارتياح ما يكون نعم الجواب . روى أن الحسن البصرى دخل بيته فوجد حلقة من أصدقائه فيه قد أخرجوا طعاما طيبا وانكبوا عليه يأكلون ، فتهلل سرورا وبشرا وقال : هكذا وجدناهم . أى أكابر الصحابة الذين أدركهم . ويحكى أن أحد الصالحين قدم الى بيته فأخبرته جاريته أن فلانا — وكان صديقه — قدم هنا فقدمت له طعاما وأكل ، فسر لذلك وقال : إن صدقت فأنت حرة .

ليس الأمر واقفا عند حد الأكل والشرب ، ولكنه يبسط ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون فى أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتوادهم وتعاطفهم . وإنما ضرب الأكل مثلا لأنه أكثر ما تظهر فيه هذه الأخلاق ، بل أكثر ما يجعل عنوانا لصفاء النفوس وكمال الصلة ، ثم هو من الحاجيات التى تتكرر كل يوم لكل إنسان .

وأما قوله تعالى : (أو ماملكتم مفاتحه) فذلك فى شأن وكيل الرجل فى ضيعته القيم على إدارتها ، أو رعى حاشيته أو نحو ذلك : لا حرج عليه أن يتناول من ثمرها ، أو يشرب من لبنها ما اعتيد مثله ، لا أن ينقل أو يدخر . وذلك أن النفوس عادة تطيب بمثله . فإذا علم أن صاحبها لا تطيب نفسه بذلك وجب أن يمتنع ، على ما مر من قوله عليه السلام : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » .

والمفاتح : جمع مِفتح . وجمع المفتاح مفاتيح . ولما كان محل هذا الحكم هو الأكل بغير إذن ، لأن الأكل بإذن لا يخص هذه الطوائف ، كان ذلك دليلا على جواز الدخول فى هذه البيوت بغير إذن ، مع مراعاة أحكام الآية السابقة فى الدخول وأوقاته . ولذلك كانت تلك البيوت لا تعتبر حرزا فى السرقة ، فاستنبط منها بعض الفقهاء عدم الحد فى السرقة منها ، وسقوط الحد يكفى فيه الشبهة ، وإلا فالحرمة متحققة ، ووجوب الرد كذلك .

أما قوله تعالى : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) فإنه كذلك إباحة للكيفيات المتعددة التى تختلف الأنظار فى تفضيل بعضها على بعض ، فقد كان أناس يتحرجون عن أكل طعامهم وحدهم ، وينتظرون أن يحضرهم من يشاركهم فيه من ضيف أو ابن سبيل يؤاكله ، وقد يمكث أحدهم يومه ينتظر ورود من يشاركه فى طعامه ، وكان هذا من العادات الموروثة عند العرب يُتمدح بها ، ويُوصى على التزامها ، قال شاعرهم :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له   أكيلاً فإنى لست آكله وحدى

وقد جاء فى الحديث الشريف « شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده » ومعنى الرفد : العطاء . والحديث ذم لمن اعتاد ذلك والتزمه ، بخلاً أن يشاركه أحد فى طعامه . ونفى الجناح فى الآية محمول على الحصول اتفاقا بلا تعمد اختفاء عن المشاركين .

وكان أناس يعمدون الى أكل كل منهم بانفراده ، حتى لا يحصل من أحدهم مايتقزز به غيره ، أو لا تمتد يده الى ما اتجه اليه بصر غيره . وكان أناس إذا نزل بهم ضيف رأوا ألا يأكلوا إلا معه ، وقد يكون لأحدهم مصالح تدعوه لتعجيل أو تأخير ، فربما أوقعه ذلك فى الحرج ، فنزلت الآية الكريمة لنفى الجناح فى ذلك ، وأباحت كل كيفية ليس فيها إضرار بأحد أو منع رفد . وهذا لنفى الجناح فى الكيفية التى بها يتناول الطعام ، كما أن أول الآية لإباحة أصل التناول من طعام الغير . ولعلك تجد فى التعبير بنفى الحرج فى الأول حيث كان المتوهم التضييق على المكلف فى تناول طعام غيره ، وفى نفى الجناح فى الثانى حيث كان المقام مقام تردد بين كيفيات كل يميل الى كيفية ، لعلك تجد فى هذا التعبير من الجمال والدقة ما هو جدير بالاعتبار .

أما قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » فهو بيان للأدب الذى ينبغى أن يراعى فى حال دخول تلك البيوت التى أذن الله بدخولها ، فكأن الآية تشير الى أن هذا الإذن ليس معناه الاقتحام مع إغفال الآداب وحقوق المؤانسة ، بل ينبغى أن تبدءوا دخولكم بالسلام على أهل تلك البيوت ، فهم منكم وأنتم منهم ، فما أحقكم بتبادل التحايا بعضكم مع بعض ، فسلموا عليهم ، فهم فى المودة ولحمة القرابة بمنزلة أنفسكم ، فكأنكم تسلمون على أنفسكم .

وكأن فى هذا إشارة الى السر فى إباحة تناول الطعام من هذه البيوت ، أى فإن من فيها بمثابة أنفسكم ، فكأن الواحد منكم قد أكل فى بيته . وقد قيل فى توجيه قوله :

«فسلموا على أنفسكم» : إنه لما كان المسلّم عليه يردّ التحية بمثلها أو أحسن منها، فكأن المسلم سلم على نفسه باستجابة السلام عليها .

وقوله : «تحية من عند الله» أصل التحية مأخوذة من قولهم : حياك الله، فكأنها طلب الحياة، أو طلب صفوها وسعادتها وكمالها . وتعورف فى كل تحية بأى لفظ وأى دعاء ولو كانت بغير لفظ الحياة . ومعنى أنها من عند الله : أنها تحية عظيمة بعظم من طلبت منه ، أو تحية مشروعة من عند الله ثابتة بأمره وإرشاده . والمباركة أى المحتوية على زيادة الخير للمحيا والثواب للمحيي ، وطيبة أى تطيب بها نفس من تحيونه بها ويستريح اليها .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى على هذا النحو جرت عادة الحق جل جلاله فيما يبين لكم من آيات تملأ حكمها قلوبكم ، وتشمل رحمتها حياتكم ، وإذا تأملتم فيها وعقلتم ما احتوت من منافع وهدى ، رأيتموها من أجلّ نعم الله عليكم ، ومما يستوجب عظيم شكركم ، فهو يجلوها على هذا الوجه البيّن لعلكم تعقلونها ، فيزداد تمسككم بها ، وشكركم لله من أجلها ؟ ابراهيم الجبالى

ذم البخل والبخيل

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : الشحيح أعذر من الظالم فقال : لعن الله الشحيح ولعن الظالم .

وقال بعض الحكماء : البخل جلباب المسكنة . وقال : البخيل ليس له خليل .

وقال بعض البلغاء : البخيل حارس نعمته ، وخازن ورثته .

وقال بعض الشعراء :

إذا كنت جماعا لما لك ممسكا ... فانت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموما الى غير حامد ... فيأكله عفوا وأنت دفين

حديث الغرانيق

ورد من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد عبد الحميد قاضى مديرية دارفور سؤال يتلخص فيما يأتى :

إن مما ندين الله عليه تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به ، وأنه من عند الله (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ) .

وقد جاء فى بعض الكتب أن سبب نزول قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ) أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغ فى قراءة سورة النجم قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ) ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى .

فكيف يتفق جريان مثل هذا على لسانه صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى : (وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) ومع اعتقادنا بالعصمة ، وأنه النبى المعصوم ، وهو المقتدى به فى أقواله وأفعاله ؟

وقد بعثنا الى فضيلته جوابا مفصلا تلخيصه فيما يأتى :

الجواب

الذى نعتقده ويجب أن يعتقده كل مسلم أن هذه القصة باطلة موضوعة ، فإن المسألة من أصول العقائد التى لا تكفى فيها أخبار الآحاد ، بل هى من القطعيات لا من الظنيات ، وإن البرهان العقلى لقائم على كذبها . ولنسق لك شيئا مما قاله أئمة النقل والعقل فى المسألة :

قال البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . وقال القاضى عياض فى الشفاء : يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل .

وفى البحر لأبى حيان أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية، فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف فى ذلك كتابا. وقال الشيخ أبو منصور الماتريدى: الصواب أن قوله « تلك الغرانيق العلى » من جملة إيحاء الشيطان الى أوليائه من الزنادقة، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين الشبه ليرتابوا فى صحة الدين، وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية، ويلزم على هذه الرواية أمور كثيرة كل منها باطل وغير معقول:

١ — منها تسلط الشيطان عليه صلى الله عليه وسلم، وهو صلى الله عليه وسلم بالإجماع معصوم من الشيطان، ولا سيما فى مثل هذا من أمور الوحى والتبليغ والاعتقاد، وقد قال سبحانه وتعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وقال تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فإذا كان ذلك فى عباد الله المخلصين، فكيف بسيد الخلق أجمعين؟.

٢ — ومنها زيادته صلى الله عليه وسلم فى القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم لمكان العصمة.

٣ — ومنها اعتقاد النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه متناقضا مع ماذكر معه من الآيات غاية التناقض، فإنه ذم الأصنام بما لا مزيد عليه فى هذه السورة، فقال: (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) وقال فى حق عابديها: (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ) الى غير ذلك. فكيف يقال إنهم فرحوا بمدح أصنامهم، وسجدوا معه فى آخر السورة؟ وكيف ينسب ذلك التناقض الشنيع والخطأ الفظيع له صلى الله عليه وسلم!

٤ — ومنها أنه إما أن يكون معتقدا ما فهموه من مدح آلهتهم ، وهو محال عليه صلى الله عليه وسلم ، أو غير معتقد ، فيكون مقراً لهم على الباطل ، بل على الكفر .

٥ — ومنها كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه الملك ، وهو يقتضى أنه صلى الله عليه وسلم على غير بصيرة فيما يوحى اليه .

٦ — ومنها أن هذا يوجب جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبسا على النبى ، ولا يصح ذلك كما أوضحه القاضى عياض فى الشفاء . وقال أبو بكر بن العربى : تصور الشيطان فى صورة الملك ملبسا على النبى ، كتصوره فى صورة النبى ملبسا على الخلق ، وتسليط الله له على ذلك كتسليطه فى هذا ، فكيف يسوغ فى لب سليم استجازة ذلك !

والحاصل أن حديث الغرانيق مخالف للقواطع ، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعنى قوله تعالى : (وما أرسلنا الخ) لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة . وسنسمعك شيئا فى ذلك . وكون الشيطان ألقى ذلك على لسان بعض الرواة أقرب فى العقل من كونه ألقاه على لسان النبى صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك كله يلزم على ما ذكروه أن يكون للشيطان تسلط على وحى كل رسول وكل نبى زيادة على تسليطه على القرآن العزيز ، لقوله تعالى : «من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » فإن الآية تقتضى على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه جميعا ، إذ الضمير فى « تمنى » يعود الى ما قبله من الرسول العام ، إذ هو نكرة واقعة فى سياق النفى ، وقد اقترنت بمن الاستغراقية ، وهى حينئذ تكون نصاً فى العموم .

ولا نزال نكرر أن العصمة من العقائد التى يطلب فيها اليقين ، فالحديث الذى يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أى وجه جاء . وقد قدمنا لك أن الأصوليين عدوا الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الخبر الذى يجب أن يقطع بكذبه .

وقد علم ما للناس فى ابن أبى صالح كاتب الليث وأن المحققين على تضعيفه ، ولا نطيل فى ذلك ، ويكفينا قول البيهقى وأمثاله من أئمة الحديث فضلا عن تلك الحجج العقلية .
وأما قول من قال إنه تكلم بذلك ساهيا أو ناعسا ، فيرده ما قرروه فى علم النفس من أن الإنسان لا يتكلم حال عدم الشعور إلا بما يكون مستقرا فى نفسه ، منتقشا فى قلبه مستوليا على لبه ، فيظهر حينئذ على لسانه من غير قصد ولا روية . وهل يمكن أحدا أن يقول إن مدح الأصنام كان فى نفسه صلى الله عليه وسلم حتى يظهر على لسانه ساهيا أو ناعسا ؟ اللهم إن ذلك غير معقول ولا مقبول !

تفسير الآية على سبيل الإجمال :

المراد من الآية على سبيل الاختصار أن الله تعالى ما أرسل رسولا من الرسل ولا بعث نبيا من الأنبياء الى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ، ويحبه لهم ، ويرغب فيه ، ويحرص عليه كل الحرص ، ويعالجهم عليه أشد المعالجة ، وفى جملتهم نبينا صلى الله عليه وسلم الذى قال له الرب سبحانه وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) وقال تعالى : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وقال : (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) الى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى . ثم الأمة تختلف كما قال تعالى : (وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) فأما من كفر فقد ألقى الشيطان فى نفسه الوساوس القادحة فى الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضا لا يخلو من وساوس ، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب ، وإن كانت تختلف فى الناس بالشدة والضعف ، والقلة والكثرة ، فمعنى تمنى : أنه يتمنى الإيمان لأمته ، ويحب لهم الخير والرشد ، والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبى ، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك

من قلوبهم ، ويُحْكِم فيهم الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويُبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به . فتحصّل من هذا أن الوساوس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معا ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين .

وصفوة القول : أن التفسير الصحيح لهذه الآية هو الذى يجمع بين أمور ثلاثة : العموم الذى فى أولها ، والتعليل الذى فى آخرها من قوله تعالى : (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) (وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) ، مع كونه يعطى للرسالة حقها . وقد سمعت القول الفصل فى ذلك ، وليس يخفى عليك ما سواه ، والله يتولى هدانا جميعا بمنّه وكرمه ؟ يوسف الدجوى

فضيلة الحلم والتجاوز

روى أن رجلا أكثر يوما من سب الأحنف بن قيس ، فلم يجبه بشىء ، فقال الرجل : والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه !

وفى هذا المعنى يقول بعض الشعراء :

نجا بك لؤمك منجى الذباب حمته مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة كلاما مقذعا ، فأعرض عنه . فقال له الرجل : إياك أعنى . فأجابه ابن هبيرة : وعنك أعرض !

وفى مثل هذا الرجل يقول الشاعر :

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن على :

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب وما عييت

وقال بعض الحكماء : احتمال السفيه خير من التحلى بصورته ، والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته .

شهادة كبار الفلاسفة والمؤرخين

للنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم

ألمّ المؤرخ الانجليزى المشهور المستر (بو سوورث سميث) بتاريخ خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابه (محمد والدين المحمدى) فأظهر إنصافا يستحق أن يسجل له ، قال فى عرض كلامه عنه :

« وكما كان محمد رئيسا للدولة كان رئيسا للدين أيضا ، أى أنه كان قيصرا وبابا فى شخص واحد ، ولكنه كان بابا فى غير مزاعم البابا ، وقيصراً دون أن يكون له جيوش قيصر . فاذا حق لإنسان أن يقول عن نفسه إنه يحكم بحق إلهى فقد كان ذلك الإنسان محمداً ، إذ كان حاصلا على كل سلطان الحكم لا من طريق وسائله العادية ، ولا بمقوماته المعروفة .

« كان محمد فى وقت واحد مؤسسا لأمة ، ومقيما لأمبراطورية ، وبانيا لدين . وهو وإن كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا ، وأخلاقا عامة ، وكتبا مقدسة فى كتاب واحد ، وهو كتاب يقدسه الى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى ، لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلالة الحق ، كان يقول عنه محمد إنه معجزته الخالدة . حقا إنه لمعجزة .

« ثم إذا نظرنا الى ظروف الأحوال ، والى ما كان لمحمد من الاحترام الفائق الوصف عند أتباعه ، وقارنّاه بآباء الكنيسة وبقديسى القرون الوسطى ، فإن أدعى شىء للدهش فى محمد أنه لم يدع قط القدرة الذاتية على إحداث المعجزات . نعم كان يفعل ما يقول ، وكان أتباعه يرونه يقوم بتحقيق كل ما يقول ، أفتريد بعد هذا برهانا قاطعا على صحة صدقه وإخلاصه ؟

« لم يحرص محمد الى آخر حياته على شىء إلا على ذلك اللقب الذى تلقب به من أول

أمره ، وهو لقب اعتقد بأنه سيأتى يوم ترضى فيه أرقى فلسفة ، وأخلص مسيحية أن تسلم له به ، وهذا اللقب هو أنه رسول ، رسول لله حقا » انتهى .

نقول : لقد وفق المستر (بوسوورث سميث) الى الصواب كله فيما ذكره عن خاتم النبين محمد صلى الله عليه وسلم ، وأكثر ما أعجبنا به من عبارته قوله : إنه يعتقد بأنه سيأتى يوم تسلم فيه أرقى فلسفة وأخلص مسيحية بأن محمدا كان رسول الله حقا .

نعم : وكيف يعقل غير ذلك وكل ما فى حال النبى صلى الله عليه وسلم يوجب التسليم له بالنبوة ؟ قال المؤرخ والفيلسوف الانجليزى المشهور (كارلايل) عند ذكره للنبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه (الأبطال وديانة الأبطال) ما مؤداه : أرأيت إن ادعى لك رجل بأنه بناء ، أكنت تطالب اليه دليلا على صدقه أكثر من أن يبنى لك شيئا يوجب عليك التسليم له بهذا الوصف ؟ فما ظنك لو شيد لك بناء يسع مائتى مليون من النسمات ، ويبقى ما بناه سليما من العطب قرونا كثيرة ؟ فهذا محمد قد أعلن الناس أنه نبى ، وأتى لهم بدين دخل فيه نحو مائتى مليون منهم ، وبقى الى عهدنا هذا قوى الدعائم ركين الأركان ، وأهله أشد تمسكا وحبا له من أهل أى دين كان لدينهم ، أتضن عليه بوصف النبوة وقد أقام على صدق قوله هذا البرهان ؟

نقول نحن : هذا دليل محسوس يرضى به الفيلسوف المؤرخ الكبير وكبار العقول من العلماء ، ولكن قد لا يرضى به صغار العقول من الذين يتخيلون أن الصفات الذميمة من التدليس والتزوير قد توصل الى النجاح الكبير ، وتقوم مقام الصفات النفسية العليا من الصدق وتقديس الحق ، بل منهم من يتوهم أن تلك أفعل فى تحصيل الصيت البعيد والفوز العظيم من هذه . فمع هؤلاء يعجز التعليل ، ولا يجدى الدليل ، لا لضعف فيهما ، ولا لقصور منهما ، ولكن لجهل أولئك الخابطين ، وعمايتهم عن حقائق الشئون .

لا ننكر أنه قد يبلغ المجدَ الكاذب رجل يعتمد على خسيس المحاولات استغلالا لجهل الناس أو ضعف أخلاقهم ، ولكن ذلك لا يخفى على أغبى رجل من معاصريه ،

فيعلم أنه ما وصل الى ما وصل اليه إلا من طريق الخداع والملق والتلبيس ، فإذا مات تولاه التاريخ فكشف من حاله ما كان مستترا ، ونقده نقد الصيرف للدينار الزائف ، وبطل عمله كما يبطل كل ما لم يبن على أساس صحيح . فإن كان يخلط عملا سيئا بآخر صالحا فرق التاريخ بين سيئه وصالحه ، كما يفرق المحك بين الذهب الخالص وما شابهُ من الخبث الدخيل ، وعيّن النِسب المضبوطة لكل منهما . ولولا ذلك لكان أمر الناس فوضى ، وشأنهم مرتبكا مشوشا ، ولما كان للأعمال قسطاس مستقيم ، ولما ألهم الناس مدح الفضائل وذم الرذائل منذ أن برأ الله الخلق الى اليوم .

إن الخبط بين الحق والباطل ، والصالح والطالح ، مستحيل فى الأمور الطبيعية البحتة ، فلا يمكن أن تصادف فيها شيئا لا يجرى منها على قانون ثابت ، ونظام حكيم ، أفيعقل أن يكون ذلك جائزا فى الأمور المعنوية كالآداب الفاضلة والأخلاق الذميمة وهى أوضح عند الناس وأولى بأن تنال إجماعهم عليها .

وإذا كان هـذا مصير الباطل فى حياة الأفراد ، وذاك حاله من علم المعاصرين ونقدة التاريخ ، فما ظنك به فيما يختص بحياة الجماعات التى عرف بوجه خاص أن شئونها مرتبطة بنواميس مقررة ، ونظم ثابتة ، ابتنى عليها علم هو أرفع جميع العلوم ، وهو علم الاجتماع البشرى . فهل مما يعقل والحالة هذه أن يقوم فى جماعة منها مدلس فيجمع شتيتها ، ويوحد كلمتها ، ويقوّم وجهتها ، ويعين غايتها ، ويأتى لها بقانون حكيم يضمن حياتها ، ويقيم أودها ، ويكفل سلامتها ، ويقود تطوراتها ، ويحيى عواطف الصلاح والاستقامة فى نفوسها ، ويملؤها روحا وقوة وثابة تدفعها للنهوض المادى والأدبى على حال يحصّل لها زعامة العالم وخلافة الله فى الأرض ؟

هذا أمر يوجب الدهش ، فكيف يَعقل من لديه مَسكة من عقل أن نفسا مريضة منحلة كنفس مدلس كذاب تكون مصدرا لحياة أمة برمتها ، فتنقلها من الظلمات الى النور ، وتدفعها فى طريق الحياة الصحيحة حتى تبلغ بها الى زعامة العالم ، وهى درجة لا تنال

اعتباطا، ولكنها تتوقف على علم وعمل، وفضائل خلقية ونفسية، وعلى ذخر معنوى تستمد منه الأمة فى كل طور من أطوارها قوة على مكافحة المعضلات، ومقاومة المحللات من كل ضرب ؟

إن نشوء الأمة الاسلامية وقيامها وانتشارها فى الأرض، واضطلاعها بالخلافة الالهية فى العالم كله، وتأسيسها لدولة بلغت من سعة الملك وقوة السلطان الى مالم تبلغ إليه أمة قبلها ولابعدها، قد دوى فى العالم دويا لايزال صداه يرن فى الآذان الى اليوم، وقد تغيرت له خريطة العالم كله، وقامت به أمم وسقطت أمم، وماتت به لغات وحييت لغات، أفيعقل أن تكون عوامل هذا الحادث الجلل الذى لم تر الأرض ما يشبهه مرتكزة على أساس من الكذب والزور والتدليس، ودعامة من الختل والخديعة والتلبيس!

اللهم إن هذا محال! ويدل التأمل المجرد عن الهوى فى هذا الأمر أن محمدا كان نبيا حقا وخاتم المرسلين، وأن أرقى فلسفة وأخلص مسيحية كما يقول المستر (بوسوورث سميث) ستسلم له بذلك كل التسليم، صلى الله عليه وسلم صلاة وتسليما يكونان إزاء مقامه المحمود، وفضله المشهود ؟ محمد فريد وجدى

آداب الكلام

روى أن أعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطال، فقال له النبى: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال الأعرابى: شفتاى وأسنانى. فقال له: فان الله عز وجل يكره الانبعاث فى الكلام، فنضر الله وجه امرىء أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته.

وقال بعض الحكماء: كلام المرء بيان فضله، وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل.

وقال غيره: الحصر خير من الهذر، لأن الحصر يضعف الحجة، والهذر يتلف المحجة.

فضل الاخوّة والالفة وشروط الصحبة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) . وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً) رواه مسلم .

المسك : طيب معروف ، وهو من أطيب الطيب . والكير : المنفاخ الذى تضرم به النار . ومعنى يحذيك : يعطيك . وتبتاع : أى تشترى .

المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . والألفة : عقد روحى بين الناس ، يؤلف بين قلوبهم ، ويوفق بين مصالحهم ، ويكمل توادهم . معين على مرافق الحياة ، مساعد على الصدق فى تبادل المنافع ، يُشعر كلاً من المتآلفين بأن مصلحته مرتبطة بمصلحة أخيه ، فيسعى فيها ويساعد عليها كما يسعى فى مصلحة نفسه . وأبلغ ما يشرح فائدتها تشبيهها بالتساند فى البنيان يشد بعضه بعضا ، كما جاء فى الحديث الذى يشرح حال المؤمن مع المؤمن ، أو بأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، كما جاء فى الحديث الآخر ، وكلاهما يشرح الأخوّة التى دلّت عليها الآية الكريمة (إنما المؤمنون إِخْوَة) .

فبهذا كانت الأخوة والألفة نعمة من الله أنعم بها على عباده ، كما جاء فى قوله تعالى : (وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ولقد أشار الى عظيم المنة فيها فى آية أخرى، بإسنادها الى ذاته، وتجريدها عن مدخلية غيره، فى قوله عز من قائل : (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . وكل شئون الحياة تعطى حكما بيّنا لا خفاء فيه : أن المرء بحاجة الى إخوانه ومعاونيه ، لا يكاد يستغنى فى أمر عن الاستعانة بهم . وقد قالوا : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه .

وأكبر مظاهر الأخوة والألفة ارتياح النفس للنفس ، وميل الطبع الى الطبع حتى تمتزج الغرائز، وما أرقها وأسرعها الى الامتزاج ! فترى الإلفين يسرى الى كل منهما من طبع صاحبه حتى يصيرا كالطبع الواحد، فينشأ منهما مزاج وسط جامع لخواصهما جميعا ، وقد تتمكن صفة وخاصية فى أحدهما فتسرى بكل خصائصها الى الآخر بدون أن تأخذ منه شيئا ، والتجارب شاهد عدل .

وإنه لمما يقوى تأثير أحد الطبعين فى الآخر وتغلبه عليه ، أن يساعده ميل النفوس الى الهوى ، والهوى يقظان لا يغفل ، بينما داعى العقل والهدى تدركه السِّنة والنوم والغفلة ، فكان الخوف من فساد الطبع السليم أشدّ بالاختلاط بالطبع السقيم من الأمل فى صلاح المريض بمخالطة السليم، وقد قالوا : يمرض السليم بعدوى المرض ولا يبرأ المريض بعدوى السلامة . اللهم إلا إذا أسعده الحظ ، وخالط طبيبا معالجا، وناصحا أمينا وهاديا حكيما ، فقد يرجى له السلامة على يديه، والانتفاع بنصحه وتذكيره ، والذكرى تنفع المؤمنين . وإن تأثير المريض فى السليم من باب الانحدار والهدم والعدوى ، وتأثير السليم فى المريض من باب الارتقاء والبناء والعلاج ، والفرق بينهما مما لا يكاد يجهله أحد .

هذا الذى نذكره هو أكثر ما يجرى بين الناس ، لأن الغالب فى الطباع المرونة والاستعداد للانتقال تبعا للتزيين والاستحسان . وقد يكون من النفوس ما استقر

على حالة من خير أوشر ، فيتعاصى عن التغير والتبدل ، ولذلك قال بعضهم : «الناس أربعة : اثنان قد تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، واثنان أنت منهما على تجربة ، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، فصالح بين فساق وفاسق بين صلحة ، فلو كان للصلاح الى نفس هذا أو للفساد الى نفس ذاك من سبيل ، لكان فى بيئته ومخالطته ما يكفى لتبديل حاله ؛ وأما اللذان أنت منهما على تجربة ، فصالح بين صلحة وفاسق بين فسقة ، فلعل أحدهما لو كان فى غير بيئته لكان حاله غير ما تراه » .

بَيد أن الأمن على الطباع أن تسوء وتتغير لا يقطع دابر المفاسد التى يجرها الاختلاط بالسيئين والأشرار ، فقد تكون مضارهم فى توجيه شرورهم اليه إذ لم يكن شريكا لهم فى الشر . وكم ذا ترى من حرص الأشرار على حمل خلطائهم أن يشاركوهم فى مفاسدهم وشرورهم ، فإذا يئسوا منهم دبّروا لهم من الكيد وألحقوابهم من الأذى ما لا قبل لهم باحتماله . ولعل حرص الأشرار على تعميم شرورهم ودعوتهم الغير الى التأسى بهم أكثر من حرص بعض الأخيار على تعميم الدعاية لهدايتهم . بل لو أمنّا هذه الناحية وكان المخالط لهم من القوة والمكانة بحيث يعتصم منهم ، لكفاه التضرر برؤية الشرور ، والتأذى بمشاهدة المفاسد ، وهذا هو ما يشير الحديث اليه بقوله : « أو تجد منه ريحا خبيثة » فإن لم يتأذ بمشاهدة تلك الشرور والمفاسد فقد مرنت نفسه عليها ، فليبك على نفسه ، وليعلم أنه اطمأن اليها ، إذ ضعف أوزال تأذيه بها ، وهذا باب الخسارة ، ويوشك أن يألفها ويستحسنها ، ثم يقارفها وينغمس فيها . وللشيطان مسالك لا يتنبه لها المرء إلا إذا أخذ حيطته من بعيد . ولذلك قالوا : إن المكروه حِمًى ، من قارفه وانغمس فيه انحدر منه الى الحرام ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

لا إخالك بعد هذا إلا مقتنعا بأن الوحدة خير من جليس السوء ، وممتلئا بعقيدة أن جليس السوء كنافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة ، فإحراق الثياب ، بالمشاركة وسريان الطباع ، أو بنزول آثار الشربه . والريح الخبيث ما تجده من الاشمئزاز لمشاهدة السيئات .

أين هذا من الجليس الصالح؟ فأنت بين أن تقتدى به وتهتدى بسيرته، وبين أن تغتبط بمشاهدة الآثار الصالحة والآداب الكريمة تتحلى بها النفوس الطيبة الطاهرة، وإن لمشاهدة ذلك اللذة يشعر بها من لديه شعور، ولم تتحجر نفسه الى درجة الفجور والعراقة فى الإجرام، حتى إن من يلم بالمعاصى، ويأتى فى بعض حالاته شيئا من المنكرات، تجده يَهش لرؤية آثار الخير تبدو على نفوس الأصفياء الطاهرين، فإما أن يهتدى بهم، وهو أبلغ منفعة تصل من الأخ لأخيه، وإما أن يناله قسط من حسن المعاشرة، وهو المرتبة الثانية. وقد أشير إليهما بالتشبيه بأن تبتاع منه، أو يحذيك أى يمنحك. والثالثة وهى مرتبة أن تسر لرؤية آثار الخير ولو من الغير نحو الغير — بالتشبيه بأن تجد منه ريحا طيبة.

أفلا ترى مع هـذا البيان صدق قولهم: الجليس الصالح خير من الوحدة؟ نعم: تكون الوحدة خيرا من جليس السوء إذا لم يكن المرء ممن ينتظر منهم النفع والتأثير، وإلا فمن كان بهذه المثابة ينبغى أن ينزل نفسه منزلة الطبيب يباشر المرضى لعلاجهم، ويتعهدهم لإصلاح شأنهم، فإذا أفلح فقد دخل فى مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» وإنْ فشل فلم يخسر شيئا من جزائه عند ربه على ما أبلى وجاهد فى صلاح قومه وعشيرته، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

نسأله جل شأنه أن يجعل الهداية رائدنا، وحسن النية قائدنا، والفوز بالسعادة غايتنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟ ابراهيم الجبالى

الصواب والهدر من الكلام

قال الهيثم بن صالح لابنه: يابنى إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب.

وقال أبو عثمان الجاحظ: للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا الى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر.

مذهب النشوء والارتقاء فى الميزان

اتضاح وهن أصوله وضعف أسانيده

لقد شَغلت عقولَ الفلاسفة منذ القدم مسألةُ ظهور المخلوقات وتنوعها من الناحية العلمية البحتة، فخبطوا فى حلها خبط عشواء، وتأدّوا الى آراء أشبه بأحاديث العجائز، واستمرت الحال على ذلك، وظهر الفيلسوف (لا مارك) الفرنسى فى القرن الثامن، فأتى بمذهب افتتن به كثير من العلماء، وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى اشتهر الأستاذ الانجليزى (شارل دارون) بمذهب جديد فى تعليل نشوء الأنواع، كان له دوىّ كبير، ولم يمض عليه أكثر من عشر سنين حتى عم القارّتين، وأصبح معول الذين يشتغلون بمثل هذه المسائل، وسرى هـذا المذهب الى الشرق فروّجه فيه كتّاب تطوعوا للدفاع عنه، موهمين قراءهم أنه الكلمة الأخيرة للعلم فى هذا الموضوع.

ولـكن رجال العلم فى أوروبا ما برحوا يوسعونه بحثا وتمحيصا، ويقلبونه على كل وجه، حتى اتضح لهم بفضل مكتشفات جديدة فى عالم الأحياء أنه كـكل المذاهب التى سبقته: لا يمثل الحقيقة فى شىء، وأن أصوله التى كان أشياعه يتيهون بها إعجابا ظهر أنها لا ترتكز على حقائق ثابتة.

ولما كانت هذه المباحث من الخطورة بمكان، رأينا أن نأتى فيها على ما كتبه عنها الأستاذ الدكتور (جوستاف جوليه) المدرس فى جامعة السوربون بفرنسا ملخّصا من كتابه (من لا شاعر الى شاعر) قال:

إن العقبات التى يرتطم بها مذهب النشوء والارتقاء يمكن حصرها فى خمس، وهى:

(أوّلاً) العوامل التى يقوم عليها هذا المذهب قد ظهر عجزها فى تعليل أصل الأنواع

(ثانياً) قد تبين عدم كفايتها لتعليل وجود الحشرات.

(ثالثاً) قد انكشف عدم غَنائها فى تفسير التحولات الفجائية المولدة لأنواع جديدة

(رابعاً) قد اتضح قصورها عن تعليل تولد طبائع الأنواع الجديدة وثبوتها نهائيا . وقد ثبت أنها متى تولدت فيها بسرعة تبقى ثابتة لا تتغير .

(خامساً) ثبت عجزها عن تفسير عوامل التطور الذى تدخل فيه الكائنات ، فتحولها من حالة ساذجة الى حالة مركبة ، وتدفعها من النقص الى الكمال .

فلنشرح كلاً من هذه الأمور الخمسة ، فنقول : ليس من الصعب أن نبين أن كلا المذهبين : مذهب دارون ومذهب لامارك ، لايستطيعان أن يفسرا لنا كيف تتولد الطبائع الخاصة بنوع جديد .

يقول دارون : إن أى تغير يطرؤ فى الصفات المميزة لنوع من الأنواع أو لأحد أفراده يعطى هذا النوع أو ذياك الفرد ميزة قيّمة تميزه عن غيره فى تنازع البقاء ، يجب أن تكون هذه الميزة ذات أثر ظاهر ليمكن أن يتفوق بها على سواه .

وبناء على هذا لا يعقل أن عضوا قريب عهد بالنشوء ، أو تغيرا فى أول أدواره ، يحدث اتفاقا [1] لكائن واحد أو لجماعة من الكائنات يمكن التفوق به وهو على تلك الحالة الساذجة .

هذا مما يمكن الاعتراض به فى هذا الموطن ، وهو أنه ليس من العلم ولا من الفلسفة فى شيء أن نجعل الاتفاق عاملا رئيسيا فى إيجاد التطور .

يقول دارون : إن العصفور نشأ من الزواحف . ولكننا لا نعقل أن صورة أولية من جناح تولدت بالاتفاق ، تكفى أن تعطى لأحد الزواحف أقل ميزة (أى يستطيع بها الطيران) كما لا يعقل أن ما تولد بالاتفاق يكون له صفة الثبوت بحيث يستطاع الاستفادة منه والانتقال بواسطته الى تكوين نوع جديد لم يكن موجودا من قبل . وليس مما يفهم أن يحدث عضو كالجناح بمحض تأثير الاتفاق .

---

(١) يشير المؤلف بكلمة اتفاقا إلى ما يزعمه من أن التغيرات التى تطرؤ على الانواع وتبعها إلى التطور تأتى من طريق الاتفاق لا من طريق تاثير البيئة كما ذهب إليه لامارك .

والانتخاب الطبيعى الذى هو أساس مذهب دارون لا يمكن أن يحدث بوساطته أعضاء تتولد على هذا الأساس الواهى من العماية والخبط .

فلننظر الآن فى مذهب لا مارك : إنه يدعى أن حدوث الأعضاء الجديدة التى تولد الأنواع الجديدة بين الكائنات يحصل بتأثير البيئة . أى أن الكائن الحى قد يشعر من تغير الأحوال عليه بضرورة حدوث عضو جديد له ، فينفعل للحصول على ذلك ، فيحدث فى آحاده يسيرا يسيرا ، كالظرافة ، فقد كانت فى زعمه كسائر الحيوانات ذات عنق قصيرة ، ولكنها لما احتاجت الى أكل أوراق الأشجار العالية ، صارت تنفعل لذلك وتشرئب لتنال الورق العالى ، فطالت عنقها يسيرا يسيرا حتى وصلت الى ما هى عليه الآن . فالحاجة هى التى تنشئ الأعضاء الجديدة عند لامارك لا الاتفاق ، كما هو عند دارون .

هذا المذهب إن أمكن به تعليل بعض الخلافات العضوية الثانوية ، فإنه يعجز كسابقه كل العجز عن تعليل التحولات الكبيرة فى عالمى النبات والحيوان ، لأن هذه التحولات تقتضى حدوث تغيرات ذريعة وسريعة ، لا بضع تغيرات تافهة وبطيئة . فهذه التغيرات التافهة البطيئة تزول بتوالى العوامل عليها أولاً فأولاً ، أو ترتكس الى زوائد ضارة .

إن التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ، ومن هذه الى الحياة الهوائية لا يمكن أبدا أن يعتبر من نتائج تأثير البيئة . فإن أسلاف هذه الأنواع التى اعتادت الحياة فى بيئاتها الخاصة لا يعقل أنها شعرت بالحاجة الى تغييرها ، ولو كانت شعرت بتلك الحاجة لما استطاعت أن تغير من شكل تركيبها الطبيعى .

فكيف يعقل أن الحيوان الزاحف الذى كان سلفا لطائر يتولد منه ، أمكنه أن يتناسب هو وبيئة لم تكن له ، ولم تصبح له إلا بعد أن تم تحوله طائرا ؟

ومثل هذا يقال فى تحول الأسماك من الحياة المائية الى الحياة الأرضية . والموطن

الذى تظهر فيه استحالة التحول بواسطة ناموس التلاؤم [1] استحالة صارخة هو موطن تطور الحشرات ، فإنه لا يوجد أية علاقة بيولوجية (أى حيوية) بين الحالة الدودية التى تكون عليها كل حشرة فى أول عهدها بالوجود ، وبين الحالة التى تكون عليها وهى حشرة تامة التركيب (أى طائرة أو زاحفة) فلم يتوصل أحد الى معرفة أسرار التطورات التى تدخل فيها الحشرة التى تعودت الحياة الدودية تحت الأرض أو فى لجج المياه ، فينشأ لها بالتدريج أجنحة تسبح بها فى الهواء ، وهى حياة كانت محجوبة عنها ، وليس لها أقل علم بها .

ومتى أدرك الإنسان أن هذه السلسلة الخفية من التطورات قد تحققت لا مرة واحدة من طريق المعجزة الطبيعية ، ولكن عددا من المرات ، بقدر ما يوجد من عدد الحشرات ذوات الأجنحة ، نقول : إذا أدرك الإنسان ذلك ، تيقن أن لا أمل له فى إدراك تعليق ظهور هذه الأنواع على العوامل اللاماركية ، ويرى عرض الحائط كذلك بالعوامل الداروينية .

وبناء على هذا فإن اللاماركية والداروينية تستويان فى العجز عن إعطائنا تفسيرا عاما لظهور الحشرات ينطبق عليها فى جميع الأحوال .

يزعم بعض اللاماركيين الجدد مثل الأستاذ (باولى) أن لعناصر الأجسام وللأجسام أنفسها بل وللنباتات والمعادن نوعا من الإدراك لذواتها ، وهذا الإدراك يقود جميع تطوراتها وملاءماتها ، فإنه ليشاهد فى سلسلة جميع درجات التطور جهد مستمر مقصود لتحقيق ملاءمة الكائنات عند انتقالها الى حالات جديدة .

(نبادر نحن هنا قبل إتمام كلام الأستاذ (جوستاف جوليه) الى إظهار ما فى قول الفيلسوف (باولى) من البعد عن التحقيق العلمى ، فإننا لسنا حيال تصيد افتراضات

(١) يريدون بناموس التلاؤم : القوى التى تدفع الكائن الحى إلى ملاءمة بيئة جديدة غير بيئته الأصلية . وبعضهم يسميها ناموس المطابقة .

أيا كانت لســد فراغ تعليلات مسألة ثانوية ، ولـكنا بصـدد مسألة علمية لا يصح ابتناؤها على الفرض والتخمين ، هى تفسير تنوع الأنواع بالملل الطبيعية البحتة ، فإن لم يُسَدّ الفراغ الذى فيها بمقررات يقينية أصبح بناؤها كله متداعيا للسقوط ، كما هى الحالة التى انتهت اليها اليوم . وإنا لنعجب من عالم كالأستاذ (باولى) يزعم — لأجل أن يرتق هذه الفتوق فى مذهب النشوء والارتقاء — أن لعناصر الأجسام وللأجسام أنفسها ، بل وللنباتات والمعادن نوعا من الإدراك لذواتها ، وهذا الإدراك هو الذى يقود تطوراتها . فاذا كان هذا الفرض يسوغ لرأب صدوع مذهب دارون رأبا سطحيا ، فهو لا يسوغ لإظهار هـذا المذهب بمظهر مذهب واجب الاحترام ، ما دام يستمد أصوله من عالم الخيالات والتصورات الشعرية) .

نعود الآن لنقل بقية ما قاله الأستاذ (جوستاف جوليه) قال :

أما الأستاذ (نابيجلى) فإنه أبعد مدى فى هـذا الموطن ، فقد زعم أن الأجسام تحتوى على نوعين من البلاسما أى من المادة الحية ، إحداها مغذية والأخرى منوعة . وهـذه تمتاز بميل باطنى الى التطور مستوف جميع القابليات للتحول والتكمل . وهذه القابليات هى من الخصائص الأصلية للحياة ، وقد انساقت للعمل من أول عهد وجود الـكائنات الحية ، أما العوامل الخارجية فلم تفدها إلا فى تيسير الملاءمات الجديدة عليها ، ولـكن هذه العوامل وحدها تعجز عن إحداث أى تطور فى تلك الـكائنات . انتهى

ونحن نقول : حقاً لقد أبعد الأستاذ (نابيجلى) فى المدى ، فقد قسم البلاسما الى نوعين بدون دليل ولا أثارة من عـلم ، ومنح أحدها خاصة مستوفية لجميع القابليات التحولية والتكملية دون أن يجرى على الأسلوب المقرر للبحث فى خصائص الأشياء من إقامة التجربة أو البرهان دليلا على ما يدعى ، فأصبحت مذاهب النشوء والارتقاء مجموعة افتراضات لا تقف أمام النقد . فإذا كان هذا كله هربا من القول بوجود قدرة إلهية مدبرة للـكائنات صغيرها وكبيرها ، ومهيمنة عليها ، يمكن الاستدلال عليها عقليا

وعلميا ، فقد لجأ الماديون الى افتراضات خيالية لا تقوى على أضعف نقد يوجه اليها . وما دامت المسألة مسألة افتراضات ، فقد تركوا الباب مفتوحا لما لا يحصى من أمثالها ، وبذلك تخرج مسألة النشوء والتطور من حظيرة الأمور العلمية ، الى باحة المسائل الخيالية ، وكفى بهذا مسقطا لسلطانها على العقول .

نعم : إن لجأ هؤلاء النقاد الى مثل هذه الافتراضات — يعنى هدم مذهبى لامارك وداروين من أساسيهما ، ولكننا نطمع منهم فى أكثر مما فعلوا — فإن وقوفهم عند حدود الافتراضات الخيالية لا يخرجهم من اللاماركية والداروينية فحسب ، ولكن من المجال العلمى نفسه ، فإن العلم يجب أن يبتنى على المشاهدة والتجربة كما يقول (باكون) واضع الدستور العلمى ، لا على أمثال هذه الخيالات .

ننظر فى المقالات الآتية فى بقية الوجوه التى سردها الأستاذ (جوستاف جوليه) فى دحض مذهب لامارك وداروين . محمد فريد وجدى

كلمات مأثورة فى العلم

قيل للمهلب : بم أدركت ما أدركت ؟ قال : بالعلم . قيل له : فان غيرك قد علم أكثر مما علمت ، ولم يدرك ما أدركت . قال : ذلك علم حمل ، وهذا علم استعمل .

وقال سهل بن هرون وهو عند المامون : من أصناف العلم مالا ينبغى للمسلمين أن ينظروا فيه . وقد يرغب عن بعض العلم ، كما يرغب عن بعض الحلال .

فقال له المأمون : قد يسمى بعض الناس الشىء علما وليس بعلم ، فان كان هذا أردت فوجهه الذى ذكرت . ولو قلت أيضا إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصوله ، ولا تنضبط أجزاؤه ، صدقت . فان كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم فالأهم ، والأوكد فالأوكد ، وبالفرض قبل النفل ، يكن ذلك عدلا قصدا ، ومذهبا جميلا

وقد قال بعض الحكماء : لست أطلب العلم طمعا فى غايته ، والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع جهله . فهذا وجه لما ذكرت .

نقض شبه القاديانية

- ٢ -

ينكر داعية القاديانية أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ويذهب الى أن (خاتم النبيين) فى الآية بمعنى أفضل النبيين أو زينتهم ، وأورد فى الاستدلال على أن لفظ خاتم يستعمل بمعنى أفضل أو زينة ، حديثا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس رضى الله عنه : « أنت خاتم المهاجرين فى الهجرة ، وأنا خاتم النبيين فى النبوة » .

وهذا الاستدلال مدفوع بأن الذى ورد فى كتاب أسد الغابة : أن العباس استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فقال له : « يا عم أقم مكانك الذى أنت به ، فإن الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة » وقرأنا فى كتاب الإصابة أن العباس « هاجر قبل الفتح بقليل » وقرأنا فى غزوة الفتح من سيرة ابن هشام أن العباس رضى الله عنه لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق : لقيه بالجحفة مهاجرا بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض .

فصاحب كتاب الإصابة يقول عن العباس رضى الله عنه : إنه هاجر قبل الفتح بقليل ، وابن هشام يقول : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة مهاجراً بعياله . فمتى ثبت حديث « أنت خاتم المهاجرين » صح أن يكون العباس خاتم المهاجرين بمعنى آخرهم ، أى آخر المهاجرين من مكة الى المدينة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح » وداعية القاديانية لم يأت بشاهد على أن بعض المسلمين قد هاجر بعد العباس ، حتى يمتنع أن يكون خاتم المهاجرين بمعنى آخرهم .

وأورد داعية القاديانية على تفسير خاتم بأفضل أو زينة حديثا عزاه الى « كتاب الصافى » الذى هو تفسير لأحد علماء الشيعة ، وهو « أنا خاتم النبيين وأنت يا على خاتم الأولياء » ولكن صاحب كتاب الصافى لم يروه بسند ، ولم يسنده الى كتاب ، حتى

نبحث فى سنده ونتبين حقيقته ، بل قال فى تفسير قوله تعالى (وخاتم النبيين) : « آخرهم الذى ختمهم أو ختموا به على اختلاف القراءتين ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا خاتم النبيين وعلىّ خاتم الأولياء » .

فصاحب كتاب الصافى معترف بأن النبى صلى الله عليه وسلم آخر النبيين ، ولا يتم الاستشهاد بقوله «خاتم الأولياء» إلا أن يذكر سند الحديث ، ويكون رجاله ممن يوثق بهم فى الرواية ، أو يسنده الى كتاب من الكتب المعروفة بالتحرى فى رواية الحديث . ومن الأحاديث الموافقة لهذا الحديث فى المعنى وقد حكم عليها الحفاظ بالوضع حديث « كما أنى خاتم النبيين كذلك على وذريته يختمون الأوصياء الى يوم الدين [1] » وقال ابن الجوزى : ولفظ «خاتم الأولياء» باطل لا أصل له ، وخاتم الأولياء فى الحقيقة آخر مؤمن بقى من الناس ، وليس هو أحسن الأولياء ولا أفضلهم ، بل خيرهم أبو بكر وعمر [2] (رضى الله عنهما) .

سقنا أحاديث صحيحة كثيرة فى معنى انقطاع النبوة بعد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فذهب ذلك الداعية يحرفها عن مواضعها ، ويقول فيها قول من لا يقدر الحديث النبوى قدره ، ولا يبالى أن يخرج بالكلام العربى عن وجوه دلالاته ، وقد أريناكم فيما سلف نموذجا من تأويلهم الباطل لبعض تلك الأحاديث ، واليوم نسوق الى حضراتكم مثالا تشهدون فيه كيف يعتسفون فى غير طريق ، ويحاولون إرضاء شهواتهم ولو بأقبح التأويل :

أوردنا فى جملة ما أوردنا من الأحاديث ما جاء فى سنن الترمذى ، من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى » فشقّ ذلك على الناس ، فقال : « ولكن المبشرات » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » .

---

(١) انظر اللآلى المصنوعة (٢) تذكرة الموضوعات .

وهذا الحديث صريح فى انقطاع النبوة بعد البعثة المحمدية ، ولكن الداعية القاديانى حاول صرف هذا النص عن معناه ، وذهب فى تأويله والخروج على حجته مذهب التعنت ، حتى زعم أنه معارض لبعض آيات القرآن الكريم ، فقال : « إن القرآن المجيد يقرر نزول الملائكة على المؤمنين وتبشيرهم إياهم بنصرتهم فى الدنيا والآخرة ، وذلك قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) ويقول فى مقام آخر : إن الملائكة وجبريل أيضا تنزل كل ليلة قدر (لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) وكلام الملائكة مع البشر وحى فى اصطلاح القرآن المجيد (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) فإذا ثبت وجود الوحى من حيث القرآن المجيد ، فلا بد من تأويل فى معنى الحديث » .

وليس فى هاتين الآيتين ما يعارض الحديث ، أما الآية الأولى فتفسيرها عند بعض السلف على أنّ تنزّل الملائكة وقولهم للذين استقاموا : « ألا تخافوا ولا تحزنوا » يكون عند الموت ، وهذا ما يقوله مجاهد والسدى ، ومنهم من يقول : إن الآية إخبار عما يكون عند البعث ، وهو قول مقاتل ، ومنهم من يقول : إنها إخبار عما يكون عند الموت وفى القبر ، وهذا قول زيد بن أسلم . وذهب آخرون فى تفسيرها الى أن الملائكة تمدّ صدور المؤمنين بما يشرحها ويدفع عنها الخوف ، على طريقة الإلهام ، كما أن الشياطين تغوى الكافرين بتزيين القبائح ، وتوسوس لهم بما يثير فى قلوبهم الخوف والحزن ، قال تعالى : (وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ) وقال تعالى : (ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْفَحْشَاءِ) وقال تعالى : (وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) فليس بين حديث الترمذى وآية

(إن الذين قالوا ربنا الله) تعارضٌ أو ما يشبه التعارض ، إلا في نفوس باضت فيها الأهواء وفرخت ، ولم يكن للحكمة ولا للموعظة الحسنة عليها من سلطان .

ولو صح هـذا الذى يقوله داعية القاديانية فى تفسير الآية ، لوجب أن يكون كل مؤمن مستقيم ، نبياً يوحى إليه ، ولا أقوى إيمانا من الخلفاء الراشدين ، ولا أقوم منهم سيرة ، وما ادّعى أحد منهم أنه نبى أو رسول ، أو أنه تأتيه الملائكة بالوحى ، وما كان أحد من المسلمين يصفهم بالنبوة أو الرسالة ، أفيزعم داعية القاديانية أنهم لم يقولوا : ربنا الله ولم يستقيموا ! أو أنهم لم يبلغوا فى الاستقامة مبلغ غلام أحمد الذى أوغل فى الضـلالة ، وأثار فتنة صادفت بعض الناس غفلة أو جهالة ، فكانوا لنارها حطبا !

وأما آية (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) فليس فيها ما يدل على أن الملائكة يخاطبون المؤمنين على طريق الوحى الذى هو من خصائص الأنبياء عليهم السلام . وأئمة التفسير من السلف والخلف يقطعون بكذب دعوى النبوة بعد البعثة المحمدية ، ولا يجدون فى هذه الآية ما يعارض الأحاديث الواردة فى انقطاع النبوة . ومن الوجوه التى تساعدها البلاغة ، وتطابق بها الآية سائر النصوص ، أن يكون تنزل الملائكة من أجل الأمور التى عهد إليهم بتدبيرها (فالمدّبرات أمراً) فإن حُمل الأمر فى الآية على معنى الحكم الشرعى ، كانت إخبارا عن تنزلهم ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن الحكيم . والتعبير بالمضارع لاستحضار ذلك التنزل بصورته البديعة ، وهو من أحسن الطرق المعهودة فى البيان .

وزعم الداعية القاديانى أن حديث الترمذى « إن النبوة والرسالة قد انقطعت » يعارض الحديث الذى يقول : إن المسيح الموعود « يوحى اليه أن حوز عبادى الى الطور ، فإنى قد أنزلت عبادا لى لا يَدان لأحد بقتالهم »

وردت أحاديث صحيحة فى نزول المسيح عليه السلام ، ولم يجد أهل العلم بينها وبين

الأحاديث الصريحة فى انقطاع النبوة معارضة ، والراسخون فى فهم الأحاديث النبوية العارفون بوجوه استعمال الألفاظ العربية فى حدود وضعها ، وعرف البلغاء من الناطقين بها يقولون : إن الأحاديث الواردة فى انقطاع النبوة تنفى وقوع نبوة بعد البعثة المحمدية ، ولا تتناول عيسى عليه السلام ، لأن النبوة ثابتة له من قبل . ومن هؤلاء من يحمل الأحاديث على امتناع بعثة نبى بعد البعثة المحمدية على وجه عام ، ويستثنى من هذا العموم عيسى عليه السلام للأحاديث الواردة فى نزوله آخر الزمان . ومن حمل النصوص الواردة فى انقطاع النبوة على نفى النبوة التشريعية كالملاّ على قارى ، لا يقصد فتح باب النبوة غير التشريعية بإطلاق ، حتى توضع دعوى غلام أحمد النبوةَ موضع النظر واحتمال أن تكون صحيحة ، وإنما يقصد لوجه فى تفسير الآية أو الحديث يتفق به مع الأحاديث الواردة فى نزول عيسى عليه السلام .

فعلماء الإسلام على اختلافهم فى تفسير الآية والأحاديث يتفقون على أن لا نبى ولا رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا ما ورد من نزول عيسى عليه السلام .

وقد يأتى داعية القاديانية الى عبارات بعض من ذهبوا فى تفسير الآية أو الأحاديث الى معنى نفى النبوة التشريعية ابتغاء الجمع بينها وبين الأحاديث الأخرى ، ويأخذ منها ما يقولونه من أن الآية أو الحديث فى نفى النبوة التشريعية ، ويدَع بقية كلامهم الصريح فى أنهم ارتكبوا هذا التأويل لقصد خاص : هو أن لا تكون آية (وخاتم النبيين) وما يوافقها من الأحاديث نافية بمقتضى عمومها مجىء عيسى عليه السلام ، وقد نبهنا فى مقال سابق على هذا النوع من التزوير فى كلام نقله عن الشيخ عبد القادر الكردستانى .

واليك مثالا آخر من هذا القبيل : قال الداعية : يقول المحقق الملاّ على قارى : « فلا يناقض قوله (وخاتم النبيين) إذ المعنى لا يأتى نبى ينسخ ملته ولم يكن من أمته » .

والواقع أن الملاّ على قارى أورد حديث « لو عاش إبراهيم لكان نبيا » وحديث

« لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب [1] » ثم قال : لو عاش إبراهيم وصار نبيا ، وكذا لو صار عمر بن الخطاب رضى الله عنه نبيا لكان من أتباعه عليه السلام كعيسى والخضر والياس عليهم السلام ، فلا يناقض قوله تعالى : (وخاتم النبيين) إذ المعنى أنه لا يأتى نبي بعده ينسخ ملته ولم يكن من أمته .

فهذا التأويل مع عدم الحاجة اليه فى تحقيق معنى الآية إنما ارتكبه الملاّ على قارى ليدفع به ما يقال من أن حديث « لو عاش إبراهيم » يقتضى أنه لو عاش وصار نبيا ، لزم أن لا يكون نبينا عليه السلام خاتم النبيين . ولا حاجة الى هذا التأويل ، فإن حديث عمر بن الخطاب حجة على انقطاع النبوة بعده عليه الصلاة السلام .

وأما حديث « لو عاش إبراهيم لكان نبيا » فقد أورده الداعية فى شبهه وقال : « فلو بقى إبراهيم عائشا ما كان ثمة مانع من صيرورته نبيا لا آية « خاتم النبيين » ولا أى حديث .

وهذه الشبهة مدفوعة بأن هذا الحديث قد أنكر وروده طائفة من أهل الحديث ، كما أنكره ابن عبد البر فى كتاب التمهيد ، وقال الإمام النووى فى تهذيبه : « هذا الحديث باطل وجسارة على الكلام بالمغيبات ، ومجازفة وهجوم على عظيم » والأحاديث الموضوعة أو الضعيفة لا تقف فى وجه الأدلة القطعية ، ومن أراد أن يعقد بينها وبين الأدلة القطعية وفاقا ، فليُبق الأدلة القطعية بحالها ، ويذهب فى تأويل الضعيف أو الموضوع على فرض ثبوته ما شاء ؟

محمد الخضر حسين

حد الاعتدال فى الكلام

قال جعفر بن يحى : إذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا ، وإن كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا .

وقال بعض الحكماء : اذا تم العقل نقص الكلام .

---

(١) رواه أحمد والحاكم .

بيان الى العالم الاسلامى

من شباب التحقوا بالقاديانية مخلصين

ويعلنون الآن براءتهم منها مخلصين

نشر بمجلة نور الاسلام الجزء الاول من السنة الرابعة أن بعض النفر الذين تاثروا بدعاية القاديانية قد انكشف لهم باطل ذلك المذهب ونبذوه نبذ النواة ، فأنكر الداعية القاديانى هذه الحقيقة ، فجاء الواقع مؤيدا لما نشرته المجلة ، وذلك أن جماعة ممن كانوا قد اتصلوا بمذهب القاديانية يحسبونه دعوة إسلامية صحيحة قد أعلنوا براءتهم من هذا المذهب المضل . وإليك نص براءتهم المختومة بكتابة أسمائهم ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين .

وبعد: فنحن طائفة من شباب المسلمين ، نشأنا مخلصين لدين الله الحق ، حريصين على انتشار دعوته ، واعتزاز رايته . وفى وقت كنا فيه خالية أذهاننا من حقيقة النحلة القاديانية اتصل بنا بعض دعاتها ، وذكروا لنا أنها إنما أسست لخدمة الاسلام ، وأنها الطائفة الوحيدة التى تدعو الى الاسلام بنظام ، فبايعناهم على الدخول فى زمرتهم ، وخدمة الاسلام معهم . وكنا مخلصين يوم أقدمنا على ذلك ، وبلغ هذا الإخلاص بأحدنا (أحمد حمدى) أن تولى رئاسة هذه الجماعة فى القطر المصرى أربع مرّات بالانتخاب ، ولا يزال رئيسها الى ساعة إعلان هذه البراءة .

التحقنا بهذه الطائفة ، ولم نكن واقفين على دخائلها ، ولا على سيرة مؤسسها غلام أحمد القاديانى ، لأن القوم يكتمون كثيرا من أحواله ، بل يحرصون على ألّا يطلع الناس على كثير من مؤلفاته ، لأنها كافية لحمل كل مسلم على البراءة منه ومنهم .

والآن وقد اطلعنا على ما كانوا يكتمونه من أحوال الرجل ومؤلفاته ، ويكفى

أن نشير هنا الى قوله فى الخطبة الإلهامية : إن البعثة الثانية (أى بعثته هـو) أفضل من البعثة الأولى (أى البعثة المحمدية) ! ويـكفى من سيرته معرفة محاولاته وألاعيبه فيما كان يبتغيه من الزواج بمحمدى بيكم .

فلما اطلعنا على هذا وغيره من دخائل هذه النحلة ، وأينا أن ما هم عليه غير الذى بايعنا عليه ، وأيقنا بأن إخلاصنا للهداية المحمدية يحتم علينا المبادرة الى البراءة من غلام أحمد القاديانى ، وكل من انتسب اليه . وزادنا إقداما على هذه البراءة وقوفنا على دعوته المسلمين الى الرضوخ لنير الاستعمار الأجنبى ، ورأينا أحد دعاتهم يقول عن كلام سخيف لغـلام أحمد القاديانى : إن ذلك الـكلام فى نظره الشخصى أعظم إعجازا من القرآن ، وإن جلال شمس القاديانى أفضل من الأنبياء !

فلما وصل الأمر الى هذا الحد ، وانفضحت دخائل القوم ، وتبين لنا أن ما هم عليه بعيد عن الذى بايعناهم عليه بُعد الجحيم عن الجنة ، بادرنا الى إعلان إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بأننا نبرأ الى الله ورسوله من هذه النحلة ، ومن كل خادع بها ومخدوع . نشهد الله على هذا ، والله خير الشاهدين .

رئيس الجماعة الاحمدية بالقطر المصرى
أحمد حمدى
كاتب محكمة استئناف مصر العليا الأهلية

سكرتير الدعوة والتبشير للجماعة الاحمدية بمصر
عبد الحميد السيد
بمصلحة التجارة والصناعة

على فاضل
كاتب محكمة الاستئناف الاهلية

أحمد عبد السلام
مهندس ميكانيكى

عبد السلام أحمد
رئيس مطبعة جريدة المطرقة

سيد عبد السلام
بجريدة المطرقة

محمد محمود رسمى
بالسكة الجديدة

حسن أحمد عبد السلام
طالب ثانوى

محمد فرحات
مدرس بالمدارس الابتدائية

عبد العـزيز ممـدوح
بمصلحة المبانى الاميرية

حافظ محمد
ناظر مدرسة ابتدائية بمصر

كمال سليم

نــداء

الى كل أحمدى يبلغه هذا البيانه

إن الرجـوع الى الحق من أفضل الفضائل ، والحق قريب من طالبه ، وهو فى متناول يد كل من يبحث بإخـلاص وروية . وإن أملى فى كل ذى قلب طـاهر ، ونفس بعيدة عن الهوى ، من إخوانى الذين خُدعوا بالانتساب الى هذه النحلة : أن يتقربوا الى الله بسرعة البراءة منها ، حتى تستريح ضمائرهم ، ومن كان مع الله وفّقه الله الى ما فيه رضاه ؟

أحمد حمدى

شرف العقل

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب المرء مثـل عقل يهدى صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى » .

وفسر الضحاك قوله تعالى : « لينذر من كان حيا » فقال أى لينذر من كان عاقلا .

وقال عمر رضى الله عنه : أصل الرجل عقله ، وحسبه دينه ، ومروءته خلقه .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : ما استودع الله أحدا عقلا إلا استنقذه به يوما ما .

وقال بعض الحكماء : العقل أفضل مرجو ، والجهل أنكى عدو .

وقال : صديق كل امرىء عقله ، وعدوه جهله ، وقال : خـير المواهب العقـل ، وشر المصائب الجهل .

وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا تم عقل المرء تمت أموره ... وتمت أمانيـه وتم بناؤه

وقال ابراهيم بن حسان :

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخـلاقه ومآربه

تحليل الروح العصرية

كثرت الدعـوة الآن فى البلاد الشرقية للأخذ بالروح العصرية الغربية ، اتصل شعوبها الى مثل ما وصلت اليه الشعوب الأوربية من رفعة الشأن والعلم والمدنية ، فتوهم كثير من الناس أن هذه الروح تتألف من كل ما يشاهدونه مطبوعا بطابع أوربى ، حتى ما كان منه من الإباحيات والإلحاديات ، وضروب التهتك ، والمذاهب المتطرفة ، والخروج على القوانين والنظم المقررة ، وذهاب كل إنسان محـلولَ الرَّسَن الى حيث يدفعه الهوى ، ويجره اليه الغى ، ويدسه فى حمأة الباطل .

والواقع أن هـذا الخليط من الصفات الذميمة ليس هو الذى أقام صرح المدنية الغربية ، ورفع من أعلام علومها وفنونها وصناعاتها ، وبعث من مخترعاتها ومكتشفاتها ، ولـكنه مجموع من فتنها وأدوائها وأباطيلها وعوامل تحطيمها . فمن أوجب الواجبات على المشتغلين بالدعوة والإرشاد فى الشرق أن يفرقوا بين الخلال القويمة التى كانت العواملَ الحقيقية لنهضة أوروبا هذه النهضة الرائعة ، وبين تلك الصفات الذميمة التى أجمع قادة هـذه المدنية أن الإبقاء عليها يوشك أن يكون سببا فى حلها ، كما حَل أمثالُها جميعَ المدنيات القديمة ، وجعلتها أثرا بعد عين .

من المقررات التاريخية أن أوروبا بقيت طوال القرون الوسطى أى أكثر من ألف سنة فى ظلام حالك من الجهل ، والغفلة عن ينابيع الحياة الصحيحة ، مقودة برجال لا هَمَّ لهم إلا إشباع مطامعهم ، تمـكنوا من القبض على نواصى أممها بالحديد والنار ، وشغلوها بخـوض غمرات الحروب والغارات ، فـلم تجد متسعا من الوقت للتفـكير فى حاضرها ومستقبلها ، وفى الوسائل التى تعتمد عليها لتخرج من حالة الجمود التى وقعت فيها الى حالة تستفيد فيها من وجودها ، وتعود بها ولو الى مثل ما كانت عليه على عهد اليونانيين الأقدمين ، والرومانيين الذين خلفوهم فى زعامة الأرض .

ومما تذرع به هؤلاء القابضون على مُخَنَّقها ليأمنوا شر انتقاضها عليهم أن عُنوا أكبر عناية بالترصد لحركاتها العقلية ، فكانوا كلما نجمت ناجمة من فكرة حرة ، أسرعوا الى طمس معالمها ، وخنقها وهى وليدة ، حتى لا تكون أصلا لغيرها ، وأنزلوا بمنتجها عقوبة رادعة تمنعه العود الى نشرها ، أو الإتيان بمثلها ، فإن عاد نكلوا به شر تنكيل ، وجازوه بالإحراق بالنار ، أو بقذفه من شاهق من الجبال ، أو مزقوه إرْبا إرْبا ، لينال وبال أمره ، ويرعوى سواه عن مثل فعله .

وفى الوقت نفسه تركوا الباب مفتوحا لصنوف الفساد الخلقى ، وضروب الانحلال الأدبى ، لتتلهى الشعوب بهذه القاذورات عن الاشتغال بالأمور الجدية التى يتوقعون أنها قد تفتكهم من قبضة أيديهم .

فكان من أثر ذلك أن ماتت العزائم فى أوروبا ، وعميت البصائر فيها ، وعمتها الفوضى ، وذاعت فيها الفحشاء ، وطمست فيها معالم العلوم والفنون والصنائع التى كان لها على عهد اليونانيين والرومانيين دولة قائمة ، وبات الناس من أمورهم على شر ما تكون عليه جماعات أُخِذت عليها طرق الحياة من كل مكان . (راجع ما كتبناه هنا نقلا عن البحاثة المستشرق جول لابوم مؤلف فهرست القرآن) .

فلما أراد الله أن يخرج العالم من هذه المحنة التى طال عليها الأمد أجيالا متعاقبة أرسل الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بدين الله ، يهيب بالشعوب الى موارد الحياة ، ويدعوهم الى النظر والاعتبار ، ناعيا عليها استسلامها للمتحكمين فيها ، وحافزا إياها على التخلص من نيرهم ، والتفصى من إسارهم ، وما هى إلا مدة قصيرة حتى اجتازت هذه التعاليم جزيرة العرب من مسارب شتى ، فأصغت اليها أسماع ، وتأثرت بها نفوس ، وحنّت اليها قلوب ، ولكن أنّى لها أن تتحرك وقد أحيط بها من كل جانب ، وسدت فى وجوهها جميع طرائق النجاة .

فأراد الله أن يسوّغ لها سبيل الحياة ، فدفع بالمسلمين الأولين لفتح الأندلس ،

وجزء من البلاد الفرنسية والإيطالية ، فجروا فيها على سنتهم : من فتح المدارس ، والنظر فى العلوم ، والاجتهاد فى المذاهب ، ودعت طبيعة الجوار الى تسرب تعاليمهم الى من جاورهم من الأمم ، ثم تعدّتهم الى من وليهم ، واقتضت حاجة التبادل نزوح الأفراد من تلك الأمم الى الأراضى التى استولى عليها الاسلام ، فتولدت فى جميع أرجاء أوربا روح جديدة لم تكن فيه من قبل ، واتفق أن التحق بمدارس المسلمين آحاد آخرون نهلوا من علومهم ، وتضلعوا فى معارفهم ، ثم عادوا الى بلادهم ينشرون ما تعلّموه سرا فى أول أمرهم ، ثم أعلنوه ملطفا بعد ذلك ، كيلا يوقظوا حذر ساداتهم ، فكان ذلك سببا فى نشوء ميل قوى فى أممهم الى الخلاص مما هم فيه ، مهما كلفهم من الاستبسال والاستماتة فى سبيله .

فنجم من ذلك الحين بين تلك الأمم وبين القابضين على أزمتها نضال ابتدأ فى مجال التفكير والعلم ، ثم انتهى الى الحديد والنار ، فكان النصر حليف طلاب الحرية ، ففازوا على خصومهم ، ولكن بعد أن أحرق بالنار ، أو أغرق فى البحار ، أو رمى به من شواهق الجبال ، أكثر من ثلاثمائة ألف وستين ألفا من العلماء والمفكرين وكبار المجددين ، وبعد أن هلك فى الحروب من أبناء تلك الشعوب عدد لا يحصى .

بسبب هذه المنازعات القاسية ، والمكافحات المسلحة ، ولدت الروح المدنية فى أوربا مشوبة بتطرفات من ضروب شتى . ولدت متأثرة بعداء للدين لا يقف عند حد ، للقيانها من أهله عنتا لم تلقه الأمم فى تاريخ العالم . وولدت مطلقة للحرية إطلاقا يلحقها بالإباحة ، بسبب ما ذاقته من شرور الإفراط فى تقييدها قرونا طويلة ، فكان هذا التطرف فى إطلاقها سببا فى التياثها بصنوف شتى من النقائص الأدبية ، والإغراق فى الشهوات ، لأن السادة الأولين تركوا كما قلنا الباب مفتوحا لجميع الميول البهيمية ، إلهاء للناس عن التفكير فى الخلاص ، فجاءت مدنيتهم ملتاثة بكثير منها ، ولم يقوَ العلم ولا الفلسفة على إزالتها ، رغما عما يكتبه قادتهما من التشنيع عليها ، والإنذارات المروعة إذا استمر الناس فيها .

هذه هى حقيقة حال الروح العصرية ، ومنها يتضح بأجلى بيان أنها تقوم على عنصرين : أحدهما مؤلف من جهود جبارة بذلت فى سبيل العلم والحكمة ، والفنون والصنائع ، وكل ما هو نافع وصالح للحياة ، وهو ما يجب علينا الأخذ به ، واحتذاء مثاله ، لنصل الى مثل ما وصل الغربيون إليه من الرقى الباهر فى جميع مجالات النشاط العقلى والعملى . وثانيهما مؤلف من إفراطات وتفريطات خلقية وأدبية لها أصول قديمة فى كيان تلك الأمم ، لا يجوز الأخذ بها ولا إعارتها التفاتا ، بل يجب علينا التدليل على أنها علل وأدواء ينبغى تجنبها والعزوف عنها ، لأنها تقطع علينا سبيل النهوض ، وتبعدنا عن العوامل الحقيقية للمدنية الفاضلة .

وإنى لأعترف هنا أن الخلط بين هذين العنصرين للروح العصرية قد أوقع كثيرا من المجددين السطحيين فى الشرق فى ضلال بعيد من هذه الناحية ، بل منهم من خيل اليه أن هـذه الانحرافات الخلقية من لوازم النهوض المدنى ، وهذا خطأ فاحش ، فإن النقائص الأدبية لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون مفيدة للأمم ، وخاصة إذا كانت فى بدء حياتها الانتقالية . وقد ضرب المغفور له محمد على الكبير مؤسس الأسرة الملكية فى مصر أحسن الأمثال فى الأخذ بالعنصر النافع من الروح العصرية ، وترك العنصر الضار منها ، فقد فتح فى مصر المدارس ، وأمر بترجمة المؤلفات النافعة الى العربية ، وأقام المصانع والمعامل لجميع ضروب الحاجات ، ولم يَشُبْ هـذا الاقتباس المفيد بشىء من بدع هذه المدنية ، فنهضت الأمة المصرية نهضة صادقة ، خرجت بها من مصاف الأمم الإفريقية حتى ساغ لحفيده العظيم الخديوى إسماعيل ، وقد بنى على أساس ما بناه جده ، وعمل مثل عمله ، أن يقول : إن بلادى قطعة من أوربا .

فلم لم يأتس المجددون بهذه الأمثلة الصالحة ، فيقتصروا على منافع هذه المدنية القائمة ، وينزهوها من شوائبها ، ويقدموها للأمة خلاصة سائغة تؤديهم الى مثل ما عليه أوربا ، دون أن يلتاثوا بعللها ، ويتأثروا بعوامل فسادها ؟ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ؟

محمد فريد وجدى

بَابُ الأَسْئِلَةِ وَالفَتَاوَى

حكم المحلل

ورد على المجلة سؤال من حضرة ابراهيم افندى حلمى بمرجوش خلاصته ما يأتى :

يحصل أن بعض الأشخاص يطلق زوجته طلاقا مكملا للثلاث ، ثم يندم ويطلب طريقا لرجعتها ، فيشير عليه بعض الناس بعمل محلل يكتفى فيه بمجرد العقد والطلاق قبل دخول الزوج الثانى ، فهل هذا يكفى لحل الزوجة كما يقول بعض الناس ، أو لا بد من الدخول ؟ وهل عمل المحلل جائز شرعا أو غير جائز ؟ لأن بعض العلماء يقول بعدم جوازه . نرجو شرح ذلك على صفحات المجلة على المذاهب الأربعة .

الجواب

أطبقت كلمة جمهور المسلمين على أن الزوجة لاتحل لزوجها الأول بعد طلاقه لها الطلاق المكمل للثلاث إلا إذا تزوجت زوجا غيره زواجا صحيحا خاليا من الموانع الشرعية ودخل بها الزوج الثانى ، وكان بينهما ما يكون بين الزوجين ، ثم طلقها ، وانقضت عدتها منه ، لقوله تعالى : (فَإِن طَلَّقَهَا فلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ) ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفهم من ترافعت إليه فى هذا الشأن أنه لابد من الدخول والمس . وهذا هو رأى كبار الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، والأئمة الأربعة ومن على مذاهبهم ، ولم يشذ عن ذلك سوى نفر قليل جدا . ولا عبرة لرأيه لمخالفته ظاهر الآية ، ومخالفته الحديث المشهور .

وقد علمت من هذا أنه لا خلاف بين المسلمين قاطبة فى أن الزوجة تحل لزوجها الأول بعد زواجها بغيره ودخوله بها وطلاقه إياها وانقضاء عدتها منه . ولا خلاف بينهم فى أن ذلك أى الزواج بآخر جائز وسائغ ومباح ، متى كان الزوج الثانى تزوج بالمرأة

المطلقة زواج رغبة، حتى إذا ما طلقها بعد ذلك وانقضت عدتها حلّت للأزواج، ومنهم الزوج الأول .

أما زواج الرجل بالمرأة المطلقة طلاقا بائناً مكملا للثلاث على أن يحلها للأول، وعلى أنه يطلقها بعد دخوله، وهـو ما يعرف بالمحلل، فهـذا فيه خلاف بين الأئمة رضوان الله عليهم :

فيرى الإمام أحمد أن من تزوج زوجة بشرط أن يحلها لزوج كان قبله، فإن نكاحه حرام باطل. ويرى الحنابلة أن هذا رأى كثير من أهل العلم، كالحسن والنخعى وقتادة والليث والثورى وسواء فى ذلك قال: زوجتكها الى أن تحلها للأول فتطلقها، أو شرط أنه إذا أحلها للأول فلا زواج بينهما . واستدلوا بما رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى من قوله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله المحلِّل والمحلَّل له » وهو حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم من أصحابه صلى الله عليه وسلم . أما من تزوج ولم يشترط حين العقد ولكن نوى التحليل من غير شرط ، فإن زواجه باطل أيضا . قال اسماعيل بن سعيد : سألت أحمد عن الرجل يتزوج المرأة وفى نفسه أن يحلها لزوجها الأول ولم تعلم المرأة بذلك ، قال : هو محلل إذا أراد بذلك الإحلال فهو ملعون . وروى نافع عن ابن عمر أن رجلا قال له : امرأة تزوجتها أحلها لزوجها ، ولم يعلم . قال : لا ، إلا زواج رغبة : إن أعجبتك أمسكها وإن كرهتها فارقها . وعلى الجملة فإنه لا يصح العقد إلا إذا خلا عن نية التحليل وشرطه .

ويرى السادة المالكية ما هو قريب من هـذا ، فقد نصوا على أن المبتوتة لا تحل لزوجها إذا تزوجت زواجا فاسـدا ، وعدُّوا من الفاسد الذى لا يثبت بالدخول زواج المحلل وهـو من تزوج امرأة بانت من زوجها بينونة كبرى بنية إحلالها له أو بنية الإحلال مع نية الإمساك إن أعجبته ،لانتفاء نية الإمساك المطلقة المشترطة شرعا فى الإحلال . والمعتبر نية المحلل ، لأن الطلاق بيده . وأمانية الزوج الأول (المطلِّق)

ونية الزوجة (المطلقة) فلغو . ويعاقب المحلل ومن علم ذلك من الزوجة والشهود والولى ، وكل هذا مالم يحكم بصحة العقد قاض يرى صحته .

ويرى السادة الشافعية أنه إذا تزوج الرجل امرأة على أن الزواج ينتهى بالدخول والمس ، فهذا العقد باطل ، لأنه نوع من نكاح المتعة . ومثل ذلك لو شرط طلاقها حين العقد بعد الدخول ، لأنه شرط يمنع دوام العقد ، فأشبه التأقيت . أما لو تزوجها على أن يحلها للأول دون اشتراط شيء فى العقد ، فالمعتبر فى هذا الصحة ، لأنه لم يشترط الفرقة . وعلى الجملة فإن من عقد بغير شرط صح عقده وكان مكروها للخلاف ، وحملوا الحديث وهو « لعن الله المحلل والمحلل له » على من يشترط .

ويرى الحنفية أن الرجل إذا تزوج بشرط التحليل بأن يقول : تزوجتك على أن أحلك له ، أو تقول هى ذلك ويقبل هو ، فإن هذا الزواج صحيح تترتب عليه أحكامه ، ولكنه مكروه كراهة التحريم المقتضية للعقاب ، لحديث « لعن الله المحلل والمحلل له » فإن طلقها بعد الدخول والمس حلت للأول لوجود الدخول فى عقد صحيح ، لأن الحديث سمى الزوج محللا والمحلل هو المثبت للحل ، فلو كان الزواج فاسدا لما سماه الرسول عليه السلام محللا . والله أعلم ؟

المسجد الموقوف وأحكامه

ورد على إدارة المجلة من حضرة عبد المطلب محمد عثمان افندى المدرس بمدرسة بنى عياض الالزامية ما يأتى :

أولا — ما هو المسجد الموقوف ، وما هى الأحكام التى تجرى شرعا بالنسبة اليه ؟

ثانيا — هل المساجد التى بناها واحد أوجماعة فى القرى أو فى الأمصار واشتهرت مسجديتها بإقامة الصلوات فيها ولم يقفها البانون لها تأخذ حكم المساجد التى وقفها أصحابها وحبسوا عليها شيئا ؟ نرجو الإجابة على هذا .

الجواب

من بنى مسجدا لايزول ملكه عنه حتى يفرزه عن ملكه ويأذن للناس بالصلاة فيه، فإذا أفرزه عن ملكه وصلى فيه صلاة بجماعة زال ملك البانى عند أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله. وفى رواية عنهما أن الملك يزول بصلاة واحد، وهى ظاهر الرواية. أما عند الإمام أبى يوسف فيزول ملك الواقف بمجرد قوله: جعلته مسجدا، لأن من قال جعلته مسجدا قضى العرف بزواله عن ملكه. وإنما اشترط الامام الأعظم ومحمد رحمهما الله الصلاة فيه، لأنه لابد من التسليم (أى تسليم الموقوف) لواليه عندهما، خلافا لأبى يوسف، والتسليم فى كل شىء بحسبه، ففى المقبرة مثلا بدفن واحد، وفى السقاية بشربه، وفى الخان بنزوله، وفى المسجد بالصلاة فيه. واشتراط الجماعة على الرواية الأولى لأنها المقصودة من المسجد، ولذا اشترط أن تكون جهرا بأذان وإقامة، وإلا لم يصر مسجدا. ولو اتحد الامام والمؤذن وصلى فيه وحده صار مسجدا، لأن الأداء على هذا الوجه كالجماعة.

وإذا كانت الصلاة فيه أقيمت مقام التسليم، فبالتسليم الى المتولى (الناظر) يكون مسجدا دون الصلاة فيه، لأنه بالتسليم اليه يحصل تمام التسليم، غير أنه ينبغى أن يلاحظ أن صلاة الواقف فيه وحده لا تكفى، لأن الصلاة إنما تشترط لأجل القبض للعامة، وقبضه لنفسه لا يكفى، فكذا صلاته وحده لا تكفى.

وقد فرع مشايخنا على مذهب الإمام ومحمد أنه لا يحتاج مع الإفراز والصلاة الى قول البانى وقفت ونحوه، فمن بنى مسجدا وأفرزه عن ملكه وأذن للناس بالصلاة فيه، خرج عن ملكه وصار مسجدا تجرى عليه أحكام المسجد، ولا يملك البانى التصرف فيه بعد ذلك ببيع أو شراء، ولا يورث عنه ولو لم يقل وقفته مسجدا. وبهذا قال كلٌّ من الإمام مالك والإمام أحمد. وقال الإمام الشافعى: لابد من قوله: وقفته أو حبسته، لأنه وقف على قربة، فكان كالوقف على الفقراء.

ونحن نقول : إن العرف جار بأن الإذن فى الصلاة على وجه العموم والتخلية يفيد الوقف على هذه الجهة ، فكان هذا العمل كالتعبير بقوله : وقفت ، ولذلك نظائر : فمن قدم طعاما الى ضيفه كان ذلك منه إذنا فى أكله منه . وقد علمت مما تقدم أن الإمام أبا يوسف رحمه الله يكتفى فى زوال الملك بمجرد قول المالك : جعلته مسجدا ، أذن فى الصلاة فيه أو لم يأذن . وبذلك قالت الأئمة الثلاثة . ومما ينبغى ألا يعزب عن الذهن أن أبا يوسف يوافق الإمامين أبى حنيفة ومحمد فى زوال ملكية البانى بالإفراز والإذن بالصلاة .

ومن هذا جميعه تعلم أن المسجد الموقوف هو أرض أفرزها مالكها عن بقية ملكه وأذن للناس بالصلاة فيها أبدا ، أو أذنهم بالصلاة فيها ناويا أن يكون ذلك أبدا ، ولو لم يصرح به . ومثل ذلك الأرض التى يقول صاحبها جعلتها مسجدا عند أبى يوسف والأئمة الثلاثة . كما أنك تعلم مما تقدم أيضا أن الأراضى التى اتخذها واحد أو جماعة فى القرى أو فى الأمصار تكون مساجد إذا كان البانى أو البانون ملاّكا وجعلوها مسجدا ، إما بالإفراز والإذن بالصلاة عند الامام ومحمد ، أو بقولهم جعلناها مسجدا عند أبى يوسف والأئمة الثلاثة . أما إذا لم يكونوا ملاكا فلا عبرة بعملهم إلا إذا كانت الأرض محتكرة وبنى مستأجرها مسجدا وأذن للناس بالصلاة فيه ، أو قال جعلته مسجدا . ومتى كانوا ملاكا وبنوا على الوجه السابق شرحه كان ما بنوه مسجدا لا يباع ولا يورث عنهم ، لأنه تجرد عن حق العباد وصار خالصا لله وانقطع تصرف العبد فيه ، فلا يملك التصرف فيه بحال . ولا يضر فى المسجدية عدم التصريح بقولهم : وقفنا ، ما داموا مالكين وأفرزوا ما جعلوه مسجدا ، وأذنوا للناس بالصلاة فيه على الوجه المتقدم ، كما لا يضر فى المسجدية عدم حبس شىء منهم على مصالح المسجد .

أما الأحكام التى تجرى شرعا على المسجد فهى كثيرة — منها أنه يكره الدخول فيه بغير طهارة ، ويكره تلويثه واتخاذه طريقا ، وجعله محلا لحديث الدنيا ، ويكره أن

يشهر فيه السلاح . ومنها ألا يمنع من دخوله أحد بسبب أمر دنيوى ، لقوله تعالى : (وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) فلا يجوز لأحد مطلقا أن يمنع مؤمنا من عبادة يأتى بها فى المسجد ، لأن المسجد ما بنى إلا للعبادة ، كالصلاة ، والاعتكاف ، والذكر الشرعى ، وتعليم العلم وتعلمه ، وقراءة القرآن . ولا يتعين مكان مخصوص فى المسجد لأحد ، حتى لو كان للمدرس موضع من المسجد يدرس فيه فسبقه غيره اليه ليس له إزعاجه وإقامته منه . ولا يحل للجنب والحائض المرور منه ولا الوقوف على سطحه ، ولا ينبغى إدخال الصبيان والمجانين فيه ، ولا البيع والشراء ، ولا رفع الصوت وسل السيوف . ولا يجوز إدخال النجاسة للمسجد . وينبغى لمن أراد أن يدخل المسجد أن يتعاهد نعله وخفّه عن النجاسة ثم يدخل ، احتراسا عن تلويث المسجد . ويكره الوضوء والمضمضة فيه إلا أن يكون موضع فيه اتخذ للوضوء . ويكره مسح الرجل من الطين باسطوانة المسجد أو بحائط من حيطانه . ويكره غرس الأشجار فى المسجد إلا أن يكون به نفع للمسجد .

وعلى الجملة لا يجوز اتّخاذ ما يخل بحرمة المسجد فيه . ومن جلس لكتابة القرآن أو العلم فى المسجد فلا بأس إن كان بغير أجر ، لأنه عبادة . وبقية أحكام المسجد تعلم من مراجعة كتب الفقه . والله أعلم ؟

طه حبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

فراسة المؤمن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا انا لم أعلم ما لم أر ، فلا علمت ما رأيت .

وقال عبد الله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ، ما لم ير بعينيه .

وقال ابن الرومى :

ألمعى يرى بأول رأى آخر الأمر من وراء المغيب

تجلى التدبير الالهى فى أعمال الحيوانات

الحشرات التى تنسج لنفسها ملابس

كلف الله الانسان أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وأن يتخذ من الأعلام التى نصبها الله فى الوجود هاديا الى الطريق القويم : طريق العلم بالله ، والإذعان لقدرته الشاملة . وخلق فيه قدرة على التأمل ، وصبرا على التفكير ، وميلا لا كتناه الحقائق ، تصل به الى أبعد الغايات العقلية ، وأقصى النهايات الروحية . وقد حثّ الكتاب الكريم الناس على النظر فى الكون والكائنات فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى فى وصف أولى الألباب : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) وذم الذين يعرضون عن النظر فى الكون والكائنات فقال : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقد جرى الانسان منذ وجوده على سجيته من النظر فى الكون ، وحصّل من وراء ذلك علما جما ، وجنى منافع فى كل ضرب من حاجاته سهلت له سبل العيش ، ووطأت له أكناف الأرض ، وسخرت له القوى المودعة فيها . وقد أغرى الانسانَ ذلك كله الى مواصلة الدأب على دراسة الكون والكائنات ، وانقسم الناس على حسب ميولهم الفطرية فى تعرف عوالمه ، فنهم من قصَر شغله على النظر فى الأجرام العلوية ، ومنهم من وقفها على أصغر الكائنات كالحشرات والميكروبات ، وتوزع غيرهم ما بين هذين الطرفين ، فلم يحرم الله الجميع ثمرات جهودهم ، فكانت جملتها علما لا يستطيع فرد واحد أن يحيط به تفصيلا .

ونحن فى هذه المجلة نقتطف من هذه الثمرات ما تمس اليه حاجة العقل والقلب ائتمارا بما حض عليه الكتاب الكريم ، فنتخير مما وقف عليه الباحثون فى ناحية من النواحى الخفية ، فنعرض لحياة الحشرات التى اعتدنا أن نحتقرها لصغر أجسادها ،

فإنها لا تخلو من آيات باهرة تصـعد بعقولنا الى مشهد من مشاهد الإبداع الإلهى لا تقف غرابته عند حـد . فهل سمعت قبل اليوم أن بعض الحشرات الدنيا تلبس الملابس ، وأنها تصنعها بنفسها لنفسها محيكة على أجمل الأشكال وأرقها ، فمن الذى نفث فى روعها صناعة الحياكة والتطريز ، وجهزها بكل ما تستدعيه من وسائل وذرائع غير المبدع الحكيم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟

من تلك الحيوانات (العثة) التى تقع فى ملابسنا الصوفية فتأكل منها وتخرقها ، وقد عنى بدراستها الطبيعى المشهور (ريومور) صاحب الترمومتر المنسوب اليه .

هـذه العثة دودة غرز الله فيها ميلا لتغطية جسدها العارى ، فتعمد لنسج حلة له من المنسوج نفسه الذى تقع فيه ، وتتخذ منه غذاءلها ، يكون لون حلتها كلون المنسوج الذى تستعير منه خيوطها . فإن كان لونها واحـدا كانت حلتها ذات لون واحـد ، وإن كان ذا ألوان جاءت حلتها ذات ألوان شتى . وهى تعتنى بأن يكون باطن حلتها مغشى بالحرير وظاهرها من الصوف ، فتلصق النسيجين أحدهما بالآخر بصناعة تحير العقـل . ومتى بدا لها أن توسع حلتها تخرج رأسها من أحـد طرفيها وتتحرى أصلح الخيوط لها ، فإن لم تجدها على مقربة منها مدت عنقها للأمام ، ومتى عثرت على مطلوبها أمسكته بسنيّن لها وجذبته بمهارة ، ثم شرعت فى نسجه . وقد شوهد أنها متى زادت قليلا فى أحد طرفى حلتها عملت بالطرف الثانى ما عملته بالأول حتى يتم الانسجام بين الطرفين . ولقد تعجب كثيرا اذا رأيتها تتقلب فى حلتها بسرعة لتخرج رأسها من طرف الى طرف .

ومتى طال جسم العثة ازدادت غلظا كما لا يخفى ، فيضيق ثوبها عليها ، ثم لا يلبث مراقبها أن يرى أنه قد اتسع ، فيخيل إليه أن ذلك الاتساع نشأ من ضغطها بجسمها على باطنه ، فيظهر له بإدمان المراقبة أن ذلك كان خطأ منه ، فإنها تزيد ثوبها اتساعا بنسيج جديد تقوم بعمله ، وهـذا محل العجب والدهش فوق ما مر كله . وقد أثبت الطبيعى

(ريومور) ذلك بالحس ، وذلك بأنه أخـذ عثا ذوات حلل مختلفة الألوان قد ضاقت على أجسادها ، ووضعها على ملابس ذات ألوان مبـاينة لألوان حللها ، فوضع مثلا ذات الحلة الحمراء على ثوب أزرق ، وذات الحلة البيضاء على ثوب أسود ، فرأى بعد مضى زمن ما أن العث أدخلت من ألوان تلك الأثواب الى حللها ، فدل ذلك بالحس على أنها استمدت من خيوطها فى توسيع ألبستها .

أما كيفية توسيعها حللها فهى الـكيفية نفسها التى يجـرى الإنسان عليها إزاء ثوب ضيق يريد توسعته . وأول ما يخطر بفكر الإنسان من ذلك أن يشـق الثوب الضيق ويضع مـكان الشق قطعة على طوله . ولو كان شـكل الثوب يقتضى أن يضع فى كل جانب قطعةً فعَل . وهـذا ما تفعله العثة أيضاً لتوسعة ثوبها ، ولـكنها تفعله باحتراس أكثر ، وباقتصاد أوفى ، وذلك أنها تشق حلتها الضيقة الى النصف خشية أن تبقى عارية مدة توسيعها . ثم تنهمك فى توسيع ذلك النصف ، حتى إذا أتمته شقت النصف الثانى وعملت به ما عملته بالأول .

بقى علينا أن نعرف كيف تبطن العثة حلتها ببطانة من الحرير الثمين الأغلى من المنسوج الذى تستمد منه خيوطها ، وبأى صناعة عجيبة تربط خيوط الصوف بعضها ببعض ؟ لقد راقب العلماء ذلك ، فوجدوا أن العثة مثل سائر الديدان التى من نوعها ، أُودع رأسها غدة تفـرز سائلا لزجا تخرجـه بإرادتها على حالة خيـوط لا ترى إلا بالميـكروسكوب ، فيتصلب بمجرد ملامسته للهواء ، وهذا الحرير هو الذى تستفيد العثة منه فى تبطين حلتها وفى ربط خيوط الصوف بعضها ببعض . وقد شوهد أنها تجعل سدية حلتها من الحرير ولحمتها من الصوف . ولـكن يظهر أن العثة لا تـكتفى فى ربط خيوط الصوف بحريرها الذى تخـرجه من رأسها ، ولـكنها تربطه أيضا بخيوط من الصوف . وقد رئى أن الثقب الذى فى أسفل فمها يفرز خيوطا صالحة لأن ترتبط بما فوقها بمساعدة حـركة رأسها أثناء النسج ، فهى تحرك رأسها حركات

سريعة ومتعاكسة لتؤدى وظيفة المكوك والإبرة فى آلة الخياطة من ربط الخيوط بعضها ببعض .

ومن أعجب العجب أن أحد الناس لو أخرج عثة من حلتها فلا تعمل للعودة إليه ، لأنه يصير فى نظرها مظنة الإقلاق والإزعاج ، فتعمد الى نسج غيره أسرع ما يمكن حتى لا تبقى عارية أمام مثيلاتها .

ومن الحشرات ذوات الملابس ديدان يقال لها (فريجان) تعيش فى المستنقعات . هذه الديدان تصنع لنفسها عباءات من مواد مختلفة ، فتخرج منها أحيانا لبعض شأنها ثم تعود اليها متى لاحت لها بادرة خطر . وهى تحمل عباءاتها معها حيث تسير ، وتحتجب بها بين الخضرة فلا يراها أحد .

أما المواد التى تكون منها عباءاتها فتارة تتخذها من الأحجار الصغيرة والرمل ، وطورا تختارها من الحشائش ، فتقطعها على طول واحد ، ثم تضعها متوازية متحدة فى الاتجاه أو متخالفة ، وتارة تنسج عباءاتها من القواقع تجمعها الى بعضها وتلبسها وفيها حيواناتها الأصلية .

قال الطبيعى (ريومور) الذى راقب هذه الحشرات : « إن هذا النوع من الملابس جميل جدا وعجيب للغاية . وإنك لو رأيت رجلا متوحشا يجهل النسج يتخذ لنفسه عباءة من الفيران ، أو من الحيوانات الحية الأخرى ، لدهشت من لبوسه جدا ، فهذه هى حال هذه الديدان ، فإنها تكتسى بالقواقع التى فيها أحياؤها الأصلية » .

هذه الحشرات تستطيع تغيير شكل عباءاتها على حسب المواد التى تنتخبها لها . وقد وصف الأستاذ الطبيعى (جيرار) كيفية عمل هذه الحيوانات لملابسها فقال : إن هذه الديدان تبتدئ بعرض المواد فتختار منها المناسب ، فتجعل سطوحها المصقولة الى الداخل ، وتربطها بواسطة خيط حريرى تخرجه من فمها ، ثم تمسك الأحجار حجرا حجرا كما يفعل البناء وتضعه بجانب أمثاله بحيث يكون ما فيه من بروزات وفجوات

ملائمة لما فى مجاوراتها منها حتى لا يوجد فراغ بينها ، ومتى تم لها وضع الحجر على هذه الصورة تلصقه بخيوط تخرجها من فيها ، وهى تتم هذا العمل فى خمس أو ست ساعات ، فلما يجيء الدور الثانى من حياتها ، وهـو الدور الذى تتخدر فيه ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها ، تدخـل فى عباءاتها الحجرية وتسدها عليها من طرفيها خوفا من اعتـداء الغير عليها .

ومن صنوف هذه الديدان ما تسد فوهتى عباءاتها بشباك من حرير تصنعها بحيث تترك الماء يدخل اليها ويخرج لا يعيقه شيء .

ومنها ما تضع فوق هذه الشبكة أحجارا وحشائش وغير ذلك .

ومنها ما تسـد طرفى العباءات بحجرين مفلطحين ، فاذا كانت الديدان مما تعيش فى الماء الراكد ، فهى إما أن تطفو بعباءاتها فى دور الخدر على وجه الماء ، وإما أن ترسب الى أسفله . والتى تعيش فى ماء جار فتتخذلأ نفسها حيلة أخرى خشية أن يقذف بها التيار الى حيث تهلك تعمد الى مقدم عباءاتها فتلصقها بنبات بحرى أو بحجر بواسطة خيوطها الحريرية التى تخرجها من فيها ، وتعنى بوضع جسمها مائلا لـكى تسمح للماء بالتجدد دون أن يصادف حائلا .

ومن هذه الحشرات ذوات الملابس العنكبوت البحرى ، فتراه دائما وراء جمع أجـزاء من النباتات البحرية وبعض الحيوانات الدنيئة والاسفنج وغـيرها يلتقطها ويضعها على ظهره ، فيصـير بها كأنه مجموعة آثار حيوانية ونباتية ، ثم يذهب بحمـله العجيب هذا الى حيث تـكثر النباتات البحرية فلا يهتدى اليه أحد .

وقد عنى أحد الطبيعيين بمراقبة هذا الحيوان مراقبة دقيقة بعـد أن حصره بين أوراق الورد ، فأخذها الحيوان وألصقها على ظهره ، فصار لابسا ثوبا ورديا يحسده عليه الإنسان نفسه ، وأضحى بين أقرانه عجيبة من العجائب .

ومن هذه الحشرات ذوات الحلل دودة تسكن الأماكن الرطبة من الدور ،

والأركان المظلمة منها ، ومادة حلتها التراب ، فتتمرغ عليه حتى يتغطى جسمها كله به ، فتنقلب بهذه الحلة الترابية كأنها من بعض القاذورات . وهى تتجشم هذه الحيلة لتخفى نفسها عن أعين الذباب والبعوض، وهى الحيوانات التى تغتذى هى منها . فتلبث على هذه الصورة ساكنة حتى تقرب منها ذبابة أو بعوضة فترمى الدودة بنفسها عليها ، وترشقها بإبرتها ، ثم تستولى عليها وتأكلها .

ألا يرى القارئ من خلال كل هذه العجائب القدرةَ الإلهية تفيض على هـذه الحيوانات من إبداعها ما يقضى على أعتى العقول بالعجب ، ويهوى بأعمى الجباه الى السجود لقيوم الوجود ، ومصور كائناته على أعجب الصور وأدعاها للدهش ؟

فأين تقع تلك الأصول اللاماركية والدارونية من هذه الإبداعات المحيرة للعقل ، وهى لا تكفى فى تعليل وجود أبسط خلية حية ، فما ظنك بهذا المجموع الذى لا يحيط به العلم من عجائب التكوين ، وهو لا يقف عند حد ، ولا ينتهى الى غاية ؟

وأين تقع شبهات الماديين الذين يزعمون أن الكون تقوده العماية المطلقة ، ويحكمه الاتفاق والخبط ، من هذه الآيات الباهرة التى تتجلى فى كل ناحية من نواحى الخليقة ؟!

محمد فريد وجدى

وقوف الانسان عند حد ما يعلمه

قال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم .

ولقد أحسن زرارة بن زيد حيث يقول :

إذا ما انتهى علمى تناهيت عنده ... أطال فأملى أو تناهى فأقصرا

ويخبرنى عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

وأبلغ من هذا كله وأحكم قوله تعالى : « ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

الامثال فى اللغة العربية

المثل فى أصل وضعه : المثيل والشبيه ، ويطلق على الكلام البليغ الشائع المشهور لحسنه ، أو لاشتماله على حكمة ، وذلك ما نبغى الحديث عنه فى هذا المقال :

توجد الأمثال حتى فى غير اللغات الراقية ، ولا تكاد لغة تخلو من الأمثال . وها نحن نجد بين الجماعات البعيدة من العلم والمدنية أقوالا من نوع كلامهم يضربونها فى مواضع تشبه مواردها ، ولا فرق بينها وبين ما جاء فى الفصيح من الأمثال إلا الفرق الذى نحسه بين اللغة الدارجة واللغة العربية الخالصة .

من خواص المثل الإيجاز ، وأن يكون جيد العبارة . ولإيجازه وجودة عبارته تداولته الألسنة ، وقبلته خاصة الناس وعامتهم . قال الزمخشرى : ولم يضربوا مثلا ، ولا رأوه أهلا للسير ، ولا جديرا بالتداول والقبول ، إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه . وقال الفارابى : « المثل ما ترضاه العامة والخاصة فى لفظه ومعناه ، حتى ابتذلوه فيما بينهم ، وفاهوا به فى السراء والضراء » . وقال : « وهو أبلغ الحكمة ، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر فى الجودة ، أو غير مبالغ فى بلوغ المدى فى النفاسة » وقال أبو عبيد : اجتمع فى الأمثال ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه .

يصوّر المثل الحقائق فى أجلى صورة ، ويريك المعانى الكثيرة فى الكلمات القليلة ، فإذا أردت أن تصف رجلا بالدهاء وجودة الرأى ، والأخذ فى تدبير الأمور بأنجح الطرق ، ورمت أن تعبر عن هذا المعنى بلفظ موجز ينقشه فى نفس المخاطب حتى كأنه يراه رأى العين ، ضربت فيه المثل : « يعرف من أين تؤكل الكتف » .

وإذا سمعت كلاما كثيرا لا تجنى منه فائدة ، وأردت أن تصفه بكلمة يخف وقعها

فى الأذن وتضع ذلك المعنى موضع المشاهد، ضربت فيه المثل: «أسمع جعجعة ولا أرى طحنا».

يحسن ضرب المثل حيث يكون سبب وروده معروفا للمخاطبين. وكثير من الأمثال لا يفهم منها معنى وإن كانت ألفاظها واضحة الدلالة على معانيها المفردة، فالمثل «إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر» مفرداته واضحة المعانى، وليس فى تركيبه حذف، ولا لفظ يتوقف فهمه على كلام يسبقه أو يأتى من بعده، ولو سقته فى الحديث مع من لا يعرف مورده لم تصل به الى الغرض الذى تستعمل من أجله الأمثال، وهو إبراز المعنى فى صورة مألوفة تتلقاها النفوس بارتياح، وإنما يفى هـذا المثل بالغرض، ويقع المعنى المقصود فى نفس المخاطب موضع الجلى الواضح، متى عرف «أن بنى ثعلبة ابن سعد بن ضبة فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يرى، وقالت طائفة: يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا برجل جعلوه حكما، فقال واحد منهم: إن قومى يبغون علىّ، فقال الحكم: «إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر».

قد يستعمل المثل على وجه الاستعارة، كضربك المثل «الصيف ضيَّعتِ اللبن» فى حق من كان متمكنا من أمر فأضاعه من يده، ثم جاء يطلبه بعد فواته، فإنك شبهت حال هـذا الرجل بمورد المثل، وهو حال المرأة التى كانت تحت شيخ موسر فسألته الطلاق فطلقها زمن الصيف، فتزوجت شابا فقيرا، فلما دخل الشتاء أرسلت الى الشيخ تستسقيه لبنا، فقال لها: «الصيف ضيعتِ اللبن» واستعرت هذا المثل الى حال الرجل الذى أضاع أمرا كان طوع يده، ثم رغب فى مناله. واستعمال الأمثال على هذا الوجه هو الذى تحدث عنه البيانيون فقالوا: متى فشا استعمال المجاز المركب، سمى «مثلا».

وقد يستعمل المثل على وجه التشبيه الصريح، كأن تذكر شخصا تريد أن تصفه بأنه يُشتهى قربه، ويخاف شره، فتقول: هو «كالخمر يشتهى شربها، ويخاف صداعها».

وقد يستعمل على وجه الحقيقة المحضة ، كأن ترى شخصا اعتبر فى بعض الأمور بما وقع فيه غيره من عاقبة مكروهة ، فأخذ حذره من ذلك الأمر ، فتقول : « السعيد من اتعظ بغيره » فليس فى ضرب هذا المثل استعارة ولا تشبيه .

والكتب التى صنفت فى أمثال العرب كأمثال أبى عبيدة والميدانى وابن قتيبة وابن حبيب وابن الانبارى وابن هلال والشيخ طاهر الجزائرى ، تجمع الأنواع الثلاثة ولا تختص بما تحدث عنه البيانيون ، وهو المجاز المركب الذى يفشو استعماله .

يلزم فى المثل أن يكون قولا موجزا شائعا ، وقد يكون حكمة أى كلاما ينهى عن سفه ، أو يدعو الى خير ، نحو « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وهو مثل يضرب لمن يجهد نفسه فى طلب الشىء ، ويبالغ فى الطلب حتى إنه ربما يدركه التعب أو الملل ، فينقطع دون البلوغ الى الغاية .

وقد يكون خاليا من الحكمة بالمعنى المشار اليه ، ولكنه يدل على معنى مقبول ، كالأمثال الصالحة للاعتذار ، نحو « مكره أخاك لا بطل » .

والحكمة التى تؤدى ما يؤديه المثل إلا أنها لم تشع فى الجمهور ، ولم تجر إلا بين الخواص ، يسميها بعض الأدباء بالنادرة .

ومن الأمثال ما يكون كلاما مستقلا بنفسه ، نحو « حبك الشىء يعمى ويصم » ونحو « ربّ أخ لك لم تلده أمك » . وقد يكون مقتطعا من كلام ، نحو « إن المقدرة تذهب الحفيظة » قال أبو عبيد : بلغنا هذا المثل عن رجل عظيم من قريش فى سالف الدهر كان يطلب رجلا بثأر فلما ظفر به قال : لولا أن المقدرة تذهب الحفيظة لانتقمت منك . ثم تركه . والى هذين الضربين من الأمثال أشار المرزوقى فى كتاب الفصيح ، فقال : المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول .

يقول علماء الأدب : إن الأمثال لاتغير ، بل تجرى كما جاءت ، حتى إنهم يحافظون عليها وإن جاءت على بعض الوجوه الشاذة ، قال الزجاج فى شرح أدب الكاتب : الأمثال قد تخرج عن القياس ، فتحكى كما سمعت ، ولا يطرد فيها القياس فتخرج عن طريقة الأمثال . وقال المرزوقى : من شرط المثل أن لا يغير عما يقع فى الأصل ، ألا ترى أن قولهم : « أعط القوس باريها » تسكن ياؤه وإن كان التحريك الأصل ، لوقوع المثل فى الأصل على ذلك .

ويتصل بهذا أن لا يغير المثل ليوافق حال من ضرب فى شأنهم من نحو التذكير والتأنيث ، أو الإفراد والتثنية والجمع ، بل يستعمل باللفظ والحال التى نطق به العربى فى أول ما نطق به[1]

والعلة العامة فى امتناع تغيير ما يسمى مثلا ، أن تغييره يخرجه عن أن يكون اللفظَ المتداول المشهور ، وفى امتناع تغيير المثل الذى يستعمل على وجه الاستعارة علة خاصة ، هى أن الاستعارة مبنية على استعمال لفظ المشبه به ، ولو غير المثل كأن قلت : « الصيف ضيعتَ اللبن » بفتح تاء الخطاب لما كان لفظ المشبه به مستعملا فى المشبه بعينه ، ومن تصرف فى المثل بالتغيير كان مشيرا الى المثل لا ضاربا للمثل نفسه .

وقد عدّ علماء الأدب فيما يجب أن يعرفه الكاتب والشاعر الأمثال العربية ، قال ابن الأثير فى المثل السائر : وكنت جردت من كتاب الأمثال الميدانى أوراقا خفيفة تشتمل على الحسن من الأمثال الذى يدخل فى باب الاستعمال .

وإذا كان فى الأمثال حكمة وبلاغة ، كان فى العناية بجمعها ودرسها وسيلة من وسائل ترقية التحرير والخطابة ؟

محمد الخضر حسين

(١) قال الزمخشرى : لم يضربوا مثلا إلا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه ، ومن ثم حوفظ عليه وحمى عن التغيير .

الزواج عند الامم المختلفة

لا يعرف الإنسان ما للإسلام من الفضل على الجماعات البشرية، ولا يدرك مكان شريعته من السمو بين جميع الشرائع، إلا إذا ألم بمحصة صالحة من الشئون الإنسانية القديمة والحديثة لدى الشعوب على اختلاف منازلها من الثقافة والتمدن. لذلك رأينا أن نعرض على قرائنا أحوال الأمم في جميع الشئون الاجتماعية، ليتألف لهم من مجموع ذلك علم عظيم القيمة يعرفون به حقيقة معنى قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ).

وقد اخترنا اليوم موضوع الزواج عند الأمم المختلفة، اقتبسناه من كتاب الفيلسوف الاجتماعي الكبير (هربرت سبنسر) الانجليزي، فنقول:

الحيوانات التي تعيش مجتمعة كالقردة والفيلة وغيرها يتقاتل ذكورها على حيازة إناثها، وكذلك يفعل المتوحشون من الناس، فإن الرجل منهم إذا أعجبته امرأة وأراد أن يستأثر بها قاتل زوجها، فإن تغلب عليه أخذ منه امرأته، وهي تنقاد له ولا تجد من يحميها منه. وكل من زار بلاد قبائل (الشيبيويان) بأمريكا أو (البوشيمان) في أفريقيا يجد ذلك شائعا فيهما، وهو كل ما يعرفون من أمر الزواج.

هذا القتال الشهواني لا يحصل بين الرجال فحسب، ولكنه يحدث بين النساء أيضا. وذلك أن الرجل في بعض قبائل (كينسلان) بافريقيا يتزوج عددا من النساء، فترى كلا منهن تتطلع الى بلوغ المكانة الأولى عند زوجها، فالذي يحسم هذا التنازع بينهن هو أنهن يجتمعن في مجال واحد وفي يد كل منهن عصا غليظة، فيتضاربن حتى تسيل دماؤهن، فمن تثبت منهن في القتال يعترف لها بالتفوق، وتصبح محظية عند زوجها.

ومن عادات قبائل استراليا أنه إن حدث قتال بين قبيلتين وانتصرت إحداهما على الأخرى، ذهب نساء المغلوبين الى الغالبين عن طيب نفس وبلا أدنى مقاومة.

إن ما نعرفه نحن من نظام الزواج وصيغ التعاقد فيه ليس بموجود عند المتوحشين،

شأنهم فى ذلك كشأنهم فى كل أمورهم الحيوية ، فإن فى أمريكا متوحشين ليس لديهم احتفال بالزواج ، مما يدل على سقوطه فى نظرهم ، وعلى أنه أمر عرضى ، وكيف يحتفل بزوجة تكون اليوم لرجل فتصبح غدا بحق الغلبة لرجل آخر .

وقد روى أن قبائل كاليفورنيا من أمريكا الشمالية ليس لديهم احتفال بزواج ، بل ليس فى لغتهم ما يدل على معنى الزواج ، فهم يتخالطون كما تتخالط الطيور والبهائم .

وفى كثير من بلاد المتوحشين يتم الزواج بالاختطاف ، فتى تمكن رجل من اختطاف امرأة أصبحت زوجته ، سواء أرضيت أم لم ترض ، فإن اتفق أن اختطفها من زوجها رجل آخر صارت زوجته وأنف مختطفها الأول راغم .

ويوجد فى بعض القبائل المتوحشة آثار من الاحتفال بالزواج ، فترى هذا الاحتفال ينحصر فى أن يضرم مريدا الزواج نارا ويجلسا بجانبها .

وعند البعض الآخر يتم الزواج بين الراغبين فيه متى قامت الزوجة ببعض الخدم البيتية للزوج .

وعند قبائل (غينا) الجديدة من استراليا يتم الزواج متى أعطت المرأة لزوجها قليلا من التبغ .

وعند قبائل (التفاجوس) يحصل الزواج بين الرجل والمرأة لمجرد جلوسهما فى شبه قصعة كبيرة ، وأكلهما معا من الأغذية التى يكونون قد وضعوها فيها .

ومن عادة قبائل (النوبيين) من استراليا أنه إذا عرض لأحد الرجال أن يطلق امرأته وهبها لرجل آخر .

ومن النظامات المتبعة عند (التاسمانيين) من استراليا إجبار الرجال على التطليق باعتبار أنه من الأمور الضرورية .

وأما عند قبائل (الكازياس) فإن الطلاق يكثر الى حد أن لم يبق معه معنى للزواج .

ومما يدل على انحطاط أقدار النساء فى نظر المتوحشين وسقوط منزلة الزواج عندهم تجرد الرجال من الغيرة على الزوجات ، فتجد من عادات كثير من قبائلهم تقديم زوجاتهم

لضيوفهم ما داموا عندهم، بل تقديم بناتهم لهم أيضا. من هؤلاء الأقوام قبائل (الاسكيمو) القريبون من القطب الشمالى، ومتوحشو أمريكا وبعض قبائل (بولينيزيا) والسودان والحبشة والكفرة الخ.

ونقل رواد الأقاليم أن المرأة من قبائل (البوشيمان) تستطيع بإذن زوجها أن تعاشر رجلا آخر ثم تعود اليه. وهذه العادة تشبه ما كان عليه بعض عرب الجاهلية من إذن الرجل لزوجته فى الذهاب للإقامة مع رجل معين ثم عودها اليه ثانية.

وهذه العادة تعتبر من مكارم الأخلاق وكرم السجايا عند الاسكيمو (سكان جزيرة جرونيلادا).

هذا الانحلال فى الروابط الزوجية عند هؤلاء الأقوام يشعر بأنهم لا يعلقون كبير قيمة على عفة المرأة، فقد روى أن فى جهات الكونغو من أفريقيا يعرض كثير من الرجال بناتهم للفسق ليكسبوا من وراء عملهم هذا دراهم معدودة.

وعند أهل المكسيك الأصليين من أمريكا الشمالية أن البنت متى بلغت سن الزواج أمرها أهلها أن تخرج الى الرجال لتكسب مهرها، فتضطر لتطواف البلاد فى حالة عهارة مطلقة، حتى تجمع القدر الذى يرضيها من المال ثم تعود الى بيتها لتتزوج.

ونقل عن السكان الأصليين لاقليم (داريان) من أمريكا أنهم ما كانوا ينظرون للفسق بعين المقت، فكان أمرا شائعا فيهم، بل كان معدودا من الظرف حتى شاع عن نساء أعليائهم أنهن كن يقلن لمن يسألهن عن ذلك من رواد الأقطار: إن من أخلاق سفلة النساء أن ترد إحداهن طلب طالب.

ولم تزل نساء (اندمان) من آسيا يعتقدن أن من قِحَة المرأة أن تمتنع على راغب.

وروى عن قبائل (الشيبشاس) من أمريكا الوسطى أن الرجل يعتبر مغازلة الرجال لامرأته بل وفسقهم بها من موجبات الفخر والمباهاة، ولو تزوج أحدهم بامرأة ووجدها بكرا احتقرها واعتبرها من سقط المتاع.

وقد اعتاد قبائل (الشوشوابس) من كولومبيا بأمريكا الجنوبية أن يعدّوا من

العار الذى لا يحتمل أن تتزوج المرأة قبل أن تهدى أسرتها مالا مما كسبته من الرجال .

هذه عوائد القبائل التى راد بلادها مكتشفو الأقطار . ونستطيع أن نزيد عليها أن النساء العربيات على عهد الجاهلية لم تكن حالتهن تمتاز عن حالة أخواتهن المتوحشات ، فكن محرومات من الحقوق ، وكان الرجل يرث امرأة أبيه ، فيقتنيها لنفسه أو يعطيها لرجل سواه ، وكن لا يرثن آباءهن ولا أقرباءهن . وكان زواج السفاح منتشرا فيهم ، وكان بعض الرجال يشترون الإماء ويعرضونهن للفسق والفجور طلبا للكسب من وراء ذلك . فلما جاء الاسلام رفع من قيمة المرأة الى مستوى لم تبلغه الى اليوم المرأة الغربية ، فسن الزواج بإيجاب وقبول ، وشرط أن يؤخذ رأى المرأة فيه ، وأن يعمل به ، وقرر للمرأة حقوقا على زوجها تطالب بها أمام الحاكم ، ولم يكلفها أن تدفع لأهلها ولا لزوجها مالا ، بل كلف الزوج أن يدفع لها صداقا ، وجعل لها حق التصرف فى أموالها استغلالا ورهنا وبيعا دون أن يتوقف ذلك على إذن الزوج ، كما هو الشأن فى أوروبا حتى الآن ، فإن المرأة هنالك متى تزوجت وقعت تحت وصاية الزوج ، فلا تملك التصرف فى مالها إلا بإذن . وزاد الاسلام فى حقوقها فلم يكلفها الإنفاق على نفسها وإن كانت غنية ، وجعل على الزوج القيام بجميع حاجاتها من مأكل وملبس ومسكن على قدر ما تسمح له به وسائله ، وقد منحها الاسلام حق وراثة أبويها وأقربائها بعد أن حرمت منه آماداً طويلة طوال العهد الجاهلى .

ومن الميزات التى تعتبر غاية الغايات فى الاعتراف بمكانة المرأة من الهيئة الاجتماعية أن الاسـلام أباح لها أن تكون عصمتها بيدها إذا رضى زوجها ، فتحل عقدة الزواج متى شاءت .

هذه كلها حقوق لم تحصل على مثلها المرأة المتمدنة ، أفلا تعجب بعد هذا إن رأيت كُتابا من الغرب يدعون أن المرأة المسلمة أسيرة لزوجها ، وأنها لا تملك لنفسها صرفا ولا عدلا ، وأنها فى حاجة لمن يخلصها من ربقته ، ويهب لها مثل حقوق المرأة الغربية ؟ ! ؟

محمد فريد وجدى

كيف انتشر الاسلام فى العالم

أراد الله تعالى أن تكون بلاد العرب مهبطا لأنوار الدين العالمى الأخير، فأرسل به خاتم أنبيائه محمداً صلى الله عليه وسلم، فلما تم نزوله، واختار الله رسوله لجواره، انتشر نوره فى الخافقين، فعنى الباحثون بمعرفة المنافذ التى سرى منها الى الجهات الأخرى، فكان من بينهم المستشرق الألمانى الأستاذ (مارتن هارتمان) فألم بهذا الموضوع فى كتابه (الاسلام)، فرأينا أن نأتى على ثمرة بحثه فى هذا الصدد، فإن فيه تحقيقا تاريخيا جديرا بالنشر، قال ما مؤداه :

لبلاد العرب منفذان الى الشرق، وهما : العقبة وهى على طريق الشام، والطّفّ بجوار نهر الفرات، فانتشر الاسلام منهما الى الشام وأرمينية و بلاد القوقاز وأذر بيجان، ووصل الى بخارى وكابل عاصمة بلاد الأفغان فى القرن السابع، ووصل الى خوارزم فى أوائل القرن الثامن، وما زال يمتد حتى تعدى حدود الصين من تيانشان، واحتل مدينة كاشغار من بلاد المغول، و بلغ بلاد السند، وجعلت مدينة مولتان مركزا للدعوة الإسلامية.
ومن هنالك ومن بخارى انتشر فى شمال الهند، حيث ظهر فى سنة ١٠٠٥ م رجل من مدينة لاهور يقال له الشيخ اسماعيل، فأبلى فى الدعوة الى الاسلام بلاء حسنا، وتلاه فى الدعوة اليه فى تلك الأصقاع من بلاد الفرس رجل يقال له محيي الدين تشيشتى توفى سنة (١٢٣٤) م.

وقد اشتدت حركة الإسلام فى ذلك العهد بشمال الهند حتى آل الى أهله الملك فى البنغال سنة (١٢٠٠) م، كما توج أول ملك مسلم فى كشمير من بلاد المغول سنة (١٣٠٠) م، ومنها انتقل الإسلام الى تيبت الصغرى، وقد وصل اليها أيضا من ولاية يونان فى جنوب الصين.

ودخل الإسلام الى بلاد الصين من منفذين : الساحل الجنوبى ، ومن الولايات المتاخمة لبلاد التركستان .

وقد روى أن علاقات حسنة تبودلت بين بغداد والصين على عهد الخلفاء العباسيين ، وكان الدعاة المسلمون يؤمّون تلك البلاد من طريق ما وراء النهر .

وقد بكر الاسلام فى الظهور بالصين على بعد الشقة بينها وبين البلاد العربية، حتى إنه قد بنى مسجد فى عاصمة ولاية شينزى سنة (٧٤٢) م ، أى بعد البعثة المحمدية بنحو مائة سنة ، وكان من أثر هذه الحركة أن انتشر الاسلام فى شمال الصين بدخول قبائل الويجور فيه ، وقد وصل بعضهم الى المناصب الحكومية الرفيعة ، ونزح بهذا السبب كثير من الفرس الى الصين ، ونشروا فيها لغتهم ، حتى إن كثيرا من مسلمى الصين يعدّون اللغة الفارسية لغة المثقفين منهم ، وفيها كتب إسلامية بهذه اللغة .

وقد أخذ بالدين الاسلامى كثير من اليهود هنالك ، فزاد بهم زيادة كثيرة يصعب تقديرها .

ولما دخلت بلاد التركستان المسلمة فى حوزة الصين ، واحتك المسلمون بالأهالى هناك ، تعرفوا منهم سماحة الاسلام وفضائله ، فكان ذلك سببا فى زيادة انتشاره فى تلك الأصقاع . وفى هذا العهد بدأ ظهور رؤساء وقادةٍ من الأصل التركى فى الصين ، حتى إن القيصر الصينى كين لونج تزوج بأميرة تركية وأمر ببناء مسجد إكراما لها ولحاشيتها . وقد اشتهرت أسماء رجال من الترك تولوا الإدارة والقيادة العسكرية هنالك ، وعد نحو عشرين ألف أسرة تركية فى مدينة بيكنج عاصمة الصين . وقد كان لهم ثلاثة عشر مسجدا يقيمون فيها الصلاة . وعلا شأن المسلمين فى الصين الى حد أنهم أحدثوا ثورة فى كانصو وشينزى سنة ١٨٦٤ فلم تنجح الحكومة فى إخمادها إلا بعد مكافحتها عشر سنين . وفى هذه السنة نفسها تمكن يعقوب بك الطشقندى من اقتطاع التركستان من جسم المملكة الصينية ، فلم تستطع الحكومة استردادها إلا بعد موت الزعيم المذكور .

أما المنفذ الآخر الذى سلكه الاسلام الى الصين وهو الساحل الجنوبى ، فقد هدى اليه العرب والفرس منذ زمن بعيد ، وقد ثبت أنه تأسست جالية إسلامية فى كانتون منذ العصور الأولى للاسلام . وروى أن الخليفة العباسي المنصور أرسل أربعة آلاف جندى لمساعدة قيصر الصين فى بعض حروبه . وكان المسلمون يفدون من تلك الناحية جماهير جماهير نازحين من بلادهم للعيش فى الصين ، لذلك اشتدت شكيمتهم هنالك . وقد حدث فى العهد الأخير أى سنة ١٨٥٥ أن قامت ثورة كبيرة فى ولاية يونان ، فلم تتمكن الحكومة من إخمادها إلا بعد عشرين سنة بذاتها فى الكفاح الشديد .

(نقول) : إن الذى يتأمل فى طول المسافة بين بلاد العرب والصين لا يسعه إلا أن يكبر تلك الروح التى كانت تدفع المسلمين الى تجشم هذه المتاعب لنشر دينهم وتثبيت أعلامه فى الخافقين ، ويدرك أنه بمثل هذه القلوب الكبيرة تعز الأمم وترقى ، وتبنى لنفسها ولأخلافها مجدا يخلد خلود الدهر . وقد عجز دعاة الأديان أن يصلوا الى الصين إلا فى القرون المتأخرة ، وعجزت المدنية الأوربية على ما فيها من الفواتن والجواذب أن تتعدى السواحل الشرقية للصين الى آخر القرن التاسع عشر ، لإيصاد تلك الامبراطورية الضخمة أبوابها فى وجهها ، ولكن المسلمين لم يجتازوا حدود السواحل فحسب ، ولكنهم استطاعوا نشر ديانتهم وثقافتهم فيها أيضا ، وهذا أعجب ما يسجله التاريخ من نشاط أمة وجواذب ديانة . فنرجع الآن لما ننقله عن الأستاذ مارتن هارتمان ، قال :

أما فى كورية وفى اليابان فإن الدعوة للاسلام لم تنجح نجاحها فى الصين ، ويرجع ذلك الى انصراف اليابانيين عن الفلسفة الروحانية ، وإكبابهم على النظر فى مصالح بلادهم المادية .

أما فى مجموعة جزر الملايو فإن عدد المسلمين لا يستهان به ، وقد بلغ نشاط المسلمين بها فى الدعوة الى دينهم حدا يستحق الإعجاب ، وذلك دون أية مساعدة من حكام البلاد ، بل كثيرا ما كانوا يجدون معاكسة منهم .

وصل العرب والفرس الى هذه الجزر وهم فى طريقهم الى الصين ، وإن لم يجىء ذكر عنها فى كتبهم إلا ابتداء من سنة (٨٥٠) م . فكان العرب الذين يفدون الى هذه الأسواق والمراكز التجارية الهامة ويتخذونها وطنا لهم ، دائمى الاتصال بالمدن الواقعة على ساحل الهند ، فكان ذلك سببا فى تعرف سماحة الإسلام وشىء من الأخلاق التى يدعو إليها .

ولم يغفل العرب كعادتهم الاختلاط بالوطنيين ومعاملتهم بالحسنى ، بل صاهروهم واختلطوا بهم ، وكانوا يستكثرون من الأتباع والخدم ، مما زاد فى قيمتهم فى نظر الأهالين . وقد ساعدهم توحد كلمتهم ، وتضام صفوفهم ، وطاعتهم لكبرائهم وزعمائهم ، على التفوق على الأمراء الوطنيين المتخاذلين .

نهض المسلمون بدعوة قوية لدينهم فى سومترا سنة (١١٧٠) ميلادية ، وبدأ ذلك من مدينة (أتجه) Atjeh بالاستيلاء على الساحل الغربى . وثبت لابن بطوطه فى سنة (١٣٤٥) م وجود ممالك إسلامية فى السواحل الشمالية ، وسرعان ما أصبحت دولة (مينا نجابا) حصنا منيعا للإسلام حوالى سنة (١٥٠٠) م

أما فى جاوة فأخذ الإسلام ينتشر فيها بقدم ثابتة ، وخطى متزنة ، حيث نزل بها العرب واجتذبوا اليهم بعض الأهالى ، حتى إذا آنسوا من أنفسهم القوة أظهروا صولتهم ، وبسطوا سلطانهم ، فخضع لهم أهالى غرب الجزيرة ، حيث كانت الديانة الهندوكية لم تثبت قدما فيها الى ذلك الحين ، وما لبث الإسلام بعد ذلك أن عم جميع أنحاء الجزيرة .

ولم يعوز الإسلام أن يجد أنصارا كثيرين فى جزائر الملوك والفلبين وصولو . وفى الجملة انتشر الإسلام فى مجموعة جزر الملايو بحيث يصعب أن تخلو منه إحدى بقاعها خلوا تاما ، وقد كان لأتباعه من السلطان والوجاهة ما لا يشاركهم فيها غيرهم ، وهم هنالك على قسط وافر من الحضارة والثقافة العلمية .

وأما فى سيام فلم يبلغ انتشار الإسلام ما بلغه فى الأقطار المتاخمة لها ، إذ لا يزيد عدد أتباعه عن خمس عدد الأهالى . ويعتبر الإسلام حديث عهد فى تلك الجهة ، وليس

فيها من الشأن ما فى غيرها مما ذكرناه . وقد تسرب الإسلام اليها من الصين ومن جزر الملايو أيضا .

وقد وصل الإسلام حتى الى الافيانوسية واستراليا ، ولكن عددهم هناك ليس بكثير ، وليسوا فيهما بعنصر ذى بال .

(نقول) : يرى القراء فى هذا الفصل من نشاط المسلمين فى الدعوة الى دينهم مايوجب الدهش والحيرة ، فقد حدتهم الى ذلك همة لا تعرف الوَنَى ، ولا يعتريها الفتور . وإذا قابلت ما أتوا به من العظائم فى هـذه السبيل بإدخالهم فى دينهم ملايين من أمم شديدة الاعتزاز بقوميتها ، كثيرة التمسك بدياناتها ، بما قام به فى القرون الأخيرة دعاة الملل الأخرى على حذقهم فنون الدعوة ، واعتمادهم على الفواتن من الجاه والمال ، وتمرسهم بأساليب الأخذ والتأثير ، تعجب غاية العجب ، ولا تجد له تعليلا يقبله العقل إلا فى أن للإسلام سلطانا على العقول خارقا للعادة بحيث تدين له منقادة اليه متى عرض عليها فلا تجد بدا من الإذعان له .

وقد أبان الاسلام عن هذا السلطان نفسه فى كل مكان اتصل به المسلمون قديما وحديثا ، فلقد اعترف دعاة المسيحية أنفسهم بأنهم قد يلبثون فى الأقطار النائية عشرات السنين فلا ينجحون إلا فى كسب أفراد يأوون اليهم طلبا لرفه العيش ، حتى إذا قدم الى هذه النواحى بعض تجار المسلمين وشرح للناس ما عليه الاسلام من السماحة دخلوا فى الاسلام أفواجا ، وسرعان ما يكتسح بدعوته الجماعات التى تتصل به ، مع أن هـؤلاء التجار لم يتخرجوا فى أساليب الدعوة ، ولم يملكوا من الفواتن بعض ما لأولئك الدعاة الفنيين ، حتى كتب الكردينال لافيجرى الفرنسى منذ أمد قريب أن الدعوة المسيحية قد فشلت فى إفريقيا بمزاحمة الإسلام لها ، وأن الإسلام قد ربح فى القرن الماضى نحو ستين مليونا من الأتباع الصادقين .

هذا كله يرجع الى طبيعة الاسلام نفسه ، من سلامة العقائد ، وارتكازها على العقل

وأصالة أصوله ، وارتباطها بمصلحة الفرد والمجتمع ، وبخلوص مبادئه من العناصر التى لايسيغها الطبع ، وبمسايرته للتطورات التى تدخل فيها الأمم محفوزة بناموس الارتقاء ، فهذه المزايا كلها متى أدركها الانسان اضطرته فطرته الى الميل اليها ، وتغلبت على تأثير الوراثة فيه ، فخلع ربقتها وانقاد اليه طوعا .

وفى رأينا أن الأمم المتمدنة متى أدركت الاسلام على وجهه الصحيح كان تأثيره عليها أشد من تأثيره على غيرها من الأمم التى لم تتطور فى العلم ، ومن هنا نعتقد أن الاسلام ستصبح له الدولة فى العالم كله كما وعد به كتابه الكريم فى قوله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) .

الترفع فى غير كبر وحفظ كرامة العلم

رويت أبيات فى هذا المعنى لعلى بن عبد العزيز القاضى تعتبر من عيون الشعر ، نرويها عنه فى هذا المعنى :

يقولون لى فيك انقباض وإنما	رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم	ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما	بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى	ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى	ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها	مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى	لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة	إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه فى النفوس لعظما

انا لله وانا اليه راجعون

ننعى الى قراء هذه المجلة زميلا كريما ، وأخا وفيا ، طالما غذى هذه المجلة ببحوثه القيمة ومقالاته الشائقة ، وفتاواه المدققة ، هو الاستاذ النابغة خريج الازهر المعمور الشيخ طه حبيب فشق نعيه على أسرة هذه المجلة ، كما شق على زملائه فى القضاء والتدريس ، ورصفائه أخيرا فى المحاماة .

كان رحمه الله غزير المادة ، بليغ القلم ، شديد العارضة ، سديد الراى ، قويم السيرة ، تقيا ورعا ، فان كنا قد فقدناه فقد فقدنا فيه كاتبا مبدعا ، وعالما ثقة ، ومحاميا نزيها ، فكان مصابنا فيه عظيما فادحا ، وخسارتنا به كبيرة باهظة .

خدم الفقيد رحمه الله التدريس بالازهر فكان عالما يهتدى بهديه ، وعلما يعشى الى ضوئه ومنهلا عذبا يغترف من فيضه . واشتغل فى تحرير هذه المجلة ، فكان قراؤها يستهدون بعلمه ويستنيرون برأيه ، وعمل فى القضاء ، فكان فيصلا يفرق بين الحق والباطل ، وفى المحاماة ، فكان يكشف المعاضل ، وينفض المشاكل ، وخالط الناس ، فكان مثالا فى كرم الخلال ، وشرف الخصال ، محبوبا من الكافة ، وهذه غايات لا يبلغ إليها إلا الآحاد الموفقون .

فاذا استدررنا عليه اليوم رحمة الله فانما ننساق الى ذلك بقلوب يعمرها الاخلاص له ، والضن به ، أسكنه الله فراديس جنانه ، وعزى فيه خاصة أهله وجميع إخوانه ، وأغدق عليه من نعمائه ما يكون كفاء فضله ، وإزاء علمه ، وجزاء عمله ، إنه ولى الصالحين .

كتاب الشريعة الاسلامية

انتدب أحد قضاتنا الأماثل حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد الزين قاضى محكمتى كفر الدوار وأبى حمص لوضع كتاب جامع فى الشريعة الاسلامية ينحو فيه نحوا جديدا يكشف به عن أسرار الشريعة ويجعلها سهلة المأخذ على المعاصرين . وسيبدأ عمله بالقاء محاضرات فى مبادئها العامة . فنحن نترقب سلسلة تلك المحاضرات لنوفيها حقها من التنويه والثناء . جزاه الله عن الدين خير ما يجزى به أولياءه الصالحين .

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And if they incline unto peace or surrender, incline thou also unto it and treat with them and put thou thy trust in Allah and have no fear of treachery, for Allah and is cognisant of their intentions."

(*Baidawy's Commentary*)

The mighty cry which resounded in Arabia calling to universal brotherhood of nations for the first time in the history of the world, still reverberates into the ears until to-day. Evolution has forcibly urged nations to try the adoption of this principle. The conferences which are held for the limtiation of armaments and the conventions that are made by nations to stop war being used as a means to secure their objects, are nothing short than the fulfilment of that great principle which Islam had proclaimed nearly fourteen centuries ago.

The principles of Islam are one and all great ideals which we will discuss in detail in the articles to follow for the enlightenment of mankind and the completion of the edifice of goodness in the world.

amount of a force, otherwise the mission of Islam would have been a failure and no trace would have been left of it.

On account of the open prohibition of war ordained by Christianity, it continued in a weak condition for over three hundred years. The Roman Emperors were wont to put to death all its adherents, dismember them while they still lived and hunt them down like animals wherever they went.

When Constantine, whose mother had embraced Christianity, and secretly brought him up as a Christian, came to the throne, he used force to propagate this religion and gave orders to pull down the pagan temples and forced people, under penalty of torture, to embrace it. The ascendancy of Christianity goes back to that date and for this very same reason, it is firmly established up to this day in many parts of the world.

Should Islam have contented itself with preaching without having recourse to force, it would have been restricted within the Peninsula and the unbelievers would have forced its adherents to forsake it.

Even if it were spared annihilation, Islam would have found itself in a similar position as that of the Religion of Abraham which was preached by a few men scattered throughout Arabia of whom no trace could be found among human communities.

But although Islam had prepared for war, yet it had certainly mitigated a great deal of its severity and rendered more humane the laws pertaining to it. A just code was established by Islam which definitely prohibited aggression. Indeed, the greatest merit in favour of Islam is that it did not ordain war for despoiling nations or levying tributes thereon, but it was wielded as a means for the propagation of the word of Allah among nations. Never before had any nation waged war for this reason. Wars were waged to subjugate people, appropriate their wealth and products and finally take full possession of everything in the land.

Yet withal, The Lord had commanded His Prophet to make the universal welfare of men the object of all his wars, and if nations wished for peace one day for any consideration, it is incumbent on him to acqueise to their demand and to sheathe the sword depending for the propagation of the Faith on other means for thus saith The Lord :

By "the most pious among you," is meant the one who fears Allah most and fully carries out His commandments taking Him for a pattern so that he may be His viceregent on earth.

It was with this high principle that racial partisanship was laid low, and nationalism was extirpated from its very roots.

Social differences fell to pieces and nothing remained which could obstruct the desire of men to live together in brotherly co-operation, except the tendency to contention which has become well-night instinctive in some souls on account of the misguided teachings and pernicious traditions in which they were steeped.

It is the mission of Islam to exterminate such taints and purge the hearts of men of their pernicious effects by the inculcation and the propagation of its teaching with every fair means:

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Let there be from among you a people who call unto Islam, enjoin the good and forbid the evil and those will be afforded complete success."
(*Baidawy's Commentary*)

And now that we have come to this point, some one might raise an objection: If Islam call to universal brotherhood of nations as well as to universal unity and peace among men so that they may devote themselves to attain personal and social perfection, then why did it have recourse to war? Why did it seek expansion in neighbouring countries? and why did it flood near and distant people the way it did? Why did it not content itself with evidence and proof in calling those people to its cause? and why did it not seek to win their approval by mere conviction and good example?

Our answer to this objection is that Islam is primarily a religion which conforms to the laws of nature as well as to the social factors governing life. Up to the advent of Islam, those laws and factors required a certain

smoothing down the hardships of life and strive to attain the welfare and prosperity of the human community at large.

This will put an end to contention which leads to war and can only result in destruction. War is a ceaseless strife and victory oscillates from one nation to another and should war be waged for purely material ends, it will only serve to fill the hearts with hatred and increase the desire for vengeance.

All this will lead to the repudiation of law and order and eventually to the disruption of the whole social structure throughout the world. The vital forces of nations will be spent in conspiracies and intrigues and the anticipation of defeat for one another. Should such a spirit prevail, the world will be thrown into a vast battlefield in which the sword is for ever unsheathed and man is maddened beyond recall.

But what if that terrible state were changed into universal brotherhood and peace?

Would not the moral forces of nations be directed to the end for which they were created: the establishment of universal good throughout the world?

It is here that the mind conceives the greatness of this principle and is urged by the force of this conception to accept it unhesitatingly were it not for the vestiges of traditional partisanship which influence every people to claim that it is the most worthy of honour and leadership and that its race is the greatest among human races while others should remain in bondage as vassals thereto.

Here the second great principle of this Koranic verse comes forward:

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily, the most worthy of honour among you, in the sight of Allah, is the most pious; Allah is all-knowing and cognisant of your innermost thoughts."

(*Baidawy's Commentary*)

ciple to call them thereunto even though he evoked derision and was not heeded by the ignorant ones :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Wherefore proclaim what thou hast been bidden and heed thou not what the polytheists say."

(*Baidawy's Commentary*)

The mere declaration of this noble principle in a world in which everything urged to discord and disunion is in itself a mighty evidence of its divine origin, for indeed the philosopher's mind, no matter how high it soars, could never have overstepped its bounds as to conceive such a universal principle at a time in which cirmustances urged to its very reverse!

This universal brotherhood proclaimed by Islam may well be considered a herald of a new era in the history of nations, and a prelude to further universal Koranic principles calculated to achieve the unification of human views and objects.

We could not however leave off this subject without alluding to the beauty of the convincible style in which this great principle, like every other principle preached by the Holy Koran, is couched.

The Lord has first called the attention of mankind. Then He reminded them of the origin from which they have come advancing thereby the proof before the facts, a procedure which is acknowledged as the highest of rhetorical and convincible styles. For indeed who could deny that all men, despite their difference in environment, colour and mode of life, are the sons of Adams and Eve ?

This reminder which overrode all the barriers raised by men and trampled over the prevailing customs and traditions which have long caused it to fall into abeyance, urges the souls to listen attentively to what is to follow, and thus prepared, the souls are apprised with the object of this reminder, namely that The Lord has made men into peoples and tribes so that they might know one another, live amicably together, cooperate in

atmosphere, that Mohammed Ibn Abdallah, was born on the 29th of August 570."

Indeed! the Arab nation itself was no less divided and contending than the rest of the world. Through tribal division, it formed a collection of antagonistic communities which knew no peace and were for ever on the war-path. The Arabian Peninsula was a vast battlefield on which all the dictates of love and mercy were completely ignored so much so that a man was to clout his sandal from the very skin of his enemy after having him slain and mutilated.

It was in that chaotic era, in that atmosphere of stygian darkness and ruthlessness, that The Lord bade Mohammad to raise high the standard of universal brotherhood and to establish for mankind the foundation of that unity. The Lord's saying was thus revealed to him:

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ،
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"O, men! Verily We have created you all of Adam and Eve, and We have made you into peoples and tribes that ye might know one another and boast not of your lineage. Verily the most worthy of honour among you, in the sight of Allah, is the most pious; Allah is all-knowing and cognisant of your innermost thoughts."

(*Baidawy's Commentary*)

The Arabs among whom this high and noble principle was preached, were most proud of lineage and boastful of forefathers. Each tribe claimed the greatest honour for itself in that respect and so much indeed had this tendency been exaggerated among them that they were wont to establish the predigree of their camels and horses to raise them thereby above all others of their kind. The reader may well imagine their disdain for other distant peoples and tribes differing from them in colour, language and traditions.

Yet the Lord had sent the last of His Prophets with this high prin-

nations was so difficult that it was well-nigh impossible to bring them all together to one universal religion. This privilege was destined by The Lord to be granted to Islam in whose time intercourse between nations was rendered feasible. The Divine Wisdom has seen fit to afford it all the qualifications and advantages which make it a universal religion fitted for all times and climes.

Was the world then at the advent of Mohammed in need of a violent blow from heaven to urge it to unity, or a wrathful cry from on high to stop the misguided in their career of sin and aberration?

We may well leave the answer of this question to a foreigner, the great French orientalist Monsieur Jules Le Baum. In the introduction to his index of the Holy Koran, he described the world's conditions prior to the advent of Mohammed in the following terms :

"At about the time when Mohammed was born, the world was seething with trouble and unrest."

He then began to detail the generalities of this statement pointing to the animosity and contention which raged fiercely between nations:

"The world's atmosphere was charged with fierce vibrations. Evil was more counted upon than good and the minds of men were not at rest. The chiefs who won most of the confidence of the people, were those who raised the strongest war-cry. Only one argument touched the hearts and made strong though passing convictions : the booty, despoiling of nations, cities, lords, men of arms, poor labourers and even simple mendicants.

Had it not been for the small light which flickered in the depths of some cells of cenobites, and for some philosophic principles sheltered from the raging storms and transmitted from soul to soul by the bold apostles of progress, barbarism, accelerated in its march by the arrogance of the masters of brutal force, would have become pure savagery."

After long dwelling on the condition that then prevailed, the writer said:

"It was during those sad circumstances, and in that heavily charged

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD (1)

II.

Declaration of Universal Brotherhood of Nations.

Following the proclamation that it is the true Faith, and the inculcation of the twofold basis of human nature and pure reason on which it was founded, Islam sought to introduce a momentous social reform requisite for a great civilisation which The Lord has willed Islam to establish on earth. This momentous reform was the calling of mankind to universal brotherhood. For though Islam did not differ, in its doctrinal principles, from the first faith revealed to previous Prophets, yet it was favoured by certain circumstances which anterior religions lacked. Intercourse between

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in "Nour-El-Islam" Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ٥ —

نعيه على مبدأ التقليد الأعمى

لم يُمْن المصلحون فى جميع العصور ، وفى كل أدوار التاريخ البشرى ، بعقبة أقوى مراسا من عقبة التقليد الأعمى للآباء السابقين ، وللقادة المحتكرين الدين ، فكان هذا الجمود سببا فى بقاء أديان محرفة الى هذا العهد ، يعتبر بقاؤها خزيا للعقلية الإنسانية ، كما كان سببا فى استمرار وجود طوائف تستغل جهالات شعوب كانت تصلح لأن تأخذ مكاناتها من مجموعة الأمم الناهضة ، فبقيت لهذه العلة فى الظلام البهيم الى العهد الحاضر .

لا يدرك مبلغ تأثير التقليد الأعمى فى حياة الشعوب ، ومقدار ما يجنيه على أهله من مجافاة المنطق والعلم ، ولا يفهم معنى قولنا إن بقاء ذلك يعتبر خزيا للعقلية البشرية إلا من يعنى بدراسة الأديان التى يدين بها السواد الأعظم من الأمم المعاصرة لنا ، والفروع التى اشتقت منها ، ويبلغ عددها بضع مئين .

فأول ما تصدى الاسلام له بعد تقريره العقائد الأولية ، عادة التقليد الأعمى للأسلاف والقادة ، دون عرضها على محك النظر ، وزنتها بقسطاس العقل المستقيم .

نعم : إن هذا المنطق الاعتقادى ما كان يمكن إشرابه للعقول فى الأجيال السحيقة المظلمة التى لم تبلغ رشدها بعد ، ولكنها بعد أن بلغت هذا الرشد فى الأجيال التى تلتها ، كان وجوده فى الدين العالمى العام من ألزم لوازمه ، فلذلك شرع الله هذا الأصل فى دينه الأخير ، لا مواتاة لهذا التطور العقلى الخطير فحسب ، ولكن لإيقاظ العاطفة الدينية أيضا فى نفوس الجماهير .

إن من يُعنى بالبحث فى الشئون الإنسانية فى عهدها الأخير يجد أن النفوس قد خلعت شكائمها ، وأن الشهوات قد افتَكّت من عُقالها ، وأن الفتنة قد ركبت رأسها ، واشتطت فى جماحها ، وأن العاطفة الدينية ، وهى القوة المعنوية العليا المعدلة لهذه التطرفات ، قد ضعفت عن أداء وظيفتها عند كثير من الأمم حتى ظنت بها الظنون عندهم ، ولذلك التمس بعضهم طريقا آخر للتخلص من هذه التطرفات ، وبعضهم ذهب الى تلمس معدل غيرها من العلم ، أو من سلطان الرأى العام ، أو من غريزة بشرية أخرى .

ولكن الذى يتعمق فى دراسة العلل الأولية يدرك أن العاطفة الدينية هى أصلح الغرائز الإنسانية لمعالجة هذه التطرفات ، وأنه لا يوجد أقوى منها تأثيرا فى النفوس . فاذا كانت قد ضعفت عن أداء وظيفتها عند بعض الأمم ، فإنما اعتراها هذا العرض بسبب ما أصاب سلطان أديانهم نفسها من الضعف ، وهى لم يصبها هذا الضعف إلا لأنه قد وقر فى نفوس الدهماء أن بعضها مع ما حُمّلته من أوهام الأقدمين ، وما طُبعت عليه من مجافاة العقل والنظر ، أمور تقليدية يجب أن تؤخذ جملة أو تترك جملة ، ولكنهم لو علموا أن هنالك دينا ينعى على التقليد والمقلدين ، ويدعو الى النظر والعقل فى الدين ، ويبنى عقائده على الحق اليقين ، والدليل المتين ، ويقوم من هذا كله على أسلوب يفوق الأسلوب العلمى الحديث فى سمو أصوله ، ودقة تمحيصه ، لقوى أملهم فى عود سلطان الدين ، ومتى عاد سلطانه تيقظت العاطفة الدينية فى قلوب الآخذين به ، واستردت قوتها فى تعديل عوجهم ، وتقويم أوَدهم ، وإقامتهم على جادة المدنية الفاضلة ، والكمال الصحيح .

من أجل هذا اشتد الإسلام فى تذليل عقبة التقليد الأعمى للأولين ، فعالج ذلك فى ألوان شتى من البيان والتدليل ، بحيث لا تدع لأهل الجمود مجالا للتعطيل ، ولا لأنصار الاحتكار مطمعا فى التضليل . وكان ذلك منه لإصابة أغراض ثلاثة : (أولها) ليتمكن هو من نشر الأصول المحيية التى قصد بها إحياء البشرية فى عهدها الأخير ، ولا يحول دونها غير التقليد للأولين . و (ثانيها) ليحفظ للعاطفة الدينية قوتها الذاتية

لتستطيع بها تأدية وظيفتها فى ضبط النفوس، وكبح جماح الشهوات، وصد تيار الفتنة عن اجتراف الجماهير، وذلك بجعل الدين مسايرا للتطورات العقلية، والثقافة العلمية. و (ثالثها) ليجعل أسلوب النظر الدينى أرقى وأدق من أسلوب النظر العلمى، حتى لا يطغى الأخير على الأول، فيكسف من جماله، ويغض من جلاله، ويجرى الناس خلفه مفتونين به.

هذا مرامٌ خطير رمى اليه الإسلام، لكيلا ينفرد العقل وحده بالسلطان على النفوس، مستقلا عن العاطفة الدينية التى جعلها الله معدلة للميول البهيمية التى تلازم الحالة البشرية، ولا تقوى أية ثقافة عقلية على كبحها، كما هو مشاهد ملموس. وهذا لا يتأتى إلا بإرغام العقل من طريق الحجة والبرهان على احترامها، وعلى الاعتراف بسلطانها، وهو لا يعترف لها بذلك إلا إذا قامت على مثل ما يقوم عليه من وسائل التمحيص والتحقيق، وتجردت عن مثل ما تجرد عنه من آثار الوراثة والتقليد، التى لا يعززها دليل، ولا ينهض على إثباتها برهان عقلى أو محسوس.

استطاع الإسلام بهذا التدبير الخطير أن يؤاخى بين العقل والعاطفة الدينية لأول مرة فى تاريخ الأديان، فتمكن من تأليف أمة تقوم على هذين الأصلين الكريمين، فتأدت الى أرقى ما يبلغه البشر فى الحالين، فكما انتهت اليها زعامة الثقافة العقلية والعلمية فى الأرض، انتهت اليها الزعامة الدينية فيها أيضا، وأصبح الإسلام أهلا لأن يؤسس أرقى مدنية فاضلة، دون أن يصطدم فيها العقل والدين، ودون أن يتدهور الناس فى ميولهم وآدابهم الى الحضيض، كما هو الشأن فى مدنية هذا العصر اليوم.

فلننظر الآن الى أى مدى بلغ الإسلام من إحكام هذا التدبير الجليل؟

شُرع الاسلام والناس مستعبدون لما ورثوه عن أسلافهم من أديان باطلة، وتقاليد معطلة، لا يبغون عنها حولا، ويعتبرون كل من يريد زحزحتهم عماهم عليه منها عدواً لدوداً، لا لشيء غير أنه يأتيهم بإصلاح جديد.

فبدأ حملته عليهم بالإنذار والوعيد ، موقظا فيهم غريزة التعقل ، منبهاً إياهم الى النظر والتأمل ، وداعيا لهم الى الاعتبار بمصاير الأمم التى سبقتهم ، فلما تم له هذا التمهيد أخذ يهاجم العلة الرئيسية التى تصرفهم عن الأخذ بالجديد ، وهى تقليدهم الأعمى لما ورثوه عن أسلافهم الأولين ، وإن كانوا منه على ضلال مبين ، فقال تعالى فى لون بديع من البيان : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

لقد مثل الله فى الآية الثانية حال من أعماهم التقليد ، فجعل من يدعوهم الى الخير كمن يصيح بالبهائم التى لا تفهم لدعاء الداعى معنى ، فهم صم بكم عمى لا يعقلون ، وذلك لشدة تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم ، وتجنبهم التفكر والتعقل .

يقول الله : إذا قيل لهؤلاء الكافرين اتبعو ما أنزل الله ، أجابوا داعيهم قائلين : لا ، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فرد الله عليهم منبها فيهم غريزة العقل بقوله : أفتتبعونهم ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون الى حق ؟ ثم صوّر حالهم ذلك التصوير الذى لا يرضى به من لديه مسكة من كرامة ، استفزازا لهم لطلب المخرج مما هم فيه .

ثم عمد الى لون آخر من البيان لتحويلهم عن هذا الجمود فقال : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ، قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

أى وإذا دعاهم داع الى ما أنزله الله من الهدى فى القرآن ، أجابوه قائلين : يكفينا ما ورثناه من العلم عن آبائنا الأولين . فرد الله عليهم قائلا : أفتقولون هذا وقد كان آباؤكم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون سبيلا ؟

وفى هذا المقام طالبهم بما يدّعون لآبائهم من العلم المزعوم فقال: (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا)؟ وقال فى موطن آخر: (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

ثم أخذ يفيض لهم فى بيان مصير الذين يقلدون آباءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فقال: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً) (أى رجعة الى الدنيا) فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى: (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ).

ينبه الله الناس بهذه الآية الى أن التابعين إذا احتجوا بأنهم مجنى عليهم، فلا يقبل ذلك منهم، لأن الله وهب الكافة عقولا وطالبهم بالتفرقة بها بين ما هو حق وما هو باطل، فكلهم يستوون فى التبعة، لا تمتاز طائفة على أخرى فيها، ولما طلب المقلدون الى الله أن يضاعف العذاب لكبرائهم الذين قلدوهم، رد الله عليهم بأنهم وإياهم سواء فى التبعة، وبأنه قد زاد كلا منهم ضعفا من العذاب، وهذا أبلغ ما يعرف من الزجر عن التقليد الأعمى والتسكع فيه.

وقال تعالى: (هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ، لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ. قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ).

ومعناه أن الملائكة فى أثناء دخول الكافرين الى جهنم يقولون للزعماء: هذا فريق

مقتحم معكم النار ، يريدون الذين كانوا يقلدونهم ، فيقول هؤلاء الزعماء ، لامرحبا بهم ، لقد كان لهم عقول يفرقون بها بين الحق والباطل ، فجزاؤهم مثلنا النار ، فيرد عليهم أولئك المقلدون قائلين : بل أنتم لا مرحبا بكم ، فإنكم الذين زينتم لنا هـذا الضلال فاتبعناكم فيه ، فبئس ما انتهينا اليه من المآل .

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا فى مثل هذه الألوان الباهرة من البيان ، أن القادة ومن تابع القادة سواء فى سوء المنقلب ، فلا ينفع الأخيرين أنهم كانوا تابعين لسواهم ، ما دام قد منحهم الله عقولا يميزون بها بين الهدى والضلال . وليس بعد هذا مذهب فى تصوير سوء مغبة التقليد الأعمى ، وفى حض الناس على استعمال عقولهم فيما يلقى اليهم من التعاليم .

بهـذه الزواجر الأخاذة بالألباب ، هدم الاسـلام مبدأ التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، وأيقظ الشعور بالمسئولية الشخصية ، فخلص الضعفاء من العبودية للأقوياء ، وحطم حصن الاحتكار المنيع الذى كان يلجأ اليه المتصدرون لقيادة الدهماء .

إن الإسلام أراد بمـا هدم من أركان التقليد الأعمى أن يلاشى حالة جاهلية كان الناس فيها مستعبدين لطوئف احتكرت فيهم العلم والدين ، وتحـكمت فيهما تحكم السادة الأعلين ، لا يطيقون فيه على ما يقولونه نقدا ، ولا يقبلون فى هيئتهم من ليس منهم وإن بلغ السها فهماً ، وملأ طباق الأرض علما ، وهى حالة متى رسخت أصولها فى أمة أصبح العـلم والدين فيها وقفا على طائفة تتلاعب بهما أهواؤها ، وتحولهما الى ما يوافق مصالحها وشهواتها ، فاستحالا على طول الزمن الى مجموعة من أوضاع جامدة تحول بين الأمم وارتقائها ، وتقف بها دون غاياتها .

هذا ما رمى اليه الاسلام ، فتأدى أهله الى أكمل ما تتأدى اليه أمة من تعاون العلم والدين ، وتآخى حاجات القلوب وحاجات العقول ، فبلغوا مدى من الارتقاء أوجب لهم زعامة العالم قرونا طويلة ، والأمل معقود أن تعود اليهم هذه الزعامة متى قاموا بحق هذا الدين المبين ، والله ولى الصالحين ؟ محمد فريد وجدى



سورة النور

— ٢١ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

ما أحسن ما يختم به تلك الأحكام البالغة ، والإرشادات النافعة ، والبيانات المفصلة فيما يتعلق بمخالطة الناس بعضهم بعضا ، فيختمها ببيان حال المؤمنين بالنسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يجب أن يكونوا عليه من الاستسلام وتمام الانقياد ، وأن يتماسكوا فى الارتباط به ، وألا يرغبوا بشئونهم عن مجالسته ، وأن يروا السعادة لهم كل السعادة فى أن يستوفوا أكثر ما يمكنهم أن يستوفوه من رحمات الله تساق إليهم

عن طريقه ، فلا ينصرفوا عنها ، ولا يزهدوا فيها ، ولا يقدموا عليها غيرها . ولقد نوه بشأن هـذه المحافظة على الاستفادة من مجالسه وعدم التفريط فيها حتى جعلها من مقتضيات الإيمان ، بل جعلها فى المرتبة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله ، فقال جل من قائل : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

وقد قيل فى سبب نزولها : إن قوما من المنافقين كانوا ينصرفون عن النبى صلى الله عليه وسلم أثناء الخطبة ، لما كانوا يحسونه من الأذى والألم إذ يشرح حال المنافقين ، وهم يعلمون من قرارة أنفسهم النفاق ، فلا يطيقون سماع ما يعلمون أنه منطبق عليهم ، فيتسللون . وقيل : بل نزلت فى تسللهم يوم الخندق إذ كان صلى الله عليه وسلم هو والمؤمنون مهتمين كل الاهتمام فى حفره والاستعداد لمقابلة الأحزاب ومقاتلتهم ، وناهيك بلقيا العرب وقد تجمعوا من كل صوب يقصدون غزو المدينة ، حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان يعمل بنفسه فى ذلك ، تشجيعا للسلمين ، وتقوية لعزائمهم ، وحفزا لهممهم ، فالانصراف فى مثل هذه الحال من أشد الجرائم . والأمر الجامع عام فى كل أمر مهم ، دينى أو دنيوى ، فيشمل الاجتماع للجمعة والعيدين ، والتشاور فى الحروب والاجتماع لها ، والاستعداد لدفع الطوارىء ، وما يماثل ذلك من مهمات الأمور . ومعنى كون الأمر جامعا أنه مدعاة للاجتماع للتعاون أو التشاور . فالانصراف فى هذه الحالة جناية من المرء على نفسه ، لحرمانها من المشاركة فى عظائم الأمور ؛ وجناية على المجتمعين ، لأنه يفت فى عضدهم إذا كان الأمر مما يدعو الى التساند فيما بينهم ؛ وإيذاء لهم فى شعورهم بوجوب تعظيم الشعائر الدينية واحترامها إذا كان الأمر دينيا محضا كالجمعة وخطبتها ؛ وإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان شديد الحرص على هداهم وسعادتهم ، وإعلاء كلمة الله ، وتوحيد صفوف الأمة ، وجمع الكلمة ، وتعظيم شعائر الدين . وكل ما فيه إخلال بشىء من هذا كان فيه إيذاء له وإيلام . فلا جرم جعل

الإيمان منوطا بالاستمساك بحبل جماعة المسلمين ، ومنع الانصراف إلا بإذن منه عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » فقد حصر المؤمنين حقا فيمن جمع هذه الصفات الثلاث : أن يؤمن بالله ، وأن يؤمن برسوله ، وأن يلتزم مجتمعه إذا كان فى أمر مهم ، فلا يذهب حتى يستأذنه . ويكون من أخل بواحدة منها لا يستحق أن يكون فى زمرة المؤمنين . وكفى بهذا فى بيان آداب المؤمنين وما يجب أن يكونوا عليه معه صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « حتى يستأذنوه » أى ويأذن لهم إذا شاء ، على ما سيأتى فى الآية التالية فى قوله : « فأذن لمن شئت منهم » فإذا استأذنوه ولم يأذن ، لم يكن لهم أن يذهبوا ، فليس الخروج عن العهدة بمجرد طلب الإذن ولو لم يصدر لهم الإذن ، وإلا لم يكن للاستئذان معنى . ولوضوح ذلك لم ينص عليه ، ألا ترى أنه يعد من السخف فى الفهم أن ينصرف مرءوس عن عمله لمجرد أنه طلب الإذن من رئيسه ولو كتابة قبل أن يصدر له رئيسه الإذن المطلوب ؟ وإذا احتج بقوله قد استأذنت قيل له : فهل أذن لك ؟

ولقد أعاد جل وعلا هذا الحكم بأسلوب آخر ، فجعل المستأذنين هم الذين يستحقون الوصف بأنهم مؤمنون دون سواهم ، فقال عز من قائل : « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » أى فالذين يذهبون ولا يستأذنون ليسوا من الإيمان فى شىء ، ولا يستحقون أن يحشروا فى زمرة المؤمنين . وكأن فى إعادة ذكرهم بقوله « أولئك » إشارة الى أنهم استحقوا وصف الإيمان بهذه الصفة التى ذكروا بها وهى الاستئذان ، فقد قال علماء البلاغة : إن التعبير عن المخبر عنه باسم الإشارة بعد وصفه بصفات ، يدل على أنه استحق الخبر المذكور من أجل تلك الصفات . ونظيره قوله تعالى : « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » بعد وصفهم بالإيمان

بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم الله ، الى آخر تلك الصفات المذكورة في أول سورة البقرة .

ولا يذهب عنك أن مثل هذا الحكم وربط الإيمان ببعض الأعمال لا يراد به أن كل من خالف هذا العمل كان كافرا ، بل ذلك من المبالغة في التنويه بالحكم ، والحث على رعايته ، وشدة الاستمساك به ، وله نظائر كثيرة في الكتاب والسنة . ويصح في هذه الآية الكريمة أن يحمل ذلك على نفي الايمان عن أولئك المنافقين الذين كانوا يتسللون من حضرته صلى الله عليه وسلم ، فتكون الآية لبيان علامة بها يعلم المنافقون الذين يندسون في وسط المؤمنين ، ويتظاهرون بأنهم آمنوا وهم في الحقيقة كاذبون .

وقوله تعالى : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » يفيد جملة أمور : (أولا) أن الاستئذان لا ينبغي أن يكون لكل شأن طرأ ، بل ينبغي قصره على بعض الشئون ، وذلك بالضرورة هو المهم منها . و(ثانيا) أن الإذن وعدم الإذن موكول الى مشيئته صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن مشيئته عليه الصلاة والسلام مشيئة عن رأي وروية ، وتقدير مصلحة ، وتمييز ما يستحق الإذن ومالا يستحقه ، وليست مشيئة الهوى والتشهي . ومن هذا يؤخذ أن بعض الأحكام يصح أن يسند لما يراه عليه السلام من المصلحة ، فلا يقيد بحكم بعينه . ولعل مثله عليه السلام في ذلك من يوكل اليه أمر جماعة المسلمين ، فيناط الحكم بما يراه من المصلحة التي تتغير وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والملابسات . و (ثالثا) أن الأولى والأحق بالمؤمنين أن يتحاشى عن الانصراف ولو بإذن ولو في شئون الشخص المهمة ، فالمصلحة العامة للمؤمنين والأمر الجامع أحق بأن يتفرغ له ، وأن يقدم على الشئون الخاصة .

تفهم هذا من قوله تعالى : «واستغفر لهم الله» فإنها تفيد أن هذا الاستئذان من حقه أن يستغفر منه مهما كان داعيه . وفي ذلك حث عظيم على الاستمساك بما يدعو اليه

صلى الله عليه وسلم من الاجتماع ، وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة . وما أحق المسلمين بأن يتفهموا هـذا ويفقهوه على وجهه ، ويروضوا أنفسهم على العناية بأمور الجمـاعة بدل أن يقصر كل امرىء همه على مصلحة نفسه !

وقوله تعالى : « إن الله غفور رحيم » فيه تطمين للمسلمين وتخفيف الحرج عن نفوسهم ، لكيلا يقعوا فى العنت ويضيقوا على أنفسهم ، فيهملوا مصالحهم الخاصة إهمالا كبيرا . فهى كتخفيف للشدة التى قد تفهم من قوله عز وجل : واستغفر لهم الله . ومعناها أن الله كثير المغفرة واسع الرحمة ، فـلا يكلفـكم من أمركم رهقا . وكون الاستغفار صادرا من النبى صلى الله عليه وسلم مما يقوى هذه الطمأنينة ، فترى فى قوله واستغفر لهم الله أمرين : (الأول) تصوير هذا الموضع بأنه مما يستغفر منه ، فحقهم ألا يغرقوا فيه كثيرا . و (الثانى) أنهم إذا راعوا ذلك فإن المغفرة مضمونة لهم ، فالمستغفر هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار منه بأمر الله ، وفى ذلك أعظم طمأنينة .

واعلم أن مثل النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحـكم كل من له ولاية عامة على جماعة من المسلمين فى أمر دينى أو دنيوى بحيث يجب عليهم طاعته فى ذلك ، فإنهم إذا كانوا على أمر جامع فليس لأحد منهم أن ينصرف عنه حتى يستأذنه ويأذن له ، وإن كان ذلك المستأذن يشعر بأنه ليس له عمـل فى الحـال ، فقد يكون ذلك المنوط به تدبير الأمر الجامع قد رتب فى نفسه عملا لهذا المريد للانصراف ، أو يطرأ عليه من الشئون ما يحتاج معه اليه ، فللأعمال العامة طوارىء ليست فى الحسبان عادة ومثل الأعمال العامة لجماعة المسلمين الأعمال التى يشترك فيها فئة من الناس بطريق التعاون والتساند ، فإنها تأخذ هذا الحـكم بحسب مالها من المقام الذى يوجبها أو يؤكدها . فقاعدة (وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) قاعدة يجب أن تراعى عند كل القائمين بالأعمال المشتركة التى يناط أمر تدبيرها بواحد يرأس أولئك القائمين بها .

(لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا):

زيادة فى الحث على التزام الطاعة وملازمة الجماعة التى اجتمعت لأمر جامع، وتنبيه الى خطر الموقف، وأنه ليس كبقية المواقف، فليس دعاء الرسول إياهم أن يجتمعوا ليتشاوروا أو ليتعاونوا أو ليقوموا بأى غرض مهم من أغراض الدنيا أو الدين — وغرض الدنيا المراد به المصالح العامة، فهى راجعة أيضا الى الدين، والمراد بغرض الدين المقابل العبادة الصرفة — نقول: ليس دعاء الرسول إياهم لذلك كدعاء بعضهم بعضا فى الشئون التافهة المبنية على التسامح من الجانبين، فلا يبالى الداعى أجيب أم لم يجب، ولا على المدعو فى أن يجيب أو لم يجب، بل هذا أمر خطر يتعلق بمصلحة لها الأثر العظيم. وذلك هو الشأن فيما يدعو اليه صلى الله عليه وسلم، وكذلك ما أشبهه وأخذ حكمه من دعاء إمام المسلمين أو من ينوب عنه فى تدبير أمر من أمور الأمة، فقد أوجب الله طاعته كذلك، فالمراد بدعاء بعضكم بعضا فيما لا ولاية فيه لأحد على أحد من قبل الحق جل وعلا، فتى ثبتت الولاية الموجبة للطاعة جاء معها هذا الحكم. والله أعلم.

(قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِواذاً):

هذا وعيد لمن تحدثه نفسه بالانصراف خفية وخلسة، فسدّ فى وجوههم طريق التفكير فى هذا، وبين لهم أن من تحدثه نفسه بأنه يستطيع الانصراف خفية هل يظن أن يستخفى على الله وهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟ وأنه هو الذى أمر وأوجب، فمن حاد عن أمره فإنما عصاه هو، وليس العصيان واقفا عند حد المخلوق الذى حسب أن يختلس نفسه منه.

والتسلل: الخروج من البين على التدريج والخفية. واللواذ: مصدر لاوذ، مأخوذ من لاذ به يلوذ أى التجأ اليه، كأنهم كانوا فى تسللهم يلوذ أحدهم بالآخر يتستر هذا بذاك وذاك بهذا، أو يخرج واحد كالمعتذر والثانى كالتابع له. وهذه الطرق تشاهدها فى الكثير من الناس إذا انصرفوا عن مجتمعين، فإن كل منصرف يشعر بأنه مقترف نحو المجتمعين ذنبا بخروجه، فيترقب أن يوجد من يلوذ به حتى ينسل معه، وربما اتفق

اثنان أو أكثر على أن يبدأ واحد منهم ويتبعه غيره ، فيشد كل منهم أزر صاحبه في مقارفة ذلك الذى ينكره عليهم المجتمعون . فكلمة لواذا تحدد بالضبط هذا الشعور ، وهو أن كلا منهم يلوذ بصاحبه ، حتى إن المتقدم كأنه يتستر بمن يليه ويشاركه فيما اقترف ، وقد يكون أحدهما لاذ بالآخر دون أن يلوذ الآخر به ، فقد روى أنه كان بعض المسلمين يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم لعذر لحقه كرعاف أو غيره ، فيشير الى النبي صلى الله عليه وسلم بأصبعه التى تلى الإبهام فيأذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج ، فيخرج معه الرجل من المنافقين لائذاً به ، إما بتستره به ، أو بالتظاهر بأنه من أتباعه .

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) :

زيادة فى تعظيم الأمر وتهويل الخطب ، وأنه ليس من الهنات الهينات ، بل يخشى منه ما ليس لكم على بال ، فرب أمر استصغرته وإذا به يجر الوبال والمصاب الكبير . وما أحق هذا الموضوع بأن يكون من هذا القبيل ! ولنضرب لذلك مثلا : هب أن الأمر الجامع كان غزوا ورابط له جيش كبير ، فتحدث بعض الجند نفسه بأنه فى هذا الجمع كقطرة فى بحر ، فينصرف بلا إذن ، فيتسلل معه آخر يلوذ به ، وقد يكون الخاطر بعينه خطر لغيرهما فيشجعه عملهما على أن يقتدى بهما ، فتوجد ثغرة فى الصفوف يكون منها النكبة على الجميع . وليس الأمر قاصرا على الحروب ، بل تجد المصالح المشتركة يرتبط بعضها ببعض ، ويتوقف كبيرها على صغيرها ، ويعطل تافهها خطيرها . فالمخالفة مهما استسهلها صاحبها فى الأمور العامة قد تجر الى الضرر العظيم ، فكان المقام حقيقا بأن يؤمر الذين يعتادون المخالفة أن يرقبوا ما يصيبهم من الفتنة فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة . والفتنة تتنوع بحسب الأمر المجتمع عليه ، فقد تكون القتل ، وقد تكون التعذيب ، وقد تكون المذلة والمهانة ، وقد تكون تضييق الرزق وأمثال ذلك ، مما يتعرض له المرء بالمخالفة . والعذاب الأليم فسر بعذاب الآخرة ، وكلمة (أو)

لا تمنع اجتماعهما . هذا وفى الإتيان بلفظ (عن) فى قوله «يخالفون عن أمره» تضمين يخالفون معنى يصدون ويعرضون ، وهى فى تفظيع المخالفة أبلغ من قولك : يخالف أمره ، لما تشعر به كلمة (عن) من الابتعاد والإعراض .

قال الله تعالى : (ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم) :

هذا أحسن ما يختم به هذه الأوامر والتكاليف ، فيبين فى ختامها أنها صادرة من مالك الأمر كله ، المتصرف فى ملكوت السموات والأرض ، الشاملة قدرته لجميع الموجودات إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، إحياء وإماتة ، فهى بأسرها فى قبضة يمينه خلقا وتصرفا وملكا ، فله الأمر وله الملك ، وهو على كل شىء قدير . فمن ذا الذى يستطيع أن يتعرض لعقوبته بمخالفة أمره ، ومن ذا الذى يخرج عن قبضته وهو مالك بناصيته ؟ هذا قوله : «ألا إن لله ما فى السموات والأرض» أى فأنتم مندمجون فى ملكه ، مشمولون بسلطانه . وأما قوله : «قد يعلم ما أنتم عليه» الخ ، فهو تهديد من ناحية أخرى وهى ناحية العلم ، فهو يقول : إنكم مع شمول القدرة لكم من جميع نواحيكم فإنه لا تخفى عليه منكم خافية ، فهو يعلم ما أنتم عليه ، يعلم سركم ونجواكم ، يعلم ما تبدون وما تكتمون ، يعلم ما تعملون وما تفكرون ، فيجازى كل عامل بما عمل ، يوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا ، حتى تقوم عليهم الحجة ، ويعترفوا بذنبهم ، ويعلموا أنه قد أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة ، والله بكل شىء عليم . وفى الإتيان بلفظ الجلالة مظهرا معنى تربية الروعة والمهابة ، ليحمل السامع على تمام الامتثال والخضوع لأحكامه ، استعدادا لثوابه ، وحذرا من عقابه ، وحياء من جنابه .

نسأله تعالى أن يجعل طاعته شعارنا ، والزلفى اليه طريقنا ، وأن يهدينا بهديه ، وأن يرزقنا رضاه ورحمته ، إنه سميع الدعاء ، مجيب النداء ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

دحض مفتريات المستشرقين

نشر بعض المستشرقين كتابا فى أوروبا ألموا فيه بذكر إبراهيم عليه السلام ، واستطردوا من ذلك الى التعرض لما ورد عنه فى القرآن الكريم ، مما خيل اليهم أنه يصح أن يعتبر شبهات على كتاب الله فيما ذكروه عن والد ابراهيم ، وصلة ابراهيم بولده إسماعيل عليهما السلام ، وعن بنائهما الكعبة ، وعن نسبة العرب الإسماعيلية الى هذا النبى الكريم الخ . ونحن نلخص تلك الشبهات ، ثم نكر عليها بالرد ، إحقاقا للحق ، وإزهاقا للباطل ، فنقول :

قال هذا المستشرق ما ملخصه :

(١) إن ما ورد من اسم والد ابراهيم فى القرآن ينافى ما ورد عنه فى التوراة ، فإن القرآن أسماه (آزر) والتوراة دعته (تارخ) .

(٢) إن شخصية إبراهيم مرّت فى القرآن بدورين ، فقد ذكر عنه فى أولهما بالسور المكية أنه رسول كسائر الرسل ، أرسل لقومه المعاصرين له ، ولم يذكر له صلة بإسماعيل ، وصرح فيها بأن العرب لم يرسل اليهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم من نذير ، ولم يذكر عنه فى هذا الدور أنه أول بانٍ للكعبة ، ولا أنه أول المسلمين .

فلما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة تغيرت الحال ، فجاء ذكر ابراهيم فى السور المدنية مشفوعا بأنه مؤسس لملة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وأنه حنيف مسلم ، وأنه هو الذى بنى الكعبة ومعه ابنه إسماعيل .

قال : وسر هذا التطور أن محمدا كان قد اعتمد على اليهود فى أول أدوار دعوته للاسلام بمكة ، فلما لم ينصروه التمس نصيرا غيرهم بتلك الدعوى .

فهداه ذكاؤه الوقاد الى إعلان أن إبراهيم أب للعرب ، فخلص بذلك من يهودية

عصره، الى يهودية إبراهيم نفسه، تلك اليهودية التى يزعمون أنها أساس للإسلام الذى انتَدَب لنشره.

فلما أصبحت مكة تشغل جُلّ تفكير الرسول، نسب الى إبراهيم إقامته لبيت الله الحرام بمكة.

هذه شبهات أولئك المستشرقين، ونحن نكر عليها بالدحض بحسب ترتيبها فنقول:

أما عن الخلاف الموجـود بين القرآن والتوراة فى اسم والد إبراهيم، فـلم يجعله خلافا غير هذا المستشرق، إذ لم يعلنه أحد قبله، وكان أحق بهذا الاعلان وبالطنطنة به اليهود المعاصرون للنبى صلى الله عليه وسـلم، فإنهم كانوا أحرص الناس على إبطال دعوته، وصرف الناس عن رسالته. وكانوا من أجل ذلك يترصدون لجميع ما يبدر منه من أقوال وأفعال، ليتخذوا من بعضها وسائل للإرجاف، وذرائع للخلاف. فلو كانوا رأوا فى مسألة والد إبراهيم وجها لإثارة شبهة لملأوا الجو بها اعتراضا، ولاتخذوها تكأة قوية لهم للتشكيك فى القرآن. فأما وقد مرّت عليهم هذه التسمية ولم يتشبث بها أى معترض ممن كانوا يناوئون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمعنى ذلك حتما أنها لا تستدعى أقل التفات، ولا تثير أوهى شبهة.

فلقد مرت على وجود هـذه التسمية أحقاب متطاولة، واحتدم الخلاف كثيرا فى أدوار شتى بين المسلمين واليهود، فى الدين، وفى الـكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وتهيأت ظروف كثيرة للإرجاف والتشنيع من المنافقين واليهود، كل هذا حصل ولم يستطع أحد من هؤلاء الخصوم العتاة أن يتمسك بما يسميه المستشرق اليوم خلافا بين القرآن والتوراة.

أفلا يدل هذا قطعا على أن كلمة (آزر) كانت تطلق فى ذلك العهد وقبله على (تارخ) إطلاقا صحيحا شائعا بين العرب واليهود، فهو إما أن يكون لقبا عرف به والد إبراهيم، أو صفة غلبت عليه فجرت مجرى العلم؟

إن هـذا المستشرق يفترض أن محمدا كان يعتمد فى نشر الاسلام على يهودية إبراهيم المزعومة ، فهل يعقل أن يخطىء فى اسم أبيه وهو بين ظهرانى ألوف مؤلفـة من اليهود ، وفى أيديهم التوراة مترجمة الى العربية ، وذكر إبراهيم ذائع بينهم كل الذيوع ، ويسهل عليه أن يعرف اسم أبيه من أى طريق شاء ؟

هذا ما يتعذر فهمه كل التعذر ، ويسوغ لنا أن نقول : إنه ليس لهذه الشبهة قيمة على الإطلاق .

فلننظر الآن فى بقية ما نشره ذلك المستشرق من الشبهات ، وهو أن شخصية ابراهيم قد مرت بدورين : فاعتُبر أولا واحدا من المرسلين ، ولم تذكر له صلة بإسماعيل ، وصرح القرآن بأن العرب لم يرسل اليهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم من نذير ، ولم يذكر عنه أنه أول بان للكعبة ، ولا أنه أول المسلمين . فلما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة تغير ذلك كله ، فاعتُبر ابراهيم حنيفا مسلما ، وعدّ مؤسسا لملة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وأنه بنى الكعبة مع ابنه اسماعيل ، الخ .

رتب هذا المستشرق هذه الخيالات يقصد من ورائها أن يقول فى صراحة : إن القرآن الكريم ليس من كلام الله وإنما هو من وضع محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه قد اتخذ فيه ماراه من ضروب السياسة ومصلحته الشخصية أمام العرب « كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً » !

ونحن نقول : إن هذا الكلام قد أملاه على قائله جهل بحقيقة الإسلام ، وخبط فى تاريخ أدواره ، وغفلة عن الأصول التى بنى عليها من أول يوم إيحائه .

وقبل أن نعرض لبيان هذه الشئون نتصدى لبناء هذه الشبهة ، فنبين تفكك أجزائها ، وتداعى أركانها ، ونثبت أنها أسست على جهالات تاريخية لا تغتفر لكاتب .

فأما أن القرآن جعل إبراهيم واحدا من المرسلين ، مثله كمثل سائر النبيين ، فهذا لا علاقة له بأحد دورين دخلت فيهما شخصيته ، ولكنه وصفه الملازم له فى جميع

الأدوار ، فكل مسلم من أول وجود الإسلام الى اليوم يقول بذلك ولا يعدوه الى غيره ، فإن كان لإبراهيم شأن فى تاريخ الإسلام غير مالإخوانه من الرسل ، فذلك لأنه الجد الأول لفريق كبير من العرب ، ومؤسس البنية التى كانوا جميعا سواء الإسماعيليون منهم والقحطانيون يحجون اليها فى كل عام مرة ، وكان يدين بدينه منهم رجال كانوا موزعين فى جميع قبائلهم .

والعرب أجمعون بفريقيهم قبل الإسلام كانوا يعتقدون أن بيت الله الحرام بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ليقيما فيه الصلاة .

هذه كانت عقيدة العرب فى الجاهلية ، ولذلك اتخذوا هذه البنية بيتا مقدسا يحجون اليه فى كل عام مرة ، ولم يختلف أحد منهم فى شخصية بانيها ، وقد اختلفوا فى كل شىء حتى فى أسماء معبوداتهم إلا فى نسبة هذه البنية الى إبراهيم وإسماعيل . وليس فى الأمر نفسه ما يوجب العجب من أية ناحية حتى يتخذ منه الناقدون المعاصرون شبهة على القرآن الكريم ، فالمسألة أصبحت بعد هذا البيان تنحصر فى هل نزل إبراهيم عليه السلام بلاد العرب ؟ فالعرب يقولون : نعم ، وبنى فيها هذا البيت الذى تحج اليه ، واليهود الذين يعتمد المستشرقون على كتابهم يوافقون العرب على ذلك ، ويعينون المكان الذى نزل فيه وأودعه امرأته هاجر وابنه منها إسماعيل (راجع التوراة ، الفقرة الثامنة عشرة من الإصحاح الخامس والعشرين ، والفقرة العشرين من الإصحاح الحادى والعشرين) .

هذا كله كان يعرفه العرب الجاهليون واليهود النازلون بين ظهرانيهم ، أفيعقل أن ينسب الى الاسلام أنه مخترع هذه القصة ؟ وإذا عقل بعضهم هذه الشبهة ، فهل يعقل معها أنه هو الذى وضعها فى التوراة نفسه ؟ !

وما معنى قول هذا المستشرق : إن القرآن فى أول أمره لم يصرح بصلة إبراهيم بإسماعيل ؟ أفكان منه هذا الصمت لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهلها وهو بمكة مع وجودها فى التوراة وشيوعها على ألسنة اليهود هنالك ؟

غريب أمر هذا المستشرق ! يزعم أن القرآن فى أول عهده وفى سوره المكية لم يصرح بصلة إبراهيم بإسماعيل ، مع أنه قد ذكر تصريحا فى إحدى تلك السور المكية وهى سورة إبراهيم ، فقد قال الله تعالى فيها على لسان ابراهيم : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ) . فعلى أى أساس شيد هذا المستشرق زعمه الذى زعمه غير جهله بالسور المكية وما ورد فيها ؟ أيعقل أنه كان يطنطن بدعواه هذه ويقيم عليها تلك المفتريات التى رتبها عليها إذا كان قد وقع نظره مرة على سورة إبراهيم المكية ووجد فيها صراحة صلة إبراهيم بإسماعيل ؟

نحن نعلم أن من المستشرقين من يفترى الكذب على الإسلام ، ولكننا كنا نظن أنهم يستحيون من نفى شىء ذكر صراحة فى كتابه الكريم .

أما قوله : وقد صرح القرآن بأن الله لم يرسل الى العرب رسولا قبل محمد صلى الله عليه وسلم مستندا الى مثل قوله تعالى : (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) فليس بصحيح ، لأن المراد من مثل هذه الآية أن الله لم يرسل الى تلك الطبقة من العرب المستعربة رسولا قبل محمد ، ولم يقصد بما قاله فى أمثال هذه الآيات نفى إرسال أى رسول الى العرب فى كل الأجيال على الإطلاق ، فقد ذكر القرآن الكريم نفسه فى نصوص صريحة بأنه أرسل هودا عليه السلام الى بنى عاد ، وصالحا الى بنى ثمود ، وجميع هؤلاء العرب من طبقة العرب البائدة .

وقد صرح القرآن الكريم أيضا بأن إسماعيل كان رسولا نبيا . وليس بخاف أنه نشأ فى بنى جرهم الذين أصهر اليهم ، فنشأت من هذا الاختلاط طبقة العرب الإسماعيلية الذين منهم قريش وربيعة ومضر وغيرهم ، فكان إسماعيل عليه السلام موجودا فى أول أدوار تكوين تلك الطبقة . وأشار الكتاب الكريم الى أن رسالته خصت عشيرته الأقربين ، فكان يأمرهم بالصلاة والزكاة ومكارم الأخلاق ، ولم يكلف أن تعدو رسالته تلك العشيرة ، فلم يكن مبشرا ونذيرا عاما ، وعلى رأس انقلابات كبيرة

كما كان شأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقد دل التاريخ على أنه منذ أن نشأت القبائل العدنانية الى عهد خاتم النبيين لم يرسل الى العرب نذير قبله صلى الله عليه وسلم . فما ذكره القرآن صحيح وموافق للتاريخ العام كل الموافقة ، ولا تناقض فيه من أية ناحية من نواحيه .

أما قول ذلك المستشرق : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتمد فى قيام أمره على يهود مكة ، فليس بصحيح ، ولا يوجد فى الكتاب ولا التاريخ ما يثبته ، فلم يوجه اليهم الدعوة مرة واحدة ، ولم يُنقل أنه كان يجتمع بهم أو يشاورهم فى أمر الدعوة الإسلامية . والذى ورد فى الكتاب أنه فى أول أمره أمر أن يدعو الى دينه سرا ، ثم بأن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم أمر بإعلان دعوته ، فعاداه قومه لهذا السبب ، وعملوا على إبطال أمره ، ولم تُذكر اليهود فى تلك الأدوار ولا مرة واحدة . ولم يبين لنا ذلك المستشرق نوع تلك المساعدة التى كان يرجوها منهم ، أهى مساعدته فى نشر الدعوة ولم يوجه إليهم الخطاب مرة واحدة ، أم إعانته بالقوة ولم يكونوا ذوى عدد يخشى لهم بأس فى وسط تلك القبائل القوية ، بل ما كانوا يغنون عن أنفسهم فيها ؟ !

إن الله لم يصارح أحدا بالعداء فى القرآن الكريم كما صارح اليهود، فكيف يتملقهم محمد ويستعين بهم ! اللهم إن هذه أقوال ملقاة على عواهنها ، وليس فيها ظل من التحقيق العلمى .

إذا كان هذا الأمر صحيحا ، أما كان الواجب أن يرد فى القرآن الكريم مايستوجب عطفهم ، ويستنزل جنوحهم ، من التنويه بسلامة عقائدهم ، أو الإشادة بذكر قرابتهم ؟ فكيف ذلك وهو يقول بأن الكتاب لم يعلن أبوة ابراهيم للعرب إلا فى المدينة ، أليس كان أولى أن يكون هذا وهو بمكة يستميح فيها عون اليهود ، من أن يكون بالمدينة وهو يصارحهم فيها العداء ، ويكشف عن سيئاتهم ؟ أليست هذه شبهة مفككة الأوصال ، منحلة العرى ، داحضة من نفسها دحوضا لا قيام لها بعده ؟ !

ثم قال ذلك المستشرق : إنه لما يئس من اليهود وجّه وجهه شطر قوم آخرين . فمن هم أولئك القوم الآخرون ؟ النصارى ، ولم يكونوا بذوى عدد فى بلاد العرب ، ولا يأبهون لقرابة العرب الى ابراهيم وابنه ، ولا بأنهما هما اللذان بنيا الكعبة ؟ أم كان أولئك القوم الآخرون هم أهل المدينة ، وقد كانوا من القبائل اليمنية الذين نزحوا بعد سيل العرم الى بلاد العرب ، وكان لا يعنيهم من أمر إبراهيم شيئا ؟ أم كانوا أولئك الأفراد الذين كانوا يدينون من العرب بدين ابراهيم ، وكانوا نفرا يعدون عداموزعين فى القبائل ، ولا تجمعهم جامعة فى طول بلاد العرب وعرضها ؟ أم كانوا قوما آخرين لا نعرفهم ولا يعرفهم التاريخ نفسه ؟

لقد تبين القارئ من كل ما مر أن هذه الشبهات التى أوردها ذلك المستشرق لا تقوم على أساس مطلقا ، وما أملاها عليه إلا الخيال المحض ، وإرادة الغض من كرامة الإسلام بمثل هذه الأقوال الفارغة .

وقد غفل هذا المستشرق عن أمر جلل ، وهو ما بنى عليه الاسلام من أصول عالية ، وما أقيم عليه صرحه من وطائد عالمية راسخة .

إن الاسلام لم يعتمد فى قيامه على تأليف شعب مختار تستند أبوته الى شخصية ممتازة ، ولكن رمى الى تأليف أمة عالمية تذوب فيها الجنسيات والفوارق الاجتماعية ، بإسنادها الى الأبوة العامة المتفق عليها ، وهى أبوة آدم ، فقال تعالى مخاطبا الناس كافة : (يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

أما عن الاعتزاء الى الشخصيات الممتازة ، والأبوات الماجدة ، فقد قال الله تعالى : (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللَّهِ ،

وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

فالاسلام يسوى فى الحق بين من كان أبوه إبراهيم الخليل أو محمدا خاتم النبيين وبين من كان أبوه عبدا أسود ، أو من لا يُعرف له أب أصلا ، فليس هو بالدين الذى بنى أمره على هـذه الشئون التى لوراجت فى زمان محدود ، أو لدى طائفة معينة فى دور من أدوار عقليتها الساذجة ، فلا تروج فى كل زمان ومكان ، ولا لدى الأقوام الذين ارتقت عقولهم ، ويعدون أمثال هذه الأمور حاطة بكرامة الاجتماع .

الإسلام دين شرع للناس كافة : أبيضهم وأسودهم ، عربيهم وأعجمهم ، فسوّى بينهم مساواة لا محل فيها لأبوة ممتازة ، ولا لأصل ماجد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد أزال الله عنكم دعوة الجاهلية واعتزازها بالأنساب ، كلكم من آدم وآدم من تراب » . وقد رمى الى تأليف أمة عالمية ذات دين موحد ، لا هو دين ابراهيم ولا دين نوح ، ولكن دين الله نفسه ، القائم على الفطرة التى فطر الناس عليها ، وعلى العقل والعلم ، فقال تعالى : (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ؟) وقد قرر الله فى غير آية أن الاسلام هو الدين الأول الذى أوحاه الله الى أول رسول ، فقال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا) .

فاذا كان الكتاب يقول عن الاسلام بأنه دين أبيكم ابراهيم فلذلك ، لا باعتبار أنه أول من جاء به ، فإن عبارة الآية السابقة تمنع ذلك ، ولكن باعتبار أنه كان أكبر ممثليه فى العالم . وإذا كان الكتاب قد صرح بأن إبراهيم أول المسلمين ، فذلك بمعنى أنه فى مقدمة من دان بالاسلام ، لا بمعنى أنه واضعه ، أو أول من تلقاه عن الله تعالى . وذلك على حد قول الله تعالى : (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ) فمعناه أن محمدا يبادر الى عبادته ، لا أنه أول من قام بعبادته من الناس أجمعين .

فالاسلام كما ترى لا يقوم على أمثال هذه الأصول التى أتعب ذلك المستشرق

نفسه فى تخيلها ، ولكنه يقوم على أصول عالمية عامة ، لم تقم على مثلها أمة الى اليوم ، وتعترف أرقى فلسفة بأنها أكمل الأصول وأولاها بالإجلال . وهو فى كل أوامره ونواهيه ينحو هذا النحو العالى العام ، ويحطم فى سبيل ذلك جميع الفوارق الاجتماعية التى أقامتها جاهلية الشعوب ، وروجتها عصبية القوميات فى أدوار التاريخ . وليس بين هذا الاسلام وبين أن يكون دين العالم كله ، إلا أن تعرفه الأمم حق معرفته ، وإذ ذاك يصبح الاسلام الدين البشرى العام ، فيتحقق معنى قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ) « ولتعلمن نبأه بعد حين » ؟

محمد فريد وجدى

تأثير الغنى والفقر فى الاخلاق

كتب عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عامله على العراق أبى موسى الاشعرى يقول له : لا تستقضين إلا ذا حسب ومال ، فان ذا الحسب يخاف العواقب ، وذا المال لا يرغب فى مال غيره .

نقول : هذا كلام حق ، فان صاحب الحسب - والحسب كل مايحصله الانسان لنفسه من الشرف - يغار على كرامته ، ويحرص على سمعته ، فلا يرتكب ما يحط من شأنه فى نظر الناس ، ويقدح فى مروءته عندهم . وصاحب المال جدير أن يعف عما فى أيدى الناس ، فلا يشيب حكمه بالرشاء ولا يضطهد الناس ليضطرهم الى مرضاته بأموالهم . وهذه من الحكم العمرية التى امتاز بها الفاروق رضى الله عنه .

وروى عن بعض سلفنا الصالح قوله : إنى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى ، وشر الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر .

وقال بعض الشعراء :

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

وهذا كلام عليه عبقة من الحكمة ، فان الغنى أجدر أن يؤدى الى مكارم الاخلاق ، ولكن الفقر قد يؤدى الى ارتكاب المعاصى .

فضل الصلاة وبيان أسرارها

وشرح حديث شريف

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات أفيبقى ذلك من درنه شيئا ؟ قالوا : لا يبقى ذلك من درنه شيئا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس : يمحو الله بها الخطايا » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . وفى لفظ آخر : « إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات » . أخرجه مالك فى الموطأ من حديث طويل . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة » أخرجه أبو داود . وفى رواية : « حزنه » بالنون ، والمراد نزل به وأهمه . الى غير ذلك وهو كثير .

فاعلم أن الصلاة أعظم العبادات شأنا ، وأوضحها برهانا ، وأكبرها أثرا فى تطهير القلوب والنفوس ، ولذلك اعتنى الشارع بها أعظم عناية ، حتى قال : من ترك الصلاة فقد كفر ، وقال : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . وقد جرى على ظاهر تلك الأحاديث الإمام أحمد ، فكفر تارك الصلاة ، ووافقه على ذلك ابن حبيب من كبار علماء المالكية . وكأنهم رأوا أن الصلاة من أعظم شعائر الإسلام وعلاماته التى إذا فقدت حكم بفقده ، لقوة الملابسة بينها وبينه ، فإن الصلاة هى المحققة لمعنى إسلام الوجه لله ، فكأن من لم يكن له حظ منها لم يبؤ من الإسلام إلا بما لا يعبأ به . وبالجملة فهى فى نظر الشارع أعظم شعائر الدين ، ولذلك أوصى بها الصغار والكبار ، وحذرهم غاية التحذير من التهاون بها والتفريط فيها ، لتكون ملكة راسخة فى النفوس ، بحيث تكون صبغة لها ، متمكنة منها ، مسيطرة عليها ، حتى تمنعها من اقتراف الذنوب بسلطانها القاهر وما تورثه فى النفس من الخشية والمراقبة ، ولذلك يقول الله تعالى : (إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ

عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ) ويقول : (إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) وسنشرح ذلك تمام الشرح ، ومن المعلوم أن كل إنسان إنما تحكم فيه خلائقه وملكاته التى انصبغت بها نفسه ، وانتعش بها قلبه . ولتلك الحكمة البالغة أمرنا أن نعلم الصبى الصلاة لسبع ، ونضربه عليها لعشر ، حتى نصادف منه قلبا خاليا قبل أن تفرقه الأهواء التى تجعل النفس شعاعا ، والقلب أوزاعا .

وسر ذلك أن الصلاة أعظم وسيلة تقرب العبد من مولاه ، وتمنعه من التردى فى أسفل سافلين ، فإنها مقدسة للنفس كل التقديس ، حتى ترتفع بها الى عالم الملكوت . والمصلى إذا قصد من الصلوات أرواحها لا أشباحها ومعانيها لا صورها ، فلا بد أن يخوض فى لجة عظيمة من الرحمة . وكأنه بدخوله فى الصلاة قد اندرج فى سلك الملائكة ، وخرج من هذا العالم بالكلية ، ولهذا يحس المؤمنون الكاملون بأنها تطرح عنهم أثقالهم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرحنا بها يابلال . ويقول : وجعلت قرة عينى فى الصلاة ، لما كان يحس فيها من الرحمات والفيوضات ، والانسلاخ من عالم الآفات والظلمات ، والاستغراق فى عظمة رب الأرض والسموات .

وقد جعل الله الصلاة المفروضة مثنى وثلاث ورباع لتكون كأجنحة الملائكة ، فكأنه أراد أن يجعلك كالملائكة ويجعل الصلاة لك أجنحة تطير بها الى الله تعالى مثنى وثلاث ورباع . كما أنه جمع لك فيها بين أنواع العبادات التى تفرقت فى صنوف الملائكة الذين منهم الراكع والساجد والقائم والمسبح ، فجمع لك فيها بين القراءة والتسبيح ، والركوع والسجود ، والثناء والدعاء ، لتحظى بالفضائل كلها ، وتذوق من تلك الحضرات ماقدر لك . ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين ، وقرة عين الواصلين ، حتى إنهم إذا أتموها وأرادوا الخروج منها قالوا : السلام عليكم ، يريدون بذلك التسليم على الملائكة والمؤمنين . وكأنهم يقولون لهم : إننا كنا مع الله تعالى لا معكم ، ومن كان مع رب العالمين لم يكن مع أحد حتى الملائكة المقربين .

والخلاصة أن المصلى قد خضع لله بقلبه، وذكر الله بلسانه، وعظمه غاية التعظيم بجسده، فقام بين يديه يناجيه ويضرع له، ثم تدرج فى التعظيم وترق فى الإجلال، فأتى بالركوع، ثم بالسجود الذى هو أكبر مظهر للعبودية. ولما كان الحق متعاليا عن الجهة أقام التوجه الى بيته مقام التوجه اليه.

كلمة تفصيلية عن بعض ما فى الصلاة من الأسرار:

إذا قام المسلم الى الصلاة قال قبل الدخول فيها تلك الكلمات المعروفة فى الأذان والإقامة. وكأنه يريد بذلك أن يشعر نفسه بأن الله أكبر من كل شىء. وقد أراد أن يدخل حضرته ويشتغل بمناجاته، فعليه ألا يشغل قلبه بشىء سواه؛ ثم يشعرها بعقد الإيمان الذى ربط قلبه عليه، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ ثم يخاطب نفسه آمرا إياها بالإقبال على الصلاة والقيام بواجباتها قائلا لها: يانفس أقبلى على الصلاة، يانفس أقبلى على الفلاح؛ فإن حى فى لغة العرب تستعمل لطلب الإقبال؛ فكأنه يقول لنفسه: إن هذا هو فلاحك فأقبلى عليه ولا تعدلى عنه، فالعاقل لا يعدل عما فيه فوزه وفلاحه؛ ثم يؤكد ذلك ببقية كلمات الإقامة، مما يملأ النفس خشوعا وهيبة، وتنبها ويقظة، لما هى مقبلة عليه، ومتوجهة اليه؛ ثم يرفع يديه عند الدخول فى الصلاة، وكأنه يشير بذلك الى طرح الدنيا وراء ظهره، قائلا لنفسه: الله أكبر من كل شىء، فلا تعولى إلا عليه، ولا تلتفتى إلا إليه؛ ثم يقول: إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين؛ أو يقول: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له؛ أو يقول: تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، الى آخر ما هو معروف.

يقول ذلك لأجل أن يحرك من نفسه الإحساس بعظمة الله تعالى، ويوقظها للإخلاص فى عملها، والحضور فى صلاتها. وإذا كان الإنسان بحضرة الملك لا يفكر فى غير مناجاته ومايليق بعظمته، فكيف بحضرة الله عز وجل وهو يخاطبه بقوله: إياك

نعبد وإياك نستعين . ثم إنه يقرأ الفاتحة بعد ذلك ، فيثنى على الله تعالى الثناء الواجب تقديمه بين يدى الدعاء ، فيقرع به باب الكرم ، ويحرك به سلسلة الإجابة ، ويقضى به واجب التعظيم وآداب المواجهة ، قائلا : الحمد لله ، أى أن كل حمد فى الحقيقة إنما هو لله عز وجل ، لأنه هو المنعم لا غيره ، فكل نعمة صادرة منه وراجعة اليه (مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) (فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) ثم يشعر نفسه بموجب ذلك الحمد من التربية العامة لجميع العوالم بقوله : رب العالمين .

وانظر ما ذا يخالج قلبه من عظمته تعالى عند ما يتصور سعة العوالم وعظمتها ، وما اشتملت عليه من العلويات والسفليات التى أصبحوا يقولون إنها لا نهاية لها ، وإنما خلق الله من النجوم والشموس والكواكب المختلفة الأحوال والأشكال مالا يعلمه إلا الله الذى قدرها أحسن تقدير ، ودبرها أحكم تدبير ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وفى كل أرض ما يحفظها ، لأنه الرحمن الرحيم ؛ ثم ينتقل من ذلك الى أنه مع تلك الرحمة البالغة يجب أن نرهب منه غاية الرهبة، وأن نستقيم على السنن السوى، فإنه لابد من الجزاء على ما عملنا من خير وشر ، فى يوم يدان فيه كل عامل بعمله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) فيعرف نفسه أن ذلك الإله العظيم الذى لا حد لعظمته هو مالك يوم الدين .

وعند مايمتلىء قلب المصلى بنعوته الجلالية والجمالية يقول : إياك نعبد وإياك نستعين، لأنه لا يستحق العبادة غيرك ، ولا يملك المعونة على الحقيقة أحد سواك ؛ ثم يطلب منه الهداية الى الصراط المستقيم، الذى يعلمه هو، ولا نعلمه إلا بتعليمه تعالى وهدايته سبحانه ، وهو صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وكأنه وهو العليم الحكيم يقول لنا : إن الناس منقسمون الى هذه الفرق

الثلاث ، فإن شئت فكن من المنعم عليهم ، أو من الضالين الذين جهلوا طريق السعادة وما رسمه الله لعباده من سبل الهداية ، أو المغضوب عليهم الذين عرفوا طريق الهدى فتنكبوه ، وسبيل الرشاد فعدلوا عنه ، فهو يحذرنا من الانحراف عن الصراط المستقيم ، فإن من انحرف عنه كان من إحدى الطائفتين لا محالة . ولو ترك المصلى سبحانه وتعالى ولم يعلمه هذا الدعاء الكلى الجامع ، لدعا بالأدعية الجزئية ، ولم يسأل غير المطالب المحدودة التى تمليها عليه شهواته ، وترشده اليها نزعاته .

والقول المختصر فى ذلك أن الله أنزل الفاتحة يعلم الناس فيها كيف يحمدونه ويثنون عليه ، ويقرون له بتخصيص العبادة والاستعانة به تعالى ، على ما يقتضيه التقديم فى قوله : إياك نعبد وإياك نستعين ، ويعلمهم سبحانه كيف يسألونه الطريقة الجامعة لأنواع الخير ، ويتعوذون به من طريقة المغضوب عليهم والضالين .

ولا يسع المقام غير هذا التلميح ، فلننتقل الى ما بعد ذلك ، فنقول : إن المصلى بعد أن يقرأ الفاتحة يقرأ فى الركعتين الأوليين من القرآن ما يزيد ذلك الذى وقر فى قلبه تأكيدا وتشييدا ، ويملأ نفسه إيمانا وتوحيدا ، فيقرأ مثلا قوله تعالى : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» أوسورة الإخلاص ، أو بعض آيات الوعظ ، أوسور الزجر ، فيزداد خشوعا وخضوعا ، فلا غروأن يركع لتلك العظمة قائلا فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، ثم يرى أن ذلك غير كاف فى التعظيم ، فيخر ساجدا لله تعالى إبرازا للعبودية فى أعظم مظاهرها . ولما كان أعظم ما يحبه الله تعالى هو التواضع ، لأنه أخص أوصاف العبودية ، وما خلقنا الله تعالى إلا لنتصف بالعبودية ، ونقوم بحق الربوبية التى أخص أوصافها العظمة والكبرياء ، كرر المصلى السجود إظهارا لما امتلأ به قلبه من عظمة الربوبية وذل العبودية . وقد ورد : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهوساجد» .

وسر ذلك أن بُعد العبد من ربه على قدر ما فيه من الأنانية والكبرياء ، وقربه منه على قدر ما فيه من تواضع وخشوع .

ثم يكرر ذلك كله فى كل ركعة من صلاته ، فاذا أراد الخروج من الصلاة كان بمنزلة من يريد الانصراف من حضرة الملك ، فيثنى عليه أبلغ الثناء ، ويحييه أفضل التحيات ، ثم يطلب منه ما شاء من المطالب ، فكذلك المصلى عند ما يريد الانصراف من حضرته تعالى يقول : إن كل تحية وتعظيم لا يستحقها فى الحقيقة إلا الله ، فكل تحية زاكية مباركة طيبة ليست إلا لله عز وجل ، وهذه الصلوات التى نقيمها لا ينبغى أن تكون إلا لرب العالمين لا للمربوبين المقهورين ؛ ثم أمرنا بالسلام على النبى تنويها بذكره ، وإظهارا للإقرار برسالته ، وأداء لبعض حقه ؛ ثم يعمم المصلى بقوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فإذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح فى السموات والأرض ؛ ثم يأتى بالتشهد بعد ذلك لأنه أعظم الأذكار ، وهو بعدُ تجديد لعقد الإيمان أمام الله قبل الانصراف من حضرته ؛ ثم يختار من الدعاء بعد الصلاة على النبى التى هى مقدمة ووسيلة لإجابته أعجب الأدعية إليه .

وسر الدعاء فى ذلك المقام أن المصلى عند ما يصل الى آخر الصلاة يكون قد خاض فى بحر من الرحمة ، وكاد ينسلخ من عالم الحس ويلتحق بعالم القدس (أو تم له ذلك إن كان من أهله) وحينئذ لا يسقط له مطلب ولا يرد له دعاء ؛ ثم ينصرف من الصلاة مسلما على من معه من الملائكة والمؤمنين ، لأنه لم يكن معهم ، بل هو راجع من الملأ الأعلى ، أو نقول من معية الله عز وجل كما أشرنا إليه .

فهل ترى أن من صلى هذه الصلاة يبقى عليه شىء من دنس الطباع أو ظلمات النفوس ؟ وقد علم الله أنه لا بد لنا من الاشتغال بأمور الدنيا ومقارفة ما نتلوث به أثناء اشتغالنا بأمورها ، فأمرنا بتكرير الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، فهى بمنزلة الدواء الذى نكرره كلما خفنا من صولة المرض أو خشينا من تحركه ، فاذا عشيتنا بعض الظلمات ، ولعبت بنا بعض الشهوات ، تداركنا الله بالصلاة الأخرى ، فأزالت ما لحقنا

من آفات ، وما وقعنا فيه من زلات ، فجددت لنا تنبه النفس ويقظة القلب ، فزالت عنا الغفلة ، وعاودتنا المراقبة ، فسبحان الحكيم العليم اللطيف الخبير .

وأظن أنك بعد ذلك لا تشك فى أن الصلاة بمنزلة ذلك النهر الذى يكون على باب أحدنا ، فكلما أحسسنا بشىء يدنسنا تطهرنا به ، فزالت الأدناس ، وذهبت الألواث ، كما سبق فى الحديث الشريف الذى صدرنا به المقال ، وكما قال تعالى : (إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ) .

والخلاصة أن المصلين يسيرون فيما بين الصلاتين بذلك النور الذى اكتسبوه منها ، حتى إذا كاد ينمحى بسبب المعاملات الدنيوية والدخول فى مضايقها وظلماتها ، تداركهم الله بالوقت الثانى ، فقاموا للصلاة يستدركون ما عسى أن يكون قد فرط منهم فيما بين الصلاتين . ولاشك أن من حافظ على الصلوات لايزال معه بقية من نورها ، فلو فرضنا أن اقترف بعض الهنات والهفوات لم تصل ظلمة الخطايا والغفلات الى جذر القلوب ، فتكون تلك الهفوات كغبار مر على ظاهر العين ثم أزيل قبل أن يستقر فيها بفضل الصلاة التى تليها . وبهذا تبين غاية البيان سر قوله تعالى : «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وقوله : «إن الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » وهـذا هو الدوام المتيسر عند ما امتنع الدوام الحقيقى . ولنقف هنا ، ولعل لنا عودة ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر

تخير الاخوان

قال بعض أهل الرأى : ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان ، واصطناع النصحاء ، تكثير العـدة (بضم العين) لا تكثير العدة (بكسر العين) وتحصيل النفع ، لا تحصيل الجمع ، فواحد يحصل به المراد ، خير من ألف تكثر الأعداد . وقد قيل فى هذا المعنى :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وعش بذاك الواحد

هل الحرية الشخصية معناها الاباحة ؟

إذا ألقيت هذا السؤال على قادة أية فلسفة فى العالم حتى الفلسفة المادية الإلحادية لم يكن جوابهم إلا بالنفى مجمعين . فإذا عاودت سؤالهم قائلا : فهل الحرية الشخصية تتنافى والآداب النفسية ، والفضائل الاجتماعية ، وتسمح لكل إنسان أن يخوض غمرة كل شهوة تسنح له دون أن يفكر فى نتائجها على نفسه وماله ومواطنيه وبنى نوعه ؟ صاحوا بك : لا لا ، منكرين مستهجنين .

فإذا حصلت منهم على هذه الاعترافات ، وعرضت على نفسك الجماعات البشرية ، وخاصة المتمدنة منها ، رأيت العجب العجاب . رأيت الناس قد خلعوا عذرهم ، وركبوا رءوسهم ، يجرون فى أعقاب كل غى ، يتدافعون بالمناكب ، محفوزين اليه شبابا وشيبا ، كأن وراءهم سائقا يلهب ظهورهم بسوط من نار ، باذلين صحتهم ومالهم ، مستهينين بكل تبعة أدبية ، ليصيبوا مما يتزاحمون عليه نصيبا وبيا ، حتى إذا أدركهم الإعياء ، انتظروا ريثما يستجمون قواهم ، ثم عاودوا الكرة على نحو ما تقدم ، دائبين على ذلك ما واتاهم الاحتمال والإمكان ، غير معطين أنفسهم مهلة ليوازنوا فيها بين ما يعطونه وما يحصلون عليه ، كأنهم قد فقدوا نعمة الإرادة والاختيار ، دون أن يحاولوا استرجاعهما ، أو أن يأسفوا على ضياعهما ، يسمعون من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم صيحات التشجيع والتسويل ، بعد أن تكون قد طالعتهم جرائدهم كل صباح من أنباء الملهيات ، وصور المائلين والمائلات ، ما يملؤهم غرورا بما هم فيه .

فإن سمعوا نبأة من نصيح ، وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، استثقالا لما يقول ، وأشاحوا بوجوههم عنه ، إعراضا وسوء تقدير . وكثيرا ما اعتبروه جاهلا بمقتضيات المدنية والروح الجديد .

هذه أحوال فى أطوائها كل ما يستنكره العلم ، وتأباه أصول الاجتماع ، وتنافيه مصلحة العمران ، وفيها ويلة الأخلاق والآداب ، ومجزرة الأعراض والكرامات ، ومضيعة الثروة ، ومفسدة البلاد .

فهل مبدأ الحرية الشخصية التى جاهد الناس للحصول عليها يسمح لهم أن يرتكبوا باسمه كل هذه المخازى ، ويتسكعوا تحت عنوانه فى جميع هذه المنكرات ، الماحقة لكل خير نالته البشرية بعد جهود مضنية ، وتطورات كثيرة شاقة فى خلال العصور ؟

الحرية أصل كريم رُفعت به عن كواهل الآحاد ما كانت تضعه عليها الطبقات المستعبدة لهم من نيور ؛ فانطلقوا أحرارا يعملون ما ينفعهم وينفع أسرهم وأممهم فى حدود القوانين العادلة ، لا هملا خالعى الشكائم الأدبية ، يأتون كل ما تدفعهم اليه أهواؤهم وشهواتهم .

هذا هو الأصل فى تقرير مبدأ الحرية الشخصية ، وهـذا ما يقره كل عرف ، وتؤيده كل فلسفة ، ويندب اليه الدين الحق ، فـكيف تسيغ هـذه المدنية أن تشوّه النفوس الجامحة جمالها ، وتسقط جلالها ، وتظهرها فى مظهر من الإباحة يمجه الطبع ، ولا يوافقها عليه وضع ولا شرع ؟ .

فهل لهـذه الحرية الشخصية مدى أبعد ممـا يتراءى لنا فغَبِينا عنه ، فهى تسمح أن تأتى كل نفس ما يعن لها ، غير حاسبة أقل حساب لمصلحتها ومصالح المرتبطين بها من أهل وعشيرة ومواطنين ، بل غير حاسبة حسابا لمصالح الإنسانية بأسرها ؟ .

لم يشر قانون فى الدنيـا الى هـذا ، بل نصت جميع القوانين على أن الإنسان حر فى أن يعمل بنفسه ما لا يضربها ولا بغيرها ، فإن هو تعدى هـذا الحد أُخذ على يده وأوخـذ على فعله . أما ترى جميع القوانين العالمية تضرب على أيدى المبذرين وتنصب عليهم القامة ، فتحرمهم بذلك المتاعَ بثرواتهم ، وتقطع من ألسنة المتفحشين فتردعهم عن الخوض فى أعراض الناس ، وتردع المستخفين بالآداب العامة ، فتجبرهم على احترامها

ومراعاتها ؟ بل هى تتجاوز هـذا الحد الى ما يعتبر خصوصيا محضا ، فهى تعاقب على البصق والتنخم فى الطرق العامة ، وعلى لبس ما لم يصطلح عليه الناس من الأزياء ، فإذا نجم ما يخشى منه على الصحة العامة امتد تدخل القوانين الى ما هو أخص من هذا ، فإنها تسمح لمثليها بأن يغشوا الدور فيلاحظوا على ما يجـدونه فيها من القذارة ، وأن يأمروا أهلها بتجصيصها ومعاقبتهم على إهمـال ذلك بالحبس والتغريم . فهذا كله لا يعتبر فى تلك القوانين تقييدا للحرية الشخصية ، فيفهم أن هـذا المبدأ لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه بوجه من الوجوه .

فإذا كان هـذا كله حاصلا ، فهل تسمح الحرية الشخصية أن يكتب كاتب كل ما يمليه عليه خياله من حوادث الغرام والتهتك ، فى ألوان من سحر البيان تغرى الشبان والشابات على ورود هذه الموارد المنكرة ، وتأذن لدور التمثيل والسينما أن تمثل ما لا يصح أن يراه الجمهور ، ولا يجوز أن يعرض تحت نظر الأحداث من المناظر التى تثير ما كمن فى الطبيعة البشرية من ميول بهيمية ، وتغـرى ذوى الأمزجة الحـادة بالخروج عن المألوف لتقليد أبطال الأقاصيص التى تمثل أمامهم ، وقد ثبت أنها تفعل فى النفوس الساذجة فعل السحر وأكثر ؟

وهـل يحتمل معنى الحرية الشخصية أن يفتتح من شاء داراً للرقص والفسوق يختلط فيها الجنسان ، ويؤمها من أراد ، غير متحرج من إثم ، ولا متستر من رقابة ؟

وهل تبيح أن تباع الراح فى أكبر شوارع المدن ، فيقصد حوانيتها القاصدون ، يحتسون أم الخبائث عاناً ، ويخرجون منها ثملين يترنحون يمينا وشمالاً ؟ !

هـذه هى الفوارق بين القوانين الوضعية والشرع الإلهى ، وهى فوارق كانت لا توجـد إذا نظر المشترعون للصالح العـام عند سنهم القوانين نظرا بريئا مقرونا بالإخلاص لمصلحة الجماهير ، وبالروية الحـازمة ، أما ولم يفعلوا فقد ناقضوا أنفسهم ، وناقضوا العلم الذى يفتخرون به ، فتركوا بذلك البابَ مفتوحا لـكل الأدواء الاجتماعية التى تولدها تلك التسامحات القانونية .

وما دامت الحرية الشخصية مقيدة بشرط عدم الإضرار بالنفس وبالغير ، فإن الشرع الإلهى ينفذ هذا التقييد ، فلا يسمح لأى فرد بأن يأتى عملا يكون من ورائه ضرر بنفسه أو أهله أو بنى وطنه ، أو أى أحـد من أفـراد نوعه على أية حال من الأحوال .

فهو يحرم الخمر لأنها تضر شاربها ، ويتعدى ضررها الى كل من يرتبط به . ويمنع المقامرة لأنها تضيع الثروات ، وتحل البيوتات . ويردع عن تمثيل الخنا وما يناقض الآداب ، لأنها أمثلة سوء تفسد نفوس من تمثل أمامهم . ويصد عن كتابة الفسوق والعصيان وتصويرها ، لأنها تبعث فى نفوس قارئيها وناظريها الميل الى إتيانها ، وهى أمور لاتقف أضرارها عند حد .

فالشرع الإلهى يجرى من أوامره ونواهيه على منطق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والقوانين الوضعيه لاتحترم هذا المنطق ، فتجرى على اعتبارات ليست من المصلحة الحقة فى شىء ، فهى تبيح الخمر لأنها تجنى من ورائها مكوسا ، وتقر تمثيل الدعارة والفجور عادّةً إياها من الملاهى الضرورية ، لأن وضعة قوانينها يرون ذلك ويعتقدونه ، لا لأنه يعود بشىء من الفائدة على المجموع . وتطيق أن تنتشر الكتابات المخلة بالآداب ، والتى تثير فى نفوس مطالعيها الميول البهيمية ، لأن وضعتها يتخيلون أن ذلك يعتبر أدبا ، والأدب يجب له التشجيع والتأييد .

وقد دلت الدلائل المحسوسة على أن هذا الأدب قد طوح بالنفوس الى متاهات الإباحة ، وجنى على الناس جنايات شنيعة . وقد ابتنى على كل هذه الإباحات أن أصبحت كلمة (مدنية) مرادفة لكلمة (إباحة) . فكيف لا تنشأ فى هذا الجو المشحون بضروب المسولات والمغريات جميع صنوف الإفراطات والتفريطات الخلقية ؟

إن العالم المتمدن ليغلى اليوم غليان المرجل على نار شديدة ، ويتمخض عن أغرب ما يتصور من شكول المذاهب والآراء والفلسفات المتطـرفة ، وتعصف به أزمات

اقتصادية واجتماعية لو دُرست من قرب لكانت أسبابها المباشرة ما أثمره بهرج الحرية الشخصية الزائفة ، من جو مشحون بالمرامى الباطلة ، والمزاعم العاطلة ، التى تولدها نفوس تطالب المتاع المادى اغتصابا لا اكتسابا ، وإفراطا لا اعتدالا .

أنا لا يخالجنى أقل شك فى أن كل هذه الإفراطات والتفريطات ستعمل على رد الناس الى طريق الحق المستقيم ، فهو وحده ملاذ اللائذين ، ومرد الغالين والمقصرين ، وإذ ذاك يجد الناس أنفسهم فى منطق الدين ، فتخلص الإنسانية من كل هذه الشرور ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟ **محمد فريد وجدى**

مجاهدة النفس

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشديد من غلب نفسه » .

وقال عون بن عبدالله : إذا عصتك نفسك فيما كرهت ، فلا تطعها فيما أحبت ، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك .

وقال الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين : يجب أن يكون (يريد الانسان) فى التهمة لنفسه معتدلا ، وفى حسن الظن بها مقتصدا ، فانه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمها فأودعها ذلة المظلومين ، وإن تجاوز بها الحق فى مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل .

وقال الأحنف بن قيس : من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم .

وقال بعض الحكماء : من رضى عن نفسه أسخط عليه الناس .

وقال كشاجم :

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها ورضا الفتى عن نفسه إغضابها
ولو اننى عنها رضيت لقصرت عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثرت عذلى عليه فطال فيه عتابها

وقال حكيم : من قوى على نفسه تناهى فى القوة ، ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروءة .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال صلى الله عليه وسلم : (اتَّقِ المحارمَ تكُنْ أعبدَ الناسِ، وَارضَ بما قَسَمَ اللهُ لك تكنْ أغنى الناس، وأحسِنْ الى جارِكَ تكُنْ مسلماً، وأحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسكَ تكنْ مؤمناً، ولا تكْثِرِ الضحكَ فإنَّ كثرةَ الضّحكِ تميتُ القلبَ) رواه أحمد والترمذى والبيهقى .

هذا من جوامع الكلم وروائع الحكم، تضمّن شعبا كثيرة من الطرق الموصلة الى السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية، سعادة الفرد، وسعادة المجموع .

ولقد اشتمل على خمسة أوامر وثمارها، وما من ثمرة منها إلا وهى مطمح الأنظار ومتجه الأفكار .

الجملة الأولى « اتق المحارم تكن أعبد الناس » :

مامن امرىء مؤمن إلا وهو يتمنى أن يتاح له أعظم قسط من العبادة، ويحب أن يكون من أولى الزلفى عند الله، الحائزين لرضوانه، المشمولين برحمته وإحسانه، إلا أن النفس ملولة سئومة، إذا حملت قسطا كبيرا من النوافل انتهضت به حينا وفترت عنه أحيانا، وربما شاب فتورها شىء من الضجر والكراهية، فيكون مالحقها من الضرر لتكرهها من العبادة أضعاف ما نالت من المثوبة بما أدت من النوافل . ومهما احتاط المرء لنفسه واستيقظ فى معالجتها وراقبها فى أطوارها، فهو عرضة فى بعض غفلاتها للاستراحة البتة، وقد يستمرئها فيركن اليها ويستطيبها، فإذا أراد قطع ذلك عليها أحس بعراك

شديد بين عامل الطبع الحاضر وعامل الثواب العاجل . ومن ذا الذى يضمن أن يكون مالكا نفسه وضابطا زمامها يسيرها فى كل آن وفى كل حالة طبق ما يراد منها ؟ اللهم إلا من اصطفاهم الله من خيرة عباده ، وتولاهم بتوفيقه ورعايته ، وقليل ماهم . ألا ترى الى قوله جل شأنه : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ) . وما يدريك فلعل بعض المكثرين من النوافل المستغرقين فيها أوقاتا كثيرة قد يتطرق الى أحدهم من المنهيات النفسية الخفية ما تكون السلامة منه أكبر غنيمة .

أما إنه ليوجد فيهم من هو عرضة للعجب والعزة والاستكبار بما قام به من عبادة ، ومنهم من ينقم على الناس أنهم لم يعرفوا له منزلته من الطاعة فيعطوه من الإجلال والتعظيم ما ينبغى لمثله ، ومنهم من تميل نفسه الى أن يُعرف عنه مايقوم به فيدخل من الرياء فى شغل شاغل . لا نريد بذلك التنفير من إكثار النوافل والقربات على اختلاف أنواعها ، فذلك مالا يقدم عليه مؤمن معترف بما يطلب منه لربه من عظيم الشكر ، وإنما نقول : إن الطريق المضمون السلامة والتوصيل الى الفلاح واكتساب رضا الله هو توطين النفس توطينا صادقا على اجتناب مانهى الله عنه ، خوفا من الله ، وامتثالا له ، فقد قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ)وقال جل شأنه : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) .

وليس بخاف على أحد أن من اتقاء المحارم أداءَ الواجبات والفرائض،فإن الإخلال بشىء مما أوجبه الله على عباده محرم يقينا ،فمن ترك فرضا فرضه الله فليس بمتق المحارم. فكلمة « اتق المحارم » تشتمل على الأمر بأداء الواجبات واجتناب المنهيات . ومن قام بكليهما امتثالا لأمر ربه فقد أفلح ولو لم يأت معها بالتطوع ، فقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل علىّ غيرهن ؟ قال : لا إلا أن تطوع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وصيام رمضان ، فقال : هل علىّ غيره ؟ فقال : لا إلا أن تطوع ، وذكر له

الزكاة ، فقال : هل علّى غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع ، فأدبر الرجـل وهو يقول : لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح إن صدق . وفى رواية : دخل الجنة إن صدق . وروى فى حديث مثله : لئن صدق ليدخلن الجنة . فهذا الوعد منه صلى الله عليه وسلم مؤكدا بالقسم كما ترى فى الرواية الأخيرة ، ومعبرا عنه بالفلاح فى الرواية الأولى ، هو منتهى ما تسمو اليه نفس المؤمن . وإذا أضيف اليه الآيتان المتقدم ذكرهما وهما قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقوله تعالى : «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى» ازداد الأمر وضوحا ، وازدادت النفس به يقينا واطمئنانا .

وبعد : فلا يذهب عليك أن كون تارك المنهيات أعبد الناس لا ينفى أن بين أفراده تفاوتا، فالتارك لها الذى يضم الى تركه إكثار النوافل والقُرَب ، يزيد على المقتصر على الترك بدون أن يضيف الى تركه إكثار النوافل ، وإن كان كلا منهما فى العبادة أرقى ممن يقع فى بعض المنهيات أحيانا مهما أكثر من التطوع .

ثم إنك إذا نظرت الى روح العبادة وثمرة التدين تجدها متجلية فى كف النفس عن المناهى (ومِن ضمن ذلك الكفِّ القيامُ بأداء الفرائض على ما سبق) وتجليها فيها أكثر من تجليها فى الأوراد والأذكار والإكثار من القرب . ذلك أن روح العبادة وأثرها يظهران أتم ظهور فى ضبط النفس وإيقافها عند حدود الشرع . وتجد هذا المعنى فى الصبر عن المنهيات أشق وأصعب على النفس منه فى الإتيان بالقرب النافلة ، فقد قالوا : الصبر صبران ، صبر عن الشىء ، وصبر على الشىء ، وأشقهما أولهما ، ذلك أن الصبر على الشىء فى الغالب محدود المدة قصيرها ،وذلك ريثما ينتهى وقت ذلك الشىء ؛وأما الصبر عنه فهو دائم متجدد كلما سنحت فرصة . وإذا رجعت الى مراقبة نفسك وجـدت فيها مصداق ذلك ، فقد يسهل أن تمضى معظم الليل فى صـلاة وتسبيح وقراءة وذكر وأمثال ذلك وتطيقه حيث صممت عليه ، ثم تبتلى النفس برغبة تملك عليها نواحيها ،فيكون

علاجها بكبحها عنها من أشق ما تقاسيه ، وقد تصرفها عنهـا الآن فتعاودها الظروف مرة أخرى فإما غلبتهـا وإما غلبتك ، ولئن ظننت أن الأمر سهل فى بعض المنهيات الظاهرة ، فكم فيه من صعوبة فى أمراض النفوس الخفية ونزغاتها الشيطانية ، وكم يجد المجاهد لنفسه من الصعوبات فى تنزيه نفسه من الأثرة وتحبيبها فى الإيثار ، ومن الغضاضة عليها فى فوات أمر كانت تبتغيه فيظفر به غيرها ، والمرجع فى كل ذلك الى التوفيق الإلهى والمعونة الربانية . نسأله عز شأنه أن يمنحها من ذلك حظا كبيرا .

الجملة الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » :

ليس أشق على النفس وأشد إذلالاً لها من الفقر والحاجة . وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم فى دعائه من الفقر والعيلة . وجاء فى دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك » ومن ذا الذى يتصور الفقر ولا يفزع الى الله فى أن ينجيه منه ومن شره ؟ إلا أن الفقر فقران : أحـدهما فقر بفقد ما تدعو ضرورة الحياة اليه ولا تستطاع الحياة بدونه ، وهذا لا لوم على المرء فى التخلص منه ، بل يجب الجد فى السعى لسد الخلة وإصابة الرزق ، فالتخلص منه بالسعى فى طلب الرزق من وجوه الحل مأمور به شرعا ، قال تعالى : (فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ) والثانى فقر بفوت رغائب النفس ومحابها التى تتطلع اليها ، وهذا لا نهاية له ، فتى أولعت النفس بتحصيل محابها فهى مولعة دائما أبدا . ولله در القائل :

نروح ونغدو لحاجاتنـا وحاجات من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

وقد ورد « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى ثانيا ، ولو كان له واديان لتمنى ثالثا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » . هذا النوع هو المتعبة الـكبرى ، وهو باب البلاء ، وموجب الشقاء فى الآخرة والأولى . هذا هو الموقع

فى التهالك على حب الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة . هذا هو المنغص للحياة ، المشقى للنفوس ، المفوت للسعادة ، الصارف للمرء عن شكر ربه . هذا مدعاة لاحتقار المرء نعمة ربه عليه ، وذهاب نفسه حسرات على ما حرم منه ، فإذا ما أحرزه هان أمره فى نظره ، وانصرفت نفسه عنه الى إحراز ما فقده ، وهكذا دواليك ، فمن كان هذا شأنه فإن نفسه لا تستقر على حال من القلق ، ولا ينعم له بال بنعمة .

ومن الأساطير الخيالية ما يحكى — على طريقة ضرب المثل — أن رجلا فقيرا كان يقتات بقطع الحجارة من الجبل ، فمر عليه ملك بأبهته ، فجاء الجند يدفعونه من طريق الملك بإزعاج واحتقار ، فشق عليه ذلك ، فدعا أن يكون ملكا ينحى الناس من طريقه ولا ينحى هو من طريق غيره ، فلما استجيب له خرج يوما للصيد فغاظه حر الشمس حتى اضطر أن يتقيها بظلة ، فغاظه أن يغلبه شىء وهو فى عزة ملكه ، فتمنى أن يكون تلك الشمسَ التى تُتقى وهى لا تتقى شيئا ، فكأنه تم له ذلك وإذا بالسحاب يمنع شعاعها أن ينفذ الى ما أرسلت اليه ، فلم يرقه ذلك وتمنى أن يكون هو السحابَ الحاجب لا الشعاع المحجوب ، فلما كان سحابا وجد الجبل يعترضه فى سيره فيمزقه إربا ويفرقه شعبا ، فتمنى أن يكون الجبلَ وإذا بالحجّار يتسلط عليه ويقطعه بفأسه ، فطلب أن يعود هو ذلك الحجار .

فهلا ترى أمانى الحياة على هـذه الوتيرة ، ما من أمنية إلا وهى مشوبة بنقص يكون قـد استكمل فى أخرى ، ألا ترى كم يتمنى الأغنياء صحة الفقراء وابتهاجهم بمعيشتهم وغبطتهم بمرحهم ! ألا ترى أن التاجر ينظر الى ما فيه الموظف من ضمان المرتزق والخلوص من الفزع لمراقبة صعود الأسعار وهبوطها ، مع ما هو فيه من عزة ونفوذ ، وهذا يتمنى ما هو فيه من رزق مستور مبارك فيه ليس بمعدود ولا محدود ، مع كفالة حريته وتصرفه حسبما يريد لا حسبما يراد منه ، وكلاهما يرى ما ينعم به الزارع من طلاقة جو وتقلب بين الخضرة والماء تحت أشعة الشمس الصافية ، وهو يتمنى ماهما فيه من رفاهية ونعومة عيش ! وهكـذا ما من حالة إلا وفيها ما يرغب فيه وما يشتكى

منه ، وإذا قالوا : « إن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » فإن هذا القول منطبق على كل نعمة لا يكاد يراها إلا من حرم منها ، وقد يكون متمتعا بخير منها فيذهل عنه ويتطلع إليها ، اللهم إلا من وفقه الله لشكر نعمته « وقليل من عبادى الشكور » .

ولقد جاءت هذه الجملة فى الحديث الشريف تنير الطريق لمن يبتغى أن يكون سعيدا فى حياته هنيئا فى معيشته ، فردت نفسه عن أطماعها ، وأبانت أن إحراز كل الرغائب غاية لا تنال ، وأن الغنى إنما هو فى القناعة والرضا ، فارض بما قسم الله تكن أغنى الناس .

الجملة الثالثة « وأحسن الى جارك تـكن مسلما » :

الجوار مظنة المنافسة ، وطريق لتزاحم المصالح ، ومؤد الى تعارض المنافع ، ولا يخلو غالبا من احتـكاك يولد الشر بين المتجاورين ، ومَن منّا لم يشهد ذلك ولو فى بعض الأحيان ، أو فى غيره من الناس المتجاورين إذا كان قد من الله عليه وعلى جيرانه بالسلامة مما ذكرنا ؟ ولـكنه مع ذلك أمر لا بد منه ولا مفر عنه ، فقَلّ من الناس من يستطيع المعيشة منفردا منعزلا ؛ ثم لا بد أن ينتظر فيه الجيران بعضهم من بعض معونة ومساعدة على مهام الحياة . فالجوار إما متعبة منغص ، وإما نعمة مرفه ، وبهذا وذاك تحلو الحياة ، ويتفرغ كل من الجارين لعمله ، مؤتنسا بجاره مستندا اليه ، أو تمَرّ وتشقى ، وينشغل كل منهما بمراقبة الآخر والحذر من ضرره ، وأعمال المـكايد للإيقاع به . وكم بين الحالين من تفاوت . فالجوار نعمة عظمى ، أو نقمة كبرى .

ولقد جاءت هـذه الجملة تبين للناس طريق الخلوص من الشقاء والشرور ، وتنير طريق الانتفاع المتبادل بينهم . وليس أبلغ فى ذلك من فتح باب الإحسان والتراحم بينهم بعضهم مع بعض ، وجعل ذلك من موجبات الاسلام ومقتضيات الدين ، ومتى فتح باب الإحسان من جانبٍ تبعته المحبة من الجانب الآخـر ، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، ومتى سادت المحبة بينهم فقد تم التعاون والتساند ، وأصبحوا كما جاء فى الحديث فى صفة المؤمنين أن مثلهم كمثل الجسد الواحـد إذا اشتـكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسان

وإن الإحسان الى الجار لأبلغ من الإحسان الى غيره، لأنه يطفىء جمرة المنافسة، ويعطف المتقاربين فى الأماكن، حتى يكون بينهما اقتراب فى القلوب.

وحق الجار فى الإحسان زائد على ما تقتضيه الأخوة العامة بين المسلمين من الحقوق، فقد روى أن الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق، وهو الجار المسلم ذو الرحم، وجار له حقان، وهو الجار المسلم، وجار له حق واحد، وهو الجار المشرك، وقد كان بعض الصالحين يبدأ فى الإحسان بجاره الكافر كأنه يخشى أن ينزلق إليه الشيطان بوسوسته، فيزين له الإعراض عنه لكفره، فيبدأ به سدا لطريق وسوسته، فإن إبليس يسلك للنفوس الخيرة من طريق التلبيس.

ولا يقتصر حق الجار على كف الأذى، بل منه احتمال أذاه ما أمكن، وإسداء الخير والمعروف اليه، وغض البصر عن عوراته، وألا يتجسس على أحواله، وألا يضايقه فى المرافق المشتركة، وأن يعود مرضاه، ويشاركه فى مسرته، وينعشه من صرعته، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته. ويتلطف بولده فى الإرشاد والإيناس، ويرشده الى ما يجمله فى أمر دينه ودنياه، وحسبك فى تحديد هذا ما رواه الامام أحمد والطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم: كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟ قال: «إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت» فانظر كيف جعل مقياس الإحسان والإساءة ما يتسمع عن المرء من جيرانه.

الجملة الرابعة «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا»:

ومعنى محبته للناس ما يحب لنفسه: أن يحب لهم إحراز الخير فى الدنيا والدين كما يحب لنفسه ذلك، وهذه المحبة تشمل كل الناس حتى الكافر، فيحب له أن يهتدى كما اهتدى، وأن يسعد كما سعد، فإن من أحب الكفر للكافر فقد كفر أو كان على خطر.

ولما كانت المحبة معنى فى القلب ، وذلك يناسب الإيمان القلبى وكان الإحسان معنى عمليا ، رتب الاسلام على الإحسان للجار فى الجملة السابقة ، ورتب الايمان على المحبة فى هذه الجملة ، وإن كان كل من الاسلام والإيمان لاينفرد عن الآخر فى نظر الشارع .

الجملة الخامسة قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » :

وهى حكمة عالية ، وثمرة غالية ، وزنت بميزان معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط ، فلم ينه عن أصل الضحك بحيث يكون المرء دائم العبوس والانقباض ، ولم يطلق سراحه بحيث يكون المرء ضُحَكَةً مهزارا ، فذلك مما يؤدى الى الابتذال والإعراض عن المهام ، واللهو عن الواجبات ، وهو معنى موت القلب ، كما أن دوام العبوس منفر مذهب لثمرة الألفة بين الناس . ولقد كان صلى الله عليه وسلم يضحك قليلا ، وكان ضحكه التبسم ؛ وكان يضحك حتى تبدو نواجذه . والمراد بعدم إكثار الضحك عدم كثرة مراته بحيث يصبح عادة وديدنا له ، وعدم الإغراق فيه بحيث يخرج عن حد الوقار .

وترى التناسب بين هذه الجمل تاما من جهة أنها تشترك فى تحصيل السعادة للنفس ، والراحة للقلب ، والهناءة فى الحياة ، والرضا فى المعيشة للفرد وللمجموع ، فإن شعور النفس بإحرازها من العبادة قسطا وافرا مرضاة لها ، وراحة لضميرها ؛ وكذلك شعورها بالغنى وعدم الحاجة يوجب من ذلك حظا عظيما . ولا يخفى ما فى الإحسان للإنسان وحب الخير للغير من دواعى الغبطة وشمول المسرة وكمال الابتهاج . وهنا تشعر بجمال ارتباط الجملة الخامسة بتلك الجمل ، إذ كانت كالحارس المنبه ، لتحول بين النفوس وبين الإفراط فى المرح والمسرات ، والاسترسال فى الضحك والمزاح ، مما لا يليق بهذه الحياة الدنيا والدين ، التى ينبغى أن تكون حياة الجد والعمل ، والتسابق الى إحراز الخير والفضل من شئون الدنيا والدين ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، إنه قريب مجيب ؟

ابراهيم الجبالى

عمر الفاروق رضى الله عنه

هو الخليفة الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أبوه الخطاب بن نفيل القرشى العدوى ، وأمه حنتمة بنت هشام .

كان عمر فى الجاهلية من الذين انتهى اليهم الشرف من قريش ، إذ كانت له السفارة فيهم .

وكان من التجار المعروفين بالأمانة وصدق المعاملة ، وبقى كذلك تاجرا حتى تولى أمر الخلافة .

اشتهر عمر الفاروق فى الجاهلية بالمنعة ، وعزة الجانب ، وشدة البأس ، فأعز الله المسلمين بإسلامه ، فقد كانوا قبل أن ينضم اليهم يجتمعون فى دار الأرقم مستخفين هربا من اضطهاد قريش ، فلما أسلم عمر قال : يارسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قليل وقد رأيت مالقينا . فقال له عمر : والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان ! ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفين من المسلمين ، حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر ، حتى دخلوا المسجد ، فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة . ومن هذا اليوم أسمى رسول الله عمر بالفاروق ، لأنه فرق بفعلته هذه بين الحق والباطل ، وقال المشركون : قد انتصف القوم منا .

صحب عمر الفاروق النبى صلى الله عليه وسلم أخلص صحبة ، وبذل فى نصرته نفسه وأعز عزيز عنده ، وكان يؤثر عنه من الغيرة فى الدين مالا يصدر إلا ممن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .

كيف انتخب للخلافة :

ذكر ابن الجوزى فى السيرة العمرية عن عاصم قال : جمع أبو بكر الناس وهو

مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ! احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فإنها غرارة ، وآثروا الآخرة عليها وأحبوها ، فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى . وإن هذا الأمر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة ، وأملككم لنفسه ، أشدكم فى حال الشدة ، وأسلسكم فى حال اللين ، وأعلمكم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ، ولا يحزن لما نزل به ، ولا يستحيى من التعلم ، ولا يتحير عند البديهة ، قوى على الأمور ، لا يجوز بشىء منها حده بعدوان ولا تقصير ، يرصد لما هو آتيه أعتاده (أى أدواته) من الحذر والطاعة ، هو عمر بن الخطاب » .

ثم نزل ، فتولى من رضى بما قاله أبو بكر إقناعَ الساخط عليه ، فتم لعمر الأمر .

تولى عمر الفاروق بإجماع من المسلمين ، فكان مثال العدل والزهد والمرحمة ، ضربت به الأمثال فى حب الرعية والسهر على راحتها ، والدأب على ما فيه صلاحها .

لما استتب له الأمر رقى المنبر فخطب الناس ، فقال بعد أن حمد الله وصلى وسلم على نبيه :

« إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » !

أول عمل عمله الفاروق رضى الله عنه بعد توليه الخلافة إرسال سعد بن أبى وقاص لحرب الفرس ، وعزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش بالشام وإسنادها لأبى عبيدة ابن الجراح ، وبعث يَعْلَى بن أمية لإجلاء نصارى نجران من بلادهم باليمن . وهو رأى خاص له ، فقد رأى إذ ذاك من المصلحة أن لا يكون فى جزيرة العرب دينان ، ولكنه عهد لمن أرسله فى أن يتلطف فى إجلائهم ما استطاع فقال له :

« ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلهم : من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم ،

وامسح أرض كل من تجلى منهم ، ثم خيرهم البلدان ، وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضا كأرضهم، إقرارا لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك ، بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف » .

وكتب لهم كتابا هذا صورته :

«أما بعد : فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض ، وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن » .

فاختار بعضهم النزول بالشام ، وبعضهم النجرانية قرب الكوفة ، وبهم سميت .

ليس فيما فعله عمر إجحاف بهؤلاء القوم ، فإنه لم يفعل ذلك كراهة أن يجاور المسلمون مخالفيهم فى الدين ، ولكنه فعله لأمر كان يقتضيه الحال فى ذلك الوقت ، ولم يقذف بهم خارج المملكة الاسلامية ، ولكنه خيرهم فلم يختاروا إلا جوار المسلمين ، لما عهدوه فيهم من التسامح وحسن المعاملة ، فاختار بعضهم النزول بالشام ، وبعضهم النزول بقرب الكوفة .

فتح بلاد الشام :

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجّه أبا عبيدة وخالد بن الوليد لفتح الشام وكانت فى يد الرومانيين ، فحدثت بين الفريقين وقائع أولية توفى فى خلالها أبو بكر وتولى الخلافة عمر فعزل خالدا عن القيادة العامة وولاها أبا عبيدة وحده ، فحدثت واقعة اليرموك التى انهزم فيها الرومانيون شر انهزام ؛ فتقهقر أمبراطورهم الى حمص ، وولى أخاه القيادة العامة .

أما قائد المسلمين أبو عبيدة فإنه بعد انتصاره فى معركة اليرموك خرج حتى نزل بمرج الصفر ، وهنا لك سمع بأن المنهزمين اجتمعوا بمدينة فِحْل ، وأن مددا أتى أهل دمشق ، فلم يدر أيبدأ بدمشق أم بفحل ، فكتب يستشير عمر ، فأمره أن يبدأ بدمشق

لأنها عاصمة الشام، فتقدم اليها وحاصرها نحوا من سبعين يوما. وكان أبو عبيدة أرسل جيشا تحت إمرة ذى الكلاع ليرد عن دمشق كل مدد يأتى من حمص، فضعف أهل دمشق عن تحمل الحصار. وفى أثناء ذلك ولد لقائد دمشق مولود، فاحتفل به أهلها فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقعهم، فاتخذ خالد بن الوليد سلالم من الحبال وندب معه جماعة، فتسوروا السور ونزلوا الى الباب ففتحوه وأمر الجيش بأن يقتحمه، فهاج أهل دمشق وطلبوا الصلح وفتحوا جميع أبواب المدينة وأمر الجيش بأن يقتحمه، فذعر أهل دمشق وطلبوا الصلح، وفتحوا بقية الأبواب. وكان ذلك سنة ١٣

وقعة فحل بين المسلمين والرومانيين:

بعد فتح دمشق اتجه جيش المسلمين لمناجزة هرقل أمبراطور الرومانيين، فسار اليه أبو عبيدة فجعل خالد بن الوليد فى المقدمة، وجعل نفسه وعمرو بن العاص على الميمنة والميسرة، وجعل ضرار بن الأزور على الخيل، وعياضا على المشاة، وسلم القيادة العامة لشرحبيل بن حسنة. فلما انتهوا الى أبى الأعور، وكان بين الأردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق، قدموه الى طبرية فحاصرها ونزلوا هم بفحل. وكان الرومانيون قد رأبوا صدوعهم وجمعوا فلولهم، واعتزموا أن ينزلوا بالمسلمين كارثة، فباغتوهم ليلا فدارت رحى معركة حامية انهزم فيها الرومانيون، وحالت دون إفلاتهم عوائق، فوقعوا أسرى فى أيدى المسلمين.

ثم انصرف أبو عبيدة ومعه خالد الى حمص، وسار شرحبيل بن حسنة الى بيسان وطبرية، ويزيد بن أبى سفيان الى سواحل الشام.

أما أهل بيسان فتحصنوا فى مدينتهم ثم انتهى أمرهم بالصلح. وصالح أهل طبرية أبا الأعور على أن يبلغ الأمر الى شرحبيل، ونزل قواد المسلمين فى مدن نهر الأردن وقُراها.

فلما سمع أمبراطور الرومان ما حل بجنوده رأى أن يرسل جيشا الى دمشق ليشغل أبا عبيدة عن حمص ، فنزل ذلك الجيش فى مرج الروم غرب دمشق ، فأسرع أبو عبيدة ومعه خالد فنازلا ذلك الجيش الذى سار قسم منه الى دمشق ، فتبعه خالد واستقبله يزيد ابن أبى سفيان فاقتتلوا ، فلم يفلت منهم إلا الشريد ، وقتل خالد بيده قائدهم .

أما أبو عبيدة فقاتل من كان تخلف من ذلك الجيش بمرج الروم ، فأصاب الرومان فزع عظيم ، وقتل قائدهم .

فتح سواحل الشام :

ذكرنا أن أبا عبيدة وجّه يزيد بن أبى سفيان لفتح سواحل الشام ، فجعل يزيد على مقدمته أخاه معاوية بن أبى سفيان ، ففتح صيدا ثم عرقة وجبيل وبيروت ، فاسترد الرومانيون بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان ، فقاتلهم معاوية حتى أجلاهم عنها .

فتح حمص :

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك ، وقدم السمط بن الأسود إليها ، وأرسل خالد بن الوليد الى البقاع فافتتحها ، ونزل أهل بعلبك فصالحوا أبا عبيدة .

ثم توجه الى حمص فوجد السمط بن الأسود قائده هنالك قد صالح أهلها ، فأجاز صلحه .

فتح فلسطين وأجنادين :

لما سار أبو عبيدة من فحل الى حمص وافتتح عمرو بن العاص وشرحبيل بيسان ، وصالحهم أهل الأردن ، وقصد عمرو فلسطين ، كتب أمير المؤمنين عمر الى يزيد بن أبى سفيان وهو أخو معاوية ليشد أزرهم من خلفهم ، وأن يسرح أخاه معاوية الى قيسارية ، وأمر عمرو بن العاص بمقاتلة القائد الرومانى المشهور المسمى

الأرطبون فى أجنادين ، ووجه علقمة بن محرز لصد القائد الرومانى المسمى الفيقار فى غزة .

فصدع معاوية بالأمر ، فوجد فى قيسارية جنداً للرومان ، فقاتلهم وانتصر عليهم وافتتح المدينة .

وأما علقمة بن محرز فحصر قِرنه الفيقار ، وضيق عليه الخناق .

وأما عمرو بن العاص فسار نحو الأرطبون ، الذى تتابعت عليه الأمداد من هرقل ، فسفرت بينه وبين عمرو السفراء ، وتظاهر عمرو نفسه مرة أنه سفير ودخل على الأرطبون ، وأبلغه ما يريد ، وسمع كلامه ، وتأمل حضوره . فحدثت الأرطبون نفسه بأن هذا السفير هو قائد المسلمين نفسه ، فأرصد له فى الطريق من يقتله ، ففطن عمرو لذلك ، فاحتال بحيلة ، وذلك أنه قال للأرطبون قبل أن يبرح معسكره : إن معى قوماً هم شركائى فى الرأى ، فأمرنى أن أذهب فآتيك بهم . فأجابه الأرطبون الى ذلك ، وأرسل لمن أرصده لقتله أن لا يتعرض له ، فذهب عمرو ولم يعد . وأمر عسكره بالزحف على عدوه ، فحدث اقتتال عنيف انتهى بهزيمة الرومانيين ، فانتقلوا الى إيليا ، فأفرج له المسلمون الذين كانوا يحاصرونها ودخلها ، ثم اضطر للتقهقر الى أجنادين .

فتح بيت المقدس :

لما فتح عمرو أجنادين ، ترك أهل بيت المقدس محصورين ، وشرع يتمم فتح مدن فلسطين ، فافتتح غزة ، واللد ، ونابلس ، وبيت جبرين ، ومرج عيون ، ويافا . ثم قصد بيت المقدس ، وأخذ يخابر بها الأرطبون ، فامتنع عليه ، ثم بدا لأهل المدينة أن يصالحوا المغيرين عليهم خوفاً على كنيستهم الكبرى أن تتهدم بسبب الحركات الحربية ، ولكنهم اشترطوا على محاربيهم أن يحضر أميرهم نفسه ليتفاوضوا فى شروط الصلح وأن يوقع عليه بنفسه . فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر يخبره بهذا الأمر ، فأسرع بالشخوص بنفسه الى ميدان القتال ، وتولى بنفسه أمر المفاوضة فى شروط الصلح

وأراهم من سماحة الاسلام ما لم يكونوا يتوقعونه ، ثم وقع بنفسه على تلك الشروط ، ورجع الى المدينة .

سار عمر وأمر قواده أن يوافوه بالجابية ، فكان أول من لقيه يزيد بن أبى سفيان ثم أبو عبيدة ، ثم خالد على الخيول ، وكانوا فى رواء وأبهة ، فكبر على عمر أن يرى آثار الترف بادية على رجاله بعد تلك الخشونة والشظف ، فنزل عن دابته ، وأخذ أحجارا من الأرض فرماهم بها ، وقال :

«سَرْعَ مَا لُفتم عن رأيكم ، إياى تستقبلون بهذا الزى ، وإنما شبعتم منذ سنتين ! سرع ما ندت بكم البِطنة ، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » !

فقالوا : يا أمير المؤمنين إنها يلامعة ، وإن علينا السلاح (اليلامعة ماللمع من السلاح)

قال عمر : فنعم إذاً ، وركب حتى دخل الجابية ، وبينما هو بها إذ جاء أهل بيت المقدس — وكانت تسمى إيلياء — طالبين الصلح ، طائفين على كنيستهم العظمى وقبلتهم المقدسة ، فأمنهم عمر رضى الله عنه على أموالهم وأعراضهم ودينهم ، وكتب لهم بذلك عهدا ، وكان ذلك سنة خمس عشرة .

ثم قصد أمير المؤمنين بيت المقدس حتى انتهى الى المسجد الأقصى فصلى فيه ، ثم قام الى كناسة كان الرومان جعلوها على محل هيكل لليهود هدموه وألقوا عليه تلك الكناسة نكاية فى بنى إسرائيل ، فقال : أيها الناس اصنعوا كما أصنع ، وجثا فى أصلها ، وحثا التراب فى ذيل ثوبه ، فسمع تكبيرا من خلفه ، وكان يكره سوء النظام فى كل شىء ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : كبر كعب الأحبار وكبر الناس بتكبيره ، وكان كعب هذا حبرا من أحبار اليهود بالمدينة صحب النبى وصاحبيه ولم يشأ أن يسلم حتى تتحقق جميع العلامات التى قرأها فى كتب بنى إسرائيل عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم أسلم فى خلافة عثمان . فقال عمر : علىّ به . فأتى به ، فسأله عن سبب تكبيره ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ بما صنعت نبى منذ خمسمائة سنة .

فتح حماة واللاذقية وقنسرين :

فتح هذه البلاد الثلاثة أبو عبيدة بن الجراح قبل مسيره من مدينة حمص .

صالحه أهل حماة ، ثم بعث خالد بن الوليد الى قنسرين ، وسارهو الى اللاذقية فامتنع عليه أهلها ، فأمر الجند أن يحفروا أسرابا فى الأرض كل سرب يستر الرجل وفرسه ، فأظهر القفول الى حمص ، فلما جن عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم ، وأهل اللاذقية يظنون أنهم انصرفوا ، ففتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم، فلم يرعهم إلا أن صبحهم المسلمون ، فطلبوا الأمان، فصولحوا على خراج يؤدونه ، وبنى المسلمون بها مسجدا لهم .

وأما خالد فلما وصل الى قنسرين زحف اليه قائدها ميناس بجيش الرومانيين ، فاقتتلوا قتالا عنيفا ، فقتل ميناس ، وأسلم بعض أهلها ، وأقام بعضهم على النصرانية ثم أسلموا بعد ذلك .

فلما فرغ من حاضر قنسرين وهى قرية قريبة من قنسرين ، تحصن منه أهل تلك المدينة ، فقال لهم خالد : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الله الينا . فنظروا فى أمرهم فرأوا أن يصالحوه ، فأبى إلا إخراب قلعتها فأخربها .

أما هرقل فقصد بعد حمص أنطاكية ، ثم انتقل عنها الى الرها فى الجزيرة ، ليجمع جيشا يمد به أهل حمص قبل سقوطها ، ففطن له المسلمون فأرسلوا اليه عمرو بن مالك من قبل قرقيسيا ، وعبد الله بن المعتم من الموصل ، والوليد بن عقبة من الجزيرة بجيوش من المسلمين ، وكذا لحقهم من قنسرين خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، فاضطر هرقل أن يرحل الى القسطنطينية .

فلما بلغ عمر ما فعله خالد قال : لقد أمّر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم منى بالرجال .

قال عمر ذلك لما رآه من جليل أعماله ، وقد كان عمر عزله عن القيادة العامة ، وعزل المثنى بن حارثة الشيبانى ، وقال : إنى لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما ،

فخشيت أن يوكلوا اليهما (أى خشيت أن يكلهم الله اليهما ، مع أن النصر من عنـد الله لا من عندهما) .

فتح حلب وانطاكية وغيرهما :

لما أتم أبو عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها ، سار الى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى ، فوجد أهلها متحصنين فحاربهم حتى طلبوا الصلح .

ثم قصد حاضر حلب ، فصالح أهله على الجزية ، ثم إنهم أسلموا بعد . ثم وجه همته الى حلب نفسها فحاصرها ، ثم انتهى أمرها بالصلح . فلما سار عنها نقض أهلها العهد ، فأرسل إليهم عياض بن غنم ، وحبيب بن مسلمة الفهرى ، ففتحاها على الصلح الأول .

بإتمام فتح هذه المدينة تم للمسلمين فتح سورية كلها . وأعظم مايلفت النظر فيه غلبة الجيوش الإسلامية على الجيوش الرومانية ، وهو حادث جالل فتح المسلمين مجال الفتوح واسعا لا يجرؤ أن يقف فى وجوههم فيه أحد .

هـذا هو القسم الأول من سيرة الفاروق رضى الله عنه ، فإن سيرته لا يمكن إيرادها فى عدد واحد ، لاستيعابها صحفا كثيرة ، فنرجىء ما بقى منها الى العدد المقبل ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

علو الهمة وشرف النفس

قال شاعر حكيم :

أمطرى لؤلؤا سماء سرنديـ ب وفيضى أنهار تبريز تبرا
أنا ما عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همـة الملـوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

هـذا أحسن ما يمكن تصويره شعرا من علو الهمة ، وعدم الاستخذاء للذلة ، فما دام الانسان مهما طالت به حياة ، لايعدم ما يقيمه من القوت من طريق الكسب ، ومادام لومات فلن يعدم قبرا يؤوى جثمانه ، فما الذى يضطره الى حمل نير الذل ، والرضا بالهوان فى سبيل العيش ؟

بَابُ الأَسْئِلَةِ وَالفَتَاوَى

مسائل تتعلق بصلاة الجمعة

جاءتنا أسئلة كثيرة فى هذا الموضوع نقتصر منها على سؤالين، وفى الجواب عنهما جواب عن كل ماوردنا فى هذا الموضوع :

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير مولانا الشيخ يوسف الدجوى من هيئة كبار العلماء حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فنرجو الجواب عن مسألة شرحها أن هناك بلدة قاضيها الشرعى واحد، وسوقها واحد، وحاكمها واحد، تشتمل على قرى متعددة لا تبعد الواحدة عن الأخرى بميل، وبين بعضها بساتين ليست مسكونة، وكل قرية مستقلة بمنافعها الخاصة كجامع الجمعة وغيره . فهل والحالة هذه إذا حضرت صلاة الجمعة فى قرية ولم يوجد من أهلها إلا اثنا عشر رجلا وكان فيها من القرية الأخرى مابقى بالعدد المذكور نتمم بهم العدد، نظرا الى أنهم من بلد واحد، أم لا، نظرا الى أنهم من قرية مستقلة ونصليها ظهرا ؟

جاءنا هذا السؤال وطلب منا مرسلوه أن نعرضه على فضيلتكم، ولكم الشكر ومن الله الأجر .

سليمان الزوبى برواق المغاربة
بالأزهر الشريف

نحن أهالى ناحية الجرفية مركز قنا ومديرية قنا، نظرا لما يلحق بعضنا من المشقة للذهاب الى بلدة الشيخ عيسى لصلاة الجمعة فقد أقمنا جمعة فى بلدتنا التى يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نفس تقريبا وتبعد عن قرية الشيخ عيسى بألفى متر تقريبا، فقيل لنا

إن صلاة الجمعة لا تصح فى بلدتكم لأنها تابعة لبلدة الشيخ عيسى . فأفتونا هل تصح الجمعة فى بلدتنا أم لا تصح ؟ ولكم من الله الأجر والثواب .

محمد الراوى أحمد ومحمود جوده الجرفى

الجواب

يجب لتوضيح الموضوع أن نجعل الكلام فى مقامين :

المقام الأول : صحة الجمعة فى كل قرية من هذه القرى وعدم صحتها إلا فى قرية واحدة منها .

المقام الثانى : انعقادها بمن ليسوا متوطنين بقريتها وعدم انعقادها بهم .

المقام الاول :

القرى المتقاربة يجب على أهلها جميعا أن يؤدوا جمعة واحدة فى المسجد العتيق ، وهو الذى أقيمت الجمعة فيه أولاً أى قبل إقامتها فى غيره ، وإن تأخر أداؤها فيه عن غيره فيما عدا الجمعة الأولى . فكل من كانت قريته خارجة عن قرية المسجد العتيق بما لا يزيد عن ثلاثة أميال وثلث يجب عليهم السعى لأدائها فى العتيق ، فإن جمعوا فى غيره فجمعتهم باطلة ، إلا إن كان إحداث الجمعة عندهم لضيق العتيق مع عدم إمكان توسعته ، أو لعداوة بينهم وبين أهل القرية التى فيها العتيق بحيث يخشى من حضورهم معهم فى مسجد واحد حدوث فتنة ، فإذاً تكون جمعتهم فى مسجدهم صحيحة . وكذا إن حكم حاكم بصحتها فى غير العتيق صحت الجمعة . ومن كانت قريته تبعد عن قرية العتيق بثلاثة أميال وثلث ، فجمعتهم فى مسجدهم صحيحة ، ولا يجب عليهم السعى لأدائها فى العتيق .

المقام الثانى :

من شرط صحة الجمعة أن يحضرها اثنا عشر رجلا سوى الامام أحرار متوطنون

بقريتها أى مقيمون بها بنية التأبيد . أما المقيم بقرية خارجة عنها وهو ممن يجب عليه السعى لها كما قدمناه ، فإن الجمعة تجب عليه تبعا لأهل القرية ولا تنعقد به ، فلا يعد من الاثنى عشر ، وحيث إن القرى المسئول عنها كل منها مستقل بمرافقه عن الأخرى ، فلا تعد كقرية واحدة ، ولا يعتبر المتوطن بقرية خارجة عن قرية الجمعة متوطنا بقريتها . فإذا لم يحضر من المتوطنين بقرية الجمعة الاثنا عشر فلا تصح الجمعة . وإذا حضر العدد صحت إقامتها الى ما قبل غروب الشمس بزمن يسع ركعة من العصر ، وإن حرم تأخيرها عن آخر وقت الظهر المختار ، وهو ما قبل دخول وقت العصر بزمن يسع ركعة من الجمعة . والله يتولى هدى الجميع .

ثبوت شهر رمضان بواسطة التلغراف ونحوه

حضرة الأجل الفاضل العالم العلامة الشيخ يوسف الدجوى المحترم ، حفظه الله تعالى علاه ، ولطف به وتولاه ، آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإنا لكم من المحبين ، ولقد اطلعنا على بعض مقالات لكم مدرجة فى مجلة نور الإسلام ، فسررنا بها غاية السرور ، سائلين المولى أن يمتع الإسلام بحياتكم .

هذا وإنا نحب أخذ رأيكم فى مسألة العمل بالبرقيات التى ترد لنا عن ثبوت الأهلة بما تقتضيه القواعد الشرعية، لا سيما على مذهب الإمامين الجليلين : مالك والشافعى رضى الله عنهما ، بما هو مشروح فى السؤال ، وهو هذا :

ما قولكم دام فضلكم فيما إذا وردت برقية من الحجاز أو الشام مثلا الى البحرين برؤية هلال شهر رمضان أو شوال ، مع ما هو معلوم من مباشر عمل البرقية غالبا ، وتغاير حكومة المحلين المذكورين ، فهل يعمل بالبرقية المذكورة فى مسألة الإمساك والإفطار أم لا ؟ وإذا قلتم بالعمل بها فما وجهه ؟ وإن قلتم بعدمه فما السبب فى ذلك ؟

بينوا لنا ما يلزم فى ذلك بالتحقيق ، ولكم من الله الأجر ومنا الشكر ، والسلام عليكم ورحمة الله ؟ من محبيكم قضاة محكمة الشرع بالبحرين .

محمود عبد اللطيف . عبد اللطيف سيد محمد

الجواب

قد نُص فى مذهب مالك رضى الله عنه على أنه إذا ثبت شهر الصوم لدى حاكم وإن لم يحكم به ، ونُقل ذلك الثبوت الى جهة أخرى بواسطة رجلين عدلين أو جماعة كثيرة يفيد خبرهم العلم بمضمونه أو الظن القريب منه ، أو بواسطة رجل واحد عدل ، فإن الشهر يثبت فى حق أهل الجهة المنقول إليها ، ويجب عليهم الصوم بناءً على ذلك الخبر ، فإن المسألة من باب الرواية التى يكفى فيها خبر العدل الواحد ، وإن كان ثبوت الشهر عند مالك لا بد فيه من عدلين رأيا الهلال أو جماعة مستفيضة . ولا عبرة باختلاف المطالع عنده ، فيجب الصوم سواء أختلف مطلع الهلال فى الجهتين المنقول منها وإليها أم اتحد ، وسواء أتقاربت الجهتان أم بعدتا ، إلا إذا كان البعد بينهما شاسعا جدا فلا يثبت الحكم بالنسبة لأهل إحدى الجهتين بثبوت الشهر فى الجهة الأخرى . ومُثّل ذلك البعد الشاسع بما بين خراسان (بالمشرق) والأندلس (بالمغرب) .

ونص المالكية أيضا على أنه يعتمد فى الصوم والفطر على القرائن الدالة عادة على ثبوت شهر رمضان أو شوال ، كصوت المدافع ، وإضاءة المآذن ، كما يعتمد على صوت المؤذن فى معرفة وقت الصلاة ، لجرى العادة بتوجيه الإنكار الشديد اليه من جماعة المسلمين لو كذب .

ونص مولانا الشيخ عليش فى فتاويه على أنه يعمل بالإشارات التلغرافية فى الصوم ، لأن التلغراف أداة معتبرة للتخاطب من المسافات البعيدة والقريبة بين ملوك العالم وحكامهم والناس أجمعين ، وعلى أن من أفطر فى رمضان بعد وصول خبر الصوم له بواسطة السلك متأولا بأن هذا الخبر مبناه أقوال المنجمين التى لا تعتبر فى ثبوت الشهر

شرعا ، فإنه تجب عليه الكفارة (فضلا عن القضاء) لأنه متأول تأويلا بعيدا لجهله وسوء ظنه ، فلا عبرة بتأويله (وألفت نظرك لجمله ذلك جهلا وسوء ظن) .

الخلاصة

والخلاصة أن مدار وجوب الصوم فى رمضان ، والفطر أول شوال ، على الظن الغالب بثبوت شهر الصوم أو الفطر . وحيث إن الغالب فى الأخبار التى ترسل بواسطة التليفونات أو التلغرافات السلكية أو اللاسلكية إنما هو الصدق فى المسائل الدينية كصوم رمضان ، فنرى أنه يجب صوم رمضان والفطر أول شوال بناء على الإخبار بهما من هذا الطريق ، إلا إذا تباعدت الجهتان جدا كما تقدم ، وإن كان عامل التليفون والتلغراف قد يكون غير عدل شرعا ، أو اختلفت حكومة الجهتين المنقول منها واليها فذلك لا يمنع غلبة الظن التى هى مناط العمل بالأحكام الشرعية العملية ، كأحكام الصوم والصلاة وما اليهما من المعاملات ، فإن الشارع جلت حكمته لم يكلفنا فى العمل بالقطع واليقين دفعا للحرج (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) .

ومعلوم أن الأحكام العملية يكفى فيها الظن ، وأنه لا يجب فيها اليقين . وقد قالوا : إن غلبة الظن فى دخول وقت الصلاة كافية ، وقالوا : وإن المجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه ظنه ، وإن المسائل القطعية ليست من مباحث الفقه . ولا يعقل فى الملة الحنيفية السمحة التى تقول : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وتقول : « إن هذا الدين يسر » إلا هذا . ولو قلنا : إن أخبار البرقيات السلكية واللاسلكية لا يعول عليها بناء على هذه الاحتمالات لوصمنا الدين الاسلامى البعيد النظر الواسع الحكمة بالجمود الذى يبرأ منه وينعاه على أهله ، ولصيرناه مضغة فى أفواه أعداء الدين ، وسخرية بين الزنادقة والملحدين . ولو فرضنا أن عامل التليفون غير عدل أو غير مسلم لم يضر ذلك شيئا ، لأن الخبر ليس منه ، وإنما هو مأمور بتوصيله الى الجهة المعينة ، فهو كالبريد الذى يحمل الرسائل . وعلى كل حال فليس هناك معنى لأن يغلب على ظن الإنسان ثبوت

رمضان بأى وسيلة من الوسائل التى تحتف بها القرائن الموجبة لغلبة الظن ثم يصبح مفطرا بعد ذلك . ولا شك أنه قد وجدت وسائل كثيرة فى هذا العصر لم تكن معروفة فى العصور الأولى . والمدار فى كل ذلك على حصول المقصود الذى هو الظن الغالب ، والحكم يدور مع علته وجودا وعدما (وإلا لم تكن الوسيلة وسيلة بل كانت مقصدا ، وقد فرضناها وسيلة) والشارع لم ينط الأحكام إلا بحصول الظن الغالب ، فهذا هو اللائق بنظر الإسلام الواسع ، حتى يكون دين العصور كلها والأمم كلها ، وتكون حجته قائمة على المخالفين فى كل زمان ومكان . نعم : بعض الأحكام العملية لا يثبت عند الاحتمال وقيام الشبهة ، كوجوب القصاص فى الجناية على النفس ، ولكن ذلك لدليل خاص كقوله صلى الله عليه وسلم : «ادرءوا الحدود بالشبهات» وذلك لخطر القصاص . هذا ما نقول به ولا نفتى بشىء سواه .

نسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويمنعنا من الخطل ، وأن يلهمنا الرشد فى العلم والعمل ، ولا يكلنا لأنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

مسألة تتعلق بالبيع والدين والربا

قال السائل بعد الديباجة :

نرجو الإفادة عن مسألة صورتها : رجل تداين من آخر بضاعة معلومة بثمن قدره ألف فرنك مثلا الى أجل معين ، وعند انتهاء الأجل طلب صاحب الدين من المدين دينه ، فقال المدين : لا أملك شيئا أدفعه لك إلا أن تبيعنى بضاعة أخرى تساوى ألف فرنك نقدا بألف ومائة مؤجلة لنبيعها الآن بألف وندفع لك الألف السابق ، فوافقه صاحب الدين على ذلك ، وأخذ البضاعة وباعها ودفع السابق . فهل العقدة الثانية ممنوعة شرعا ، وما جعلت إلا للتخلص من المطالبة بالدين السابق مع زيادة مائة فيه ، أم هى عقدة جديدة منفصلة عن الأولى ، وحينئذ تكون جائزة شرعا وليس فيها فسخ دين فى دين ولا شىء من الموانع ؟

سليمان الزوبى
بر واق المغاربة بالازهر الشريف

الجواب

قرر العلماء أنه يحرم فسخ الدين فى الدين . ومن صوره تأخير الدين الذى حل أجله الى أجل آخر مع زيادة فيه ، كأن يكون لشخص على آخر عشرة جنيهات مؤجلة الى أجل معين فيعجز المدين عن قضائها عند الأجل ، فيتفق مع دائنه على تأخيرها الى أجل آخر نظير زيادة اثنين ، فتكون العشرة اثنى عشر ، وهذا هو ربا الجاهلية بعينه ، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع .

وقالوا أيضا : إن كل عقد حلال فى ظاهره ولكن قصد به التحايل على أمر ممنوع شرعا — يكون محرما متى كان ذلك الممنوع يكثر قصده المتعاقدين بحسب العادة . ولذلك أمثلة مبسوطة فى كتب الفقه .

وحيث إن أغلب المعاملات الواقعة بين الناس فى هذا الزمان لا تخلو من ربا ، إما صراحة أو ضمنا ، نظرا لاستحكام حب المال فى النفوس ، والميل الى مجاراة غير المتدينين فى استثمار الأموال ، والحصول على ربح فيها من أى طريق كان ؛ وحيث إن العقد الواقع بين المتداينين لا يقصد منه إلا الاحتيال على تأخير الألف الذى فى ذمة المدين الى أجل آخر فى نظير زيادة المائة وجعل الدين ألفا ومائة ، وذلك مما يكثر قصده للمتبايعين وأمثالهما نظرا لحالة المعاملات الآن كما قدمناه ، فنرى أن ذلك العقد محرم ، ويجب فسخه ورد المبيع الى بائعه ، ولكن حيث إن المبيع قد فات بخروجه عن ملك المشترى فلا سبيل الى رده للبائع الآن ، إنما الواجب الآن إلغاء المائة الزائدة وإبقاء الدين ألفا فقط كما كان .

ولا يحل للدائن أخذها ، ولا للمدين إعطاؤها (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ) ونسأل الله التوفيق والتأييد .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر الشريف

مذهب النشوء والارتقاء فى الميزان

- ٢ -

نقلنا فى العدد الماضى بحثا عن الدكتور (جوستاف جوليه) فى دحض مذهب داروِن ، فنتبعه اليوم بما يليه من البحث فى الإلهام الحيوانى ، وعدم كفاية العوامل اللاماركية والدارونية وغيرها مما تخيله أصحاب مذاهب التحول . فنحن الآن ننقل مؤدى رأيه فى هذا الباب ، قال :

إن الإلهامات المشاهدة فى حياة الحيوانات هى كما يعلمه الناس ، لا تنتهى كثرةً ، ولا تقف من إدهاشها للعقل عند حد . وهى جميعها تشترك فى وصف عام لها ، هو أنها تسمح للحيوان أن يعيش مقودا بإلهام فطرى فيه دون أن يفكر فيها تفكيرا منطقيا ، ودون توقف أو تلمس ، فيصل الى الغاية التى يرمى اليها بثقة وطمأنينة لا يسمح بمثلهما لنا العقل ولا التربية ، ولا الترويض الطويل .

فبفضل هذا الإلهام استطاع الحيوان من أى نوع كان أن يعيش معيشة تتفق ومصلحة النوع الذى ينتمى اليه ، وقد يكون ذلك أحيانا على حالة تعتبر شديدة التركب والدقة ، وخاصة فيما يتعلق بهجومه ودفاعه واغتذائه وتزاوجه الخ .

وقد رأينا أن الإلهام الحيوانى هذا يكون واحدا عند جميع أفراد كل نوع من الأنواع ، ويصعب تغيره بقدر ما يصعب تغير النوع نفسه . وهو يكون وصفا نفسيا مميزا لكل نوع ، ومخالفا لجميع الإلهامات الأخرى ، كما تتخالف الأنواع فى تراكيبها الجسدية .

وقد تكلمنا عن تكوّن الأنواع فى الفصل السابق ، فرأينا أن العوامل التى ذكروها لا تفى فى إحداثها ، وفى هذا الفصل نريد أن نثبت أن الإلهامات الحيوانية لا يمكن تعليلها لا بنظرية الانتخاب الطبيعى كما يزعمه داروِن ، ولا بنظرية تأثير البيئة كما يدعيه لامارك .

والموطن الذى يمكن فيه مشاهدة الإلهام الفطرى للحيوانات فى كل حالاتها هو حياة الحشرات . وقد رفع الأستاذ (فابر) أثرا خالدا لمباحثه فى حياة الحيوان ، فسنلجأ اليها لندرك مبلغ تخالف الحشرات فى هذه الإلهامات ، ومقدار تركبها ، ومدى ثباتها ، ونبرهن فى الوقت نفسه على عدم إمكان تفسيرها بالعوامل التى قررها لامارك وداروِن .

وإنى أكتفى هنا لضيق المجال ببضع أمثلة ، فإليك واحدا منها وهو حياة الحيوان المسمى (بالسيتاريس) الذى نوه به الفيلسوف المعاصر لنا (برجسون) باعتبار أن دلالته على ما نحن بصدده من أكبر الدلالات وأعجبها .

فإن هذا الحيوان يضع بويضاته فى مدخل سرداب أرضى يحفره نوع من النحل يدعى (أنتوفور) فلما تفقس هذه البويضات تمكث الديدان التى تخرج منها ساكنة تترقب ، حتى إذا مرت بها وحدات النحل المذكور تعلقت كل دودة بواحد من ذكرانها دون إناثها ، فتبقى ناشبة فيها الى وقت تزاوج النحل ، وفى هذا الحين تترقب كل دودة من السيتاريس أن تنتقل من جسم ذكر النحل الى أنثاه ، منتظرة بطمأنينة موعد بيضها . ومتى حدث انقضّت على بيضة من بيض النحل فأكلت ما فيها فى أيام ، وبعدها تبقى أياما أخرى على ظهر قشرة البيضة تؤدى فيه دور استحالتها الأولى ، ثم تنقلب بعد استحالة ثانية الى حشرة طائرة .

كل هذه الأدوار والشئون تمر كأن دودة السيتاريس المذكورة من أول ميلادها تعلم أن ذكران النحل ستخرج من سردابها أولا ، وتعلم أيضا أن دور التزاوج يمكنها من الانتقال عن جثمان ذكر الى جثمان أنثى ، وتعلم أن هذه النحلة ستوصلها الى خلية من العسل تغتذى منها ، وهى المكان الذى تبيض فيه ، وتدرى أن مادة البيضة التى سقطت عليها تكفيها غذاء حتى تتم استحالتها الأولى ، وتستعد بعد ذلك للتغذى بالعسل.

يحدث كل هذا كأن حشرة السيتاريس نفسها تدرى أن ابنتها تعلم كل هذه الأدوار المرتبة ، ولذلك تتركها الى مثل هذه الأدوار .

اليك مثالا آخر هو مثال الهيمينوبتير جبوايور (Hyménoptéres Geboyeurs)
هـذه الديدان عند ما تخرج من البيض تستدعى طبيعتها أن تغتذى من فريسة حية ، ولـكن ثابتة لا تتحرك ، فاذا تحركت أضرت بالبيضة قبل أن تفقس ، ثم بالدودة الصغيرة بعد أن تخرج منها . فلأجل أن تحقق الأم هذين الشرطين فى الفريسة تشل حركتها ولا تقتلها .

فاذا كانت الحشرة تصدر عن فكر وتدبير للوصول الى هذه الغاية ، وجب أن يـكون لها عـلم ومهارة عجيبان . فيجب عليها أولا أن تستخدم من السم الذى تفرزه لتخدير فريستها مقدارا يكفى لتخديرها دون أن يقتلها ، ثم يجب أن يـكون لها اطلاع واسع بتشريح وفيزيولوجية تلك الفريسة ، ودقة ونظر صائب لا يخيب ، لتستطيع أن تفاجىء تلك الفريسة بضربة فى المحل الذى يصلح لاحداث ما تريد إحداثه فيها ، لأن الفريسة مساحة غالبا أكثر تسليح ، وأقوى من الهيمينوبتير الذى نحن بصـدد الـكلام فيه .

والُحمَة السامة (أى الابرة) يجب أن توجه الى المراكز العصبية المحركة للفريسة لا الى جهة أخرى ، ويجب أن تضرب بها مرة واحـدة أو مرتين أو مرات عديدة على حسب عدد أو مراكز العقد العصبية .

وهذه المهمة الشاقة المخيفة لم تتعلمها الحشرة من سواها ، فإنها متى فقست البيضة التى هى فيها تخرج من تحت الأرض ، فلا ترى لها أقارب ولا أسلافا ، إذ تكون قـد ماتت منذ وقت طويل . وهى أيضا ستموت قبل أن ترى لها أعقابا ولا أخلافا . فالإلهام الذى شوهد عندها لا يمكن أن يـكون قـد انتقل إليها بالتربية أو بالتقليد ، ولـكنه فطرى فيها .

نقول : هنا يجب أن يذعن العقل بأن هذه الحركات إنما هى بإلهام إلهى أوحاه الله الى هذه الحشرة ، لأنه قدر لها أن تعيش ، فهداها الى ما به تعيش .

ثم قال : ما هو السبيل الى تعليل وجـود هـذا الإلهام بمحض العـوامل الرسمية للتطور ؟

يقولون لنا : إن الإلهام الحيوانى عادة أُخـذ بها الحيوان نفسه يسيرا يسيرا ، فرسخت فيه ، ثم أورثها ذريته من بعده . ولـكن الأستاذ (فابر) اشتد فى بيان استحالة هذا التعليل فقال : « لنفترض أن واحـدة من إناث هذا النوع من الحيوانات وصل اتفاقا ومن عهد بعيد الى إصابة المراكز العصبية للدودة التى تصلح فريسة لصغارها ، ووجدت نفسها فى حالة حسنة من ناحية أنها استراحت من كفاح لم يكن يستخف بخطره عليها ، ومن ناحية أن صغارها قد وجـدت من هذه الفريسة غذاء غضا مملوءا بالحياة والعناصر الجيدة ، قلنا : لنفترض هذا ، ونفترض أيضا أن هذه الأنثى أَوْرثت هذه الخاصة ذريتها ، ونفترض أن ذريتها لم تتساو فى إتقانها ، وأن تنازع البقاء أباد الضعفاء منها وأبقى الأقوياء حتى تم الانتخاب الطبيعى كما يقولون .

لنفرض كل هذا صحيحا ، ولـكن هذه الافتراضات تعجز كل العجز عن تعليل أصل هذا الإلهام ومصدره ، فلا الاتفاق ولا الحاجة يستطيعان كلاهما أن يفسرا لنا كيف أن أنثى الحيوان الأول من هـذا النوع استطاعت أن تجـد المركز العصبى للفريسة ، وأن تشلها دون أن تقتلها . والواقع أنه لم يوجد سبب للاختيار فى هذا الموطن ، لأن الحمة والحيوانات فى حالة التعارك ، قـد تتجه الى القسم الأعلى أو الى القسم الأسفل ، أو الى الجنب ، أو الامام ، أو الخلف ، وفى كل هذه الجهات نقط لا تحصى . ومع هذا كله يتحتم على حشرة الهيمينوبتير أن تضرب مرة واحدة وأن تصيب الهدف وإلا تعرضت للخطر . فتـكون مهمة الحصول على فريسة لتـكون غذاء للصغار تقتضى من الهيمينوبتير أن يكون منزها عن الخطأ . فالأنثى من هذا النوع يجب أن لا تخطىء فى الطعن ، أو أن لا تتعرض لهذا العمل ، فلا وسط بين هذين الطرفين ، فإنها لو كانت تحاوله وهى على شك من الإصابة أهلـكها عدوها وأباد صغارها أيضا .

قال الدكتور (جوستاف جوليه) عقب ماص :

لا يغيبن عنا هنا أن إلهام استعمال الحمة السامة لا يمكن تفسيره بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تعليل حدوثها هى .

(نقول) : قد تبين القارئ من هذه الأقوال أن العوامل الطبيعية التى تخيلها دارون أو لا مارك لا تغنى فتيلا فى تعليل وجود الأنواع ، ولا فى تفسير حدوث الإلهام للحيوانات ، فلم يبق أمام العقل إلا اللجأ الى عزو ذلك كله الى مصور الكائنات وممدها بأسباب البقاء ، فهو وحده الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . **محمد فريد وجدى**

فى ذم الغيبة

قال الله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » .

يعنى أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا . روى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس . فأخبر النبى بذلك ، فقال : صامتا عما أحل لهما ، وأفطرتا على ما حرم عليهما .

وقال عدى بن حاتم : الغيبة رعى اللئام .

وقال رجل لابن سيرين رحمه الله تعالى : « إنى اغتبتك فاجعلنى فى حل . فقال : ما أحب أن أحل لك ماحرم الله عليك .

وقال ابن السماك : لا تعن الناس على عيبك ، بسوء غيبك .

وقال شاعر حكيم :

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا ... فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « هى أن تقول لأخيك ما فيه ، فان كنت صادقا فقد اغتبته ، وإن كنت كاذبا فقد بهته » أى أصبته ببهتانك .

ودخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم مستفتية ، فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ما أقصرها ! فقال : مهلا إياك والغيبة ! فقالت : يا رسول الله إنما قلت ما فيها . قال : أجل ، ولولا ذلك لكان بهتانا .

انتهاء عهد الفلسفة المادية

كان الماديون يزعمون الى عهد قريب أن المادة هى أصل الكون ، وأنها الموجود الأزلى الأول الذى لا فناء له ولا زوال . وقد كان هذا الرأى سببا فى ضلال الكثيرين عن الصراط السوى فى مباحثهم عن الروح والعالم الروحانى . ولكن المباحث العلمية الحديثة ذللت هذه العقبة من طريق المباحث الروحية ، فأصبح طريقها اليوم معبّداً بفضل ما هدى العلماء إليه من إثبات حدوث المادة وفنائها . وقد تولت المعامل الكيمائية تمحيص هذا المذهب العلمى فأثبتت صحته إثباتا عمليا .

ونحن لأجل أن نعطى هذا الأمر الجلل كل ما يستحقه من العناية نرى أن نعرب المحاضرة التى ألقاها مكتشف هذا الأمر الخطير ، وهو الأستاذ (جوستاف لوبون) الفرنسى ونشرها فى كتاب أسماه (تولد المادة وفناؤها) وكان ذلك فى سنة (١٩٠٧) .

قال لسامعيه :

« أقص عليكم حديثا عجبا لم يكن يحلم به العلم منذ عشر سنين ، حديثا عن جزء من أية مادة كانت ، ولتكن من حجر تصطدمون به فى طريقكم ، أو من ورقة موضوعة أمامكم ، أو فِلْذة من أى معدن كان من المعادن التى تتداولها أيديكم كل يوم .

« كان العلم يعتقد فى الزمان الخالى — ولا يزال قوم يعتقدون مثل عقيدته تلك الى اليوم — أن المادة تتألف من عناصر جامدة لا يعتريها العدم ، وُجدت فى أول الأشياء وتبقى فى خلال جميع تطوراتها بقاء سرمديا . فكانت الكيمياء تقول لا يفنى شىء ، وكانت على ظاهر أساس مما تزعم ، لأن المادة كانت رغما عن الاستحالات التى تطرأ عليها تظهر حافظة لوزنها الأول .

« ولكن العلم أصبح يعلمنا شيئا آخر اليوم ، يعلمنا أن المادة مركبة من مجاميع

صغيرة تشبه المجاميع الشمسية ، مؤلفة من ذرات يدور بعضها حول بعض بسرعة عظيمة جدا ، وهى إن كانت ترى ثابتة فى حسّنا فما ذلك إلا بسبب تلك السرعة المفرطة .

« ويقرر لنا العلم أيضا أن الجوهر الفرد مستودع لقوى ضخمة لا تعد القوى التى تستخدمها صنائعنا بجانبها شيئا يذكر ، وينتظر أن تنتفع بها تلك الصنائع فى يوم من الأيام . ويعرفنا أيضا أن المادة وهى مستودع حياة لها إحساس يجعلها تتأثر بأخف المؤثرات وألطفها . ويفضى إلينا أخيرا بأن المادة ليست بأبدية ، ولكنها خاضعة للناموس الحتم الذى يقضى على جميع الكائنات بالفناء والتلاشى .

« أنا لا أستطيع أن أصل الى غور بعيد من هذا الموضوع فى ساعة واحدة ، فلأكتف فى هذه المحاضرة بأن أبين لكم بعض نتائج المباحث التى تتبعتها منذ عشر سنين فى موضوع تحليل المادة ، وقد فصلتها فى كتابين نشرتهما منذ عهد قريب .

«هذه المباحث التى كانت نتيجتها الأساسية غير منتظرة منذ سنين أثبتت اليوم أن المادة ليست أبدية غير قابلة للزوال ، وقد انتشرت هذه النتيجة بسرعة فى جميع المعامل العلمية ، وآراؤنا التى كانت تعتبر فيما قبل متطرفة عندما أبديناها لأول مرة ، بدأت تعتبر اليوم من الأمور المألوفة ، وإن كانت لا تزال بعيدة عن إنتاج كل النتائج المرجوة منها . ومتى شاعت هذه النتائج فستؤدى الى بناء صرح علمى يخلد الى الأبد » .

ثم ألقى على سامعيه نتائج التجارب التى هُدى اليها ، والتى أثبت بها عدم أبدية المادة وأنها قابلة للزوال ، وقد أفاض فى ذلك كثيرا ، ثم قال :

« يرى من هنا أن علم الأمس كان مؤسسا على أبدية المادة ، ولكن علم الغد سيتأسس على قبولها للفناء ، وسيكون غرض العلم الأول إيجاد وسائل سهلة لزيادة انحلالها ، ويضع بذلك تحت تصرف الإنسان قوى يكاد لا يكون لها حد .

« بقى علينا حل شبهة ، وهى : إذا كانت المادة فى ذاتها لا شىء غير قوة ، فكيف نحس بها جامدة ؟

«قد عملت تجارب فى المعامل الكهربائية المائية ، فأثبتت أن عمودا سائلا قطره سنتيمتران إذا أسقط من أنبوبة من علو ٥٠٠ متر فلا يتأتى خدشه من شدة ما يكتسبه السائل من المقاومة . ولو ضرب بسيف قاطع فإن السيف يرتد عن سطح العمود السائل كما يرتد إذا صادف حائطا . وإذا كانت سرعة عمود السائل أكثر فلا تستطيع قذيفة مدفع أن تخترقه ، وإذا قذف الماء على هيئة شريط عريض سمكه بضعة سنتيمترات بسرعة كبيرة يصبح أمام قذيفة المدفع فى مثل مناعة الطبقة الفولاذية لسفينة مدرعة فلا تستطيع أن تخرقه .

«فإذا أعطينا الماء المنصب شكل زوبعة كان لدينا صورة من جزيئات الجوهر الفرد والمادة ، وتعليلا شافيا لصلابتها . وبذلك نفهم كيف يصير الأثير اللامادى ماديا وصلبا جدا إذا استحال الى زوابع مزودة بسرعة كافية . ونفهم من هنا كذلك أن هذه الحركات الزوبعية لو بطلت لفنيت المادة لوقتها وعادت لأصلها فى الأثير » .

هذا ملخص ما قاله الأستاذ جوستاف لوبون .

ونحن نقول : هذا عهد جديد دخل فيه العلم الطبيعى ، رفع به من طريق الفلسفة حائلا قويا كان يردها على عقبيها كلما همت لفتق الحجب والوصول الى لباب الحقيقة .

نعم كانت الفلسفة تجـد من مذهب الجواهر الفردة المادية أكبر صادّ لها عن التغلغل فى بواطن الأشياء ، فإنه ما دام أصلها الأصيل الأقدم المادة كما يقولون ، فلا وجه للفلسفة أن تجتاز هذه الحدود التى كان يزعم العلم أنها حدود المعرفة . فإذا عاصت العلم واجتازت تلك المنطقة ، عدت خيالية ، وسقطت الى حيث لا تقوم لها قائمة . أما اليوم وقد تهتك هذا الحجاب الكثيف فقد انفتح الطريق أمام العقل ممهدا مهيعا يصل منه الى ما قدر له من نصيب فى لباب الحقائق . وقد ظهر هذا التحول فى الفلسفة منذ ظهر هـذا الاكتشاف العظيم وثبت ثبوتا علميا ، فإن الفلسفة الحسية التى أساسها التجربة والحس ، أصبحت اليوم أوسع مجالا وأبعد نظرا مما كانت عليه أعرق فلسفة خيالية فى الأرض .

ولا مشاحة أيضا فى أن هذا التجدد الفلسفى يعتبر تمشيا نحو الدين بأوسع معانى هذه الكلمة ، فإن العقبة الكأداء الوحيدة التى كانت تفصل بين الدين والفلسفة ، كانت النظرية المادية فى أصل الوجود ، أما وقد زالت هذه العقبة فإن زوالها يعد انتصارا للدين ، لأنه هو الذى يشتد فى نقضها ، والنعى على معتقديها . وما داما قد التقيا فى مجال واحد بعد افتراق طال عليه الأمد ، فإن الأمر سينتهى بينهما الى الإخاء والمصافاة ، والله غالب على أمره ؟

محمد فريد وجدى

فضيلة الحياء

روى أن علقمة بن علاثة قال : يا رسول الله عظنى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك .

وقال صلى الله عليه وسلم : قلة الحياء كفر (يعنى قلة الحياء من الله تعالى) . وقال صلى الله عليه وسلم : الحياء نظام الايمان . فاذا انحل نظام الشىء تبدد ما فيه وتفرق .

وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا ، فتنكب الطريق عنهم وقال : لا خير فيمن لا يستحى من الناس .

وقال بشار بن برد :

ولقد أصرف الفؤاد عن الشـــيء حياء وحبه فى السواد
وأمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكرا فى غد حديثا الأعادى

وقال شاعر رقيق :

ورب قبيحة ما حال بينى وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب فى الأمور كما يشاء

وقال آخر :

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

تربية النفس بالنفس[1]

— ٢ —

الفكر

هنا نقول : لابد لنا حيال الفكر من إرادة تقوده الى ما ينبغي أن يعمل فيه ، ومن نشاط يتحلى به فى أداء مهمته . وعلينا أن نستخدم هاتين القوتين بالحرية التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان الأعجم .

فيحسن بنا الآن أن نبحث فى مسألة التفكير وما يؤثر فيه من العوامل المنصبة عليه ، فنقول :

من الوهم الكبير أن يظن الإنسان وهو على حالته العادية أنه يستطيع التفكير فيما يريده وما لا يريد . لا ، فإن الإنسان مهما كان عبقريا ، لا يملك تفكيرا حرا مالم يُعنَ عناية خاصة بحمايته من المؤثرات الداخلية والخارجية . فالفكرة على أية حال كانت إنما تنشأ من ترابط الأفكار المختزلة ، وتداعى الخواطر السانحة ، وهذه لا تخضع بأية حالة من الحالات لسيطرة الإرادة الحاكمة . فأفكارنا والحالة هذه تعرض لنا ، وتتواتر فى أذهاننا ، دون أن يكون فى استطاعتنا أن نتدخل فى ترتيبها ، أو أن نطرد ما لا يوافقنا منها ، أو نقف باختيارنا عندما يعجبنا منها . فنحن إذاً لا نسير فكرنا حسبما نريد ، ولكنه يكون وليد السبب المؤثر ، والهواجس التى تخطر على بالنا .

فنحن لا نستطيع أن نقف الفكر عند حد ، ولا الشعور الذى يعقبه ، فالإرادة والحالة هذه تعجز عن مقاومة هذه الحركة الدائبة ، ومقاواة هذا التعاقب المستمر للصور الذهنية .

---

(١) ملخص عن الفرنسية من كتاب « تربية النفس بالنفس » للاستاذ الدكتور (پول دوبوا) أستاذ علم الامراض العصبية بجامعة برن (سويسرا) .

فى كل يوم عندما يرجع بنا الفكر الى عمل من أعمالنا السابقة نضطر الى القول : إنه ما كان يجب علينا أن نفعل هذا . وعندما نلام على عدم انقيادنا لاعتبار من الاعتبارات نجيب بقولنا : إننا لم نفكر فى ذلك ، ولم يخطر لنا على بال ، فيرد علينا أحيانا بعنف : نعم ، ولكن كان يجب أن تفكروا فيه من قبل .

هذا يسهل قوله بعد وقوع الأمر ، ولكنه كان مستحيلا على الإطلاق قبله ، لأن الفكرة المطلوبة لم تنبعث قبل حدوث الفعل . الشىء الواجب عمله الآن هو أن نتأمل جيدا فيما يجب أن نفعله للحصول على حرية التفكير ، لا أن نقرع أنفسنا تقريعا لا طائل تحته .

فهل معنى هذا أن سلوكنا لا يتوقف إلا على الظروف الاضطرارية ؟ لا ، إنه يتوقف أيضا على الإرادة ، ولكن الصور الذهنية التى سبق أن وجدت فى مدركتنا تتنبه فى ذاكرتنا بفعل غير اختيارى ، فتقود الفكر وتسيطر عليه ، وهذه الصور قد رسخت فى أذهاننا بواسطة غيرنا ، وهنا تظهر مؤثرات الحياة ومؤثرات التربية كعوامل قاهرة تحول تفكرنا الى الوجهة التى تريدها هى لا التى نريدها نحن .

فالفكر على هذا النحو لا يكون عملا اختياريا يحدث بمجهود داخلى يقوم به الإنسان الذى يفكر ، ولكنه عمل آلى محض ، والسبب فى ذلك أن آراء الغير تقع على رءوسنا كقوالب الآجر من فوق الأسطح التى نسير تحتها ، فلا بد هنا من تجارب شخصية نتعلم منها كيف نتقى هذا الخطر .

فالإنسان الذى لم يتثقف فكره إلا تثقفا ساذجا ، أى الذى لم تحنكه التجارب — يشبه مجال تفكيره مائدة البليارد ذات الأربعة الحواجز ، فنجد عنده شيئا من المنطق فى توارد خواطره ، بل نجد عنده كذلك حواجز لمنع تواردها من الخارج ، ولكنها حواجز موضوعة وضعا فاسدا قضت به عليه المزاعم الباطلة ، والآراء التى حشى بها دماغه بتأثير البيئة المحيطة به ، والتربية الفاسدة التى تلقاها .

ونجد على خلافه الرجل الذى بسبب ذكائه الفطرى والنصائح القوية التى تلقاها من ذويه وأصدقائه ، وبسبب ظروف الحياة التى صادفته ، قـد وضع حواجزه وضعا محكما أى مبادئه المعنوية ، وانتظمت قـوى ذهنه ، فتجد الخواطر تتوارد على ذهنه بنظام منطقى ، وتحدد الأعمال والأفعال الأساسية التى تناسب الغرض الأوحد الذى يسعى اليه ، ألا وهو السعادة بأوسع معانيها فى هذه الحياة ، أو فى الحياة الأخرى .

يتضح من هذا أنه لابد لنا من حواجز فى مجال تفكيرنا تقيه المؤثرات الخارجية ، وأصول مرشدة تقاوم الآراء التى تأتى اليه مصادفة ، وتلقى جزافا فى مدركته . فيجب أن تحول هذه الآراء عن طريقها إذا كانت فاسـدة ، وأن توجه فى اتجاه صالح ونافع لأنفسنا ولأهلينا وللإنسانية أجمع إن كانت صالحة .

إننا لا ننشىء هذه الحواجز بأنفسنا ، وإنما نتعلمها من التجارب العامة .

قد يقول لنا قائل : إن تأكيدك هـذا مبالغ فى إطلاقه ، وإن فى استطاعتنا أن نحتم على فكرنا نظاما . فمثلا عندما نخصص ساعة لنحل فيها مسألة من مسائل علم الجبر ، فإننا نوجه فكرنا فى اتجاه معين ، ونطرد الأفكار التى تأتى لتعرقل تسلسل استنتاجاتنا .

وهذا صحيح — على ما يظهر — فيما يختص بالعمل المستمر ، وكذلك فيما يختص بالأفكار الشاردة ، صحيح إذا لم نفطن لاستعبادنا الداخلى ، نحن لا نحدد باختيارنا وجهة انتباهنا ، ولـكنها تتحدد بتأثير العمل نفسه الذى نقول عنه إننا نفرضه على أنفسنا ، والذى هو على العكس مفروض علينا . ومن المهم — لإدراك هذه «الحتمية» إدراكا صحيحا — أن نفهم الصفة القهرية للدافع الذى يحدد عملنا ، فلنضرب لذلك مثلا :

بدأت ليلة فى مطالعة كتاب فى الآداب كانت تلذ لى مطالعته ،وعندما استيقظت من النوم فى الغد أعاد على ذاكرتى توارد الآراء القهرية موضوع الكتاب ، وتولد فى نفسى الميل اليه من جديد ، وشعرت برغبة شديدة لتخصيص بعض الأوقات لهذه، إلا أنه قد خطر لى أن مطالعة شىء نافع أولى منه ، وفى الحال لمحت فوق مكتبى ظرفا

كبيرا بداخله تقرير خاص بالطب الشرعى كان لابد من تقديمه على الكتاب لتعلقه بعملى ، فأثار هذا المنظر فى نفسى شيئا من تأنيب الضمير ، وصار هذا الشعور قويا بحيث قضى على رغباتى المترددة فى مطالعة الكتاب ، فأكببت على مطالعة ما فى الظرف ، فكان مملا للغاية ، وكانت أحيانا تحوم حولى صورةُ ما كنت أجده من السرور من مطالعة الرواية فتزعجنى ، ولكن ما لبثت أن غابت سريعا هذه الصورة وحلت محلها صورة أخرى ، وهى صورة الضرورة ، وصورة الواجب ، حتى رأيت أنى لا أستطيع أن ألذ بمطالعة شيقة إلا إذا أنجزت تماما هذا العمل المستعجل ، فالجاذب الحقيقى هو فى إطاعة تلك الأسباب المعنوية المختلفة . وأما تركيز فكرى فإنه — بقدر ما يكون بعيدا عما يعرقله من التعب الذهنى — يكون معادلا لا لرغبة حرة ، وإنما للصفة القهرية التى أعرف بها تلك الدوافع . ففى يوم أرى فيه كيف أقدرها حق قدرها ، وأكب على أداء عملى ، وفى يوم آخر أجد ألف عذر لتأجيله الى الغد .

فنحن فى الحالة العادية أحرار بالمعنى الساذج الذى يطلقه العامة على هذا اللفظ ، ولكننا من الوجهة الفلسفية أرقاء للدوافع التى تفرض علينا بمقتضى طباعنا وخلقنا .

إن المبادئ الخلقية التى أثبتناها فى أذهاننا ليست موضوعة بشكل حواجز ثابتة تقينا المؤثرات الخارجية ، إذ أنها تلين فى كثير من الأحايين أمام المؤثرات الكبيرة التى تقذف علينا بقوة شديدة ، والتى هى فى الواقع ناشئة عن ثوراتنا الشهوانية ، فلم يبق علينا إلا أن نثبت وجود هذا الخلل ، ونصلح حواجزنا ، وأن نوطد دعامتها من طريق الاستعانة بإرادتنا . وقد علمت أن الإرادة وحدها لا تغنى فى هذا الموطن ، وإنما يستعان على ذلك بواسطة النظر الصائب فى حقائق الأشياء ، وهو ما نحصل عليه بتجاربنا الشخصية مشفوعة بتجارب غيرنا . فبذلك نستطيع أن توجد فى مجال تفكيرنا حواجز تمنع تسرب المؤاثرت الخارجية اليه ، فنتقى بذلك شر تحوله عن صراطه السوى ، وجولانه فى شئون ليس من مصلحتنا أن يجول فيها على غير هدى ؟

كتاب الام وما يحيط به

أقصد الى بيان من ألف كتاب الأم . وهـذا يدعو الى أن أذكر ما يحيط بالـكتاب من بعد وقرب . وفى ذلك طرف من حياة الشافعى العلمية . وقـد عولت على أقوال العلماء مع البحث ، لتظهر الحقيقة وليس دونها ما يشبه الستر من ناحية .

(مكث الشافعى فى بغداد ومصر)

قال الخطيب البغدادى : أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، قال : نبأنا أحمد بن بندار بن إسحاق قال : نبأنا أبو الطيب أحمد بن روح البغدادى ، قال : نبأنا الحسن بن محمد الزعفرانى ، قال : قدم علينا الشافعى بغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فأقام عندنا سنتين ثم خرج الى مكة ، ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين فأقام عندنا أشهراً ، ثم خرج .

وذكر ابن حجر العسقلانى أن البيهقى أخرج من طريق أحمد بن روح ، حـدثنا الحسن بن محمـد الزعفرانى قال : قدم علينا الشافعى (أى العراق) سنة خمس وتسعين ومائة فأقام عندنا سنتين ثم خرج الى مكة ، ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين فأقام عندنا أشهرا ، ثم خرج الى مصر (انتهى) وذكر ابن حجر العسقلانى نحو هذه الرواية عن الخطيب البغدادى .

وقال ابن خلـكان : وقـدم (أى الشافعى) بغداد سنة خمس وتسعين ومائة فأقام بها سنتين ثم خرج الى مكة ، ثم عاد الى بغداد سنة ثمـان وتسعين ومائة فأقام بها شهرا ثم خرج الى مصر .

وقال السيوطى فى حسن المحاضرة مثل هذا : فأقام بها شهرا ثم خرج الى مصر .

وقال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات وشرح المهذب : قال أبو عبد الله حرملة ابن يحيى : قدم الشافعى مصر سنة تسع وتسعين ومائة . وقال الربيع : سنة مائتين . ولعله قدم فى آخر سنة تسع ، جمعا بين الروايتين (انتهى) .

وقال ابن خلكان : وكان وصوله اليها (أى مصر) فى سنة تسع وتسعين ومائة . وقيل إحدى ومائتين ، ولم يزل بها الى أن توفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين (انتهى) قال ابن حجر العسقلانى : ولم تختلف الرواة أن الشافعى ولد سنة خمسين ومائة .

وفيما ذكر اتفاق على أن الشافعى قدم بغداد أو العراق سنة خمس وتسعين ومائة فأقام سنتين ثم خرج الى مكة ، ثم عاد سنة ثمان وتسعين ومائة .

وفيماذكر الخطيب البغدادى وابن حجر العسقلانى أن الشافعى أقام ببغداد أوالعراق فى المرة الثانية أشهرا .

وفيما قال ابن خلكان والسيوطى أنه أقام فى المرة الثانية شهرا .

والأولان سلكا سبيل الرواية دون انتقاد .

واتفق النووى وابن خلكان على أن الشافعى قدم مصر سنة تسع وتسعين ومائة .

ورجع النووى قول الربيع : سنة مائتين الى قول حرملة : سنة تسع وتسعين ومائة ، مع أن الربيع قال: أقام الشافعى ها هنا (أى بمصر) أربع سنين . وقد حكى ذلك ابن حجر العسقلانى من رواية الآبرى . ولا يتم كلام الربيع إلا إذا كان الشافعى قدم مصر فى أواخر رجب على ما أفاده ابن خلكان فى تاريخ وفاة الشافعى، أو ترك من الحساب ما زاد على السنين الأربع من كسر السنة ، وهو ما يؤخذ من قول النووى . والنووى يرجح رواية حرملة .

أما أن الشافعى وصل الى مصر فى سنة إحدى ومائتين فحكاية ضعيفة كما أشار الى ذلك ابن خلكان . ويبنى على اعتبارها نقص خمسة أشهر من السنة الرابعة أو أكثر .

(الشافعى فى تأليفه والأخذ عنه)

قال ابن حجر العسقلانى : أخرج الحاكم من طريق الربيع قال : لزمت الشافعى قبل

أن يدخل مصر ، وكانت له جارية سوداء ، فكان يعمل الباب من العلم ثم يقول : ياجارية قومى فأسرجى ،فتسرج له فيكتب ما يحتاج اليه ، ثم يطفىء السراج ، فدام على ذلك سنة . فقلت : يا أبا عبد الله إن هـذه الجارية منك فى جهد ، فقال لى : إن السراج يشغل قلبى .

وقال الخطيب البغدادى : أخبرنا محمد بن عبدالملك القرشى، أخبرنا عياش بن الحسن البندار ، حدثنا محمد بن الحسين الزعفرانى ، أخبرنى زكريا بن يحيي الساجى قال : سمعت الحسن بن محمد الزعفرانى قال : قدم علينا الشافعى (أى بغداد) واجتمعنا اليه فقال : التمسوا من يقرأ لكم ، فلم يجترئ أحد يقرأ عليه غيرى ، وكنت أحدث القوم سنا ، ما كان فى وجهى شعرة ، وإنى لأتعجب اليوم من انطلاق لسانى بين يدى الشافعى ، وأتعجب من جسارتى يومئذ ، فقرأت عليه الكتب كلها إلا كتابين فإنه قرأهما علينا : كتاب المناسك ، وكتاب الصلاة . ولقد كتبنا كتب الشافعى يوم كتبناها وقرأناها عليه وإنا لنحسب أنا فى اللعب وما يحصل فى أيدينا شىء وأنه ضرب من اللعب ولا نصدق أنه يكون آخر أمره الى هذا ، وذلك أنه كان قد غلب علينا قول الكوفيين .

حدثنى الحسن بن أبى طالب ، حدثنا على بن الحسن الجراحى ، حدثنا أحمد بن محمد ابن الجراح قال : سمعت الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى قال :

لما قرأت كتاب الرسالة على الشافعى قال لى : من أى العرب أنت ؟ فقلت : ما أنا بعربى ،وما أنا إلا من قرية يقال لها الزعفرانية ، قال لى : فأنت سيد هذه القرية (انتهى) . قال ابن السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى : ثم سكن المشار إليه بغداد فى بعض دروبها ، فنسب الدرب إليه وصار يقال له درب الزعفرانى ببغداد . وفى الدرب المذكور مسجد الشافعى رضى الله عنه (انتهى) .

وقال ابن السبكى كذلك عن حسين الكرابيسى : لما قدم الشافعى (يعنى الى بغداد) قدمته قلت له : أتأذن لى أن أقرأ عليك الكتب ؟ فأبى وقال : خذ كتب الزعفرانى فقد أجزتها لك . قال الخطيب : حديث الكرابيسى يعز جدا (انتهى) .

وقال ابن حجر العسقلانى : أخرج الآبرى من طريق الربيع قال : لما قدم الشافعى مصر وقعد فى مجلسه ، كان يجالسه رؤساء أصحاب الحلق : عبد الله بن عبد الحكم ونظراؤه ، وكان الشافعى حسن الوجه والخلق ، فحبب الى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان .

قال : وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح ، فيجيئه أهل العراق فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة ، فاذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف الى منزله .

وقال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات : قال الربيع : رأيت من الشافعى مالا أحصى ، وكان إذا انصرف اتشح بردائه ووضعت له منارة قصيرة ، واتكأ على وسادة وتحته مضربتان ، ويأخذ القلم فلا يزال يكتب (انتهى) .

وقال ابن حجر العسقلانى : أخرج الحاكم من طريق حرملة قال : وكان الشافعى يجلس الى هذه الاسطوانة فى المسجد (يعنى جامع عمرو) فيلقى له طنفسة فيجلس عليها وينحنى لوجهه لأنه كان مسقاما فيصنف ، فصنف هذه الكتب فى أربع سنين .

وذكر ابن حجر العسقلانى أيضا أن بحر بن نصر الخولانى قال : قدم الشافعى من الحجاز فبقى بمصر أربع سنين ووضع هذه الكتب ، وكان أقدم معه من الحجاز كتب ابن عيينة ، وخرج الى يحي بن حسان (أى التنيسى) فكتب عنه ، وأخذ كتبا من أشهب فيها مسائل ، وكان يضع الكتب بين يديه ويصنف ، فاذا ارتفع له كتاب جاءه ابن هرم فكتب ، ويقرأ عليه البويطى وجميع من يحضر يسمع فى كتاب ابن هرم ، ثم ينسخونه بعد .

وكان الربيع على حوائج الشافعى ، فربما غاب فى حاجة فيعلم له ، فاذا رجع قرأ الربيع عليه ما فاته (انتهى) .

وكأن الشافعي لقصر مدته الثانية في بغداد قال فيه بحر بن نصر الخولاني : «قدم الشافعي من الحجاز » ويجوز أن يكون الشافعي جاء مصر من طريق الحجاز

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات : قال حرملة : كان أبي قد رتب لي كاتبا وقال للكاتب : اكتب كل ما تكلم به الشافعي (انتهى)

وكان الشافعي يملي على أصحابه أحيانا كما نرى ذلك في مواضع من كتاب الأم المطبوع .

من ذلك في (الصلح) أخبرنا الربيع بن سليمان قال : أملى علينا الشافعي

وفي (الحوالة) أخبرنا الربيع بن سليمان قال : أخبرنا الشافعي إملاء

وفي (الوكالة) أخبرنا الربيع قال : أخبرنا الشافعي إملاء

وفي (وثيقة في الحبس) أخبرنا الربيع بن سليمان قال : أخبرنا الشافعي إملاء

وفي (تغيير وصية العتق) أخبرنا الربيع بن سليمان قال : حدثنا الشافعي إملاء

وفي (الوليمة) أخبرنا الربيع بن سليمان قال : حدثنا الشافعي إملاء

وفي (إقرار بنكاح مفسوخ) قال الربيع : من ها هنا أملى علينا الشافعي رحمه الله تعالى هذا الكتاب

وفي (إقرار الوارث ودعوى الأعاجم) أخبرنا الربيع قال : حدثنا الشافعي إملاء .

(قديم الشافعي وجديده)

قال السيوطي في حسن المحاضرة : وقدم (أي الشافعي) بغداد سنة خمس وتسعين (أي ومائة) فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وصنف بها كتابه القديم ، ثم عاد الى مكة ، ثم خرج الى بغداد (انتهى)

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات : وصنف (أي الشافعي) في العراق كتابه القديم المسمى بالحجة ، ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين ، وهم أحمد ابن حنبل ، وأبو ثور ، والزعفراني ، والكرابيسي ، وأتقنهم له رواية الزعفراني (انتهى) .

وقال ملا كاتب جلبي : (الحجة) للإمام الشافعي رضى الله عنه ، وهو مجلد ضخم ألفه بالعراق ، واذا أطلق القديم فى مذهبه يراد به هذا التصنيف . (قال الاسنوى فى المهمات) : ويطلق على ما أفتى به هناك أيضا، وذكر ابن حجر فى مناقب الشافعى رضى الله عنه أنه قال : اجتمع علىّ أصحاب الحديث فسألونى أن أضع على كتاب أبى حنيفة ، فقلت : لا أعرف قولهم حتى أنظر فى كتبهم ، فكتب لى كتب محمد بن الحسن ، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ثم وضعت الكتاب البغدادى، يعنى الحجة (انتهى) .

وقال ابن حجر العسقلانى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أحمد بن سريج سمعت الشافعى يقول : أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين دينارا ثم تدبرتها فوضعت الى جنب كل مسألة حديثا ، يعنى ردا عليه .

وقال زكريا الساجى : حدثنا ابراهيم بن زياد ، سمعت البويطى يقول : قال الشافعى اجتمع علىّ أصحاب الحديث فسألونى أن أضع على كتاب أبى حنيفة ، فقلت : لا أعرف قولهم حتى أنظر فى كتبهم، فأمرت فكتب لى كتب محمد بن الحسن ، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ثم وضعت الكتاب البغدادى ، يعنى الحجة .

وفى كلام ابن حجر الهيتمى على منهاج النووى أن الجديد ما قاله الشافعى رضى الله عنه بمصر ، ومنه المختصر (أى مختصر المزنى) والبويطى ، والأم ، خلافا لمن شذ ، (وقيل) : ما قاله بعد خروجه من بغداد الى مصر ، والقديم ما قاله قبل دخولها ، ومنه كتاب الحجة (انتهى) .

وفى كلام الرملى على منهاج النووى أن الجديد ما قاله بمصر ، وأشهر رواته البويطى والمزنى والربيع المرادى والربيع الجيزى وحرملة ويونس بن عبد الأعلى وعبد الله بن الزبير المكى ومحمد بن عبد الله بن الحكم وأبوه . والقديم ما قاله بالعراق أو قبل انتقاله الى مصر (انتهى) .

وفى كلام غيرهما أن الجديد ما قاله بعد دخوله مصر ، أو ما استقر رأيه عليه فيها

وإن كان قد قاله بالعراق ، والقديم ما قاله زمن وجوده بالعراق وبعده قبل دخوله مصر ولم يستقر رأيه عليه فيها (انتهى) .

وقال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات : وصنف الشافعى كتبه الجديدة كلها بمصر (انتهى) .

وقال ابن حجر العسقلانى : قال الآبرى : أخبرنا أبو نعيم الاستراباذى سمعت الربيع ابن سليمان يقول مرارا : لو رأيت الشافعى وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه ، ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التى كان يتكلم بها معنا فى المناظرة ، لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه ، غير أنه كان فى تأليفه يجتهد فى أن يوضح للعوام .

وقال: قال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، سمعت الشافعى يقول وهو مريض وذكر ما جمع من الكتب فقال : وددت لو أن الخلق تعلموه ولا ينسب الىّ منه شىء .

وقال فى رواية عن البويطى إنه قال : سمعت الشافعى يقول : لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها ولا بد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فما وجدتم فى كتبى هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه .

(القائلون إن كتاب الأم تصنيف الشافعى)

إن القائلين ذلك كثير جدا ، وهذه طائفة منهم :

قال الأنصارى البهنسى فى الكافى : وللشافعى فى الأصول والفروع كتب مشهورة ، منها الأم فى نحو خمسة عشر مجلدا ، صنفه الشافعى بمصر ، كما نقل عن رواية المزنى والبويطى ، والأم من الكتب الجديدة .

وذكر إمام الحرمين فى الخلع أن الأم من الكتب القديمة (انتهى) .

فالمزنى والبويطى نفسه ـ وهما صاحبا الشافعى الكبيران ـ أخبرا بأن كتاب الأم صنفه الشافعى بمصر . وعلى ذلك يكون كتاب الأم من كتبه الجديدة .

وإمام الحرمين (وهو شيخ الغزالى) أخبر بأن كتاب الأم من كتب الشافعى القديمة . والكتب القديمة صنفها الشافعى قبل دخوله مصر على ما تقدم .

وشذ إمام الحرمين فى عد كتاب الأم من الكتب القديمة ، وقد أشار الى الشذوذ ابن حجر الهيتمى فى شرح منهاج النووى كما مر . وسنذكر فيما يأتى تتمة لهذه المسألة .

فكتاب الأم على أنه من الكتب الجديدة أو القديمة تصنيف الشافعى .

وقال ابن حجر العسقلانى : قال أبو الحسين الآبرى : حدثنا الزبير بن عبد الواحد حدثنى محمد بن سعيد ، أخبرنا القريابى هو أبو سعيد قال الربيع : أقام الشافعى ها هنا (أى بمصر) أربع سنين فأملى ألفا وخمسمائة ورقة . وخرّج كتاب الأم ألفى ورقة ، وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها فى مدة أربع سنين (انتهى) .

وأقر ذلك ابن حجر العسقلانى وهو الناقد العظيم .

فالربيع صاحب الشافعى الكبير أخبر أيضا بأن الشافعى بمصر خرّج كتاب الأم ألفى ورقة . فالشافعى صاحب كتاب الأم ومصنفه ، والربيع يعلم ذلك ، ويعلم أن الكتاب مسمى بكتاب الأم فى ذلك العهد .

وقال ابن حجر العسقلانى : وقد سرد البيهقى كتب الشافعى فلخصتها من كتابه : الرسالة القديمة ، ثم الجديدة ، اختلاف الحديث ، جماع العلم ، إبطال الاستحسان ، أحكام القرآن ، بيان الغرض ، صفة الأمر والنهى ، اختلاف مالك والشافعى . اختلاف العراقيين ، اختلافه مع محمد بن الحسن ، كتاب على وعبد الله ، فضائل قريش ، كتاب الأم ، أولها الطهارات ثم الصلوات الخ .

وأقر ذلك ابن حجر العسقلانى وهو الناقد العظيم .

فالبيهقى أخبر أيضا بأن من كتب الشافعى كتاب الأم . والبيهقى من أئمة المسلمين ، ومن كتبه كتاب مناقب الشافعى ، والمبسوط فى نصوص الشافعى ، وكتاب السنن الكبير ، وكتاب السنن الصغير ، جعلهما على ترتيب مختصر المزنى صاحب الشافعى .

وقال إمام الحرمين : ما من شافعي إلا وللشافعي في عنقه منة ، إلا البيهقي ، فإن له على الشافعي منة لتصانيفه في نصرة مذهبه وأقاويله . وتوفي البيهقي سنة ٤٥٨
وإذا كان البيهقي هكذا فهو من أعلم الناس بكتب الشافعي وأصحابه .

* * *

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات (وهو يذكر أحوال الشافعي ومناقبه) : ومن ذلك مصنفات الشافعي رحمه الله في الأصول والفروع التي لم يسبق اليها كثرة وحسنا ، وهي كثيرة مشهورة ، كالأم في نحو خمسة عشر مجلدا ، وهو مشهور الخ .

وقال في شرح المهذب كذلك : ومن ذلك مصنفات الشافعي في الأصول والفروع التي لم يسبق اليها كثرة وحسنا ، فإن مصنفاته كثيرة مشهورة ، كالأم في نحو عشرين مجلدا ، وهو مشهور الخ .

وقال في مناظرات الشافعي : وهذه المناظرات معروفة موجودة في كتبه رضي الله عنه ، وفي كتب الأئمة المتقدمين والمتأخرين . وفي كتاب الأم للشافعي رحمه الله من هذه المناظرات جمل من العجائب والآيات ، والنفائس الجليلات ، والقواعد المستفادات .

وقال في شرح المهذب أيضا : وقول المصنف (أي أبي إسحاق الشيرازي) قال في الأم : وقال في حرملة ، يعني قال الشافعي في كتابه الأم وهو الكتاب المعروف . رواه عنه الربيع بن سليمان المرادي . وقوله : وقال في حرملة ، يعني الشافعي في الكتاب الذي يرويه حرملة عنه ، فسمى الكتاب باسم راويه وناقله وهو حرملة مجازا واتساعا كما سبق عند ذكر البويطي .

والذي سبق أن أبا إسحاق الشيرازي قال في المهذب : قال في البويطي ، فقال النووي في شرحه : وقوله : قال في البويطي معناه قال الشافعي في الكتاب الذي رواه البويطي عن الشافعي ، فسمى الكتاب باسم مصنفه مجازا ، كما يقال قرأت البخاري ومسلما والترمذي والنسائي وسيبويه ونظائرها (انتهى) .

وكتاب البويطى هذا هو مختصر البويطى المعروف عند الشافعية . وسيأتى له ذكر.

فالنووى أخبر أيضا غير مرة بأن كتاب الأم للشافعى .

والنووى إمام الشافعية من عهده الى الآن ، وهو خبير بكتب الشافعى وأصحابه ، وباحث كبير ، ومرجح متبع ، أتى بعد الغزالى فكانت له الكلمة . توفى الغزالى سنة ٥٠٥ ، وتوفى النووى سنة ٦٧٦

وذكر السيوطى الامام الشافعى فيمن كان بمصر من الأئمة المجتهدين وقال : وصنف الشافعى بها كتبه الجديدة كالأم والأمالى الكبرى والإملاء الصغير الخ .

فالسيوطى أخبر أيضا بأن كتاب الأم صنفه الشافعى .

والسيوطى آخذ من بعض الكتب التى يصح الاعتماد عليها ، كما يعلم من خطبة كتابه حسن المحاضرة .

فالمزنى والبويطى نفسه والربيع ، وهم أصحاب الشافعى الكبار ، وإمام الحرمين والبيهقى والنووى والسيوطى يقولون : إن كتاب الأم صنفه الشافعى .

(القائل إن كتاب الأم صنفه البويطى)

قال أبو طالب المكى فى قوت القلوب (فى الأخوة والصحبة) : وحدثنا محمد ابن القاسم القرشى عن الربيع بن سليمان عن الامام الشافعى رحمه الله أنه آخى رجلا ببغداد الخ ، وقد كان الشافعى عليه السلام آخى محمد بن عبد الحكم المصرى ، وكان يحبه ويقربه ويقول : ما يقيمنى بمصر غيره . واعتل محمد فعاده الشافعى ، فحدثنى القرشى عن الربيع قال : سمعت الشافعى ينشد وقد عاد محمدا الخ ، وما شك أهل مصر أن الشافعى يفوض أمر حلقته اليه وأنه يستخلفه بعد موته الخ .

وأخمل البويطى رحمه الله نفسه (أى بعد أن قبض الشافعى) واعتزل عن الناس بالبويطة من سواد مصر .

وصنف كتاب الأم الذى ينسب الآن الى الربيع بن سليمان ويعرف به ،

وإنما هو جمع البويطى لم يذكر نفسه فيه، وأخرجه الى الربيع فزاد فيه وأظهره وسمعه منه (انتهى) .

ولو كان الربيع بن سليمان قائل هذا كله لكان الظاهر أن يقول : «وصنف كتاب الأم الذى ينسب الآن اليّ» ويجرى بقية الكلام كذلك ، فجَعْل هذا من كلام الربيع خلاف الظاهر . فهو كلام أبي طالب أو محمد بن القاسم القرشى ، وهو كلام لا يعرف سنده .

وقال الغزالى فى الإحياء (فى الحق السابع من حقوق الأخوة والصحبة) : وحكى الربيع أن الشافعى رحمه الله آخى رجلا ببغداد الخ . ثم قال الغزالى : واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق فى أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعى رضى الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ويقبل عليه ويقول : مايقيمنى بمصر غيره ، فاعتل محمد فعاده الشافعى رحمه الله الخ ، وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته اليه بعد وفاته الخ .

وآثر البويطى الزهد والخمول ، ولم يعجبه الجمع والجلوس فى الحلقة ، واشتغل بالعبادة .

وصنف كتاب الأم الذى ينسب الآن الى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنفه البويطى ، ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه الى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره (انتهى) ولم يقل الغزالى : « وسمعه منه » كما قال أبو طالب .

وحكاية الغزالى كحكاية أبى طالب بشىء من التصرف ، وبلا ذكر سند فى أول الكلام .

* * *

والكلام فى الأخوة والصحبة يذكر فى علم التصوف كالكلام فى إخمال النفس .

والغزالى إذ كتب فى التصوف عول على كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وكتاب الرسالة للأستاذ أبى القاسم القشيرى .

ذكر ابن خلكان أن أبا طالب المكى توفى لست خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٨٦ ببغداد، وأن الأستاذ أبا القاسم القشيرى توفى فى سادس عشر ربيع الآخر سنة ٤٦٥ بنيسابور، وأن الغزالى توفى فى رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ بالطابران ودفن بظاهر الطابران وهى قصبة طوس .

ولقد تكلم بعض الناس فى أبى طالب والغزالى ، ولكن ابن السبكى دافع عن الغزالى سالكا سبيل الإنصاف كما ذكر ، وشهد شهادة حسنة لأبى طالب وكتابه ، وعظم من شأن الغزالى وعلمه .

وقد قال ابن خلكان : أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثى الواعظ المكى صاحب قوت القلوب ، كان رجلا صالحا مجتهدا فى العبادة ، ويتكلم فى الجامع ، وله مصنفات فى التوحيد ، ولم يكن من أهل مكة ، وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة فنسب اليها ، وكان يستعمل الرياضة كثيرا ... ودخل البصرة بعد وفاة أبى الحسن بن سالم فانتمى الى مقالته .. وقال محمد بن طاهر المقدسى فى كتاب الأنساب : إن أبا طالب المكى المذكور لما دخل بغداد واجتمع الناس عليه فى مجلس الوعظ خلط فى كلامه ، وحفظ عنه أنه قال : ليس على المخلوقين أضر من الخالق . فبدعه الناس وهجروه ، وامتنع من الكلام بعد ذلك (انتهى) .

وابن سالم يقول : الله جسد على صورة إنسان ، له يد ورجل وحواس خمس ، وأنف وأذن وعين وفم ، وله وفرة سوداء ، ونصفه الأعلى مجوف والأسفل مصمت ، إلا أنه ليس لحما ودما (انتهى) .

والوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، أو ما سال على الأذنين منه ، أو ما جاوز شحمة الأذن .

وقال الخطيب البغدادى : صنف (أى أبو طالب) كتابا سماه قوت القلوب على

لسان الصوفية ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة فى الصفات ... وامتنع من الوعظ فى جمادى الآخرة سنة ٣٨٦ (انتهى).

فهل يجوز أن يكون ابن السبكى غفل عن هذا ؟

وحكى ابن السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى أن الإمام أبا عبد الله المازرى المالكى سئل عن حال كتاب إحياء علوم الدين ومصنفه الغزالى، فجاء فى بعض إجابته: أما مذاهب الصوفية فلست أدرى على من عول فيها . ثم أشار الى أنه عول على أبى حيان التوحيدى، ثم ذكر توهية أكثر مافى الإحياء من الأحاديث .

وحكى ابن السبكى كذلك أن أبا الوليد الطرشوشى المالكى قال فى رسالته الى ابن مظفر : فأما ماذكرت من أمر الغزالى فرأيت الرجل وكلمته ، ورأيته رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه، ثم بدا له الانصراف عن طريق العلماء ودخل فى غمار العمال، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلها ... فلما عمل كتاب الإحياء عمد يتكلم فى علوم الأحوال ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها ولا خبير بمعرفتها ... وشحن كتابه بالموضوعات .

وذاد ابن السبكى عن الغزالى وفصل فى طعن المازرى فقال فيما قال : ومن الجهل بحاله (أى الغزالى) دعوى أنه اعتمد على كتب أبى حيان التوحيدى . والأمر بخلاف ذلك . ولم يكن عمدته فى الإحياء بعد معارفه وعلومه وتحقيقاته التى جمع بها شمل الكتاب ونظم بها محاسنه إلا على كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى ، وكتاب الرسالة للأستاذ أبى القاسم القشيرى (المجمع على جلالتهما وجلالة مصنفهما) .

ثم قال : وأما ماعاب به الإحياء من توهية بعض الأحاديث، فالغزالى معروف بأنه لم تكن له يد فى الحديث باسطة . وعامة مافى الإحياء من الأخبار والآثار مبدد فى كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء، ولم يسند الرجل لحديث واحد .

وقد اعتنى بتخريج أحاديث الإحياء بعض أصحابنا فلم يشذ عنه إلا اليسير . وسأذكر جملة من أحاديثه الشاذة (انتهى) وهذا فصل فى طعن الطرشوشى أيضا .

لقد شهد ابن السبكى شهادة حسنة لأبى طالب وكتابه ، فذكر أنهما مجمع على جلالتهما ، وكيف يكون الإجماع مع ما ذكره ابن خلكان والخطيب البغدادى فى أبى طالب وكتابه ؟

يجوز أن يكون ابن السبكى حكى إجماعا من غير بحث . ويجوز أن يكون رأى ماذكره ابن خلكان والخطيب البغدادى وبحث فعلم مايدفع عن أبى طالب وكتابه فجعل ما ذكره ابن خلكان والخطيب البغدادى فى حكم العدم .

الحق أن المسألة من جهة النظر لا تخلو من شىء .

وقد عظم ابن السبكى من شأن الغزالى وعامه فى موطن آخر فقال فى وصفه :

حجة الإسلام ، ومحجة الدين التى يتوصل بها الى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز فى المنقول منها والمفهوم . جرت الأئمة قبله شأوا ولم تقع منه بالغايه ، ولا وقف عند مطلب وراءه مطلب لأصحاب النهاية والبدايه .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

حتى أخمل من القرناء كل خصم بلغ مبلغ السها ، وأخمد من نيران البدع كل مالا تستطيع أيدى المجالدين مسها .

وذكر أن شيخه إمام الحرمين كان يصفه فيقول : الغزالى بحر مغدق .

وذكر أن له فى مذهب الشافعى الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة ، وفى أصول الفقه المستصفى والمنخول ، ألفه فى حياة أستاذه إمام الحرمين الخ .

وقال : وهذان الإمامان (أعنى إمام الحرمين وتلميذه الغزالى) وصلا من التحقيق وسعة الدائرة فى العلم الى المبلغ الذى يعرف كل منصف أنه ما انتهى اليه أحد بعدهما (انتهى) .

والشافعية يعلمون أن الغزالى إمام جليل من أئمة الشافعية الذين شغلت كتبهم العلماء ، فانتفعوا بها أزمانا ، ويعلمون أن وجيز الغزالى أصل لمحرر الرافعى ، ومحرر الرافعى أصل لمنهاج النووى ، ومنهاج النووى أصل لمنهج شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، والمنهاج والمنهج يدرسان الآن ويرجع اليهما فى فقه الشافعى .

وابن خلكان توفى سنة ٦٨١ ، والخطيب البغدادى توفى سنة ٤٦٣ ، وابن السبكى توفى سنة ٧٧١ ، ومن كتبه جمع الجوامع فى الأصول .

***

مسألة أبى طالب باقية على ما هنالك من نظر ، والغزالى على احتمال أنه غير آخذ من أبى طالب لم يأت بسند لحكايته ، ولم نجد لحكايته موافقة فى كتاب يعتمد عليه .

وما حكاه أبو طالب أوحكاه الغزالى من أن البويطى صنف كتاب الأم لم يذكره الأنصارى البهنسى فى الكافى ، مع أنه يذكر أمورا دقيقة .

ولم يذكره ابن حجر العسقلانى فيما نقل عن البيهقى وغيره ، مع كثرة ما نقل ، ومن دأبه أن يبحث وينقد .

ولم يذكره النووى فى تهذيب الأسماء واللغات ، ولا فى شرح المهذب على سعة ما كتب ، ومن دأبه أن يتعقب كلام من قبله .

ولم يذكره السيوطى ، ومن عادته أن يجمع من هنا ومن هنا .

ولم يذكره ابن السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى عند الحديث عن البويطى والربيع ، ومن عادته فى مثل ذلك أن يطنب ويأتى بالأقوال المختلفة ، وإنما قال فى الحديث عن البويطى : وله المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى رضى الله عنه . قال أبو عاصم : هو فى غاية الحسن على نظم أبواب المبسوط (قلت) : وقد وقفت عليه وهو مشهور . قال أبو عاصم : كان الشافعى يعتمد البويطى فى الفتيا ويحيل عليه

إذا جاءته مسألة . قال : واستخلفه على أصحابه بعد موته ، فتخرجت على يديه أئمة تفرقوا في البلاد ، ونشروا علم الشافعي في الآفاق .

فلم يقل ابن السبكي : وللبويطي كتاب الأم أيضا مع أن كتاب الأم أعظم شأنا من مختصر البويطي .

الفصل بين الطائفتين

من تقول : إن كتاب الأم تصنيف الشافعي

ومن تقول : إن كتاب الأم تصنيف البويطي

لقد جرى جمهور الشافعية من أول عهدهم الى الآن على أن كتاب الأم تصنيف الشافعي ، وفيهم أصحاب الشافعي المقدمون : المزني ، والربيع ، والبويطي نفسه . وفيهم الأئمة الأعلام ، كإمام الحرمين ، والبيهقي ، والنووي .

ولمثل البيهقي والنووي وابن حجر العسقلاني اجتهاد كبير في جمع مايحيط بالشافعي وأصحابه ، ولهم معرفه تامة بأحوال الروايات عن الشافعي وأصحابه . ولم نر في الكتب المشهورة التي بين أيدينا على كثرة ما فيها من الروايات والأقوال أن أحدهم ذكر حكاية أبي طالب أن البويطي صنف كتاب الأم .

أخفيت حكاية أبي طالب عليهم ، أم لم تخف عليهم ؟

فإن كانت لم تخف عليهم فقد يقول قائل : لم لم يذكروها قبولا أوردا ؟

ولمثل ابن السبكي والسيوطي نظر في كتاب الإحياء من أوله الى آخره ، كما يعرف ذلك من تأليفهما . فحكاية كتاب الإحياء أن البويطي صنف كتاب الأم لم تخف عليهما ، ولم يذكراها في كتابيهما المشهورين قبولا أوردًّا .

فقد بقيت حكاية أبي طالب وحكاية الغزالي بلا رد .

فهل رأى هؤلاء وأمثالهم أن أدلتهم تجعل حكاية أبي طالب وحكاية الغزالي مردودتين هاهنا ؟

نعم رأوا ذلك ، لأن ما رووه ونقلوه صحيح يعضد بعضه بعضا ، وفيه شهادة البويطى نفسه .

أما ثناء ابن السبكى على أبى طالب وكتابه والغزالى وعلمه ، فإنه لا يمنع من نقد حكاية أبى طالب وحكاية الغزالى . والعلماء يعرفون مثل ذلك كثيرا .

وانظر مثلا قول النووى : ومن ذلك مصنفات الشافعى رحمه الله فى الأصول والفروع التى لم يسبق اليها كثرة وحسنا ، وهى كثيرة مشهورة كالأم فى نحو خمسة عشر مجلدا ، وهو مشهور ، وجامعى المزنى الكبير والصغير ، ومختصريه ، ومختصر الربيع والبويطى ، تجد فيه إضافة كتاب الأم الى الشافعى وحده ، وإضافة جامعى المزنى الكبير والصغير ومختصريه ومختصر الربيع والبويطى الى الشافعى والى المزنى والربيع والبويطى .

وانظر قول السيوطى فى الشافعى بمصر : وصنف بها كتبه الجديدة كالأم والأمالى الكبرى ، والإملاء الصغير ومختصر البويطى ومختصر المزنى ، تجد فيه إضافة كتاب الأم الى الشافعى وحده ، وإضافة مختصر البويطى ومختصر المزنى الى الشافعى والى البويطى والمزنى .

والنووى والسيوطى جاءا بعد أبى طالب والغزالى . وقد علم مما سبق شأن النووى والسيوطى . وتوفى السيوطى سنة ٩١١ .

وقد ذكرنا ما نقل عن رواية المزنى والبويطى أن الشافعى صنف كتاب الأم بمصر .

وذكرنا رواية الآبرى عن الربيع أن الشافعى بمصر خرّج كتاب الأم ألفى ورقة .

وانظر كتاب الأم المطبوع تر فيه فقه الشافعى وعباراته التى هى حجة فى اللغة العربية ، وتعرف أن ما زاد على أصل كتاب الأم من بعض عبارات للربيع بن سليمان أو للراوى عنه ، خفيف متميز ، كالذى يسمى اليوم بالتعليق . وهذا لا يخرج كتاب الأم عن كونه كتاب الأم ، وتعلم أن ما زاد عند الطبع متميز أيضا لا يسلب الكتاب اسمه .

وتعلم أن راوى كتاب الأم هو الربيع بن سليمان ، وإذا أطلق الربيع بن سليمان فهو المرادى ، ذلك الامام الصادق الذى لا يحكى غير الواقع .

وقد ذكرنا عن النووى أن كتاب الأم رواه عن الشافعى الربيع بن سليمان المرادى.

وقال النووى : واعلم أن الربيع حيث أطلق فى كتب المذهب المراد به المرادى . وإذا أرادوا الجيزى قيدوه بالجيزى . ويقال للمرادى راوية الشافعى .

وقال الحافظ الامام أبو بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى فى آخر كتابه (مناقب الشافعى) : الربيع بن سليمان المرادى هو راوية كتب الشافعى الجديدة على الصدق والاتقان، فربما فاتته صفحات من كتاب فيقول فيها : قال الشافعى، أو يرويها عن البويطى عن الشافعى ، وصارت الرواحل تشد اليه من أقطار الأرض لسماع كتب الشافعى .

وقال البويطى : الربيع أثبت فى الشافعى منى .

وقال الامام أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازى فى كتابه (مناقب الشافعى) : سمعت أبا عمرو أحمد بن على بن الحسين البصرى ، قال : سمعت محمد بن أحمد ابن سفيان الطرائفى البغدادى يقول : سمعت الربيع بن سليمان يوما وقد حط على باب داره تسعمائة راحلة فى سماع كتب الشافعى رحمه الله ورضى عنه (انتهى) .

وقد وقع فى روايةٍ بدل (محمد بن أحمد بن سفيان) محمد بن حمدان بن سفيان .

وقال السبكى فى الحديث عن الربيع بن سليمان المرادى : وكانت الرحلة فى كتب الشافعى اليه من الآفاق نحو مائتى رجل . وقد كاشفه الشافعى بذلك حيث يقول فيما روى عنه : أنت راوية كتبى .

وقال النووى : قال يحيى بن معين وقد سئل عمن يكتب كتب الشافعى فقال : عن الربيع .

وقال الربيع : جاءنى أبو عبيد فأخذ كتب الشافعى ، يعنى ليكتبها .

وذكر ابن حجر العسقلانى فى بعض أحوال الشافعى والربيع أن الربيع كان على حوائج الشافعى ، فربما غاب فى حاجة فيعلم له ، فاذا رجع قرأ الربيع عليه ما فاته .

وقال أبو الحسين الرازى : أخبرنى على بن محمد بن أبى حسان الزيادى بحمص قال : سمعت أبا يزيد القراطيسى يقول : سماع الربيع بن سليمان من الشافعى ليس بالثبت ، وإنما أخذ أكثر (الكتاب) من آل البويطى بعد موت البويطى . قال أبو الحسين الرازى : وهذا لا يقبل من أبى يزيد ، بل البويطى كان يقول : الربيع أثبت فى الشافعى منى . وقد سمع أبو زرعة الرازى كتب الشافعى كلها من الربيع قبل موت البويطى بأربع سنين . (ومات البويطى ببغداد سنة ٢٣١) أى سمعها من الربيع سنة ٢٢٧

وسنذكر فيما يأتى أن (الكتاب) فسر بالمبسوط ، وأن المبسوط هو الأم .

وقال الراوى عن الربيع كما فى كتاب الأم المطبوع ج ٢ ص ٩٣ : «أخبرنا الربيع ابن سليمان المرادى بمصر سنة سبع ومائتين ، قال : أخبرنا محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله» وهذا بعد موت الشافعى بثلاث سنين، وقبل موت البويطى بأربع وعشرين سنة .

وقال ابن السبكى فى الحديث عن الربيع المرادى : صاحب الشافعى وراوية كتبه ، والثقة الثبت فيما يرويه ، حتى لو تعارض هو وأبو ابراهيم المزنى فى رواية لقدم الأصحاب روايته ، مع علو قدر أبى ابراهيم علما ودينا وجلالة ، وموافقة ما رواه للقواعد .

(وقيل) : كان فيه سلامة صدر وغفلة (قلت) : إلا أنها باتفاقهم لم تنته به الى التوقف فى قبول روايته ، بل هو ثقة ثبت خرّج إمام الأئمة ابن خزيمة حديثه فى صحيحه .

وكذلك ابن حبان والحاكم . قال ابن أبى حاتم : سمعنا منه وهو صدوق . وسئل أبى عنه فقال : صدوق (انتهى) وقال الخليل فى الإرشاد : ثقة متفق عليه (انتهى) .

وقال ابن حجر العسقلانى : روى عنه أبو داود والنسائى وابن ماجه ، وروى الترمذى عنه بالإجازة ، وحدث عن واحد عنه ، وروى عنه أيضا أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان وابن أبى حاتم وزكريا الساجى والطحاوى وأبو محمد بن صاعد وآخرون . وثّقه النسائى وأبو سعيد بن يونس وآخرون (انتهى) .

وقال النووى : قال الخطيب : هو ثقة . توفى فى شوال سنة ٢٧٠ (انتهى) .

لقد قال أبو طالب فى حكايته : وأخرجه (أى أخرج البويطى كتاب الأم) الى الربيع فزاد فيه وأظهره وسمعه منه (انتهى) .

فيحتمل أن يكون معنى (وسمعه منه) أن البويطى سمع كتاب الأم أو الزائد من الربيع . ويحتمل أن يكون معنى هذا أن الربيع سمع كتاب الأم من البويطى .

ولكن الغزالى فى حكايته لم يقل : (وسمعه منه) وفى هذا إشارة الى رد الاحتمال الثانى على الأقل ، والى أن الربيع معروف سماعه من الشافعى دون توسط أحد بينه وبين الشافعى . فاذا روى عن الشافعى فإنما يروى على الصدق والإتقان .

وإذا علمت جميع ماتقدم علمت أن حكاية أبى طالب وحكاية الغزالى مردودتان .

وقد جاء فى كتاب الأم المطبوع ج ١ ص ٢٤٨ (غسل الميت) أخبرنا الربيع ابن سليمان قال : لم أسمع هذا الكتاب من الشافعى وإنما أقرؤه على المعرفة .

وجاء فيه ج ٢ ص ٩ وهكذا هذا فى البقر لا يختلف إلا فى خصلة ، فإنه إذا وجب عليه مسنة والبقر ثيران فأعطى ثورا أجزأ عنه إذا كان خيرا من تبيع الخ .

(قال الربيع) : أظن مكان مسنة (تبيع) وهذا من خطأ الكاتب لأن آخر الكلام يدل على أنه (تبيع) .

وجاء فيه ج ٣ ص ٢٦٤ (إحياء الموات) أخبرنا الربيع قال : قال محمد بن إدريس الشافعى : ولم أسمع هذا الكتاب منه وإنما أقرؤه على معرفة أنه من كلامه (انتهى) .

فانظر الى صدق الربيع واحتياطه .

وانظر الى هذا الذى ذكر (ومثله قليل) تعلم أن ما عداه قد سمعه الربيع من الشافعى . وقال ياقوت فى معجم الأدباء : والذى لم يسمعه الربيع من الشافعى رضى الله عنه وأرضاه : كتاب الوصايا الكبير ، كتاب اختلاف أهل العراق على علىّ وعبد الله ، كتاب ديات الخطأ ، كتاب قتال المشركين ، كتاب الإقرار بالحكم الظاهر ، كتاب الأحباس ، كتاب اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتاب مسألة الجنين ،

كتاب وصية الشافعي ، كتاب ذبائح بني إسرائيل ، كتاب غسل الميت ، كتاب ما ينجس الماء مما خالطه ، كتاب الأمالي في الطلاق (انتهى) .

وإذا كان كتاب الأم يحتوي على مائة ونيف وأربعين كتابا كما ذكر ابن حجر العسقلاني ، فهذا الذي لم يسمعه الربيع من الشافعي قليل ، لأنه ثلاثة عشر كتابا . ولا تنس قول البيهقي المتقدم : الربيع بن سليمان المرادي هو راوية كتب الشافعي الجديدة على الصدق والإتقان فربما فاتته صفحات من كتاب فيقول فيها : قال الشافعي أو يرويها عن البويطي عن الشافعي (انتهى) . وقد عرفت أن الذي لم يسمعه من الشافعي يقول فيه : « لم أسمعه من الشافعي » فهذا هو الفاصل في الأمر . وانظر الكتب التي ذكرها ياقوت في كتاب الأم المطبوع ، فالمسألة لا تخلو من نظر .

***

قد يقول قائل : إن حكاية أبي طالب وحكاية الغزالي لم يردهما أحد بصريح العبارة ، فبقاؤهما كذلك قد يؤدي الى شك بعض الناس في نسبة كتاب الأم .

فيقال له : إن العلماء كثيرا ما يعرضون عن الشيء إعراضا ويهملونه إهمالا ، لأنهم لا يقيمون له وزنا ، ويكون ذلك أبلغ من رده بصريح العبارة ، ومرجع الأمر الى أهل الفهم والعرفان .

وقد يقول قائل : إن الزبيدي شارح كتاب الإحياء نقل بعض عبارات أبي طالب في شرح حكاية الغزالي ولم ينقد كلام أبي طالب ولا الغزالي

فالجواب : أن ما قدمناه كاف في نقد ذلك . وكون الزبيدي لم ينقد لا يدفع كلام جمهور العلماء أهل البحث والنقد ومعرفة أحوال الروايات والأقوال كما هو ظاهر

***

فإن غلا معترض وأرخينا العنان وتنزلنا كثيرا فقدرنا الحكاية والحكاية صحيحتين فغاية ما هنا لك أن يحصل ما يسمى (بالتعارض) فيقال : إن ما روى ونقل من أن كتاب الأم تصنيف الشافعي كثر وبلغ حد الشهرة ، وليست حكاية أبي طالب

وحكاية الغزالى كذلك ، والأصح عند الأصوليين فى مثل هذا ترجيح الأول على الثانى ، غير أنهم يقولون : الأصح أن العمل بالمتعارضين ولو من وجه أولى من إلغاء أحدهما بترجيح الآخر عليه . وقيل : لا ، فيصار الى الترجيح .

والعمل بهما ها هنا ممكن من وجه ، إذ تكون نسبة كتاب الأم الى الشافعى من ناحية التصنيف الأول الذى هو الإنشاء العرفى الحاصل عن إعمال الفكر والاجتهاد ، وتكون نسبته إلى البويطى من ناحية التصنيف الثانى الذى هو لمّ ذلك المنشأ ونسخه . فيكون كتاب الأم مضافا الى الشافعى والى البويطى كما ذكر ، وقد وقعت الإضافتان مرات من الذين يتكلمون فى تصنيف الشافعى وأصحابه ، وإن كان لكل إضافة قدر . وقد ذكرنا فيما سبق كلام النووى والسيوطى فى الإضافتين .

وقال ابن السبكى مثلا : صنف (أى المزنى) كتبا كثيرة : الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والمختصر الخ

وقال : وله (أى البويطى) المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى رضى الله عنه ، فأضاف ابن السبكى الكتب الى المزنى والبويطى ، ولم يضفها الى الشافعى أيضا ، ولكن النووى وغيره أضافها الى الشافعى واليهما . وقد عرف أن عمل المزنى والبويطى فى هذه الكتب أكثر من عمل البويطى فى كتاب الأم إن قلنا إن له عملا فيه .

والزبيدى شارح كتاب الإحياء الذى لم ينقد حكاية أبى طالب وحكاية الغزالى قال عن الربيع : وأقام الشافعى بمصر أربع سنين فأملى ألفا وخمسمائة ورقة ، وأخرج كتاب الأم فى ألفى ورقة ، وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها فى أربع سنين .

وقدمنا أن ابن حجر العسقلانى ذكر عن الآبرى نحو هذه الرواية . فالزبيدى أضاف كتاب الأم الى الشافعى والى البويطى . فتكون الإضافة على ما قدمنا من النسبة .

ويشبه ماقلنا فى الخروج من المعارضة قول ملا كاتب جلبى : كتاب الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ جمعه البويطى ولم يذكر اسمه . وقد نسب الى ربيع بن سليمان . بوبه الإمام الربيع بن سليمان المرادى المؤذن بمصر ، فنسب اليه دون من

صنفه وهو البويطى. فإنه لم يذكر نفسه فيه ولا نسبه الى نفسه كما قال الغزالى فى الإحياء.

قال (أى الأسنوى) فى المهمات: وهو نحو خمسة عشر مجلدا متوسطا.

قال ابن حجر (أى العسقلانى) فى مناقبه: وعـدة كتب الإمام مائة ونيف وأربعـون كتابا، فسره وبوبه ورتبه على المسائل والأبواب أيضا الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد اللبان الأسعردى الشافعى المتوفى سنة ٧٤٩ (انتهى)

فإذا كان ملا كاتب جلبى نسب كتاب الأم الى الشافعى، فذكْره بعد ذلك أن البويطى جمعه وصنفه إنما يفيد أن البويطى لمّ ونسخ ما أنشأه الشافعى ووضعه، ويدفع ما أوهمته حكاية أبى طالب وحكاية الغزالى.

وقول ملا كاتب جلبى: «وقد نسب الى ربيع بن سليمان. بوبه الإمام الربيع بن سليمان المرادى» يفيد أن ربيع بن سليمان الأول هـو الجيزى كما يفهم الشافعية عند المغايرة، وليس الأمر كذلك، لأن الأول هو المرادى أيضا كما تقدم، والنسبة الى الربيع من أجل الرواية والتبويب، والذى دعا ملا كاتب جلبى أن يقول: «وقد نسب الى ربيع ابن سليمان» دون أن يقول: (المرادى) أنه وجد فى أول كتاب الأم مثلا: (أخبرنا الربيع ابن سليمان قال: أخبرنا الشافعى رحمه الله تعالى) ووجد فى كتاب آخر أن الربيع ابن سليمان المرادى بوب كتاب الأم، فنقل العبارة الأولى كما وجدها، والعبارة الثانية كما وجدها.

وقال ملا كاتب جلبى: قال ابن حجر فى مناقبه: «وعدة كتب الإمام» ولـكن الذى فى نسخة ابن حجر: «وعدة كتب الأم».

الربيع كان تلميذ الشافعى، وقد سمع منه كتبه إلا يسيرا فاته للضروة. ومن كتبه كتاب الأم كما مر. وكانت عنده كتب الشافعى يكتبها أو تـكتب له. وعادة ذلك العهد تقضى أن يكون عند الربيع كتاب الأم. وكيف لا يكون عنده وفيه أكثر كتب الشافعى فى الفقه، وكيف لا يكون عنده وهو راوية الشافعى، وكان يعطى كتب الشافعى لمن يريد أن ينسخها.

فهل يقال بعد هذا على سبيل الحقيقة: «صنف البويطى كتاب الأم»؟

وهل يقال : ينسب كتاب الأم الذى صنفه البويطى الى الربيع ؟

إن صحت حكاية أبى طالب وحكاية الغزالى فى الواقع ، فكل ما هنالك أن البويطى لمّ ونسخ كتاب الأم الذى أنشأه الشافعى ووضعه عن فكر واجتهاد ، وأن البويطى أعطى هذه النسخة الربيع فصار عند الربيع نسختان . وأين نسخة البويطى الآن ؟ إن النسخة المطبوعة أصلها نسخة الراوى عن الربيع ، ليس هنالك غيرها فيما علمنا.

(عبارات كتاب الأم هى عبارات الشافعى)

إذا كان الشافعى قد خرّج كتاب الأم ألفى ورقة كما فى الرواية الصحيحة عن الربيع ، وكان الربيع تلميذ الشافعى وقد سمع منه كتبه كما مر ، وكان راوية كتب الشافعى وراوى كتاب الأم على الصدق والإتقان ، فعبارات كتاب الأم هى عبارات الشافعى التى يحتج بها فى اللغة العربية .

وإذا نظرنا فى كتاب الأم المطبوع عرفنا أن تصرف الربيع ليس تصرفا فى العبارة، وإنما هو تصرف بالزيادة المتميزة كزيادة الراوى عن الربيع ، وعلمنا أن الزيادتين كالتعليق ، وهو لا يخرج كتاب الأم عن أصله ، كما لا يخرجه عن أصله ما جد من الزيادة عند الطبع .

وإليك أمثلة لا من الزيادة التى جدت عند الطبع :

فى ج ١ ص ٢٦ قال الربيع : ثم رجع الشافعى عن هذا بعد .

» ٤٢ قال الربيع : وله قول آخر .

» ٥٨ قال الربيع : وهو آخر قوليه .

» ١٩٢ أخبرنا الربيع قال : أخبرنا الشافعى (فى الإملاء) والإملاء غير كتاب الأم كما أشار الى ذلك النووى فى تهذيب الأسماء واللغات .

وفى ج ٢ ص ٤١ قال أبو يعقوب والربيع : وغير ما فيها الركاز لتجارة زكاها زكاة التجارة .

وفى ج ٢ ص ٥٢ (باب اختلاف زكاة ما لا يملك) قال الربيع (فى أثنائه) : سمعت الكتاب كله إلا أنى لم أعارض به من هاهنا الى آخره .

فانظر كيف كان احتياط الربيع فى الرواية ، وانظر ماذا تأخذ من عبارته هذه . إنك لتأخذ منها أن ما لم يقل فيه مثل ذلك من كتاب الأم يكون قد سمعه من الشافعى وعارض به أى قابله .

وفى ج ٣ ص ٣٣ قال الربيع : قد رجع الشافعى عن بيع خيار الرؤية .
» ٥٦ قال الشافعى فى موضع آخر .
وفى ج ٤ » ٤٨ قال الربيع : أنا أجيب فيها أقول
» ٥ » ٢٧ » وفى قول آخر
» ٢٦٣ » وكذلك امرأة أبيه
» ٢٧٠ » وقد قال مرة الخ
وفى ج ٦ » ٥١ » قلت أنا وأبو يعقوب
» ٧ » ١٢٦ » للشافعى رحمه الله تعالى هاهنا جواب
» ١٣١ » آخر قول الشافعى
» ١٨٢ » معنى قول الشافعى فى هذا

ذكرنا أن فى كتاب الأم المطبوع زيادة حدثت عند طبعه ولكنها متميزة ، وقد قال مصححه : (تنبيه) اعلم أنه قد حصلت لنا عدة نسخ من الأم ، ومنها بعض أجزاء عتيقة بخط ابن النقيب ، منقولة من نسخة بخط سراج الدين البلقينى ، تفردت بزيادات مترجمة معزوة لبعض مؤلفات الشافعى رحمه الله تعالى ، مثل كتاب اختلاف الحديث ، وكتاب اختلاف مالك والشافعى ونحوهما ، وربما كان فى هذه الزيادات تكرار لبعض ما اتفقت عليه النسخ ، ولكنها مع ذلك لا تخلو عن فوائد من فروع وتوجيهات للإمام رحمه الله . ولهذا أثبتنا تلك الزيادات بهامش هذا المطبوع إن اتسع لذلك ، وإلا جعلناه فى الصلب بعد عبارة الأم مفصولا بينهما بجدول (انتهى) .

ومن هذه الزيادات ما تراه فى ج ١ ص ١١٤ وقد كتب فى الصلب غير مفصول بينه وبين عبارة الأم بجدول، وإنما هو متميز بإشارة أخرى خفيفة، وبالعبارة، مثل (وفى مختصر المزنى نصوص فى سجود السهو لم نرها فى الأم قال المزنى قال الشافعى الخ)

ومثل (فى جمع الجوامع قال الشافعى الخ) وجمع الجوامع كتاب مختصر من كتب الشافعى، اختصره ابن العفريس (كقنديل) وهو أبو سهل أحمد بن محمد الزوزنى الشافعى.

وقال ابن السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى: إن أبا سهل لا يغير من العبارة شيئا إنما يحكى النصوص بألفاظها، وكذلك سائر من يجمع نصوص الشافعى ليس لهم فى ألفاظ الشافعى رضى الله عنه تصرف (انتهى).

وقال ملا كاتب جلبى: وهو (أى جمع الجوامع) على ترتيب مختصر المزنى (انتهى)

ومثل (وقال الماوردى إنه مذهب الشافعى وجماعة أصحابه الفقهاء الخ).

وكان الأولى ألا يكتب مثل هذا فى الصلب.

***

إنك لا تجد بابا مثلا من أبواب كتاب الأم إلا منسوبا الى الشافعى على إنشائه الأول وبسطه، غير مأخوذ من أبواب شتى مثلا، وغير منقول من كتاب آخر.

وليس ما صنف أصحاب الشافعى كذلك. انظر الى مختصر المزنى المشهور مثلا وإن أضيف الى الشافعى أيضا، تجد المزنى قال فى خطبته:

اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله، ومن معنى قوله، لأقربه على من أراده.

وقال المزنى فى أبواب الكتاب:

(مختصر الشفعة) من ثلاثة كتب متفرقة من بين وضع وإملاء على موطأ مالك ومن اختلاف الأحاديث، ومما أجبت فيه على قياس قوله، والله الموفق للصواب.

(إحياء الموات) من كتاب وضعه بخطه لا أعلمه، سمع منه.

(باب التقاط المنبوذ يوجد معه الشىء) مما وضع بخطه لا أعلمه، سمع منه، ومن مسائل شتى سمعتها منه لفظا.

(كتاب الوصايا) مما وضع الشافعى بخطه لا أعلمه ، سمع منه .

(الأمة تعتق وزوجها عبد) من كتاب قديم ، ومن إملاء ، وكتاب نكاح وطلاق إملاء على مسائل مالك .

(باب ما يقع وما لا يقع على امرأته) من الطلاق ومن إباحة الطلاق ، ومما سمعته منه لفظا .

(باب الطلاق قبل النكاح) من الإملاء على مسائل ابن القاسم ، ومن مسائل شتى سمعتها لفظا .

(مختصر من الجامع) من كتابى لعان جديد وقديم وما دخل فيهما من الطلاق من أحكام القرآن ومن اختلاف الحديث .

(عدة المدخول بها) من الجامع من كتاب العدد ، ومن كتاب الرجعة والرسالة .

* * *

أليس فيما ذكرناه حجة قوية على أن كتاب الأم للشافعى ، وأن عباراته عبارات الشافعى ؟

(الأم والمبسوط)

ذكر ابن حجر العسقلانى عن البيهقى أن المزنى حمل عن الشافعى كتابه المبسوط (وهو المختصر الكبير) والمنثورات ، وكذا المختصر المشهور .

وذكر فى الحديث عن المزنى أن المزنى لزم الشافعى لما قدم مصر ، وصنف المبسوط والمختصر من علم الشافعى .

وذكر النووى أن مصنفات الشافعى كثيرة مشهورة ، كالأم فى نحو عشرين مجلدا وهو مشهور ، وجامع المزنى الكبير ، وجامعه الصغير ، ومختصريه الكبير والصغير .

فقد أضيف المبسوط الى الشافعى والى المزنى ، والمبسوط هو المختصر الكبير .

وكتاب الأم لم يقل أحد فيه (المختصر الكبير) الذى يضاف الى المزنى .

إذاً يكون هذا المبسوط غير كتاب الأم .

وقال ابن النديم فى الحديث عن المزنى : وله من الكتب كتاب المختصر الصغير الذى بيد الناس وعليه يعول أصحاب الشافعى ، وله يقرءون ، وإياه يشرحون ... كتاب المختصر الكبير ، وهو متروك (انتهى) والمعروف أن كتاب الأم غير متروك . فكتاب الأم غير المختصر الكبير ، أى غير المبسوط الذى يضاف الى المزنى .

وذكر ابن النديم فى الحديث عن البويطى أن للبويطى من الكتب كتاب المختصر الكبير ، كتاب المختصر الصغير ، كتاب الفرائض .

وكتاب الأم لم يقل أحد فيه (المختصر الكبير) الذى يضاف الى البويطى .

فكتاب المختصر الكبير الذى يضاف الى البويطى غير كتاب الأم .

وقال ابن النديم : وتوفى (أى الشافعى) سنة ٢٠٤ بمصر ، وله من الكتب كتاب المبسوط فى الفقه ، رواه عنه الربيع بن سليمان والزعفرانى .

ويحتوى هذا الكتاب على كتاب الطهارة ، كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الحج ، كتاب الاعتكاف ، كتاب .

(وسقط باقى الكلام من فهرست ابن النديم) ثم جاء ما يأتى :

قال محمد بن إسحاق : قرأت بخط ابن أبى يوسف ما هذه نسخته :

كتاب الرسالة ، كتاب الطهارة ، كتاب الإمامة ، كتاب استقبال القبلة ، كتاب الجمعة (الى آخره) .

ولسقوط الكلام بين ما تقدم وما تأخر يحتمل أن يقول قائل : إن ما تأخر رواية أخرى فى المبسوط .

فيقال له : ذكر ابن النديم أولاً أن المبسوط فى الفقه ، وذكر فيما تأخر كتاب الرسالة ، وقد اشتهر أنه فى الأصول ، وأنه كتاب مستقل ، فليس ما تأخر رواية أخرى فى المبسوط .

ويحتمل أن يقول قائل : إن ما تأخر هو ما احتوى عليه كتاب الأم ، فيكون كتاب الأم غير المبسوط .

فيقال له : اشتهر أن كتاب الرسالة كتاب مستقل غير داخل فى كتاب الأم ، وكتاب

الرسالة فى الأصول ،وكتاب الأم فى الفقه ،فليس ما تأخر ما احتوى عليه كتاب الأم .
وقد ذكر ابن حجر العسقلانى عن البيهقى كتبا ليست من كتب كتاب الأم ، منها الرسالة القديمة ، ثم الجديدة ، واختلاف الحديث ، وإبطال الاستحسان ، وأحكام القرآن ، وبيان الفرض ،واختلاف مالك والشافعى ، واختلاف العراقيين ، واختلافه مع محمد بن الحسن ، وكتاب على وعبد الله ، وفضائل قريش .

وهذه الكتب ذكرها ابن النديم فيما تأخر ، فما ذكره ابن النديم فيما تأخر ليس بيانا لما احتوى عليه كتاب الأم ،وإنما هو بيان لكتب الشافعى مطلقا . ويؤيده ما قاله ياقوت فى معجم الأدباء : والبيهقى من أدرى الناس بكتب الشافعى ، ومن أدرى الناس بالكتب التى احتوى عليها كتاب الأم .

وقال ابن النديم فى الحديث عن الربيع : روى عن الشافعى كتب الأصول (ويسمى مارواه المبسوط) .

ولم يقل الناس : كتاب الرسالة هو (كتب الأصول) وإنما قالوا : (كتاب الرسالة) وقالوا : (كتاب الرسالة أول كتاب وضع فى الأصول) .

اذاً تكون كتب الأصول التى رواها الربيع عن الشافعى هى التى تذكر فى الفقه مثل : كتاب الطهارة ، كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الحج كتاب الاعتكاف الخ .

وهى التى وجدنا منها طائفة فى فهرست ابن النديم ذكرت مما يحتوى عليه كتاب المبسوط الذى هو للشافعى فى الفقه ، وقد رواه عنه الربيع والزعفرانى .

وإذا كان المبسوط فى الفقه ، فعبارة (كتب الأصول) وفق الأصل لا تشمل كتاب الرسالة .

ومما يعضد ذلك أن أبا عاصم ذكر أن مختصر البويطى على نظم أبواب المبسوط ، ومختصر البويطى كل أبوابه فى الفقه .

وأن ابن النديم فى الحديث عن الزعفرانى قال : وروى المبسوط عن الشافعى

(على ترتيب ما رواه الربيع) وفيه خلف يسير ، وليس يرغب الناس فيه ولا يعملون عليه ، وإنما يعمل الفقهاء على ما رواه الربيع .

والمشهور عن الزعفرانى أنه روى عن الشافعى الكتاب القديم المسمى بالحجة وهو فى الفقه . أما الرسالة القديمة فى الأصول فهى مستقلة .

والمشهور عن الربيع أنه روى عن الشافعى كتاب الأم ، وهو فى الفقه . أما الرسالة الجديدة فى الأصول فهى مستقلة .

فاذا أريد بكتب الأصول مايشمل الرسالة ،وقف فى طريق الإرادة قول ابن النديم : « وروى (أى الزعفرانى) المبسوط عن الشافعى على ترتيب ما رواه الربيع » لأن ترتيب ما رواه الربيع لا يشمل الرسالة ، لأنها خارجة عنه ، وأول الترتيب (الطهارة) .

***

يؤخذ من كلام ابن النديم أن المبسوط هو كتاب الحجة ، وهو كتاب الأم . فكتاب الحجة يقال له المبسوط ، وكتاب الأم يقال له المبسوط ، ولكن هنالك خلفا يسيرا بينهما ، والخلف اليسير الذى فى كتاب الحجة لا يعمل الشافعية به ، وإنما يعملون بما فى كتاب الأم (أى مضافا إليه ما استقر عليه رأى الشافعى) .

وقد عد إمام الحرمين كتاب الأم قديما ، ولكنه شذ فى ذلك ، فقد قال الماوردى فى أثناء كتاب الصداق : غيّر الشافعى جميع كتبه القديمة فى الجديد إلا الصداق ، فإنه ضرب على مواضع منه وزاد مواضع (انتهى) .

وقال البيهقى : وبعض كتبه الجديدة لم يعدّ تصنيفها ، وهى : الصيام ، والصداق ، والحدود ، والرهن الصغير ، والإجارة والجنائز ، فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه فى الجديد ، وأمر بتحريق ما يغير اجتهاده . قال : وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه فى مواضع أخر .

قال ابن حجر العسقلانى : قلت : وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيرا من الإشكال

الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعى الرجوع عنها وهى موجودة فى بعض هذه الكتب (انتهى) .

من هذا تعلم الذى جعله ابن النديم خلفا يسيرا بين مارواه الزعفرانى وما رواه الربيع .
ومن هذا تعلم الذى من أجله عد إمام الحرمين كتاب الأم قديما فقيل إنه شذ .

***

وقال ابن حجر العسقلانى : وأخرج الحاكم من طريق عمرو بن خالد قال : جاءنى الشافعى فأخذ منى كتاب موسى بن أعين ، وهو كتاب اختلاف الأوزاعى وأبى حنيفة . (قال البيهقى) : وهو كتاب فى السير أصله لأبى حنيفة ، فرد عليه فيه الأوزاعى ، فرد أبو يوسف على الأوزاعى رده على أبى حنيفة ، فأخذه الشافعى ورد على أبى يوسف رده على الأوزاعى ، وهو الكتاب المعروف بسير الأوزاعى . (قلت) : وهو من جملة كتب الأم .

وقال الحاكم : أخبرنا أبو الوليد الفقيه ، حدثنا ابراهيم بن محمود ، سمعت الربيع يقول : ألف الشافعى هذا الكتاب (يعنى المبسوط) حفظا لم يكن معه كتب (انتهى)

وقدمنا أن أبا يزيد القراطيسى يقول فى الحديث عن الربيع : « وإنما أخذ أكثر الكتاب » ولم يبين الكتاب . وقد فسر هنا بالمبسوط ، وقد عرف أن المبسوط هو كتاب الأم . فالكتاب وكتاب الأم والمبسوط لمسمى واحد

وفى صنع ابن حجر العسقلانى إشارة الى ذلك، فإنه أتى بالجملة التى فيها ذكر الأم ، ثم أتى برواية الحاكم التى فيها (ألف الشافعى هـذا الكتاب (يعنى المبسوط) الخ ، ليشعر أن ما فيها كالبيان للأم ، وفيه رد لما قد توهمه عبارة البيهقى من أن الشافعى كان حين تصنيفه كتاب الأم ينظر فى كتب غيره . فكأنه قيل: إن جميع الكتب التى اشتمل عليها كتاب الأم ومنها سير الأوزاعى ألفها الشافعى حفظا لم يكن معه كتب . فلو كان معه كتب ، فهو يحفظها ثم يصنف كما مر

فلا يتوهم أن الإشارة فى قول الربيع : (هذا الكتاب) الى سير الأوزاعى ، لما علمت ، ولأن ما ذكره أبو عاصم من أن مختصر البويطى على نظم أبواب المبسوط مع

ما تراه فى سير الأوزاعى المذكور فى الجزء السابع من كتاب الأم المطبوع — يمنع أن يراد بالمبسوط كتاب سير الأوزاعى ، ويمنع أن يراد بالمبسوط كتب الشافعى كلها .

إن مختصر البويطى فى أبواب الفقه وهى كثيرة ، وكتاب سير الأوزاعى فى أحوال الجند والغنائم وما له اتصال قريب بذلك ، وهو لم يبلغ سبع عشرة ورقة ، فيها أربع وثلاثون (ترجمة) كما يقولون ، ومختصر البويطى ليس فيه مثلا كتاب الرسالة أو مختصره ، وأبوابه كأبواب كتاب الأم .

وليس فيما علم الناس أن كتب الشافعى كلها جعلت كتابا واحدا ذا أبواب منظومة .

اذا عطف المبسوط على الأم مثلا فى عبارة فليس العطف للمغايرة . وقد قال الزبيدى فى شرح الإحياء نقلا عن ابن حجر العسقلانى :

والمسند المنسوب الى الشافعى هو عبارة عن الأحاديث التى وقعت فى مسموع الأصم على الربيع من كتاب الأم والمبسوط ، التقطها بعض النيسابوريين وهو أبو عمرو محمد بن جعفر بن مطر من الأبواب فسمى ذلك مسند الشافعى (انتهى) .

وقال ملا كاتب جلبى فى مسند الشافعى : وجمع مسنده أبو عبد الله بن يعقوب بن يوسف الأصم الشافعى المتوفى سنة ٢٤٦ (انتهى) والصواب سنة ٣٤٦

وانظر فيما ذكره النووى مثلا من كتب الشافعى ، تجد كتاب الأم ولا تجد كتاب المبسوط . وانظر فيما ذكره ابن النديم مثلا من كتب الشافعى ، تجد كتاب المبسوط ولا تجد كتاب الأم .

معنى هذا (بعد البينات التى أقيمت) أن كتاب الأم هو كتاب المبسوط ، وكتاب المبسوط هو كتاب الأم .

فمن ذكر كتاب الأم وحده لم يهمل كتاب المبسوط ، ومن ذكر كتاب المبسوط وحده لم يهمل كتاب الأم ، ذلك لأن المسمى واحد .

وعلى هذا يكون كلام ابن النديم زاد حجة تضاف الى ما مر على أن كتاب الأم ألفه الإمام الشافعى رضى الله عنه . والله أعلم ؟ حسين والى

Islam is not therefore founded on such principles as those orientalists have tried to imagine but it is founded on universal principles which no nation has so far established and which is conceded by the highest philosophy of the day to be the most perfect and most worthy of consideration. In all its precepts, Islam has shown and faithfully followed this universalistic tendency and trampled on all the social distinctions that were raised by the ignorance of nations and fostered by racial prejudices in different periods of the world's history.

There is really nothing that stands between Islam and its becoming the world's religion except the ignorance of people concerning it, but once the truths of Islam are made known to them, it will become the universal human religion in fulfilment of the Lord's saying:

« هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ »

"It is He who hath sent His Apostle with guidance and the religion of Islam that He may exalt it above every relgion although the polytheists like it not."

(*Baidawy's Commentary*)

« وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ »

"Ye shall surely know it truth in time."

(*Baidawy's Commentary*)

Allah? And who is more unjust than he who concealeth the testimony which he hath received from Allah (in regard to Abraham? But Allah is not regardless of what ye do. That were a people who have passed away, they have their recompense, and ye shall have yours, and ye shall not be questioned of that which they have done ».

(Baidawy's Commentary)

Islam makes no distinction between one whose father is Abraham or Mohammad the last of the prophets and between one whose father was a black slave or even one who knows no father at all. It was not founded on such distinctions which may find acceptance at certain times or with certain people in a primitive stage of intelligence but not at all times or everywhere nor with people of a high standard of intelligence who would consider such distinctions degrading to the honour of human society.

Islam is a religion ordained for mankind in their entirety: white or black, Arab or otherwise which made them equal in such a manner as to leave no room for a distinguished paternity or an illoustrous ancestory. In this connection, the Prophet (on who be peace) says: " Allah hath delivered you from the curse of the days of ignorance (pre-Islamic days) and its pride of ancestory: ye are all from Adam and Adam is of dust."

Islam aimed at the establishment of a universal nation of one unified faith which is neither the religion of Abraham nor the religion of Noah but the religion of Allah Himself which is founded on human nature and pure reason for thus saith the Lord:

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

"Do the unbelievers seek a religion other than Allah's and to Him had everyone in heavens and on earth submitted in obedience or by force, and unto Him shall they return".

(Baidawy's Commentary)

The Lord has declared in more than one verse of the Holy Koran that Islam was the first faith which was revealed by Him to the first prophet:

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً »

"Allah hath ordained for you the religion which He commanded unto Noah."

(Baidawy's Commentary)

and his son or even that they founded the Kaba? Or could they have been the natives of Medina who were of the Yemenite tribes that migrated to Arabia after the Aram flood and cared for nothing pertaining to Abraham or the Kaaba? Or could they have been those few numbered individuals among the Arabs who followed the religion of Abraham and were sparsely scattered in the tribes having no connection with one another throughout the Peninsula? Or could they have been some other people whom neither we nor history itself could claim to know?

The reader may well conclude from the foregoing that this orientalist's imputations are totally unfounded and that they were only inspired by pure imagination and the desire to disparage and impair the prestige of Islam by such empty gabble.

It may be well here to remind that orientalist of an all-important point about Islam and that is the basic principles and universal doctrines on which it was founded.

Islam has not relied for its ascendancy on the establishment of a chosen people whose ancestory goes back to a distinguished historical figure; but it aimed at the establishment of a universal nation in which racial and social distinctions melt away by relating it to a common paternity, the paternity of Adam. In this connection, the Lord addresses mankind thus:

« يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتقَاكُمْ إِن ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

"O, men! Verily We have created you all of Adam and Eve, and We have made you into peoples and tribes that ye might know one another and boast not of your ancestry. Verily the most worthy of honour among you, in the sight of Allah, is the most pious; Allah is all-knowing and cognisant of your innermost throughts".

(*Baidawy's Commentary*)

As to upholding of distinguished figures or illustrous ancestory, the Lord saith:

«أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللهِ ، وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

"Will ye say truly that Abraham, and Ismail, and Isaac, and Jacob and their offspring were Jews or Christians? Say who knoweth best, ye or

The Holy Koran has also declared that Ismail was an apostle and a prophet. It is known that he was brought up among the Beni Jerhem and married from them. The outcome of this marriage was the branch of the Ismailites which included Koreish, Rabiea, Moddar, etc. Ismail (on whom be peace) lived to witness the growth of that branch in its earlier stages. The Holy Koran has pointed out that his mission was restricted to his tribe and kinsmen. He enjoined prayers, alms-giving and righteousness. His mission was not meant to go beyond his tribe. He was not a universal prophet or admonisher on whose hands great changes were effected as in the case of the Prophet Mohammad (on who be peace).

History has shown that since the appearance of the Adnan tribes up to the time of the Phophet, no other apostle was sent to the Arabs. The statement of the Koran is therefore true and completely conforms with universal history showing no contradiction in any part thereof.

As to the assertion of this orientalist that the Prophet (on whom be peace) had depended for the success of his mission on the support of the Jews of Mecca, it is equally untrue, and we fail to find in the Koran or in history anything to bear it out. The Prophet never once appealed to them, nor is it recorded that he ever met or consulted them on matters of religion. It is given in the Koran that in his early days, he was commanded to call secretly to his faith, then he was to admonish his nearest kinsmen and lastly to proclaim his mission to the world. It was for this reason that his people became embittered against him and endeavoured to refute his claims, yet never once have the Jews been mentioned in any of those stages. The learned orientalist has given us no idea of the kind of assistance for which the Prophet appealed to the Jews. Was it to further his mission though he never approached them on that score, or to support him with their men though they were of limited and small number to be held in fear amidst those strong and numerous tribes of the Arabs? No one had more openly been condemned by the Holy Koran than the Jews. How could it be then that Mohammad would flatter them and seek their support?

Such statements are maliciously inspired and have no vestige of truth or scientific investigation in them.

Had that imputation been true, would not the Koran have sought to win the sympathy of the Jews by pointing out the soundness of their doctrines or by making mention of their relationship?

But how is it that this orientalist says that the Koran did not declare Abraham as the patriarch of the Arabs except at Medina? Would not this had better been done at Mecca where the Prophet appealed to the Jews for support rather than at Medina where he openly attacked and censured them? Is not this a weak and loosely-connected imputation? and does it not carry with it the elements of self-refutation?

This orientalist went on to say that when the Jews failed the Prophet he turned to some other people for support. Now who could those other people have been? Could they have been the Christians who were a minority in Arabia and cared very little for the relationship of the Arabs to Abraham

All this was widely known among the Arabs of pre-Islamic days and the Jews who lived in their midst. Is it conceivable therefore to attribute to Islam the concoction of this story? And if this be entertained by certain people, is it conceivable that it was Islam that introduced it in the Old Testament as well?

What is the meaning of that orientalist's assertion that the Koran established no connection between Abraham and Ismail in its early stages? Was that omission due to the Prophet's ignorance of it when he was at Mecca despite the fact of its being in the Old Testament and its prevalence among the Jews there?

Strange indeed is this orientalist's attitude. He asserts that the Koran, in its early and in its Meccan Suras, established no connection between Abraham and Ismail yet this was explicitly established in one of the Meccan Suras, that of Abraham's where he says:

«ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ»

"Praise be to Allah, who hath given me, in my old age, Ismail and Isaac; verily my Lord hath answered my prayers."

(Baidawy's Commentary)

On what basis had this orientalist founded his assertion other than his ignorance of the Meccan Suras and their contents? Would he have persisted in his claim and brought those charges which he framed if he had once seen the Meccan Sura of Abraham and found out for himself the connection between Abraham and Ismail plainly established therein?

We are aware that some orientalists bring false charges against Islam, but we would have thought that they were above barefaced denial of a plain statement which is explicity mentioned in the Holy Book.

As to the further imputation that the Koran has declared that no apostle was sent by Allah to the Arabs before Mohammad, relying for authority in the Koranic verse:

« لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

"To admonish a people to whom no admonisher was sent before, that haply they may be guided unto the right way."

This imputation is equally untrue for the meaning of this verse is that no apostle was sent by Allah to this particular branch of the Arabs before Mohammad.

By such verses as these, is not meant the categorical denial of sending any apostle to the Arabs in all times. The Koran has itself declared in plain words that Houd (on whom be peace) had been sent to the Adites and Saleh (on whom be peace) had been sent to the Themoudites, both of whom are of the older branches of the Arabs.

And now let us consider the rest of those imputations viz. that the figure of Abraham appears in the Koran in two distinct stages. In the first, he is an apostle of God, sent to admonish his people. No connection is established between him and Ismail. At the same time, it is declared that the Arabs have had no admonisher before Mohammad. Abraham never appears as the first founder of the Kaaba nor as the first Muslim.

When the Prophet went to Medina, all this was changed and Abraham was called Hanif and a Muslim and was considered as the founder of a religion, also that he founded the Kaaba along with his son Ismail etc.

By arraying these conjectures in the manner he did, this orientalist could only be understood to convey plainly that the Holy Koran is not the word of God but is the work of Mohammad and that he had introduced therein all what he deemed fit to further his policy and personal interest with the Arabs!

Such words as these, we may say, could only be inspired by complete ignorance of the truths of Islam and utter confusion in regard to its historical stages as well as by total inadvertence of the principles on which it was founded since the very day of its revelation.

Before we discuss these points however, we may examine the structure of this imputation in order to show how loosely-connected and weak it is and to prove that it was founded on unpardonable historical fallacies.

Now as regards the idea that the Koran has made Abraham an apostle like all the prophets of God, this has no apparent connection with either stage in which the figure of Abraham appeared, but it is his inseparable attribute in all stages. Every Moslem since the advent of Islam up to the present day believes this to be so and if Ibraham had had a position in the history of Islam different to that of other apostles, it is because he had been the first apostle to a great mass of the Arab people and the founder of the edifice to which all of them, Ismailites and Kahtanites alike, made pilgrimage once a year, also that there were many among them who followed his religion and were scattered throughout their tribes.

All Arabs anterior to Islam and including both their branches, believed that the Kaaba was built by Abraham and his son Ismail to perform their prayers within its precincts.

This was the popular belief of the Arabs in pre-Islamic days and it was for this reason that they held it as a sacred place to which they made pilgrimage once a year. No one ever disagreed as to the identity of its founder, while they differed in all other things even the very names of their idols but never in the ascripton of this building to Abraham and Ismail.

There is really nothing odd in the matter in any of its phases that might give contemporary critics reason to doubt the Holy Koran. The question is now confined to whether Abraham (on whom be peace) came to Arabia. The Arabs are agreed on this and say that he is the founder of the temple to which we make pilgrimage, and the Jews on whose Book the orientalists rely, concur with the Arabs on this point and name the place at which he stopped and made an abode for his wife Hagar and his son Ismail. (Vide Old Testament verse 18, Chap. XXV. and verse 20, Chap XXI.).

Abraham" and is called Hanif and a Muslim, also that he founded the Kaaba along with his son Ismail.

This change, they assert, is explained thus: In the early stages of his mission, Mohammad had appealed to the Jews in Mecca but when they failed him, he sought support elsewhere. He ingeniously declared Abraham to be the father of the Arabs, thus rendering himself independent of contemporary Judaism by appealing to the Judaism of Abraham which was, they assert, the precursor of Islam.

When Mecca occupied the thoughts of the Prophet, the foundation of the Kaaba was also ascribed by him to Abraham.

These are the doubts cast by those orientalists and we give below our argument in refutation thereof in the same order:

As to the discrepancy between the Koran and the Old Testament regarding the name of Abraham's father, no one except this orientalist had considered it a point of difference. For indeed had this been the case, contemporary Jews at the time of the Prophet (on whom be peace) would not have hesitated to make public this difference as they were most anxious to refute the Prophet's claims and turn people away from his faith. They laid in wait for every word or deed of his so that they might make use of them as a means to sow the seeds of sedition and discord. Had there been the least ground for doubt in the question of Abraham's father, they would have raised a mighty cry of protestation against it and would have used it as a strong argument to cast doubt on the Koran. But since this appellation was not commented upon and no one of those who opposed the Prophet (on whom be peace) ever clung to it as an argument against him, it could only mean that it did not attract the least attention or evoke the flimsiest doubt.

Considerable periods have passed on this appellation, controversy raged fiercely in different periods between Moslems and Jews as regards religion and the Book revealed to Mohammad (on whom be peace), and many opportunities offered themselves to the Jews and unbelievers for revilement and slander yet none of these bitter and inexorable enemies could cling to what the orientalists of to-day call a discrepancy between the Koran and the Old Testament.

Would not that prove beyond all doubt that the word "Azar" was popularly applied in that time or even before by both Arabs and Jews to "Tarikh," and it could have been either a name given to Abraham's father or an epithet by which he was popularly known and which, in time, became a proper name?

This orientalist presumes that Mohammad had relied, for the propagation of Islam, on the alleged Judaism of Abraham. Is it conceivable then that he should make a mistake in the name of Abraham's father among those countless thousands of Jews who had the Arabic translation of the Old Testament and to whom the story of Abraham was so well known that it was easy enough to know the father's name?

This indeed is very hard to believe and we may be justified to say that this doubt is absolutely of no weight.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

Orientalists' Imputations Against The Koran Refuted [1]

In course of a book which was published in Europe by certain orientalists, the story of Abraham (on whom be peace) was dealt with and allusion was made to the statements of the Holy Koran on the subject which the orientalists imagined to cast some doubts on the Book of God in regard to Abraham's father, his connection with his son Ismail, their building of the Kaaba, the relation of the Ismailites to the Holy Prophet etc.

In vindication of the truth, we give below, a summary of those doubts followed by our answer thereto.

Their imputations are as follows:—

(1) The name given by the Koran to Abraham's father differs from that of the Old Testament. The Koran calls him "Azar" whereas the Old Testament called him "Tarikh."

(2) The figure of Abraham, appears in the Koran in two distinct stages. In the Meccan Suras, he is an apostle of God, sent to admonish his people like all other apostles. No connection is established between him and Ismail. At the same time, it is declared that the Arabs have had no admonisher before Mohammad. In this stage Abraham never appears as the first founder of the Kaaba nor as the first Muslim.

When the Prophet went to Medina, a change took place. Abraham was referred to in the Medina Suras as the founder of the "religion of

(1) Translated from Mr. Mohammad Farid Wagdy's article in Nour-El-Islam Review.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

— ٦ —

الدعوة الى العلم

أبنّا فى مقالاتنا السابقة ما قام عليه الإسلام من الأصول العليا التى توجب له السلطان المطلق على العقول والقلوب معا ، وتصوغ من متبعيه أمة تكون لها زعامة الأرض قاطبة . ونبين اليوم هنا أنه لم يحرم هذه الأمة من روح قوية تتولى دفعها الى التقدم ، وبعثها الى التطور ، وتحميها شرّ الجمود الذى يلحق بالأمم فيفضى بها الى التحلل أو الفناء فى أمم أخرى . تلك الروح هى العلم بأوسع معانيه ، وعلى ما تقضى به ضرورات الاجتماع ، وحاجات العقول ، وما تستدعيه حياة أمة جُعلت لتكون فى طليعة الأمم .

لا يوجد دين من الأديان ، ولا نظام اجتماعى من النظم المعروفة قديما وحديثا يبلغ شأو الإسلام فى رفع شأن العلم ، والتنويه بقيمته ؛ وفى الدعوة اليه ، والتعويل عليه ، فقال تعالى : (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُو ٱلْعِلْمِ قَائِمًا بِٱلْقِسْطِ) ، اعتدّ الله فى هذا الأمر الجلل بشهادة أهل العلم ، فرفع من قدر العلم الى حيث لا مرتقى بعده . وقال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ، وفى هذا من تشريف العلم ما فيه ، إذ حكم بأن أهله يمتازون عن سواهم ، لأنهم حملة النور الإلهى ، والقائمون برفع كسف الجهل عن العقول . وقال تعالى : (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ، قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : للعلماء درجات فوق المؤمنين عدتها سبعمائة . وقال تعالى

فى وصف القرآن : (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) ، جعل العلم أخص صفات كلامه الإلهى . وقال تعالى : (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ) ولا نظن أن فوق هذا تنويها بفضل العلم ، وإشادة بذكره .

أما ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل العلم فلا يكاد يحصى ، كقوله : « يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض » ، قال حجة الاسلام الغزالى : وأى منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » ، وليس بعد هذا التقدير الصحيح مذهب فى تشريف العلم ، والإشعار بأثره فى حياة المجتمع .

وقد زاد الله تعالى هذه الوصايا الكريمة قوة ، فجعل كمال التقوى متوقفا على العلم فقال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ) وربط به فهم الأمثال التى يضربها للناس ليهديهم الى طريق السعادة ، أو ليستنهض هممهم للخير ، فقال تعالى : (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ) .

وماذا تريد من دين يحب أن يقيم أمر جماعته على العلم أكثر من أن يفرضه عليهم فرضا ؟ ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أوَ لم يقل « اطلب العلم ولو بالصين » ؟

فأى علم يقصد الدين من كل هـذه الوصايا التى يدلى بها والتحضيضات التى يبذلها ؟ لا شك أنه يريد به كل ما يحتمله لفظه من المعارف التى أتيح للبشر الإلمام بها . فاتل قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) .

ألا ترى أن فى تذييله الآية بحصر خشية الله فى العلماء دلالة على أن المراد بالعلماء

هنا العارفون بأسرار هـذه الشئون الطبيعية، والواقفون على حقائق المساتير الكونية فوق علمهم بالأمور الإلهية؟

واتل قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) بكسر اللام.

ألا ترى أن فى تذييل هذه الأمور الكونية بقوله تعالى: « إن فى ذلك لآيات للعالمين » إشعارا بأن المقصود بالعالِمين الذين يلمون بما هُدى اليه الباحثون من هذه المعارف الطبيعية والإنسانية؟

فالعلم الذى يدعو اليه الكتاب، وتحث عليه السنة النبوية، هو كل ما يُدفع به الجهل والخبط، سواء أكان فى العقائد الدينية، أم فى الشئون المادية. فقد علم الله سبحانه وتعالى أن الإنسانية كما تحتاج لعلم صحيح فيما يتعلق بعقائدها، تحتاج كذلك الى علم بما تستصلح به معيشتها، وتبنى به اجتماعها، وتستكمل به وسائلها، وتحكم به جميع محاولاتها. وقد فهم آباؤنا الأولون هذا الفهم نفسه، فهبوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لطلب العلم بأوسع ما يحتمله هذا اللفظ من معان، فتخصص بعضهم لعلوم الدين، من ضبط قراءة كتابه، وتفسير معانيه، وطرق استنباط الأحكام منه، الى غير ذلك. ومنهم من وقفوا أنفسهم لدراسة السنة وتدوينها، ونقد رواتها، وتمييز أصيلها من دخيلها. وجماعة جعلوا غرضهم اللغة، فعمدوا الى تحرير مفرداتها، وضبط مدلولاتها، وحصر لغاتها، ووضع معاجمها، وتدوين علومها. وفرق أخرى استهدفت العلوم الكونية على اختلاف موضوعاتها، من فلك ورياضة، وطب وصيدلة، وكيمياء وطبيعة وغيرها، فاستوعبوا كل ما وجدوه شائعا من كتبها، فلما لم يرو لهم غلة شرعوا يترجمون ما ادخره اليونان والرومان والفرس فى مكتباتهم، فاستخرجوا منها ما كان فى حكم المعدوم، فألفوا من ذلك كله مجموعة من العلم لم تتفق لأمة قبلهم، فقد حشروا اليها كل ما ثبت نفعه من المعارف، غير متأثرين بعصبية، ولا بنزعة جاهلية، كما وصاهم رسولهم صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت »، فكانوا

لا يبالون فى العلم أن يأخذوه من أى مصدر كان ما دام ينتفع به ، ولا يأنفون أن ينتفعوا بالعلماء وإن كانوا من غير ملتهم ، فأسندوا رئاسة كثير من جامعاتهم العلمية لرجال من ذوى الملل الأخرى ، لما ثبت لهم أن ليس فى المسلمين الى ذلك العهد من يسدون مكانهم .

وقد ثبت أن أسلافنا لم يتأثموا من تعلم شىء مما ترجموه ، بل تناولوه جملة وأوسعوه تفلية وبحثا ، فنفوا ما ثبت بطلانه ، واحتفظوا بما عرفوا صحته ، فزادوا مادته ، واكتشفوا علوما لم تكن معروفة قبلهم كعلمى الكيمياء والجبر . ولم يتحرجوا من البحث فى أى مذهب من مذاهب العلم بحجة أن ذلك يضر بالدين ، أو أن الدين يحرمه ، حتى بحثوا فى السحر والطلاسم والأوفاق والزايرجا والتنجيم والسيمياء ، وكل ذلك تحت شعار هذه الحكمة العالية : « تعلم السحر ولا تعمل به » .

الخلاصة أن المسلمين قاموا بدافع من دينهم الى تلمس العلم من جميع مظانه ، وشغفوا به شغفا لم يرو التاريخ مثله عن أمة . فهل سمعت فيما قرأت من تاريخ الحروب أن أمة منتصرة تفرض فيما تفرضه على الأمة المغلوبة أن تعطيها مكتبة علمية ؟ هذا ما فعله المسلمون على عهد المأمون بن الرشيد ،فقد شرطوا فى صلحهم مع الرومان تسليمهم مكتبة عينوها لهم ، فقبل أمبراطورهم هذا الشرط وسلمهم المكتبة ، فأكبوا على ترجمة أحسن ما فيها، وأضافوه الى ماسبق لهم ترجمته ، حتى أصبحت لهم زعامة العلم فى الأرض ، وصارت مدارسهم وجامعاتهم معاهد للثقافة العالية يقصدها الناس من كل بقعة فى العالم .

فاذا كان لا بد من الاستئناس بقول مؤرخ أجنبى فى هذا الشأن ، فإليك ما قاله الأستاذ الفيلسوف (درابر) المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه المنازعة بين العلم والدين :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة (٦٣٨م) أى بعد وفاة محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح » .

الى أن قال :

« ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور من سنة (٧٥٣ الى ٧٧٥ م) نقل عاصمة الملك الى بغداد وجعلها عاصمة فخمة ، فلم يأل جهدا فى بذل الوسع فى نشر العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة .

« ولما تولى حفيده هرون الرشيد سنة (٧٨٦ م) اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة الى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه . ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الأسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ — ٨٣٢) فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع اليها كتبا لا تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

« هذا المركز الذى اكتسبه العرب ، وهذا الذوق السليم فى العلم ، استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت مملكتهم الى ثلاثة أقسام ، فإن العباسيين فى آسيا ، والفاطميين فى مصر ، والأمويين فى اسبانيا ، لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومة فحسب ، بل كانوا كذلك فى العلوم والآداب أيضا .

« ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث ، وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأوربيين ، فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى الى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها . من هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى ، والدستور العملى الحسى . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة فى الميكانيكا والايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ، ونظريات الضوء والإبصار ، أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذى قاد العرب

الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة والتصفية الخ . وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة ، والسطوح المعلمة ، والإسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب) ، وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته . وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية (الأزياج جداول تعرف منها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند . وهو أيضا الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات . وهو أيضا الذى همّ بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية »

ثم قال فى عرض كلامه على مكتباتهم :

« وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس على ستمائة ألف مجلد ، وكانت قائمة أسمائها وحدها واقعة فى أربعة وأربعين مجلدا . وغير هذا فقد كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة ، وكثير من المكتبات الخاصة .

«أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة الجامعة أن يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم ، وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه .

« وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التى تصلح لأن تتخذ مادة كثيرة جدا فى الجغرافيا والإحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة ، وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله .

« كان المُلك الإسلامى يغص بالمدارس والمكتبات ، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها ، وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة ، التى فاقت المملكة الرومانية كثيرا ، مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب ، وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيرالد فى الأندلس .

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا (تأمل)، وأوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم » .

ثم قال :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا فى التقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم، وأفاض فى تفصيل ذلك، ثم قال :

« ليست أوروبا العصرية بأعلى ذوقا، ولا أرقى مدنية، ولا ألطف رونقا من عواصم الأندلس على عهد العرب، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار، ومبلطة أجمل تبليط، والبيوت مفروشة بالطنافس، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد، وتهوى صيفا بالنسمات المعطرة بوساطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا، وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة الخ » انتهى كلام الأستاذ درابر .

نقول بعد هذا : بهذه الروح العلمية كفل الاسلام للآخذين به كل ما تستدعيه الحياة الاجتماعية من عوامل للتطور، وبواعث للنهوض والارتقاء، ودوافع للتبسط فى الأرض، والاختلاط بالأمم والاقتباس منها، واستهداف أغراض قصية، والدأب على بلوغها . فكان للاسلام ما رمى اليه، فتألفت من أهله أمة لم تبلغ شأوها أمة قبلها ولا بعدها : صحة فى العقيدة ينحنى العقل والعلم إجلالا لها، وتسليما بها؛ وعلو فى الحياة كانوا معها مطمح أنظار الأمم، تعشو الى نورهم، وتستهدى بهديهم؛ ومدنية فاضلة تنعم فيها الروح والجسم معا، مصداقا لقوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

محمد فريد وجدى



(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) .

لقد ورد فى فضل هذه السورة أحاديث عدة ، منها ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالّها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن . وروى عنه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يقرأ قل هو الله أحد ، فهى ثلث القرآن . وكذلك روى أن رجلا كان على سرية ، وكان يقرأ فى صلاته قل هو الله أحد ، فلما رجعوا أخبروا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أخبروه أن الله يحبه . وروى غير ذلك مما هو فى معناه .

وقد وجه شراح الحديث كونها تعدل ثلث القرآن بجملة توجيهات ، منها أن القرآن على كثرة ما فيه من فنون الهداية يرجع فى الاجمال الى التحديث عن ذات الله وتنزيهه ووصفه بصفات الكمال ، والى الأحكام ، والى الأخبار . وهذه السورة قد اشتملت على القسم الأول ، فتنزيهه فى « الله أحد » وفى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ووصفه بصفات الكمال فى « الله الصمد » .

ومنهم من حمله على المعادلة فى الثواب . وقد عهد فى الأحكام أن الله تعالى يختص بعض الأعمال بمزيد ثواب بالقياس الى أعمال تشاركها وتشبهها فى نوعها ، ويكون ذلك تارة لخصوصية فى الزمان كليلة القدر وليلة الجمعة ، وفى المكان كالصلاة فى المسجد الحرام ومسجده صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى ، وفى نفس العمل كصلاة الفرض بالقياس لصلاة النفل ، ولو كانت صلاة النفل أكثر عددا وأشق فعلا .

ولعل من حكمة ذلك أن أعظم ما يقصد من العبادة أن يكون قلب العبد مستنيرا بنور جلال الله وكبريائه ، وهذا قريب الحصول جدا من تلاوة هذه السورة ، فإنها لجلاء معناها للعقول ، واختصارها فى الصورة ، تبقى حاضرة فى القلوب ، متجلية للعقول ، تتأثر بها النفس أعظم تأثر ، فلا جرم كان لها هذه الخاصية . ولعل فى تسميتها سورة الإخلاص مايقرب هذا المعنى للعقل ، فإنها قد اشتملت على صفات التنزيه وهى صفات الجلال ، وعلى صفات التمجيد وهى صفات الجمال ، فى قوله : «الله الصمد» ومتى امتلأ قلب المؤمن بتنزيه الله عن الشريك والمكافىء ، والولد والوالد ، وعن النظير والشبيه ، وعن الجزء وعن الجسمية ومايلتحق بها ، فقد أخلص لله العبادة وخلص من شوائب الشرك . وإذا أضيف إليه استيقان النفس بأنه هو الفعال لما يريد ، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الذى شملت قدرته كل ممكن ، فهو الذى يصمد اليه أى يقصد فى الحوائج ، انقطع اتجاهه الى أى كائن سوى ربه ، وكفى بالإخلاص بابا للنجاة ، ولذلك سميت سورة النجاة ، وسورة المعرفة ، ولها أسماء عدة غيرما ذكر ، كسورة التوحيد وسورة التجريد ، وسورة الأساس ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد . والحديث يشير الى البرهان المذكور فى الآية الشريفة « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فقد قررت أن أساس الإيجاد هو الوحدة ، ولولاها لم يكن هذا العالم الذى نراه على أتم نظام .

هـذا وليعلم أن تفضيل سورة على سورة أو آية على آية لا ينفى أن الـكل كلام الله متحد النسبة إليه ، وأنه جميعه حائز من الشرف والـكمال والبعد عن النقص الدرجة العظمى .

سبب نزولها — قيل إن قوما من المشركين أرسلوا الى النبى صلى الله عليه وسلم من يقول له : لقد شققت عصانا ، وسببت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيرا جمعنا لك من مالنا حتى تـكون أغنانا ، وإن كنت تبغى الملك ملـكناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كان يعتريك شىء من الجن التمسنا لك من يداويك . فقال : لست بشىء مما تقولون ، وإنما أنا رسول الله أدعوكم الى عبادته . فقال : انسب لنـا ربك أوصف لنا ربك : أمن ذهب أم من فضة ؟ فنزلت هذه السورة .

وقيل فى سبب نزولها إن قوما من اليهود قالوا له صلى الله عليه وسلم : هذا الله خالق كل شىء فمن خالق الله ؟ فغضب صلى الله عليه وسـلم ، فنزل جبريل فقال له : اخفض جناحك ، ونزلت هذه السورة . وعلى الأول تـكون السورة مـكية ، وعلى الثانى تـكون مدنية . وقال بعضهم : لا مانع من تـكرر نزولها .

قوله تعالى : « قل » أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يقول ، والأمر وما بعده كل من كلام الله عز وجل المتلو ، ويكون الامتثال بعد ذلك فيما يدعوهم إليه ، وهو مقول القول بعده ، فهو كـقوله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ) وكـقوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُـكُمْ) وأمثال ذلك ، ينزل عليه الأمر قرآنا يتلى ، وبمقتضاه يـكون مكلفا بالإتيان بما أمر به . والسر فى إثباتها مع أن الشأن فى امتثال الأمر بقل أن يتلفظ المأمور بالمقول لا بلفظ قل ، هو الإشارة الى أن هذا أمر موجه الى كل من تعرض لمثل هذا المقام ، وابتلى بمثل ما ابتلى به عليه السلام ، أو كأن كل واحد يعرض له مثل ذلك يخاطب نفسه بقوله : قل .

وقوله : « هو الله أحد » لفظ هو ضمير الشأن ، ويؤتى به عادة فى موضع مزيد العناية

بالجملة التى تليه ، ويقرب منه فى الاستعمال المتعارف بيننا ما يجرى فى كلام الناس إذ يكون أحد المتخاطبين قد أراد جمع ذهن السامع فيقول له : « الأمر وما فيه إننى قابلت فلانا وكلمته فى كيت وكيت » فكلمة « الأمر وما فيه » وما يشبهها كقولك : « المسألة كلها) أو « الموضوع » ونحو ذلك ، هى بمثابة ضمير الشأن فى اللغة الفصحى ، وهى مبنية على الاختصار والدقة فى الافادة ، ذلك أن المتكلم حين يأتى بالضمير ولم يكن قد سبق له مرجع يفسره ، تبحث النفس عن تفسيره ، فلما لم يجده بعد البحث يتجه أكمل اتجاه لما سيلقى بعده عساه يفهم منه معناه ، فيتمكن ما بعده فى النفس أكمل تمكن .

ولفظ الجلالة (الله) اسم للذات الأقدس ، الجامع لكل صفات الجلال والجمال ، فلا يخص صفة بعينها بالتنبيه ، فليس كباقى الأسماء من الرحمن أو العليم أو القدير أو الغفار أو القهار مثلا ، فلكل اسم من أسمائه تعالى معنى خاص يشير اليه من صفاته تعالى ، وأما لفظ الجلالة فهو يشير الى الذات التى جمعت كل تلك الصفات .

ولفظ (أحد) بمعنى واحد ، والمراد بها وحدة الذات بمعنى عدم تركبها أو تجزئها ، ووحدة الصفات أى عدم وجود مشارك له تعالى فى صفة الالهية ، ولفظ (أحد) تفيد المعنيين ، أى عدم التركب وعدم التعدد ، بخلاف لفظ واحد فإنها ظاهرة فى نفى التعدد ولا تنفى التركب ، فيقال جيش واحد مثلا ، ولا يقال جيش أحد .

ولا نرى بأسا من ذكر كلمة لغوية تختص بكلمة (أحد) : ذلك أنها تارة تكون ملازمة للنفى وشبهه ، فيراد بها نفى الجنس مطلقا فى انفراد أو اجتماع ، وهى فى هذا تخالف لفظ واحد . فلك أن تقول : ليس فى الدار واحد بل اثنان ، ولا تقول : لا أحد فى الدار بل اثنان . ولذلك يصح وصفها حينئذ بصيغة الجمع ، كقوله تعالى : (فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) ، وتارة تستعمل فى الإثبات ، وهى على ثلاثة أوجه : إما بمعنى أوّل ، كقوله تعالى : (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) وكقولك فى التعداد مثلا : هم فريقان : أحدهما كذا ، والثانى كذا ، وإما مضمومة الى العشرات ، كقولهم : أحد عشر وأحد وعشرون ؛

وإما وصفا فتختص بالله تعالى، لأنها حينئذ بمعنى التنزيه عن النظير الموجب للتعدد، وعن الجزئية الموجبة للتركب. فكان فى لفظ الأحد كمال الوحدة بحيث يكون منزها عن التركيب والتعدد خارجا وذهنا، وما يستلزمهما كالجسمية والمشاركة فى حقيقة الألوهية أو خواصها، كوجوب الوجود وكمال القدرة والعلم وشمولها. فالتنزيه عن هذا كله مستفاد من لفظ «الله أحد». ولعظم خطره أتى قبل الجملة بضمير الشأن على ما سبق، لينبه الذهن الى تلقيه والاستشراف له، فيتمكن فى نفسه معناه أقوى تمكن. وناهيك بجملة هى مجمع التنزيه والتقديس، تغرس فى نفس المؤمن أن لا رب غيره ولا معبود سواه.

(الله الصمد): الصمد هو الذى ينتهى اليه السؤدد وليس فوقه ولا يسامته أحد. وهو الذى يصمد اليه الناس فى حوائجهم وشئونهم أى يقصدونه. فصمد بمعنى مصمود اليه أى مقصود ومتوجه اليه. وقصد الخلائق اليه تعالى بحوائجهم إما بالاختيار المنبعث عن الإيمان، وإما بالالتجاء الاضطرارى الذى تدعو اليه الضرورة حتما، وهو المشار اليه بقوله عز من قائل: (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وهو ما تراه يفزع اليه كل من يصاب بما لا قبل له به، إذ يلجأ الى قوة يشعر بها بين جنبيه وإن انبهم عليه طريق فهمها على الوجه الأكمل. وإما بالاستعداد الأصلى الذى تشترك فيه جميع الماهيات، وهو مقتضى إمكانها، واستمداد الوجود والكمال المنشود لكل نوع منها منه تعالى، فهو جل شأنه مفزع المؤمنين فى آمالهم، وملجأ المضطرين فى كشف آلامهم، وهو متجه الخلائق أجمعين فى نيل الحظ المقدر لكل منها، من الوجود والكمال، والتطور من حال الى حال. فهو وحده الصمد على الإطلاق، فهو الفعال لكل شىء، والمدبر لكل أمر، والمحيط علمه بكل سر وجهر، والمتناولة حكمته لكل صغير وكبير، ولكل جليل وحقير، وهو على كل شىء قدير. فترى فى كلمة «الله الصمد» على وجازتها الوصف بصفات الجمال والتأثير كلها، كما كانت كلمة «الله أحد» وافيةً بصفات التنزيه عن الشريك والنظير، وعن الجزئية والتركيب وما يستلزمهما.

قالوا : وإنما عرف لفظ الصمد دون لفظ أحد، لأن المخاطبين يعهدون فى نفوسهم ويعرفون من فطرهم أن هناك من يقصد فى الملمات ، ويصمد اليه فى إدراك الرغائب وإحراز الكمال ، ويتطلعون الى معرفته ، فجىء باللفظ معرفا لهذا ، وليدل على الحصر وأنه ليس هناك من يصمد اليه غيره. وليس معنى الوحدة ثابتا فى أذهانهم حتى يشار اليه هذه الإشارة ، بل كانت نفوسهم من جهة الوحدة ملوثة بالشرك ، متعلقة بالجسمية ، لا يفهمون الوجود إلا مقارنا لها ، بدليل سؤالهم : أمن ذهب ربك أم من فضة ، وقولهم فى بعض الروايات : إن ثلثمائة وستين إلهاً لا يقومون بحاجاتنا أفيقوم بها إله واحد ؟ .

هـذا وفى تكرير لفظ الجلالة فى الجملة الثانية دون الاكتفاء بالضمير أو باللفظ الأول مزيد العناية بإيقاع هذا الوصف الخطير العظيم على صريح اللفظ لا على ضميره ، ليغرس معناه فى النفس غرساً مكيناً . وترى فى ترك العطف بين الجملتين الإشارة الى أن كلا منهما مستقلة بالقصد إليها ، والتوجه لتقريرها فى ذاتها ، بقطع النظر عن تبعيتها لغيرها ، فهى كما تقول فى امتنانك على شخص مثلا : أنا أكرمته كل الإكرام ، أنا ساعدته وقت الحاجة ، أنا نوهت بشأنه بعد الخمول ، تعطى كل جملة على أنها قائمة بنفسها مستقلة بالقصد اليها .

(لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) : كانت الآية الأولى من السورة الكريمة للتنزيه عن الشريك والتركب ، وما بعدها للوصف بصفات الكمال الثبوتية . وهاتان الآيتان للتنزيه عما زعمه بعض جهلة المتدينين من أهل الكتاب من أنه جل شأنه قد اتخذ ولدا ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، فقد نسبوا لله الولد ، وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. أخذوا يلفقون أقوالا يتوصلون بها الى زعمهم ألوهية المسيح، وحاولوا أن يجمعوا بينها وبين دعواهم أنهم من أهل التوحيد ، فلما لم يفلحوا فى الإتيان بما تقبله العقول قالوا : هذا مما يعلو على العقل تصوره ، وليس للعقل أن يبحث فى قضايا الإيمان ، بل يجب عليه أن يسلم ما يلقى اليه بدون بحث .

وإن العجب ليحيط بالعاقل من كل ناحية إذ يهمل العقل الذى ما ثبت الدين إلا به بحكم هذا الدين . فلولا تمييز العقل القضايا الصحيحة المبرهنة من الدعاوى الكاذبة الباطلة ما استطاع أن يميز بين الرسول الهادى فيتبعه ، والدجال الضال المضل فيحاربه ويردعه ، فكيف يكون العقل هو أساس الدين ثم يكر عليه الدين فيعطله ويهمل أحكامه ؟ وأى شىء يكون الدين فى نظر العقل حينئذ ، إذ يبنيه ليهدمه ، ويوجده ليعدمه !

نعم قد يكون فى الدين ما يعلو على تصور العقل ، لكن لا على معنى أن العقل يجزم ببطلانه ولا يستطيع أن يسلم به ، بل على معنى أن العقل لو خلى ونفسه لا يستطيع الوصول إليه وإدراكه بنفسه ، بل يحتاج الى مرشد يهديه اليه ، ومتى فهمه سلمه ولم يجد محالا يتجرعه ولا يكاد يسيغه كما هو فى زعمهم ، فقد زعموا أن الأب هو الأقنوم الأول ؛ والابن هو الأقنوم الثانى الصادر منه صدورا أزليا ، فهو مساو له فى الأزلية ؛ وروح القدس هو الأقنوم الثالث الصادر عنهما كذلك ، والطبيعة الإلهية واحدة ، وهى لكل واحد من الثلاثة ، وكل من الثلاثة متحد معها ، وكل من الثلاثة مستقل فى ذاته عن الآخرين ، فالأب ليس هو الابن ولا روح القدس ، والابن ليس هو روح القدس ، ومع هذا هم إله واحد ، وطبيعة واحدة ، وكل منهم يتحد مع اللاهوت ، وإن كان بينهم تمايز . فالله عندهم ثلاثة أقانيم متمايزة بعضها عن بعض تمايزا حقيقيا ، ومع ذلك هو جوهر واحد ، وطبيعة واحدة ، وليس يوجد فيه غيره ، بل كل ما هو داخل فيه عين ذاته . فالثلاثة متساوية فى أن كلا منهم ذات الإله ويستحق العبادة . ولما لم يكن هذا مما يستطيع أن يهضمه العقل ، تستروا بكلمة : إن ذلك مما يجب الإيمان به وإن كان فوق طور العقل البشرى !

ثم زعموا أن الأقنوم الثانى تجسد — وهو الكلمة — واتحد بأشرف أجزاء البتول بقوة روح القدس ، فكان المسيح عليه السلام المركب من الناسوت ، والكلمة . فهو عندهم إنسان تام وإله تام ذو طبيعتين ، ولذلك تحمل عليه صفات الإلهية والبشرية .

فترى أنه يصح بمقتضى كلامهم أن يقولوا : المسيح ابن الله ، وأن يقولوا : إن الله هو المسيح ، وأن يقولوا : الله ثالث ثلاثة . وهى مزاعم أعجب ما فيها أن تجـد من عقول أناس يفهمون — عُشاً تأوى اليه ومرتعا ترتع فيه . سبحان الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

ولما كانت الأحدية على ما سبق متضمنة نفى النظير والشريك ، ونفى الجزئية والتركيب ، وكانت الصمدية مستلزمة الغنى المطلق عن كل شيء واحتياج كل شيء اليه ، كان نفى الولادة والمولودية عنه ونفى النظير المكافىء كالنتيجة لهما ، فإن من يلد يكون قد انفصل عنه جزء حقق الولد ، والولد بالضرورة من جنس والده ، فلو كان له ولد لكان له جزء وكان له نظير مكافئ . وكذلك لو ولد من غيره لكان محتاجا الى ذلك الغير ، فلم يكن هو الصمد الذى يحتاج اليه وحده ، بل يكون الأحق منه بالصمدية من نشأ هو عنه واحتاج اليه فى صدوره وكينونته ، ثم يكون نظيرا لمن نشأ هو عنه ، فيكون له كفء . فتجد هذ الأحكام الثلاثة بالنسبة لما سبق كالنتيجة المقدمات .

وقد أتى بهذه الجمـل الثلاث متعاطفة بالواو ، لأنها تشترك فى نفى النظير والمماثل والمناسب بأى وجه من الوجوه . وتجد الثلاثة المذكورة كالأقسام لهذه المماثلة ، فإن النظير إما والد أو مولود أو غيرهما ، فلما تغايرت الثلاثة فى أنفسها واشتركت فى مقسم واحد وهو المناظرة والمشاركة ، كانت الثلاثة بذلك متممة لمعنى واحد هو المقسم ، فلذلك جاءت متعاطفة ، بخلاف مجموع هـذه الثلاثة مع الحكمين السابقين ، فقد عرفت أنه كالنتيجة لهما ، وبخلاف الحكمين الأولين أحدهما مع الآخر ، فإن الأول للتنزيه بنفى ما لا ينبغى ، والثانى للتمجيد بإفادة ثبوت الصفات الكمالية له تعالى .

وقد أتى فى التعبير بلفظ لم التى هى للنفى فى الماضى، أما فى (لم يولد) فظاهر ، لأنه لو كان جل شأنه بصدد أن يولد لكان ذلك قد حصل فيما مضى ، وأما فى (لم يلد) فلأن

الذين يردُّ عليهم يزعمون أن ذلك قد حصل وانتهى لا أنه أمر يتجدد كل حين ، وأما في (لم يكن له كفوا أحد) فلأن الذي يتوهم أن يكون مكافئا له هو من يكون قد وجد من الأزل ، فاذ لم يكن له كفء في الماضي فلا يتصور أن يكون له كفء بعد ذلك . ثم تقديم لم يلد على لم يولد ، لأنه الأهم ، إذ هو الذي كثر مدعوه ، وإن كان يلزمهم أنه ولد أيضا ، إذ يقولون إن المسيح إله على ما سبق . وتأخير لم يكن له كفوا أحد عنهما ، لأنه استغراق لنفي كل ما يتصور من وجوه المماثلة ، فهو كالعام بعد الخاص .

هذا ، وأنت ترى هذه السورة الكريمة قد اشتملت على معظم العقائد الإلهية مع كمال الإيجاز في اللفظ ، ومنتهى الوضوح في المعنى ، فالأحدية أتت على معظم صفات التنزيه ، والصمدية أفادت كل صفات التأثير : من القدرة ، والإرادة ، والعلم ، ويلزمها الحياة ، بل مما يصمد اليه فيه الهداية التي تجيء على ألسنة الرسل يوحي إليهم بكلامه القديم . ثم نفي الولدية والوالدية والمكافىء فيه نفي النظير بأي وجه من وجوه المناظرة ، سواء أكان من جنسه أم نوعه أم غير ذلك . والمعارف الإلهية هي أشرف ما يقصد اليه من الأحكام الدينية ، وهي الأساس لكل أنواع الهداية الربانية والسعادة الأبدية ، فلا عجب أن ورد في فضلها ماورد ، وأن يقول صلى الله عليه وسلم لمن أبلغه أن فلانا كان يكرر قل هو الله أحد في الصلاة : « أخبروه أن الله يحبه » .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا محبته ، وأن يوفقنا للاهتداء بهدايته ، وأن يشرب قلوبنا معناها حتى تمتزج بنفوسنا وأنفاسنا ، وأن يسلكنا مع المقربين من عباده ، إنه سميع مجيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم م؟

ابراهيم الجبالي

عمر الفاروق رضى الله عنه

— ٢ —

ألممنا فى العدد السابق بحصة من سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ونأتى اليوم على حصة أخرى ، متابعين تاريخه الحافل بعظائم الأمور وجلائل الأعمال ، فنقول :

كرة أمبراطور الرومان على سوريا :

لما أتم المسلمون فتح سورية وانتزعوها من أيدى الرومانيين فى ثلاث سنين أمضوها فى حروب طاحنة ، لم يلبث الأمبراطور هرقل أن كر عليهم بجند كثيف من ناحية حمص عن طريق البحر ، وكان أبو عبيدة بها .

فجمع أبو عبيدة قواده ليستشيرهم ، فأشار عليه خالد بن الوليد بأن يبادر الى مناجزة عدوه دون تريث ، وأشار عليه غيره بأن يكتب لأمير المؤمنين بالمدينة ، فعمل بهذا الرأى الأخير . وكانت جيوش هرقل قد وصلت ، وتواردت عليه الأمداد من كل وجه .

فكتب أمير المؤمنين عمر الى سعد بن أبى وقاص فى العراق أن أبا عبيدة قد أحيط به ولزم حصنه ، فبث المسلمين بالجزيرة وأشغل الرومانيين بهم عن حمص .

فأرسل سعد جيوشا الى سورية تحت قيادة القعقاع بن عمرو وغيره ، وأمر أن يسلك كل قائد طريقا الى الجزيرة ، فيقصد جيش قرقيسيا ، وآخر الرقة ، وثالث نُصَيْبين ، ورابع حران والرها ، وخرج عمر نفسه ممدا لأبى عبيدة . فلما بلغ الرومانيين كل هذا التأهب لملاقاتهم ، انفضوا الى مدائنهم وتحصنوا بها ، فحاصرهم المسلمون فيها ليمنعوهم من إمداد هرقل ، فدبّ الفشل الى جنوده .

فاستشار أبو عبيدة قواده ومنهم خالد بن الوليد، فأشاروا عليه بالخروج لمقاتلة هرقل. فخرج فى قلب جيشه وعلى ميمنته خالد وعلى ميسرته عباس، فحدث قتال انهزم فيه الرومان شر انهزام، وتركوا الشام يائسين منها، حتى روى عن أمبراطورهم نفسه أنه قال وهو خارج منها: أودعك ياسورية الى الأبد!

فتح العراق وفارس:

لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة ندب الناس لفتح بلاد الفرس، فلم ينتدب له أحد، لتوهم الناس أن أمر فارس يلتوى عليهم، لما عرفت به من شدة البأس وقوة الصولة.

فأعاد عمر ندب الناس الى فتح بلاد الفرس قائلا:

« إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك. أين القراء المهاجرون عن موعود الله. سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: (ليظهره على الدين كله)، والله مظهر دينه، ومعز ناصره، ومولى أهله مواريث الأمم، أين عباد الله الصالحون؟ »

فكان أول من لباه أبو عبيد بن مسعود الثقفى، وتلاه سعد بن عبيد، وسليط بن قيس. فاختار عمر منهم أبا عبيد فولّاه قيادة الجيش، وقال له:

« اسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف، ولم يمنعنى أن أؤمر سليطا إلا سرعته الى الحرب، وفى التسرع الى الحرب ضياع إلا عن بيان الله »

فخرج أبو عبيد على رأس جيش فى آخر جمادى الأولى من سنة (١٣) الى الحيرة من بلاد العرب، وكانت تحت حماية الفرس، وكان عليها امرأة يقال لها بوران، فاستدعت القائد رستم الفارسى وسلمته القيادة العامة، فالتقى أحد قواده واسمه جابان بجيش أبى عبيد فانهزم أهل الحيرة وأسر قائدهم.

وتقدم أبو عبيد الى كسكر ، فالتقى هناك بقائد فارس اسمه نرسى ، فهزمه .

ثم تقدم أبو عبيد فى زحفه ، فلقيه قائد فارسى اسمه بهمن جاذويه ، وكان جيشه مؤلفا من جنـود مدربين ، فأسرع أبو عبيد بعبور نهر المروحة مطّرحا نصيحة سليط بن قيس فى عدم عبوره ، فقابلهم الفرس بشدة ، فقتل أبو عبيد فى المعركة ، واشتد كَلَب الفرس عليهم ، فانهزم المسلمون وهموا باجتياز النهر الذى عبروه ، فكبر ذلك على رجل من المتحمسين ، فهدم الجسر ليجبر المنهزمين على الثبات ، فكان فى ذلك شر كبير على إخوانه المسلمين ، إذ أعمل الفرس فيهم السيوف ، فبادر المثنى بن حارثة على رأس جماعة من الجنود فشاغلوا الفرس حتى أصلح الجسر وأمكن المرور عليه .

لما بلغ عمرَ خبر هذه الهزيمة أرسل إليهم مددا تحت قيادة جرير بن عبد الله البجلى ، فلما أدرك الفرس أن المسلمين جادون فى حربهم ، أرسلوا إليهم قائدا مدربا اسمه مهران فعبر لهم النهر ، فعبأ المثنى بن حارثة جنوده ولقى الفرس فهزمهم شر هزيمة .

كان الفرس الى هـذا العهد فى دور من تفرق الكلمة خطير ، فقد كان كل حاكم على إقليم متغلبا عليه ومستقلا به ، ليس لهم ملك يجمع كلمتهم ، فلما رأوا أن العرب قد قصدوا فتح بلادهم ، اتخذوا لهم ملكا يوحـد صفوفهم ، ويقودهم للدفاع عن وطنهم ، فأقاموا يزدجرد بن شهريان من آل كسرى ملكا عليهم .

فلما بلغ عمر ذلك ضاعف من نشاطه ، واستنفر الناس لقتال الفرس ، وخرج بنفسه فعسكر على ماء بقرب المدينة ، وجنوده لا يعلمون مقصده من ذلك ، ثم فاتحهم بعزمه على الخروج بنفسه لقتال الفرس ، وطلب إليهم رأيهم فى ذلك ، فأجمعوا على أن يقيم هو بعاصمة الخلافة ، وأن يعين قائدا يتحمل أعباء القيادة .

فقبل منهم هـذا الرأى ، ولكنه حار فى انتخاب ذلك القائد الذى يلقى عليه تبعة هذه المهمة الخطيرة ، وفيما هو كذلك ورد عليه كتاب من عامله على صدقات هوازن سعد بن أبى وقاص ، فقال بعض رجاله : يا أمير المؤمنين قد وجدته . قال عمر : فمن ؟ قال

ذلك البعض : الأسدَ عاديا . قال عمر : من هـو ؟ قالوا سعد بن أبي وقاص . فلم يتردد فى تقليده القيادة . وكان مما أوصاه به قوله :

« ياسعد : سعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجـل لايمحو السيء بالسيء ، ولـكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة . فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين » .

ثم لما أراد أن يسرحه قال له :

« إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لـكل عادة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أونابك ، يجتمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يـكون حامده وذامه فى الحق سواء . وأما السر فيعرف بظهور الحـكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس . فـلا تزهد فى التحبب فإن النبيين قـد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا حببه ، وإذا أبغض عبدا بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك » .

سار سعد بن أبي وقاص فى أربعة آلاف مقاتل ، ولحق به من لحق من الأمداد ، فما وصل القادسية إلا ومعه ثلاثون ألفا ، فـلم يجد بها جندا من الفرس ، فأخذ يبث

السرايا هنا وهناك ، ثم تقدم اليه القائد المشهور رستم حتى عسكر بساباط فى مائة ألف مقاتل .

فبادر سعد بن أبى وقاص بإرسال وفد الى يزد جرد ليعرض عليه الدخول فى الاسلام أو الجزية ، منهم الأشعث بن قيس ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، والمغيرة بن شعبة . فجمع يزدجرد وجوه دولته وقابلهم . فلما مثلوا لديه قال يزدجرد للترجمان : سلهم ما جاء بكم وما دعا كم الى حربنا ؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فقال النعمان بن مقرن لأصحابه : إن شئتم تكلمت عنكم ، ومن شاء الكلام آثرته . فقالوا له : بل تكلم أنت . فقال :

« إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمر أن نبتدئ بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد . فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الإنصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسَّن الحَسن وقبَّح القبيح كله . فإن أبيتم ، فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية . فإن أبيتم فالمناجزة . فإن أجبتم الى ديننا ، خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناه على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وإن بذلتم الجزية قبلنا ومنعنا كم (أى وحمينا كم) ، وإلا قاتلنا كم .

لما سمع يزد جرد هذا الكلام استشاط غضبا ، ورد ردا غليظا ، فأظهر احتقاره للعرب ، وتعجبه من تظاهرهم بهذا المظهر العظيم وهم من أفقر الشعوب وأبعدهم عن النظام .

فأجابه المغيرة بأن ما وصف به العرب من الخلل وسوء الحال هو حق إلا أنه قد

كان قبل الاسلام ، وأما بعده فالحال صار غير الحال ، ثم دعاه الى مادعاه اليه الخطيب السابق .

فغضب يزد جرد أشد الغضب ، واستدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

ثم قال ارجعوا الى صاحبكم وأعلموه أنى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم .

فتقدم أحد رجال هذا الوفد وهو عاصم بن عمرو وقال : أنا سيد هؤلاء ، وحمل التراب على عاتقه ، وخرج الى سعد فقال : أبشر والله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم .

فأخذ سعد فى بث السرايا للإغارة على الأطراف . وسار رستم من ساباط لمقاتلته وقدم أمامه قائدا اسمه الجالينوس فى أربعين ألفا ، وخرج هو فى ستين ألفا ، وجعل على ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران ، وجعل يطاول سعدا أربعة أشهر ليضجره ويحمله على الإقلاع . وكان سعد قد أعد للمطاردة عدتها ، ثم بدأ رستم فى الهجوم بأمر من يزدجرد نفسه ، فتقابل الجيشان ، فلقى خيالة المسلمين من فيلة الفرس أمرا عصيبا ، لأنها كانت تنفر أمام تلك الفيلة ، فبادرها مشاة المسلمين بالسيوف على خراطيمها وبحل أحزمتها لتندّ عن أصحابها ، واشتد القتال طول النهار الى الليل دون أن يبدو على أحد الجيشين تضعضع ، ثم عاد القتال من الغد وانتهى فى المساء على ما انتهى عليه بالأمس ، ثم عاد فى اليوم الثالث وانتهى على ما كان عليه فى اليومين السابقين .

فلما كان اليوم الرابع ، وكان المسلمون ليلتهم يشاغلون الفرس ، فلم تذق أجفانهم النوم . قال القعقاع بن عمرو للناس ، (وهو الذى قال فيه أبو بكر لا يهزم الناس وفيهم هذا) قال للناس : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة فإن النصر مع الصبر . فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه ، فحمل الجيشان أحدهما على الآخر الى أن زالت الشمس (أى كان وقت الزوال) ، فتأخر الفيرزان

والهرمزان ثم ثبتا ، وانفرج القلب ، وانتهى القعقاع ومن معه الى سرير رستم ، وجاء هلال بن عقبة فضرب رستم فقتله . فانهزم الفرس شر هزيمة ، ومات منهم عدد كبير بالغ في تقديره المؤرخون . أما المسلمون فقتل منهم سبعة آلاف وخمسمائة ، وهى من أكبر الوقائع التاريخية ، وكان هذا الفتح من أكبر فتوح المسلمين الأولين .

فأقام سعد بعد انتصاره هذا شهرين وكاتب عمر فيما يفعله ، فكتب اليه يأمره بالمسير الى المدائن وهى عاصمة الفرس ، فصدع بالأمر ، وكان ذلك فى شوال سنة (١٩) ، وقدم طليعته ، فالتقت بطليعة الفرس فهزمتها ، ثم نزلوا ببابل ، وكان قد اجتمع بها بعض فلول الفرس فهزمهم ، ثم سار سعد فالتقى بجيش فارسى فى كونى فهزمه ، ثم سار الى بهرشير وهى بالناحية الغربية من المدائن ، فلاح لهم إيوان كسرى ، فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله ، وكبر وكبر الناس معه . فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ، ثم نزلوا على المدينة .

فأقام سعد أياما من صفر وهو يفكر فى كيفية العبور الى المدينة الثانية التى فيها إيوان كسرى ، فرأى أن يعبر إليهم نهر دجلة سباحة ، فاقتحموا النهر ، فقابل الفرس خيلهم بخيل مثلها فى النهر ، فالتقوا وتطاعنوا فولى الفرس الأدبار ، وتلاحق المسلمون فى النهر سباحة حتى بلغوا الضفة الثانية ، وكان كسرى يزدجرد قدم عياله الى حلوان قبل ذلك ، فجلا عن المدينة بما قدر عليه من الأموال ، وتركوا من المتاع والآنية والذخائر ما لا يحصى . ولم يجد المسلمون بالمدينة إلا حرس القصر الأبيض ، فسلموا بلا قتال ، ودخل سعد إيوان كسرى ، وصلى فيه والجيش خلفه ، ولم يغيروا ما به من التماثيل ، فصلى والتماثيل تحيط به . ولما دخل القصر كان يتلو قوله تعالى : (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) .

ثم شرع سعد بن أبى وقاص فى تقسيم الغنائم التى غنمها ، فأصاب الفارس اثنى عشر

ألف درهم ، وكانوا كلهم فرسانا ، وأرسلوا الخمس لبيت المال ، وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجدة ، فلما رآها عمر قال : إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة .

لما أتم سعد فتح المدائن أرسل قواده لتتبع المنهزمين ، فأرسل زهرة بن الحيوية الى النهروان ، فسلم له أهل النواحي وعاهدوه على دفع الجزية ، وأرسل سعد بن عبد الله ابن المتم الى الجزيرة ففتح تكريت والموصل ، وأرسل هاشم بن عتبة الى حلوان حيث يقيم كسرى ، وكان قد فر منها فاحتلها ، ثم هاجم الحمراء فافتتحها . وفر يزدجرد الى البلاد الصينية . وبذلك تم فتح الفرس كلها .

حقا إن هذا أكبر الفتوح الاسلامية ، بل أكبر الفتوح على الاطلاق ، فإن حربا تنتهي بنهايتها دولة عظيمة كدولة الفرس كان لها نصف السلطان فى الأرض لا يوجد لها مثال فى تاريخ البشر ، إذ أن الامبراطورية الرومانية كانت فى نزاع مستمر مع دولة الفرس ، وناهيك بالرومانيين وعلمهم بالحرب ، فلم يحلموا فى أكبر انتصاراتهم عليهم أن يحتلوا عاصمتهم ، وأن يزيلوا دولتهم . أفيشك شاك بعد هذا فى أن ذلك مصداق لقوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ) ؟

فتح مصر :

كان عمرو بن العاص قد وفد على مصر فى الجاهلية وعرف سهولة قيادها ، فكان يتطلع أن يعطيه أمير المؤمنين أمرا بفتحها . ففى سنة (١٩) اختلى عمرو بعمر ، وكلمه فى شأن مصر ، وهون عليه أمرها ، فتردد عمر أولا ، لأن جيوشه كانت متفرقة فى الشام والجزيرة وبلاد العجم تحارب الروم والفرس ، وهما دولتا العالم كله إذ ذاك ، ثم قبل أن يذهب لفتحها ، فجهز معه أربعة آلاف رجل ودعا له بالتوفيق .

فسار عمرو حتى بلغ الفرماء ، فقاتله بها الرومان نحوا من شهر ثم انهزموا ، فتقدم الى القواصر فافتتحها ، ثم الى بلبيس فأم دنين فمصر فافتتحها جميعا ، وكتب الى عمر يستمده

فأمده بأربعة آلاف، وكتب اليه أنى أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم أربعة كل رجل منهم يعد بألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد.

وحدث أن المقوقس كبير القبط بمصر اتفق مع عمرو على أن يعينه على فتح مصر تخلصا من عسف الرومانيين بالمصريين، فقصد عمرو الإسكندرية حيث تقيم الجيوش الرومانية ومهرة قوادهم، فحاصرها مدة، ثم هاجمها هجوما عاما وأخذها عنوة، وبذلك تم له فتح مصر.

ثم سار الى برقة وهى واقعة بين مصر وطرابلس الغرب، فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار الى طرابلس ففتحها عنوة، وكتب الى أمير المؤمنين: «أما بعد فقد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية (أى تونس) تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل».

فأجابه عمر بأن يكتفى بما وفق اليه. فولى عمرو على برقة عقبة بن نافع، وعاد هو الى مصر.

الى هنا انتهى تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وبقى أن ننظر فى مقالة ثالثة فى آثاره العمرانية، وأعماله المدنية. **محمد فريد وجدى**

النهى عن اتباع الشهوات

قال الله تعالى عن الهالكين: «أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا».

وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «طاعة الشهوة داء، وعصيانها دواء».

وقال عمر رضى الله عنه: اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مرى (بفتح فكسر أى حميد العاقبة)، وإن الباطل خفيف وبى (بفتح فكسر أى مهلك)، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا.

بابُ الأسئلةِ والفتاوى

سنة الجمعة القبلية

ورد إدارة المجلة السؤال الآتى :

اطلعنا على مقال مسهب فى بعض المجلات تحت عنوان (الصلاة قبل الجمعة وبعدها) تعرض فيه كاتبه للركعتين اللتين قبل الجمعة ، وقال : إنهما بدعة لا ينبغى فعلهما ، وأطال فى ذلك .

وقد تعرض للحديث الذى رواه ابن ماجة فى سننه من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يركع قبل الجمعة ، وطعن فيه ، مع أن مذهب الشافعى رضى الله عنه يرى طلبهما وسُنّيتهما .

والآن وقد وقفنا بين بين ، نرجو من قادة الدين أن يقولوا القول الفصل فى ذلك لنعرف ما هو الحق ، ونقف على دليل الشافعى إن كان له دليل . نرجو الإفادة قطعا للشك ، وتحقيقا للحق ، وإزهاقا للباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

ولفضيلتكم جزيل الشكر ، ودمتم للدين ؟

عبد الله العرابى
أحد قراء المجلة

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

قبل أن نخوض بك فى غمرات البحث والاستدلال ، يجب أن تعرف أن هنا شيئا ينبغى التنبه له ، وهو أن المسائل الاجتهادية الفرعية يكفى فيها الظن ولا ينبغى فيها التنازع ، وكل من طلب فيها الدليل القطعى فهو إما جاهل لا ينبغى أن يكون فى عداد العلماء ، وإما سيء القصد لا يريد إلا الظهور بأية وسيلة ، وإن لبس على المسلمين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، وهذا هو الغالب على تلك الطائفة . ولذلك تراهم متناقضين ،

فترى الواحد منهم تارة من الظاهرية، وطورا من الباطنية؛ وحينا يدعى الاجتهاد المطلق فيخرج على الأئمة الأربعة، زاعما لنفسه درجة هو أبعد الناس منها؛ وتارة تراه غريقا فى تقليد ابن تيمية من فرقه الى قدمه، والمبطل لابد أن يتناقض شاء أم أبى، ولسان حاله يقول:

طورا يمان إذا لقيت ذا يمن — وإن لقيت معديا فعدنانى

ولو عقلوا لعرفوا أن الناس لا يتركون أئمتهم المشهود لهم بالخير والدين والعلم والتبريز فى كل فضيلة، ويتبعوا هؤلاء المشهود لهم بما لا نطيل القول فيه، وهو غنى عن البيان.

هؤلاء يجازفون فى كل ما يعن لهم، ولا يبالون بخرق الإجماع، ولهذا أنكروا شد الرحال لزيارته صلى الله عليه وسلم وهو مجمع عليه، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم سلفيون أهل كتاب وسنة.

وأى شىء يريدون بعد أن عرّفنا صلى الله عليه وسلم أن المخطئ له أجر والمصيب له أجران، فلم يكتف برفع الوزر عن المخطئ بل جعل له أجرا. وقد عرف ذلك العلماء من أئمة الهدى، حتى ذهب كثير منهم الى أن الحق يتعدد تبعا لظن المجتهد، فإن الله لم يكلفه إلا بما أداه اليه اجتهاده، فكأن الحق بالنسبة اليه هو ما اعتقده، وليس المقصود من التكاليف إلا تحقيق العبودية، وعدم الخروج على الله ورسوله، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وقد قالوا: إن المجتهد يجب عليه اتباع ظنه، ويحرم عليه التقليد. فأى شىء بقى بعد ذلك؟ ولكنهم ملبسون يريدون التهويش حبا فى الظهور، أو جاهلون لا يمكنهم التعمق فى البحث، ولا الوقوف على منازع الأئمة، ولا ما أصّله العلماء فى ذلك.

وإن من أكبر بلايانا التى نئن منها ولا ندرى منتهاها وجود طائفة بيننا لا تفهم ولا تقلد من يفهم «إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير». ولو كان عندهم أدنى شفقة على المسلمين أو إخلاص لهم لعرفوا أن الدين

النصيحة ، وأنه ليس من الدين ولا من العقل أن نعرض العامة للخوض فى الأدلة والموازنة بين المجتهدين ، فذلك ليس من شأنهم ولا هو فى متناول قدرتهم ، ولا نتيجة له إلا ضعف الثقة بأئمتهم ، وتشكيكهم فى دينهم وعقيدتهم . على أن أولئك المهوشين ليسوا فى العير ولا فى النفير ، ولا من العلماء فى قليل ولا كثير . فليس من المعقول كما قلنا أن يترك الناس ما عرفوه من مذاهب الأئمة المشهود لهم بالخير والصلاح والدين والورع والبحث والتحرى ، الى هؤلاء الذين يسيرون وراء الخيال وليس يعنيهم إلا أن يقال .

والآن نذكر لك مما استدل به الشافعى رضى الله عنه على سنة الجمعة ما يكفى بعضه للاجتهاد المعقول المقبول .

ولا نزال نكرر أن الظن كاف فى هذا الباب ، ولا يطلب غيره ، وأنه متى وصل اليه المجتهد وجب عليه اتباعه والقول به . وهاك قليلا من كثير :

فمن ذلك ما رواه عبد الله بن الزبير عند ابن حبان فى صحيحه والدار قطنى والطبرانى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مامن صلاة مفروضة إلا وبين يديها ركعتان» ومن ذلك ما رواه الطبرانى فى الأوسط «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى قبل الجمعة أربعا وبعدها أربعا» ذكره العينى فى عمدة القارى ولم يعلق عليه ، وقد ساقه للاستدلال . وقال فى الفتح : روى الطبرانى فى الأوسط عن علىّ «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى قبل الجمعة أربعا وبعدها أربعا» وعلق عليه بقوله : وفيه محمد بن عبد الرحمن السهمى وهو ضعيف عند البخارى وغيره . ولكن هذا الطعن الذى ذكره الفتح لا يمنع الاستدلال به ، لا لأن الجرح غير مفسر كما قال بعضهم ، بل لأن الطعن غير متفق عليه ، فإن البخارى ضعفه ، ولكن إماما آخر من أئمة الحديث وثقه وهو ابن عدى ، فيصح أن نقول : إن هذا مثل عكرمة الذى وثقه البخارى واحتج به وضعفه غيره ، ومثل سويد بن سعيد الذى احتج به مسلم وقد اشتهر الطعن فيه . وبالجملة فحديثنا هذا غير

متفق على تجريح رواته ، فيصح الاحتجاج به عند من لا يرى تجريح محمد بن عبد الرحمن السهمي المذكور .

وعن ابن عمر أنه كان يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلى بعدها ركعتين ، ويحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك . رواه أبو داود . وقال العراقى : إسناده صحيح .

وقال المنذرى : أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة من وجه آخر بمعناه . وروى الترمذى : «من صلى فى يوم وليلة ثنتى عشرة ركعة بنى له بيت فى الجنة : أربعا قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر » ونحوه فى مسلم من حديث أم حبيبة ، غير أنه لم يذكر هذا التفصيل . وفى روايةعن أم حبيبة بنت أبى سفيان : « ما من عبد مسلم توضأ فأسبغ الوضوء ثم صلى كل يوم ثنتى عشرة ركعة تطوعا غير فريضة إلا بنى له بيت فى الجنة » .

أفترى أن ذلك مطلوب كل يوم إلا يوم الجمعة الذى تتأكد فيه الطاعة ، ويزداد فيه الحرص على العبادة وعمل الخير ؟ !

وقد صرح الحديث بالتعميم فقال : كل يوم ، كما سمعت . وفصل الترمذى فى روايته المتقدمة هذه الركعات غاية التفصيل . ورواية الترمذى وإن لم يذكر فيها لفظ كل يوم ففيها ذكر النكرة فى سياق الشرط وهو يفيد العموم ، ولا معنى لإخراج يوم الجمعة الذى هو أفضل الأيام وأولاها بالصلاة والعبادة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من اغتسل ثم أتى الجمعة فصلى ما قدر له ثم أنصت حتى يفرغ الامام من خطبته ثم يصلى معه ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » الحديث . رواه مسلم . وجاء فى بعض الروايات عند الإمام أحمد بلفظ : « فإن لم يجد الإمام خرج ، صلى ما بدا له ؛ وإن وجد الإمام قد خرج ، جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته » الحديث .

فجعل الغاية خروج الإمام وهو لا يخرج إلا بعد الزوال . وقال أبو عيسى الترمذى: إن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يصلى قبل الجمعة أربعا وبعدها أربعا . وإليه ذهب سفيان الثورى وابن المبارك . وروى الشافعى عن ثعلبة بن أبى مالك عن عامة الصحابة أنهم كانوا يصلون نصف النهار يوم الجمعة . الى غير ذلك وهو كثير . وبعض هذا كاف للاستدلال على ما ذهب اليه الشافعى رضى الله عنه .

وهنا روايات ضعيفة لا بأس أن نسمعك شيئا منها وليس التعويل عليها ، فإن عندنا غيرها على ما سمعت . ولاشك أن كثرة الروايات تفيد قوة الظن ، ويؤكد بعضها بعضا . ولا داعى لأن نقول إن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال ، فالأمر هنا أعظم من ذلك . ولو لم يكن للشافعى إلا قياس الجمعة على الظهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « بين يدى كل فريضة صلاة » وقد أخرجه ابن حبان فى صحيحه وغيره لكفى وشفى ، وقضى على تلك الجعجعة الحمقاء . وهاك بعض الروايات الضعيفة التى وردت فى الموضوع :

روى الشافعى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة . ولكن فى إسناده ابراهيم ابن أبى يحيى وإسحاق بن عبد الله بن أبى فروة ، وهما ضعيفان . ورواه البيهقى من طريق أبى خالد الأحمر عن عبد الله شيخ من أهل المدينة عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه . ورواه الأثرم بسند فيه الواقدى وهو متروك . ورواه البيهقى أيضا بسند فيه عطاء بن عجلان وهو متروك أيضا . وفى بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال : إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة . وفيها ليث بن أبى سليم وهو ضعيف . ومن ذلك حديث ابن ماجة الذى فيه بقية بن الوليد وغيره من الضعاف . فهذه الروايات الكثيرة يقوى بعضها بعضا وإن كان فيها مقال . وقد تقدم لك ما يصح الاعتماد عليه من غير هذه الروايات .

والخلاصة أن الصلاة قبل الجمعة مرغب فيها عموما وخصوصا . وقد قال بعض العلماء : لم يتمسك المانع من الصلاة قبل الجمعة إلا بحديث النهى عن الصلاة وقت الزوال ، وهو مع كون عمومه مخصصا بيوم الجمعة ليس فيه ما يدل على المنع من الصلاة قبل الجمعة على الإطلاق ، فإن غاية ما فيه المنع فى وقت الزوال وهو غير محل النزاع . وعلى كل حال فما تقدم كاف للمنصف ، ولا حاجة للإطالة فيه .

وبعد : فهؤلاء الناس إنما يقصدون التلبيس على المسلمين ، وإيقاع الشقاق فيما بينهم ، بتفريق كلمتهم ، وفصم عرى وحدتهم ، حبا فى الظهور . فعلى ولاة الأمر أن يردعوهم عن ذلك بالزجر البليغ ، والتأديب الشديد ، كما كان يفعله الحكام فى العصور الأولى ، وكما تفعله الحقانية الآن مع من يحكم برأيه ، ويقضى بمذهبه الخاص . فعلى الوعاظ وأئمة المساجد ألا يتعرضوا لمن يقلد إماما من الأئمة الأربعة ، ويدعوه وما اختار لنفسه من تلك المذاهب التى تلقاها المسلمون بالقبول ، وقامت البراهين على أنها مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله .

وإنى مالكى والمالكية لا يرون سنة الجمعة . ولكنى لا أحب الخروج على أئمة الهدى وورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسائل الاجتهادية يكفى فيها هذا وأقل من هذا على ما شرحنا لك . وما من أمة لا تعظم أئمتها ولا تحترم علماءها وعظماءها إلا ذهب ريحها وحق القول عليها . نسأل الله أن يقينا شر مضلات الفتن ، ومزالق الأهواء بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى

ذم التنافس فيما يفنى

قال الفارابى : ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا فماذا التزاحم فى المركز

شهادة كبار الفلاسفة للاسلام

برنارد شو يعتقد بأن أوربا ستدخل فيه

برنارد شو الكاتب الفيلسوف الانجليزى لا يحتاج لتعريف ، فهو ليس برجل عظيم فحسب ، ولكنه فى طليعة الأفذاذ ، والعالم كله يرقب حركاته وسكناته ، ويهتم بقراءة أخباره . ومن أخص مميزاته آراء جريئة يبديها بصراحة لا يستطيعها غيره . وهو ممن يعتقد عقيدة راسخة بأن الأمة الإنجليزية ستدخل فى الديانة الإسلامية قبل أن ينتهى هذا القرن .

ولقد وقفنا على حديث له فى رسالة انجليزية تحت عنوان « نداء للعمل » كشف فيها القناع عن عقيدته فى صلاحية الإسلام لجميع الأمم ، وفى كل الأطوار التى تدخل فيها فى أى مكان وزمان .

فقال فى ذلك الحديث أثناء سياحته فى بمباى :

« لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس .

« لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال . ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم . وقد صور أكليروس القرون الوسطى الاسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم .

« ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث

لنجح فى حـل مشكلاته بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة اللذين هـو فى أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارلايل وجوت وجيبون القيمة الذاتية لدين محمـد ، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوروبا من الإسلام . ولـكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفى القرن التالى ربما ذهبت الى أبعد من ذلك ، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها . فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى . وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد ، حتى ليمكن أن يقال إن تحول أوروبا الى الإسلام قد بدأ » انتهى .

يرى القارئ مما مر أن الفيلسوف الانجليزى برناردشو يعتقد عقيدة راسخة فى أن أوروبا قد بدأت تتعشق الإسـلام ، وأن القرن الحادى والعشرين لن يمضى حتى تكون أوروبا قد اتخذته دينا لها ، وعهدت اليه فى حل مشاكلها .

وأحسن ما قاله فى حديثه هـذا أن الاسـلام هـو الدين الوحيد الذى يعترف بالتطورات المختلفة للحياة البشرية ، ويستطيع أن يكون جذابا لجميع أجيالها .

فهذه الأقوال لا تصدر إلا من رجل يكون قد عرف حقيقة الإسلام ، وشعر كيف يؤثر بجماله على القلب ، ويتسلط بجـلاله على النفس . وليس برناردشو أول من شعر بهـذا ، فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوت الفيلسوف الألمانى المشهور المتوفى سنة (١٨٣٢ م) وهو يعتبر من أكثر رجالات الألمان علما وعقلا وبُعد نظر . يؤثر عنه أنه نظر فى الإسلام فأعجبه فقال : «إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذاً فيه» . وليس يخفى أن الألمـانيين فى ذلك العهد كانوا مظهر الثقافة العلمية بكل ما فيها من مفيد وطريف .

مما يلفت نظر الباحث الاجتماعى فى حديث الفيلسوف الانجليزى قوله : إن أوروبا ربما اعترفت بالعقيدة الإسـلامية طلبا لحل مشاكلها ، وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى

رجل على مثل صفات محمد صلى الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب اليه السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة اليهما ، فهذه الأقوال ليست ملقاة على عواهنها ، ولكنها ثمرات بحث وتحليل وتفكير ، فإن القرآن الكريم أرصد لكل مسألة من مسائل الاجتماع حلا معقولا لا يدع للإفراط والتفريط سبيلا الى العبث بالمجتمع ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم بتطبيق ذلك النظام الإلهى على الآحاد الذين اتبعوه ، فألّف منهم أمة ما فتئت تنمو وتشتد وترقى الدرجات العلى فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى والمادى ، حتى انتهت اليها زعامة العالم قرونا متوالية ، فكيف لا ينجح فى معالجة أدواء العالم الحديث رجل يقوم على قدم محمد ، فيطبق عليها ما أرصده القرآن الكريم لكل منها من علاج حاسم ؟

هذا كلام لا غبار عليه ، وقد رددناه فى افتتاحياتنا هنا وقرنّاه بالأدلة العلمية المحسوسة . فاذا صح هذا على الأمة الإسلامية الأولى ، وصح على الأمم الأوربية الحديثة ، أفلا يكون أصح على الشعوب الإسلامية الراهنة ، فتسترد به مجدها الضائع ، وتستعيد فتاءها الزائل ، وتصبح جديرة بالانتساب لأسلافها الأولين ؟ وهذا ما رددناه كثيرا ونردده فى كل فرصة ، وبالله التوفيق .

إن أكبر المسائل الاجتماعية التى تهدد مدنية أوروبا فى العصر الراهن المسألة الاقتصادية ، فإن النظام الرأسمالى المتطرف الذى يقوم عليه الغرب قد استدعى فى الأزمنة الأخيرة أن يتولد فى السواد الأعظم من شعوبه ميول ثورية لا تقف مطالبها عند حد ، وما نجمت المذاهب الاشتراكية التى تبنى نظرياتها على الأصول الاقتصادية إلا لتترجم عن هذه الميول الثورية ، وقد نجحت هذه المذاهب فى جمع كلمة العمال والفقراء وتعبئتهم تعبئة صالحة للنضال والثبات ، مما كان أثره تحسين حالة المحرومين من المال بعض التحسين ، ولكن هؤلاء لا يزالون يرون أن لهم حقوقا على المجتمع أكبر مما رضخت لهم به تلك الحكومات . ولما كان من شأن الأمراض

الاجتماعية أن تستشرى وتعضل إذا لم تستأصل جراثيمها ،فإن هذه المذاهب الاشتراكية بما تطرفت فى مزاعمها ، وتبسطت فى مدعياتها ، قد استحالت الى برامج انقلابات خطيرة تهدد وطائد المجتمعات، بالدك عند سنوح أقرب الفرص ، وقد أفضى التناهى ببعضها الى الشيوعية البحتة .

هذه حالة تعتبر على أقصى حد من الخطورة ، وتؤدى الى تداعى بناء المدنية الغربية وسقوطها عند أول صدمة ، فإذا لم تسعف بالعلاج الفعال السريع التأثير فقد لا تبقى ولا تذر . وهل لهذه الحالة من علاج معقول غير النظام الذى أرصده الإسلام لمثلها منذ نحو أربعة عشر قرنا قبل أن توجد المجتمعات الأوربية الحالية ، وقبل أن تستحيل المسألة الاقتصادية فيها الى هذه النتيجة المزعجة ؟

نعم : لقد شرع الإسلام للعالم نظاما تعاونيا حكيما فيه كل ما فى المبدأ الرأسمالى من حسن ونافع ، وكل ما فى المذاهب الاشتراكية من حق وواجب ، فجاء نظاما حاصلا على جميع مزايا المذهبين دون أن يلتاث بشىء من مساوئهما .

فإذا كان النظام الرأسمالى يغمط حق العمل فى الإنتاج ، ويتجاهل حق الفقراء من المال الاجتماعى العام ، وإذا كان المذهب الاشتراكى يتغابى عن مكان رءوس الأموال الفردية من بناء الصرح الاقتصادى للأمم ، ويرى أن من الواجب هدمه ، وبناء غيره على أساس رأس المال الاجتماعى العام ، مغضيا كلاهما عما يبتنى على تطرفهما من النتائج الخطيرة ، فإن الإسلام لم يغفل ذلك أصلا ، فأتى بنظام حكيم يقر رءوس الأموال الفردية من ناحية ، ولا يغضى عن المحرومين منها ، فيفرض لهم حصة سنوية منها من ناحية أخرى . فكان هذا الحل كما ترى وسطا جامعا لمزايا كلا النظامين الاقتصاديين ، وخالصا من عيوبهما ، تنحسم به مادة المتنازعين على الحياة ، ويبطل تناحرها عليها ، ويحل محله تكافل ينتظم عليه أمر الجماعة ، ويسود بين فريقيها التحاب والتعاون فى الحياة الاجتماعية ، ذلك النظام هو الزكاة التى جعلها الإسلام ركنا من أركانه .

فماذا يريد المحروم أكثر من أن يكون له حق مفروض فى مجموع مال الأمة الموزع على أفراد منها ؟ وماذا يبغى صاحب رأس المال أكثر من أن يأمن على ماله فى مقابل حصة من ربحه يؤديها للحكومة تضعها مواضعها ، مما نص عليه الكتاب فى آية الزكاة المعروفة « إنما الصدقات (أى الزكاة المفروضة) للفقراء والمساكين والعاملين عليها» الخ الآية الكريمة ؟

هذا النظام لايدع لأحد الفريقين المتنابذين سلاحا يشهره فى وجه مناظره ، ولايترك له طريقا الى ملاحاته .

فهذه علة من العلل التى يعنيها الفيلسوف (برنارد شو) ويقول إنها تشفيها متى أخذت أوروبا بالإسلام وعملت به . وفيها علل أخرى لكل منها دواء خاص فى الإسلام لايتسع المقام للكلام عنها فى عجالة واحدة ، فندخرها لفرص أخرى إن شاء الله .

وبعد : أفلا يعتبر هذا كله مصداقا لقوله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) ؟

محمد فريد وجدى

النهى عن اتباع الهوى

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فان اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخرة .

وقال الشعبى : إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه .

وقال بعض الحكماء : من أطاع هواه ، أعطى عدوه مناه .

وقال غيره : العقل صديق مقطوع (أى مهجور) ، والهوى عدو متبوع .

وقال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى ولم يقل غيره من الشعر :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   الى كل ما فيه عليك مقال

مذهب النشوء والارتقاء فى الميزان

اتضاح وهن أصوله وضعف أسانيده

نتابع اليوم الكلام فى دحض مذهب دارون معتمدين على ما كتبه عنه الأستاذ الدكتور (جوستاف جوليه) فى كتابه (من لا شاعر الى شاعر) .

ألمّ الدكتور المذكور فى فصله الثالث باكتشاف جديد للأستاذ (دوفريس) الألمانى فى الاستحالات الفجائية لأنواع نباتية وحيوانية ، وهو اكتشاف يهدم مذهبى دارون ولامارك من أساسيهما ، فإنهما يفترضان أن هذه الاستحالات لا تكون إلا يسيرا يسيرا وفى آماد طويلة . حتى اضطر الأستاذ لودانتك مدرس البيولوجيا فى جامعة السوربون أن يقول فى كتابه (أزمة مذهب التحول) : إن هذه الاكتشافات لا تدحض مذهبى دارون ولامارك فحسب ، بل ومذهب التحول الطبيعى نفسه .

والعجيب أن مسألة الاستحالات الفجائية للأنواع الحية قد رآها وأعلنها رجال من كبار الطبيعيين مثل (جوفروا سانتيلير) ، ولكنها لم تتغلب على الجمود العامى ، فبقيت نظرية الاستحالات التدريجية البطيئة سائدة على العقول .

ولكن بفضل هذا الاكتشاف الأخير قد تنبه الناس الى هذا الأمر وراجعوا ما دوّن من المعارف الحفرية ، وفيها أن جميع الأنواع النباتية والحيوانية قد وجدت من طريق الفجاءة لا التطورات التدريجية البطيئة . وقد شوهد أن الحيوانات من أول ظهورها تكون حاصلة على الإلهامات الضرورية لحياتها كاملة غير منقوصة ، وأنها تحفظها بعيدة عن التغيرات ما دامت أنواعها موجودة .

وقد ثبت أن الصفات الطبيعية والإلهامات تثبت فى الأنواع الحية ولا تتغير . وهذه من أكبر الدلائل على دحض مذهب النشوء والارتقاء ، لأنه يقتضى استمرار تحولها تحت تأثير الفواعل المحيطة بها ، فإذاً قد ثبت أن الأنواع نشأت فجأة ولم تدخل

فى أدوار تدريجية طويلة . وعليه فقد أصبحت نظرية دارون فى الانتخاب الطبيعى ونظرية لامارك فى تأثير البيئة لا أساس لهما على الإطلاق .

ولقد يسر الله هذه المشاهدات العلمية ، فجعل فى مقدور كل إنسان أن يراها ، فلا يبقى لديه ذرة من شك فى أن كل ما قيل قديما وحديثا فى تفسير حدوث الأنواع وتولد بعضها من بعض خيال فى خيال . فإن الحشرة بظهورها فى أول أدوار الخليقة ، وثبات أنواعها على ماهى عليه طوال تلك الآماد الى اليوم ، تشهد بأن كل مايقال عن التحولات الدائمة ، والتغيرات البطيئة المستمرة ، فى أدوار حياة الأحياء ، ليس من الحق فى شىء .

وهذه الحشرة ذاتها بمخالفتها هى نفسها فى حالتها النهائية للدودة التى كانت أصلالها تشهد بأن العوامل التطويرية التى استند عليها لامارك ودارون كلها أباطيل ليس لها نصيب من الواقع .

ولأجل فهم قيمة هذه الشهادة من العلم ، ومكانها من دحض جميع مذاهب النشوء التدريجى البطىء ، نلفت نظر القارىء الى حياة أية حشرة ، ولتكن دودة القطن التى قد لا يوجد فى مصر من لم يرها ولو مصورة ، فإن هذه الحشرة تبتدىء وجودها بحالة جنينية مشمولة فى بيضة صغيرة جدا ، فلما تخرج منها بعد استيفاء أيامها تكون على صورة دودة ، فتحتاج وهى فى تلك الحالة للتغذى من الأوراق الخضراء التى تولد على سطحها فتسبب للقطن خسارة تقدر فى بلادنا بملايين الجنيهات . فلما تم هذا الدور من حياتها تنسج على نفسها تابوتا حريريا يسمى شرنقة ، مستمدة خيوطه من سائل أوجده الخالق فيها يتجمد بمجرد ملامسته للهواء . هذا السائل مشمول فيها فى كيس يقبل التقبض بالإرادة ، ومتصل بالخارج بثقب صغير جدا . فإذا أرادت الحشرة أن تنسج تلك الشرنقة على نفسها ضغطت ذلك الكيس فيخرج منه ذلك السائل على صورة خيوط دقيقة جدا تجف وقت خروجها ، فتنسج منه على نفسها تابوتا حريريا وتسده من جميع جهاته ، ثم تقيم فيه مدة ، وفى نهايتها تثقب ذلك التابوت من أحد طرفيه وتخرج منه على صورة

فراشة تطير من شجرة الى أخرى ، مخالفة فى كل جزء من أجزائها للدودة التى كانت أصلا لها ، ولا تمت اليها بصلة فى ناحية من نواحيها . فكيف يتم لها هذا التطور فى مدى الأيام التى تقيمها داخل ذلك التابوت ؟

عنى العلماء بهذا الأمر جد العناية ، فشقوا شرنقة لإحدى الديدان فى أيام متوالية ، فرأوا أنها عند ما تدخل الى شرنقتها يبتدىء جسمها فى الانحلال ، ولا يزال ينحل حتى يستحيل كله الى سائل لزج أكثر كثافة من الماء ، ثم يأخذ ذلك السائل فى التكاثف والتشكل يسيرا يسيرا حتى ينقلب الى فراشة تامة الخلقة ، ذات عينين براقتين وجناحين بديعين وجسد مخالف فى كل أجزائه لجسد الدودة ، وأرجل دقيقة لم تكن لها ، فلا تلبث هذه الفراشة بعد تمام تطورها هذا أن تثقب شرنقتها من أحد طرفيها وتخرج منها طائرة مرحة تتطلب التلقيح ، ثم تبيض على أوراق شجر القطن ، فتصادف بويضاتها على هيئة بصاق مخاطى على تلك الأوراق يسميها الفلاحون (باللطع) ، فإذا بقيت على حالتها ولم تُبَد خرجت من كل بويضة منها دودة صغيرة تغتذى من تلك الورقة فلا تبقى منها ولا تذر .

لما وقف الباحثون فى حياة الحيوانات على هذه الأطوار المتوالية ، والاستحالات العجيبة ، أدركوا أن كل ما يقال عن الانتخاب الطبيعى وفعل البيئة ، والعوامل المختلفة ، لاحقيقة له ، وأن الخليقة توجد وتتطور وتبلغ كمالها على نظام اختص الخالق الحكيم بعلمه وليس فى قدرة العقل أن يصل اليه .

فانظر كيف أراد الله أن تكون الحشرة الحقيرة هى التى تسقط صروحا شامخة من البحوث والمذاهب أقيمت لتفسير وجود الأنواع الحية وتسلسلها بعضها من بعض ، تلك المذاهب التى كانت سببا فى تضليل من لا يحصى لهم عدد من خفاف العقول . فإن تعليل قيام الخليقة على هذا النحو من الترقى التدريجى قد جر ضعاف العقول الى عقيدة أن العالم مستغن عن مدبر ، فتمردوا على الأديان وعلى كل ما يثبت الروح من

المباحث العلمية ، منتبذين ناحية خاصة بهم ، توهما منهم أنهم بما حصلوه من إدراك هذه الأسرار صاروا أمة وحدهم ، فأصبحوا بعد هذا الاكتشاف العلمى وما سبقه من الاكتشافات الداحضة لمذاهب التطور ، حيرى لايعرفون لهم مذهبا يقومون عليه .

ولعل قارئا يسألنى : ما وجه تأثير حياة الحشرات فى دحض مذاهب النشوء والارتقاء ؟ فنجيبه بأن وجهه أن هذه المذاهب تفترض أن الكائنات الحية قد تولد بعضها من بعض بتأثير البيئة كما يقول لامارك ، أو بتأثير الانتخاب الطبيعى كما يقول دارون ، فى آماد طويلة لا يحصيها العد ، فجاءت الحشرة فنقضت هذه الأقاويل المنمقة كلها بحالها الذى يمكن أن يراه كل أحد . ألا يراها تستحيل من دودة الى فراشة بعد أن ينحلّ جسدها الى سائل ، فيفقد بذلك كل تركيب عضوى ، ثم يعود فيستحيل الى فراشة ليس بينها وبين الدودة الأولى أى شبه ؟ كل ذلك فى أيام معدودة ، فما قيمة كل ما ذكره أصحاب مذاهب النشوء والارتقاء من التعليلات التى فتنت عقول كثير من الناس نحو قرن ونصف قرن من الزمان ؟ .

فاذا أردنا أن نطبق على الاستحالة التى دخلت فيها الحشرة مذهب لامارك أو دارون ، لا ضطررنا أن نفترض لها عشرات الألوف من السنين على اعتبار أنها ممكنة فى مذهبهم ، فما ظنك وهى غير ممكنة فى نظرهم ، لأن الترقى لديهم إنما يكون بحدوث تحسينات فى ذات الأعضاء الموجودة ، وظهور أعضاء أخرى لم تكن موجودة من قبل ، ولكن مع حفظ التناسب بين أصول تلك الأعضاء وما آلت إليه ، أو ما زاد عليها من الأعضاء الجديدة . أما الاستحالات المنقطعة الصلات ، والتطورات غير المتناسبة ، كما هو بين الدودة والفراشة ، فلا تنطبق على أصول مذاهب النشوء والارتقاء ، وتعدفى نظرها مستحيلة الحصول .

وبعد : فان كل هذا الجهد من رجال العلم موجه لمعرفة سر قيام الخليقة وتفسير تولد

الأنواع النباتية والحيوانية، وهو مطلب مستحيل التحقق فيما نرى . ألم ترأن هؤلاء الرجال كلما تخيلوا مذهبا من تلك المذاهب ، وتوهموا أنهم قد بالغوا فى بيانه ودعمه على أصول من المحسوسات ، أتاهم من تلك المحسوسات نفسها ما ينقضه ، ويجعل القول به بمنزلة لايصح ارتكابها ؟ فمسألة تأثير البيئة فى تحويل الكائنات وهى التى ابتدعها الأستاذ لامارك الفرنسى فى القرن الثامن عشر صادفت من الرواج حدا بعيدا جدا ، وصارت حديثا طريفا للناس يلوكه منهم كل عالم ومتعالم ، ويكتبه كل باحث وخابط ، حتى نبغ دارون فأذاع مذهبا نقض به نظرية تأثير البيئة نقضا ، وجعله من العوامل الثانوية فى إكساب الأحياء صفات جديدة ، ورأينا نظرية الانتخاب الطبيعى قد أوتيت سلطانا على العقول لم يكن لنظرية قبلها ، فافتتنت بها افتتانا لم يعهد مثله لمذهب من المذاهب الفلسفية ، وطبقت هى والأسس التى صحبتها على كل المحاولات العقلية للناس ، فكنت ترى المشترع والمؤرخ والمتطبب والأديب وغيرهم يستمدون من أصول مذهب دارون ما يظنون أنه يجعل لمباحثهم أصولا راسخة من صميم المباحث الفيزيولوجية والبيولوجية . ثم ما هى إلا جولة من جولات العلم حتى تكشف لهم أن هذا المذهب كسابقه لا يستند إلا على خيال محض ، وقد ظهرت دلائل محسوسة تجعل استمرار القول به ضربا من العبث ، ومتى تقدم الناس فى فقه الكون تبين لهم أن هذه المذاهب التى كان لها السلطان المطلق على العقول فى أزمانها تدل على عقليات ساذجة كانت لا تأبه على نحو ما نحكم به نحن حين نقرأ مذاهب قدماء الماديين فى خلق الكون وإيجاد كائناته . فسبحان الذى أعجزت آياته العقول ، وملأت بعظمتها العيون والقلوب : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) ؟

محمد فريد وجدى

أزمة الزواج وعلى من تقع تبعتها

قال الله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) ، وقال جل شأنه : (وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

الزواج مبدأ تكوين الأسرة ، ومدار استمرار العمران ، وعليه التعويل فى بقاء الكون ونمو الأمم . عون على نظام الحياة ، باعث للهمم الى العمل ، وسيلة لهناءة المعيشة وجعل الحياة سعيدة . وحسبك منه أنه قاطع لجرثومة الفساد فى الأخلاق ، وعون على صون الشرف والأعراض ، وقاطع لدابر الشرور والخصومات ، والعداوات بين الأسر والجماعات ، بل هو فاتح للتواد والتحاب بين الناس أسراً وأفراداً . فكم من شخص كان فذا فى حياته لا نصير له ولا عضد ، فكان بالمصاهرة عزيز الجانب ، مخطوب المودة محفوظ الغيبة ، كثيرا بالمصاهرة ، عزيزا بما استحدث من أسرة ، وبمن انضم اليه من جماعة . وكم ترى من خامل النفس ميت العزيمة متراخى الهمة ، قد اشتد بالزواج أزره ، وانبعثت من رقدتها همته ، وتحركت نحو العمل عزيمته ، وأصبح فى الحياة عضوا عاملا نشيطا يسعى ويجد ، ويعمل ويكد ، لأن الزواج أشعره بواجبات كان فى غفلة عنها ، وناط به مصالح كان لا صلة بينه وبينها ، فتكسب أمته من نشاطه وحياته العملية أكثر مما تكسبه منه من أبناء وذرية . ولا تسل عن حفظ المرء صحته بالزواج ، سواء من جهة ابتعاده عن الخنا الذى يجر الى شر الأمراض ، ومتعاصى الأدواء ، أم من جهة انتظامه فى معيشته على الوجه الذى أعدله ، فيستكمل نظامه الحيوى الذى عليه مدار بقاء الفرد وبقاء النوع على وجه لا غبار عليه ، ولا خوف منه ولا خطر فيه . فاذا ما رأى بعد

ذلك منزله وقد عمر بالأبناء والبنات ، ودبت فيه روح الحياة الجديدة ، فيصبح ويمسى يشاهد من نعم الله عليه ما يشرح صدره ، ويقر عينه ، ويدخل السرور الى قلبه ، ويزيل الهموم عن صدره ، ويبعث الحياة جديدة فى دمه ، سمت روحه وعات نفسه ، وأصبح شعوره قويا بمعنى الحياة وسموها ، وهنا يجد النشاط الى نفسه أقوم سبيل ، وينفتق فكره عن وسائل الترقية فى الأعمال الحيوية لأمته ، لا لشخص أمته ، بل لأنه يرى فى خدمته لأمته الوسيلة الوحيدة لخدمة أمته له ، وهل الرزق إلا قيم الأعمال التى يقدمها المرء للمجموع ، فيأخذ ثمنها من المجموع على حسب قيمة ما أدى اليه ؟

كل هذا إذا أضفت اليه السلامة من الطغيان ، ووساوس الشيطان ، ومعصية الرحمن ، والوقوع فى الخسران ، وجدت الأمر أعلى من أن يتنازع فيه ، وأكبر من أن يستهان به ، فكيف وقد دعت اليه الطبيعة السليمة ، بل يكاد يكون مغروسا فى بعض الفصائل الحيوانية بالفطرة .

إذا كان الأمر على هذا الوجه من الوضوح والخطورة ، فما لنا نرى أزمة الزواج قد استحكمت حلقاتها ، وشاع بين شبابنا — وبخاصة فى المدن العامرة — الإعراض عن الزواج ، بل التبرم به والتأفف منه لمن تزوج ، والفرار والخوف منه بالنسبة لمن لم يتزوج ؟ إنه لأمر عجب ، ولكن ما من حدث إلاوله سبب . وإنا نريد أن نعرض لشرح تلك الأسباب بحسب ما نستطيع ، وإن كانت أسباب ذلك من التنوع والتفرق والكثرة بحيث تشذ عمن أراد الإحاطة بها . ولعلنا نوفق للإلمام بأهمها وأكثرها شيوعا وأعمها أثرا . ولنحصر الأسباب الآن فى أربعة :

(١) انحطاط الآداب .

(٢) التغالى فى المهور والإسراف فى الجهاز .

(٣) تراخى المودة الزوجية بسبب إعنات النساء للأزواج فى السرف والبذخ وشتى المطالب .

(٤) التطلع لسعة الحياة المادية ومحاولة ضمان ذلك للذرية .

السبب الاول انحطاط الآداب ، ولعل ذلك أهم الاسباب :

من القواعد الاجتماعية المطردة ولوع الأمم المغلوبة بمحاكاة الأمم المتفوقة في عاداتها ومقوماتها مهما كانت قبيحة أو مشوهة أو منكرة . وقد كانت أسباب وعوامل أدت الى أن تكون للأمم الغربية حضارة مادية قوية ذاقوا لذتها ، فعكفوا عليها وتوسعوا فيها ، فجنوا منها ثمارا لا يستهان بها ، واستخرجوا من كنوز الأرض والقوى التى بثها الله فى الكائنات ما شرح قوله تعالى : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » شرحا باهرا ، فكانوا بحق أساتذة أهل العصر الحاضر فى اجتناء الثمار المادية ، واستخدام الأسرار الكونية التى رفهت الحياة وسهلت كثيرا من مستصعباتها ، فبهرت الأمم لما دان لهم من هذه المستكشفات والمخترعات ، حتى نسوا ماجاء عن طريق الشرق من حضارة روحية ومدنية معنوية كان لها أعظم الأثر فى سعادة البشر .

إن الحضارة نوعان ما فى ذلك شك : حضارة روحية قوامها تصفية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وبث الفضيلة ، ونشر التعاطف ، والتودد بين الناس ، والسمو بالنفس الإنسانية الى المستوى العظيم اللائق بها ، وهو إخلاص العبودية لله ، والتحرر عن الرق لكل ما سواه ، وتعديل مزاج قوتيها الشهوية والغضبية ، حتى تسير على قانون العدل فى كل شئونها ، ودفعها الى العلم والحكمة لتحيط بما به سعادتها فى الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الحضارة قد استأثر به الشرق ، مهبط الشرائع ، ومبعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . والنوع الثانى الحضارة المادية وقوامها استنباط الأسرار التى بثها الله فى المادة وهيأها لنفع الانسان فى هذه الحياة : من آثار البخار والكهرباء ، والآلات السريعة الأعمال ، والدقيقة الآثار ، ومايلتحق بها أويتفرع عنها . وأستاذ هذا النوع فى عهدنا الحاضر هو الأمم الغربية من غير منازعة ولا إنكار .

وإن السعادة الكاملة فى هذه الحياة الدنيا ورغد العيش للنوع الإنسانى مرتبط

بهذين السببين بدون شك . ولكن أيهما ألزم لهناء الحياة وسعادة المعيشة ؟ للجواب عن هذا يصح أن نتصور انفكاك أحد السببين عن الآخر ، فلنتصور الأمم فقدت مظاهر تلك المدنية المستحدثة ، فلم تتمتع بالقطار السريع ، ولا بالضوء الكهربائى ولا بالطرب للحاكى (الفونغراف) وحرمت تسجيل صورها بالمصور الشمسى (الفوتغراف) ولم يكن لديها من آلات الجراحة الدقيقة أو أجهزة الأشعة الكاشفة أو الوسائل المدمرة فى الحروب الفاتكة فى النفوس : من غازات خانقة ، ونسافات وطيارات ، وما يتصل بذلك . نتصورها حرمت ذلك كله ، ولكنها ساد بينها الوئام والمحبة والقناعة ، والثقة والتراحم والمعاونة ، سادها الإخلاص لله فى العبادة ، ورضيت بميسور الرزق ، مع ترقية نفسها وأبنائها فى الأخلاق والآداب . ثم نتصور الأمم مرة أخرى قد أخذت بأكبر قسط من هذه الحضارة المادية والمستحدثات التى تمخض عنها هذا الزمان الحاضر ، ولكنها حرمت صفاء النفوس بين أفرادها ، وحرمت شيوع الأمانة فى معاملتها ، واستفاض الكذب فى مخاطبتها ، وغلبت شهواتها واسترسلت فى أحكام غضبها ، ولم يردعها الخوف من ربها ، وكان الحكم فيها لقويها على ضعيفها ، ولم ينتصر لمظلومها من ظالمها ، فأى العهدين أحق بأن يكون عهد سعادة وحياة ناضرة ؟ إنا لا نشك فى أن الكفتين غير متوازيتين ، وأن الأثرين غير متكافئين ، وأن الانسانية قد استفادت من الشرق ما لا غنى لها عنه ، وقد أخذت من الغرب ما فتح عليها باب شر فى الحياة لا منتهى لأمده ولا وصول لحده ، فاندفع بالانغماس فى شهواته والمسارعة لرضا نفسه بشكل لا يبقى على الهناءة .

وإن من عرف حياة المترفين المستغرقين فى تتبع مشتهياتهم ، يجدهم قد وصلوا الى حالة ضاع معها الشعور بلذة ما كانوا ينعمون به ، والتمست أذواقهم طعوما أخرى أشد لذة مما هم فيه ، فإذا أعوزهم ذلك عادوا الى بعض ما كانوا يأنفون منه كأنهم يحاولون تجديد

أذواق ماتت عندهم ، فإذا فاتهم مايؤملون عادوا بحسرة وتنغيص . وخذ لذلك مثلا بنى إسراءيل إذ سئموا المن والسلوى ، والتمسوا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، تعرف حال أولئك المنغمسين ، فقد أصبحت الأطعمة الفاخرة واللذائذ النادرة عندهم مألوفة تافهة ، بل مسئومة مملولة كالمن والسلوى عند بنى إسراءيل . فما يظن لذة عندهم ويتوهم أنهم به منعمون ، هم فى الحقيقة به برمون ، ومنه متململون .

هـذا هو شأن الانغماس فى المشتهيات والاستغراق فى اللذائذ ، يصل بصاحبه الى درجة أن يضعف الإحساس بها حتى يتلاشى وحتى يسأم ويمل . فإذا أضفت الى ذلك أن هذا المنغمس يستولى عليه الضعف فى عزيمته ، وتصبح همته واهنة واهية ، كانت الخسارة فيه أشـد والمصاب به أتم . ولقد قال بعضهم : الترف مرض اختيارى تجلبه النعم ويأخذه من يشاء . فإذا كان هذا قصارى الثمرة المستفادة من حضارة الغرب تجدها قد آلت بنفسها الى أنها شر ونقمة ، بدل أن تكون خيرا ونعمة ، فكيف إذا ضممت اليها الحرمان من تلك الفضائل الروحية ، والمزايا النفسية ، والآداب الشرعية ، التى تنهض بالنفس الى المستوى الرفيع ، وتسمو بها الى أعلى عليين ، وتجذب أطراف الإنسانية بعضها الى بعض حتى تنظمها فى سلك التواد والتراحم ، والتعـاطف والتعاضد ، وتجعلها كأعضاء الجسم الواحد إذا اشتـكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

لقد استطرد بنا الحديث حتى كدنا نبتعد عما سيق الـكلام له ، وعذرنا أن المقارنة بين الشرق والغرب وأيهما أعود على الإنسانية بالخير والمنفعة مما خفى على الـكثير حتى من المفـكرين والمتصدرين للزعامة والزاعمين أنهم هداة قادة ، فقد اغتروا بتلك الآثار الخلابة ، وأسلموا عقولهم وأفـكارهم لأصحابها ، ووقفوا جهودهم على تأييدها والدعاية الى التمسك بأهدابها ، وتقليد أهلها حتى فى أخس المنـكرات وأحط الآداب ، وغفلوا عما يجره ذلك عليهم وعلى أمتهم من الشر الوبيل . فمن ذلك تلك الدعاية الممقوتة التى استفاضت على ألسنة الـكثير من المفـكرين ، وهى الدعاية الى السفور ونبذ الحجاب ، وتحبيذ اختلاط النساء

بالرجال والرجال بالنساء . لقد استعملوا كل قواهم وتعاضدوا من كل جانب لتلك الدعاية ، وتترسوا فيها بأن السفور باب العلم والحجاب قفل ذلك الباب ، وأن الداعي للتمسك بالحجاب حائل بين الأمة وبين العلم النافع . ومن يستطيع أن يرى نفسه قد وقفت حائلا بين الأمة وبين العلم النافع ؟ ومن يقبل على نفسه لقب أنه عدو للعلم وهو ما نصب نفسه للإرشاد إلا بما أوتى من العلم ؟ كان ذلك التذرع بنشر العلم سلاحا حادا استعمل بدهاء ومكر شديدين ، وساعد قوته ميل النفوس وبخاصة نفوس الناشئين الى فك العقال واطراح القيود ، والإيغال فى بيداء الإطلاق ، فاندفعت فئة ممن لا يبالون بمركز أدبى أو عادات متمكنة أو آداب مرعية ، فزجوا بأنفسهم فى التجربة الأولى ، فلما لم يجدوا رادعا تبعتهم فئة أخرى ، ثم كان من المترفين جولة جريئة باسم المدنية التى هم رافعو لوائها ، فتبعهم من يحاول اللحاق بهم حتى انفرط العقد وأصبح السفور عادة غير منكرة .

فهل وقف الأمر عند هذا الحد ، وقنع الشر بما اكتسب من فضيلة الأمة الراسخة ؟ ! إذاً كان الخطب هينا ، وكنا نقول : بعض الشر أهون من بعض . ولكن ما العمل وبذرة الشر سريعة الإنبات ، والنفوس الشهوانية تربة صالحة للغراس ! لقد جر هذا الى إحراز الشباب أمنيته ، فقد تفتح أمامه سبيل الشيطان ، وزين للناس باب آخر هو من السفور بأمتن صلة ، ذلك هو الاختلاط فى الأندية والمجالس والمحافل ثم الانفراد . أو الاجتماع الانفرادى — لا أدرى بماذا أسميه — أقول ثم تأبط الشاب ذراع الفتاة والابتعاد بهاعن الرقباء والعيون ، يرتادون الخلوات ، ويتجولون فى المتنزهات ، ويعمدون فى بعض الأحيان الى دور الملاهى والملاعب ، يتلقيان دروس الغرام ، ومناط الحب والهيام ، ودور القبلات وأصناف المعانقات ، والمغازلات والمغاضبات . كل أولئك دروس تجرىء الهيوب منهما على الاقتحام ، ثم ينصرفان لا ندرى الى أى مأوى ، ولا يدرى أهلهما أين هما ، ولا يجرؤ أن يسألوهما . إنك ستنفر من سماع هذا الكلام ،

وستنكر على الكاتب أن يسطر هذا على صفحات المجلة ، ولكنها حقيقة تجرى بين فئات ، ويخشى إذا استمر الحال أن يتسع خرقها ويتفاقم شرها .

وإذا كان مجرد ذكرها قد جر الى اشمئزاز القارىء الى هذا الحد، فكيف يكون مجراها وفشوها . وهل التعامى عنها سيقتلع جذورها ؟ إذاً لكان الواجب السكوت عليها . ولكن فاض الكيل وعم السيل . هذا شىء موجود فى بلدنا ،وهو أصل كبير من أصول بليتنا فيا نشكو منه من أزمة الزواج ، وهو الموضوع الذى عرضنا للكلام عنه وإن تطوحت بنا السبل وتشعبت علينا المسالك . فلقد كان من نتائج هذا فى المدن أمران: الأول الزهد فى النساء اللاتى كن يحتذبن بالبعد فأصبحن معروضات بالقرب .

ولقد قال القائل :

عرضنا أنفسا عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

والثانى إساءة الظن بهن وقياس الغائب على الشاهد ، فظلمت البريئات ولايزلن يؤلفن الكثرة العظمى فى الأسر ولله الحمد، ولكن رب مستهترة جلبت سوء الظن على ألف مستترة ، فكان هذا السلاح ذا حدين خطرين ، أحدهما الإعراض عما سهل تناوله ، وثانيهما إساءة الظن بمن خفى أمره ، فأعرض الشباب عن الرغبة فى الزواج ، والتمس لنفسه من المعاذير ماإذا حاولت إرجاعه عنه كنت تضرب فى حديد بارد وإنا نرجو القارىء عند وصوله الى هذه النقطة أن يسكت قليلا ، ويفكر فيا يحيط به من معارف وجيران ، ويستعرض ما يقع نظره عليه وما يسمعه من الأفواه ، ويستنبط من نفسه مدى هذا الموقف وخطورته ، ثم يستنجد الحمية الاسلامية والغيرة الدينية والمصلحة القومية لعله يتوفق الى طريق فيه إيقاف هذا السيل الجارف ، ولا أحد أصغر من أن يعين ، ولا أحداً أكبر من أن يعان ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

السبب الثانى التغالى فى المهور والتنافس فى الجهاز :

هـذا سبب له دخل فى أزمة الزواج ولـكن الى حـد ما ، فقد يـكون الراغب فى الزواج صادق النية فى تكوين أسرة وتعمير بيت ، ويريد أن يعيش عيشة صالحة ، ويرى ألا سبيل الى العيشة الصالحة إلا الزواج من زوجة صالحة ، فيدور بعينيه يمينا وشمالا يرتاد من يليق به مصاهرته من الأسر التى تناسبه ، فيجد نفسه بين أسرة كريمة ذات حسب وشرف وصيانة وأدب ،فيرغب فى الاتصال بها ويعمد اليها يخطب مودتها ، فيجدها قداعتمدت بمركزها ، واعتزت بحسبها وأدبها وحيائها بين الأسر المستهترة ، وعفافها بين الفئات الخليعة وثروتها بين أقوام فقيرة ، وهكذا من المميزات الصحيحة المعتد بها ، والخاطب يؤمن على ذلك ويغتبط به ، ولـكن يروعه المفاجأة بتقدير ثمن ذلك كله ، وإذا به ممـا ينوء بالعصبة أولى القوة ، فما بالك بالفرد الناشئ وهو على أبواب الحياة العملية ، فإذا ما تبرم واستعظمه قيل له : إنا سنستحضر كيت وكيت : الأثاث والرياش وما يتعلق به ، فاذا قال : كل هـذا لا حاجة لى به بل سيرهقنى ويكلفنى ما لا طاقة لى به ، قيل له : وهل تنقص عن كريمة فلان وزوجة فلان أو عن عمتها أو أختها ؟ وهكذا فإما أن يقبل وهو مالا يستطيعه ، وإما أن ينصرف بنية أن يتروى وهو ما يكون غالبا ، وقلما يكون له بعد ذلك عودة . فإذا اتجهت نفسه الى من لا يغالى فى المهر وجد من المنفرات فى الآداب والعوائد مالا يحتمل ؛ فاذا ما استشار أحد أصدقائه للخروج من هذا المأزق وحل هذه العقدة ، كان أقرب جواب له: مالك وللزواج أما أنت عاقل ! ألم تر ألم تسمع ! ويأخذ يقص عليه من أنباء الزيجات السيئة مايحل عزيمته ويحول دفة اتجاهه ، ومايدريك فلعله يقيض له من قرناء السوء من يزين له أسوء الأعمال، فيرتكس فى شر الأوحال . ثم تبقى المخطوبة منتظرة مترقبة ، فربما طال عليها الأمد ، فلا ندرى أتصبح عانسا ترضى بالقليل ، أم تمسى بائسة من الحليل والخليل .

هـذا سبب من الأسباب يساعد فى كثير من الأحوال على تفاقم ذلك الشر ، وإن كان أصله من عدم التبصر لا من نية السوء ، وهو وإن لم يصل الى ما قبله فله دخل لا يستهان به .

السبب الثالث :

إعنات الزوجات أزواجهن فى باهظ المطالب من ملابس غالية الثمن لا يقصد بها إلا التبرج عند الخروج من المنازل ، ومن أدوات التجمل التى قلما يكون للزوج نصيب منها ، ومن طموح الى ارتياد دور الملاهى على مختلف أنواعها أو المتنزهات العامة أو الخاصة . يضاف الى ذلك عند بعض الأقوام مصاريف حفلات استقبال أسبوعية أو شهرية بلا داع ولا مناسبة مما يرهق ويضيق الصدر ، فاذا ما تهاون الرجل فى أداء تلك المطالب الفارغة ، ثار بينهما نزاع ينغص الحياة ، ويقبض الصدر ، ويجعل المعيشة تعيسة متعبة .

يجرى هذا للرجل فيشكوه لصديقه ، وهذا ينقله عنه متفكها متعجبا ، فيزيد الحديث بمستملحات تترد على الألسنة حتى تعم دائرة الأصدقاء ، فتشوه الحياة الزوجية فى نظر الجميع ، حتى يعد المقدم عليها مجازفا بهناءته وسعادته ، فتكون النتيجة تقوية فكرة الامتناع عن الزواج والحذر منه ، والخوف الشديد من الوقوع فيه .

السبب الرابع :

هو يقتصر على فئة يزعمون أنفسهم من المفكرين تفكيرا عميقا وبعيدا ، يرون أن الحياة قد كثرت مطالبها واشتد الزحام فى نيلها ، فلا يأمن إذا ما تزوج أن يعقب أبناء وبنات يعرضهم ويعرضهن لهذا المعترك القاسى ، وليس لديه من التراث ما يكفى لترفيههم ، فيكون بذلك قد قسا عليهم وزج بهم فيما لا قبل لهم به ، وكأنه يتمثل بقول المعرى متبرما بالحياة ومتاعبها :

هـــذا جناه أبى علـ ـى وما جنيت على أحـــد

بل إنه شبيه بمن وجه إليه النهى فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » فأمثال هؤلاء قد انعكست بصائرهم وعميت عليهم الطرق ، وظنوا أن دولاب الزمان فى أيدى العباد ، وأن تقديرهم وتدبيرهم هـو الذى يحول اتجاه الفلك ويقدر الأرزاق والأعمار . فلبئس ما سولت لهم أنفسهم وما أوقعتهم عمايتهم وجهالتهم ! فمثل هؤلاء لا يعتد بأفكارهم وإن كانوا يزعمون أنهم فوق مستوى الناس فى أفكارهم . ومن محاسن الصدف أن هؤلاء قليلون ، وعدواهم مأمونة ، وأفكارهم قاصرة عليهم .

والذى يعنينا هـو الأسباب الثلاثة الأول ، فلعل شرحها وتبيانها يلفت أولى النظر السليم الى تلافيه والخلاص منه ، والله يتولى هدانا الى سواء السبيل .

ابراهيم الابالى

فضيلة العقل ورذيلة الحمق

وصف بعض الأدباء العاقل والأحمق فقال :

العاقل إذا والى بذل فى المودة نصره ، وإذا عادى رفع عن الظلم قـدره ، فيسعد مواليه بعقله ، ويعتصم معاديه بعدله ، إن أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر ، وإن أساء اليه مسىء سبب له أسباب العذر ، أومنحه الصفح والعفو .

والأحمق ضال مضل ، إن أونس تكبر ، وإن أوحش تكدر ، وإن استنطق تخلف ، وإن ترك تكلف ، مجالسته مهنة ، ومعاتبته محنة ، ومجاورته تعر ، وموالاته تضر ، ومقاربته عمى ، ومقارنته شقا . وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل ، والأحمق يسىء الى غيره ويظن أنه قد أحسن اليه فيطالبه بالشكر ، ويحسن اليه فيظن أنه قد أساء فيطالبه بالوتر (أى بالثأر) ، فمساوىء الأحمق لاتنقضى ، وعيوبه لاتنتهى ، ولا يقف النظر منها الى غاية إلا لوحت ما وراءها مما هو أدنى منها ، وأردى وأمر وأدهى . فما أكثر العبر لمن نظر ، وأنفعها لمن اعتبر !

وقال الأحنف : كل شىء يحفظ الأحمق إلا من نفسه .

العلاقة بين المخ والذكاء

عرف النـاس من أقدم الأزمان أن المخ آلة التعقل كما أن العين آلة الإبصار ، فحبب اليهم البحث فيه ، ولـكن هذا البحث ما كان يتعدى الدائرة الفلسفية النظرية . فلما تقدم علم التشريح فى العصور الأخيرة كان أول ماعنى به الباحثون فى المخ أن يعرفوا علائق أجزائه المختلفة بالقوى العقلية : من الفـكر ، والذكر ، والتصور ، والحفظ ، والتخيل الخ ، فخيل اليهم أنهم اهتدوا الى تلك المراكز ، فأكثروا من الـكتابة فيها لإحكام ربط التعقل بالمخ ، فـكان ذلك عند المـاديين من الأدلة على أن التعقل ليس بمظهر من مظاهر الروح ، ولـكنه خاصة من خصائص التركيب المخى ، حتى قال زعيمهم (بوخنر) : إن المخ يفرز التعقل كما تفرز الـكلية البول .

ونحن فى هـذه المجالة نريد أن نجمل القـول فى سرد مذاهبهم القديمة والحديثة فى علاقة المخ بالتعقل ، ثم نردفها بما ثبت أخيرا من المشاهدات الجديدة فى المجال التشريحى نفسه ، مما يهدم نظريات المـاديين هدما لا قيام لها بعده ، ويثبت أن التعقل مظهر من مظاهر الروح بأدلة لا تقبل النقض .

فإليك هذه الخلاصة الإجمالية مترجمة عن الألمـانية من مجلة (كوسموس) :

« كان النـاس يرون منذ القـدم أن لـكمية المخ فى الـكائنات الحية علاقة كبيرة بإدراكها، وليس هذا بصحيح ، فان مقدار المخ فى بعض الحيتان قد يربو على خمسة كيلو غرامات ، ومقداره فى النملة لا يتعدى جزءا من خمسة وعشرين ألف جزء من الغرام ، ولايقول أحد بأن الحوت أذكى من النملة بما يبلغ مائة وخمسة وعشرين مليون ضعف .

فاذا اتخذنا معيارا آخر فجعلنا المقارنة بين الـكائنات الحية من ناحية نسبة وزن مخها الى وزن بدنها كاملا ، فان هذه المقارنة تـكون أقرب الى تعيين علاقة المخ بالتعقل .

ففى مملـكة النمل ما يدل على صحة هذا الرأى . وفى هـذا المجال نجد الانسان قـد

حل محله فى التفوق على جميع الكائنات ، فاذا اعتبرنا الانسان والغوريلا وكلب لبونبرجر وغيرها مما تتساوى أوزان أجسادها ، رأينا أن مخ الانسان وهو أذكى الكائنات كافة يزن نحو ١٤٠٠ غرام ، على حين أن مخ الغوريلا لا يزيد وزنه عن ٤٥٠ غراما ، ومخ كلب لبونبرج لا يبلغ أكثر من ١٢٥ غراما .

« وقد شوهد أنه لا عبرة بمقدار المخ إذا كان تركيبه ساذجا ، كما هو شأنه عند الحيوانات القليلة الذكاء . واتضح أنه كلما كان تركيبه دقيقا كان ذكاء صاحبه أكبر .

« وقد رأى المعنيون بأمر هذا البحث بأن القشرة الخارجية من المخ هى مركز القوى العقلية ، وأنها تزداد اتساعا كلما زادت الأحياء ارتقاء . ولما كان حجم الجمجمة محدودا فإن زيادة سطح القشرة المخية يحدث من كثرة التجعدات التى تعترى كتلة المخ . وقد شوهد أن هذه التجعدات تختلف قلة وكثرة باختلاف الحيوانات فى قوة الذكاء .

قال الأستاذ الدكتور فنسمر كاتب هذه المقالة عقب هذا كله :

« على أن كل هذه الملاحظات لا تصلح أن تكون قانونا يمكن تطبيقه فى جميع الأحوال ، فان أكبر مخ عرف حتى الآن كان لرجل أبله ، وإن بعض المفكرين الذين ارتفعوا الى درجة الزعامة فى مختلف العلوم والآداب كانت حجوم مخاخهم دون المتوسط . والعلاقة التى توجد بين مقدار المخ ودرجة الذكاء ما زالت تحت كِسف من الظلام ، يحيط بها الجهل من كل مكان . فلا تصلح الوسائل التى نملكها الآن للتمييز بين مخ رجل عبقرى وآخر من العامة البلهاء . فلنقنع اليوم بما وفقنا اليه من العلم بأن مقدار المخ والأحوال الأخرى التى ذكرناها آنفا تساعدنا من وجه عام على معرفة درجة الذكاء ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها أصلا للقياس والمقارنة فى جميع الحالات الفردية . والرجاء معقود على أن تكشف لنا فى يوم من الأيام أسرار العلاقات الموجودة بين القوى العقلية وتركيب المخ » انتهى .

ونحن نقول : إن هذه الحيرة التى بدأت تلوح فى أفق العلم من هذه الناحية التى كان

يظن الفيز يولو جيون أنهم بلغوا فيها المدى ، هذه الحيرة ليست كل ما فى هذا الباب ، فقد طرأت حوادث فى أثناء الحرب العالمية وبعدها كان لهـا تأثير لا يقف عند حد فى تعديل آراء العلماء فى مسألة المخ وعلاقته بالقوى العقلية . ونحن نأتى على بعض تلك المشاهدات من كتاب الأستاذ الدكتور جوستاف جوليه ، فاليك ما قاله فيه :

شوهدت أحوال تشريحية مرضية أثبتت أن حرمان إنسان من جزء عظيم من المخ فى المناطق التى كان يعتقد أنها رئيسية فيه ، قد لا يبتنى عليه أقل تكدر نفسانى ولا أقل انحطاط فى الشخصية .

فإليك ملخص أشهر هذه الحالات مستقاة من كتاب التاريخ السنوى للعـلوم النفسية الذى صدر فى يناير من سنة ١٩١٧ :

قدم المسيو إدمون بيرييه للمجمع العلمى الفرنسى بجلسته المنعقدة فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٣ ملاحظة للدكتور (ر . روبنسون) تتعلق برجل بقى حيا سنة ، وبغير ألم يذكر ولا أى اضطراب عقلى ظاهر ، على حين أن مخه كان قد استحال الى مثل العجين ، واختلطت أجزاؤه حتى تحول كله الى دمل ذى قيح .

وقد رفع الدكتور هالوبو الى جمعية الجراحة بفرنسا فى يوليو سنة ١٩١٤ تقريرا عن عملية جراحية أجريت فى مستشفى نيكير على شابة وقعت من المترو . فعند فحصها شوهد أن جزءا عظيما من المادة المخية قد استحال الى مثل العجين بكل ما يحتمله هذا اللفظ من معان . فلما حذفت هـذه المواد المتحللة وسحبت قطع القيح العالقة بمـا بقى من مادة المخ ، شفيت المريضة وعادت الى ما كانت عليه من الصحة ، ولم يؤثر بتر جزء عظيم من المخ فى سلامة عقلها ، وكمال شخصيتها ، وقد كان ذلك يعتبر محالا فى نظر العلم قبل اليوم .

وإليك ما نشرته الجرائد البارزية عند ذكرها خبر انعقاد المجمع العلمى الفرنساوى فى ٢٤ مارس سنة ١٩١٧ تحت عنوان : (بترجزء من المخ) قالت :

قدم الدكتور ا . جيبان (guépin) الى المجمع العلمى حوادث يمد بها مسألة بتر بعض المخ بمعلومات جديدة متابعا بذلك تقاريره السابقة من هذا النوع الذى ينقض الآراء التى كانت تدرس عن وظائف المخ . وقد ذكر فيها أن الجندى الذى عملت له العملية فى مخه ووضع تحت العلاج قد خرج من المستشفى معافى ، وهو يزاول الآن وظيفة ببستانى بقرب باريز رغما عن الجزء الكبير الذى بتر من القسم الأيسر من مخه . وقد استمر بعد أن تمت له العملية يستعيد صحته فى حالة طبيعية محضة كأن لم يبتر من ذلك العضو الرئيسى شىء ، مع أنه قد أزيلت منه فيما أزيل الدائرة التى تعتبر مركزا لوظائفه الرئيسية ، فاعتمادا على هـذه المشاهدة وعلى تسع مشاهدات من نوعها قدمت للمجمع العلمى ، استطاع الدكتور جيبان أن يستنتج النتائج الآتية :

أولا — أن بتر جزء من المخ قـد ينجى حياة بعض المجروحين الذين لا تسلم نظريات العلوم المعروفة للآن بإمكان نجاتهم من الموت أو سلامتهم من عاهة مستديمة غير قابلة للشفاء .

ثانيا — أن الذين تعمل لهم عملية البتر لا يشكون من أى نقص حيوى بسبب فقدهم جزءا من مخاخهم .

وقد خطب الدكتور (أجوستان أيتوريشا) رئيس الجمعية الانتروبولوجية أى الخاصة بالمباحث الانسانية فى جلسة ٧ أغسطس سنة ١٩١٦ المنعقدة بمدينة (سوكر) عاصمة بوليفيا بأمريكا الجنوبية ، فقال :

« إليكم مشاهدات أكثر إدهاشا للعقل مما مر اقتطفتها من سجل عيادة الدكتور نيقولا أورتيز بواسطة الدكتور دومنجو جوزمان :

« أولها تتعلق بغلام فى السنة الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من عمره رفع مخه كله فبقى طول المدة التى عاشها بعد هذه العملية حاصلا على جميع خصائصه العقلية .

« وثانيتها تختص برجـل فى الخامسة والأربعين من عمره أصيب بجرح فى مخه

فى مستوى دائرة بروكا مصحوب بكسر فى عظم الجمجمة . فبالكشف عليه اتضح أن حرارته مرتفعة ، وأنه قد نسى الكلام وأصيب بالشلل فى النصف الأيمن من جسمه ، فشرع الأطباء فى معالجته ، وأخذوا يلقنونه الكلمات من جديد ، وكان هو يتابعهم فيما يلقنونه ، وبينما هم يعتنون به إذ فاجأته حمى مرتفعة أودت بحياته . فلما شرحت جثته وجد أن النصف الأيسر من مخه قد استحال الى دمل ضخم . فهنا يمكننا أيضا أن نتساءل كيف كان يفكر هذا الرجل ؟ وأى عضو كان يستخدمه فى التعقل بعد فساد المنطقة المخية التى يقول الفيزيولوجيون إنها محل الإدراك ؟ .

« ثالثة الحوادث صاحبها فلاح عمره ثمانى عشرة سنة ، مرض مدة ثم مات ، فدل تشريح جثته على أنه كان بمخه ثلاثة دمامل يبلغ كل منها حجم اليوسفية . ولكن شوهد رغما عن هذه الدمامل أنه كان يفكر كما يفكر جميع الناس ، حتى إنه طلب ذات يوم أن يسمح له بوقت يقضيه فى بعض مصالحه ، فسمح له به ومات وهو عائد الى المستشفى .

بعد إيراد هذه المشاهدات قال الدكتور أجوستان رئيس جمعية المباحث الانسانية:

« إذاً فلا توجد مراكز خاصة فى المخ بعضها لإدراك المعقولات ، وبعضها للانفعالات ، وغيرها للذكر ، وأخرى للتصور ، فهذه الميتولوجيا (أى الأساطير الخرافية) قد زالت من الوجود » .

ونحن نقول : اذا كانت عقيدة أن المخ وحده مصدر التعقل والتفكير والتصوير الخ قد اعتبرت اليوم من الأساطير الخرافية ، فقد سقطت عقيدة من أكبر عقائد الماديين ، وهى التى مؤداها أن ليس للانسان روح هى مصدر كل هذه الخصائص العقلية ، وإنما مصدرها المخ وحده ، فجاءت هذه المباحث مثبتة أن المخ ليس هو مصدر التعقل والتفكير ، وإنما مصدرهما الروح ، وهى تستخدم فيهما المخ .

وقد ضُرب المذهب المادى فى التعقل ضربات قاتلة أخرى من ناحية حياة الحشرات ،

فقد أثبت العلماء وفي مقدمتهم الأستاذ هكسلي كبير البولوجيين (علماء الحياة) أن أبسط أنواع الحيوانات وهو (الأميب) المركب من مادة حيوية لم تدخل بعد في شكل خلايا ، يأتي أعمالا محيرة للعقل ، حتى إنه ليبتني لنفسه قوقعة جميلة الشكل ومزينة بألوان يأوى اليها ، فإن جرينا على قول الماديين من أن إلهامات الحيوانات نشأت من عقولها فهذا النوع من الحيوان لا مخ له ولا أعصاب ، فمن أين أتاه العقل وقد حير عمله العلماء ؟

وإذا كان مايقوله الماديون في ربط التعقل بالمخ صحيحا ، فكيف نشأت هذه الإلهامات المحيرة للعقل لحيوانات دنيئة لا يتصور أنها تدرك مما تعمله شيئا ؟ وقد رأيت مما نشرناه عن أعمالها هنا أنها لم تر ماعمله أسلافها ولا تعيش بعد إلقاء بيضها حتى ترى ما يحتاج اليه أخلافها ، فإذا كانت هذه الحيوانات — وأنواعها لا تكاد تحصى — تصدر في أعمالها هذه عن عقل ، وجب أن يكون هذا العقل أرقى من العقل الإنساني ، إذ أنه يجعل الحشرة تدرك بدون تعليم مالم تره بعينها ، وتحسب له وللعوارض المحيطة به حسابا دقيقا ، وهذا مالا يمكن أن يقول به عاقل ، فلم يبق إلا القول بأن الخالق الحكيم هو الذي يطبعها على هذه الأعمال فتأتيها مضطرة لا خيرة لها فيها ، ويكون هذا من أدل الأدلة على وجوده سبحانه وتعالى ، وعلى شمول حكمته ورعايته جميع الكائنات ، لا يشذ عنها حتى التي لا يدركها الإنسان بغير المجهر .

ولقد فتنت مسألة ارتباط التعقل بالمخ هذه عقول كثير من المتعلمين ، وجروا فيها على مذهب الماديين ، فاعتبروا المخ مولدا للتعقل لا آلة له ، وإذا صح هذا فلا محل في زعمهم للاعتقاد بوجود روح للانسان ، ويسقط بسقوطها كل ما يختص بها من عالم روحاني وخلود ونعيم وعذاب مقيمين ، ويتلاشى بتلاشي هذه الأمور الناموس الأخلاقي نفسه ، وتحل محله الإباحة البهيمية . فجاءت هذه المكتشفات التشريحية التي ذكرناها مزيلة لشبهة الماديين ، ومعززة لأدلة وجود الروح تأييدا لم يكن منتظرا .

إن وظيفة العلماء أن يبحثوا وينقبوا مستمدين من الله الهـداية والنور ، وليس عليهم أن يتخيلوا الخيالات ثم يتخذوها شبهات يضللون بها بسطاء العقول ، ويصرفونهم عن سواء السبيل ؟

محمد فريد وجدى

من معدن النبوة

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس بسط الأمل مقدم على حلول الأجل ، والمعاد مضمار العمل ، فغتبط بما احتقب به غانم ، ومستيئس لما فاته من عمل نادم .

« أيها الناس إن الطمع فقر ، واليأس غنى ، والقناعة راحة ، والعزلة عبادة ، والعمل كنز ، والدنيا معدن ، وما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء ، وكل الى نفاد وشيك ، وزوال قريب ، فبادروا أنتم فى مهل الأنفاس ، ومدة الاجلاس ، قبل أن يؤخذ بالكظم ، فلا يغنى الندم » انتهى .

نقول : إن هذا الكلام لا تغنى قراءته عن حفظه ، ولا حفظه عن العمل به ، فهو نفحة من روح النبوة يتلقاها من كتبت له السعادة ، ويودعها سويداء قلبه ، وصميم معناه ، ويأخذ نفسه على اتباعها ، رجاء أن يصل الى ما يتطلبه من السعادة الصحيحة . أليس الطمع فى الحقيقة فقرا ، واليأس عما فى أيدى الناس أو فيما لا ينال غنى ، والقناعة بما حصل فى يده بالاجمال فى الطلب غنى ؟ أو ليست العزلة عن أهل الغفلة عبادة ، والعمل لما ينفع كنزا ، والدنيا معدنا يستخرج منه باحسان العمل فيها ما ينفعه غدا ؟ أو ليس كل ما بقى منها بعد حصول المرء على هـذه الصفات العليا يشبه ما مضى منها من الفانيات كما يشبه الماء الماء ؟ أليس كل طيباتها الى زوال لا يبقى منها إلا ما يجنيه صاحبها فى تصيدها من إثم أو عـدوان يبقى عليه وزره ، وتحيق به تبعاته ؟ وليس معنى هذا أن يعف الانسان عن الطيبات المشروعة التى بينها الكتاب وأيدتها السنة ، وإنما المراد ما سفل منها ولا يناسب كرامة الانسانية .

خطبة

افتتاح العام الدراسى

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين فأرسل إلينا الخطبة التى ألقاها لمناسبة افتتاح العام الدراسى للكلية ، فتأخرت عن موعدها لتزاحم المواد ، فنستدرك ذلك بنشرها اليوم لما حوته من الحكم الغوالى والنصح الثمين . قال فضيلته :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى منّ على من أخلص بنعمة التوفيق ، فسلك به سبيل الرشاد ، وفتح له باب الفيض . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير داع الى الله ، أنقذ العالم من وهدة الحيرة وظلمة الجهالة ، الى سماء العلم ونور الهداية . وعلى آله وصحبه الذين نهجوا منهجه ، وتأدبوا بأدبه .

أيها الاخوان :

بعد تحية الاسلام ، لى الشرف أن أعلن لحضراتكم أنه قد مر العام الدراسى الثانى لهذه الكلية على خير ما يرجوه محبو الإصلاح ، وأنه ترك عندى من الغبطة والارتياح فوق ما تركه سابقه ، فقد رسم لحضراتكم فى نفسى من أثر الفضيلة صورة الإعجاب والإكبار . وناهيكم بمعنى تتكون صورته من الخلال الآتية : صدق النية فى العمل ، وقبول النصح فيه ، والوفاء بالعهد ، والمودة الخالصة .

أما صدق النية ، فلأنى قد رأيت منكم الحب الصادق ، والرغبة فى تثقيف الطلبة على قواعد الدين والعلم الصحيح ، اللذين هما حليفان لا يتنافران فى نظر الإنصاف والعقل السليم ،

وأما قبول النصح ، فله عندى من الشواهد ما يحملنى على الاعتراف بأنكم من أسلس العاملين المخلصين .

وأما وفاء العهد ، فحسبكم منه القيام بما قطعتم على أنفسكم من جد ونشاط فى إتمام دراسة ما هو مقرر عليكم ، مع الحرص على الزمن ، وصرف المجهود فى تحقيق المواد بوجه ينطبق على مصلحتى العلم والطلاب ، الأمر الذى كانت معه النتيجة النهائية بدرجة سارة منطبقة على ما بذلتم من همة .

وأما المودة الخالصة ، فلا أدل عليها من اتصالكم القوى فى مظاهر أعمالكم العامة والخاصة .

ولقد كان من ثمرات هذا أن وجدت منكم قدوة حسنة فى نفوس تلاميذكم ، تأسوا بها فساروا سيرتكم ، وأصبحوا بفضل أدبكم أمثلة كاملة لطلاب العلم المجدين ، وصار من الممكن أن نرفع الصوت عاليا بأنه يجب أن يمحى من النفوس ما نقشه فيها أهل الأهواء من أن الأزهر غير قابل للإصلاح ، وأن أهله لايعرفون إلا الجمود .

فإن تولوا فليقولوا لنا ما هو الإصلاح الذى يقصدونه بعد ما وصل طلاب الأزهر الى هذا الحد من الثقافة بسائر العلوم قديمها وحديثها ، وما هى المرونة ، والعلم الصحيح خير مهذب وأعظم هاد ، وقد أخذ منه الأزهريون والحمد لله بقسط لايمكن لغيرهم أن يدعى مثله ؟ وإن شاءوا فلندع أبناءنا وأبناءهم ثم نتحاكم الى الحجة والبرهان .

نحن لا ندعى لأنفسنا الكمال المطلق ، فليس فى إمكان أحد من البشر أن يدعيه ، وما زلنا نطلب من العلم درجة أعلى . كيف والله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً) ويقول : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) وإنما نقول للمتقولين : إن من الظلم رمى البرىء ، ومن الغبن أن يبخس الناس أشياءهم .

ونقول لحضراتكم : يجب ألا يمر هذا دون أن نتخذ لنا منه عبرة ومسلكا للتفاهم مع المخالفين . فعلينا أن نتقارب . ولا سبيل الى التقارب إلا بحسن النية . واعلموا

أن جل التبعة ملق على عاتقنا . فنحن الدعاة . ومن واجب الداعى الى الحق أن يستخلص النفوس اليه بالرفق فى دعوته الحكيمة على مبادئ التآخى الإسلامى .

لهذا أطلب اليكم أن تسلكوا هـذا الطريق ، فتجمعوا قلوب الناس عليكم وتخاطبوهم على قدر عقولهم عملا بالحكمة النبوية الشريفة : (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم) .

هناك حملة قوية ضد الإسـلام من أعدائه . ولا يمكن رد غائلتها إلا بجمع كلمة المسلمين ، وحمل العامة منهم على حب الدين . فاعملوا لهذا المبدأ ، واجنحوا للسلم متوكلين على الله بارئكم ، فما غلب المخلصون فى زمن ما ، بل كانت عاقبتهم النصر والثبات . ولتكن نصرة الحق قبلتكم ، حتى لا يكون لغيره سلطان على نفوسكم ، ولا يجد الباطل دليلا على عملكم ، واستقيموا على الهدى حيث أقامكم الله ، وضاعفوا العناية فى العام المقبل ، فإنه خاتمة الدور الأول لعملكم ، وفيه تظهر نتيجته النهائية ، فعساها تكون سارة إن شاء الله ، كما يرجو المصلحون الذين يودون الخير لدينهم ، وكما هى رغبة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، الذى ما برح يشمل العلم برعايته ، ويكلأ أهل الدين بعطفه ، والذى شرف الأزهر لافتتاح كلياته بتلكم الزيارة الميمونة التى يعدها التاريخ من أكبر آثاره الجليلة فى حوادث العام الماضى . فعسى أن نوفق لرضا الله تعالى ، وتحقيق رغبته السامية .

نسأله تعالى أن يديم جلالته حصنا للإسلام ، ممتعا بتمام الصحة وعزة الملك ، وأن يحفظ له أنجاله الكرام ، لا سيما حضرة صاحب السمو الملكى ولى عهد المملكة المصرية المحبوب « الأمير فاروق » .

عبد المجيد اللبان

الى الذين لا يؤمنون بالغيب

من الناس من يتخيلون أن مظهر استقلال الرأى وحرية التفكير إنما هو فى جحود الانسان كل ما لا يقع تحت حسه ، ولو صح ما يقولونه لوجب أن ينكروا كثيرا من الحقائق العلمية التى لا يمارى فيها إلا الجاهلون . فالى هؤلاء نسوق القول ، فنعرب لهم بعض ما قاله العالم الفلكى المشهور كاميل فلامريون فى كتابه (الموت وغامضته) قال :

« الإنسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور وهى لا تدرى أن تركيبنا الجثمانى الطبيعى لا يعرفنا بحقيقة الواقع من الحوادث الوجودية ، فإن حواسنا تخدعنا عنها ، والتحليل العلمى وحده هو الذى يؤاتى عقولنا عنها ببصيص من النور .

« من أمثلة ذلك أننا لا نشعر بشىء من الحركات الهائلة للكوكب الذى نعيش عليه ، فإنه يظهر لنا ساكنا ذا أوضاع محدودة بالنسبة الى فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ ، ومع هذا فإنه يسبح فى الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر فى الساعة فى تطوافه السنوى حول الشمس ، وهى نفسها تنتقل فى خلال اللانهاية السماوية بحيث إن خط سير الأرض لهذا السبب لا يكون خطا منحنيا مقفلا فقط ، ولكن حلزونيا مفتوحا دائما . وإن كرتنا الهائمة على وجهها فى الفضاء لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت الى اليوم .

« وفى الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة فى كل أربع وعشرين ساعة ، بحيث إن ما نسميه (فوق) فى ساعة من الساعات يكون (تحت) بعد اثنتى عشرة ساعة . وإننا نجرى فى هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ أمتار فى الثانية فى خط عرض باريز ، و ٤٦٥ مترا فى خط الاستواء .

« هذا وكوكبنا الأرضى تلعب به أربع عشرة حركة مختلفة ، فلا نشعر بواحدة

منها حتى التى تمسنا من قرب ، كالمد والجزر للقشرة الأرضية ، وهى ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الأرضية دفعتين فى اليوم تحت أرجلنا الى علو ٣٠ سنتيمترا ، ولا توجد أية علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الأمر مباشرة . ولولا وجود الشواطىء لما أدركنا وجود المد والجزر فى الأقيانوس كذلك .

« وهل نشعر بالهواء الذى نستنشقه أو ندرك له ثقلا ؟ إن سطح جسم الانسان يحمل منه ما وزنه ١٦٠٠٠ كيلو غرام معادلا بمثله من الضغط الداخلى ، وما كان أحد يتخيل أن الهواء ثقيل قبل (غاليليه) (وباسكال) (وتورسلى) هذا ما يشهدنا إياه العلم ، ولكن الطبيعة لا تشعرنا به .

«وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . فالكهرباء تلعب فيه دورا لاينقطع ، ولكننا لا نشعر بها إلا وقت الأعاصير ، أى وقت اختلال التوازن بشدة .

« والشمس تبعث لنا على وجه الدوام بإشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٥٠ مليون كيلو متر على الإبرة المغطسة مما لاتشعر به مشاعرنا ، ولكن توجد أجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات .

« وأعيننا لا ندرك ما نسميه نورا إلا بوساطة ذبذبات الأثير المحصورة بين ٣٨٠ تريليون ذبذبة فى الثانية لونها أحمر متطرف ، وبين ٧٦٠ تريليون ذبذبة لونها بنفسجى متطرف ، والذبذبات البطيئة للأشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيما دون ٣٨٠ تريليون موجودة ، وعاملة فى الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيما فوق الـ ٧٦٠ تريليون ذبذبة للأشعة الحرارية البنفسجية المعتمة ، ومع ذلك فهى غير مرئية لشبكية أعيننا .

« وأذننا لا تدرك ما نسميه (أصواتا) إلا ابتداء من الذبذبة الثانية والثلاثين من الأثير فى الثانية للأصوات التى نسميها شديدة حتى تصل الى ٣٦٠٠٠ ذبذبة فى الثانية للنغمات الحادة .

« وأنفنا لا يشعر بما نسميه (روائح) إلا عن قرب شديد ، وفى عدد محصور منها فقط ، ويختلف شم الحيوانات عن شم الانسان .

« وغير هذا فان الواقع أنه لا يوجد فى الطبيعة خارج حواسنا لا نور ولا صوت ولا رائحة . فنحن الذين وضعنا هذه الكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا ، فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة ، ويوجد فى الفضاء فى وسط الليل من النور بقدر ما يوجد منه فى وقت الظهيرة . أعنى بهذا أنه توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الأثيرية تخترق هذه اللانهاية السماوية ، ولكننا لا نتأثر بها ، فلا نراها لعدم انعكاسها علينا . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة ، وليس هو بذى جابة إلا بالنسبة لعصبنا السمعى . والروائح تحدث من جزئيات سابحة فى الهواء تؤثر على عصبنا الشمى .

« فهذا مبلغ ما تصل اليه قدرة حواسنا الثلاث التى تصلنا بالعالم الخارجى .

« وأما الحاستان الأخريان : الذوق واللمس ، فلا تتأثران إلا بالملامسة . وهذا شىء قليل ، وهو فى كل الأحوال لا يؤاتينا بشىء من العلم بحقيقة الواقع ، فإنه يوجد حولنا من الذبذبات والحركات الأثيرية أو الهوائية ، ومن القوى والأشياء غير المرئية ما لا نراه ولا نحس به . هذه حقيقة علمية مطلقة ، وبديهة عقلية لا يمكن النزاع فيها .

« فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حية لا ترى ولا تلمس ولا تستطيع حواسنا أن تصلنا بها . . . .

« فإذا تقرر وثبت بالدليل أن أعضاءنا الإدراكية لا تكشف لنا كل ما هو موجود ، وأنها قد تعطينا إدراكات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا (لا تنس حركات الأرض وثقل الهواء والإشعاعات والكهرباء والمغناطيس) قلنا إذا تقرر ما ذكرناه فلسنا نكون على شىء من التثبت إن ظننا أن ما نراه هو كل الحقيقة ، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك .

« قلنا إن كائنات حية يجوز أن تكون موجودة حولنا ، فمن الذى كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها ؟ فها هى تتكاثر حولنا بالمليارات ، والدور الذى تلعبه فى حياة جميع الأجسام من الخطورة بمكان .

« فالمظاهر لا تكشف لنا الواقع ، ولا يوجد إلا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هى فكرنا ، والموجود الذى لا يمكن النزاع فيه فى الإنسان هو عقله » .

ونحن نقول : ضع هذا الكلام الصادر من صميم العلم أمامك ، ثم تأمل فى أقوال الحمق الذين يتوهمون أنهم نالوا الدرجات العلى من الثقافة لمجرد قولهم : نحن إنما نتبع ما تقدمه لنا الطبيعة ، فلا نعتقد إلا بما نحس بوجوده بإحدى مشاعرنا . وإذا صح لهم مايدعون كان عليهم أن ينكروا غالب مقررات العلوم الطبيعية التى يشيدون بذكرها ، ويفخرون بالانتماء اليها . فأين هم من هذه الموجودات التى ثبت وجودها لأهل العلم ولا يمكن الاهتداء اليها بحاسة من الحواس الخمس ؟ .

إن ما ظهر الى الآن من حوادث الكون لا يمكن أن يقارن بما خفى منها « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وفيما ثبت وجوده اليوم بالدلائل القاطعة ما لا يمكن رؤيته مطلقا ، لقصور حواسنا عن التأثر به ، وقد اهتدى اليه العلماء اتفاقا ، فكتشف أكبر القوى العالمية وهى الكهرباء التى ننعم اليوم بآثارها فى أهم مرافقنا ، لم يوفق الى اكتشافها إلا عرضا وبغير قصد . وذلك أن أحد مساعدى العالم (جالفانى) الإيطالى المتوفى سنة (١٧٩٨) شاهد اضطرابا فى عضلات ضفدعة قتلت حديثا ، فأخبر بذلك أستاذه ، فأتى بضفادع وقتلها ثم علقها على قضبان من النحاس ، فشاهد حدوث اضطرابات فى أعضائها كلما مست بقطع من الحديد ، فكان ذلك سببا فى اكتشافه الكهرباء الكائنة فى الأجساد . فلما نبغ العالم الطبيعى (فولتا) مواطنه المتوفى سنة (١٨٢٩) تابع أبحاث أستاذه فى الكهرباء ، فتوصل الى اكتشاف العمود الكهربائى الذى أمكن به توليد القوة الكهربائية واستخدامها فى المنافع الإنسانية على الوجه المشاهد اليوم .

أعلمت كيف قابل الناس مباحث الأستاذ جالفانى فى العصر الذى كان يعيش فيه ؟ قابلوها بالاستهزاء والسخر وسموه بسبب تجاربه فى الضفادع برقص الضفادع . فكان جوابه لهم أن قال : « اسخروا منى ما شئتم فهذا لا يمنع أنى على وشك اكتشاف أكبر القوى الطبيعية » .

ولو أصر الإنسان على القول بأنه لا يسلم إلا بما يرى لظل الى اليوم يقول بأن الشمس هى التى تدور حول الأرض ، فانه يرى ذلك رأى العين ، والواقع أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . فانظر الى أى حد يخطىء الحس فى تقدير أكبر الحركات المرئية وأشيعها ؟ وإذا صدق هـذا فى المرئيات أفلا يكون أولى أن يصدق فيما دونها من الحقائق الكونية ؟

قبل أن يكتشف العلم ظاهرة الانكسار فى الأشعة الضوئية عند ما تمر فى مناطق مختلفة الكثافة ، كان الناس يعتقدون أنهم متى رأوا قرن الشمس بارزا من الأفق ، حكموا حكما قاطعا بأنها قد ظهرت لنا ، والحقيقة أننا نرى الشمس قبل أن تبرز من وراء حجابها بسبب انكسار أشعتها فى الهواء وهى تخترق طبقاته المحيطة بالأرض ، فان شعاعها لهذه العلة يصل الى أبصارنا قبل أن تبرز الشمس للعيان بدقائق معدودة .

وظاهرة الانكسار الشعاعى هذه نستطيع أن نثبتها لكل إنسان بتجربة بسيطة ، وذلك بأن يضع ملعقة فى كوب مملوء بالماء ، فيرى أن الملعقة التى عهده بها مستقيمة قد ظهرت معوجة . والسبب فى ذلك هو ما ذكرناه من أن الأشعة التى برزت من أجزائها المغموسة فى الماء قد كابدت انكسارا بدخولها فى الهواء لاختلاف كثافتيهما ، فتظهر الملعقة معوجة على خلاف حقيقتها .

ثم إن حواسنا هذه التى نعول على أحكامها كل التعويل تضللنا فى أكثر ما تصلنا به من المحسوسات . فقوة الإبصار ، وهى أكبر القوى التى نعتمد عليها ، ترينا الشمس

وهى أكبر من الأرض بنحو مليون وأربعمائة ألف مرة ، قرصا صغيرا سابحا فى الفضاء ، وترينا النجوم التى تفوق حجم الشمس ملايين المرات نقطا لامعة ، وتظهرها ثابتة مستقرة ، وهى تقطع الفضاء بسرعة ألوف الكيلومترات فى الثانية الواحدة .

هـذا فى وقت صحة هـذه الحواس وسلامتها من الأعراض ، أما متى انتابتها بعض الأمراض فإن تضليلاتها لنا لا تقف عند حـد ، فترى العين إذ ذاك الألوان على غـير حقيقتها ، وتتراءى لها أدخنة متكاثفة ، وسمادير محومة أشباه الذباب تحجب عنها المرئيات ، وترى بروقا لامعة وسهاما نارية متطايرة ، ولا يوجد فى الواقع شىء من ذلك ، وتسمع الأذن دويا لا يطاق هـولا كأن آلة بخارية فى حالة ثوران قـد سلطت عليها ، ولا يوجد فى الواقع أثر من ذلك كله . فإذا شكا المصاب به لمن حوله فقد لا يصدقه من لم يكن قد أصيب بمثله . وقد يحسب الفم المريض أن الماء العذب ، بل الشراب المتناهى فى الحـلاوة قد مزج بالعلقم المر . وقس على ذلك بقية الحـواس فى ضروب الأعراض المرضية .

فهذه الحواس لا يجوز أن يوثق بها ثقة عمياء ، ولا أن يوقف مع إحساسها بالأشياء دون أن تعدل بحكم العقل وحقائق العلم . ولست أقول كم فى الغيب من حقيقة ، ولـكنى أقول إن الحقائق الـكبرى كلها محجوبة عنا ، وإن هذه الحواس الخمس التى تشترك معنا فيها العجماوات لا توصلنا اليها إلا بنور من العقل وعلى بصيرة من العـلم . وهـذا هو الذى جرى عليه الإنسان وسيجرى عليه الى أن يبلغ ما قدر له من كمال ؟

محمد فريد وجدى

بعض خصال المؤمن

روى عن النبى صـلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاث خصـال من كن فيه فقـد استكمل الايمان : من اذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، واذا قدر عفـا .

كيف انتشر الاسلام

- ٢ -

دخوله فى أوروبا وآسيا

تابع فى هذا العدد ما سبق لنا نشره من هذا البحث مترجما عن الألمانية من كتاب « الاسلام » للمستشرق الألمانى الاستاذ الدكتور مارتن هارتمان ، قال :

« بدأ الاسلام بظهوره عند البلغاريين المستوطنين حوض نهر الفولجا من أوروبا حوالى سنة ٩٠٠ ميلادية ، حيث اجتاح المغول جميع أنحاء بلادهم الى أن عمّت فتوحاتهم (فى عهد « باطو » وهو حفيد جنكيز خان) الأقليم الواسع فيما بين نهر سير داريا وبحيرة آرال وبحر قزوين وبلاد القوقاز ونهر « دنيبر » .

« ودخل من ملوك الطائفة الذهبية كثير فى الاسلام ، فقويت بهم شوكته ، وزاد سلطانه ، خصوصا أن أحدهم « بركه خان » كانت تربطه وسلاطين المماليك بمصر روابط ودية .

« وقد انتشرت تعاليم الاسلام فى أنحاء سيبيريا وساعد على انتشارها تنقل التجار القادمين من بلاد ما وراء النهر وغسان فى هذه الأنحاء ، وقد نجحت الدعوة الى هذا الدين الى حد بعيد فى منطقة « بارابا » .

« وأما فى أوروبا فكان المسلمون نزلاء ذوى مصالح ، إذا استثنينا اسبانيا وصقلية فى العصور الوسطى .

« وأما فى إفريقية فابتدأ الاسلام بالظهور فى مصر حيث امتدت الفتوحات الاسلامية حتى عمت السواحل الغربية ، ثم امتد جنوبا بمحاذاة نهر النيل حتى وصل قلب القارة الإفريقية . وجاء الاسلام الى بلاد السودان من نواح متعددة من الغرب ، ومن

الشمال الغربي من الجزائر وتونس وطرابلس ، ومن صعيد مصر ، ومن السودان . انتشر الاسلام في جوف القارة الآنفة الذكر الى أن وصل الى المحيط الهندي ، فدانت له جميع القرى فيما بين كوناكرى ولاجوس في نيجيريا ، وإن كان لم يذهب الى أبعد من ذلك كثيرا في الجنوب الغربي . وأما القبائل العديدة من المسلمين الموجودين في مستعمرة الكاب فيرجع عهد إسلامها الى أيام السيادة الهولاندية .

« وأما شرق القارة فكثيرا ما غزاه العرب والفرس من جهة البحر ، وأسسوا الجاليات الإسلامية من مدينة « موجد يشو » حتى مدينة « كاوه » ومنها انتشر الإسلام حتى عم جزائر الزنجبار المجاورة ، وكان معظم المهاجرين يفدون الى هذه النواحي من اليمن ومن عمان . ولم تقتصر الفتوحات الاسلامية من جهة الشرق على هذه النواحي فحسب ، بل إنها كثيرا ما تغلغلت داخل القارة . وكان من مزايا دخول الاسلام وانتشاره في هذه الأقاليم المظلمة أن تحسنت الزراعة ، وأمنت التجارة ، ونظمت طرق النقل ، وخرج الأهلون من ظلمات الجهالة الى نور المعرفة ، فتعلموا القراءة والكتابة . ومن آثار الاسلام الخالدة محاربة المسكرات ، والقضاء على أعمال القسوة ضد الانسان والحيوان ، وأكل لحوم البشر ، وقتل الأطفال والكهول والمرضى ، بعد أن كانت هذه الرذائل متفشية مثل الوباء الخبيث بين الأهالي الوثنيين .

أمر الاسلام بالمعروف والشفقة والمحبة بين عباد الله ، وحث على الصدقة والزكاة ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف ، فكل هذه الأمور وغيرها من الفرائض الدينية جعلت الأهالي من الوجهة الخلقية والاجتماعية في مصاف غيرهم من البشر ، إذ أخرجتهم من عالم الوحشية الى عالم الانسانية المسئولة . وقد عودهم الاسلام النظافة والنظام .

« ولما كان علماء الدين ورافعو لواء الاسلام النازحون الى هذه النواحي من العمال المهرة والمزارعين النشيطين والتجار ذوى الكفايات فيهم ، تقدمت الحياة الاقتصادية من النواحي المختلفة » .

نقول : إن ما ذكره الأستاذ (مارتن هارتمان) من أن الإسلام نقل الذين أخذوا به من حضيض الوحشية الى حالة راقية من الحياة الاجتماعية ، هو ما اعترف به للاسلام جميع الذين شهدوا آثاره على الشعوب الافريقية والأسيوية المنحطة من القسيسين والمبشرين أنفسهم ، فقد أجمعوا على أنه متى مد رواقه على قبيلة وثنية نقلها فجأة من الدركة الساقطة التى كانت عليها ، الى درجة من النظام والرقى تباين بها جميع القبائل المحيطة بها ، ومكنها من السيادة عليها .

والسر فى هذا التطور السريع فى نظرنا ونظر كل من يعرف الاسلام يرجع الى أصوله الكريمة ، وتعاليمه السديدة . فان أول ما يتقاضاه من الذى يريد الدخول فيه أن يطهر قلبه من أدران الشرك ، وأن يسقط من مخيلته تلك الأوهام والضلالات الوثنية التى ورثها عن أسلافه ودان لها بغير روية ، وأن يعترف لله تعالى بالوحدانية ، ولنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة ، وأن يقوم بجميع أركان الاسلام وتعاليمه ، وهى فى الحقيقة طَهور للنفس تجتث منها جميع ماركته الأديان الباطلة عليها مما ينافى العقل ، ويضلل الفكر ، ويكدر صفاء الروح . فتنشط الفطرة الانسانية من عقُلها ، وتفتك ملكاتها السامية من رُبُطها ، فتندفع الانسان بقواها الذاتية الى تغيير موقفه فى الحياة ، وتعديل وجهته فى سلوك جادتها ، وتعين له مثلا أعلى ، وتحثه على بلوغه . ويظهر أثر ذلك كله فى مجموع القبيلة ، فيرى الخارجون عنها انقلابا طرأ عليها يوشك أن يتأدى بها الى غايات من الرقى بعيدة .

ولاغرابة فى هذا كله فإن الاسلام يوجب على أهله الإقلاع عن كل مايفسد كيان الانسانية من الصفات الحيوانية ، كتعاطى المسكرات والمقامرة والفسق ، وقتل الأولاد وإهمال تربيتهم ، واحتقار النساء والشيوخ والضعفاء ، وارتكاب الخسائس والدنايا من جميع الضروب ، ويحث على مكارم الأخلاق ، وعلى طلب الأحسن والأجمل من كل شىء ، وعلى تحرى الحق والصدق فى المعاملات ، وعلى تطلب العلم والحكمة وإكبار

أهلهما ، وعلى استصلاح المعيشة بالوسائل المشروعة ، والترفع عن الظنون والأوهام ، ومجانبة أهل البطالة والعصيان ، والإقبال على الله بالقلب ، منزها إياه عن النقائص ومشابهة المخلوقين ، وعدم تناول ما يعلو طور العقل بالتأويلات والتخيلات الخ .

فهذه الصفات كلها التي هي من أوليات الاسلام تحدث في الشخصية الانسانية تطورا بعيد المدى لا تقف آثاره عند حد . وهو الذي شهد به جميع دعاة الأديان في إفريقيا وآسيا ونشروه في مؤلفاتهم ونشراتهم الدورية ، وأثر عن هذا الدين في كل دور من أدواره .

وليس هذا رأي الدعاة وحدهم ، فقد أصبح يقول به رجال عظماء من أهل العلم مثل (برنارد شو) الفيلسوف الانجليزي ، وقد نشرنا رأيه في مقالة خاصة في هذا العدد ، فإنه يرى أن أوروبا ستضطر أن تأخذ بالاسلام في نحو قرنين من الزمان ، لتستشفي به من أدوائها الاجتماعية التي كادت تودي بمدنيتها . فهذه الآراء ليست ملقاة جزافا ، ولكنها ثمرة تفكير طويل ، وروية متزنة . وهي من مثل برنارد شو أوقع في النفس ، وأفعل في الجماعات ، فان الرجل يشتغل بالبحث في الشئون النفسية والأمور الاجتماعية ، فهو خبير بأدواء الأخلاق ودوائها ، وبطب النفوس وعلاجها .

وإن هذه الحقائق التي بدأت تتجلى في حلة من علم القرن العشرين سيرن صداها في أرجاء العالم ، وستعم شعوبه قاطبة في وقت قريب ، وإذ ذاك تكتسب الدعوة الى الاسلام قوة على قوتها ، فيصبح انتشاره بين الأمم الغربية أمرا لا مرد له ، والله غالب على أمره .

فضيلة الاستشارة

قال النبي صلى الله عليه وسلم : المشورة حصن من الندامة ، وأمان من الملامة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بركة ، لا يضل معهما رأي ، ولا يفقد معهما حزم .

عجائب المخلوقات

عادة الاسترقاق عند النمل

كان الناس يظنون أن الاسترقاق عادة بشرية محضة ، ليس فى العالم الحيوانى ما يشبهها ، ولكن علماء الحيوان أثبتوا أن عادة الاسترقاق موجودة فى النمل قبل أن يوجد الانسان على الأرض بآماد طويلة .

وذلك أن بعض أجناس النمل ألهمت أن تقوم على نظام اجتماعى مقرر . وقد قسمت جماعتهم الى قسمين : العملة والمحاربين ، فالأولون أصغر أجسادا وأقل قوة من المحاربين الذين قد وكل إليهم مكافحة الأعداء والدفاع عن الحوزة .

من الأجناس التى تمارس الاسترقاق ، النمل المسمى روفسنا ، وآخر يسمى روفا وغيرهما . وهو يعمد الى الاسترقاق باختطاف أبناء النمل الأسود ، فيشن لذلك عليها من الغارات ما لا يكاد يتصور . فقد نقل الأساتذة هور وكروبى وسبنسر ولوردافبرى وغيرهم أنهم شاهدوا هذه المعارك ورأوا أن النمل ينقل قتلاه وجرحاه من ميدان القتال فى أثناء حصوله ، الى أمكنة هادئة وراء صفوف المحاربين .

أما ماتستحوذ عليه هذه الأجناس من نابتة العدو فتكلفها بجميع ضروب الخدم ، فتراها تشتغل طوال نهارها فى جمع الذخيرة وتربية الصغار . ولا شىء أعجب من مشاهدة هذا الرقيق من النمل يؤدى عمله بكل أمانة وصدق .

ولما تولد نملة لإحدى ساداتها ، تراهم يساعدونها فى التخلص من قشرتها ، وقد يكون هذا العمل شاقا فيجتمع له عدة أرقاء ليتساعدوا على القيام به .

قد يفرط بعض أجناس هذا النمل فى الاعتماد على أرقائهم فيصبح فى غاية الكسل إذ يترك جميع الأعمال ليقوم بها أسراه ، ويبالغ فى الاعتماد عليها الى حد أنه يكسل عن المشى ، فيكلف الأرقاء أن تحمله على ظهورها ، كما هو حال النمل المسمى (بوليير جوس روفيسنس) .

The system of classes has existed from the very begining of Islam which presents a perfect social system from all standpoints.

« إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

« Verily this Koran guideth unto the most upright way ».

(*Baidawy's Commentary*).

of justice, equality and fraternity, these satanic conceptions will be effaced from the human mind and men will live in brotherly co-operation bound together with the purest of moral bonds and interests. The field of productive work will be thrown wide open for the benefit of all men alike unhampered by the spirit of the vain pride of old. Discord will give place to concord and the destructive wars and fierce rivalry which have prevailed will for ever cease.

Yes indeed, this may be a far-off hope but it will no doubt come to pass. The trials and ordeals which the world is undergoing to-day are fast paving the way for the materialisation of that hope. It is then that the meaning of the Lord's saying will be fully realised:

« أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

« Do the unbelievers seek a religion other than Allah's and to Him had everyone in heavens and on earth submitted in obedience or by force and unto Him shall they return ? »

(Baidawy's Commentary).

We must need add to this that Islam, though it proclaimed the universal brotherhood and equality of mankind, recognises the necessity of classes in the social structure of the nation so that the edifice of society may be founded on a solid and concrete basis and no disorder may find a way to upset it.

The only condition stipulated by Islam in the constitution of those classes is that they should be constituted according to the moral and scientific attainments in pursuance with the law of assignation of work only to those who are better fitted to discharge it in the most satisfactory manner.

nalities, including a number of slaves with the sole exception of Al-Nakhahy who was an Arab. Al-Hassan Al-Bisry, chief of traditionists, was a Persian. It also so happened that the first Imam, Abu Hanifa Al-Nuaman Ibn Thabet, was a Persian and he was called the "Great Imam." Many of the compilers of authentic tradition are also of different nationalities as Al-Bukhary, Muslim, Ahmed, Al-Baihaqy, Al-Termizy, Al-Darketny and Ibn Maja. The fact of their being foreigners did not incite the least hatred against them or stop people from quoting them as authorities on the subject.

The same thing applies to the older and great school of commentators on the Koran as Al-Tabary, Al-Zamakhshary, Al-Razy and Al-Niasaboury.

Prominent men of learning who came after the Imams were also of different nationalities. Al-Bakillany, Al-Asfarainy, Abu Hamed Al-Ghazaly who was called "Hujatul-Islam" (Authority of Islam), Al-Ragheb, Al-Asfahany and many others hailed from different parts of the earth.

Nor were the philologists as Abu Obeida, Al-Feyrouzabady and Al-Jowhary or the grammarians who established its principles as Al-Khalil Ibn Ahmed, Sebaweih, Naftaweih, Ibn Khalaweih and Ibn Fares or the great poets and men of letters as Bashar Ibn Burd, Abu Nowas, Marwan Ibn Abu Hafsa, Mihiar Al-Dailamy etc., excepted. They were all, as their names indicate, of different nationalities.

This universal tendency with which the older society of Islam was characterised is a miniature of the future state of Islam when it becomes universally known and is adopted—after the study of its principles in the light of science—as the religion of mankind at large.

Indeed the greatest obstacle which stands in the way of agreement between men and deprive them of the blessing of general co-operation is the spirit of nationalism which induces its adherents to believe themselves the greatest nation on earth and that Providence has endowed them with peculiar advantages which render them masters over the whole world. Nay some of them go even further and deem themselves the chosen people of the Creator Himself and regard all other people as inferior to them. Little wonder therefore that nations strive their utmost for the destruction and downfall of one another and thus deliberately change the face of the earth into huge battle-fields in which the most barbaric atrocities are perpetrated.

But the day will come when, by the inculcation of the Moslem spirit

far, no merit is there to a white woman's son over a black woman's son save by righteousness or a good deed." Abu Zarr, thereupon put his cheek to the dust and asked the blackman to trample on his face as a token of contrition and deep remorse for what he had done.

The Prophet (on whom be peace) had insisted on the practice of this noble principle on various occasions. One of his famous sayings in this connection runs: "Allah hath delivered you from the curse of the days of ignorance (pre-Islamic days) and its pride in ancestry. No merit is there for an Arab over a foreigner nor a white man over a black man save by righteousness or a good deed."

Moslems have practiced this noble tradition after the Holy Prophet (on whom be peace). They made no distinction in the treatment of people according to their birth or colour. The sole criterion of distinction was the intrinsic value and moral attainments of the individual. Some slaves and bondmen, even people of unknown ancestry have attained to the very summit of distinction and were accorded the highest honours despite their so-called lowly origin.

When Omar was on his death bed he nominated six men, bade the people to elect one of them to be Caliph and said: "By Allah had Salem the slave of Abu Huzaifa been alive, I need not have recourse to consultation" meaning thereby that he would have given him the Caliphate, and this Salem was a bondsman of Abu Huzaifa! The words of Omar will live for ever in the annals of history as an ideal of the equality of mankind.

When those six men were nominated by Al-Farooq (Omar) for the election, he ordered them not to leave the house in which they met until they have chosen one from among themselves. Meantime he ordered Soheib to lead the people in prayers, a function which was given only to capable men of unimpeachable character and good repute. This Soheib was a Greek slave! To this extent had Moslem society dropped all racial and social distinctions.

One significant point regarding this people, hitherto unprecedented in the world's history, is that its leaders, men of learning and its prominent men in the field of mental activity were of different nationalities. Some of them were even slaves or the sons of slaves, yet this did not prevent them taking a foremost position where their talents and capabilities put them. All the older law-doctors in the Moslem provinces were of different natio-

between him and his being appointed commander-in-chief of the expedition to Transoxiana. The conquest was accomplished by him in the reign of Beni Ommaia and he imposed tribute on China. One day he encountered an Arab and jokingly asked him "Wouldst thou like to have great wealth and position and belong to the tribe of Bahila?"

"No by Allah" was the prompt reply.

"Wouldst thou like to be a commander such as I am and belong to the tribe of Bahila?" asked Muslim.

"No by Allah" the Arab answered unhesitatingly.

"Wouldst thou like to inherit Paradise and belong to Bahila?" said Muslim.

The Arab thought for a while and said "Maybe I would on condition that nobody knows it."

As to their treatment of bondsmen and black slaves, the Arabs meted no better treatment to them than was meted to dumb animals.

When Islam established the principle of universal equality of men this state of affairs was instantly changed. Men were all rendered the same. No one was to ask his fellow-being of which tribe he was or to which nation he belonged. He was to treat him in the same way as he treated his nearest kinsmen. The Prophet (on whom be peace) had striven to render this equality an accomplished fact. Belal (1) was given the governorship of Medina which boasted of many notables and high personages. Osama Ibn Zeid, a bondsman, was given the leadership of an army in which Abu Bekr and Omar, whose noble birth and ancestry are well known, fought under him. Bazan, the Persian, was given the governorship of Yemen, the most fertile of Arab provinces, which was of great importance from the strategic standpoint. When Bazan died, the Prophet (on whom be peace) gave his son Shehr Feyrouz the governorship.

It came to pass that Abu Zarr Al-Ghafary disputed once with a black man in the presence of the Prophet (on whom be peace). Abu Zarr became enraged and he called the black man "son of black woman." The Prophet (on whom be peace) was greatly annoyed and he said "This has gone too

---

(1) Belal: a black slave and attendant of the Prophet.

towards one another, he will readily admit this principle and recognise it as true. Should he again be asked whether their worth and position should solely depend on their moral attainments and not on their belonging to a certain race, colour or class, he can only answer in the affirmative.

These great facts which the civilised world so far fail to appreciate, are considered axiomatic by those who have freed themselves of passion and superstitions and upheld the law of nature in accordance with Islam. They follow Islam impelled by the moral forces inherent in their nature and here lies the secret of Islam's success in implanting those facts in the hearts of its followers. Yet these very same facts could not be made acceptable to a people who have not achieved that mental freedom stipulated by Islam in its first principle no matter how great their worldly knowledge may be.

We may now ask to what extent have these Koranic principles been applied and practiced in Moslem society? As principles, they have been applied to the fullest extent that could be attained by a nation. We give below a few instances to show the universal character of those principles unfolding an ideal society which the most civilised nations have hitherto failed to realise.

A man comes to the Prophet (on whom be peace) to swear allegiance to Islam, and he straightway becomes one of his company. No distinction is made between a Koreishite from the very branch of Hashem or Abdul-Dar and another from Bahila or Salul who were the lowest of the Arab tribes. Nor was any distinction made between him and a Persian, or a Greek whom the pure Arabs regarded as foreigners, or even between him and a bondman or a black slave sold at the market even as animals are sold. All are bound together with one bond, the bond of brotherhood in its fullest meaning of unity and co-operation with no other consideration of conventional or racial distinctions.

This took place in a society where social distinctions reigned supreme so much so that a man was upbraided for becoming a marriage relation to some one whose mother was an Arab and his father a foreigner or the reverse.

But that was not all, the Arabs used to distinguish between the different tribes and assign them different positions. Beni Bahila and Beni Salul were regarded as the lowest of the Arab tribes.

Muslim Ibn Qutaiba was from Beni Bahila yet this did not stand

whom be peace) and his Companions have applied them to the Moslem society and made them a regular practice so much so that any breach thereof was considered an infringement of established law.

We have already pointed out that the Holy Koran has called to universal brotherhood of mankind making no distinction between high or low nor black or white and inculcating that real honour lies not in belonging to this nation or the other nor to this family or that but in the moral and spiritual attainments of man. Islam has not aimed, as all reformers prior to it have aimed, at the establishment of a nation on the principle of race, but it aimed at the establishment of a universal nation in which racial and social distinctions melt away and which constitutes the ideal of what a nation should be when those nationalistic and racial prejudices that separate mankind and induce them to war are exterminated.

One feature wholly arrests the attention in this matter and that is that the Prophet (on whom be peace) had succeeded to apply those great principles to nations which were most unwieldy and superstitious fulfiling thereby a social miracle after which reformers of all generations strive but are unable to materialise in one single nation of the same race much less in a collection of nations of contradictory principles and traditions!

This is one of the immortal phenomena of Islam and if we devote a special chapter to it, it is because that it is well worthy of a whole volume to be written by some prominent authority in social science who has made a study of the psychology of human communities and come to realise the impossibility of such a task.

Sociologists are baffled by the far-reaching effects of this phenomenon and many and diverse were the interpretations they gave to it but it is easy in order to comprehend it, to consider the two great principles on which this Faith is established viz: human nature and pure reason.

By calling men to uphold the law of nature, Islam demands of its folower to relinquish all inherited traditions and superstitions and to face the bare facts of life absolutely free of all imaginary conceptions or traditional prejudices. When this mental evacuation is accomplished, Islam demands of its follower to accept the judgment of reason not that of passion and fancy. The judgment of reason thus established, it is easy to convince him of all that is right and good. Should he be asked whether all people are the children of one common father and mother and whether their colour or race are mere forms that do not prevent their being brotherly and amiable

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

ISLAM

ITS MISSION IN THE WORLD[1]

III

The Ideal of Nation-Building.

It is not of fundamental importance to the intrinsic value of principles that they should attain a high standard of perfection, but a great deal depends on their application and feasibleness otherwise they will be, so to speak, mere scribble on paper. Plato in his Republic and Aristotle in his Politics, have established great principles but they have utterly failed to induce their people to adopt them and these principles remained where they were inside those two books. All through their life and that of the Greek people, practice ran counter to these principles and when the Romans inherited them they did nothing towards their development or application. Not so the principles established by the Holy Koran. The Prophet (on

(1) Translated from Mr. Mohammed Farid Wagdy's editorial in "Nour-El-Islam" Review.